



الكافى

فى

تاريخ مصر القديم والحديث

لمؤلفه
ميخائيل شاروبيم بك
رئيس النيابة العمومية بمحكمة المنصورة الأهلية
والمفتش بنظارة المالية الجليلة
عفى الله عنه

الجزء الثالث

عن الفترة من
١٥١٢ م إلى سنة ١٨٠٠م
٩٢٢ هـ إلى سنة ١٢٢٠ هـ

الناشر
مكتبة مدبولى
٦ ميدان طلعت حرب ـ القاهرة

مكتبة لسان العرب

هذه السلسلة تضم :

MADBOULI BOOKSHOP

مكتبة مدبولى

6 Talat Harb SQ. Tel.: 5756421

٦ ميدان طلعت حرب - القاهرة - ت : ٥٧٥٦٤٢١



الكافى
فى تاريخ مصر القديم والحديث
من سنة 1512 م. إلى سنة 1800م
922 هـ إلى سنة 1220 هـ



الكتاب: الكافي

الكاتب: ميخائيل شاروبيم بك

الناشر: مكتبة مدبولي

ت: ٥٧٥٦٤٢١

الطبعة:

الأولى: ١٨٩٨م ـ ١٣١٥هـ

الثانية: ٢٠٠٤م ـ ١٤٢٥هـ

رقم الإيداع:

مراجعة لغوية: عبد النبي محمد

٤٨/٣ صفحات من تاريخ مصر

الكافى

فى

تاريخ مصر القديم والحديث

لمؤلفه

ميخائيل شاروبيم بك

رئيس النيابة العمومية بمحكمة المنصورة الأهلية

والمفتش بنظارة المالية الجليلة

عفى الله عنه

الجزء الثالث

عن الفترة من

١٥١٢ م إلى سنة ١٨٠٠م

٩٢٢ هـ إلى سنة ١٢٢٠ هـ

الناشر

مكتبة مدبولى

٦ ميدان طلعت حرب ـ القاهرة

المحتويات

﴿تمت﴾

(المقالــة السابعــة)

(فيمن هم الترك وفى نسبهم

وفيمن تفرع عنهم من المماليك والأمــم

إلى ظهور ملوك آل عثمان)

اعلم أن الترك أمة من أقدم الأمم وأعظمها، وقد اجتمعت كلمة أكثر المؤرخين من عـرب وأعجـام على أنهم من ولد يافث بن نوح وأبـوهم ترك هو الذى سمـاه هيرودتس المؤرخ باسم ترجيشاوس وجاء فى التوراة باسم توجرما.

قال ابن الأثيـر: والترك من ولد تيرش أو طيراش بن يافث وقـيل أيضا إن ترك هذا إنما هو من ولد طوج بن أفـريدون ينتهى إلى جومـرت أوكيـومرت ويرجع إلى تيرش بن يافث بن نوح قال: قال ابن خلدون: وينسبهم العرب إلى غامور بن سويل بن يافث وهو غلط لأن غامور مصحف من كومر أو جومر فأبدل العرب الكاف غينا فصارت غامـور وجومر هذا من ولد توجرما وقال مؤرخـو التتر المغول: بل هم من ولد تتر ومغول وهما أخوان من نسل ترك بن يافث وهم لا يقصدون بذلك إلا إعلاء شرف عائلتهم أ. هـ .

وقد ذكر هيرودتس المؤرخ وبلنـيوس وبمبيونيوس ميلا اسم التـرك قديماً وذكروا أيضا فى ومواضع أخر باسم توغريوس فصحـفه الكتاب وأهل النقل إلى أمورغيوس ويقـال إن بلنيوس سـماهـم أيضا ترسى وسـماهم بمبيـونيوس باسم برسى وكـان البزانطيون أى الروم المشـارقة يسمونهم باسم فرس أو انغرد يعـين المجر. قال بعض

الكتـاب: مع أنه لم يكن بين التـرك والفـرس قـرابة ولا بين الفـرس والمجر. قـال العلامة البـستانى صاحب دائرة المعارف مـا محصله: وقد خرجت من جـبال التابى قبائل تركية وتفـرقت فى أنحاء آسية العليا التى هى الآن تركستان فـسماها الصينيون باسم توكو كمـا سمى الفرس بلاد تركستـان باسم توران فكان لفظ ترك أو تورانية اسما جنسـيا للقبائل المتوحشـة وصارت كلمة توران عند جماعـة اليونان بلفظ تيران ومعناها طاغية أو عات أ. هـ .

وقد ورد فى بعض الروايات أن أغورخان بن قـراخان هو الذى أسس بفتوحاته وشرائعـه دولة الترك وشيـد ركن تمدنها وأن أوغورخـان هذا كان معـاصر للخليل إبراهيم عليه السلام وأنه ترك عبادة الأصنام ولاذ إلى عبادة أصح منها ثم ركب على أخيه فقاتله قتالاً دينيا ومازلت الحرب قائمة بينهما زهاء سبعين سنة وهو يقاتل أخاه حتى ظفر به وهزمه شر هزيمة فخضع له حينئذ سائر تركستان وهو القسم الممتد من ارتلاز وسيرام إلى بخارى وخلف أوغورخان هذا ستة بنين فلما مات اقتسموا المملكة بينهم وكان لكل واحد منهم أربعة أولاد فكانوا آباء أربع وعشرين قبيلة تركية فسكن منهم ثلاثة فى تركـستان ولم يلبـثوا أن اكتسـحوا كل البلاد الواقـعة بين جيـحون وسيحون وتقـدموا نحو جنا القلعة والطونة وعاثوا وأفسدوا فـكانوا يلقبون بالمدمرين قال بعض الكتاب: وقد سمى بعضهم هذه الأمة بالتتار أيضا ولكن التتار فرع منهم، وقال آخرون: إن من التـرك أهم فروع العائلة التورانية وآخرون يقـولون إن اسمهم مرادف للتورانية وزعم بعضهم أنهم من الأمـة الإيرانية مع أن المتأخرين تحققوا أن لا اتصال لهم بهذه الأمة ألبتة وكان أول ظهورهم فى آسية الشمالية والوسطى بين رعاة الطونة والتـتر الذين أكـثروا من شن الغـارة على الصينيـين عدة قـرون قبل المـيلاد المسيحى وبعده وفى القرن السادس ظهـرت طائفة منهم أيضا فى آسية وأصلها على ما يقال من البلاد المسماة الآن تركستان فوطئت بساط السلام آونة ثم عادت فجددت حروبها مع أهل الصين شرقا وأهل فارس جنوبا ولما كانوا كلهم أخلاطا مؤلفين من لفيف قبائل مـتباينة فى الأخلاق والعادات ميالة بالطبع إلى الغـزو والغارات جافية متـوحشة لم تـتفق لهم كلمة وانفـصمت عـروة اتحادهم فتـفرقوا فـى تلك الأنحاء الواسعة واسـتوطنوها على ما هم عليه من الخـشونة فكان ذلك داعيا لضـعفهم ولما كانت سنة أربع وأربعين وسبعمائة للميلاد المسيحى استظهرت على مملكتهم أمة منهم يقال لهم الويغـور قال بعض أهل التـحقيق: وهم أول قـبيلة تركيـة استعـملت لغة

مكتتبة وكانوا أولا بوزيين تمجسوا على مذهب زرادشت ثم أسلموا فى القرن التاسع والعاشر، هذا ما كان من أمرهم فى الشرق ، أما ما كان من أمرهم فى الغرب فإنهم فى أواسط القرن التاسع انحطوا وتضعضعوا وسادت عليهم طائفة الفرغيز وهى طائفة منهم، وقيل بل هى من التتر فلما ظهر جنكيز خان الذى كان على يديه انحطاط دولتهم فى آسية الوسطى أيضا وإذلالها صارت من هذا الحين سائر الدول القائمة بتلك الأنحاء وفى جهة العراق وما وراءها أيضا من الممالك الإسلامية تترية بعد أن كانت تركية بيد السلاجقة وغيرهم ومازالوا على هذه الحال إلى موت تيمورلنك فظهروا فى ممالكه واستولوا على أرمينية وما بين النهرين ولبثوا هكذا إلى أواسط القرن السادس عشر للميلاد حتى قام عليهم الصوفية وطردوهم وظهرت فى تلك الأيام الأزبكية، وهى أمة يقال إنها بقايا الويغور كانت نازلة فى جنوب تركستان الصينية تحت جبال تيان شان فاستولت على تركستان الشرقية وما جاورها من المدن والبلدان إلى حدود الفرات ولم يمض عليها قرن أوبعض قرن حتى استظهرت عليها أمة أخرى تركية تعرف بالتركمان. قال أصحاب التاريخ: وليس للترك بقية مهمة الآن إلا الأزبكية والتركمان المقيمون الآن فى مواطنهم القديمة .

واعلم أن أشهر الدول التركية التى ملكت ببلاد الإسلام والروم مما وراء النهر وخراسان هم بنو ساسان وقد ملكوا زهاء مائة وسبعين سنة وكان انقراضهم فى سنة تسعين وثلاثمائة للهجرة وبنو سبكتكين وهم المعرفون بالدولة الغزنوية لاتخاذهم مدينة غزنة قاعدة لمملكتهم وقد ملكوا بلاد السامانية وكانت مدة ملكهم مائة واثنتين وسبعين سنة ثم انقرضوا فى سنة تسع وعشرين وأربعمائة للهجرة، ثم نشأت الدولة السلجوقية فكانت مدة ملكهم مائة وأربعين سنة ابتداؤها من سنة تسع وثمانين وخمسمائة للهجرة وهى أعظم دوله وأوسعها كلمة ثم تفرع منها عدة دول أخرى منها الدولة الخوارزمية التى قام على رأسها خوارزم شاه وهذه قد ملكت ما وراء النهر بعد السلاجقة وكانت مدة ملكها مائة وثمانيا وثلاثين سنة وانتهاؤها سنة ثمان وعشرين وستمائة للهجرة وقد ملك حلب والشام فرع من هذه الدولة أيضا يعرف بدولة تتش بن ألب أرسلان وكان أوّلهم أتسز بن أبق ملك حوالى سنة أربعمائة وثمان وستين ومازالوا إلى أن انقرضوا على يدى تمرتاش بن إيلغازى سنة ست عشرة وخمسمائة ومنهم أيضا بنو أرتق ملوك ماردين وديار بكر وأولهم أرتق بن أكسب ولكنهم لم يلبثوا أن انقرضوا على يد هولاكو سنة سبعين وسبعمائة للهجرة ومنهم

الأتابكية ملوك حلب والشام وأولهم قسيم الدولة آق سنقر مملوك السلطان ملكشاه تولى الملك فى صدر سنة اثنتين وثمانين وستمائة للهجرة ومنهم دولة بنى طغتكين بالشام وأولهم طغتكين أحد رجال تتش بن ألب أرسلان ملك فى القرن الخامس ثم انقرض ملكهم بعد أواسط القرن السادس ومنهم فرع آخر ملك فى بلاد الروم وأولهم قطلمش تولى الملك فى أواسط الخامس ثم انقرضوا بظهور الدولة العثمانية وذلك حوالى سنة تسع وتسعين وستمائة للهجرة أى سنة تسع وتسعين ومائتين وألف ميلادية .

◻◻◻

(المقالة الثامنة)

(فى تأسيس الدولة العثمانية وفى ظهور ملوكها إلى مجئ السلطان سليم إلى ديار مصر واستخلاصها من أيدى المماليك الشراكسة المعروفين بدولة المماليك الثانية)

قد علمت مما تقدم كيف اجتمعت كلمة بعض أصحاب التاريخ على أن ترك الذى هو جد الأتراك هو من ولد يافث بن نوح عليه السلام ثم هم يقولون أيضا بأن أوغز بن قراخان الذى هومن ولد ترك هذا كان ملكا جليل القدر عظيم الشوكة تسلط على بعض البلاد فى أيام الخليل إبراهيم عليه السلام وتصرف فيها فكانت تركستان التى هى توران داخلة تحت سلطانه قالوا: وانقسمت مملكة أوغز هذا بعد موته إلى خانيات منها ثلاثة ويقال لها الأسهم الثلاثة فاختصت بالأوغز الشرقى إلى حدود الصين ثم ثلاثة أخرى ويقال لها الخاطمة ، إحداها خانية الجبال والثانية خانية البحر والثالثة خانية السماء أو خانية القبة الزرقاء ومن هذه الخانية نشأ سبط كابى الذى جاء منه آل عثمان فلما كانت سنة خمسمائة للهجرة أى سنة ست ومائة وألف للميلاد شبت نيران الحروب بين أسباط تلك الخانيات واشتدت وعلا لهيبها فأبادت لفيفهم أو كادت ومزقت من بقى منهم كل ممزق فسار أحد أولاد كابى المذكور إلى ماهان واستوطنها فاجتمع حوله بعض بقايا تلك الأسباط وخضعوا لكلمته ولبث ما شاء الله ثم مات عن عدة بنين منهم كابى ألب وكان عظيما مهيبا ثم مات كابى ألب

المذكور عن ابن اسمه سليمان وكان سليمان هذا مغازيا حسن التدبير مهيبا مطاع الكلمة فلما كان حوالى سنة إحدى وعشرين وستمائة للهجرة أى حوالى الجيل الثالث عشر للميلاد قدم جنكيزخان سلطان المغل فى عسكر جرار ونزل على خراسان وضيق عليها حتى أخضعها فلم يطق سليمان شاه بن كابى ألب المذكور الصبر على ذلك وكان مقيما بماهان كما تقدم فرحل عنها على رأس خمسين ألفا من قومه إلى أرزنجان وخلاط من بلاد الأرمن ولبث مهاجرا سبع سنين حتى طرق السلاجقة الغز خراسان وخوارزم وفتحوها فلما علم بذلك قفل بمن كان معه إلى بلده فبينما هو يجتاز الفرات عند جعير إذ غرق فحزن عليه قومه وبنوا له قبرا يقال إنه باق إلى يومنا هذا يعرف بترك مزارى وخلف سليمان شاه المذكور أربعة بنين وهم سغور زنكى وكونطغدى وأرطغريل ومعناه المستقيم وكوندز فانقسموا مع من كان معهم من القوم بعد دفن سليمان شاه وافترقت كلمتهم فمنهم من شاء العود إلى الوطن ومنهم من فضل الغربة والنزول على بعض الجهات الغربية وهؤلاء قد انضم إليهم الأمير أرطغريل والأمير كوندز وكانوا زهاء أربعمائة عشيرة فيها أربعمائة وأربعة وأربعون فارسا مدججين بالسلاح فساروا فى طريقهم قاصدين الجهات الغربية وبينما هم على هذا الحال إذ رأوا فى طريقهم جيشين يقتتلان قتالا عنيفا وكان أحدهما قليل العدد والعدد وكان هذا الجيش الضعيف للسلطان علاء الدين السلجوقى من ولد ملكشاه بن قلج أرسلان والثانى من المغل الذين هم أعداء للترك فمال الأمير أرطغريل بقومه إلى معاونة جيش السلطان علاء الدين وانضم إليه فاشتد القتال بين الفريقين شدة بالغة ومازالوا يقاتلون حتى دارت الدائرة على المغل وتم النصر للسلاجقة وجاء الخبر بذلك إلى السلطان علاء الدين ففرح واستدعى إليه الأمير أرطغريل وأحسن لقاءه وأدناه من مجلسه وخلع عليه وعلى أخيه كوندز وأنزلهما وقومهما بمراعى نومانية وأرمينية أو بجبال قراجاطاغ عند أنقرة وأخلص أرطغريل فى خدمة السلطان علاءالدين وبالغ فى طاعته وقاتل معه فى حروبه المتتابعة مع الروم والمغل وأبلى فى كل منها بلاء حسنا فأقطعه أيالة عظيمة واقعة بين بلاده وبلاد الروم يقال لها سلطانية فنزل فيها بجماعة ممن لاذوا به وأحسن السيرة فى أهلها فعلت كلمته فلما كان حوالى سنة سبعمائة للهجرة أى سنة سبع وتسعين ومائتين وألف ميلادية مات أرطغريل وقيل بل كانت وفاته حوالى سنة تسع وتسعين وسبعمائة للهجرة أى سنة ست وتسعين وثلثمائة وألف ميلادية بعد أن تغلب على قوطاهية وأخذها من الروم سنة ثمانين وستمائة هجرية أى سنة إحدى وثمانين

ومـائتين وألف مـيلادية، وفـى قول بعض المؤرخـين من المتـقدمـين ومنهم المؤرخ جورجى فرانزس الرومى المولود بمدينة القسطنطينيـة إن أصل الدولة العثمانية آت عن ملوك الروم بالسلالة وملوك الفـرس بالكلالة. قال بعد كلام فلمـا كانت سنة ثلاثين ومائة وألف ميلادية خرج الإمبراطور يوحنا كـونيوس إمبراطور الروم ومعه ابن أخيه أوغسطس المدعو يوحنا أيضا لقتال الملوك السلجوقيين فقاتلهم أياما حتى تغلب على كثير من قلاعهم وحصونهم وأقام على هذا الحال حتى نفدت الذخيرة أو كادت وعز القوت فى تـلك الأصقاع البـاردة ومات أكـثر دواب الحمل والخـيل من قلة العلف فخاف الإمـبراطور شر العاقـبة إذا ظل على هذا الحال وجعل يدبر حـيلة للخلاص ورسم بتوزيع مـا بقى من الخيل على أعظم فرسانه وأشـدّهم بأساً وهم من طوائف الروم والإيطاليان وجعل يجول بين الصفوف وينتقى منهم من يتوسم فيه سمة الفتوة والشجاعة فبينما هو على هذا الحـال إذ رأى بين الصفوف فارسا من الطليان حسن الشكل أعجبـه منظره فنظر إلى ابن أخيه أوغسطس وقـال له: ادفع فرسك إلى هذا الشاب ليمتطيه فاستعظم أوغسطس هذا الأمر فشدّد عليه الإمبراطور فى ذلك فترجل أوغسطس عن فرسـه وهو يتميز غـيظا ودفعه إلى الشاب وسـار من ساعته مغـضبا قاصـدا ملك العجم فلمـا علم ملك العجم بقـدومه ومـا وقع له مع عمـه فرح به وأحسن لقـاءه وقربه إليـه ورفع منزلته فدان أوغـسطس بدين الإسلام فـزوّجه ملك العجم بابنـته وأقطعهـما بلادا كثـيرة وأجزل عطاءهمـا، وكان أوغـسطس هذا شابا جميـلا رقيق الشمائل عـارفا بعلوم اليونان ولغة الـعرب مهذبا طلق الوجـه كريما مقدامـا لين الجانب فلقبـه الفرس بالشلبى وأحبـه الناس كثيرا ومـالوا إليه بقلوبهم فعلت كلمته وطارت شـهرته وعمت مهابته سائر مدن آسـية وولدت له زوجته ولدا فسماه سليمـان وهذبه وعلمه العربية واليونانية وبالغ فى تهذيبـه فترعرع وشب على مكارم الأخلاق وأحسن الطباع فأحبتـه الرعية ومالت إليه فلما مات أبوه تولى مكانه وسار فى قومه سيـرة حسنة وكان ميالا إلى الفتح والجهاد فاسـتولى على الكثير من البلدان وضم إلى مملكتـه كثـيرا من مملكة الروم المجاورة لـبلاده فاتسع نطاق ممـلكته وارتفعت كلمتـه وطار صيته فى الآفاق. قـال: فكان أوغسطس هذا الذى هو يوحنا جدًا للأمير أرطغريل خان الذى هو أبو الأمير عثمان رأس ملوك آل عثمان، وأوهم بعض أهل التـاريخ من المتأخـرين ومنهم أدواردس فوكـوك الذى ترجم تاريخ أبى الفرج المـلطى إلى اللاطينية وجـعله هدية لكرلوس الثانى مـلك الإنكليز عـام ثمان وأربعين وسـتمائة وألف ميـلادية أى عام ثمان وخمـسين وألف هجرية فقـال بعد

كلام، :ولم يتسن لأصحاب التاريخ إلى الآن معرفة شيء حقيقي عن سليمان شاه جد آل عثمان ولا إلى من ينتهي نسبهم وحاصل ما نقلوه من أخباره هو أنه لما تغلب جنكيزخان ملك التتر على أكثر البلاد ودان له أكثر مدن آسية خرج سليمان شاه المذكور حوالى سنة إحدى عشرة وستمائة للهجرة فى نفر من قومه وسار إلى تخت الدولة السلجوقية وكان معه أربعة بنين وهم سنقور زنكى وكدنطغدى وأرطغريل وكوندز فبينما هم يعبرون الفرات إذ غرق سليمان شاه المذكور فافترق بنوه واختلفت كلمتهم فذهب اثنان منهم وهم سنقور زنكى وكدنطغدى ببعض القوم إلى الجهة الجنوبية من الفرات وسار أرطغريل بك وكوندز مع من بقى إلى تخت السلطان علاء الدين السلجوقى صاحب قونية ونزلوا فى جواره فأحلهم محلا رحبا وأقطعهم قرجيطاغ فمازالوا بها حتى مات أرطغريل حوالى سنة سبع وثمانين وستمائة هجرية أى سنة ثمان وثمانين ومائتين وألف ميلادية أهـ.

وقال العلامة ابن خلدون بعد كلام طويل: والظاهرأن ملوك بنى عثمان كانت إلى هذا العصر من أعقاب على بك وعلى بك صهر محمد بك أحد أمراء التركمان من بنى جق أو أقاربه يعنى أعقاب أقاربه قال: ويشهد بذلك اتصال هذه الإمارة فيهم يعنى الإمارة على التركمان مدة هذه المائة سنة قال: فلما اضمحل التتر من بلاد الروم واستقر بنو ارتنا بسيواس وأعمالها غلب هؤلاء التركمان على ماوراء الدروب إلى خليج القسطنطينية ونزل ملكهم مدينة برصا من تلك الناحية وكان يسمى أرخان ابن عثمان جق فاتخذها داراً لملكهم ولم يفارق الخيام إلى القصور وإنما ينزل فى خيامه فى بسيطها وضواحيها إلى أن قال أهـ.

قلت : ومع اجتماع كلمة بعضهم على أن الترك إنما هم من ولد يافث بن نوح عليه السلام واختلاف السواد الأعظم منهم فيمن هو جد آل عثمان الأول فقد عادوا بعد تأويل وتعليل إلى القول بأن سليمان شاه هو رأس هذه العائلة العظيمة التى دوّخت بحروبها وغاراتها المتتابعة ثلاثة أرباع المعمور من الأرض وقلبت تخت الممالك العظيمة وأبادت الكثير من الأمم والشعوب الذين قاموا فى وجهها فاستولت على ممالك الدولة العباسية وعلى بعض مملكة الدولة الغزنوية لآل سبكتكين والدولة السلجوقية فى الروم وفى كرمان والشام ودولة المماليك فى مصر والشام ودولة الأتابكية فى الموصل ثم الفرنجة فى بعض مدن الشام وقارة أوروبا وجزائر العرب وجزء عظيم من قارة أفريقية وجزائر بحر الروم وغيرها مما هو باق بعضه فى حوزتها إلى يومنا هذا وأنه بموت سليمان شاه المذكور ظهرت كلمة ابنه أرطغريل واتسعت

شهـرته ودوّخ أكثر البلدان المجـاورة لولايته الصغـيرة التى أقطعـه إياها علاء الدين ومازال على دأبه من الغزو والجـهاد وتوسيع أرجاء مملكته كل أيام حيـاته حتى مات فى سنة ثمانين وستمائة هجرية أى سنة إحدى وثمانين ومائتين وألف ميلادية فكانت مدة تصـرفه فى هذه الإمـارة زهاء اثنتين وخمـسين سنة بالتـبعيـة لسلاطين قـونية السلجوقيين.

وبموته قام بعـده ولده الأمير عـثمان وكـان يقال له عـثمان جق كـما رواه ابن خلدون فحـذا حذو أبيه فى الغزو والجـهاد ولبث يقاتل الروم ويهـاجم بلادهم حتى استـخلص من أيديهم بلادا كثـيرة ووقعت هيـبته فى قلوبـهم وخافوه فـأرسل إليه سلطان السلجوقـيين منشورا ولواء أبـيض وطبولا إعلانا بإمـارته وولايته على تلك الأصقاع ولقبه بالغازى فعلت من ذلك الحين كلمتـه وكبرت مهابته وأحسن السياسة والتدبيـر ومازال مثـابرا على الغزو والجـهاد وفتح البلدان وتـدويخ المدن حتى أحس بزوال الدولة السلجوقـية ورأى من اختلال أحـوالها وزوال هيبـة القيصرية الرومـية وضعضعة أمورها بسبب الخلاف الواقع فى أمر الدين بين جـماعة المسيحيين ما دفعه إلى طلب الملك ومال بـه إلى جانب الظهور والاسـتبداد بملك السلجـوقيين فـجعل حينئـذ يمهـد الأسبـاب ويأتى على كل أمر منهـا من أقرب الأبواب حـتى قدر الله بانقراض الـدولة السلجوقـية فى سنة تسع وتسـعين وستـمائة هجـرية أى سنة تسع وتسعـين ومائتين وألف ميـلادية واندرست معالمهـا من الأناطولى ولم يبق أحد من سلاطينهـا واستقل كل من كان تحت حـكمها من الأمراء وتقـاسموا البلاد فـاختص الأميـر عثـمان المذكـور بجزء مـن مملكة بروسة وخطب له فى بعض أعـمالهـا ولما استقرت به الإمـارة أحسن السياسة ورتب أمور البلاد على ما فـيه المصلحة ثم تجرد للغزو وفتح المدن والأمصار، وكان شهمـا جليل القدر عارفا بفنون الحروب والقتال ففتح الفتـوحات العظيمة بنفسه وعلى يدى ولده أورخان بك وأخـذ كثيرا من المدن القياصرة فكبرت مملكته واتسـعت أرجاؤها وظهرت وعرفت من ذلك الحين بالدولة العثـمانية ثم نقل تخت مملكتـه هذه إلى مدينة ينى شهـر وأقام بها على أحـسن ما يكون من الصولة والبأس حتى مات فى سنة ست وعشرين وسبعمائة هجرية أى سنة خمس وعشرين وثلثمائة وألف ميلادية وكان كريما عالى الهمة أبىّ النفس جوادا قيل ولذلك لم يتـرك بعد موته شـيئا لا من الأمـوال ولا من النفائس التى جـمعـها فى غزواته وفتـوحاته الكثيرة ولم يوجد عـنده إلا بعض الملبوس ومسبحـة كانت أعز شىء لديه وكانت مدة ملكه خمسا وعشرين سنة وقيل بل سبعا وعشرين.

وقام بالأمر بعده ولده أورخان الغازى تولى السلطنة فى السنة التى مات فيها أبوه سنة ست وعشرين وسبعمائة هجرية أى سنة خمس وعشرين وثلاثمائة وألف ميلادية فأحسن التدبير ونظم الأمور وعدل فى الرعية فاجتمعت القلوب على محبته وولى أخاه علاء الدين الوزارة فقام بها خير قيام وأخذ فى تنظيم الأمور وسن القوانين وإعلاء شأن المملكة وكان الغازى أورخان المذكور محبا للغزو والفتح كأبيه ميالا لتوسيع نطاق المملكة ففتح مدينة بروسة وبالغ فى تحسينها بالمبانى الفاخرة والآثار العجيبة ثم نقل كرسى مملكته إليها ولم تقعده كثرة حروبه عن تنظيم عسكره وترتيبهم على أسلوب جديد بعد أن كانوا فى أيام أبيه أخلاطا من فرسان التركمان وغيرهم فأنشأ وجاق الانكشارية ورتبه وأحسن ترتيبه فكان له عونا على كثرة الفتوح والمغازى وهابه الملوك وبلغت شهرته مبلغا عظيما ولكن عاد أولئك الانكشارية بعد قليل فصاروا أعداء لمن تولى السلطنة فكان السلطان لا يأتى أمرا إلا بإشارتهم ولا يعمل عملا إلا برضا كبارهم فتبدل خيرهم شرا ونفعهم ضرا وكثرتهم وبالا ومازلوا على هذا الحال من التصرف فى معظم الأمور واختصاصهم بالرياسة والسياسة حتى أذلهم السلطان محمد الثانى ومزق شملهم وفرق كلمتهم وشردهم تشريدا ، ولما دانت للسلطان أورخان الأمور عمد إلى غزو بلاد اليونان فجهز عليها جيشا عظيما للغاية وقاتلها ففتح مدنها وبلدانها وأحسن معاملة أهلها فمالت إلى محبته القلوب واجتمعت على طاعته الخواطر وسار فى غزواته يرافقه الأقبال حتى بلغ خليج القسطنطينية وبوغاز كاليبولى وكان الإمبراطورية الرومية فى هذا الحين آخذة فى الانحطاط إلى حضيض الدمار لاسيما بعد أن ضعضعتها الحروب الداخلية التى سببتها فتنة يوحنا كاتا كوزين نائب الإمبواطور يوحنا باليولوغوس ووصيه، وتحرير الخبر بالإيجاز أنه لما كثر عبث كاتا كوزين المذكور بأمور الدولة وأساء التصرف أبغضه الناس بغضا شديدا وهمّ الروم بخلعه فلما آنس منهم ذلك راسل آل عثمان واستمدّهم فأمدوه وقويت عزيمة الترك على التوغل فى وسط أوروبا فغزوا وفتحوا عدة مدن منها وكثيرا من القلاع والحصون واستولوا عليها وتصرفوا فيها وسار الأمير سليمان أكبر أولاد السلطان أورخان فاجتاز بوغاز شنق قلعة فى سنة ستين وسبعمائة هجرية أى نحو سنة تسع وخمسين وثلاثمائة وألف ميلادية وفتح مدينة غاليبولي التى هى مفتاح القسطنطينية ثم اخترمته المنية، فحزن عليه أبوه حزنا عظيما وأفرط فى البكاء والنحيب فمات غما فى السنة التى مات فيه ولده أى سنة اثنتين وستين وسبعمائة هجرية .

فقام بالأمر بعده ولده السلطان مراد الأول وكان شجاعا مهيبا مغازيا فلما استقرت به السلطنة عمد إلى فتح أدرنه ففتحها وسار إلى الصرب والبلغار فأخضعهما وكانت بلاد الأناطولي لم تزل مستقلة فى حكمها تابعة لبعض الأمراء من الترك يتصرفون فى حكمها كما يشاؤون فحاربهم وأخضعهم وأدخلهم تحت طاعته وزوّج ابنه الأمير بايزيد بابنة أمير كرميان تزلفا إلى ولاة آسية الصغرى وتقربا منهم ليتسنى له بذلك ضم بلادهم إلى أملاكه، ففاز بذلك وضم إلى بلاد مقاطعة كرميان وغيرها من مدن آسية الصغرى واستولى على مدينة كوتاهيا وكان أمير كرميان وهبها لابنته يوم زفافها ثم سار بعسكره بعد ذلك للحمل على مقاطعتى مقدونية وبلاد الأرنؤد فأخضع كثيرا من مدنهما واستفحل أمره واتسعت كلمته وتهيب منه جميع الأمراء المجاورين له فنهض أهل الصرب والقلاخ وأهل دلماطيا والمجر والبلغار وتحالفوا على قتاله وإيقافه عند حده وخرجوا فى جيش جرار فركب عليهم وقاتلهم جميعا وهزمهم وشتت شملهم وأبلى فيهم بلاء حسنا وبينما هو يغدو ويروح فى ساحة القتال ويكر بجواده أذ وثب عليه جندى من البلغار كان بين جثث القتلى وطعنه بخنجر فى أحشائه فمات لحينه فتقهقرت عساكره وانكفوا عن القتال. قال بعض أصحاب التاريخ: وهذا القرن هو الدور الأول للدولة العثمانية فإنها فى مدة المائة سنة هذه عظم أمرها وتمكنت وثبتت أركانها وظهرت فى مظهر الدول الكبار بعد أن كانت إمارة صغيرة ولم يتم لها هذا إلا بمحافظة سلاطينها على وصية الغازى عثمان قالوا: وذلك أنه لما حضرته الوفاة دعا إليه ولده أورخان وأوصاه بوصايا ثلاثة فقال له: يا بنى تمسك فى كل أمورك بالشريعة الغراء وشاور فى المهمات أهل الرأى والدهاء ، وأعط كل ذى حق حقه من التكريم والإنعام لاسيما العلماء الأعلام الذين هم دعائم الدين مصداقا لقول صاحب الشريعة خير الناس من ينفع الناس. وتنبه لما هو أعظم من ذلك هو التعظيم لأوامر الله والرأفة بعباد الله واطلب خير النتائج من إعلاء كلمة الله والغزو لوجه الله فإنك خليفتى من بعدى أهـ.

قالوا فكانت هذه الوصية سنة مرعية بين سلاطين آل عثمان يتلقاها الخلف عن السلف والملك لله يؤتيه من يشاء.

ولما مات السلطان مراد الأول قام بالأمر بعده ولده السلطان بايزيد الأول فى السنة التى مات فيها والده وكان بطلا مقداما عارفا بفنون الحرب والقتال وضروب السياسة ميالا إلى الغزو والجهاد فلما استقرت به السلطنة عمد إلى إخضاع ما بقى

من الممالك الصغيرة التى كانت إلى هذا الحين مستقلة فى الأناطولى فدوخها وأخضعها لسلطانه ثم سار فى عسكر جرار إلى أيالات مقدونية والبلغار والروم إيلى ففتحها وأدخلها تحت طاعته فكبر أمره وعظمت هيبته ودانت له الأمور فلما أنس من الأيام النصر تهيأ لفتح القسطنطينية وإخضاع ممالك الفرنجة فزحف بجيش كبير نواحى أوروبا واستولى على مدينة سالونيك وشن الغارة على بلاد المجر وانتصر على جيوش الفرنجة فى موقعة هائلة ثم سار إلى القسطنطينية فحاصرها وكان إمبراطورها يومئذ مانوئيل فخاف وهاله كثرة عساكر السلطان بايزيد فأرسل إلى من جاوزه من الملوك يطلب منهم المدد على قتال الترك فخاف السلطان بايزيد من اتحادهم وخشى عاقبة أمرهم فعقد مع الروم صلحا لعشر سنين وأن يعطوا له فى كل سنة ثلاثين ألف ريال وأن يجعل فى القسطنطينية قاضيا من المسلمين ويبنى فيها مسجدا ثم رحل عن القسطنطينية ولبث قليلا حتى تبين من الفرص أنفعها فعاد إلى حصارها وشدد فى الحصار ولم يراع ميثاقا ولا عهدا وبينما هو يراسل الرمى على أسوارها وحصونها إذ جاءته الأخبار بركوب تيمورلنك بعسكره إلى بلاده وفتح الكثير منها وضمها إلى سلطنة التتار فاضطرب السلطان بايزيد من ذلك واستعظمه جدا ورحل عن القسطنطينية ليدفع تيمور لنك عن بلاده فالتقى الفريقان عند مدينة أنقره واقتتلا قتالا عنيفا يوما كاملا وقد مات فى ذلك اليوم خلق كثير جدا حتى خاضت الخيول فى الدماء ثم انكشفت المعمعة عن نصرة تيمورلنك وهزيمة السلطان بايزيد وسقوطه فى قبضة تيمورلنك فسجنه فى قفص من الحديد ومازال فى سجنه هذا إلى أن مات سنة خمس وثمانمائة هجرية أى نحو سنة إحدى وأربعمائة وألف ميلادية. قال بعض كتاب الأخبار: وكان قد تغلب السلطان بايزيد فى آخر أيامه هوى النفس فتهافت على ما لا يليق من الإسراف والتبذير والاسترسال فى اللهو والخلاعة وغير ذلك من دواعى التأخير فاغتنم تيمورلنك هذه الفرصة وسار على مملكة بايزيد فى سبعمائة ألف مقاتل فقابله السلطان بايزيد وقاتله فوقع فى يده أسيرا وفرح ملوك أوروبا بسقوط السلطان بايزيد فى قبضة تيمورلنك فرحا عظيما وأرسلوا إلى تيمورلنك رسائل التهانى فكان ممن أرسل ذلك شارلس الثالث ملك الفرنسيس فرد عليه تيمورلنك ردًا حسنا جدا وأوصاه خيرا بمن يقدم إلى بلاد الفرنسيس من تجار الفرس كما أنه ضمن لتجار الفرنسيس الذين يقومون على بلاد فارس كمال الراحة والرفاهية.

(مطلب)

(ما جرى بعد موت السلطان بايزيد من الاختلال)

ولما مات السلطان بايزيد كاد يختل نظام الملك إذ قامت الفتنة بين أولاده واستبدّ كل واحد منهم بقسم من مملكة أبيه فتجزأت المملكة إلى عدّة إمارات صغيرة وجرى عليها ماجرى لدولة آل سلجوق وخرجت عن الطاعة فى خلال هذه الفتنة ولايات البلغار والصرب والقلاخ واستمر النزاع بين أولاد السلطان بايزيد زهاء إحدى عشرة سنة وكان أحد أولاد بايزيد المدعو عيسى قد استبدّ بحكم البلاد الواقعة على مقربة من أنقرة وسينوب والبحر الأسود فوثب عليه أخوه محمد وقتله بعد حروب يطول شرحها واستولى على جميع تلك الأصقاع وسار بلا منازع من إخوته إلى آسية الصغرى واستخلص أخاه موسى وكان فى أسر تيمورلنك وسيره فى جيش عظيم إلى قارة أوروبا لقتال أخيه سليمان فلم يقو عليه بل انهزم أمامه وعاد إلى آسية مدحورا ثم أصلح حال جيوشه وعاد بهم مرة ثانية لقتال أخيه سليمان المذكور فالتقى الجمعان واقتتلا قتالا شديدا فقتل سليمان خارج أسوار مدينة أدرنة وتم الظفر للسلطان محمد، وكان آل عثمان لما اشتدّ الخصام بين أولاد السلطان بايزيد وعمت الفتنة واستفحل أمرها اختاروا الأمير سليمان هذا سلطانا عليهم فى مملكة أبيه التى بقارة أوروبا فبايعوه بالسلطنة وولوه أمورهم ولكنه كان ضعيف الرأى سيء التصرف منهمكا فى الملاذ مولعا بالملاهى والفجور خامل الفكر فلم تطل سلطنته حيث مات فى سنة اثنتى عشرة وثمانمائة هجرية أى نحو سنة عشر وأربعمائة وألف ميلادية، ولما تم الظفر لموسى المذكور سار بمن معه من العساكر وركب على بلاد الصرب وعاقب أهلها على خروجهم وتمردهم وقاتل سمسون ملك المجر حيث أنجد أهل الصرب عليه وكاد يظفر به فظهر من هذا الحين نبله وعلت كلمته واتسعت شهرته فداخله الطمع وطمحت نفسه إلى الاستقلال بالملك والخروج عن طاعة أخيه السلطان محمد وأخذ جميع بلاد أبيه التى بقارة أوروبا وسار بعسكره لحصار القسطنطينية فحاصرها وضيق عليها ليفتحها ويجعلها تخت ملكه فأحس السلطان محمد بما وراء ذلك وخشى العاقبة وأتت إليه رسل قيصر الروم تشكو من فعال أخيه موسى وتستنجده فسار إلى القسطنطينية فى جيش عظيم جداً وقاتل أخاه فكانت الحرب بينهما سجالا ثم تقوّى السلطان محمد بعسكره فزحزح الأمير موسى عن القسطنطينية وتحالف

السلطان محمد مع قيصر الروم وأمير الصرب على إذلال الأمير موسى وتمزيق شمل من معه من الجنود فأعملوا الفتنة وبثوا الدسائس بين عسكر الأمير موسى حتى نفرت منه قلوب الجند وخانه كبار القواد ثم ركب عليه السلطان محمد بعسكره وانتصر عليه نصرة عظيمة وفر موسى هاربا فتبعه فارس من فرسان أخيه محمد وقتله واحتز رأسه وأتى به إلى أخيه وذلك سنة ست عشرة وثمانمائة هجرية أى نحو سنة ثلاث عشرة وأربعمائة وألف ميلادية وفى رواية أنه قتل بين يدى أخيه صبرا.

(فصل)

(فى استقلال السلطان محمد الغازى بالملك)

ولما مات الأمير موسى انفرد محمد بالسلطنة على ما بقى من ملك آل عثمان وبايعه الناس كافة فكان هو الخامس من ملوك آل عثمان على المتفق عليه عند أصحاب التاريخ وقد عرف عندهم بالسلطان محمد چلبى الغازى وكان ملكا جليل القدر واسع المعرفة حليما فصفت له الأيام ودانت له الأمور وجاءت إليه رسل ملوك الفرنجة برسائل التهانى والتبريك فأكرمهم وأحسن وفادتهم وأخذ يمهد الأمور ويدبر أحوال المملكة فعقد الصلح مع الأجانب وقوى معهم روابط المودّة والاتحاد وحافظ على محالفة مانوئيل قيصر الروم الذى لولاه لخيف على ملك آل عثمان من الدمار وردّ إليه جميع ما أخذه أسلافه من القلاع والحصون الرومية فمالت إليه الخواطر واجتمعت على محبته القلوب وعلت كلمته وكان عادلا ذا شفقة على الرعية موفقا فى غزواته ونقل كرسى مملكته إلى مدينة أدرنة وأنشأ السفن البحرية وجعل لها جنودا يقاتلون على ظهور تلك السفن وأعاد رونق السلطنة إلى ما كان عليه بعد أن كاد يتولاها الدمار بأسباب غارات تيمورلنك ، وظهر فى أيامه رجل اسمه بدر الدين من كبار علماء زمانه وكان متوليا القضاء فى عسكر الأمير موسى أخى السلطان محمد فلما انهزم عسكر الأمير موسى وتمزق شملهم حكم على بدر الدين القاضى المذكور بملازمة مدينة أزنيك فلبث بها حينا ثم هرب منها واختفى خبره أياما ثم ظهر يدعوإلى مذهبه وهو المساواة بين الناس على اختلاف طبقاتهم فى الأموال والمتاع وعدم التفريق فى ذلك بين الغنى والفقير والمسلم والمسيحى فتبعه خلق عظيم من المسلمين والمسيحيين وكان يقول إن الناس جميعا إخوة لأب واحد وأم واحدة

فذاع خبره وكثرت أحزابه ولبى دعوته القاصى والدانى وخيف على بهجة الدولة العثمانية من الزوال بسبب دعوته فسير إليه السلطان محمد جيشا عظيما ومقدّمه ابن أمير البلغار الذى كان أسلم وتولى العمالة على مدينة سمسون فخرج عليه أحد زعماء مذهب بدر الدين المذكور فى جيش كبير وقاتله وهزم عسكره شر هزيمة وقبض على ابن أمير البلغار وقتله فلما جاء الخبر بذلك إلى السلطان محمد اضطرب واستعظم هذا الأمر جدا وجمع جيشا عظيما وجعل رئيسه الوزير الأول بايزيد فسار بايزيد لقتال ذلك الزعيم فلاقاه على مقربة من أزمير وكان بدر الدين قد سار إلى بلاد مقدونية فاقتتلت عساكر الوزير مع عساكر بدر الدين واشتد القتال بين الفريقين وانكشف عن هزيمة عسكر بدر الدين وسقوط مقدمهم المدعو مصطفى فى قبضة الوزير فأمر بقتله فقتلوه بين يديه وقتلوا عددا كثيرا ممن كانوا معه وسيروا من يقبض على بدر الدين فى بلاد مقدونية فتحرز بدر الدين وكانت بينهم وبينه وقائع كثيرة وحروب يطول شرحها ثم قبض عليه وقتل شنقا فى سنة عشرين وثمانمائة هجرية أى سنة سبع عشرة وأربعمائة وألف ميلاديه بعد استصدار فتوى فى شأن ذلك. قال عمر فى تاريخه ونص الفتوى من أتاكم وأمركم جميعا على رجل يريد أن يشق عصاكم ويفرق جماعتكم فاقتلوه، فسكنت بقتله الفتنة وزالت أسبابها واطمأنت قلوب الناس وبقى السلطان محمد عزيزاً مهيباً محبوباً مطاعاً إلى أن أدركته الوفاة سنة أربع وعشرين وثمانمائة هجرية أى سنة إحدى وعشرين وأربعمائة وألف ميلادية. قال بعض كتاب الأخبار: والسلطان محمد هذا أول من أرسل الهدية إلى أمير مكة قدرا من الذهب فى كل عام للنفقة على فقراء مكة والمدينة وهى التى يطلق عليها اسم الصرة الآن ولكنها لم تكن تبلغ ما بلغته الآن وقال آخران: السلطان سليم الأول هو أول من أرسل الصرة المذكورة سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة هجرية بعد فتح الديار المصرية وإزالة دولة الجراكسة الثانية والقول الأول هو الذى عليه المعوّل.

وبموت السلطان محمد چلبى قام بالأمر بعده (ولده السلطان مراد الثانى) بويع له بالملك سنة أربع وعشرين وثمانمائة هجرية أى نحو سنة إحدى عشرين وأربعمائة وألف ميلادية وعمره يومئذ ثمان عشرة سنة فلما استقرت به السلطنة قام بتدبيرها أحسن قيام ووسع نطاقها وأبرم صلحا مع أمير القرمان وقرر اتفاقا مع ملك المجر على هدنة خمس سنوات وتفرغ لتدويخ من عصى وخرج عن الطاعة من ولايات آسية فلم يتم له ذلك حتى جاءته رسل مانوئيل قيصر الروم فى طلب العهد منه على

أن لا يحارب القيصرية الرومية بوجه ما وأن يسير إلى القسطنطينية اثنين من أولاد السلطان محمد الغازى رهينة على وفاء العهد فإن أبى ذلك أطلق القيصر سراح الأمير مصطفى ابن السلطان بايزيد وكان الأمير مصطفى المذكور قد اختفى خبره ولم يوقف له على أثر بعد واقعة أنقرة التى أسر فيها أبوه السلطان بايزيد الأول ثم ظهر فى أيام السلطان محمد الغازى عقب واقعة بدر الدين الخارجى وطالب أخاه السلطان محمد بالملك وأعانه على ذلك أمير القلاخ تعظيما للفتنة وإضراما لنارها فأغار الأمير مصطفى المذكور على إقليم تساليا من أملاك اليونان فطاردته جنود أخيه السلطان محمد ففر إلى سلانيك وكانت قد عادت إلى مملكة الروم مع غيرها من بعض الأيالات التى أرجعها السلطان محمد إلى قيصر الروم ونزل على عاملها مستجيرا فأجاره وطلبه السلطان محمد فلم يجبه قيصر إلى ذلك ووعد أنه يبقيه عنده ولايفك سراحه مادام السلطان على قيد الحياة فقبل السلطان منه ذلك ورتب لأخيه شيئا فى كل سنة فلبث فى جوار قيصر حتى سير قيصر رسله إلى السلطان مراد فى طلب ذلك العهد فامتنع السلطان مراد من إجابة قيصر إلى ما طلب فسير قيصر الأمير مصطفى المذكور ومعه عشر مراكب حربية فأتى بها وحاصر مدينة جاليبولى وضيق عليها فاستسلمت وامتنعت عليه قلعتها فأحاطها بطائفة من العسكر ليمنع عنها المدد وسار بمن بقى معه يريد أدرنه فسير إليه السلطان مراد جيشا عظيما ومقدمه وزيره بايزيد فلما التقى الجمعان برز الأمير مصطفى أمام صفوف ابن أخيه السلطان مراد ونادى على العسكر وخطب فيهم وقال : إنه هو أولى بالملك وأحق بالسلطنة من ابن أخيه واستنهض العسكر إلى نصرته فلبت الجيوش دعوته وقاموا لنصرته وقبض جماعة منهم على بايزيد وزير السلطان وقتله ثم سار الأمير مصطفى للقاء السلطان وكان السلطان متحصنا مع عسكره عند نهر صغير فلم يقترب الأمير مصطفى من ذلك المكان حتى وقعت الفتنة بين عسكره وخانه بعض قواده وتركه أغلب العسكر فكرّ راجعا إلى جاليبولى ولم يدخلها حتى قبض عليه بعض أتباع السلطان وأتوا به إليه فأمر به فقتلوه شنقا، ولما سكنت الفتنة بموت الأمير مصطفى عمد السلطان مراد إلى الانتقام من قيصر الروم فسار إلى حصار القسطنطينية بجيش جرار وحاصرها وضيق عليها أياما ثم عاد عنها مدحورا لقيام الفتنة وخروج بعض الأيالات عن طاعته ومازال يراقب الفرص حتى مات مانوئيل قيصر وخلفه على سرير الملك يوحنا باليولوغوس فراسل يوحنا المذكور فى دفع مبلغ من المال فى كل عام جزية وأن يسلم إليه جميع البلاد التابعة للقسطنطينية ويستثنى من ذلك

القسطنطينية وضواحيها أو أنه يتأهب لقتاله فقبل يوحنا هذه الشروط وسلم إلى السلطان مراد جميع القلاع والحصون التى كانت إلى هذا الحين فى حيازة الروم على سواحل البحر الأسود وسواحل الروم ايلى ومملكتى مقدونية وتساليا ثم ركب بعد ذلك بعسكره واستخلص أيضا جميع المدن والبلدان التى هى داخل برزخ كورنثوس ومازال يتقدم فى غزواته حتى توغل فى بلاد المورة وضم أكثرها إلى أملاكه، ولما شاع بين ملوك أوروبا خبر فتوحات آل عثمان ومثابرة ملوكهم على الغزو والجهاد خافوا من سقوط القسطنطينية فى قبضة الترك ومن زحفهم على بقية الممالك المسيحية فنهض عند ذلك أوجينيوس البابا وشرع فى عقد محالفة بين ممالك الفرنجة على مقاومة الترك ومنعهم وقام لادسلاس ملك بولونيا والمجر وأخذ على نفسه مقاومة الترك وجيش لذلك جيشا عظيما ومقدمه يوحنا هودياس القائد الشهير وانضم إلى هذا الجيش جمهور من الحربيين والمتطوعة من الفرنسيس والجرمانيين وساروا للقاء الترك فالتقى الفريقان واقتتلا قتالا عنيفا ظفر فيه يوحنا فى معركتين عظيمتين واستظهر على الترك فخشى السلطان مراد شر العاقبة وعمد إلى المصالحة فتقررت القاعدة على أن ينسحب السلطان مراد بمن بقى من جيوشه فانسحب راجعا إلى كرسى مملكته فلما سكنت الفتن وزالت أسباب القلاقل خلع السلطان نفسه عن الملك وتنازل عنه لولده محمد فبايعه الناس وطيروا الخبر بذلك إلى الآفاق ولقبوه بالفاتح واعتكف السلطان مراد عن الناس واعتزلهم والتزم العبادة والتهجد فلما علم لادسلاس صاحب بلونيا والمجر بخبره خالف العهد ونبذ الهدنة ظهريا وتقدم بعساكره لقتال الترك وحبب إلى ملك القرمان شن الغارة عليهم أيضا ليقعوا بين نارين فتقدم عند ذلك كبار الدولة إلى السلطان مراد فى رجوعه إلى منصب السلطنة لرد العدو عن البلاد فعاد إلى المنصب وجيش جيشا عظيما وسار به لقتال الأعداء فالتقى الفريقان عند مدينة وارنه واقتتلا قتالا عنيفا وثبتت جيوش المسيحيين أمام عسكر الترك واشتد القتال شدة بالغة وجرى الدم بين الصفوف مجرى الماء. قال بعض كتاب الأخبار: وكانت العساكر المسيحية قليلة فى هذه الواقعة لانفصال المحاربين من الفرنسيس والألمان عنهم بعد نصرتهم الأولى وكان لادسلاس فى جومة القتال ينادى على العساكر ويحرضهم ويستنهض هممهم ويكر بين المواكب وصفوف الترك كأنه الأسد الضارى حتى أصابه سهم فسقط ميتا وذاع خبر موته بين جنوده ففترت هممهم وتفرق شملهم فهمّ مقدمهم هودياس بجميع شتاتهم والرجوع بهم إلى ساحة القتال فلم يفلح وقد أعمل فيهم الترك القتل بحد السيف فكانت قتلاهم

زهاء عشرة آلاف فى هذه الواقعة الهائلة على ما رواه بعض أصحاب التاريخ وعاد السلطان مراد بعد هذه الواقعة وراية النصر تخفق على رأسه وتنازل عن السلطنة ثانية لولده وعكف على العبادة فلم ترض بذلك جماعة الانكشارية وأبوا إلا عوده إلى المنصب فعاد إليه كارها ثم لم يلبث أن جيش جيشا عظيما وسار به إلى بلاد الارنؤد ليضمها إلى مملكته وكان ممن تولى الحكم على شىء من تلك البلاد بالتوريث أمير اسمه يوحنا كاتريو فلما علم بقدوم السلطان مراد بجيوشه وتحقق أن لا قبل له على رده راسله فى أمر الصلح وعاهده على دفع الجزية فأجابه السلطان إلى ذلك وعاهده وأبقاه على ما بيده من البلاد وأخذ أولاده الأربعة رهينة عنده فاختلط ثلاثة منهم بمماليك السلطان حتى صاروا لا يمتازون عنهم فى شىء والتزم رابعهم وهو أصغرهم واسمه جورج بخدمة باب السلطان وما زال حتى تقدم وارتقى المناصب العالية لشجاعته وبأسه وذكائه ثم أسلم بعد ذلك وتجرد للغزو والجهاد وعرف باسم اسكندر بك فكانت له مواقع هائلة وحروب عظيمة فى خدمة الترك قال بعض كتاب الأخبار: ثم عاد بعد ذلك فندم على ما فرط منه من قتال المسيحيين وارتد إلى دينه وتعصب وصار من أكبر أعداء المسلمين وأشد المبغضين لآل عثمان فحرض الأهالى على الخروج وشق عصا الطاعة فكان من وراء ذلك من الحوادث والخطوب ما لا محل لذكره هنا، وركب أيضا السلطان مراد على قسطنطين صاحب المورة وباقى الأقاليم المتاخمة لتلك البلاد فدوخهم وأخضعهم لملكه ورتب عليهم الجزية وجرت بسبب ذلك حروب هائلة كثيرة بينه وبين الأرنؤد والمجر ومازال يغزو ويفتح البلاد حتى أصابته سكتة فمات فى سنة خمس وخمسين وثمانمائة هجرية أى نحو سنة إحدى وخمسين وأربعمائة وألف ودفن بمدينة بورسه .

فقام بالأمر بعده ولده (السلطان محمد الثانى) بايعه أهل الدولة فى اليوم الذى مات فيه أبوه فكان سابع سلاطين آل عثمان. قال أصحاب التاريخ: وهو من أعظمهم همة وأعلاهم قدرا وكان بطلا مقداما شجاعا قوى الجنان موصوفا بالمغازى والحروب وكان أبوه السلطان مراد قد أوصاه قبل موته أن لا يغمد له سيفا ولا يبطل له جهادًا حتى يفتح مدينة القسطنطينية فجيش جيشا عظيما وأخذ يتأهب لحصارها وكان نظام القيصرية الرومية فى هذا الحين على شفا جرف هار بسبب المنافسات الدينية ولذلك أصبحت القيصرية فى غاية الضعف فزالت هيبتها وانحطت عظمتها فلم يبق للقيصر من السلطنة إلا مجرد الرسوم والعادات البسيطة. قال بعض كتاب الأخبار: وبلغ من خلل أحوال الامبراطورية الرومية وانحطاط قدرها أنه لما وردت

الأخبار إلى القسطنطينيـة بأن السلطان محمد الثانى ابتنى قلعة بوغـاز كسن وكان قد ابتناها لغرض سد خليج القسطنطينية على سفن الإمـبراطورية والتضييق عليها خاف الروم واضطربت أحوالهم وعـقدوا للمذاكـرة فى ذلك مجلسا كـبيرا فى كنيـسة أيا صوفية فلما اجـتمعوا أخذوا يتزاحمون ويتـقدم بعضهم على بعض فى الجلوس ولم يراعوا درجات بعضهم فأدى بهم ذلك إلى السباب والملاكمة وانفرط عقد اجتماعهم ولم يعملوا عملا يذكر اهـ.

وكان الإمـبراطور على القـسطنطينية يومـئذ قـسطنطين دراغايس بن إيمـانوئيل فأرسل إلى السلطان محـمد رسلا يستعطفـونه ويستميلونه إلى تقـرير قاعدة للصلح فطردهم السلطان ولم يسـمع كـلامهم وأخـذ فى التأهب والاسـتعـداد ورسم ببناء الحصون والقـلاع على شاطئ بوغاز القـسطنطينية فزاد خوف قـسطنطين وهاله الأمر جدا وأرسل إلى السلطان سفراء آخـرين يقول على أيديهم إن ماوراء بناء هذه القلاع إلا القـتال وإضـرام نار الحرب فـإن لم تراع ما كـان بين بلادى وبلادك من العهـود والمواثيق وتقرر بيننا قاعدة للصلح فـذاك إليك وقد فوّضت أمرى إلى الله فإن هداك سبحانه وعطف قلبك كان ذلك غاية المراد وإن كـان قد قضى لك بفتح القسطنطينية فلا مـفر مما قـدره وقضاه وإلا فـلا أسلم فيهـا وفىَّ لسان ينطق فلمـا وصلت رسله وقالوا للسلطان مـقالته لم يلتفـت لقولهم وشدد فى بناء الحصـون والقلاع وبالغ فى التأهب والاستعداد.فكتب قسطنطين إلـى دول الفرنجة يطلب منهم المعونة والإسعاف ويستحثـهم على نصرته وأقسم أنه ينجز لهم ما وعدهم به أسـلافه من ضم الكنيسة الشرقية إلى الكنيسة الغربية فسر البابا بذلك سرورا عظيما وسير إليه نجدة عظيمة من طوائف الفرنجة فأغضبت فعال قسطنطين جماعة الروم لكراهتم ضم كنيستهم الشرقية إلى الكنيسة الرومانية لما بين الفريقين من العداوة القـديمة والشحناء المستمرة ونقموا على إمبراطورهم وتفرقوا عنه وخذلوه وفضلوا سقوط المدينة فى أيدى المسلمين على خلاصها وضم الكنيستين إلى بعضهـما وقال الدوق نوتاراس كبير وزراء القسطنطينية يومئذ جهارا أحب إلىَّ أن أرى فى هذه المدينة يريد القسطنطينية تاج السلطان محمد من أن أرى فيها إكليل لبابا ثم تخلى أكثـرهـم عن حماية أسوار المدينة وتفرقوا عنها فلم يبق منهم إلا نحو عـشرة آلاف بين روم وفرنجة وبينمـا هم على هذا الحال من فتور الهمة واخـتلاف الكلمة وتفرق الرعية عن راعيها إذ أقـبل السلطان محمد فى مائتـين وستين ألف مـن المقاتلين وذلك فى سنة ثلاث وخـمسين وأربعـمائة وألف ميلادية أى سنة سبع وخمسين وثمانمائة هجرية ومعه عمارة حربية مؤلفة من ثلاثمائة

سفينة كبيرة فنزل بجيوشه على أسوار المدينة وحاصرها من جميع الجهات وأرسل إلى قيصر يطلب إليه أن يسلم البلد تحت شروط كلها شدة وإهانة فأبى قسطنطين وصمم على القتال جهد الاستطاعة فغضب السلطان محمد لذلك وأمر فشددوا فى الحصار وجاءت الأخبار إلى قسطنطين بعزم السلطان على الهجوم على الأسوار وأخذ المدينة عنوة فى يوم كذا فهاله الأمر جدا وجمع إليه خواصه وكبار قومه ومن كان عليهم معتمدة من الروم وشكا إليهم حاله وبالغ فى الشكوى وبكى وانتحب وعظم البلوى فبكوا جميعا لبكائه وأقسموا على الذب والدفاع واقتحام نار الوغى حتى يقضى الله أمر كان مفعولا ثم قاموا وتعانقوا وقبل بعضهم بعضا قبلة الوداع وطلعوا على الأسوار وتحصنوا فيها وكذلك فعل قسطنطين وكان ممن لبى دعوة قسطنطين وقام لنصرته على المسلمين أهالى جنوه فسيروا لنجدته عمارة بحرية ومقدمها الأمير جوستنيانى فأتى بها يريد الدخول إلى مياه القسطنطينية فعارضته السفن التركية فاقتتلوا قتالا عنيفا وانتصر جوستنيانى نصرة عظيمة فدخل المينا غانما فاستعظم السلطان هذا الأمر جدا وصمم على إدخال مراكبه إلى المينا أيضا ومحاصرة المدينة برا وبحرا. قال بعض الكتاب: وفكر كثيرًا فى هذا الأمر فخطر على باله أن ينقل المراكب على البر حتى تجتاز السلاسل الحديد الموضوعة على مضيق البوغاز فمهد لذلك طريقا على البر طوله فرسخان وقيل أكثر وغطاه بالخشب وصب عليه الزيت والدهن ونقل عليه فى ليلة واحدة أكثر من سبعين سفينة. **قلت:** ولعل فى ذلك مبالغة، ولما حل الأجل المعهود هجم عساكر المسلمين على الأسوار هجمة الأسود وكانوا زهاء مائة وخمسين ألفاً من الأبطال المشهود لهم فلقيهم الروم بقلوب مطمئنة واشتبك القتال وحمى الوطيس فخرت الأبطال من فوق الأسوار وكان قسطنطين قائما ما بين النارين ينادي على الروم بالتجلد والثبات وإعمال السيف فى أعناق الأعداء وهو يقاتل قتال الأبطال والمسلمون يندفعون على الأسوار من كل فج عميق فلما أيس قسطنطين من الظفر وأيقن بالغلبة وسقوط المدينة فى أيدى المسلمين نزع عنه أسلحته المذهبة وألقى بنفسه بين صفوف المسلمين فقطعوه بحد السيف ولم يعلموا من هو فلما شاع بين من بقى على الأسوار من الروم خبر موت قسطنطين انفشلوا فظفر بهم المسلمون وتغلبوا على الأسوار وأخذوها ثم اقتحموا المدينة وأعملوا فى أهلها السيف ودخلوا كنيسة القديسة صوفية وقد كان فيها بطرق القسطنطينية يصلى وحوله خلق عظيم وقتلوا من فيها بحد السيف ولم يبقوا على أحد ونهبوا وأسروا وأحرقوا وخربوا ما فى المدينة من الأبنية العظيمة والآثار

الفاخرة وأحرقوا جميع مكاتبها فكان عدد ما أكلته نار الحريق منها مائة ألف مجلد وعشرين ألفا.

ورأى السلطان محمد من أبنية القسطنطينية ومراسمها ومنتزهاتها ما حبب إليه نقل كرسى مملكته إليها فنزح الروم عنها فرارا من الترك وكادت تخلو من السكان فرسم لكل من عاد إليها من الروم أن يبقى على دينه وعاداته ولا يتعرض له أحد بسوء فلم يأت إليها إلا القليل بل كثر النازحون منها لاسيما بعد إقامة الأذان والصلاة فى كنيسة أيا صوفية وتبديل حالها فهال السلطان هذا الأمر واستعظمه وأتى إليها بكثير من أهل القرى والضواحى ثم أقام للروم بطركا ليجتمعوا حوله وسلم له عصا البطريكية وخاتمها كما كانت تفعل القياصرة فى سالف الأزمان وقسم ما فى المدينة من الكنائس بين النصارى والمسلمين وجعل لكل فريق منهم حدا لا يتعداه وفرض على النصارى قدرا من المال يقومون به إلى الخزينة السلطانية فى كل عام. قال بعض كتاب الأخبار: وبقى الحال على ذلك زهاء ستين سنة حتى جاء السلطان سليم الأول فنسخه وسيرهم على ما أراد.

(مطلب)

قيام البابا كالستوس الثالث وحثه المسيحيين على قتال السلطان محمد

ولما استقامت للسلطان محمد الأمور بعد فتح القسطنطينية عمدا إلى فتح جزيرة رودس فسير إلى أهلها يتهددهم ويطلب منهم الجزية وكان عظيمهم يومئذ يوحنا دولستيك فأرسل إليه يوحنا يقول: كف عنا فوالله إن فرسان رودس لم يأخذوها إلا بسيوفهم ومعونة الله سبحانه وتعالى ولم تطأ أرجلهم أرضا بعناية أحد من ملوك الأرض فلن نسلم لك فيها وفينا رمق، وعرض للسلطان محمد بعد ذلك ما شغله عنها فوجه عنايته إلى فتح الصرب فسار إليها فى جيش عظيم وتوغل فى جوفها فقام عند ذلك البابا كالستوس الثالث يستنهض جميع ملوك المسيحية على قتال المسلمين ويحضهم على استخلاص البلاد من أيديهم ويحثهم على الجهاد فى سبيل الله وجاءت الأخبار بذلك إلى السلطان محمد فسار فى مائة ألف وخمسين ألفا من الجند المدربة وحاصر مدينة بلغراد وضيق عليها برا وبحرا حتى كادت تسقط فى يديه وطارت الأخبار بذلك إلى الآفاق فأخذت حمية الدين أحد رهبان القديس فرنسيس

فطاف يحث النصارى ويحضهم على الجهاد واستخلاص بلغراد من أيدى المسلمين وأكثر من التطواف والحض والمناداة فاجتمع حوله زهاء أربعين ألفا من الجنود النمساوية فسار بهم إلى القائد هونيادس الشهير قائد الجيوش المجرية وجعله المقدم عليهم فسار بهم هونيادس وقاتل السلطان محمد قتالا عنيفا للغاية فانتصر عليه وأتلف سفنه الحربية وأغرق أكثرها فلبث السلطان محمد يهاجم المدينة أربعين يوما فلم ينل منها ورجع بمن بقى من عسكره وقد مات منهم خلق عظيم وأصابت هونيادس قائد العساكر المسيحية بعد نصرته جراحات بليغة فاعتل ومات بها بعد انسحاب السلطان محمد بعسكره فلما علم السلطان بموته فرح وسير وزيره محمد باشا إلى فتحها فحاصرها ولبث يقاتل عليها سنة ونصف سنة حتى تم له النصر وسقطت فى يده فخسرت بذلك استقلالها وأصبح حكمها حكم بقية المدن التى وقعت فى قبضة العثمانيين.

(مطلب)

زحف السلطان محمد على ولاية أثينا وما كان من وراء ذلك

ولما كانت سنة إحدى وستين وثمانمائة هجرية أى نحو سنة ست وخمسين وأربعمائة وألف ميلادية زحف السلطان محمد على ولاية أثينا وفتحها بعد حروب هائلة وضمها إلى أملاكه واتفق فى هذه الأثناء أن وقع الخلاف ما بين الملك توما والملك ديمتريوس باليولوغوس أخى قيصر الروم بشأن مملكة المورة التى كانا يحكمانها بالاشتراك معا ويدفعان عنها الخراج للسلطان محمد واشتد بينهما الخصام واستفحل أمره فقامت الحرب بينهما على ساق فظفر توما بدمتريوس وهزمه فاستنجد دمتريوس بالسلطان محمد وطلب منه المدد وزوّجه بابنته ليستميله إليه فلبى لذلك دعوته وأنجده على توما وسير إليه جيشاً ضخماً فهرب توما بعد انهزامه شر هزيمة وخلا الجو لدمتريوس فجعل يتصرف فى الأمور ولكن لم تكد تستقر به الراحة بعد تلك الحروب الهائلة حتى داخل السلطان الطمع ومالت نفسه إلى ضم مملكة دمتريوس إلى بلاده فركب على دمتريوس بخيله ورجله وقبض عليه ونفاه إلى إحدى الديارات واستولى على بلاد المورة إلا بعض الحصون التى كان سلمها توما إلى البابا وأهل البندقية قبل فراره من وجه دمتريوس ، ولم تأت سنة سبع وستين وثمانمائة هجرية أى سنة إحدى وستين وأربعمائة وألف ميلادية إلا وقد زالت آثار السلطنة

المشرقية العظيمة ولم يبق منها سوى مملكة طرابزون فعمد السلطان محمد فى تلك السنة إلى أخذها وضمها إلى مملكته وجيش جيشا وسار به إليها وقاتلها حتى أخضعها لحكمه ودخلت فى عداد ممالكه ثم سار منها فأخذ ولاية سنوب وجاء بصاحبها داود كومومين أسيرا إلى القسطنطينية ومثل به شر تمثيل ثم أمر فقتلوه صبرا وكان قد اتهمه بمكاتبة ملك فارس والتألب معه وقتل كذلك أولاده بين يديه وكانوا ثمانية وعاد إلى القسطنطينية ظافرا غانما، ثم جيش بعد قليل جيشا عظيما وسار به لقتال أمير الفلاخ وكان سبب ذلك تعدى بعض أهالى الفلاخ على جماعة من التجار العثمانية النازلين هناك فلما علم صاحب الفلاخ بحضوره أرسل إليه رسلا فى طلب الصلح وقيامه بدفع جزية فى كل سنة قدرها عشرة آلاف دوكا وأن يصادق على جميع الشروط التى تقررت فى معاهدة سنة ست وتسعين وسبعمائة هجرية أى سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة وألف ميلادية ما بين السلطان بايزيد وأمير الفلاخ يومئذ فقبل السلطان محمد الثانى بذلك وانسحب بجميع جيوشه وكان هذا القول من أمير الفلاخ خدعة ليتمكن من عقد محالفة مع ملك المجر على قتال الترك فلما تم له ما أراد وعلم السلطان بالخبر سير إليه رسولين يسألانه فى ذلك فقبض عليهما وقتلهما ثم لم يلبث أن زحف فى جيش عظيم وأغار على بلاد بلغاريا التى هى من أملاك آل عثمان فعاث فيها وأفسد وخرب وأحرق وعاد بخمس وعشرين ألف أسير فسير إلى السلطان رسلا فى طلب فك الأسرى والرجوع إلى الطاعة وعدم مخالفة العهد فلما مثلوا بين يديه قيل إنه أمرهم بخلع عمائمهم عن رؤوسهم إجلالا له وتعظيما فأبوا ذلك فأمر بأن تسمر عمائمهم على رؤوسهم بمسامير من حديد ففعلوا بهم ذلك وهم بين يديه وجاءت الاخبار إلى السلطان بما وقع لرسله فكاد يتميز غيظا ونادى فى جنده بالتأهب ثم خرج فى مائة ألف لقتال أمير الفلاخ ومازال حتى اخترق جوف بلاده ووصل إلى مدينة بخارست عاصمة مملكته بعد أن هزمه شر هزيمة ومزق شمل عسكره فهرب صاحب الفلاخ ونزل على ملك المجر مستجيرا فنادى السلطان محمد بخلعه من منصب الإمارة وأقام أخاه راوول مكانه وكان راوول هذا قد تربى فى حضانة السلطان محمد وللسلطان به ثقة فصارت بذلك بلاد الفلاخ تابعة لأملاك السلطنة العثمانية.

وركب فى سنة سبع وستين وثمانمائة هجرية أى سنة اثنتين وستين وأربعمائة وألف ميلادية على البوسنا لامتناع أميرها عن دفع الجزية فحاربه وانتصر عليه وقتله هو وولده بعد قتال عنيف للغاية فدانت له بقتله جميع بلاد البشناق وكبر الأمر على

صاحب المجر فهمَّ باستخلاص البوسنا من أيدى العثمانيين وخرج فى عسكر عظيم فركب عليه السلطان فى جيش جرار وهزمه وفرق شمل عساكره فعاد خائباً وشدد السلطان على أهل البوسنا فسلبهم جميع ما كان لهم من الامتيازات والحقوق وأدخل فى الصفوف الانكشارية زهاء ثلاثين ألفاً من شبان البوسنا وشدد على كبار أهلها وأشرافهم فتدين أكثرهم بالدين الإسلامى وصارت البلاد ولاية كبقية الولايات الداخلة فى حكم آل عثمان، ولما كانت سنة ثمان وستين وثمانمائة هجرية أى سنة ثلاث وستين وأربعمائة وألف ميلاديه ابتدأ الخلاف بين العثمانيين وأهل البنادقة وكان سبب هذا الخلاف أن عظيما من العثمانيين هرب إلى ناحية كورون التابعة للبنادقة فطلب فلم يسلموا فيه وامتنعوا وقالوا إنه تنصر واعتنق الدين المسيحى فلا يحل اعتباره عبدا رقيقا وكان فى نفس السلطان أن يشن الغارة على جميع أعمال البندقية ويضمها إلى أملاكه فاتخذ ذلك حجة للقتال وجيش جيشا عظيما وسار به فى سنة خمس وسبعين وثمانمائة هجرية ونزل على جزيرة اغريبوز المعروفة أيضا بارجوس يريد قتالها فقاتله أهلها قتالا عنيفا وأرسلوا يستنجدون حكومتهم فسيرت لنجدتهم عمارة عظيمة فوصلت إلى بلاد المورة وأنزلت البر من بها من الجنود والمقاتلة فتقوت بهم عزائم سكانها وثاروا معهم على من كان عندهم من عسكر السلطان فأجلوهم عن البلاد ثم رمموا ماكان تهدم من أسوار برزخ كورنشيه وحاصروا مدينة كورنشيه واستخلصوا مدينة اغريبوز فاستعظم السلطان هذا الأمر وأكبره جدا وزحف فى زهاء ثمانين ألفا فخاف أهل البندقية وسقط فى أيديهم وتركوا البرزخ المذكور ورجعوا القهقرى فوصل السلطان بعسكره ودخل البلاد بعد قتال خفيف واسترجع كل ما أخذوه وأرجع الأمور إلى سابق مجراها.

واشتد بغض أمم أوروبا للعثمانيين وكرهوا جوارهم فقام البابا بيوس الثانى يدعو المسيحيين إلى قتال المسلمين ويستحثهم على نصرة الدين ومحو آثار العثمانيين من قارة أوروبا وأكثر أتباعه من النداء والتحريض فهاجت الخواطر وامتلأت القلوب بغضا فقام صاحب ألبانيا بعسكر جرار وشن الغارة على المملكة العثمانية وقاتل العثمانيين قتالا الأبطال فخرب وأحرق وأهلك الحرث والنسل وأراق الدماء الكثيرة ومازال يقاتل حتى أدركته المنية فمات سنة ثمان وستين وثمانمائة هجرية حتف أنفه وقد كان من أشد خصوم العثمانيين وألد أعداء سلاطين آل عثمان فحاربهم خمسا

وعشرين سنة لا يغمد له فيها سيف ولا ينثنى له عزم ولم يقو السلطان محمد على قمعه وإدخاله تحت الطاعة.

(مطلب)

فيما أصاب عسكر السلطان فى بلاد البغدان وفى هزيمتهم

وسير السلطان بعد ذلك بقليل عمارة حربية لفتح مينا آق كرمان ففتحتها وأقلعت السفن تريد مصاب نهر الدانوب لإعادة الكرة على بلاد البغدان وأخذها فلاقته العساكر البغدانية وفى مقدمها الأمير اصطفن الرابع صاحب البغدان عند نهر الدنواب فاجتاز السلطان النهر فلم تقف أمامه عساكر اصطفن وتقهقروا خديعة ومكرا ولم يقاتلوا السلطان فتبعهم السلطان بعساكره وساق خلفهم بخيله ورجله حتى دخلوا فى غابة كثيفة للغاية لا تعرف مفاوزها فلم يمهلهم اصطفن المذكور حتى انقض عليهم بعسكره وقهرهم وأعمل فيهم القتل بحد السيف ففر السلطان ونجا وتمزق شمل من بقى من عسكره وانتصر اصطفن فى هذه الموقعة نصرة عظيمة وكان ذلك فى سنة إحدى وثمانين وثمانمائة هجرية أى سنة ست وسبعين وأربعمائة ألف ميلادية ففرح المسيحيون بنصرة اصطفن فرحا عظيما وسير إلى الباب رسولا يهنئه بالنصر ويقول له إن البابا قد سماه من هذا اليوم بطل النصرانية وحامى حمى الديانة المسيحية .

(مطلب)

حصار سفن السلطان لرودس والرجوع عنها

وجهز فى سنة خمس وثمانين وثمانمائة هجرية أى سنة ثمانين وأربعمائة وألف ميلادية عمارة أخرى عظيمة وعليها مائة ألف مقاتل وشىء كثير من الذخيرة ومعدات الحرب وسيرها مع ميشطس باشا أحد العائلة الباليولوغية الإمبراطورية الرومية وكان قد اعتنق الدين الأسلامى بعد فتح القسطنطينية فسار بها إلى جزيرة رودس وحاصرها وضيق عليها وأقام تحت أسوارها تسعين يوما فلم ينل منها فجاءه الأمر بالارتحال عنها فارتحل ولم يقدر الله للسلطان محمد قتالها بعد ذلك. قال

أصحاب التاريخ: ولما وصلت عمارة السلطان محمد إلى جزيرة رودس كان صاحبها قد تمكن من إبرام صلح مع سلطان مصر وباى تونس بعد أن وقعت الحرب بينهما وبينه أياما كثيرة ليتفرغ بذلك إلى دفع غارات العثمانيين عن الجزيرة التى هى مقر رهبنة القديس يوحنا الأروشليمى فحاصرتها عمارة السلطان محمد حصارا تاما ومنعت عنها المدد وضيقت عليها من كل جانب ووالت الرمى عليها بالمكاحل فكان أهلها يصلحون فى الليل ما تخربه المدافع من أسوارها فى النهار فطال حصارها تسعين يوما وفى كل يوم يهجم العثمانيون على الأسوار فلم تنل منها وقد قتل منهم خلق كثير للغاية فلم يبق إلا القليل وجاء مرسوم السلطان برفع الحصار والارتحال عنها فارتحلوا.

(مطلب)

وفاة السلطان محمد وولاية ابنه بايزيد

ومازال السلطان محمد على قدم الغزو والجهاد لاينكف عن القتال وتدويخ البلاد حتى أدركته المنية وهوسائر بعسكر جرار لقتال ملك فارس مات فى مدينة ازنكميد فى سنة ست وثمانين وثمانمائة هجرية أى سنة إحدى وثمانين وأربعمائة وألف ميلادية فى سلخ ربيع الأول وله من العمر ثلاث وخمسون سنة فكانت مدة سلطنته إحدى وثلاثين سنة.

قال أصحاب التاريخ : وله الفعال المأثورة فى داخل بلاده فهو الذى دعا الحكومة العثمانية بالباب العالى وقسم هيئتها إلى أربعة أقسام وهى الوزير وقاضى عسكر والدفتردار والنيشانجى أى كاتب سر السلطان ورتب وظائف الجند على أسلوب جديد فجعل لطائفة الانكشارية كبيراً سماه الأغا وسلمه حراسة القسطنطينية وضبط أحوالها الداخلية وآخر لأصحاب المكاحل وآخر لما تحتاجه الجيوش من الذخيرة والمونة ومعدات الحرب واهتم بترتيب وظائف القضاء وسن القوانين النظامية المناسبة للزمان والمكان، وأعقب ولدين وهما بايزيد وجم فبايع الناس بايزيد بالسلطنة فى اليوم الذى مات فيه أبوه وهو الرابع من ربيع الأول سنة ست وثمانين وثمانمائة هجرية أى سنة إحدى وثمانين وأربعمائة وألف ميلادية وطيروا الخبر بذلك إلى الآفاق فأخذت له البيعة العامة فى خلال سنة ست وثمانين هجرية وكان سلطاناً جليل القدر عالماً شاعراً لبيباً مواظباً على العلم حسن السيرة. قال أصحاب التاريخ:

لما مات السلطان أبو الفتح محمد وكان أكبر أولاده بايزيد وولى عهده من بعده مقيما باماسيا يحكمها من قبل أبيه أخفى الوزير قرمانى محمد باشا خبر موت السلطان حتى يأتى ابنه بايزيد المذكور ولكنه لما كان بينه وبين أصغر أولاد السلطان مودة ومحبة أكيدة وكان يفضله على بقية إخوته سير إليه سراً من يعلمه بخبر موت أبيه ويستقدمه على عجل ليسلمه مقاليد السلطنة قبل أخيه بايزيد فشاع خبر ذلك بين الناس وعلم به جماعة الانكشارية فثاروا على الوزير وقتلوه وعاثوا يومئذ فى المدينة وأفسدوا وقتلوا ونهبوا وولوا الأمير كركود ابن السلطان بايزيد السلطنة مكان أبيه حتى يأتى أبوه فلما كان الثالث عشر من ربيع الأول وصل الرسول إلى بايزيد وأعلمه بخبر موت أبيه فركب فى اليوم الثانى فى أربعة آلاف وسار مجداً فدخل مدينة القسطنطينية بعد مسير مائة فرسخ وستين فرسخاً فى تسعة أيام فخرج أمراء الدولة وكبارها وأعيانها للقائه ودخل المدينة فى أبهة وجلالة عظيمة للغاية وأخذ فى مباشرة الأمور. أما الأمير جم فإنه لما وصل إليه الخبر بموت أبيه ركب من فوره فى جماعة من أصحابه وسار قاصداً مدينة بروسة فمانعه من دخولها من كان بها من المرابطين فقاتلهم بمن معه وانتصر عليهم نصرة عظيمة ودخلها عنوة وأقام بها ولم يستقر به المقام حتى جاءه أخوه السلطان بايزيد فى جيش عظيم وقاتله وقهره وساق خلفه بخيله ورجله حتى أوصله إلى تخوم ديار مصر فلما رجع ظافراً منصوراً سأله الانكشارية أن يبيح لهم بروسة لينتقموا منها فلم يوافقهم على ذلك ولكنه خاف عاقبة أمرهم فأقطع كل رجل منهم قرشين.

وأقام جم بمصر ما شاء ثم عاد إلى حلب واتحد مع الأمير قاسم بك آخر سلالة أمراء القرمان على قتال أخيه بايزيد فلم ينالا شيئاً فراسل أخاه فى طلب الصلح بشرط أن يقطعه بعض الولايات ليقيم بها فلم يقبل بايزيد منه ذلك فخاف جم العاقبة وسار إلى جزيرة رودس وطلب إلى رئيس رهبنة القديس يوحنا الأورشليمى أن يساعده على أخيه بايزيد فقبله عنده وأنزله منزلاً رحباً فجاءت وفود السلطان بايزيد إلى رئيس الرهبنة وكلموه فى أمر جم المذكور وأنه إن بقى عندهم بالجزيرة تحت الحفظ تعهد لهم السلطان بعدم مس استقلال جزيرتهم مدة حياته وأن يحمل لهم فى كل سنة مبلغاً من المال قدره خمسة وأربعون ألف دوكا فقبل الرئيس ذلك ووفى بالوعد فلم يمكن جماً من الخروج ولم يسمح له بالذهاب إلى ملك المجر ولا إمبراطور الألمان وقد كان كل منهما يطلبه ليتخذه واسطة لتذليل السلطان بايزيد وإذهاب هيبته وسيره إلى مدينة نيس ليبقى بها محجوراً عليه لا يفارقها ثم نقله إلى

شمبـرى وجعل بعد ذلك ينتقل من بلد إلى آخر من بلدان فـرنسا زهاء سبع سنوات فلما كانت سنة خمس وتسعين وثمانمائة هجرية بعثه رئيس رهبنة القديس يوحنا إلى البابا توسان الثـامن ليبقى عنده فراسل البابا السلـطان بايزيد فى أمره وطلب إليه أن يبـعث بالمال الذى كان يحـمل فى كل سنة إلى رئيس رهبنة القـديس يوحنا فأجـابه السلطان إلى ما طلب وظل الأمر على ذلك حتى مات البـابا توسان وقام بعده البابا إسكندر بورجا واشتغل السلطان بايزيد بما جاءه من أخبار إغارات شارل الثامن ملك الفرنســيس على بلاد إيطاليا وعقده النـية على فتح القسطنطينـية وقد اشتـدت رغبة شارل فى ذلك فبعث البعوث إلى بلاد مقـدونية واليونان لإضرام نار الفتنة والخروج على السلطان بايزيد فلما علم ملك نابولى وجمهـورية البنادقة بما ينويه شارل خافوا من تعـاظم شأن دولة الفـرنسـيس واستـفحـال أمرها وأرسلـوا إلى السلطان بايزيد يحذرونه شر العاقبة ويحثونه على الأخـذ بأسباب التأنى والحزامة وأن يسير إلى بلاد إيطاليا طـائفة من عسكره ليـصد بهـا جيوش ملك الفـرنسيس فـأحس شارل بذلك وأكبره فسار إلى مدينة رومة وحـاصرها وضيق عليها من كل جانب وطلب من البابا إسكندر أن يسلمـه چما أخـا السلطان بايزيد فلم ير بدا من تسليـمه فسـار چم مع جيوش الفرنسيس حيث ساروا حتى أدركته المنية فى مدينة نابولى فدفنوه فى بلدة من بلاد إيطاليا ثم نقل إلى مقابر أجداده بمدينة بروسه.

(مطلب)

وتاقت نفس السلطان بايزيد
إلى فتح الديار المصرية

وتاقت نفس السلطان بايزيد إلى فتح الديار المصرية وضمها إلى أملاكه فسار فى جيش عظيم لقـتال سلطانها فـالتقيـا جهة القـرمان واقتـتلا قتـالاً شديداً فلم يفلح السلطان بايزيد وراسلهـما باى تونس بالكـف عن القتـال بدعوى أنه لا يصح قـيام الحرب بين ملكين مسلمين فتقـررت بين الفريقين قاعدة للصلح وعاد السلطان بايزيد بعـسكره وعادت كـذلك العسـاكر المصـرية وبينما هو يغـزو ويحارب ويفـتح المدن والأمصار والتـوفيق ملازمه إذ قامت الفـتنة داخل بلاده بخروج اثنين من أولاده عن طاعته وإضـرامهم نار الحرب. قال بعض كـتاب الأخبار: وقد كـان له ثمانية أولاد

ذكور مات منهم خمسة فى حداثتهم وعاش ثلاثة وهم كركود وأحمد وسليم وكان كركود مولعاً بالعلوم والآداب ميالاً لمخالطة العلماء والأدباء فكانت العساكر لا تميل إليه لهذا السبب وكان الثانى عاقلاً رزيناً محبوباً من الأمراء والأعيان موقراً عند كبير الوزراء مكرماً وكان الثالث ميالاً للغزوات والحروب فكانت طوائف الجنود والانكشارية تحبه وتجتمع عند كلمته ولذلك ولى السلطان بايزيد كلا منهم منصباً يليق بحاله فولى الأمير كركود إحدى الولايات البعيدة وولى الأمير أحمد ولاية اماسيا وولى الأمير سليماً ولاية طرابزون فلم يقبل الأمير سليم هذا المنصب واستصغره وسار من طرابزون إلى كافا وسير منها رسلاً إلى أبيه يطلب إعطاءه إحدى الولايات الكبرى من مملكته التى فى أوروبا فاستعظم السلطان ذلك وأكبره ولم يجبه إلى ما طلب وردّ الرسل كما حضروا فكبر الأمر على الأمير سليم وركب فى جيش من التتار وسار لقتال أبيه فأرسل أبوه كذلك جيشاً لإرهابه فلم يرعو واشتد فى التأهب والاستعداد لإضرام نار الوغى فخشى السلطان شر العاقبة وأجابه إلى ما طلب وعقد له الولاية على مدينتى ودين وسمندريه فداخل نفس الأمير كركود من ذلك ما داخلها وأغار على ولاية صاروخان وجعلها له مقراً حتى لا يكون بعيداً عن تخت مملكة أبيه عند الحاجة.

(مطلب)

خروج الأمير سليم على أبيه السلطان بايزيد فى طلب الملك

ولم يستقر بالأمير سليم المقام فى سمندرية حتى تاقت نفسه إلى ارتقاء منصب السلطنة والانفراد بالملك فسار من سمندرية فى جيش إلى أدرنه واستقر بها ونادى بسلطنته عليها وطير الأخبار بذلك إلى الآفاق فلما وصل الخبر إلى السلطان بايزيد هاله جداً وأغضبه فسير جيشاً لإخضاع الأمير سليم وإرجاعه إلى الطاعة فقاتله فانتصرت عساكر السلطان بايزيد وفر الأمير سليم إلى بلاد القرم واختفى وتفرق من كان معه من العساكر والأحزاب، ولما تم للسلطان بايزيد النصر على ابنه سليم سير جيشاً آخر لقتال ولده كركود بصاروخان فخرج كركود لقتال عسكر أبيه فالتقى الجمعان واقتتلا فانهزم أصحاب كركود شر هزيمة واختفى كركود حتى كان من أمره

ما سيـذكر فى محله. ولم يكد يتم الظفر للسلطان حـتى قامت طوائف الانكشارية على قدم وساق وسألوه العفـو عن ولده سليم وإرجاعه إلى ولاية سمندرية فطاولهم فأكثـروا من الإلحاح وشددوا وأرهبوا وهددوا ومازالوا حتـى أجابهم السلطان إلى ما طلبوا وسـير إلى الأمير سلـيم فرمان الرضا والولاية على سـمندرية كما كـان فظهر الأمير سليم عند ذلك من مخبئة وسار في نفر يريد سمندرية فخرج للـقائه جماعة من الانكشارية وسـاروا فى ركابه وعرجـوا به إلى القسطنطينية ودخلوها فى كـبكبة وضجة زائدة ومازالوا علـى ما هم عليه من الجلبة والصياح حـتى صاروا تحت قصر السلطان بايزيد وسيروا إليه جماعة يطلبون إليه خلع نفسه والتنازل لولده الأمير سليم عن الملك وأكثروا من النداء والصياح وشددوا فى الطلب فاجتمع الناس وكثر الزحام وعلت الضـوضاء وعم الخـوف سائر من في المدينة واشـتد الهـرج فخـاف السلطان بايزيد شر العاقبـة وأجابهم إلى ما طلبوا وخلع نفسه فى اليـوم الثامن من صفر سنة ثمان عشرة وتسعمائة هجرية أى سنة اثنتى عـشرة وخمسمائة وألف ميلادية وله من العمر يومئذ سبع وستون سنة.

وفى رواية أنه لما قـامت الفـتنة فى داخلية البـلاد بخـروج اثنين من أولاده عن طاعته أمـر بقتلهمـا فقتلا فكثـرت لذلك القلاقل وعلت كلمة الانكشارية فـعاهدوا الأمير سليما بـالملك وكلموه فى أمر السلطنة فاجتاز بوغاز القسطنطـينية لاستخلاص الملك من أبيـه فـحـاربه أبوه وهزمه فـهـرب إلى بلاد القـرم وأقـام بها ثـم قصـد القسطنـطينية ثانية فى جـيش وجرى بينه وبين أبـيه وقائع كـثيرة فلمـا اشتـد الحال بالسلطان بايزيد خلع نفسـه من السلطنة وعهد بها إلى ابنه سلـيم المذكور وسار إلى أدرنة فدس له ابنه من سـقاه السم خوفـاً من رجوعه إلى دست السلطنة فلمـا مات بايعوا بعـده السلطان سليمًا البيـعة العامة واسـتقرت به السلطنة فقـبض على أخويه أحمد وكركود وقتلهما ومثل بهما ليخلو له الجو ثم سار لقتال ملك فارس ثم كان ما كان من انتـشاب الحرب بينه وبين السلطان قـانصوه الغورى صاحب مـصر وتغلغله بعساكره فـى داخل البلاد حتى وطئت خيله القاهرة وتصرفـه فى الأمور بعد أن بدد شمل عساكر الملك الأشرف طومان باى وظنه موت الأشرف مع من قتل من الأمراء والأجناد والمماليك فى الواقعـة التى حصلت عند الريدانية كمـا مر بك بيان هذا كله فى محله.

(المقالة التاسعة وفيها فصول)

(الفصل الأول)

(فيما جرى بعد دخول السلطان سليم القاهرة وفى سلطنته على ديار مصر ولبسه شعار الخلافة)

لما استقر بالسلطان سليم المقام بالقاهرة بعد انتصاره على السلطان الملك الأشرف طومان باى ومن معه من كبار الأمراء والمماليك وتبديد شملهم وإعمال السيف فيمن بقى منهم ظن موت السلطان الملك الأشرف وأن قد دانت له البلاد فعمد إلى ترتيب الأمور وتقرير قواعدها ورسم فى يوم الثلاثاء رابع المحرم افتتاح سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة هجرية بتقليد بعض أصحابه المناصب العالية وأمر ونهى وقضى يومه هذا فى أنس وصفاء وهو لايعتقد إلا هلاك الأشرف ، فما أذن لوقت العشاء من ليلة الأربعاء حتى أطبقت عساكر الأشرف على السلطان سليم من كل جانب والأشرف ينادى فيهم بالحمل وإعمال السيف وأن لا يبقوا أحداً فاندفعت عساكر الأشرف على عساكر السلطان اندفاع الوحوش الضوارى وأعملوا فيهم السيف وقتلوا منهم خلقاً كثيراً وأحرقوا بعض خيامهم وبحثوا عن السلطان سليم فلم يقفوا له على أثر من شدة الظلام وهرع العامة وعياق بولاق من النوتية وغيرهم وأحاطوا بخيام عسكر السلطان وصاروا يرجمون بالمقالع وفيها الحجارة وكثر الصياح وعلت الأصوات واشتدت الجلبة واستمروا على هذا الحال الليل كله حتى مطلع الفجر فتمزق عساكر السلطان سليم كل ممزق وتفرقوا فى الشوارع والحارات يريدون النجاة وذهب فريق منهم إلى ناحية النصرية فلاقاهم الأمير عيلان الدوادار الكبير عند الميدان وقاتلهم

قتالاً عنيفاً ومازال حتى استرد منهم الطريق من رأس الجزيرة الوسطى إلى قنطرة باب البحر وإلى قنطرة قديدار واستمر القتال بين الفريقين من مطلع الفجر إلى ما بعد الغروب واشتدت عزائم الجراكسة وقويت قلوبهم فأفحشوا فى قتل العثمانيين وأخرجوهم من جميع الأماكن التى كانوا مختفين بها وجعلوا يحتزون رؤوسهم كما فعلوا بهم عند الريدانية وكانوا يأتون بالرؤوس بين يدى السلطان الملك الأشرف وهو يستحث المماليك على القتال والأخذ بالثار وأصبحوا يوم الأربعاء الخامس من المحرم والقتال قائم على ساق بين الفريقين والمناداة من السلطان الملك الأشرف متواصلة بالقبض على كل من يجدونه من عساكر السلطان سليم فجد الناس كافة فى طلبهم والقبض على من يجدونه منهم فكان يوماً شره مستطيرا، ورتب السلطان سليم من بقى من عسكره ونادى فيهم بالقتال فقويت قلوبهم وصدموا المماليك عند بولاق وجزيرة الفيل صدمة قوية للغاية فأجلوهم عنها وأخذوهما وهجموا على زاوية الشيخ عماد الدين بالنصرية وقبضوا على من كان بها من المماليك الشراكسة وأحرقوا البيوت التى حول الزاوية وقتلوا جماعة كثيرة من العامة والنساء والأطفال والشيوخ وأجلوا من بقى من المماليك عن النصرية فتوجهوا إلى قناطر السباع ونزل الأشرف طومان باى إلى جامع شيخون بالصليبة وأخذ يجمع من تفرق من عسكره ثم رسم بحفر خندق فى راس الصليبة وآخر عند قناطر السباع وآخر عن راس الرميلة وآخر عند جامع ابن طولون وآخر عند جزيرة البقر ورسم بإحراق خان الخليلى فمنعه بعض الأمراء من ذلك ثم قسم عساكره إلى أربع طوائف. طائفة تقاتل عند قناطر السباع وطائفة عند الرميلة وطائفة عند جامع ابن طولون وطائفة عند راس الصليبة ولكن قد كان الخوف استولى على قلوب عساكره ففترت هممهم وكبر خوفهم لمثابرة عسكر السلطان سليم على القتال وكان القتلى من الفريقين مطروحين فى الطرق من بولاق إلى قنطرة السباع وإلى الرميلة وإلى تحت قلعة الجبل وبقى الحال على هذا الوصف إلى يوم السبت ثامن المحرم فلم يشعر السلطان الملك الأشرف إلا وقد اختفى من بقى من أصحابه ولم يبق معه فى ساحة القتال إلا بعض العبيد الرماة والمماليك السلطانية وقليل من الأمراء فلما رأى أنه مأخوذ لا محالة ترك القتال وهرب إلى بركة الحبش وشاع الخبر بفراره فانقض عسكر السلطان سليم على الصليبة وأحرقوا جميع البيوت التى حولها من درب ابن عبد العزيز وقتلوا كثيراً من العامة وأفحشوا فى القتل والنهب والإحراق وعاثوا فى البيوت والمساجد والأضرحة سعياً

وراء المماليك فمن وجدوه منهم ضربوا عنقه فى الحال وفعلوا بالجامع الأزهر ما لا يحسن وكذلك فعلوا بجامع الحاكم وجامع ابن طولون وغيرهما من الجوامع فكانت الكلاب من كثرة الرمم تنهش فيها نهشاً وتمزقها تمزيقاً وكان المنظر مدهشاً مريعاً جداً والناس فى شاغل عن دفن تلك الجثث لانتشار عسكر السلطان سليم فى الحارات وقتلهم كل من يجدونه فى طريقهم.

ورسم السلطان سليم بالمناداة فى العسكر بالكف عن القتل وإراقة الدماء فانكفوا وعاد السلطان إلى خيمته فى الجزيرة الوسطى واشتغل الناس بدفن الموتى فكانوا لايكادون يميزون بعضهم عن بعض وانتشر البكاء والعويل فى مصر والقاهرة وقامت المآتم ببعض البيوتات الكبيرة فكان الخطب عظيماً والمصاب شديداً. وأخذ السلطان سليم بمشورة أمير المؤمنين الخليفة المتوكل على الله العباسى وعمل بقوله فظهرت كلمة الخليفة يومئذ وعظمت شوكته ووقفت فى دهليزه الأمراء من المقدمين وأمراء الطبلخانات والعشروات فراراً من عسكر السلطان سليم وكذلك المخدرات من النساء وأصحاب البيوتات العالية ونزلت عنده خونده ابنة الأمير آق بردى زوجة السلطان الملك الأشرف طومان باى وقد فرض عليها السلطان سليم مبلغاً من المال غرامة فلم تقدر على وفائه واستغاثت بالخليفة على استرضاء السلطان فأخذ يتلطف به حتى تجاوز عن شىء منه وألزمت بإيفاء الباقى ومازال الحال فى شدة والناس فى خوف ما عليه من مزيد حتى يوم الثلاثاء حادى عشر المحرم نادى منادى السلطان سليم بالأمان لجميع من بقى من الأمراء المقدمين وأمراء الطبلخانات وأمراء العشراوات والمباشرين وأصحاب الوظائف الديوانية فخرجوا من مخبئهم وأتوا إلى معسكر السلطان فأمنهم ورسم لهم بالذهاب إلى مدرسة الغورى فلما اجتمعوا بها جاءت طائفة من العساكر العثمانية وأحاطت بالمدرسة فتخوف الأمراء من ذلك وظنوا الغدر بهم ثم رسم لهم بعد أيام بالصعود إلى قلعة الجبل فصعدوا إليها والجند تحرسهم فأقاموا بها تحت طلب السلطان فلما كان يوم الخميس عشرى المحرم صعد السلطان إلى القلعة فى موكب حافل للغاية وأمامه الجنائب والطبول والزمور وطوائف الجند من المماليك الذين كانوا مع خير بيك والغزالى والعساكر العثمانية ومرّ من الصليبة فانطلق العامة بالدعاء له.

ولما استقر به المقام رتب من قومه كشافا على الغربية والشرقية ونظر فى بعض المهمات من الأمور وقيد بعض المأمورين بمساحة الشرقية وكشف ما فيها من

أقطاعات المماليك الشراكسة وغير ذلك من الرزق والأوقاف وكذلك فعل بالغربية والمحلة وجميع الجهات القبلية واحتجب عن الناس بالقلعة ولم يجلس على الدكة السلطانية للنظر فى الظلامات كما كانت تفعل ملوك مصر وسلاطينها قبله. وبينما هو على هذا الحال إذ جاءت الأخبار من الأقاليم القبلية بظهور السلطان الملك الأشرف طومان باى ومعه جموع كثيرة من المماليك والغلمان السود والعربان والعامة والكثير من الخيل والدواب والأسلحة وأنه عازم على المجئ إلى القاهرة ليقاتل السلطان سليماً ويجليه عن البلاد وشاع هذا الخبر بين الناس وتأكد بوصول مكاتبة من الأشرف إلى السلطان يقول له فيها:

وبعد فإن شئت أن أجعل الخطبة باسمك وكذلك السكة وأكون نائباً عنك بمصر وأحمل إليك فى كل سنة الخراج حسبما يقع الاتفاق عليه بيننا فارحل عن مصر إلى الصالحية أنت وعسكرك وصن دماء المسلمين بيننا ولا تحمل وزر إراقة دماء الشيوخ والنساء والأطفال بغير سابق ذنب وإلا فاخرج للقائى بعسكرك فى الجيزة والله سبحانه يعطى النصر لمن يشاء. فلما وقف السلطان سليم على ما فى المكاتبة جمع إليه أمير المؤمنين الخليفة المتوكل على الله والقضاة الأربعة وجماعة من وزرائه وكتب بحضرتهم صورة يمين إلى الملك الأشرف وكتب بخطه ووقع عليها ثم تكلموا فى الأمر طويلاً فوقع الاتفاق بينهم على تسيير الخليفة والقضاة الأربعة إلى الأشرف بذلك اليمين وخلع السلطان سليم على القضاة وأمرهم بالتأهب للسفر فنزلوا من عنده على ذلك، أما الخليفة فإنه امتنع عن السفر فرسم السلطان بتسيير دوادار بدلاً عنه فساروا ولما صاروا على مقربة من البهنسا خرج عليهم جماعة من الشراكسة وقبضوا عليهم وسلبوا ما كان معهم من متاع وسلاح وهدايا وخيول وجمال وغير ذلك.وقتلوهم فلم ينج منهم سوى القضاة الأربعة ودوادار السلطان ورجعوا إلى القاهرة وهم فى أسوأ حال فلما علم السلطان سليم بما جرى لهم أمر فنقلوا معسكره من الجزيرة الوسطى إلى بركة الحبش ونزل فى يوم السبت حادى عشر صفر من قلعة الجبل ومعه الجم الغفير من العساكر والمباشرين والغلمان ورماة البنادق وقد أشيع خبر انحدار عسكر الأشرف طومان باى من البهنسا إلى ترسة بالجيزة فرسم السلطان بعمل سقائل على النيل بناحية طرا ومصر القديمة وبولاق لعبور العساكر عن الاقتضاء وأخذ فى التأهب والاستعداد وقد ظهرت عليه وعلى جميع قومه علامات الاضطراب وخاف الناس كثيراً لاسيما وهم لم يتناسوا ما حل بهم بأسباب الوقائع التى وقعت بالصليبة والناصرية وغيرهما.

ولما كان يوم الأربعاء ثانى شهر ربيع الثانى أمر السلطان سليم فجئ بجميع الأمراء الذين كانوا بقلعة الجبل وقد كانوا ظهروا بأمان من السلطان كما تقدم القول فأنزلوهم مكبلين بالحديد والجند من حولهم إلى بركة الحبش فلما مثلوا بين يدى السلطان أخبرهم بما فعله الملك الأشرف بالقضاة والدوادار وامتناعه من الصلح بعد أن طلبه وأكثر من تأنيبهم وتوبيخهم ثم أمر بضرب أعناقهم جميعاً فضربوا أعناقهم بين يديه وكانت عدتهم أربعة وخمسين أميراً ما بين مقدمى ألوف وأمراء طبلخانات وعشروات وغير ذلك وألقوا جثثهم للكلاب فكانت نساؤهم تسعى فى أخذها بدفع شيء من المال إلى الموكلين بالعمل ثم قام السلطان سليم من ساعته إلى بركة الحبش وعبر النيل بعسكره إلى الجيزة فجاءته الأخبار بوصول عسكر الأشرف إلى المناوات فأقام بالجيزة إلى يوم الخميس عاشر ربيع الثانى فظهرت طلائع عسكر الأشرف ولاقتها عساكر السلطان عند المناوات وقيل بل عند وردان فالتحم القتال بين الفريقين واشتد وحمى الوطيس والتقت السنابك بالسنابك والرماح بالرماح والصفاح بالصفاح فاستظهر المماليك على عساكر السلطان وقتلوا منهم خلقاً كثيرا وساقوهم حتى ألقى أكثرهم بأنفسهم فى النيل فماتوا غرقاً وكاد يتم النصر للأشرف طومان باى وعسكره وجموعه فجاءت فى وسط هذه الشدة لعساكر السلطان نجدة من أصحاب البنادق ورموا بالبنادق على المماليك واصلوا الرمى بشدة حتى ردوهم ومازالوا بهم حتى فرقوا جمعهم ومزقوا شملهم وعادت الهزيمة عليهم فولوا الأدبار وولى الأشرف مهزوما يريد قرية من أعلى تروجة اسمها البوطة فلما تم للسلطان سليم النصر عاد إلى القاهرة ودخلت عساكره ومعهم العدد الكثير من رؤوس القتلى وهم فى كبكبة عظيمة ثم نودى بالزينة فزينت البلد ثلاث أيام والناس مع ذلك فى شاغل بما سيكون من وراء ذلك لعلمهم بما هو عليه الأشرف من البسالة والجلد على الحروب، أما الأشرف فإنه نزل بقرية البوطة فأقام بها ثلاثة أيام وهو متحرز فى نفر من أصحابه ثم حضر إليه الشيخ حسن بن مرعى وشكر ابن أخيه مشايخ عربان البحيرة، وكان بين المذكور وبين الأشرف صداقة قديمة فدعاه حسن للضيافة وألح عليه فى ذلك فركن إليه الأشرف ونزل عنده فلما استقر به المقام طلب مصحفاً ووضعه بين يدى حسن واستحلفه عليه هو وابن أخيه أنهما لا يخونانه ولا يغدرانه ولا يدلان عليه ولا يخبران بخبره أحداً ولا يسعيان ضده عند السلطان سليم فحلفا على ذلك ثلاثا فطاب قلب الملك الأشرف وسكن جاشه وبات ليلته وأصبح وقد أحاط العربان

بالمكان الذى هو فيه وأحدقوا به من كل جانب فخاف من كان معه من الغلمان والمماليك وتفرقوا عنه وأرسل ابن مرعى المذكور الى السلطان سليم يعلمه بالقبض على الأشرف ففرح السلطان بذلك فرحاً عظيماً وسير طائفة من عسكره فقبضوا عليه وقيدوه بالحديد وأتوا به بين يدى السلطان وهو فى زى العربان فقام له السلطان إجلالاً وعاتبه ثم أشار إلى بعض الواقفين من أصحابه فخرجوا بالأشرف من حضرته وأدخلوه فى خيمة أعدت له وأقاموا حولها الحرس من الغلمان الرماة والانكشارية فلبث إلى يوم الاثنين ثانى عشرى ربيع الآخر نحو سبعة عشر يوماً والأخبار عنه بين الناس كل يوم فى شأن.

(مطلب)

قتل السلطان الملك الأشرف طومان باى

فلما كان يوم الاثنين المذكور أركبوه على اكديش بعد أن عبروا به النيل من انبابه إلى بولاق وهو مكبل بالحديد فى زى العربان الهوارة وأمامه زهاء الأربعمائة من العثمانيين وساروا من سوق مرجوش ومروا به من القاهرة فتسابق الناس لرؤيته وهم فى دعاء له وصياح وجلبة عظيمة وكان يحييهم بلطفه المعهود وهو لايدرى أين هو ذاهب فلما جاءوا به عند باب زويلة وقفوا له وأنزلوه عن الاكديش وأرخوا حبالاً قد نصبوها له على السبيل الذى هناك ووقفت حوله العساكر بالسيوف فلما رأى ما فعلوه قال أو أنتم قاتلى اليوم ؟ قالوا بلى فتبسم والتفت إلى من حوله من جمهور الناس وقال وهو ثابت الجنان راسخ القلب اقرءوا لى الفاتحة يا إخوانى ثلاثاً واعفوا عما فرط منى فضج الناس وارتفعت أصواتهم بالبكاء والنحيب وعلت الضوضاء وارتفعت أصوات النساء من أعالى البيوت والتفت الأشرف إلى الجلاد وقال له: تقدم وافعل ما شئت فالله ولى الأمر فتقدم الجلاد ووضع الحبل فى عنق الأشرف وجذبه فانقطع الحبل وسقط الأشرف فضج الناس وصاحوا وولولوا فرفعوه ثانياً فانقطع الحبل فاشتد صياح الناس وعلت أصواتهم بالبكاء ففارقته روحه فبكاه الناس بكاءً مرًا وكان عند ذلك مكشوف الرأس وعليه ثياب من الجوخ الأحمر وفوقها ملوطة وفى رجليه سراويل من جوخ أزرق ثم تركوا جثته معلقة ثلاثة أيام حتى فسدت وأنتنت فأنزلوها وساروا بها إلى مدرسة عمه السلطان الغورى فغسلوه وكفنوه وصلوا عليه ودفنوه فى الحوش الذى خلف المدرسة. رحمة الله برحمته الواسعة.

قال أهل التاريخ: وقد كان شاباً حسن الوجه لا يتجاوز الرابعة والأربعين من العمر بطلاً مقداماً حازماً تولى النيابة فى القبة لما خرج عمه السلطان الغورى إلى قتال السلطان سليم بحلب فأحسن التدبير وأمن السبيل ودفع المظالم وأبطل الإحداثات والبدع وكان محباً للرعية شفوقاً كثير البر والإحسان وقوراً. قال بعض كتاب الأخبار: ولما جهز لقتال السلطان سليم حبب إليه بعض الأمراء أن يجبى الأموال من الرزق والأقطاعات معجلاً لنفقة الحرب فقال: لا ولا أجعلها نقطة سوداء فى صحيفة أعمالى وكانت مدة سلطنته ثلاثة أشهر وأربعة عشر يوماً إذ كانت ولايته فى الرابع عشر من رمضان وهروبه فى التاسع والعشرين من ذى الحجة وهى كلها حروب وكروب وخطوب. روى أنه لما كثر ظلم مماليك الغورى وزاد عبثهم بأمور الرعية وكثر فسادهم فى الأرض أبغضهم الناس جداً وضجوا إلى الله يطلبون الخلاص، واتفق أن رجلاً من خيار الناس رأى جندياً من عسكر الغورى أخذ متاعاً من دلال ولم يرضه فى قيمته فتبعه الدلال يطالبه بحقه وهو ممتنع فقال الدلال بينى وبينك شرع الله فضربه الجندى بدبوس شج رأسه وسقط مغشياً عليه فرفع الرجل يديه إلى السماء وقال: إلهى أنت أعلم بما تفعل هذه الفئة فاحكم فأنت خير الحاكمين ثم نام فى تلك الليلة وهو حزين مما رأى فرأى فى منامه أن ملائكة نزلت من السماء وبأيديهم مكانس وهم يكنسون الشراكسة كنسا فاستيقظ مدهوشاً وإذا بقارئ يقرأ قوله تعالى: ﴿**فانتقمنا منهم فأغرقناهم فى اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين**﴾ فعلم الرجل أن الله يأخذهم أخذاً وبيلاً فلم يمض إلا القليل من الأيام حتى قدم السلطان سليم وبدّد شملهم وأباد سلطانهم ومزقهم أيدى سبأ فزالت بموت الأشرف طومان باى دولة الشراكسة المعروفة فى عرف أصحاب التاريخ بالدولة الثانية فكانت مدة تصرفهم مائة سنة وإحدى وعشرين سنة وجملة سلاطينهم اثنان وعشرون سلطانا أولهم برقوق وآخرهم الأشرف طومان باى.

ولما دانت الأمور للسلطان سليم بموت الأشرف أخذ يرتب أمور البلاد على ما يشاء فجعل إدارة البلاد ثلاث طبقات وجعل فى كل طبقة منها رئيساً وجميعهم طوع أمر وزير الديوان الكبير ورتب هذا الديوان من والوالى المنتدب من قبل السلطنة على البلاد ومن بكوات سبع وجاقات عسكرية وخص الوالى المذكور بتبليغ الأوامر السلطانية إلى الديوان وحماية البلاد وتوصيل الخراج إلى الخزينة السلطانية وفصل الخصومات بين أرباب الديوان وبعضهم وإيقاف كل عند حده وخص أرباب الديوان

بنقض أوامر الوالى عند الحاجة وخلعه من المنصب عند الضرورة والتصديق على مايصدر منه من المراسيم الديوانية المتعلقة بأمور البلاد وقسم البلاد القبلية والبحرية إلى أربع وعشرين مديرية وولى جماعة من المماليك عليها فكان عليهم جمع الخراج وجباية الأموال ورد العربان عند خروجهم عن الطاعة وقيد هؤلاء الحكام ولم يطلق لهم العمل إلا بمشورة أرباب الديوان العالى ولقب أحدهم المقيم بالقاهرة بشيخ البلد، ثم قسم الخراج الذى يتحصل فى كل سنة إلى ثلاثة أقسام، الأول لمرتبات الجند من المشاة والفرسان والثانى لحاجات الحرمين والثالث للخزينة السلطانية وأقام من المرابطين لحراسة البلاد عشرين ألفا من المشاة واثنى عشر ألفا من الفرسان وجعل مقدمهم خير الدين أغا الانكشارى ورسم له بملازمة قلعة الجبل وعدم البراح منها. قال بعض كتاب الأخبار: ولم يلتفت إلى تحسين أحوال الرعية ولا نظر فى رفع تلك المضار السائدة على أهل البلاد ولا خفف عنهم شيئاً مما أتت به الحروب المتوالية والخطوب المتراكمة فكان هذا كله أكبر الأسباب التى آلت بهذا النظام إلى الزوال وبشوكة السلطنة العثمانية إلى الضعف والذبول على توالى الأيام. ثم انتقل بخيامه من الجزيرة الوسطى إلى الروضة وابتنى له كشكاً فوق قاعات المقياس وهو مشرف على النيل والروضة والمقياس فكان يجلس فيه محتجباً إلا عن بعض خواصه وكبار دولته ثم نزل من ذلك الكشك وسكن فى دار الأشرف طومان باى التى خلف حمام العراقى المطل على بركة الفيل وكان سبب ذلك أن بعض الانكشارية تآمروا على قتله فأحس بذلك ونزل من الروضة وسكن فى الدار المذكورة وأمر فقبضوا عليهم وكانوا كثيرين وأعملوا فيهم القتل والتفريق والشنق على أبواب القاهرة كباب زويلة وباب النصر وباب الفتوح حتى أفناهم.

وجاءت الأخبار إلى السلطان سليم بتأهب ملك فارس لقتاله ورد ما أخذ من أملاكه فأهمه هذا الامر جداً وأخذ يتأهب للخروج من مصر إلى الشام فعرض جميع الخزائن وحواصل الحكومة وأخرج ما فيها من سلاح ومتاع وكراع وغير ذلك ونقل جميع التحف والنفائس التى بالديوان الكبير بقلعة الجبل وكذلك التى كانت فى قاعة البيسارية والدهيشة وغيرهما وجمع جميع الكتب التى كانت فى خزائن المدارس على اختلافها وخاف أن يترك أمير المؤمنين المتوكل على الله فى منصب الخلافة فتطمع نفسه فى السلطنة فقبض عليه ليحمله معه إلى القسطنطينية وقيل بل أمره بالشخوص إليها فخرج يوم الثلاثاء عاشر جمادى الأولى وخرج معه ابنا عمه خليل

وهما أبو بكر وأحمد وخرج معه أيضـا الناصرى محمد العلائى على بن خاص بيك صهر الخليفة وكذلك الشـرفى يونس ابن الأتابكى سودون، وقبل خروج الخليفة نزع السلطان سليم منه الخلافـة قهراً ولبس شعـارها فى محفل حافل فـخرجت فى هذا اليوم الخـلافة من بني العـباس إلى آل عثـمان وزالت عنهم كـما زال الملك من ديار مصـر بزوال دولة الغورى فسبحان من بيـده تصاريف الأمـور وهو المعز المذل يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء إنه على كل شيء قدير.

وتأهب السلطان للرحيل عن مصر فسيـر أمامه إلى القسطنطينية من أولاد الملوك والسلاطين الذين كـانوا بديار مصر وكبار الأمـراء والقضاة ونواب القضـاة والشهود والعدول والمباشـرين والكتاب من القبطة وهم المعلم بانوب كاتب الخـزينة السلطانية والمعلم يوحنا الصغـير والمعلم أبو المكارم وغيـرهم وكثير من الأعـيان وكبار التـجار وأرباب الصنائع من مثل المهندسين والبنائين والنجارين والحدادين والمرخمين وصغار الفعلة فـساروا بهم فى يوم الجمعـة سابع عشـر رجب الفرد إلى الإسكندرية ثم إلى القسطنطينيـة وأنزلوا معهم شيـئاً كثيـراً من الرخام والعمد مما أنزلوه من قلـعة الجبل والقاعـات الكبرى وأخذوه من بيـوت الأمراء والأعيان من القـاهرة ومصر القـديمة وكانت شيئاً كثيراً.

قال بعض كتاب الأخبار : كان عدد من خرج من الأمراء وأولاد الملوك والقضاة وغيرهم زهاء ألف وثمانمائة وقيل بل أكثر من ذلك جداً فكانت شدة عظيمة للغاية.

(مطلب)

خروج السلطان سليم من مصر إلى مقر سلطنته بالقسطنطينية

ولما كان يوم الخميس ثالث عـشرى شعبان سنة ثلاث وعشرين وتسـعمائة خرج السلطان سليم يريد الرحيل إلى القسطنطينية فسار من بيت الأشرف ومر من الصليبة إلى الرميلة وهو فى مـوكب وجلالة وأمامه العـساكر والأجناد من المشاة والـفرسان وطوائف الأمراء وكبار الجند وعدة جنائب حربية والأمير خير بيك نائب مصر وجان بردى الغزالى وكـان السلطان راكباً على بغلة قـيل إنها كانت للسلطان الغـورى كان يركبها فى الأسفار وحوله جماعـة الوزراء وبينهم يونس باشا والدفتردار فسار بموكبه على السور ومر بتربة الأشرف قايت باى ووقف أمام القبر لحظة لطيفة ثم مرّ من بين

المقابر إلى تربة العادل التى بالفضاء واستمر على ذلك حتى نزل بالمخيم الذى نصبوه له ببركة الحج ولم تعلم العامة بخروجه فى ذلك اليوم فلم تقف للقائه والدعاء إليه كعاداتهم فى مثل هذه المواكب، ثم سار من بركة الحج إلى الخانقاه السرياقوسية . قال بعض كتاب الأخبار : ولما وضع رجله بالركاب يريد المسير تقدم إليه خير بيك بمفاتيح البلد فردها عليه وقا له : وليتك إياها إلى أن تموت بها فشاوره على أن أبناء الشراكسة يريدون الدخول فى خدمة الأجناد فأجابه إلى ذلك فشاوره أيضاً فى إبقاء أوقاف الشراكسة وهى نحو عشرة قراريط من أرض مصر فأجابه بإبقائها على ما كانت عليه فاستاء وزيره وقال فنى مالنا وعسكرنا ونسلمهم بلادهم وندخلهم فى عسكرنا ونبقى أوقافهم يستعينون بها علينا. قال فغضب السلطان وقال أين الجلاد فضرب عنق الوزير ووضع رجل الثانية فى الركاب وسار. قلت: ويقال إن لقتل الوزير المذكور سببا آخر، ولما نزل السلطان الخانقاه لاطفوه وسألوه عن سبب قتل الوزير فقال عاهدناهم على أنهم إن ملكونا بلادهم أبقيناها لهم وجعلناهم عليها فهل يجمل بنا أن نخون العهد؟ وإذا أدخلنا أبناءهم فى جندنا فهم مسلمون أولاد مسلمين وأما أرضهم فأصلها ملك الفاتحين ومنهم من أوقف ومنهم من قامت ذريته من بعده فهل يجوز لنا أن ننازع الملاك فى أملاكهم وإنما أزلت الوزير كراهة أن يغير علىّ اعتقادى بتكرار كلامه.

وسار من الخانقاه يريد بلبيس فلما صار على مقربة منها أصابه مرض حال بينه وبين ركوب دابته فأرسل إلى الأمير خير بك يطلب منه أن يعجل بإرسال محفة فأرسلها إليه فركبها وسار إلى الشام لقتال ملك الفرس فأقام هناك أشهراً وقد اشتدت به علته فسار إلى القسطنطينية فكانت مدة إقامته بمصر ثمانية أشهر إلا أياماً وكان من يوم قتاله للسلطان الملك الأشرف قانصوه الغورى فى مرج دابق إلى قيامه من القاهرة سنة واحدة وشهر واحد وقد تملك فى هذه المدة من الفرات إلى مصر والعراقين وما حولهما. قال بعض كتاب الأخبار: وكان دخول السلطان سليم بجيوشه إلى مصر من أكبر الضربات على البلاد وأهلها فقد هلك بسببه العدد العديد من الرجال والنساء والأطفال حتى الدواب وتخرب الكثير من المساكن والشوارع والحارات وكسدت التجارة وتعطلت الصناعة حتى بطل منها خمسون صنعة من أعظم الصنائع وأشرفها وزالت منها الخلافة كما زالت السلطنة وأصبحت أيالة تابعة لدار السلطنة العثمانية.

ولما ارتحل السلطان بعسكره إلى القسطنطينية اشتد به المرض وظهرت فى ظهره قرحة عظيمة عجز الأطباء عن علاجها فكانت توضع الدجاجة فى قرحته هذه فتذوب وشوهدت معاليق أكباده من خلف ومازال يشتد به المرض حتى مات سنة ست وعشرين وتسعمائة فكانت مدة سلطنته تسع سنين فتولى الملك بعده ولده السلطان سليمان.

(الفصل الثانى)

(فى سلطنة السلطان سليمان ابن السلطان سليم)

ثم قام بالأمر بعده ولده السلطان سليمان بويع له بالملك يوم موت أبيه سنة ست وعشرين وتسعمائة هجرية أى سنة تسع عشرة وخمسمائة وألف ميلادية وعمره يومئذ ست وعشرون سنة فكان عاشر ملوك آل عثمان وكان يوم مات أبوه مقيماً بإقليم سارخان فأخفى الوزراء خبر موت السلطان سليم حتى يحضر خوفاً من قيام الانكشارية وإضرام نار الفتنة فلما جاءه الخبر بموت أبيه سار إلى القسطنطينية فدخلها فى سادس عشر شوال وكانت طوائف الانكشارية فى انتظار قدومه فلما رأوه صاحوا بأصوات التهليل وطالبوه بالعطايا حسب العادة فطيب خواطرهم ووعدهم بالإحسان وفى غد ذلك اليوم أغدق عليهم من إنعامه وطير الخبر بخلافته إلى الآفاق وراسل جميع العمال والولاة وأمراء مكة والمدينة فى أمر الحكم بين الناس بالعدل فكان يستهل رسائله بآية: ﴿**إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم**﴾.

وعلم السلطان سليمان بما كان من إخلاص خير بك فى خدمة أبيه السلطان سليم فأعجبه ذلك ونظر إلى مصر نظرة الراغب فى فلاحها فأخذ فى تقرير أمورها على أحسن القواعد ورتب فيها ديوانين ينظران فى مصالح الرعية ويفصلان فى الخصومات فكان إذا انعقد هذان الديوانان جلس الوالى خلف ستار المنبر ليسمع ما تدور عليه رحى الحديث بعد أن يرسم الكتخدا والدفتردار بذلك فإذا تمت مباحثات المجلس رفع الكتخدا والدفتردار ما استقر عليه الرأى إلى الوالى فيرسم بتنفيذه وبلا نقض ولا إبرام فيقضيه الكتخدا من الدفتردار. ويختص الديوان الكبير من هذين الديوانين برؤية أهم الأمور التى لا علاقة لها بدار السلطنة العثمانية فكان لذلك

يتألف من أغوات الوجاقات الست والدفترداريين والرزنامجيين والنواب فى جميع وجاقات العساكر وأمير الحاج وقاضى القضاة والمشايخ والعلماء والأشراف وأصحاب الفتوى الأربعة والأئمة الأربعة، وكان لا يجتمع إلا فى المهمات من الأمور ولا يصح اجتماعة إلا بناء على طلب الوالى وكانت تأتى إليه المراسيم السلطانية على يد الوالى. وأما الديوان الثانى نكان ينعقد كل يوم فى بيت الوالى من الكتخدا والدفتردار والأغا وكبار وجاق المتفرقة ونائب من كل وجاق فينظر فى الأعمال وما تحتاج إليه البلاد من الأمور النافعة. ورسم السلطان بأن يكون مقر الوالى بقلعة الجبل وأن لاتزيد ولايته عن سنة واحدة ثم تعطى لغيره ممن يقع الاختيار عليه ورسم أيضاً بإبطال بعض المكوس والمغارم وأزال بعض العوائد والرسوم وهيأ الحصون ومهد المسالك وزاد فى نظام الجند فأنشأ وجاقاً سابعاً ممن بقى من المماليك الشراكسة ورتب لكل وجاق ديواناً ينظر فى شئونه ويتألف هذا الديوان من كبار الوجاق وأفراد من ضباطه وكان لكل منهم لباس مخصوص وعلامة مخصوصة تدل على مرتبته ووظيفته وكان عدد جند هذه الوجاقات كلها عشرين ألفا وربما زادوا أو نقصوا وكان لوجاق الانكشارية الأفضلية على سائر الوجاقات وكبير مقدم على جميع كبارهم وله الكلمة النافذة عليهم فى كل حال وهم يبجلونه ولا يخالفون له أمراً.

(مطلب)

تقرير الأمير خير بك على عمالة مصر وما جرى له

ولما أتم نظام الأمور على ما أراد أقر خير بك على عمالة البلاد وأجاز له التصرف فى الأمور بما فيه المصلحة وأن يعدل فى الرعية ولا يحدث شيئاً من المغارم والمكوس فجعل خير بك يتصرف تصرف الملوك والسلاطين وبدت من دلائل الجفاء والشدة. قال بعض كتاب الأخبار: ثم لم يلبث أن طغى وظلم وأخذ الناس بالشبهات وأساء إلى طوائف الجند فأبغضوه وتربصوا به الشر فلما أحس منهم بذلك أخذ فى تدبير الحيلة وجمع إليه من بقى من طوائف المماليك الشراكسة وقربهم إليه وأدنى كبارهم منه وأباح لهم ركوب الخيل وحمل السلاح وقد كان ذلك محرماً عليهم منذ دخول السلطان سليم القاهرة بعسكره ورسم فنادوا بذلك فى القاهرة ومصر القديمة وسوق السلاح وقلعة الجبل فشق هذا الأمر على طوائف الجند وأحسوا بما وراء ذلك من الخيبة إن هم ظلوا متقاعسين فقاموا قومة رجل واحد

وسيـروا طائفة منهم فوقفـوا لخير بك فى حـوش الديوان وكلموه فى ذلك وأغلظوا عليه فى القول ومنعـوه من الدخول إلى بيته وسبوه وهمّ بعضـهم بقتله فأفلت منهم وانزوى فى بيته فعاثوا فى قلعة الجبل وأزعجوا من فيها وتطاولت أيديهم إلى النهب وثاروا على خير الدين نائب القلعة وهموا بقتله فأغلق دونهم الأبواب واختفى منهم فى ذلك اليوم فنزلوا إلى المدينـة وتفرقوا وهم حاقـدون على خير بك ناقمـون عليه واشتدوا على الرعية فصاروا يشوشون على جميع الخلق بلا فرق ولا تمييز حتى على السـوقة والبـاعة وكـانوا يأخذون مـا فى البـيوت من الأبواب والشـبابيك وخـشب الأسقف للوقود وكـان إذا احتاج أحدهم إلى وقود للحريق ذهب إلى أقـرب البيوت لبيتـه وأخذ منه ما يحتاجه ليـوم أو ليومه وغده على مرأى من صـاحب البيت حتى أخذوا جميع ما فى الأماكن التى فى زقاق الكحل والسطاحى والتى فى الجسر وحكر الشامى والأزبكية من الأخـشاب وكانوا يبيعون ما فـضل منهم بأبخس الأثمان. قال بعض كتاب الأخبار: فـضج الناس وعجوا واجتمع أصحاب البيـوت وتبعهم العامة وساروا إلى بيت قاضى القضاة العثمـانى وشكوا إليه من فعال أولئك الجند وصاحوا واستغاثوا وقالوا: ما يحل ذلك يامولانا فشق الأمر على القاضى وركب من ساعته وسار إلى بيت الأمير قايتباى الدويدار وأخذه وسار إلى خير بك بمقره وأعلماه بالخبر وأغلظ القاضى فى القـول وهدد خير بك إن لم ينشط إلى الـعمل فجمع خـير بك كبار الجند واختـيارية الوجاقات وكلمهم فى ذلك فطيبـوا خاطره وهوّنوا عليه الأمر وطلبـوا منه أن يمنع فتـح الحوانيت ليـلاً فأمـر فنادوا بذلك فكانت السـوقة تقـفل الحوانيت قبل غروب الشمس.

واتفق فى هذه الأثناء أن جـاء رسـول من دار السلطنة فى طلب بعض الأمـراء المصريين وعدد من العساكـر الشاهانية يعنى الانكشارية والأصبهانية نجـدة ففرح خير بك بذلك ونادى فى العسكر بالتأهب للـرحيل فغضبوا وظنوها خـدعة من خير بك وأبوا الرحيل وزادوا فى الإفساد والإضرار بخلق الله فكانوا كلمـا أكثروا فيهم المناداة زادوا تمرداً وطغياناً ثم خـرج منهم جماعة إلى الشـرقية وآخرون إلى الغربيـة فعاثوا وأفسدوا وأحرقوا الحرث والنسل وانضم منهم جماعة أيضاً إلى بعض العربان وقطعوا السبل على المارة واختـفى منهم جماعة بالقاهرة ومـصر القديمة فشـدد خير بك فى التفتيش عليهم وقبض على جمـاعة منهم وسجنهم فى قلعة الجبل ورسم لرسول دار السلطنة بالتـأهب للسفر مـعهم بلا إبطاء فلمـا كانت الليلة التى قـبضـوا فى نهارها

عليهم اجتمع جميع الذين كـانوا فى القلعة منهم بالحوش وكسروا باب القلعة ونزلوا منها ليـلاً إلى مصر القـديمة وركبـوا بعض السفن التى وجـدوها هناك وساروا إلى الصعيد متفرقين فخشى خيـر بك شر العاقبة ورسم للأمير قايتباى الدويدار بالخروج خلفهم بخيله ورجله وأن يقتل كل من لقيه منهم فى الطريق بغير معاودة فقام قايتباى ومعه الأمير جانم الحمزاوى والأمير على العـثمانى وعبروا النيل إلى الجيزة فلبثوا بها يومهم حتى تكامل خروج عسكرهم ثم ساروا إلى ناحـية الميمون بالقرب من جزيرة عدى فالتقوا هناك مع الانكشارية فقاتلوهم قتالاً عنيـفاً وانتصر الأمير قايتباى عليهم نصرة عظيمة وحرق مراكبهم وقتل منهم خلقاً كثيراً بالمكاحل والبنادق وقبضوا على من بقى منهم وحـزوا رؤوس كبارهم وأصـحاب الكلمة فـيهم وعـادوا إلى القاهرة ففرح خير بك بذلك ورسم لوالى القاهرة برفع تلك الرؤوس على أبواب المدينة فلم يمكنه كبـار الانكشارية من ذلك وكادت الفـتنة تقوم بالقـاهرة، وخاف من بقى من الانكشارية والأصبهـانية وانكمشوا وأطاعوا وخرج منهم طائفة كـبيرة مع رسول دار السلطنة إلى الريدانية ثم رحلـوا عنها بعد أيام إلى الشام مع بعض الأمـراء المصريين الذين جاءهم الطلب فكانت هذه الوقعة أول فتن الانكشـارية بعد أن تسلموا حراسة البلاد والذب عنهـا، ولما ظهرت الفتنة على النحو المذكـور ضعفت شوكـة خير بك وكادت هيـبته تزول وطمع العـربان فى البلاد وخـرج حسن بن مرعى شـيخ عربان البحيـرة فى طائفة كبيـرة من قومه وانضم إلى جماعـة من عربان الشرقيـة وغيرهم وعاثوا فى بلاد البحيرة وأفسدوا ونهبوا وقتلوا وسلبوا وقطعوا السبل على المارة وسار بهم ابن مرعى المذكـور يريد القاهرة ووردت الأخبار بذلك إلى خـير بك فاضطرب ونزل من قلعة الجبل إلى الميدان وعرض جميع المماليك الشراكسة والعساكر العثمانية واختـار منهم جماعـة وسيرهم مع الأمـير قايتـباى الدويدار والأمير خـورشد كبـير العثمانيـين وكانت الأمور قد ضاقت جداً على أهالى الشرقـية والغربية واتسع نطاق الفتنة واستفـحل أمر الفساد وفعل أولئك الناس بالقرى مـا لا يطاق من الجور وظهر عبد الدائم بن بقر وإخوته وهو من زعماء عربان الشـرقية فعاث أيضاً وأفسد وخرب بلاداً كثيرة من الشرقية والغربية وعمت الفتنة البر والبحر فكبر خوف الأمير خير بك وشدد على قايتباى الدويدار وخورشد بالقيام إلى البحيرة أولا وقطع شأفة ابن مرعى وأصحابه فحثوا السير فلما أحس ابن مرعى بقدومهم وعلم أن لا قبل له على قتالهم أرسل أخاه شكرا إلـى الأمير خـير بك يطلب له الأمـان فكتب إليه خيـر بك يؤمنه

وبعث إليه صورة يمين ليحلفه علـى يدى القاضى فخر الدين بن عوض وأرسل إليه كذلك قفطـان حرير مخمل وخلع على أخـيه شكر خلعة أخرى وكـتب إلى الأمير قايتباى أن يتربص بعساكره فتربصوا فى المكان الذى أدركهم فيه الخبر وجاء حسن بن مرعى صحبة القـاضى فخر الدين بن عوض وصعد إلى قلعة الجـبل فأكرم خير بك لقاءه وخلع عليـه خلعة سنية ثم أنزله فى موكـب حافل وعادت الأمور فى البـحيرة والغربيـة إلى سابق مـجراها واطمـأنت قلوب الرعيـة وتحول قايتـباى بمن مـعه من العساكر نـحو الشرقية فلما علم بقـدومه عبد الدائم بن بقر زعيم العـصاة بها أرسل إلى خيـر بك يطلب الأمان فأجـاب إلى ذلك وأرسل يستقـدمه فحضـر إلى القاهرة ومعه جماعة من العربان وحضر مـعه أبوه أحمد بن بقر فلما مثل بين يدى خير بك أكرم لقاءه ولقـاء أبيه وهمّ أن يخلع عليهمـا ويقرر عبد الدائم المذكور على شـياخة عربان الشرقيـة فقال أبوه: إن أنت فعلت ذلك أيها الأمير جـلبت على أهل الشرقية وبالاً ومكنت ولدى هذا من رقاب الأبرياء وزدت نار الفتنة إضرامـاً فعجب خير بك بكلامه وأمر فى الحال فقـبضوا على عبد الدائم وكبلوه بالحديد وقـبضوا على جميع من جاءوا معه مـن أصحابه وسلموهم إلى خير الدين بك نائب القلعـة ففرح الناس بذلك فرحاً لا يوصف لاسـيما أهل الشرقية والغـربية واطمأنت قلوب الخلق وزالت عنهم المخاوف ثم بعد أيام قلائل أخرجوا من أولئك العربان عدة أشخاص وأماتوهم شنقاً بعـضهم على قنطرة الحاجب وبعضـهم على رأس الحسينية وبعـضهم عند باب النصر وقتلوا آخرين بغير ذلك أيضاً. وأما حـسن بن مرعى شيخ عربان الغربية فإنه بعد أن خلع عليه خلعة الرضا وأعاده إلى الغـربية معززاً لم يلبث بها إلا قليلاً حتى دس خير بك إلى إينال السيفى طراباى كاشف الغربية بأن يقتله مع أخيه شكر فأخذا إينال المذكور يكاتب ابن مرعى ويتودد إليه ويظهر له غاية الإخلاص والمودة حتى أمن جانبه ومـال إليه ثم أدب له مأدبة عظيمـة فى بلدة قريبة من دمنهور ودعـاه إليها مع أخيه شكر فـأجابا دعوته وأتيا إليـه فأحسن لقاءهمـا وبالغ فى الترحيب بهـما حتى حضر الطعام فأكلوا جميعاً ثم انتقلوا إلى مجلس الشراب فشربوا فبينما هم كذلك إذ خرج على حسن وأخـيه جماعة من المماليك الـشراكسة من مكان كانوا مخـتفين به وعاجلوهما بضرب السـيوف واحتزوا رأسيهما فأرسل بهـما إينال الكاشف إلى خير بك ففـرح ورسم لوالى القاهرة برفعـهما على باب النصـر فرفعهـما وتزاحم الناس لمشاهدتـهما . قـال بعض كتـاب الأخبـار : وحسن بن مرعى هـذا هو الذى غدر

بالسلطان الملك الأشرف طومان باى وقبض عليه وسلمه إلى السلطان سليم واتفق إنه لما سار حسن المذكور إلى مأدبة الكاشف إينال السيفى كان راكباً على فرس السلطان الملك الأشرف التى كان أخذها يوم سلمه الى جند السلطان سليم بعد أن أقسم أنه لا يخونه ولا يدس عليه فلما احتز المماليك رأسه ورأس أخيه شكر ربطوهما فى عنق ذلك الفرس ودخلوا بهما القاهرة على هذه الصورة فعد ذلك من النوادر العجيبة فى بابها.

وفرح خير بك بموت ابن مرعى وعده من أكبر أسباب الظفر وبث العيون والأرصاد حول جماعة العربان فى البحيرة والغربية والشرقية وشدد فى ذلك فانكمشوا وخافوا وتمكن كاشف المنوفية من قتل شيخ العرب على الأسمر بن أبى الشوارب فاختفى من بقى من كبار العربان وأصحاب الكلمة فيهم وسلكت بعض الطرق التى قطعها العربان واطمأنت قلوب الناس ولكن لم تطل هذه الأيام حتى عاد عربان السوالم إلى الخروج بالشرقية وكاد يستفحل أمرهم وعاد الناس إلى التخوف فأعمل إياس كاشف الشرقية الحيلة للقبض على مشايخهم ومازال يتقرب منهم ويتودد إليهم حتى استدعاهم إلى مأدبة أعدها لهم فركنوا إليه واطمأنت من قبله قلوبهم وأتوا إليه فأكرهم لقاءهم وأحسن وفادتهم ولم يقضوا معه يومهم حتى قبض عليهم وقتلهم وسلخ جلودهم وحشاها بالتبن وأرسل يعلم الأمير خير بك بالخبر فسير إليه خير بك طائفة من الانكشارية والأصبهانية والجراكسة فأحاطوا بمنازل عربان السوالم وقتلوا من وجدوه بها من الشيوخ والنساء والأطفال وغنموا ما فيها من الخيل والإبل والأغنام والإماء والعبيد والملبوس والمفروش وقبضوا على الشيخ نجم شيخ عربان العائد لاتهامه بإمداد عرب السوالم وأتوا برؤوس من قتلوا مع جلود المشايخ إلى القاهرة فتفرق من بقى وطلع جماعة إلى الجبال. ونزل جماعة إلى الصالحية فأحرقوها وأحرقوا ما جاورها من القرى والكفور وقتلوا ونهبوا أخذاً بالثأر واشتدت الفتنة وعمت جميع أنحاء الشرقية فولى خير بك أخا نجم شيخ عربان العائد شيخاً بدل أخيه نجم وجهز لقتال السوالم طائفة من الانكشارية والأصبهانية وأخرى من المماليك الشراكسة وطائفة من الرماة بالبنادق وبعض المكاحل وكان لما قبضوا على نجم شيخ عربان العائد قام أيضاً أصحابه وعاثوا فى بلاد الشرقية وقطعوا الطرق على أبناء السبيل وانحدروا حتى أتوا على رأس المطرية فكانوا يقبضون على المارة ويسلبون ما يجدونه معهم فلما وصلت العساكر إلى الشرقية هرب من بقى من السوالم وأطاع

من كبارهم من لم يهرب وسلموا بأنفسهم إلى إياس كاشف الشرقية فنزل بهم إلى القاهرة ودخل بهم على الأمير خير بك فأكرم لقاءهم وخلع عليهم خلع الرضا وأقرهم على المشيخة بشرط الطاعة وحسن الولاء والإخلاص فى خدمة الدولة فأطاعوا.

(مطلب)

خروج الغزالي والي الشام عن طاعة السلطان وعزمه على الزحف على مصر وضمها إلى الشام

ورسم خير بك بشنق شيخ العرب أبو الشوارب فشنق ومعه آخرون من كبار العربان ثم عاد فعفا عن نجم شيخ العائد وأفرج عنه وولاه المشيخة ثانية وأطلق آخرين من كبار السوالم وكان الحامل له على ذلك ما ورد إليه من الأخبار بخروج جان بردى الغزالى والى الشام عن طاعة السلطان واستقلاله بملك الشام واتخاذه لنفسه شعار السلطنة، وأنه قد خضع له جميع الولاة والعمال وقبلوا الأرض بين يديه وزينت له جميع المدن والبلدان أياماً ثلاثة فلقب نفسه بالملك الأشرف أبى الفتوح وكتب إلى جميع الولاة يستحثهم على تجنيد الجند وإعداد آلات الحرب لقتال خير بك بمصر وأخذ البلاد منه وضمها إلى الشام كما كانت على عهد من سلف من الملوك والسلاطين. وكان الحامل له على قتال خير بك أنه لما هم بالخروج وشق عصا طاعة السلطان راسل خير بك فى ذلك وحبب إليه الخروج وألح عليه فى الطلب وهون عليه الأمر، فخدعه خير بك وسير كتب الغزالى إلى السلطان وعلم الغزالى بخبر ذلك فأكبره وأعظمه جداً وتجرد لقتال خير بك فخاف خير بك من هذه الأخبار وخشى سوء العاقبة فأطلق لذلك من أطلقهم من مشايخ وكبار العربان الذين كانوا فى السجون وعاهدهم وأمدهم بالأسلحة والكراع ورسم لهم بقتال جان بردى الغزالى فى طريقه قبل أن يصل إلى الديار المصرية فخرج منهم جماعة وساروا إلى الشام لمنع الغزالى ولومه وكان الغزالى قد جمع إليه جموعاً كثيرة من الأكراد وعربان جبل حوران ونابلس وعربان بنى عطا وبنى عطية وغيرهم من طوائف العربان وخرج من دمشق فى جيش عظيم للغاية وجموع كثيرة جداً يريد الديار المصرية فاهتم الأمير خير بك لذلك وعرض العساكر والأجناد وجمع طوائف الانكشارية والأصبهانية والكمالية المماليك الشراكسة وغيرهم ممن شاء الدخول فى خدمة الدولة وجماعة

كثيرة من المغـاربة والروم أصحاب الحرف والصنائع وأكثر من جـمع السلاح وإنشاء المركـبـات والعـجـلات لجـر المكاحل ونادى فـى هذه الجـمـوع والأجناد بالتـأهب والاستعداد.

(مطلب)

قتل الغزالي وإرسال رأسه إلى دار السلطنة

وبينما كان خـير بك يجند الجنود ويكثر من جمع السـلاح كانت رسل الغزالى تأتى إلى مصر بالرسائل إلى بعض الأمراء من الروم وبعض التجار والجواسيس تنقل من أخبـار خير بك إلى الغـزالى كل ما وصلوا إلى معرفـته فأحس خـير بك بذلك وشدد ومنع من دخول الأغـراب إلى القاهرة إلا بعد البحث والتنقـيب عن أحوالهم وقبض على بعض الروم من تجار خـان الخليلى وأمر بقتلهم فقـتلوا تحت قلعة الجبل بتهمة نقل الأخـبار وكان من أمره أنه إذا نقل إليه أن أحد الناس مهمـا كانت درجته ذكر الغـزالى فى مجلس أو تكلم عن زحفـه على ديار مصر أو عن استـقلاله بملك الشام أمر بصلبه على أحد أبواب القاهرة ثم أمر بإلقاء جثته للكلاب فتنهشها فخاف الناس جـداً وانكمـشوا وقل خـروجـهـم إلى الأسواق وجلوسـهم على الحـوانيت، وجاءت الأخبار بوصول طلائع لموم الغزالى إلى اقطيا فـجرد خير بك لقتالهم طائفة من الأصبـهانيـة وأخرى من الكمـالية فـساروا من الريدانيـة إلى بلبيس ومنـها إلى الصالحية فأفـسدوا فى طريقهم وعاثوا ونهبوا الكثير من الضـياع وعلى الخصوص ما كان منها حول بلبيس والصالحية وأخذوا ما فـيها من الشعير والسمن والطيور وأذاقوا أهل البلاد مرارة الجـور وانقطع الوارد من الديار الشامية وسـدت المسالك فى وجوه أصحاب التـجارة فانكفوا وانقطعت العـلائق مع أهل الشام وكتب خيـر بك بتحرير الخبر إلى دار السلطنة فـاهتمّ السلطان بأمر الغزالى وجند لقتـاله الجنود وسيرها على قدم السرعة ومقدمها الوزير فرحات باشا فلاقته العساكر السلطانية عند حلب الشهباء وكان الغزالى محـاصراً لها فقاتلته قتـالاً عنيفاً أياماً كثيرة ثم انتـصرت عليه ومزقت شمل جنوده ففر وسار يريد الشام وقد كسر جسر الرسـتين فتبعته العساكر السلطانية وقاتلته خارج دمشق قتالاً شديداً أياماً مات فيه خلق كثير قيل عشرة آلاف وقيل أكثر من ذلك وضيق عليه العساكر السلطانية وسدّوا عليه المسالك حتى قبضوا عليه وقتلوه ذبحا كـذبح الشاة وأخذوا رأسـه مع رؤوس كثيـر من كبار قـومه وأرسلوها إلى دار

السلطنة. قال بعض الكتاب: وكــان الغزالى هذا من مماليك الأشرف قايتبــاى اشتراه وأعتقـه وأخرج له خيلا وقـماشاً وصار من جملة المـماليك السلطانية ثم استـخدمه الأمير تغرى بردى الأستادار شادا على ضيعـة له بالشرقية يقال لها منية غزال فنسب إليها وقيل له جـان بردى الغزالى مضافاً لاسم تلك الضيعة ثم إن الأشـرف قايتباى قرره جمـداراً وجعله فى كشف الشـرقية ثم صار أمـير عشرة فى آخـر دولة الناصر محمـد بن قايتباى ثم تولى مـحتسباً للقـاهرة فى دولة السلطان الغورى ثم ولاه فى حجوبية الحـجاب بمدينة حلب فخرج إليها مـن يومه ثم نقله السلطان الملك الغورى إلى نيابة صفد وذلك سنة سـبع عشرة وتسعمائة ثم إلى نيابة حـماة فلبث بها حتى كان ما كان بين الغورى والسلطان سليم فانضم الغزالى بعسكره إلى جيوش السلطان سليم فولاه الـسلطان سليم الشام وجـعل له التحدّث على الشـام وحمـاة وحمص وصيدا وبيـروت وبيت المقدس ورملة والكرك وغيـر ذلك من الأعمال الشامـية فلما استقر به هذا المنصب تاقت نفسه إلى الاستقلال بملك الشام فصار يجند الجنود ويكثر من المعـدات وآلات الحرب وضم إليـه الكثير من عـربان حـوران ونابلس والكرك وغيرهم واستمـال كثيراً من المماليك الجراكسة ممن كـانوا فى خدمة الدولة فى مصر فساروا إليـه ولحقوا بعسكره ولحق به أيضاً كـثير من الأكراد والتركمـان ومازال حتى بلغت جنوده اثنى عشر ألف مقاتل وبينهم كـثير من الرماة بالبنادق فزحف بهم يريد فتح المدن والأمصـار وألبس نفسه شعار السلطنة وتلقب بالملك الأشـرف أبى الفتوح وضربت السكة باسمه وخطب له على المنابر فى دمشق وغيرها من المدن قيل خطب له بدمشق جمعتين، وكان طائشاً عديم الرأى غـير بصير بعواقب الأمور كثير الأخذ بالشبهات كبـير البطش وكانت مدة ولايته على نيابة الشام ثلاث سنين وسـبعة أشهر إلا أياماً ولقد صدق من قال :

والنفس لا تنتهى عن نيل مرتبة — حتى تروم الذى من دونه العطب

ولما جاءت الأخبـار بزوال ملك الغزالى وسقوطه فى قـبضة العساكـر السلطانية وقتله فرح الأمير خير بك فرحاً عظيماً إذ لم يكن عنده من الجنود ومعدات القتال ما يقوى مـعه على مبارزة جـموع الغزالى وجيـوشه المنظمة لاسـيما وقد كـانت الفتنة ضارية بين كـبار جند خير بك ورؤسـاء عسكره وكان كلمـا أخرج طائفة وسيـر بها لقتـال الخوارج عاثت فى البـلاد وأهلكت الحرث والنسل وفعلت مـا لا تفعله جنود العدو إذا احتلت البلاد عنوة وكان يخاف جـداً من طوائف المماليك الشراكسة حيث

تحقق له أن بعض كبارهم مالوا عنه وانضموا إلى دعوة الغزالى وأنهم يراقبون الفرص ويتأهبون للخروج عند أول سبب، وعادت المواصلات التجارية ما بين مصر والشام بعد موت الغزالى وجاءت قوافل التجارة بأصناف البضائع على اختلافها وزالت وحشة الناس وسكنت خواطرهم بعد الخوف وزاد اطمئنانهم بوصول الأخبار من دار السلطنة بأن السلطان سليمان أجاز لمن كان أحضرهم أبوه من الأمراء المصريين والقضاة ونواب القضاة والشهود والعدول والمعتبرين والتجار وأرباب الحرف والصنائع من المصريين يوم خروجه من مصر بعد فتحها أن يعودوا إلى أوطانهم فلم تكن إلا أيام بعد ذلك حتى حضر منهم من لم تخترمه المنية. قال بعض كتاب الأخبار: وقد ذاقوا الذل ألوانا وأصبح الأعيان والمباشرون منهم لا يملكون شروى نقير حيث نفدت أموالهم، وجاءت أيضاً خاتون سلطانة عمة السلطان سليمان ومعها ولدها الأمير مصطفى تريد الحج إلى بيت الله الحرام وكان حضورها فى كبكبة زائدة وخدم وحشم وكثير من الخصيان فقوبلت بغاية الاحتفاء والاحتفال وسار الأمير خير بك وجميع الأمراء وكبار المماليك فى ركابها حتى نزلت فى بيت مطل على بركة الفيل ورتبت لها ولخدمها المآكل والمشارب ووقف على بابها بعض الحجاب وزارها نساء الأمراء وقدمن لها التحف والهدايا النفيسة فلما خرج المحمل خرجت مرافقة له فى هودج وأمامه الخدم والحشم وبالغ أمير الحج فى تنظيم الركب وسير أمامه المركبات وعليها المكاحل والمدافع النحاس وأنفقت السلطانة فى الحرمين أموالاً عظيمة وشيئاً كثيراً من الأقمشة والغلال وتصدّقت على الفقراء ونزلاء التكايا وكثر فى هذا الحين إفساد الانكشارية والأصبهانية بأسباب عدم صرف جماكيهم وتأخير مرتباتهم فنزعوا إلى الثورة وتعرضوا لخير بك فى طريقه وتحت القلعة وخاطبوه ببذئ القول وفحش الكلام وأقسموا أنهم ينهبون المدينة إن هو أصر على إيقاف صرف جماكيهم ومرتباتهم ووقف جماعة منهم على أبواب الأمراء يهددونهم إن لم يكلموا خير بك فى ذلك فكلموه وحذروه شر العاقبة فصرف لهم بعض المال على قدر الحاجة واعتذر بقلة ذات اليد وعجز المباشرين عن جباية الأموال وتعذر البيع والشراء وكساد الحال وبوار الكثير من المزارع وتشرد أصحابها بسبب فعال العساكر وعبثهم بالبلاد ثم شدد على المباشرين وطالبهم بالمال فانبثوا فى البلاد وطلبوا قسط الخراج معجلاً قبل وفاء النيل وزرع الأراضى وضيقوا على أهل البلاد وبالغوا فى التشديد وقد كان متحصل خراج مصر فى هذه الدولة أى دولة السلطان سليمان على ما قاله بعض الكتاب ألف

ألف دينار وثلثمائة ألف دينار ذهباً ومن الغلال ستمائة ألف أردب منها ثلثمائة ألف قمحاً وثلثمائة ألف شعيراً وفولاً وغير ذلك فى كل سنة.

(مطلب)

كم كان خراج مصر في دولة السلطان سليمان وما بعده إلى هذا الحين

(قلت): وكان خراج مصر على عهد المقوقس عظيم القبطة على ما رواه تقى الدين فى خططه مائة ألف ألف دينار وثمانين ألف ألف دينار وكانت مساحة أرضها على عهد الفراعنة مائة ألف ألف فدان وثمانين ألف ألف فدان تزرع غير البور وبلغ خراج مصر على عهد عمرو بن العاص وعبد الله بن أبى السرح فى صدر الإسلام اثنى عشر ألف ألف دينار وفى أيام أحمد بن طولون أربعة آلاف ألف ألف دينار وثلثمائة ألف دينار غير ما يتحصل من المكوس والغلال، وجبى خراجها فى الدولة الإخشيدية فكان ألفى ألف ألف دينار وجبى خراجها فى أيام الملك الظاهر بيبرس البندقدارى فكان اثنى عشر ألف ألف دينار (قلت): وهو اليوم عشرة آلاف ألف ألف وخمسمائة ألف وبضع مئات ذهباً أى جنيها، وكانت جوامك ومرتبات العساكر فى ذلك الحين درجات بعضها فوق بعض فكانت جمكية الأصبهانية منهم ستين ديناراً وخمسين وأربعين وثلاثين وعشرين فى كل شهر والانكشارية ما بين خمسة عشر واثنى عشر ديناراً فى كل شهر والصوباشية ثلاثين ديناراً فى كل شهر والكمالية ما بين اثنى عشر وعشرة دنانير فى كل شهر والمماليك الشراكسة سبعة دنانير فى كل شهر هذا عدا مرتبات الأمراء وكبار الجند وعظمائهم وكانت هذه الجوامك والمرتبات لا تصرف إلا من خراج الشرقية والغربية والبحيرة والأقاليم القبلية فقط دون الأموال الخارجة من الشغور كثغر الإسكندرية ودمياط ورشيد والبرلس وعبدة وغيرها فإنها كانت تحمل إلى خزائن السلطان مباشرة فلا يأخذ الوالى منها شيئاً حتى ولا للجهاد والغزو وكانت أيضاً بعض المغارم والمكوس تحمل كذلك إلى خزينة السلطان فلا يأخذ الوالى منها شيئاً وسرى ذلك إلى ما كان مقرراً على الرزق والاقطاعات والأرزاق الأحباسية والأوقاف وترك الأموات من طوائف الترك والمماليك الشراكسة، ثم تعدى ذلك أيضاً إلى ما كان مقرراً لنواب القضاة والشهود على عقود الأنكحة فقيدوا به قاضياً مخصوصاً اسمه القسام فضرب على عقد البكر ستين نصفاً والثيب ثلاثين نصفاً كانت تحمل إلى الخزينة السلطانية.

(مطلب)

إبطال السلطان سليمان لقضاة المذاهب الأربعة

ولما كانت سنة ثمان وعشرين وتسعمائة رسم السلطان سليمان بإبطال قضاة المذاهب الأربعة من التصرف في القضاء بديار مصر وتسليم جميع الأحكام الشرعية لقاض واحد من قضاة الروم وأن تبطل وظائف سائر النواب والشهود وأن لا يبقى سوى أربعة من النواب لكل مذهب نائب لاغير ولكل نائب منهم اثنان من الشهود لاغير وأنهم يكونون جميعاً بالمدرسة الصالحية فلا يصح بعد ذلك لأحد أن يوقف وقفاً أو يعقد عقداً أو يكتب وصية أو عتقاً أو إجارة أو حجة أو غير ذلك من الأمور الشرعية حتى تعرض على قاضى العسكر المذكور ونودى فى القاهرة ومصر القديمة بذلك فاضطربت أحوال الناس كافة وانكمش جميع القضاة والنواب والشهود وصاروا يتوقعون حضور قاضى العسكر المذكور فى كل يوم فلما كان يوم الاثنين عاشر رجب من السنة أى سنة ثمان وعشرين وتسعمائة قدم إلى القاهرة القاضى المذكور واسمه سيدى چلبى فأوكبوا له موكباً حافلاً وساروا به حتى أنزلوه فى بيت الأمير جانم مصيفة الكائن خلف المدرسة الغورية فلما استقر به المقام قدم عليه قاضى القضاة الشافعى كمال الدين الطويل وقاضى القضاة المالكى محيى الدين الدميرى وقاضى القضاة شهاب الدين الفتوحى الحنبلى وكان قاضى قضاة الحنفى مريضاً فى هذا الحين فلم يحضر. قال بعض كتاب الأخبار: فلما دخلوا عليه لم يجلهم ولم يقم لقدومهم وكان شيخاً مسناً أبيض اللحية طويل القامة على عينه سحابة فصيح اللسان يحسن العربية جيداً فكلمهم ساعة ثم انصرفوا فلما كان اليوم الثانى نزل الأمير خير بك من قلعة الجبل إلى الميدان وجلس بالمصطبة وجلس معه الأمراء العثمانيون والأمير قايتباى الداودار ثم حضر القاضى المشار إليه وبين يديه المرسوم السلطانى فقرئ المرسوم بحضرة من ذكروا وهو يتضمن تسليم زمام جميع الأحكام الشرعية فى المذاهب الأربعة إليه وأن يكون القائم على جميع الأمور الشرعية على اختلافها ثم كان منه بعد ذلك أن رتب جميع الأمور التى تتعلق بالأحكام والقضاة فأقام قاضياً للحنفية من الروم يحكم بالنيابة عنه وجعل مقره بالمدرسة الصالحية وأقام آخر للحكم على مذهب الإمام الشافعى بالنيابة عنه وأقام لكل قاض من الروم نائباً من قضاة مصر فجعل القاضى شهاب الدين بن شيرين الحنفى نائباً عن القاضى

صلاح الدين العثمانى وجعل القاضى شمس الديـن محمد الحلبيى الشافعى نائباً عن القاضى فتح الله العثمانى وجعـل القاضى أبا الفتح الوفائى أحد نواب المالكية يحكم بين الناس على قاعدة مـذهبه والمرجع فى جميع الأحكام إلى قـاضى العسكر المشار إليه ثم رسم بأن لا يبقى مع كل نائب من هؤلاء الأربعة سوى شاهدين اثنين وأبطل سائر النواب والشهود ورسم للرسل والوكلاء الذين بالمدرسة الصالحية بأنهم إذا وقفوا أمامة يأخذون بأيديهم العصى فاجتمع منهم بالمدرسة زهاء الستين.

(مطلب)

ما تقرر من الرسوم على التركات
لبيت المال وما أحدث من الإحداثات

ثم أقام أيضاً شخـصاً من الروم للتحدث على التركات سماه (القـسام) فضرب على كل تركـة الخمس لبيت المـال مع وجود الورثة من الذكـور والإناث وشدد فى طلب ذلك ونودى فى القاهرة ومصـر القديمة بذلك وبأن لايعقد أحـد من الشهود قاطبة عقداً ولا يكتب وصـية ولا إجارة ولا مبايعة ولا شيئـاً من الأمور الشرعية إلا فى المدرسة الصالحـية وشدد فى السيـر على مقتضى الشريعـة والعمل بموجب السنة وعامل الغنى والفقـير والجليل والحقير على السـواء فهابه الناس كافة وخـافه الأمراء والكبراء حتى إذا كان لأحد من العامة فى ذمة أحدهم شىء بادر إلى إرضائه وتلطف فى معـاملته خـوفاً من الشكوى. ورسم فـنادوا فى القاهرة ومـصر القديـمة بأن لا تخرج امرأة إلى الأسـواق إلا العجائز منهن ومن خالفت تضـرب وتربط من شعرها بذنب أكديش ويطاف بها فى القاهرة ومصر فخاف النساء خوفاً عظيماً وانكمشن ولم يخرجن. واتـفق أنه صعد إلى قلعـة الجبل يومـاً فوجـد بعض النسوة يتـحدثن مع جماعة من العسكر الأصبهانية فى وسط السوق فعز عليه هذا الأمر وكلم الأمير خير بك فى ذلك فرسم الأمـير خـير بك بأن لا تخرج امـرأة من بيتـها ولا تركب على حمار مكارى وكل مكارى أركب امرأة شنق من يومه فخاف المكارية وبارت حرفتهم فباعوا حـميرهم قاطبة واشتـروا بدلها أكاديش وشدوها فصارت النسـاء يركبن عليها وتحتـهن الطنافس والمكارى يقود لجـام الأكديش كمـا يفعل المكارية بالقسـطنطينية، ورسم القاضى أيضاً بمسح أطيان الأقاليم القبليـة وترتيب سائر الرزق الأحباسية على قاعدة نظمـها هو لذلك وقيد بهذا العـمل القاضى فخر الدين ابن عـوض فسار إلى

الصعيد ومعه جماعات المساحين والقياسين وطوائف الكتاب والمباشرين فجعل يدخل كل ما يجده من أطيان الرزق الأحباسية فى المساحة العمومية وحبس غلاتها ومنع أصحابها من أخذ شيء منها فاضطربت أحوال أصحابها ووقفوا إلى الأمير خير بك فى طريقه يشكون له مما يفعله القاضى فخر الدين بن عوض وأبرز إليه بعضهم مكاتيبهم بتلك الرزق وبعضهم أبرز مربعاتهم فأخذها منهم وصرفهم خائبين ورسم بإدخال رزقهم فى أطيان الذخيرة. قال بعض أهل التاريخ: ولم يكن ليتعرض لهذه الرزق قط أحد من سلاطين مصر ولا أخرج منها شيئاً عن أصحابها منذ أنشأها الإمام الليث بن سعد فإنه هو الذى دون الأحباس وأنشأ لها فى أيامه ديواناً يختص بها دون ديوان الجيش واستمر ذلك باقياً بعد الإمام الليث حتى قام القاضى فخر الدين بن عوض المذكور فنقضه وهو على جهات البر والإحسان.

قلت: ومن هذا الحين زالت ولاية الأحكام الشرعية أيضاً عن قضاة مصر الأربعة كزوال الخلافة والسلطنة عنها وآلت إلى قضاة الروم يتناوبها الواحد بعد الواحد فيولى ويعزل من القضاة والنواب والشهود من يشاء وقد تبدلت هيئتها وزالت رسومها القديمة وخرجت من طور إلى آخر وضاقت حدودها إلا على من أجازهم قاضى العسكر المشار إليه بتولى الأحكام وبطل من هذا الحين أيضاً جلوس الشهود على الحوانيت للفصل فى الخصومات لا سيما ما كان منها بين المتزوجين وزوجاتهم ومن كان منهم له حانوت لذلك أغلقه وزالت عن أولئك القضاة والشهود والنواب بهجتهم ورونق وظيفتهم وصارت المدرسة الصالحية دار الشريعة ومقر المتحدثين عليها دون بقية الجهات ولبث القاضى المشار إليه على هذا الحال من الشدة وعدم التهاون حتى بصغائر الأمور مدة والناس فى قلق واضطراب عظيمين يضجون ويعجون إلى الله بزوال منصبه وإذهاب سلطته.

(مطلب)

خروج قاضي القضاة إلى الحج

فلما كان السادس والعشرون من شعبان خرج القاضى المشار إليه يريد الحج من طريق القلزم فركب وركب معه إلى تربة العادل مودعاً الأمير خير بك وبقية الأمراء من العثمانيين والشراكسة وكبار الجند وقدموا له بعض التقادم والهدايا النفيسة فسار إلى مدينة بلبيس ثم إلى السويس ومنها إلى مدينة جدة ففرح الناس بخروجه وكانت النساء أشد فرحاً وأكبر سروراً فغنت بعض المغنيات منهم بهذه الكلمات :

قوموا بنا نقحب ونسكر قد خرج عنا قاضى العسكر

فكانت عند العامة من أطرب المغانى وأحسنها توقيعاً وأكثرها استعادة واستحساناً وأعمها تداولاً على ألسنة الكبار والصغار، ومرض الأمير خير بك فى هذه الأثناء مرضاً شديداً فانقطع عن الخروج ولازم الفراش أياماً واشتد به المرض شدة بالغة فأعتق جميع جواريه وعبيده ومماليكه وأمر بأن يتصدق من ماله على العلماء والفقهاء وأولاد المكاتب وأصحاب المزارات والمنقطعين من ذوى البيوتات ففرقوا شيئاً كثيراً من المال ومن القمح نحو عشرة آلاف أردب وأكثرت نساؤه وجواريه من التصدق والإحسان لعل الله تعالى يشفيه وأمر بأن يخرجوا مراسيم للقاضى فخر الدين بن عوض بالإفراج عن الرزق الأحباسية لأصحابها ويردها إليهم وقد كان ما ضبط منها وأدخل إلى الديوان السلطانى ألف رزقة وثمانمائة رزقة فأفرج عنها لأصحابها وأعاد لهم أيضاً مكاتيب الرزق الجيشية التى كان أخرجها عنهم يوسف بن الجاكية ثم رسم بإطلاق المحابيس من الرجال والنساء وكانوا كثيرين فلم يغن عنه هذا شيئاً واشتدت به علته فاستقدم إليه الأمير سنان بك العثمانى ودفع إليه الخاتم الذى سلمه إليه السلطان سليم يوم ولاه عمالة الديار المصرية وأعلمه بأن فى خزائنه من المال ستمائة ألف دينار ذهباً عيناً خلاف ما هو فى بيت المال.

(مطلب)

موت الأمير خير بك

فلما كان يوم الأحد رابع عشر ذى القعدة سنة ثمان وعشرين وتسعمائة مات خير بك المذكور فاجتمع جميع الأمراء وبينهم الأمير سنان بك وتولوا غسله ودفنه فى موكب حافل للغاية واستقر الأمير سنان بالقلعة يريد التصرف فى الأمور حتى يأتيه مرسوم السلطان فعارضه فى ذلك خير الدين نائب القلعة ومنعه من التصرف حتى يأتى مرسوم السلطان فأبرز الأمير سنان مرسوماً سلطانيا يتضمن جواز تصرفه إذا مات خير بك حتى يأتى الفرمان بما يستقر عليه الرأى وقيل كان الخلاف على التصرف بين الأمير سنان المذكور وبين الأمير خضر أحد كبار أمراء العثمانيين فلما أبرز الأمير سنان المرسوم السلطانى لم يبق بينهما من موجب للخلاف واستقر الأمير سنان بالقلعة وأخذ من يومه يتصرف فعرض ما فى بيت المال من الأموال فوجد لخير

بك بينها ستمائة ألف دينار ذهباً عيناً وكثيراً من الذخائر والتحف والنفائس والأقمشة البعيدة النوال مما لايكاد يدخل تحت الحصر.

وكان الأمير خير بك هذا من مماليك الأشرف قايتباى وهو شركسى الجنس أباظيا وكان اسم أبيه ملباى الشركسى ولهذا كان يدعى خير بك ملباى إلى الأشرف قايتباى وكان له أخوان أحدهما اسمه خضر ولم يعش طويلا ومات والثانى اسمه جان بلاط وكان مقدم ألف وله شهرة مات فى دولة الملك الناصر محمد بن قايتباى وكان موته بالطاعون وأقام خير بك المذكور بالطباق وصار فى عداد مماليك الطباق السلطانية فأخرج له السلطان خيلا وقماشا وأدخله فى عداد الجمدارية ثم الخاصكية وصار داودار سكين ثم صار فى سنة إحدى وتسعمائة أمير عشرة فى دولة الملك الناصر محمد بن الأشرف قايتباى وبعث به رسولا إلى دار السلطنة العثمانية فى مهمة فى سنة ثلاث وتسعمائة ثم صار مقدم ألف فى دولة الأشرف جان بلاط وخرج مع من خرج من العساكر والأجناد إلى الديار الشامية فلما وصلها حجر عليه فى دمشق فلما حضر العادل إلى مصر أرسل بالإفراج عنه واستقدمه فلما حضر أنعم عليه بتقدمة ألف وأقره على ما كان عليه فلما تولى السلطنة الملك الأشرف الغورى جعله حاجب الحجاب فلبث بها حتى تولى نيابة حلب فى سنة عشر وتسعمائة ومازال بها حتى زحف السلطان سليم على الديار الشامية يريد ملك مصر فجرى منه ماجرى من الانضمام بجيوشه إلى جيوش السلطان سليم كما فعل الغزالى، وكان من أمر توليته على نيابة مصر ما تقدم بيانه فاستمر على النيابة إلى أن مات فى يوم الأحد رابع عشر ذى القعدة سنة ثمان وعشرين وتسعمائة فكانت مدة نيابته خمس سنين وثلاثة أشهر وسبعة عشر يوما بما فى ذلك مدة انقطاعه عن المحاكمات، وكان جبارا عنيدا سفاكا للدماء كثير الأخذ بالشبهات طاغية قتل فى أيامه ما لايحصى من الخلائق ظلما فلما جاء الخبر بموته إلى السلطان سليمان وهو على حصار رودس ولى الأمير الوزير مصطفى باشا وكان صدر الوزراء العثمانيين وزوج أخت السلطان سليمان فحضر إلى الإسكندرية وجاءت الأخبار بوصوله إليها فنادوا بذلك فى القاهرة ومصر القديمة .

(مطلب)

ولاية الوزير مصطفى باشا

فلما كان يوم الأربعاء ثالث عشرى ذى الحجة وصل إلى ساحل بولاق فنزل للقائه الأمير سنان وخير الدين نائب القلعة والأمير خضر وجميع الأمراء وكبار الجند وجميع الانكشارية والأصبهانية والكمالية والشراكسة وقابلوه ثم أركبوه على فرس وعليه الخلعة السلطانية وسارت أمامه العساكر والأجناد قاطبة والأعيان والمقدمون فدخل من باب البحر وسار إلى باب القنطرة فمر من سوق مرجوش ثم من القاهرة وكان الأمير سنان على يمينه والأمير جانم الحمزاوى على يساره والأمير خير الدين والأمير خضر أمامه فارتفعت له الأصوات من العامة بالدعاء وكان أبيض اللون عربى الوجه أشقر الشاربين حليق اللحية معتدل القامة عليه حشمة ووقار ومازال فى موكبه حتى مرّ من الرميلة ودخل من الميدان وصعد إلى قلعة الجبل. قال بعض كتاب الأخبار: تولى مصطفى باشا نيابة مصر وهو فى ركاب السلطان سليمان على حصار رودس يوم السبت خامس ذى الحجة سنة ثمان وعشرين وتسعمائة ودخل مدينة الإسكندرية فى التاسع عشر من ذى الحجة فكانت مدة ولايته مذ تقررت برودس أربعة عشر يوما وكانت مدة حضوره من الإسكندرية إلى ساحل بولاق أربعة أيام فدخل فى يوم الأربعاء ثالث عشرى ذى الحجة فتكون مدة ولايته من حين ولى برودس إلى أن دخل الديار المصرية ثلاثة وعشرين يوما أهـ.

(مطلب)

إبطال نظام قلعة الجبل القديم

ولما استقر به المقام بالقلعة تحول عنها الأمير سنان ونزل إلى داره بدرب ابن البابا فكانت مدة نيابته بالقاهرة ثمانية وثلاثين يوما وفى ثانى يوم نزل مصطفى باشا إلى الميدان واجتمع جميع الأمراء والأكابر والأعيان والقضاة والعلماء وقرئ عليهم المرسوم السلطانى القاضى بولايته ثم أخذ يتصرف وجلس للناس عامة فترادفت عليه القصص بحوائج الناس وأخذ فى تدبير الأمور فأبطل نظام القلعة القديم الذى كان على عهد من سبق من الملوك وأبطل البوابين والركابة والبوابية والسوّاس والفراشين

وغلمان السلطان قاطبة والمقرئين والمؤذنين وغيـر معالم ذلك النظام ورسومه وتصرف فى الحواصل السلطـانية والأشوان وبيت المال كـما يحب ويختـار وجمع إليه أعـيان المباشـرين وكلمهم فى أمر الخراج فـشرعوا فى تحـصيله ورتبوا له ولمماليكه خـاصة وحاشيته وبطانتـه ثمانية آلاف دينار ذهبا فى كل شهر يقومون بـدفعها نقرة فكان إذا تأخر المباشـرون فى شيء من هذا المال المقرر فى أجله ضيق عليـهم وشدد وبالغ فى الوعيد فتنبث أعوانهم فى البلاد يضـيقون على أهلها ويشددون فى الطلب ويأخذون كل ما وصلت إليه أيديهم من الماشـية والغلال ويبيعونها بأبخس الأثمـان قياما بأداء تلك النفقة فى آجالها فاشتد بسبب ذلك الكرب على الفلاحين وأصحاب الرزوعات وعم الخطب ونزح الكثـير من أهالى الأقـاليم القبليـة إلى الأقاليم البحـرية وأهالى الأقاليم البحـرية إلى القبلية وأهملت الأرض فرارا من المطالب المتتابـعة فبارت وقل الوارد من الغلال إلى مـصر وبولاق فارتفعت الأسعـار وشكى الناس من هذا الحال وضجوا وابتهلوا إلـى الله فلم تطل مدة ولايته وجاء الخبر بعـزله وولاية أحمد باشا ففرح الناس بذلك فرحا عظيما وانكف المبـاشرون عن التضييق على أهالى البلاد فى جباية الأموال فكانت ولايته سنة واحدة وعشرة أشهر ويومان.

(مطلب)

ولاية أحمد باشا

ولما جاء الخبـر بوصول أحمد باشا المذكور إلى بولاق نزل الأمـراء وكبار الدولة والعلماء والقضاة وأصحاب العكاكيز للقـائه، فركب فى أبهة وكبكبة عظيمة وصعدا إلى قلعة الجبل وأمـر فقرئ فرمان التـولية فى محفل حافل، قـيل وكان السبب فى توليتـه هو أنه لما جلس السلطان سليمان على تخت الـسلطنة العثمانيـة صادف وزير أبيه وهو محمد باشا الصديقي فأقره على الصـدارة وكان محمد باشا هذا كبير السن بطئ الحركة فى قـيامه وقعوده وتصرفـه فرأى عجزه عن القيام بأعـباء هذه الرئاسة فأنزل نفسه وولى مكانه إبراهيم باشا المعروف بأودة باشا وكان أقدم من إبراهيم باشا فى الخدمة آخـر هو أحمد باشا وكـان يؤمل أن الصدارة لا تفوته إلى غيـره من بقية الأمراء فزاحم إبراهيم باشا المذكور وجلس بقوة قربه من السلطان فشكاه إبراهيم باشا إلى السلطان فـدبر فى إزالته وولاه مـصر لـيستجلب خـاطره فلما تولاها وأخـذ يتصـرف فى أمورها جعل إبراهيم باشـا الصدر يتعـقبه للعـداوة السابقة ويرمـيه بما

يوجب قتله ومازال بالسلطان حتى أبرز الأمر لجماعة المرابطين بمصر أن يجتمعوا عنده ويقتلوه فى محله ثم يولوا أحدهم مكانه حتى يرد عليهم الأمر بولاية خلافه وأرسلت الأحكام بذلك إلى الأمراء بمصر. قال بعض أصحاب الأخبار: فوقع الأمر فى يد أحمد باشا المذكور قبل أن يصل إلى الأمراء فخاف وجعل يضرب أخماسا فى أسداس حتى سولت له نفسه العصيان والخروج عن طاعة السلطان وأن يقاتل بجيش يجمعه من مصر فأبدى الخروج وادعى السلطنة وضرب السكة باسمه على الدنانير والدراهم وتحصن بقلعة الجبل وقبض على الأمير وهب جانم الحمزاوى والأمير محمود بك وسجنهما يريد قتلهما ولبث الحال هكذا أياما اختل فيها نظام القاهرة وظهرت الغوغاء وانقطعت السبل وأغلقت الحوانيت نهارا وعاث أهل الفساد فسرقوا ونهبوا وفعلوا ما لا خير فيه.

واتفق أن دخل أحمد باشا المذكور الحمام يوما للغسل فعلم الحمزاوى والأمير محمود بك بذلك فكسرا الأبواب وخرجا ورفعا صنجقا سلطانيا وناديا من أطاع الله ورسوله والسلطان فليقف تحت الصنجق فوقف تحت الصنجق خلق كثير وجم غفير فساروا وسار أمامهم الحمزاوى ومحمود بك إلى الحمام فكبسا الحمام على أحمد باشا وكان قد حلق نصف رأسه وأعجله على حلق النصف الثانى هجوم أصحاب الحمزاوى فهرب إلى سطح الحمام وتسلق من مكان إلى مكان فنهبوا جميع ما عنده من سلاح ومتاع واقتفوا أثره فأدركوه بمنية جناح بالغربية فقتلوه وذلك فى أخريات سنة ثلاثين وتسعمائة واحتزوا رأسه وجيء به فعلقوه على باب زويلة ثم بعثوا به إلى دار السلطنة فكانت مدة تصرفه بمصر سنة واحدة لاغير لم يأت فيها عملا يذكر فيشكر .

(مطلب)

ولاية قسام جزل باشا وخلعه وولاية إبراهيم باشا

وقد تولى بعده قسام جزل باشا فدخل القاهرة فى السنة المذكورة وصعد إلى قلعة الجبل فى موكب حافل وأمامه أرباب الوظائف وطوائف الجند من المشاة والفرسان وعليه خلعة التشريف السلطانية فلم يكد يستقر به المنصب حتى جاء الأمر بخلعه وولاية إبراهيم باشا فنزل من القلعة فى المحرم افتتاح سنة إحدى وثلاثين وتسعمائة ولم يلبث إلا أياما حتى جاء إبراهيم باشا الوالى المذكور ودخل القاهرة

فى كبكبة عظيـمة وصعد إلى قلعة الجـبل ثم نزل فى ثانى يوم وجلس على المصطبة بالميدان وبين يديه جـميع الأمراء والقضـاة والعلماء والمباشرين وأصـحاب الوظائف فتلى فرمان التولية ورفعت إليه القصص فى ذلك اليوم فنظر فى مصالح الخلق وكان عاقلا ذكيا محبا للخير، واهتم السلطان سليمان فى أيامه بترتيب أمور الديار المصرية فأجاز لطوائف المماليك الشراكسة الذين أقرهم والده على خـدمة الدولة أن يتولوا رتبة الباشوية عنـد الحاجة وضم إليهم اثنى عشر أميـراً فكان من يصح انتخابهم إلى هذه المرتبة العظـيمة الكيـخيا وقبـاطين ثغور السـويس ودمياط والإسكندرية وأمـير الخـزينة السلطانية والـدفتـردار وأميـر الحج وصناجق الشـرقيـة والغربيـة وجرجـا والبحيرة، وكان لدار السلطنة اهتمام عظيم وعناية كبرى بالثغور الثلاثة المذكورة لأنها أبواب البلاد فكان الجند المرابطون فيها يقدمون من دار السلطنة مع القباطين فيقيمون سنة ثم يستـبدلون بآخرين وهكذا فى كل سنة فكان مـرابطو الثغور المذكورون غـير محسوبين فى عداد العسكر المصرى وكأنهم أجانب عنه.

(مطلب)

ولاية سليمان باشا الخادم وفيما رسم به السطان من مساحة أطيان سائر البلاد وجعلها ملكاً للسلطان

ولم تطل مدة إبراهيم باشا فقد جاء الأمر بعزله فرحل عن مصر فى شعبان سنة إحدى وثلاثين وتسعمـائة فكانت مدة تصرفه سبعة أشهر وتولى بـعده سليمان باشا الخادم فدخل القاهرة فى تاسع شعبان من السنة وجعل يتصرف فى الأمور فرسم فى أيامه السلطان سليـمان بمساحة جـميع قرى مصـر وضبط أراضيها علـى يدى الأمير كيـوان وربط خراجـها على من كـان يستـغلها فطاف المسـاحون البـلاد ومسـحوها وقسموها إلى أحواض سموها بالقـراريط وأحكموا عملهم فزاد الخراج زيادة عظيمة وجباه الولاة فكان بعد ذلك شـيئا كثيرا، ورسم بأنه هو صاحب جـميع أرض مصر ومالكها يعطيها لمن يشاء ويمنعهـا ممن يشاء فكان يقطعها لطائفة من الأهالى يعرفون بالملتزمـين فكانوا يتصـرفون فى الأرض تصرف الملاك مـا بين هبة وإسقـاط وإيقاف وغـير ذلك وكـان أصحـاب الأرض الذين هم مـلاكهـا من أهل البـلاد يحرثونهـا ويفلحونها لأولئك الملتزمين، ولا يأخذون من غلاتهـا إلا بقدر الحاجة ولا يتصرفون فيها مع توريثها لأعقابهم من بعدهم وكان لا يحل لأحدهم ترك ما بيده من الأرض

أو التخلى عن تعهدها بالحرث والزرع بل كان يجبر على ذلك ويضرب ويقوم بدفع ما عليها من الخراج إلى أولئك الملتزمين فإذا مات الفلاح ولم يعقب نسلا أعطيت أرضه للملتزم وهو يعهد بحراثتها لمن يشاء فإذا مات الملتزم ولم يعقب وارثا انحل التزامه وعاد إلى ملك السلطان وكان إذا تأخر الفلاح والملتزم فى دفع الخراج أخذت منهما الأرض وسلمت لغيرهما ليقوم بما عليها فى آجاله وبعد أن أتم مساحة جميع الأطيان سموها من هذا الحين أطيانا سلطانية ورزقا وأوقافا وإقطاعات وغير ذلك وكتب بها دفاتر محررة ووضعت بديوان مصر المحروسة وتسمى دفاتر ترابيع سنة ثلاث وثلاثين وتسعمائة ولم تلبث أن أحرقت ثم جددت وقيل بل أهملت ولم تتجدد.

(مطلب)

ولاية خسرو باشا وخلعه ورجوع سليمان باشا إلى الولاية ثانية

وكان سليمان المذكور ميالا للخير يحب إنشاء المبانى العظيمة والآثار الفاخرة فعمر جامعا بقلعة الجبل وآخر ببولاق القاهرة وبجواره وكايل وأسواق وربوع وغير ذلك ثم ورد عليه مرسوم السلطان سليمان بالتوجه إلى اليمن فكانت مدة تصرفه بديار مصر تسع سنين وأحد عشر شهرا وستة أيام فتولى بعده خسرو باشا ودخل القاهرة فى عشرى رمضان سنة إحدى وأربعين وتسعمائة وصعد إلى قلعة الجبل فى الموكب المعتاد ولم يقع فى أيامه من الحوادث شيء يذكر وعمر صهريجا بين القصرين بالقاهرة وتصرف إلى سادس جمادى الآخرة سنة ثلاث وأربعين وتسعمائة فكانت مدة تصرفه سنة وثمانية أشهر وستة أيام وعزل ثم عاد سليمان باشا الخادم إلى ولاية البلاد عند عوده من اليمن فى حادى عشر رجب سنة ثلاث وأربعين فتصرف إلى حادى عشر المحرم سنة خمس وأربعين وكانت ولايته الثانية سنة واحدة وخمسة أشهر وواحدا وعشرين يوما، وكان حسن التدبير عظيم السياسة واسع الرأى مطاعا محبوبا ثم عزل.

(مطلب)

ولاية داود باشا

وتولى بعده داود باشا فدخل القاهرة فى سابع المحرم سنة خمس وأربعين وتسعمائة وجلس للناس على المصطبة بالميدان فرفعت إليه القصص فنظر فى مصالح الخلق وجعل يتصرف مع الكياسة والعدل وكان كريما مهيبا محبا للعلوم والعلماء كلفا بالمطالعة واقتناء كتب العرب وقد جمع منها شيئا كثيرا واستنسخ كل ما ظفر به منها وسعدت فى ولايته البلاد واطمأنت الرعية وساد الأمن وسلكت السبل وبنى فى ولايته مدرسة عظيمة بسويقة صفية اللالة بالقاهرة ووقف لها أوقافا وهى باقية إلى الآن وتصرف إلى ثالث عشر ربيع الأول سنة خمس وخمسين وتسعمائة فكانت مدة ولايته إحدى عشرة سنة وشهرا واحدا وعشرين يوما وتوفى بالقاهرة ودفن بالقرافة وكانت أيامه كلها بركة وإسعادا.

(مطلب)

ولاية مصطفى باشا صفصفان وخلعه وولاية علي باشا

وتولى بعده مصطفى باشا صفصفان فوصل القاهرة فى الخامس من ربيع الأول سنة ست وخمسين وتسعمائة وصعد إلى قلعة الجبل فى الموكب المعتاد ولم يقع فى أيامه شيء يذكر فتصرف إلى شهر رجب من السنة المذكورة وعزل فكانت ولايته أربعة شهور ونصف شهر وتولى بعده على باشا فى خامس عشر سنة ست وخمسين وتسعمائة وتصرف إلى غاية المحرم سنة إحدى وستين وتسعمائة وعزل فكانت مدته أربع سنين وخمسة أشهر وستة وعشرين يوما وكان على باشا هذا وقورا معززا محبوبا من الرعية شفوقا عليها بعيدا عن العسف والظلم ميالا إلى إنشاء العمائر العظيمة والآثار النافعة فشاد منها فى رشيد والقاهرة وفوه وحذا حذوه الأمراء والكبراء ففعلوا كذلك بمصر والقاهرة وغيرهما من المدن، ولما انصرف عن ولاية مصر عاد إلى دار السلطنة فجعل يتقلب فى الوظائف العالية والمناصب الرفيعة حتى بلغ مسند الصدارة فدبر الأمور وسار سيرة حسنة للغاية فأحبه الناس ومالت إليه القلوب .

(مطلب)

ولاية محمد باشا المعروف بدوفتركين زاده

وتولى بعده على مصر محمد باشا المعروف بدوفتركين زاده ودخل القاهرة فى أوائل صفر سنة إحدى وستين وتسعمائة فلما جاء الخبر بوصوله إلى بولاق نزل الأمراء والعلماء والقضاة للقائه فصعد إلى قلعة الجبل فى الموكب المعتاد ثم تحجب عن الناس وزاد فى التحجب وكان فظا غليظا جبارا عنيدا فأساء التصرف وعبث بالأمور وأكثر من المغارم ومصادرة الناس فى أموالهم فكثر الوشاة على أبوابه وأخذ بالشبهات فكرهه الناس كافة وأبغضه الأمراء وأعرضوا عنه ثم خلع فكانت مدة تصرفه سنة واحدة وشهرين وتسعة عشر يوما.

(مطلب)

ولاية إسكندر باشا

وتولى بعده إسكندر باشا فدخل القاهرة فى جمادى الأولى سنة ثلاث وستين وتسعمائة فتصرف إلى غاية رجب سنة ست وستين فكانت ولايته ثلاث سنين وثلاثة أشهر وثمانية أيام وكان شهما حازما حسن التدبير والسياسة وقورا مهيبا عمر فى ولايته المدرسة التى بباب الخلق المطلة على الخليج الناصرى وهى من أفخر المبانى وأتقنها وعمر تكية تجاهها وسبيلا بجوار المدرسة فعمل له بعض الشعراء تاريخا نصه: رحم الله من دنا وشرب سنة ٩٦٦. ووقف على ذلك أوقافا جليلة.

(مطلب)

ولاية علي باشا الخادم خلعه وولاية شاهين باشا

ولما خلع تولى بعده على باشا الخادم فدخل القاهرة فى سابع عشر شعبان سنة ست وستين وتسعمائة فتصرف إلى سادس عشر صفر سنة ثمان وستين فكانت مدة تصرفه سنتين وستة أشهر ولم يقع في أيامه من الحوادث شيء يذكر، وتولى بعده شاهين باشا فدخل القاهرة فى ثانى ربيع الأول سنة ثمان وستين وأخذ يتصرف فى الأمور فكان رجلا جليل القدر حسن السياسة والتدبير ومازال حتى عزل فى غاية

جمادى الآخرة سنة إحدى وسبعين وتسعمائة فكانت مدة ولايته ثلاث سنين وثلاثة أشهر.

(مطلب)

ولاية علي باشا الصوفي

وتولى بعده على باشا الصوفى فدخل القاهرة فى أول رجب سنة إحدى وسبعين وتسعمائة ولاقاه الأمراء والعلماء والقضاة وأصحاب الوظائف وصعدوا به إلى قلعة الجبل فلم يجلس للناس كعادة الأمراء والولاة وتحجب ثم لم يلبث أن تجبر وظلم وكان قبل حضوره إلى مصر واليا على بغداد وكان له فيها أحوال غريبة وأحكام جائرة فأبغضه الناس وشكوا منه وضجوا وعجوا فعزل عنها وأتى به إلى مصر وكثر عسفه فكثر الفساد فى البلاد وارتفع الأمن وعاث اللصوص فنهبوا وسلبوا بغير ممانع وأحاط قطاع الطرق بضواحى مصر والقاهرة فانكمش الناس وانكفوا عن الخروج خارج السور وضجوا وشكوا إلى على باشا المذكور فلم يلتفت لشكواهم وكأنه كان يقاسم أهل الفساد فيما يسرقونه فبلغت الجراءة بالغوغاء والحرافيش مبلغها وقامت طائفة من الفداوية فأوقدوا النار فى المدينة طمعا فى النهب فسرى الحريق إلى الجامع الأبيض واشتدت النيران وعلا اللهيب وكثير النهب والسلب وخرجت النساء والأطفال والشيوخ من الديار هائمين على وجوههم فرارا من فعال الفداوية ومازالت النار تعمل فى جميع ما وصلت إليه حتى كادت تدمر جميع المساكن والوكائل وغيرها.

(مطلب)

في سبب إقامة السور من قنطرة الحاجب إلى الجامع الأبيض

وكلم الأمراء على باشا المذكور فى أمر اللصوص وفيما آلت إليه حالة المدينة من الخراب فلم يلتفت لقولهم فرأوا أن يقيموا سورا من قنطرة الحاجب إلى الجامع الأبيض ليمنعوا البلد من تطاول أيدى اللصوص إليها فأقاموه ووكلوا به من يحرسه فاطمأنت القلوب وسكنت الخواطر قليلا ومازال على باشا المذكور يتصرف بالجور والظلم حتى خلع.

مطلب)

ولاية محمد علي باشا المعروف بالمقتول

وتولى بعده محمد على باشا المعروف بالمقتول فقدم من دار السلطنة فى كبكبة عظيمة فكان كلما مر ببلد من الإسكندرية إلى القاهرة قدمت له التحف والهدايا ومدت له الموائد وبالغ الناس فى تعظيمه وإجلاله فرحا بخلاصهم من ظلم الصوفى وجوره، فلما دخل القاهرة لاقاه جميع الأمراء والعلماء والقضاة والمباشرين وأصحاب الوظائف العالية والأمير محمد بن عمر متولى الأقاليم القبلية يومئذ وقدم له عدة هدايا نفيسة للغاية وخمسين ألف دينار نقرة فأجله محمد على باشا المذكور وأدناه من مجلسه وقد طمع فيه فلما استأذنه بالانصراف وخرج من مجلسه أمر فقبض عليه جماعة من أعوان الباشا وقتلوه خنقا فاندهش الناس من ذلك جدا وأخذتهم الطيرة وسأل عن قاضى القضاة يومئذ الشيخ يوسف العبادى فقيل له إنه لم يحضر فرسم بإحضاره فأحضروه فلما مثل بين يديه أمر بخنقه وهو يستغيث وليس من يغيثه ثم تحجب عن الناس أياما ثم ظهر وبث العيون والجواسيس بين الأمراء وأرباب الدولة فزاد عسفه وأخذه للناس بالشبهات وأكثر من القتل وإراقة الدماء وبالغ فى إذلال الرعية والتنكيل بالأمراء وكان لا يسير فى المدينة إلا ومعه الشوباصى وهو كبير الجلادين فإذا مر بأحد وأراد قتله أشار بيده إلى الشوباصى المذكور فينزع حالا رأسه عن جسده ويهدر دمه على الفور فانكمش الناس وزاد خوفهم وضجوا إلى الله وابتهلوا بالدعاء وزاد سخطهم عليه وتواردت قصص الأمراء بمصر على دار السلطنة مستغيثين من عسف محمد على باشا المذكور وظلمه للرعية فلم يلتفت السلطان إليهم لاشتغاله يومئذ بفتح جزيرة مالطا التى كانت إلى هذا الحين مقر رهبنة القديس يوحنا الأورشليمى وإعداد سفن الحرب ومراكب النقل اللازمة لذلك لأنه لما اتسعت أملاك السلطنة العثمانية وبسطت يدها على الكثير من سواحل البحر الأبيض المتوسط وكانت جزيرة مالطا واقعة بين إقليم تونس وجنوبى إيطاليا وكان لمن يملكها اليد الطولى على البحر المذكور عمد السلطان سليمان إلى فتحها وسير إلى ذلك مائتى سفينة حربية فحاصروها حصارا تاما وضيقوا عليها تضييقا شديدا وواصلوا الرمى عليها بالمكاحل وداموا على هذا الحال أربعة أشهر مات فى خلالها الأمير طرغول أمير تلك العمارة العظيمة وكانت الفرنجة تسميه دراجوت

ومع كل ذلك لم ينالوا منهـا وجاء الشـتاء وكـثرت الزوابع وارتفـعت أمواج البـحر فارتـفع عنها الحـصار وعـادت العمـارة إلى القسطنطينيـة فعـاد الأمراء بمصـر إلى الاستـغاثة بالسلطان من شـر محـمد على باشـا الوالى وأكثروا من رفـع الظلامات وترادف القصص فلم ينالوا منه شيئا لخروجه فى جيش عظيم فى سنة ثلاث وسبعين وتسعمائة لصد هجمات النمسـا عن بلاد المجرد إذ كانت له السيادة عليها إلى هذا الحين وبينمـا هو فى الطريق بلغه أن صاحب سكدوار إحدى مـدائن بلاد المجر التى يقال لها أيضـا زيجت قد ظفر ببعض الجيـوش العثمانية التـى كانت تقاتل فى تلك الأصقاع فسار إلى قتاله وحاصر المدينة المذكورة وشدد عليها حتى أخذ جميع معاقلها الأمامية فأخلى عـساكرها المدينة وتحصنوا بقلعتها فلم تفتـر للسلطان همة فى قتالهم واشتد فى القتال وقد نهكه التعب فـمرض وثقل عليه المرض فلما كان العشرون من صفر سنة أربع وسبعـين وتسعمائة اشتد عليه مرضه ومات فـأخفى وزيره خبر موته تحاشيا من وقوع الفشل فى العسكر وسير إلى ولده الأمير سليم بكوتاهية يعلمه بخبر موت أبيه ويحـثه على الحضور إلى القسطنطينية ليـتولى منصب السلطنة ولم ينكف الوزير عن القتال مع من تحصنوا بقلعة سكدوار ووالى الهجوم عليها ومازال بها حتى احتلتها العـساكر العثمانية عنوة فـهرب من كان بها من الأعداء فلم يستقـر بها مقام العساكر العثمانية حتى انخسفت بهم أرض القـلعة وسقط جميع بنائها عليهم جميعا فماتوا تحت الردم وذلك أن العـدو كان قد دبر المكيدة بأن عـمل عدّة ألغام تحت بناء القلعة فلما دخلتها العساكر واستـقروا بها أشعل العدوّ تلك الألغام فانخسفت أرض القلعة وتهدم جميع بنائها وهلك جمـيع من دخلها ولما تم النصر للعساكر السلطانية على هذه الكيفيـة طير الوزير خبره إلى الآفاق وسيـر الرسائل بخاتم السلطان كى لا يعلم أحد بخبر مـوته ثم عاد إلى القسطنطينية مع من بقى من العساكر ومـعهم جثة السلطان فوجد أن الأمير سليم قد حضر وقبض على زمام الأمور وأخذ يتصرف فى أعمال المملكة. قال أصحاب التـاريخ: ولم تكن ولاية العهد قد أتت إليه بالأرشدية أو الاستحقاق بل بدسيسة أمه روكسلان إحدى حظيات السلطان وقتل السلطان لولده الأرشد الأميـر مصطفى وابنه الثانى الأمـير بايزيد مع أولاد بايزيد الخمسـة، وتحرير الخبر، أنه كان للسلطان سليمان حظية مجـهولة النسب تسمى روكسلان وكان يحبها حبـا شديدا فولدت له من الذكـور الأمير سليـمان وابنتين وكـانت تتمنى أن يكون الملك لابنها بعـد موته ولكنهـا كانت تخفى ذلك عن السلـطان وتراقب من الفرص

أنفعها فلما مات إياس باشا صدر الدولة سعت روكسلان المذكورة لدى السلطان فى تولية رستم باشا منصب الصدارة وكان بينها وبين رستم المذكور كلام فى أمر مبايعة ولدها بالملك بعد أبيه فولاه السلطان الصدارة وأدناه منه كثيرا وزوّجه بابنته من روكسلان هذه فزاد تعلق روكسلان به وعمد هو إلى ارضائها بتمهيد الطريق لتولى ابنها الملك بعد أبيه فلما انتشبت الحرب بين الدولة ومملكة فارس سير السلطان الأمير مصطفى أكبر أولاده على رأس جيش إلى ساحة القتال وكان محبوبا عند طوائف الأنكشارية لحسن سياسته ومعرفته بفنون الحرب والقتال وبسالته وإقدامه فأبلى فى الفرس بلاء حسنا وظهرت شجاعته فازداد حب طوائف الانكشارية له ومالت قلوبهم جميعا إليه فانتهز رستم باشا هذه الفرصة وكتب إلى السلطان يخوفه من ولده ويقول إنه عامل على الخروج وشق عصا الطاعة مع طوائف الانكشارية وعزل السلطان وتوليه هو منصب السلطنة كما فعل السلطان سليم الأول بأبيه بايزيد فأكبر السلطان هذا الخبر واستعظمه وكاد لا يصدقه وأهمه للغاية فآنست منه روكسلان الحيرة والاضطراب فسألته عن سبب ذلك فأخبرها بخبر ولده مصطفى وما قاله رستم باشا فاظهرت غاية الخوف والانزعاج وأخذت تقبح له فعال الأمير وترميه بالخيانة والغدر وتحذره من عاقبة التهاون بهذه المكيدة ومازالت به حتى التهب قلبه غيظا وقام فى طائفة من عسكره يريد بلاد فارس وطير الخبر بأنه إنما قام ليتولى قيادة هذه الغزوة فلما اقترب من المعسكر خرج ولده مصطفى وجميع الأمراء وكبار الجند للقائه وساروا فى ركابه حتى أنزلوه فى سرادقه وفرح ولده مصطفى بقدومه فرحا عظيما فلما كان الثانى عشر من شوال سنة ٩٦٠ هجرية استدعى السلطان ولده مصطفى إلى سرادقه ليكلمه فى أمر القتال مع الفرس فدخل عليه وهو فى لباسه المعتاد فلم يكد يصل إلى أبيه حتى قبض عليه جماعة من الخدم وقتلوه خنقا وهو يصيح ويستغيث بأبيه حتى مات وأبوه ينظر إليه ثم نقلوا جثته إلى مدينة بروسة فدفنت فى تربة أجداده. قالوا ولم تكتف روكسلان بقتل الأمير مصطفى بل أرسلت أيضا إلى مدينة بروسة بعض خواصها فقتلوا ابنه الرضيع وشاع هذا الأمر بين الناس فاستعظموه وانحرفت خواطرهم عن السلطان وبكى الأمير مصطفى أهل العلم والأدب ورثاه الشعراء ولم يخشوا بأس أبيه فقال بعضهم فى ذلك:

يادهر ويحك ما أبقيت لى جلدا وأنت والد سوء تأكل الولدا

وثار طوائف الأنكشارية على السلطان وطلبوا قتل رستم باشا المذكور وهاجوا

وماجوا حتى كادت الفتنة تعم فـرسم السلطان بخلعه وولى مكانه أحمد باشا تسكينا للفتنة واسترضاء لطوائف الانكشارية وكان للأميـر مصطفى أخ اسمه الأمير جهانكير فحزن على أخيه حزنا عظيما جدا وبكاه بكاء شديدا للغاية حتى مات كمدا عليه بعد قليل من الأيام وقيل بل قتل نفسـه أمام أبيه بعد أن وبخه وأنبه عـلى قتل أخيه فلم يبق بعد مـوته من أولاد السلطان سوى الأميـر بايزيد والأمير سليم بن روكـسلان، وكان للأميـر بايزيد مرب اسمه لاله مصطفى فولاه السـلطان النظر على بيت الأمير سليم بعد روكـسلان أمه فأحـبه الأمير سليـم وقربه منه وأعلمه بما كان يخـشاه من مزاحمـة بايزيد له في الملك بعد أبيه وطلـب منه أن يعمل على هلاك بايزيد وأولاده ليخلو له الجـو فهون عليـه لاله مصطفى الأمر ومناه بالفـوز وجعل يستعـمل الحيلة فكتب إلى بايزيد يومـا يقول إن أخاك سليـما منهمك فى الـلذات غافل عن واجب السلطنة ومـا هو مفروض على أبناء المـلوك فضلا عـما هو عليه مـن الطيش وعدم الأهلية لمنصب الخلافة ومع ذلك فإن أباك أبى إلا مبايعته بولاية العهد من بعده فهل لك فى هذا الأمـر رغبـة؟ وتعددت بينهـما الرسـائل وركن الأميـر بايزيد إلى لاله مصطفى وأمن جانبه فكاشفه بما فى نفـسه ولم يخف عنه أمرا ثم كتب الأمير بايزيد إلى أخيه سليم يومـا يعيب فعال أبيه ويرمـيه بالجفاء وغلظة الطبع ويسمـه بالقسوة وفقدان الحنو الأبوى فأشار لاله مصطفى على الأمير سليم بإعطاء تلك المكاتبة لأبيه فلما اطلع السلطان عـلى مابها مما يمس كرامـته غضب غضـبا شديدا وزاده غضـبا وشاية لاله مصطفى بالأمير بايزيد فسـير إلى بايزيد يقول له إذا أتاك كتابى هذا تحول من فورك عن قونيه إلى اماسية وكان واليا على قونية فخاف بايزيد من ذلك وظن أن أباه إنما يضمـر له الشر فامـتنع من الذهاب إلى اماسـية وجيش له جـيشا عظيـما وتحصن فى قونيـة فسير إليـه أبوه جيشا ومقـدمه الوزير محمد باشـا الملقب صقللى فالتقى الجيشان عند قونية واقتتلا قتـالا عنيفا مدة ثلاثة أيام كانت فيها الحرب سجالا ثم انكشف القتال عن هزيمة بايزيد وفراره إلى مدينة اماسية فلحقته عساكر أبيه فرحل عنها إلى بلاد فارس ولجـأ هو وأولاده إلى طهماسب ملك فارس فقبلـه وأكرم مثواه ولكنه سير إلى السلطان سليمان خفية يعلمه بخبره فأرسل السلطان سليمان رسلا فى طلبه. فـسلمه إليهم طهـماسب مع أولاده ولم يرع ذمتـهم فأمر بهم السلطان فـقتلوا جميعا فى مدينة قزوين إحدى مدائن فارس ونقلت جثثهم إلى مدينة سيواس وخنقوا طفـلا كان لبـايزيد بمدينة بورسة ودفنوه مع أبـيه وإخوتـه بسيـواس. قال أصـحاب

التاريخ: فكانت هذه الأمور الشنعاء نقطة سوداء فى تاريخ حياة السلطان سليمان وكادت تذهب بجميع حسناته وشهرة غزواته وكثرة فتوحاته أدراج الرياح مع أنه كان ملكا جليل القدر واسع الكلمة عارفا بفنون الحرب وأساليب السياسة محبا للخيرات وافر الصدقات. قال بعضهم: ومن آثاره الحميدة السحابة الكبرى بطريق الحج ولها أوقاف كثيرة يشترى من ريعها فى كل عام جمل لحمل الفقراء والمنقطعين والعواجز والماء والزاد وغير ذلك ومقرر بها من المغاربة أربعون نفرا ومن المطاوعة أربعون نفرا (يريد بهم العسكر) ذهابا وإيابا مات فكانت خلافته نحوا من تسع وأربعين سنة وله من العمر أربع وسبعون سنة قضاها كلها فى الغزو والفتوحات.

ومات فى أيامه مرقس بطرك المتأصلين بعد أن أقام أربع عشرة سنة وفى أيام سليمان المذكور اشتد الولاة على قبضة مصر وضيقوا عليهم وعملوا على تبعيدهم عن أوطانهم فبعدوا منهم خلقا من العظماء والوجهاء وخيار الناس ثم صادروا من بقى وأفحشوا فى تخريب بيوتهم وتبديد أرزاقهم فكانت شدّة عظيمة للغاية وبعد موت مرقس المذكور أقيم يوحنا وهو خامس ثمانيهم وأصله من الشام فأقام ست سنين ومات فأقام المتأصلون بعده غبريال وهو سادس ثمانيهم وكان راهبا من دير المحرق فأقام ثمان سنين ومات فأقيم بعده متاووس وهو سابع ثمانيهم وكان راهبا بدير المحرق فأقام ثلاثين سنة ومات وكان عالما تقيا عاقلا محبا للخير معينا للفقراء كثير التصدق ولم تكن أيامه أقل شدة من أيام سلفه فقد ذاقت فيها النصرانية من البلايا والمحن أشكالا وبموته أقام المتأصلون غبريال وهو ثامن ثمانيهم وكان راهبا بدير القلامون ووقع فى أيامه من الحوادث ما سيذكر فى محله وبموت السلطان سليمان كما تقدم القول تولى السلطنة بعده ولده السلطان سليم الثانى .

(الفصل الثالث)

(فى سلطنة السلطان سليم الثانى)

ثم قام بالأمر بعد السلطان سليمان ولده السلطان سليم الثانى بويع بالملك تاسع ربيع الآخر سنة أربع وسبعين وتسعمائة هجرية أى سنة ست وستين وخمسمائة وألف ميلادية وعمره ست وأربعون سنة ولم يمض إلا ثلاثة أيام على

بيعته حتى سار فى جيش عظيم إلى نجدة العساكر الذين كانوا يقاتلون بناحية سكدوار فلما وصل إلى ناحية سردم لاقاه الوزير محمد باشا وكان هو القائد لجيوش تلك الغزوة فأعلمه بما يعانيه العسكر من البرد وسقوط الثلج وكان الوقت وقت شتاء وأعلمه بمنعة قلعة سكدوار ووجوب عودهم إلى الأوطان حتى ينقضي الشتاء وأشار عليه أن يتربص ناحية سردم حتى يأتى إليه بجميع الجند والأمراء المحاصرين للقلعة فلبث السلطان سليم أياما حتى اجتمع العسكر وساروا فى ركابه إلى دار السلطنة، ووردت الأخبار إلى مصر بسلطنة السلطان سليم فزينت المدينة ثلاثة أيام وأطلقت البشائر وفرح الناس بولايته وتقوت آمالهم بالخلاص من مظالم محمد على باشا واستعباده لهم فرفع الأمراء وكبار الرعية والعلماء والمباشرون عندئذ ظلامتهم إلى دار السلطنة واستغاثوا وضجوا فورد مرسوم السلطان إلى محمد باشا المذكور بإجراء العدل فى الرعية والرفق بالناس والنهى عن الجور وكان قد تزايد جوره وأخذه للناس بالشبهات فأفحش فى القتل والسلب وتتبع العورات فلم يرعو ولم تأخذه آخذة من الخوف فعادوا إلى الشكوى وعظموا للسلطان البلوى ولبثوا ينتظرون ما سيكون بعد ذلك، واتفق فى هذه الغضون موت الأمير إبراهيم بك الدفتردار الذى كان متوليا امارة الحج فاستولى محمد باشا المذكور على خزائنه ومماليكه وجواريه وكل ماله وجملة ذلك مائة ألف دينار ذهبا فضمها إلى خزانة السلطان التى يبعث بها فى كل عام من مصر وأرسل معها أيضا شيئا كثيرامن الهدايا والتحف التى لا مثيل لها هدية منه للسلطان ورجال الدولة استجلابا لخواطرهم فلم يكن بعد ذلك من يسمع للمصريين شكوى ودامت الحال على ذلك مدة، فلما كان يوم الأربعاء غاية جمادى الأولى سنة خمس وسبعين وتسعمائة خرج محمد باشا المذكور فى كبكبة وحوله طائفة من أعوانه ومر من جهة الناصرية يريد مصر القديمة فلما صار على مقربة من حائط هناك أطلقت عليه بندقية من خلف الحائط فأصاب رصاصها صدره فسقط عن فرسه فهاج لذلك أعوانه وبحثوا عن القاتل فلم يعثروا له على أثر واتفق فى هذه الأثناء أن مر رجلان من الفلاحين بالقرب من موضع الحادثة فقبضوا عليهما واتهموهما بالفعل وقتلوهما ظلما وقيل إنه قتل فى يوم الأحد تاسع عشرى شهر جمادى الآخرة سنة خمس وسبعين وتسعمائة فكانت مدة تصرفه سنة واحدة وتسعة أشهر وعشرين يوما وفرح الناس بموته فرحا ما عليه من مزيد فقال فيه بعض الشعراء:

موت محمود حياة فيه للعالم رحمه
قتله بالنار نور وهو فى التاريخ ظلمه
سنة ٩٧٥ هجرية

وقال بعضهم أيضا :

أتى محمود باشا يوم نحس فساقته منيته غصيبه
تجاه الناصرية خلف حيط بغيط جاءه منه مصيبه
ببندقة رماه كف رام فحررها فجاءته مصيبه

(مطلب)

ولاية سنان باشا

فلما وصل خبر موته إلى دار السلطنة أرسل للولاية بعده سنان باشا فدخل القاهرة فى ثالث عشرى شعبان سنة خمس وسبعين وتسعمائة وكان قبل مجيئه واليا على حلب فلم تستقر به الولاية على مصر حتى ورد عليه مرسوم السلطان بالقيام إلى فتح اليمن واسترجاعها من الزيديين وكانوا قد خرجوا ثانية وشقوا عصا الطاعة فسار من القاهرة فى الرابع من شوال سنة ست وسبعين فكانت مدة تصرفه فى مصر نحوا من تسعة أشهر وسار معه من الأمراء المصريين حمزة بك وعماى بك وغيرهما من الصناجق، قيل وكان استصحابه لهؤلاء الصناجق لأمر نسبوه إليه وهو قتل محمد باشا الوالى السابق، وأقام سنان باشا المذكور يقاتل اليمانيين سنتين وأربعة أشهر حتى يسر الله له الفتح واستنقاذ اليمن من أيدى الزيديين وطير الأخبار بذلك إلى مصر والقسطنطينية ففرح السلطان بذلك فرحا عظيما وتزاحم على أبوابه الشعراء بقصائد التهانى وألف العلامة قطب الدين محمد بن أحمد المكى تاريخه لهذ الفتح سماه البرق اليمانى فى الفتح العثمانى. قيل وهو غاية فى البلاغة وبه قصيدة لا بأس بإيراد بعض أبيات منها هنا وهى :

لك الحمد يا مولاى فى السر والجهر على عزة الإسلام والفتح والنصر
كذا فليكن فتح البلاد إذا سعت لها الهمم العليا إلى أشرف الذكر
جنود زهت من كوكبان خيامها وآخرها بالنيل من شاطئ المصر

(ومنها)

فهـل يطمع الزيدى فى ملك تـبـع ويأخـذها من آل عـثـمـان بالمكر
أبى الله والإسـلام والسـيف والقنا وسـر إمـام المسلمـين أبى بـكـر

وهى طويلة للغاية ...

(مطلب)

ولاية إسكندر باشا الفقيه الشركسي بدلا من سنان باشا

فلمـا سار سنان باشـا إلى فتح اليـمن أتى للولاية بعـده إسكندر باشا الفـقيـه الشركسى فدخل القاهرة فى رابع جمادى الآخـرة سنة ست وسبعين وجعل يتصرف إلى غاية المحرم افتتـاح سنة تسع وسبعين فكانت مدته سنتين وسبعة أشـهر وخمسة عشر يومـا وكان عادلا تقيـا محبا للرعـية أبطل بعض المغارم والمكوس ورفـعها عن الفقراء والعواجز وأهل العلم وأمنت فى أيامـه السبل واطمأنت قلوب الرعية فكانت أيامه كلهـا بركة ورخـاء على البلاد وأهلها ولم يقع فـيها شـىء من الإحن والبلايا ومازال يتصرف فى الأمور ويعدل فى الرعيـة حتى مات، وعاد سنان باشا من فتح اليمن بعد موت اسكندر باشا بأيام قلائل ولم يرجع معه أحد من الأمراء والصناجق الذين كانوا قد ساروا فى ركـابه إلى هذه الغزوة وكأنهم قد ماتوا جمـيعا فلما دخل القاهرة جـاءه الأمر بولايته على مـصر ثانية فتـولاها من أول شهر صـفر سنة تسع وسبعين فزاد البلاد اطمئنانا وأمن السـبل وأتى على إصلاح الأمور من أبوابها فحفر خليج الإسكندرية وأحسـن مجراه وأنشأ عـدة مساجـد وتكايا وربط وجوامع بديار مصر فى الثغور والبنادر ولم يكن إلى ذلك الحين أحـد من الولاة أمثاله فعل ما فعله سنانَ باشا من البر والخـيرات وكان كثير العنايـة بمصالح الرعية شفوقـا عليهم يسأل العمال عن الصغيرة والكبيرة وقد بلغـه أن الأمير منصور بن بغداد أمير ولاية المنوفية حدث مـتلاعب أهمل أمور الولاية وهو منـهمك فى اللذات واتباع الشـهوات وأن جمـاعة من السفـهاء قد اسـتولوا على عقله وهـم المتـصرفون فى ولايتـه وقد زاده إهمالا وجراءة معرفته بالوزير الأعظم مـيلوش باشا وتقربه منه وكان قد عهد له بأن لا قدرة لأحد على خلعه من ولاية المنوفية فسار سنان باشا فى القعدة من السنة أى سنة تسع وسبعين وقبض على الأمير منصور المذكور وخلعه وولى مكانه الأمير علام بن بغداد واسـتمـر الأمـيـر منصور مسـجونا فى البـرج بقلعة الجـبل من سنة تسع

وسبعين إلى سنة ثمان وثمانين وتسعمائة عندما قدم حسن باشا وأطلق سبيله وأرجعه إلى ولاية المنوفية فكانت مدة حبسه نحوا من عشر سنين.

(مطلب)

ولاية حسين باشا

ومازال سنان باشا يتصرف فى الأمور مع الرفق واللين بالرعية حتى جاءه أمر السلطان سليم بالحضور إلى دار السلطنة فرحل عن مصر والقلوب راضية عنه فكانت مدته الثانية سنتين اثنتين وتولى بعده حسين باشا فدخل القاهرة فى سادس عشرى المحرم افتتاح سنة إحدى وثمانين وتسعمائة وجعل يتصرف فى الأمور ثم خلع فى سنة اثنتين وثمانين فكانت ولايته سنة واحدة وعشرة أشهر وخمسة عشر يوما وكان عاقلا رزينا شفوقا بالرعية ميالا إلى الخير والإحسان ووقع فى أيامه غلاء عظيم وانقطع الوارد من المأكول والمشروب ثم وقع قحط عظيم جدا فأكل الناس بذر الكتان والحشيش اليابس واشتد الجوع بالناس اشتدادا عظيما وأعقبه الموات فجاءة حتى أن الرجل أو المرأة أو الخادم إذا خرج من بيته لقضاء حاجته أدركته المنية فى الطريق فيموت سريعا بلا ألم ولا وجع وبقى الحال على هذا الوصف أياما كثيرة فهاجر الناس إلى ضواحى القاهرة ومصر ونزحوا إلى بعض القرى والبلدان فرارا من الموت ولكنه لم يلبث أن عم جميع القرى والمدن وكثر واشتد شدة بالغة ثم أخذ يزول، وماتم زواله حتى كثرت اللصوص وظهر قطاع الطرق فعاثوا فى البلاد وسلبوا ونهبوا وأفسدوا وقطعوا الطرق على أبناء السبيل وكانوا لا ينفكون ليلا ولا نهارا وعجز حسين باشا المذكور عن ردعهم فتمادوا وكثر شرهم وعم الخوف جميع البلاد فكانت شدة عظيمة وازدادت الأحوال اضطرابا والأمور خللا وفسادا بتطاول أيدى الجند أيضا إلى أموال الناس وعبثهم بمصالح الدولة وعدم وقوفهم عند طاعة كبارهم وإيذائهم للسوقة والباعة وأصحاب البيوت حتى ضج الناس وترقبوا مرور حسين باشا فى الطريق وصاحوا فى وجهه وقبحوا عجزه وأقسموا إنهم إنما هم رافعون ظلامتهم إلى السلطان وكان السلطان فى هذا الحين فى شاغل ليس عن مصر فقط بل عن جميع الأيالات التابعة إلى مملكة أبيه بما تولى عليه من الخمول وضعضعة النفوذ. قال أصحاب التاريخ: وذلك لأنه لم يكن متصفا بما يؤهله للقيام بحفظ فتوحات أبيه ولاهو متصفا بالحزامة وأصالة الرأى فارتبكت لذلك أحوال المملكة

وانفشلت أمورها وطمع فيها الأعداء ومالت بعض الولايات إلى الخروج فشدد بعض الدول الكبرى فى طلب كثير من الامتيازات كدولة الفرنسيس فقد نالت فى أيامه حقوقا مهمة غير الذى نالته منها في أيام أبيه وكان صدر الدولة يومئذ صقللى محمد باشا وهو رجل موصوف بالتدبير عالى الهمة كبير السياسة خبير بفنون الحرب صادق الخدمة فبذل العناية فى بقاء مركز الدولة غير محقر ولامهان وأجهد النفس فى حفظ ما بيدها من الثغور والعمالات وفتح ما يمكن فتحه من المدائن والثغور فسير لفتح جزيرة قبرس عمارة عظيمة من سفن الحرب تحمل زهاء مائة ألف مقاتل ومقدمها لاله مصطفى باشا فحاصرت الجزيرة إلى أن دخل الشتاء فانصرفت عنها ثم عادت لحصارها حتى تم فتحها وأقلعت بعد ذلك هذه العمارة إلى جزيرة كريت لفتحها فلم تنل منها فأخذت من البندقية بعض المدن الواقعة على بحر الأدرياتيك فأكبر البنادقة هذا الأمر جدا وعمدوا إلى محالفة دولة أسبانيا فلما تمت لهما المحالفة تعاهدا مع بابا رومة على قتال الترك ومنازلة عمارتهم ومحو آثارهم من البحار فأعدوا لذلك عمارة عظيمة من مائة وأربعين من سفن البنادقة وسبعين من سفن الأسبانيول واثنتى عشرة سفينة للبابا وتسع من سفن رهبنة القديس يوحنا الأورشليمى بمالطة وكان مقدم هذه العمارة الأمير دون جوان وهو ابن للإمبراطور شرلكان من إحدى عشيقاته وكانت سفن الترك ثلثمائة سفينة فلما التقى الفريقان عند ليبنة اقتتلوا قتالا عنيفا للغاية نحوا من ثلاث ساعات ثم انكشف الأمر عن هزيمة السفن التركية وانتصار سفن الأحزاب فاستولوا على مائة وثلاثين سفينة عثمانية وأحرقوا وأغرقوا أربعا وتسعين وغنموا زهاء ثلثمائة من المدافع وأسروا نحو ثلاثين ألفا من المقاتلين فكانت هذه الواقعة من أتعس الوقائع وأشدها خطرا على مقام الدولة العثمانية فى عرض البحار، وجاءت الأخبار إلى دار السلطنة بما حل بالعمارة فهاج المسلمون وماجوا وهموا بقتل رسل البابا الذين هم رعاة المذهب الكاثوليكى فلم ينالوا منهم لاهتمام صقلى محمد باشا بمنع القلاقل وعدم تطاول أيدى الرعية إلى الإيذاء. قال بعض كتاب الأخبار : ولم تكن هذه الكسرة المشئومة لتقعد همة صقلى محمد باشا عن لم شعث العمارة العثمانية وإعادة ما كان لها من الرونق والبهجة حيث أنشأ لها عدة سفن وجهزها وبالغ فى تجهيزها وأتقن نظامها وسيرها فى عرض البحار طلبا للثار فلم يقع بينها وبين سفن الأحزاب شىء من القتال لانفصام عرا الاتحاد ما بين البنادقة والإسبانيول وعقد معاهدة ما بين

العثمانيين والبنادقة على شروط يرضاها الفريقان فلما كان فى خلال الحوادث الأخيرة مرض السلطان سليم واشتدّ به مرضه أياما ثم مات فى سابع رمضان سنة اثنتين وثمانين وتسعمائة هجرية أى سنة أربع وسبعين وخمسمائة وألف ميلادية فكانت سلطنته نحوا من تسع سنين فولى السلطنة بعده ولده السلطان مراد خان .

(الفصل الرابع)

(فى سلطنة السلطان مراد ابن السلطان سليم)

ثم قام بالأمر بعد السلطان سليم ولده السلطان مراد بويع له بالملك عاشر رمضان سنة اثنتين وثمانين وتسعمائة هجرية أى سنة أربع وسبعين وخمسمائة وألف ميلادية وله من العمر يومئذ ثلاثون سنة وكان شهما مقداما عالى الكلمة واسع المعرفة خبيرا بالأمور محبا للفتح والغزوات فغزا عدة غزوات وسار بجيش ضخم لإخضاع المجر وردها إلى طاعة الدولة بعد أن كادت تخرج عنها فقاتلها وأذلها إذلالا كبيرا وأعادها إلى ما كانت عليه وفتح عدّة مدائن وحصون ودوّخ كثيرا من البلدان فاتسعت كلمته وكبرت هيبته وعاقده كثير من الملوك وتقربوا إليه .

(مطلب)

ولاية مسيح باشا

وكان حسين باشا والى الديار المصرية قد عزل من منصب الولاية قبل أن يتولى السلطان مراد السلطنة بقليل فأقام بدله مسيح باشا وكان من خزنة دار السلطان سليم فدخل القاهرة فى أوائل سنة اثنتين وثمانين وكان ذا مهابة وعفة يكره أهل الفساد واللصوص وقطاع الطرق وكانوا فى ولاية حسين باشا قد كثروا فى الأرض وعاثوا وأفسدوا فيها كما تقدم فعمل على قطع شأفتهم وصار يتجسس أخبارهم ومواطنهم ويبعث بالحكام فيقبضون عليهم ويأتون بهم عشرات عشرات فيقتل منهم ويشنع فى قتلهم فخافوا وانكفوا وارتجع أهل التهم وسكن الحال واستتب الأمن واطمأنت قلوب الرعية واشتدت يقظة الحكام وهابوه وانكفت أيدى الولاة والكشاف

جميعا عن التجرئ على ما لا يصلح عمله من أخذ الرشاوى والبراطيل وأخذ الأموال من أصحابها بالسوط والنبوت وبالغ مسيح باشا فى القتل والتمثيل لأقل سبب قيل فكان عدد من قتل فى أيامه زهاء عشرة آلاف وقد علق شناكل من الحديد بالرميلة وبولاق والشون بمصر القديمة لقتل المفسدين وأصحاب الكبائر فكان لذلك وقع فى قلوب الرعية وخافه جميع الناس ومالت إليه القلوب وأحبته الرعية وتصرف فى الولاية التصرف العام إلى ثانى عشرى جمادى الأولى سنة ثمان وثمانين وتسعمائة ثم جاءه الأمر بالانصراف عنها فقام إلى القسطنطينية على الأثر فكانت مدة تصرفه خمس سنين وسبعة أشهر وخمسة عشر يوما وكان قد بنى له مدرسة ومدفنا بالقرافة وأوقف عليها أوقافا عظيمة وكان يؤمل أن يدفن فى مصر ﴿**وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت**﴾ فحزن الناس لعزله.

(مطلب)

ولاية حسن باشا الخادم

فلما عزل مسيح باشا تولى بعده حسن باشا الخادم فدخل القاهرة فى سادس عشرى جمادى الأولى من السنة وكان قبل ولايته هذه خازندار السلطان مراد فلم يستقر به المنصب حتى ظهرت عليه علامات الغلظة وجعل يتصرف مع العسف والكبرياء فكان ظلوما غشوما عتلا زنيما محبا للمال ومصادرة الناس ميالا للرشاوى والبراطيل فصادر كثيرا من أهل الوجاهة وذوى البيوتات فأصبحهم بعد الغنى والإثراء فقراء لا يمتلكون شروى نقير واشتد بالرعية شدّة بالغة وأخذهم بالشبهات فقتل وشرد وألزم اليهود فى أيامه بلبس الطراطير الحمر وألزم النصارى بلبس القلنسوة السوداء وكان قليل الرأى ضعيف التدبير سفاكا للدماء ولكنه جبان صغير القلب متحجبا إلا على بعض خواصه فأبغضه الناس كافة وضجوا من فعاله ورفعوا القصص إلى دار السلطنة واستغاثوا فجاءه الأمر بالعزل فى ثالث عشر ربيع الآخر سنة إحدى وتسعين وتسعمائة فكانت مدّة تصرفه سنتين وأحد عشر شهرا وثمانية عشر يوما كلها بلايا وإحن وقد عمر ببولاق وكالة تجاه الترسخانة وصهريجا مقابلها يعلوه مكتب للأيتام وكان قصده أن يزيل الترسخانة ويبنى مكانها جامعا فلم يتمكن من ذلك لعزله.

(مطلب)

ولاية الوزير إبراهيم باشا

وتولى بعده الوزير إبراهيم باشا فدخل القاهرة فى رابع عشرى ربيع الآخر من السنة وسار من وسط المدينة فى موكب لم يعهد لأحد من قبله وفرح الناس به فرحا لا يوصف قيل وكان معه مرسوم من السلطان بتحقيق ما ارتكب فعله حسن باشا والقبض عليه وتعويقه حتى يتم ذلك فأحس حسن باشا بذلك وسار من القاهرة خفية قبل وصول إبراهيم باشا إليها وطلع من باب المقابر ليلا فى نفر من أتباعه وبطانته فلما وصل إلى دار السلطنة قبضوا عليه ثم أبعدوه عن خدمة الدولة وبالغوا فى إذلاله ومازال حتى صادفته العناية والعناية صدف فارتقى مسند الصدارة العظمى وعلت كلمته واتسعت صولته ثم عزل وقتل شر قتلة وأما إبراهيم باشا فإنه أخذ يتصرف فى الأمور وأقام بجامع السلطان فرج بن برقوق ديوانا لسماع القصص التى كانت ترفع من الناس على حسن باشا فلبث الديوان ينظر فى تلك القصص من العاشر من رجب من السنة إلى غاية رمضان من السنة فأبان التفتيش عن شىء كثير من مظالم تكاد لا تحصر ولا تعد وكان منها مائة ألف أردب وأربعمائة واثنان وخمسون أردب قمحا بيعت من الشون وأخذ ثمنها حسن باشا المذكور وغير ذلك من الاختلاسات الأخرى قيل فلما رفع أمر هذا كله إلى السلطان مراد وكان حسن باشا المذكور قد ارتقى منصب الصدارة العظمى أمر بإعدامه خنقا وجاءت الأخبار بذلك إلى مصر ففرح الناس بموته لما قاسوه فى أيامه من البلايا والإحن.

وسار إبراهيم باشا من القاهرة إلى داخلية البلاد ليستطلع أحوال الأهالى ووصل إلى بئر الزمرد فأحاط بها علما وظفر منها بالزمرد النفيس وسار إلى دمياط وإلى المحلة الكبرى وكان بها كنيسة عظيمة للغاية وهى من أفخر العمائر القديمة وبها جماعة من قسوس المتأصلين أى أهل البلاد فلم يشأ أن تكون لهم واستعظمها عليهم فأمر بهدمها وبنى مكانها مدرسة وسماها الوزيرية فعدت له هذه نقطة سوداء فى تاريخ حياته ثم سار إلى كثير من المدن والبنادر ثم رجع إلى القاهرة وأنزل نفسه عن الولاية فى سنة اثنتين وتسعين فكانت ولايته سنة واحدة وتسعة عشر يوما وسافر إلى دار السلطنة فى شهر شوال من السنة.

(مطلب)

ولاية سنان باشا الدفتردار

فتولى بعده سنان باشا الدفتردار ودخل القاهرة فى ثالث عشر شوّال من السنة وإبراهيم باشا بها فلما استقر به المنصب طغى وتجبر وظلم الرعية وصادر الناس فى أموالهم وأراق الدماء لأقل الأسباب وأضعفها واشتد شدّة بالغة فضج الناس ورفعوا أمره إلى دار السلطنة فأتاه الأمر بالعزل وقد تصرف إلى ثالث عشرى ربيع الآخر سنة خمس وتسعين وتسعمائة، فكانت مدة تصرفه سنتين وستة أشهر وعشرة أيام ولبث بالقاهرة إلى أن قدم أويس باشا واليا ونزل بناحية شبرا قريبا من بولاق فأرسل إلى أويس باشا المذكور هدية عظيمة للغاية ومعها حصان أشهب مسرج بسرج مرصع وعدة تليق به وكان يؤمل أن أويس باشا حال طلوعه من المركب إلى الوطاق المنصوب له يركب الحصان المذكور فعدل عنه وركب أكديشا أشهب كان أحضره معه ثم إن سنان باشا قدم ناحية شبرا وقابل أويس باشا عند غروب الشمس فشاهد علامات الغيظ على وجهه فهاله ذلك وداخله الخوف فلما رجع من عنده إلى القاهرة اختفى ولم ير بعد ذلك إلا فى الديار الرومية .

(مطلب)

ولاية أويس باشا

وتصرف أويس باشا فى أمور البلاد من ثالث عشرى جمادى الآخرة سنة خمس وتسعين وكان قبل ذلك قد ولى القضاء ثم صار دفتردار الروم إيلى ثم جاء إلى ولاية مصر فكان جبارا عنيدا شديد البطش سفاكا للدماء كثير الأخذ بالشبهات ثم تطاولت يده أيضا إلى العبث بأمور العساكر والأجناد والتصرف فى مرتباتهم وجماكيهم بما يناسب هواه فخرجوا عليه وأحاط جماعة منهم بديوانه ودخل عليه جماعة وأوسعوه ضربا ونهبوا داره فأخذوا جميع ما كان بها من مال ومتاع وقاموا على عثمان أغا أغاة الجاويشية وذبحوه ذبح الشاة وأحرقوا دار القاضى وقتلوا اثنين من قضاة مصر ثم عمدوا إلى حوانيت القاهرة ومصر فنهبوا ما فيها وعاثوا وأفسدوا وفعلوا ما لا خير فيه وذلك فى شوّال من سنة ثمان وتسعين فخاف الناس خوفا شديدا وانكمشوا فى البيوت وتحصنوا بها وقد تطاولت أيدى العامة والغوغاء إلى

النهب والسلب أيضا فكانت فتنة عظيمة للغاية لم تقدر الأمراء ولا كبار الجند على تسكينها وبذل الباشا الجهد فى ملاطفة أصحاب الفتنة وكبار العصابة وبعث إلى القضاة يعلمهم بأن لا يخالفوا للثائرين أمرا عسى أن ينكفوا عن فعالهم فزاد تمردهم وطغيانهم وقبضوا على أولاد الباشا وأخذوهم رهنا على ما يطلبون وكان أولاد البلد إلى هذا الحين يدخلون فى خدمة الدولة ويلبسون لباس العسكر لهم ما لهم وعليهم ما عليهم فلما وقعت هذه الفتنة حرموا من ذلك وحظر عليهم الدخول فى مصاف العسكر إيجابا لطلب أهل الثورة وحدثت عقب ذلك مصادرات كثيرة من وجوه شتى. قال بعض كتاب الأخبار: فكان لاويس باشا المذكور يد فى هذه الحركة لأمر خفى وطالت أيام الفتنة فقلت الأقوات وعز وجودها وضج الفقراء واجتمعوا تحت قلعة الجبل وسبوا أويس باشا ورجموا الناس بالأحجار، ولما كان يوم الأحد رابع صفر سنة تسع وتسعين حصلت زلزلة بالقاهرة ومصر بعد ظهر اليوم المذكور فمكثت درجة وسدس درجة وسقط بسببها عدة منارات وبيوت وربوع وفاض الماء من حيضان الحمامات ومطاهر الجوامع وهدمت عقبة أيلة فنهب العرب جميع ما كان بها من ذخيرة للحجاج والمرابطين قيل ولم يسبق وقوع مثل هذا الزلزال إلا من عهد بعيد للغاية ووقعت بعدها بثلاثة أشهر أى فى يوم الأربعاء عاشر جمادى الأولى من السنة زلزلة أخرى ولكنها لم تلبث إلا يسيرا جدا فزاد تشاؤم الناس وكرههم إلى أويس باشا وعجوا إلى الله تعالى وتضرعوا إليه وكثر الدعاء بالجوامع وغيرها فلما كان سادس شهر رجب سنة تسع وتسعين أصابته سكتة قلبية فجأة فمات بها ودفن بالقرافة ففرح الناس بموته فرحا لا يوصف وكانت مدة تصرفه أربع سنين وشهرا واحدا وثمانية أيام فنظم بعضهم تاريخا فى موته فقال:

أهلك الله أويسا أنه	جار فى الحكم ولم يخش الوعيد
مذ أتى مصر تعدى حدّه	وبه الظلم تبدى فى مزيد
هلك الحرث وكم من فتنة	قد أثيرت منه فيما لا يفيد
مذ دهاه الموت ما أفلته	لا ولا كان له عنه محيد
خاب سعيا بوفاة أرخو	ها وخاب كل جبار عنيد
سنة ٩٩٩ ٦٠٩ ٥٠	١٣٤ ٢٠٦

(مطلب)

ولاية أحمد حافظ باشا الخادم

فلما مات تولى بعده أحمد حافظ باشا الخادم فدخل مصر فى سابع عشرى رمضان سنة تسع وتسعين وتسعمائة وأيتصرف فى الأمور فكان نعم الرجل ذا رأى وتدبير محبا للعلم والفقراء حسن السياسة فأمنت فى أيامه السبل وانتظمت أحوال الرعية وامتنع أهل الفساد وانكف الولاة والعمال عن العبث بأمور الرعية وكان يجلس للناس فترفع إليه القصص بحاجات الخلق وعمر فى أيامه وكالة كبرى وأخرى صغرى وسوقا وربوعا وبيوتا ببولاق من القاهرة بجوار شون الحطب وعمل مصلى بالوكالة الكبرى مطلة على النيل وعمر كذلك برشيد عمائر أخرى عظيمة وعمل سحابة بطريق الحاج وبه النفع للحجاج فلما كان التاسع من شعبان سنة ثلاث وألف هجرية جاء الأمر بالعزل والقيام إلى دار السلطنة فكانت مدة تصرفه ثلاث سنين وعشرة أشهر واثنين وعشرين يوما ولما بلغ دار السلطنة حمدت مساعيه بديار مصر فولى الصدارة العظمى ثم أنزل نفسه عنها واستأذن فى الحج فأذن له وجاء إلى مصر بحرًا فتلقاه الكبراء والأمراء أحسن ملتقى وأهدوا إليه الهدايا النفيسة فحج ورجع إلى الديار الرومية فمات بها.

(مطلب)

ولاية قيودر باشا

وتولى بعده على ديار مصر قيودر باشا فدخل القاهرة فى ثالث عشر رمضان سنة ثلاث وألف وكان أمياً ذا ذكاء محباً للهو واللذات قليل الحيلة ضعيف الرأى لا هم له غير اللعب واللهو ويروى عن لهوه حكايات كثيرة أضربنا عن إيرادها هنا صفحا.

وكان لما تولى السلطان مراد السلطنة أمر فانشئوا بالمدينة تكية ورباطا بظاهر المدينة وقرر بها أرباب وظائف ومجاورين ورتب بالتكية طعاما وحبوبا للحرمين ووقف على ذلك قرى من قرى مصر المحروسة بإقليم البحيرة ناحية نكلا وناحية الضاهرية وبالمنوفية ناحية سبك الأحد وناحية شبرازنكى وبالقليوبية ناحية طنان وناحية كفر زريق وناحية طوخ الملق وناحية سد طنان وناحية سنهرا وبالدقهلية ناحية سندوب

وناحية منية سمنود وناحية أبو الحسن وبالجيزة ناحية كوم برا وناحية نهيا وناحية العتامنة وناحية ديشنا وبالوجه القبلي البهنساوية وناحية بلينا وناحية الذيل وناحية العتامنة وناحية ديشنا وناحية نها بلفية وناحية دنديل وناحية العتمانة وناحية الضوابط وناحية اهناس الخضراء فكان يجهز إلى بندر السويس من متحصل النواحى المذكورة فى كل عام من الحب ألفى أردب ومائتى أردب تحمل فى مراكب فى وقف الدشائش الدارية إلى الينبع برسم التكية المذكورة ومجاورى الحرمين هذا عدا ما كان يجهز من النقد من متحصل النواحى المذكورة فى كل عام صحبة أمير الحج المصرى وقدره سبعة عشر كيسا توزع على أربابها من مجاورى الحرمين، ولعل هذا كله باق إلى الآن، فتطلع قيودر باشا إلى هذه الأوقاف وطمعت نفسه فى أخذ بعضها فلم يقدر ثم خشى العاقبة وانعطف إلى غيرها من موارد الأموال فشكاه الدفتردار إلى دار السلطنة وبالغ فى فساد الأحوال وعدم صلاحيته للولاية. قال أصحاب التاريخ: ولم تكن هذه الأوقاف والخيرات والتكايا لتكفر عن ذنوب السلطان مراد وما اقترفه من جريمة قتل إخوته الخمسة بعد توليته منصب السلطنة فإنه بعد أن تمت له البيعة واستقر به المنصب أمر فقتلوا إخوته المذكورين صبرا ليأمن على ملكه من النزاع ولم يخش الخزى والعار فكانت هذه الفعلة الشنعاء نقطة سوداء فى صفحات أيامه مع مايضاف إلى ذلك من تحجبه عن الناس وعدم اكتراثه بالأمور وتركه الغزو والخروج فى مقدمة الجند كما كانت تفعل أجداده حتى طمع العدو فى البلاد وتغلبت دولة النمسا على كثير من القلاع والحصون العثمانية وانتصرت فى عدة وقائع عظيمة مات فيها كثير من رجال الدولة، ومقدمى العساكر وخرجت بعض الأيالات عن الطاعة فقاتلت حتى انتصرت ونالت الاستقلال واسترجعت ما أخذ من مدنها وبلدانها عنوة واستخفت طوائف الانكشارية بقدر الدولة فتمردوا وأهانوا كبارهم ومقدميهم وثاروا على بعض العمال وكبار الدولة فقتلوهم جهادا ولم يقو السلطان على منعهم حتى كاد يبلغ الخلل حده وكانوا سببا فى دوام الحروب ومعاداة الممالك المجاورة لدولة القسطنطينية لاجتماعهم على الخلاف وعبثهم بأمور الدولة وتقويض أركان الأمن فيها بما يفعلونه من القتل والنهب وإذلال كبارهم عند أقل سبب وقد كان مما أهاجهم وخرج بهم عن حد الطاعة أنه لما كثر فسادهم وكبر شرهم بما فشا فيهم من الإدمان على السكر والإفراط فيه أمر السلطان بمنعهم من ذلك وبالغ فى عقاب من يقبض عليه سكران فقاموا عند ذلك قومة رجل واحد وحاصروا السلطان فى قصره وضيقوا

عليه وصمموا على قتله جهارا ولبثوا على هذا الحال أياما كثر فيها النهب والسلب والعربدة وتطاولت أيدى الناس لسلب أموال بعضهم ولم تسكن هذه الفتنة إلا بعد أن أباح لهم السلطان السكر وتعاطى الخمر والرجوع إلى ما كانوا عليه من العربدة والفساد.

وظلت الأحوال فى مصر ودار السلطنة فى قلق واضطراب بعضه بسبب الحروب المتواصلة بين السلطنة والممالك المجاورة وبعضه بسبب كثرة العزل والتولية فى ولاة مصر وتحزب الأحزاب وظهور كلمة الجند فيها وعدم وقوف كبارهم عند حد إلى أن مات السلطان مراد فى السابع عشر من جمادى الآخرة وقيل سابع عشر رمضان سنة ثلاث وألف هجرية فكانت سلطنته عشرين سنة وتسعة أشهر وستة أيام فخلفه ابنه السلطان محمد.

ومات فى أيام السلطان مراد غبريال بطرك المتأصلين بعد أن أقام تسع عشرة سنة وكانت الأمور فى أيامه على طرفى نقيض ما صفت يوما إلا وتكدرت أياما فأقيم بعده يوحنا وهو تاسع ثمانيهم ولم يكن لرهبانيته دير وكان حازما هيبا محبوبا محبا للخير ميالا للفقراء آوى إليه كثيرا من ذوى الحاجة فمد لهم يد المعاونة وبذل لهم المعروف وأقام أربعا وعشرين سنة ومات فخلفه متاوس وهو المتمم للتسعين وكان قبل ذلك راهبا فى دير المحرق ووقع من الحوادث فى أيامه ما سيذكر فى محله.

❑❑❑

(الفصل الخامس)

(فى سلطنة السلطان محمد ابن السلطان مراد)

ثم قام بالأمر بعد السلطان مراد ولده السلطان محمد بويع له بالملك فى يوم الجمعة سابع عشرى جمادى الآخرة سنة ثلاث وألف هجرية أى سنة أربع وتسعين وخمسمائة وألف ميلادية ولم يستقر به مقام السلطنة حتى قام على إخوته فقتلهم ليأمن على ملكه من المنازع وكأن هذه الفعلة الشنعاء قد صارت سنة عند ملوك آل عثمان يعمل بها الخلف عن السلف ثم تحجب بعد ذلك عن الناس وانعكف على الملاذ وترك أمور المملكة لجماعة الوزراء فعاثوا وأفسدوا وتصرف كل

منهم على هواه وعمل على ما فيه مصلحته فباعوا الوظائف وألقاب الشرف بأبخس الأثمان وسلموا مقاليد الدولة للأغرار والسفلة فبلغ الخلل حده وزالت حرمة الدولة وكبر طمع العدو فيها فخرجت عليها الخوارج وقامت الحروب من كل جانب واشتدت الخطوب وظهر الأمير ميخائيل صاحب الفلاخ على عساكرها فى عدّة مواقع عظيمة وضم إلى مملكته إقليم البغدان وجزءًا كبيرا من نسلفانيا وساعدته على غير ذلك أيضا عساكر الفساد فعم الخلل جميع أنحاء المملكة وقامت الفتنة وتطاير شررها إلى جوف الأناطولى وظهر رجل اسمه قره يازجى كان من مقدمى المتطوعة الذين نفاهم السلطان إلى آسية لجبنهم فى الحروب وادعى أن صاحب الشريعة الإسلامية أتاه فى منامه وأمره بالغزو والجهاد فى آل عثمان ووعده بالنصر والغلبة عليهم وأخذ جميع ولايات آسية منهم وبث الدعاة بذلك فى الآفاق فتبعه خلق عظيم من أولئك اللموم فنزل بهم على بلاد القرمان وقتال عامل الدولة عليها حتى ظفر به وأخذ مدينة عين تاب عنوة فكبرت عند ذلك لمومه وظهرت كلمته واشتهر أمره فسير السلطان لقتاله جيشا من الانكشارية فحاصروا مدينة عين تاب وضيقوا عليها وشددوا، فلما أحس قره يازجى بالغلبة وأنه مأخوذ لا محالة عمد إلى استعمال الحيلة فعرض على مقدم الانكشارية الطاعة للسلطان بشرط أن يوليه أماسيا فأجابه إلى ذلك ورفع عن المدينة الحصار فلم يكن بأسرع من أن عاد قره يازجى المذكور إلى العصيان وكان له أخ اسمه والى حسن قد ولاه السلطان على بغداد فسير إليه قره يازجى رسلا تستفزه إلى شق عصا الطاعة والقيام لنجدته فأجابه إلى ذلك وسير إليه جماعة كثيرة من أصحابه فاشتدت عزيمة قره يازجى واستفحل أمر الفتنة وظهرت كلمة قره يازجى وأخيه والى حسن واتسعت شهرتهما وكادت تعم دعوتهما فكبر الأمر على السلطان واستعظمه وسير لقتالهما عسكرا عظيما ومقدمهم صقللى حسن باشا فقاتلوا أوّلا قره يازجى حتى ظهروا عليه وجرحوه فترفع إلى الجبال ومات بجراحته ثم انحازوا لقتال والى حسن صاحب بغداد فقاتلهم قتالا عنيفا وانتصر عليهم فى عدة مواقع وقتل صقللى حسن باشا على أسوار (توقات) ومزق شمل عساكره، ثم سار ونزل على دمشق بخيله ورجله فهزم واليها شر هزيمة وهزم ولاة حلب وديار بكر ونزل على مدينة كوتاهية فحاصرها وضيق عليها من كل جانب فاشتد عند ذلك الخلل وتعاظم وهمت أكثر أيلات الدولة إلى الخروج وتأهبت إلى شق عصا الطاعة إلا مصر فإنها كانت فى شاغل عن هذا كله بما قد انتابها من

كثـرة التولية والعزل فى ولاتهـا وعدم وقوف الجند والأمـراء فيها عند حـد وعسف واليهـا قيودر باشـا وعبثـه بجميع الأمـور وتطاول يده إلى أموال الناس بلا اسـتثناء ومازال الحـال على ذلك إلى سابع عشـر رجب سنة أربع وألف ثم جاء قيـودر باشا المذكور الأمر بالعزل فكانت مدة ولايته عشرة أشهر وعشرة أيام فتولى بعده الشريف محمد باشا ودخل القاهرة فى ثالث شوال سنة أربع بعد الألف وكان مهيبا ذا بصيرة وخبـرة بالأمور واسع الاطلاع بإدارة البلاد فلمـا استقـرت به الولاية وجلس للناس رفعت إليه القصص ضد كوسى حسن الـشاغرت وأحمد المسلمانى وكان الأول على الأموال والثانى على الشون السلطانى وكانا قد اختلسا منهما شيئا كثيرا فعين عليهما من ضبط حـسابهمـا فثبت عليـهما مـاقيل فأمـر بشنقهمـا على باب زويلة وتركت أجسادهما معلقة ثلاثة أيام فهابه الناس وخافوه خوفا ما عليه من مزيد فخامره لذلك الغرور حتى بلغ به إلى الأخذ بالشبهـات والبطش بمن يتوسم فيه سمة الإنكار وأراد أن يبطش ببعض كـبار الناس فأشيع عنه ذلك فـتحذروا منه وأبغضـه الناس والأمراء كافة فلما كان فى بعض الأيام أراد التوجـه إلى الربيع فمنعه بعض أصحابه وأنذروه بسوء العاقـبة إن هو ذهب فى يومه فنبذ كلامـهم، فلما خرج قام عليه جـماعة من العسكر وتعرضوا له عنـد انصرافه وهو بباب الوزير بموكبه الخاص وعـساكره وطائفة من السامانية وهم معـدون بالبنادق فلما عاين من معه كثرة العـساكر تفرقوا عنه فى الأزقة وتركوه فى نفر قليل من أتبـاعه فدعاه العسكر للمحاكمـة أمام قاضى القضاة بمدرسة السلطان حـسن فأظهر لهم الانقـياد والطاعة وسار مـعهم إلى أن وصل إلى الرمـيلة فأركض فـرسه نحـو باب السلسلة ودخل القلعـة وأغلق الأبواب بينه وبين العسكر فهاج العسكر وأثاروا الفتنة وقتلوا كل من كـان يكثر التردد على محمد باشا من الأمراء والعلماء وأصـحاب الوظائف وأخذوا الناس بالشبهات فـعم الخوف وكبر اضطراب الناس وبقى مـحمـد باشا بقلعـة الجبل مكفـوف التصـرف قاصر الكـلمة محجورا عليه إلى أن جاءه الأمر بالعزل فى خامس عشرى ذى الحجة سنة ست بعد الألف وكان جبارا عنيدا سـفاكا للدماء وقع فى أيامه قحط شديد للغـاية استمر مدّة وأعقب القـحط وباء عظيم فكثر الموات فى الناس بالقاهرة ومـصر وضواحيـها وزاد زيادة بالغة ثم عم الـقرى وانتقل أيضـا إلى بقية البلدان فكـانوا يدفنون الأموات فى الليل والنهار وكثـرت الجثث فى البيوت وفى الطرق والحـارات واشتد الوهم بالناس وفر محمد الشريف باشا من القاهرة هربا من الموت واستخلف على البلاد بيرى بيك

أحد كبار الأمراء فلم تستقر به الولاية حتى أدركه الموت فولى الأمراء بدله عثمان بيك فأقام إلى أن كانت الفتنة وعزل محمد الشريف باشا وأتى خضر باشا واليا فكانت مدة تصرف محمد الشريف باشا سنتين وشهرين وثلاثة عشر يوما وخرج من مصر فى موكب عظيم وعلى رأسه عمامة خضراء وركب معه خاصة العسكر وعامته فلما وصل إلى الديار الرومية أرسله السلطان لقتال ملك فارس فأسر وبقى ببلاد فارس إلى أن مات .

(مطلب)

ولاية خضر باشا

ودخل خضر باشا القاهرة فى عشرى ذى الحجة سنة ست بعد الألف فتصرف ثلاث سنوات وخمسة أيام فلم يقع فى أيامه من الحوادث شيء يذكر إلا ما كان من سكون الفتنة ورجوع الجند والعسكر إلى الطاعة وزوال الخوف من قلوب الرعية ثم عزل فى خامس عشر المحرم افتتاح سنة عشر وألف.

(مطلب)

ولاية علي باشا

وتولى بعده على باشا فدخل القاهرة فى تاسع صفر سنة عشر وألف، وكان لما قدم إلى الإسكندرية لبث بها أياما فتراكمت عليه القصص وتساقطت بين يديه بالشكوى من الكشاف وبعض رجال الدولة وأكثرها من برويز كاشف المنوفية وكان برويز هذا عتلا زغميا ظالما محبا للمال كثير المصادرة للناس سفاكا للدماء لا دين له ولا ذمة ولا حرمة ولا أدب فلما أتى الكشاف للقاء على باشا المذكور وبينهم برويز هذا أمر به على باشا فقبضوا عليه وقتلوه بين يديه، وقيل إن لقتل برويز المذكور سببا غير ذلك هو أن شيخى افندى الذى كان متوليا قضاء المنوفية وانصرف عنها قد اجتمع بعلى باشا فى جزيرة رودس فسأله على باشا عن مصر وأحوالها وما فيها من الأمور الخارقة فحدثه بما علمه من أحوال البلاد وأهلها وبالغ فى الوقيعة ببرويز كاشف المنوفية المذكور وأخذ يعدد فظائعه فلما وصل على باشا إلى كفر الخضراء رفعت إليه القصص ضد محمد بن نجا حاكم النحراوية فقبض عليه وقتله بفناء الكفر

فهابه الحكام وخافه الكشاف ودخل القاهرة فى هيبة وجلالة وقبض على برويز وقتله فلقبوه من يومئذ بالنمر، ولما استقرت به الولاية أرسل قوسا وأمر أن يعلق على باب زويلة بالمرمى ولصق به ورقة ذكر أنه مكتوب فيها كل من أدنى هذا القوس يعطى ما هو مقيد بالورقة فلم يجسر أحد أن يمس القوس تأدبا واستمر وهو معلق أياما ثم رفع ثم اشتد بعد ذلك على العسكر وضيق عليهم وصار يؤاخذهم على الصغائر والكبائر فأبغضوه وجعلوا يراقبون فرصة للانتقام منه فاتفق أنه سار إلى طندتا لزيارة السيد البدوى فعارضه بعض العسكر ومنعوه من الخروج من القاهرة إلا إذا أعطاهم ما كانوا طلبوه منه فأجابهم إلى سؤالهم صاغراً وعاد إلى القاهرة، وقد كاد يتميز غيظا فمرض واشتد به مرضه فأرسل إلى دار السلطنة يطلب الإذن بالعود إلى القسطنطينية فأذن له فسافر فى سادس ربيع الآخر سنة اثنتى عشرة وألف فكانت مدة تصرفه سنتين وستة أشهر وعشرين يوما فلما وصل إلى دار السلطنة قلد منصب الصدارة العظمى ثم وجه لقتال المجر فلم يلبث إلا قليلا وعاوده المرض فمات هناك وكانت أيامه بمصر كلها خير وبركه وظهر فى أيامه التبغ بديار مصر وكثر استعماله ولم يكن إلى ذاك الحين شيئا يذكر وظهر الطاعون فمات به خلق كثير جدا وعم القرى والمدن والبنادر ومكث أياما وفتك فتكا ذريعا ثم ارتفع، وجاءت الأخبارفى هذه الأثناء بموت السلطان محمد، مات فى رجب سنة اثنتى عشرة وألف هجرية فكانت مدة سلطنته تسع سنين وخمسة عشر يوما وتولى بعده ابنه السلطان أحمد .

□□□

(الفصل السادس)

(فى سلطنة السلطان أحمد ابن السلطان محمد خان)

ثم قام بالأمر بعد السلطان محمد ابنه السلطان أحمد بويع له بالملك فى ثالث رجب سنة اثنتى عشرة وألف هجرية أى سنة ثلاث وستمائة والف ميلادية وله من العمر ثمانى عشرة سنة فاستوزر الأمير قويجى مراد باشا وكان شيخا كبيرا صادق الخدمة تولى الوزارة وأركان الدولة متزعزعة فى جميع جهات آسية والفتنة قائمة ونار الحرب مستعرة على حدود فارس شرقا والنمسا غربا والسبب فى ذلك أنه لما تولى

عباس شاه على ملك فارس بعد موت محمد مرزا فى سنة أربع وتسعين وتسعمائة هجرية نهض إلى استرجاع ما أخذه ملوك آل عثمان من ملك فارس فأعد المعدات وجيش الجيوش ورمم القلاع والحصون وسار فى عسكر من خراسان إلى مشهد وكانت قد استولت عليها قبائل الأزبك فاستخلصها منهم وانتصر عليهم عند هرات أيضاً نصرة عظيمة فلما تقوت عزيمته بما ناله من الظفر عمد إلى قتال آل عثمان فنال منهم واسترجع جميع ما أخذوه من مملكة فارس عنوة ولم تقو الدولة على رده يومئذ لاختلال الأحوال وسريان الفساد في جميع ولايات الدولة الشرقية وخروج الخوارج بعضهم يستفز بعضاً فلما بطلت الحرب مع عباس شاه سار قويجى مراد باشا الصدر فى مقدمة جيش عظيم إلى إطفاء نار الفتنة وقمع أولئك الخوارج فى جميع الولايات الشرقية فقاتلهم وانتصر عليهم ومزق شمل لومهم وقبض على كبارهم وأعمل فيهم القتل بحد السيف ومازال بهم حتى زالت الفتنة وعادت الأمور إلى سابق مجراها ورجع بمن بقى من جيوشه إلى القسطنطينية ظافراً غانماً فلقب يومئذ بسيف الدولة ثم مات بعد ذلك فكان موته خسارة عظيمة على الدولة لصدق خدمته وأمانته وسعيه فى إعلاء منار الدولة وإرجاع رونقها القديم، فتولى بعده الوزارة نصوح باشا واتفق بعد ولاية نصوح باشا هذا أن عادت سفن رهبنة مالطة وسفن الحرب الأسبانيولية إلى مهاجمة مراكب الدولة وسد المسالك عليها فى عرض البحر الأبيض وأعانتها على ذلك المراكب الإيطالية أيضاً، فرسم نصوح باشا لجميع مراكب الدولة بالاجتماع فى البحر الأبيض والمحافظة على المواصلة ما بين القسطنطينية والأيالات المغربية فاجتمعت وكان مجئ بعضها من البحر الأسود، فلما خلا البحر الأسود منها قامت طائفة من القوزاق وزحفت على ثغر سينوب فنهبوا وعاثوا وأفسدوا وفعلوا ما لا خير فيه وجاء الخبر بما وقع إلى دار السلطنة فأكبره السلطان واتهم الصدر الأعظم بالخيانة وسوء القصد وكان للصدر خصوم وأعداء لا تغفل عن الوشاية به فزينوا للسلطان قتله وحببوا إليه التخلص منه فأمر به فقتلوه خنقاً فى قصره. وكانت مصر إلى ما بعد خلع واليها على باشا وقيامه إلى دار السلطنة بأيام كثيرة بلا وال والأحوال فيها فى اضطراب والأمراء والجند على طرفى نقيض حتى جاء مرسوم السلطان إلى أمير الحاج بالتصرف فى ولاية البلاد فتصرف من عاشر ربيع الآخر فكان لا بأس به أصلح بعد الأمور ورفع بعض المغارم وأبطل كثيراً من المظالم وأعاد الجند إلى حد الطاعة وأزال الشحناء من بين كبارهم ولكن لم تطل مدته إذا اخترمته

المنية فى يوم الثلاثاء سادس شعبان سنة اثنتى عشر وألف من الهجرة فكانت مدة تصرفه نحوا من خمسة أشهر ودفن بالقرافة فاتفق الأمراء وكبار الدولة على تولية عثمان بك أمير اللواء، فولوه المنصف فى سابع عشر شعبان المذكور إلى أن يقدم من دار السلطنة من يتصرف وكان الأمير عثمان هذا مشهوراً بالعفة والاستقامة وله جلالة وهيبة ورأى وخبرة بالأمور فتصرف مدة ثلاثة أشهر وثلاثة وعشرين يوماً.

(مطلب)

ولاية إبراهيم باشا المعروف بالمقتول

ثم جاء الخبر بولاية إبراهيم باشا المعروف بالمقتول فدخل القاهرة فى يوم السبت ثانى عشري ذى الحجة سنة اثنتى عشرة وألف فلما استقر به المنصب وتصرف فى الأمور منع الكثير من طلبات العسكر وجعل يتتبع عثراتهم ويتجسس أخبارهم ولاسيما مجالس هزلهم فأشار عليه أصحاب المعرفة بأن يقلع عن هذا فلم يقبل وكان مستقلاً برأيه فخوراً مختالاً لا ينقاد إلى نصح ولا يهتدى لقول مشير. واتفق أن أتت له الأخبار يوماً بأن جماعة من العسكر بالغيط الذى بقناطر السباع يتعاطون الخمر ويفعلون ما لا خير فيه فقام وغير لباسه وسار إليهم ومعه ثلاثة رجال من خواصه فلما علم العسكر بحضوره فروا هاربين وزاد بغضهم له ونووا قتله فلما كان فى تاسع عشر ربيع الآخر سنة ثلاث عشرة خرج إبراهيم باشا فى نفر من الجند والأتباع وأصحاب الوظائف والصناجق لقطع جسر أبى المنجى بين شبرا وقليوب فأشار عليه بعض أصحابه أن لا يخرج وأن الذى يخرج عادة لقطع هذا الجسر هو زعيم مصر فإن كان ما يمنعه أرسل بعض أتباعه لقطعه فقال وما علىّ لو ذهبت بنفسى قالوا إن خواطر الجند منحرفة وقلوبهم متغيرة عليك بسبب فعلك بهم فقال لابد من الذهاب وخرج بغير إحجام وقد أدركته صلاة الجمعة ببولاق القاهرة فصلى بها وهيئت له سفينة عظيمة وزينت بالستائر والرايات والفرش والطنافس الثمينة فركبها وصحبته الأمير محمد بن خسرو وأمير اللواء بمصر المحروسة وبعض أكابر خدمة الديوان ومازال إلى أن وصل إلى الجسر فقطعه فى يوم السبت مستهل جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة بعد الألف، وكان إبراهيم باشا قد هيأ طعاماً بالغيط الذى أنشأه محمود باشا تجاه قناطر أبى المنجى فدخل الغيط ومن معه وصحبته الأمير محمد بن خسرو وعزمى زاده قاضى القضاة يومئذ وحصل لهم الصفو والمباسطة قبل

الطعام فلما حضر الطعام رأى الأمير محمد بن خسرو وطائفة من العسكر مقبلين بسلاحهم يريدون الفتك بهم فأسرع إليهم وعارضهم وسألهم عما يطلبونه فسألوا من إبراهيم باشا شيئاً كان يمكن قضاؤه في الحال فلما رأى إبراهيم باشا ما هم عليه من التهديد والجفاء والتحزب لم يجبهم إلى ما طلبوه وأغلظ عليهم القول فتقدموا نحوه فمانعهم الأمير محمد وزجزهم وصاح في وجوههم فطعنه أحدهم بخنجره فسقط يختبط في دمه فعلا صدره آخر واحتز رأسه وهجم آخرون على إبراهيم باشا واحتزوا رأسه وهو على مائدة الطعام فامتلأت أواني الطعام من دمه ورفعوا رؤوسهما على جريدتين من نخيل الغيط وعادوا إلى القاهرة وهم في ضجة وجلبة وطافوا بهما الشوارع وساروا من وسط المدينة إلى باب زويلة وعلقوهما هناك فخاف الناس وأغلقت جميع الحوانيت في ذلك اليوم وسدت أبواب الدور من خلف وأيقن الناس بوقوع الفتنة واضطرام نارها وأغلقت أبواب المدينة كباب الحسينية وباب النصر وباب البحر وتعطلت جميع الأعمال فكان يوماً عبوساً وفي قول أن قتل إبراهيم باشا المذكور كان في قلعة الدولاب وهو راجع مع من كانوا معه إلى القاهرة لما بلغه خبر حضور العسكر لقتله. وكان قد أشار عليه بعض الصناجق بالهروب بحراً وعدم العود إلى القاهرة فلم يلتفت لقولهم ولا أخذ بمشورتهم فلحق به العسكر وقتلوه واحتزوا رأسه وطافوا به في الشوراع وعبثوا وأفسدوا في ذلك اليوم وفعلوا ما لاخير فيه فكانت مدة تصرف إبراهيم باشا المذكور في الولاية أربعة أشهر وثمانية أيام لاغير وقد نظم بعضهم تاريخاً في موته فقال:

إن إبراهيم باشا قد سعى في الخير سعياً
قتله قد أرخوه وأرى التاريخ بغياً
سنة ١٠١٣

(مطلب)

ولاية جرجي محمد باشا الخادم

ولما قتلوه على الصورة المتقدمة أقاموا قاضي القضاة عزمي زاده والياً بعده في ثالث جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة بعد الألف وقد كانوا أرادوا أن يولوا الأمير عثمان بك فامتنع ولم يقبل. فلما وصل خبر قتل ابراهيم باشا إلى دار السلطنة غضب السلطان ورسم بولاية جرجي محمد باشا الخادم وأمره بقتل الثائرين وقطع

دابر جميع من كان له يد فى هذه الثورة، فدخل القاهرة فى سابع رجب سنة ثلاث عشرة بعد الألف وأتى إلى الصناجق أيضاً مرسوم السلطان بما ذكر فلما استقر محمد باشا بالقلعة وطلب الأمراء ليقرأ عليهم مرسوم السلطان وأن يأتوا بأهل الفساد وأصحاب الثورة خاف الأمراء وامتنعوا من الصعود إلى القلعة واجتمعوا بقراميدان تحت القلعة وتشاوروا طويلاً وكان بعض أكابر الدولة يترددون ما بين الباشا والصناجق حتى استقرت القاعدة بينهم على تسليم زعماء الثورة والعفو عن الصناجق فسلموهم فأمر الباشا برمى أعناقهم بين يديه فرميت فى الحال وتشتت من بقى من أصحاب الثورة فى البلاد فراراً من وجهه فجد فى طلبهم من الكشاف فمنهم من جىء به حياً فقتل ومنهم من قتله العربان، قال بعض كتاب الأخبار: فكان ما قتله منهم نيفاً ومائتين فى مدة تصرفه، وكانت مدة يسيرة إذ جاءه الأمر بالعودة إلى الديار الرومية فسار فى يوم الأحد ثانى عشر ربيع الأول سنة أربع عشرة فكانت مدته سبعة أشهر وسبعة عشر يوماً وتقلبت به الأحوال إلى أن ولى مسند الصدارة العظمى وكان حازماً شهماً قوى الجأش حسن التدبير صائب الرأى ذا خبرة بالأمور واسع الكلمة مهيباً...

(مطلب)

ولاية حسن باشا الدفتردار

وتولى بعده حسن باشا الدفتردار وقد كان والياً على اليمن ثم صرف عنها وقدم منها صحبة الحج إلى القاهرة فتردد عليه الناس وزاره الأمراء والعلماء والأكابر فشاهدوا منه رجلاً عاقلاً أديباً محتشماً وأقام بالقاهرة أياماً كان يبحث فيها عن أحوال البلاد وسير الكشاف ومعاملة أرباب الحل والعقد لأهالى البلاد فوردت الأخبار إلى القاهرة فى يوم الاثنين ثالث ربيع الأول سنة أربع عشرة وألف بولاية حسن باشا المذكور على الديار المصرية وقد كان إذا أتى لزيارة الكبراء والأمراء والعظماء توجع لهم مما يشاهده من ضنك الأهالى وفاقة الناس واشتداد الكروب ويقول إذا آتانى الله سبحانه ولاية مصر بذلت فى إصلاح الأحوال مهجتى، فلما جاءته الولاية واستقر بها لم يمنع ولم ينفع واختلت أموره وقصرت كلمته وعمت البلوى وانقفل فى وجه أصحاب الظلامات باب الشكوى فعاث العسكر فى أيامه وعادوا إلى التمرد والإفساد فلم يقدر على ردهم فاشتدت الفتنة وظهر أهل الفساد

وارتفع الأمن وسدت الطرق فى وجوه أبناء السبيل وقل الوارد من المأكول إلى القاهرة ومصر القديمة فغلت الأسعار وتعذر على الفقراء الحصول على قوت اليوم ولبث الحال على هذا الوصف حتى صرف عن الولاية فى يوم الأربعاء رابع صفر سنة ست عشرة وألف فكانت مدته سنة واحدة ونصفاً وستة وعشرين يوماً.

(مطلب)

ولاية الوزير محمد باشا

ثم تولى بعده الوزير محمد باشا فدخل القاهرة يوم الخميس خامس عشر صفر سنة ست عشرة وألف وكان حازماً عاقلاً ذا فكرة وتدبير ساكن القلب هادئ اللب كثير الصبر والجلد فلما استقرت به الولاية التفت إلى أمور البلاد وحاجات الخلق وبالغ فى ترتيب الأحوال وتأمين السبل وإبعاد أهل البغى والفساد وأخذ الكل بالشبهات فانحرفت لذلك خواطر الأمراء عنه وأبغضه الجند وكثرت عليه الشكاوى من جور الكشاف وأخذهم أموال الناس فلما كان غاية جمادى الأولى من السنة المذكورة استقدم إليه ابن درغت كاشف المنوفية وبرويز مجر كاشف الغربية وكوسى كاشف البحيرة وعوقهم عنده بقلعة الجبل إلى غروب اليوم ثم أمر برمى أعناقهم وولى مكانهم آخرين وأخذ عليهم العهود والمواثيق أن لا يظلموا الرعية ولا يتعدوا الحدود وكان ممن عين لكشافة الغربية الحلوجى فاتفق أنه بعد توليته ذهب إلى بولاق القاهرة لقضاء مصلحته فالتقى بطائفة من العسكر وقد علموا بولايته على إقليم الغربية فسألوا منه حاجة فلم يجبهم إليها وأغلظ معهم فى القول ونهرهم فأطلق عليه بعضهم طبنجة محشوة بالبارود فانزعج وألقى بنفسه فى النيل فأثقلته ثيابه فمات غريقاً، وبلغ الخبر محمد باشا فجمع إليه الأمراء وأكابر العسكر بالميدان تحت قلعة الجبل ونشروا البيرق السلطانى ونادى مناد من كان مطيعاً لله ورسوله محمد ﷺ وولى الأمر فليدخل تحت لواء السلطنة الشريفة العثمانية، فاجتمع عالم كثير من الأمراء وأكابر العسكر ومكثوا بالميدان ثلاثة أيام ثم طلع الأمراء إلى قلعة الجبل فكلمهم الباشا طويلاً فى أمر هؤلاء الخوارج وقد كانوا بعد موت الحلوجى اجتمعوا خارج سور القاهرة وانضم إليهم طوائف أخرى من العساكر والأجناد وقسموا بينهم بلاد مصر وأقاموا عليهم سلطاناً منهم واختص كل فريق بجهة من جهات مصر العليا والسفلى وتفرقوا على ذلك فعاثوا وأفسدوا الحرث والنسل وسدوا الطرق

وقطعوا السبل ومنعوا ورود الأقوات إلى القاهرة فاستقرت القاعدة ما بين محمد باشا والأمراء فى ذلك اليوم على الخروج بطائفة من الجند لقتالهم فخرجوا واقتتلوا معهم قتالاً شديداً وظفروا بهم ومزقوا شملهم وقبضوا على زعمائهم وأصحاب الكلمة منهم وقدّموهم إلى محمد باشا فأمر بقتلهم بين يديه وتتبع الجند من بقى منهم فى المدن والقرى وآبادوهم إلا من طال عمره وخمدت نار الثورة ثم لم تكد تطمئن خواطر الخلق حتى ظهر جماعة من لموم الأشقياء فى أوائل القعدة سنة سبع عشرة وألف واجتمعوا من الأقاليم القبلية والبحرية وتألفوا حزباً واحداً وحلفوا لمن بقى من متشردى أولئك العسكر بعد الواقعة الأولى على الأخذ بثارهم وقطع دابر الأمراء وأكابر الدولة ونصبوا خيامهم بالمرج والزيات وتحالفوا على الهجوم والقتال فلما علم محمد باشا بخروجهم أرسل لهم جماعة من الاختيارية الموصوفين بالعقل والتجربة فوعظوهم وحذروهم عاقبة هذا الأمر فلم ينتهوا فعادوا وأخبروا الباشا بما كان فجمع الباشا طوائف العربان ومشايخها من الأقاليم وجميع العساكر والأجناد وجيش منهم جيشاً عظيماً مدججاً بالسلاح وآلات الحرب وعدّة من المدافع وجعل مقدّمه الأمير مصطفى بك سردار العساكر فسار مصطفى بك بهذا الجيش لقتال الخوارج فلما وصل إلى بركة الحاج تراءى الجمعان فاقتتلا قتالاً شديداً وظفر بهم مصطفى بك وضيق عليهم المسالك فطلبوا الأمان واختلط الجيشان فقبضوا على أشرارهم ومقدميهم وهرب من خلص منهم فتبعتهم العربان وقتلتهم وعاد مصطفى بك إلى القاهرة بمن معه من الخوارج وهم مشاة حفاة حاسرو الرؤوس مكبلون بالحديد ورؤوس القتلى مرفوّعة على الرماح ودخلوا جميعاً من باب النصر والناس ينظرون إليهم ومروا بالقصبة إلى أن وصلوا إلى القلعة فلما تمثلوا بين يدى محمد باشا أمر بجماعة منهم فقتلوا فى ساعة وصولهم والباقى منهم قتل فى ليلة وصوله وألقوا جثثهم فى النيل ثم أخذوا يتتبعون أثر من بقى منهم فكانوا إذا عثروا بأحد نفوه إلى اليمن، ومازالوا حتى لم يبق منهم أحد وصفت الحال وسكنت خواطر الخلق واطمأنت قلوب سكان مصر والقاهرة، ووجه الباشا عنايته إلى ترتيب خراج البلاد وإبطال الكلف والمغارم وتخفيف الضرائب وإبطال طريقة جباية الأموال التى كانت جارية من عهد دولة المماليك الشراكسة ورسم بجبايتها على ما جاء فى حكم السلطان سليمان الموقع فى سنة اثنتين وثلاثين وتسعمائة وكان شفوقاً بالرعية محباً للضعفاء آخذاً بناصر المظلوم نافذ الكلمة لا يرد له أمر وما زال محفوظاً إلى أن اختار العود إلى دار السلطنة

وتنزيل نفسه عن ولاية مصر فخرج فى يوم السبت ثانى جمادى الآخرة سنة عشرين وألف فى جلالة وموكب عظيم ما تخلف عنه أحد من العسكر والأجناد والأمراء فكانت مدة تصرفه أربع سنوات وأربعة أشهر واثنى عشر يوماً وعمر فى ولايته جملة مبان وعدة عمارات بثغر رشيد وأخذ الجزر المقابلة لرشيد وأطياناً بالمنوفية والجيزة وعمل سحابة بطريق الحاج فلما بلغ دار السلطنة ولى مسند الصدارة ثم أرسل بجيش جرار لقتال ملك فارس فلم يقارن أعماله توفيق ولم ينجح له تدبير وعاد مهزوماً فولاه السلطان ولاية حلب فأقام بها قليلاً ومات.

(مطلب)

ولاية حاجي باشا وخلعه
وولاية محمد باشا المعروف بالصوفي

فتولى بعده على مصر حاجى باشا بأمر سلطانى أحضره إليه محمد باشا قبل سفره إلى يالديار الرومية وسلمه إليه إياه بمدينة بلبيس فى يوم السبت ثالث رجب سنة عشرين وألف ودخل القاهرة وتصرف لغاية يوم الخميس العشرين من شعبان من السنة المذكورة فكانت مدتة شهرًا واحدًا وسبعة عشر يوماً وتولى بعده محمد باشا المعروف بالصوفي ودخل القاهرة فى ثانى عشرى شعبان وجعل يتصرف فى الأمور فكان ظاهره اللين والرفق بالرعية وتأمين السبل وقطع شأفة أهل الفتن والفساد فلما كان فى شهر ربيع الآخر سنة اثنتين وعشرين وألف قدمت إلى مصر طائفة من عسكر الدولة يبلغون زهاء أربعة آلاف غير الأتباع وكان السبب فى قدومهم أنهم ثاروا على الدولة وخرجوا عن طاعة كبارهم وكادت فتنتهم تعم فدبر الصدر الأعظم فى إبعادهم إلى مصر وأشاع بينهم أنه يريد بقاءهم بها رباطاً مستديماً فلما وصلوا إلى القاهرة أتى إلى محمد باشا مرسوم سلطانى بتجهيزهم إلى بلاد اليمن وإمدادهم بما يلزم من المؤن والعلائف ودواب الحمل قدر الاستطاعة فلما تحققوا أنها مكيدة عصوا وتمردوا فأعجلهم محمد باشا بالخروج بعد أن صرف لهم جوامك السفر وسير معهم فندق بك أحد الأمراء ليسير بهم إلى مدينة السويس فبرز فندق بوطاقة يوم ثالث عشرى ربيع الآخر من السنة المذكورة فمر الوطاق بباب زويلة ثم باب النصر وكان به أولئك العسكر فقاموا عليه ورموا بالخيام من فوق ظهور الجمال ومنعوهم من الخروج وهاجوا وماجوا ونادوا بالويل والثبور على السلطان ورجال دولته فوصل

الخبر إلى محمد باشا فجمع من وجد بمصر إذ ذاك من العسكر ورسم إلى فندق بك بالخروج إلى الريدانية بالعسكر وإجهار النداء بأن جميع العسكر الذين قدموا من دار السلطنة يخرجون صحبة السردار المعين ومن خالف قبض عليه وجوزى فامتنعوا جميعاً وأغلقوا بابى النصر والفتوح ورموا خلف البابين بالأحجار وتحفظوا من كل جانب ومنعوا كبارهم من الخروج إلى الريدانية والطلوع إلى الديوان ونصبوا حواجز بالشوارع الموصلة إليهم وتحصنوا بكثير من المتاريس وصعد جماعة منهم إلى أعالى الخانات والربوع والبيوت والجوامع والمنارات وهم ينتظرون من يقدم عليهم فلما بلغ محمد باشا خبر هذا التحصين وأن لا طاقة لفندق بك ومن معه على إخضاع أولئك الخوارج جمع الصناجق والكشاف ومقدمى الخفر بميدان الرميلة وتشاوروا فى الأمر فاستقرت القاعدة بينهم على أن يسيروا إليهم فساروا فلما عاين الخوارج ذلك الجمع أذعنوا للطاعة وأجابوا ورفعوا الحصار وأزالوا المتاريس وفتحوا الأبواب وطلبوا الأمان ودواب الحمل فأحضروا لهم ما يزيد عن ثمانين جملاً فلما وصلت إليهم الجمال عادوا إلى العصيان وضربوا الجمال بالسيوف فنفرت وتشردت وقفلوا الأبواب ثانية وعادوا إلى أقوى مما كانوا عليه من التحصين وشاع الخبر بأنهم قتلوا كبارهم ولم يبقوا على أحد فأمر محمد باشا السردار بالخروج فخرج ومعه جمع كبير من الأمراء والأجناد واثنى عشر من كبار الأمراء وطائفة من حارة الفوالة وساروا إلى الخوارج بستة مدافع كبار محشوة بالفلوس الجدد والمسامير ونودى للرعايا الملاصقين لأماكنهم وبيوتهم بغلق الحوانيت والبيوت فلما وصلوا إليهم وجدوهم متيقظين بعلو الأسطحة والمآذن فلما تراءى الجمعان التحم القتال فكأن كل ما ألقى العسكر من الرصاص والنشاب والأحجار لا يصل إلى الخوارج لعلوهم على العسكر وكل ما ألقاهم على العساكر نال منهم فقتل من العساكر سبعة فهال مقدم عسكر الوالى هذا الأمر وخشى استفحال أمر هذه الفتنة وقد اشتد رمى الخوارج وتتابع على العسكر فجعل مقدم عسكر الوالى يتدبر فى الوصول إليهم من وكالة البطيخ ومازال حتى اتصل إليهم بجماعة من العسكر واتصل الأمير قاسم والأمير عبدى من خلفهم وتقدم الأمير يوسف الغاص بأصحابه فرفع الحواجز والمتاريس ونقبوا عليهم أماكنهم ودخلوا عليهم فلما اشتد الحال عليهم ولم يجدوا لهم قوة على القتال وعلموا أنهم مأخوذون لا محالة طلبوا الأمان وأجابوا بالامتثال فى السفر إلى حيث شاء الباشا فأخرجوا جميعاً ولم يتخلف منهم أحد وسيروا بهم إلى السويس وزالت الفتنة

وسكن الحال واطمأنت خواطر الناس وعادت جميع الأمور إلى سابق مجراها. وسار محمد باشا فى الرعية سيرة حسنة وكان شفوقاً عليهم ميالاً لخيرهم فرفع كثيراً من المغارم القديمة وأبطل بعض المكوس الفادحة وكان يجلس بنفسه للنظر فى مصالح الخلق ويوقع على ما يرفع إليه من القصص فزالت فى أيامه القلاقل والفتن ودرت الأرزاق وحصل رخاء عظيم حتى بيع أردب القمح بخمسة وعشرين نصفاً فلوساً نحاساً والفول كل أردب بخمسة عشر نصفاً والعدس والبسلة كل أردب بثمانية عشر نصفا وكثر وارد المأكولات وتنازلت أثمان غير ما ذكر ففرح الناس فرحاً عظيماً ومالوا إليه بقلوبهم وأحبوه محبة عظيمة. فلما كان فى يوم الأربعاء عاشر ربيع الأول سنة سبع وعشرين وألف ورد مرسوم سلطانى بصرف محمد باشا عن ولايته فكانت مدتها ثلاث سنوات وستة أشهر وثمانية وعشرين يوماً فحزن الناس عليه كثيراً.

(مطلب)

ولاية أحمد باشا الدفتردار

وتولى بعده أحمد باشا الدفتردار ودخل القاهرة فى يوم الخميس حادى عشر ربيع الأول سنة سبع وعشرين وألف فى موكب عظيم مشى فيه جميع العساكر والأجناد وهو على فرس وعلى رأسه عمامة بريشتين قيل إن قيمة كل ريشة منهما ألف دينار فلما وصل بموكبه إلى الجواخين سقط على فرسه حجر من طاقة ببيت بالربع الذى يعلو حوانيت الجواخين فألقى إحدى الريشتين على الأرض ومزق جانباً من القماش فقبض فى الحال على من ألقى الحجر فتطير أحمد باشا من ذلك وأمر برمى عنق الرجل فرموا عنقه وكان الرجل يوصف بخبال العقل، ومازال فى موكبه حتى صعد إلى قلعة الجبل واحتجب أياماً لايراه أحد ثم جلس للناس وتصرف فى الأمور فكان حاكماً سياسيًا صاحب تدبير سهلاً فى أموره قريباً من الناس ليس عنده تحجب ولا غلظة محباً لخير الرعية ميالاً لإسعاد البلاد، فكان يأتى إلى أحسن الأمور من أبوابها حتى اجتمعت القلوب على محبته واتحدت على طاعته وهابه الحكام وخافه الولاة والكشاف وساروا بسيرته إلا القليل وعمت الراحة أفراد الرعية وراجت أسباب الزراعة وكثرت غلات البلاد كثرة عظيمة.

فلما كان شهر شوال وردت الأخبار إلى أحمد باشا بموت السلطان أحمد مات فى اليوم العاشر من القعدة سنة سبع وعشرين وألف حتف أنفه وهو آخر السلالة

المتصلة من عمود هذا النسب وكان عادلاً محباً للغير أرسل إلى حرم صاحب الشريعة الإسلامية حجراً من الماس قيمته يومئذ اثنا عشر ألف دينار وأكثر، ورسم بأن يوضع فى الحجرة وهو موجود إلى الآن وأرسل أيضاً جملة هدايا وتحف وميزابا من الفضة مموها بالذهب فوضع موضع الميزاب العتيق. قيل وله خيرات أخرى كثيرة وكانت مدة سلطنته أربع عشر سنة وأربعة أشهر وعشرة أيام، فتولى بعده السلطان مصطفى ابن السلطان محمد وهو أخو السلطان أحمد المشار إليه.

ومات فى سلطنته متاوس بطرك المتأصلين بعد أن أقام ثلاث عشرة سنة وكانت أيامه كلها هادئة مطمئنة فأقيم بعده غبريال وهو حادى تسعيهم فأقام ثمان سنوات ومات فأقيم بعده ميخائيل وهو ثانى تسعيهم وكان تقياً فاضلاً متواضعاً فلم تطل مدته غير سنة واحدة ومات فأقيم بعده يوحنا وهو ثالث تسعيهم وأصله من بلدة نقادة من صعيد مصر وكان فى أيامه من الحوادث ما سيذكر فى محله.

(الفصل السابع)

(فى سلطنة السلطان مصطفى ابن السلطان محمد خان)

ثم قام بالأمر بعد السلطان أحمد أخوه السلطان مصطفى ابن السلطان محمد وهو أول من ارتقى على سرير السلطنة من إخوة ملوك بنى عثمان. بويع له بالملك ثالث عشرى ذى القعدة سنة سبع وعشرين وألف هجرية أى سنة سبع عشرة وستمائة وألف ميلادية وكان فى مدة سلطنة أخيه أحمد مقيماً فى محل داخل السراى السلطانى ممنوع التصرف والاجتماع بالناس لا يمكن من الخروج من مكانه وعنده بعض صبيان يخدمونه قيل وهو موصوف بالصلاح والتقوى لا التفات له إلى سلطنة ولا إلى تصرف فى أمر من الأمور وكان كلما اجتمع بأخيه السلطان أحمد يقول له لا حاجة لى بسلطنة مطلقاً وكان يقال إن السلطان أحمد كلما خطر بفكرة شىء من قبل أخيه السلطان مصطفى كان مصطفى يقول له ارجع يا أحمد عما تقصده. قيل فكان ذلك سبباً للكف عنه فلما تولى السلطنة ظهر عجزه إذا كان ضعيف الرأى منبوذ الكلمة لا هيبة له ولا وقار مغلوباً على أمره والكلمة لوزيره الأعظم واتفق عقب توليته بأيام أن هرب أحد أشراف بولونيا وكان معتقلاً فى دار

السلطنة بعد الحرب التى أخذ فيها أسيراً وكان هروبه بمساعدة سفير دولة الفرنسيس فى دار السلطنة فأكبر الصدر الأعظم هذا الأمر وأعظمه وأمر فقبضوا على السفير وكاتبه وترجمانه وألقوهم جميعاً فى السجن ووصل الخبر بذلك إلى عاصمة الفرنسيس فهاجوا وماجوا وكادت الحرب تقوم على ساقها وبالغت دولة الفرنسيس فى التهديد والوعيد والتأهب والاستعداد وكثر الأخذ والرد بين الفريقين أياماً ثم كان من أمر ذلك ما سيذكر فى سلطنة السلطان عثمان خان الثانى.

واستمر أحمد باشا الدفتردار يتصرف فى ولاية مصر لا راد لكلمته ولا مانع لأمره وقد خافه الجند وهابه العسكر فاعتنى بأمرهم واهتم بصرف مرتباتهم وجماكيهم وعلوفاتهم فساروا سيرة حسنة وانكفوا عن الإيذاء والشر وأمسوا وهم طوع أمره ثم ورد إلى الباشا المشار إليه مرسوم السلطان بأن يجيش نحو ألف من العسكر المصرى نجدة لعسكر السلطان القائم إلى اليمن لقتال الخوارج من الزيديين وقيل لقتال ملك فارس فأرسلهم صحبة الأمير صالح بك أمير الحاج وزودهم بالمال والسلاح والعلوفة فساروا ومروا بالأقاليم المصرية ولم يقع منهم شىء ولا لحق بالأهالى من مرورهم ضرر وقد كان قبل ذلك إذا مر عشرة منهم بقرية أو مدينة عاثوا فيها وأقلقوا راحة أهلها وأهلكوا الحرث والنسل وفعلوا ما لا خير فيه فلما فرق فيهم المال نال الرجل منهم عشرين ديناراً وبينما هو يتصرف فى الأمور على ما ألفه من العدل وإغاثة الملهوف إذا جاءه الخبر بخلع السلطان مصطفى وتولية السلطان عثمان. وتحرير الخبر، إنه لما كان السلطان مصطفى ممن تربى فى حجر الانزواء وكانت أحواله مخالفة للمألوف من حال الزمان وكان مغلوباً على أمره كما تقدم القول لم تطل مدة تصرفه سوى ثلاثة أشهر وعشرة أيام ثم قام عليه كبار الدولة وأصحاب الكلمة وبينهم شيخ الإسلام وقظلار أغاسى السراى السلطانية وبعض الحرم فخلعوه ليلة الأربعاء ثالث ربيع الأول سنة ثمان وعشرين وألف هجرية، ثم أودع فى جب داخل السراى. قال بعض الكتاب: وسد عليه بابه ماعدا روزنة لطيفة ينزل منها الطعام والشراب وولوا بدله السلطان عثمان ابن السلطان محمد خان الثانى.

(الفصل الثامن)

(فى سلطنة السلطان عثمان بن السلطان محمد خان الثانى)

ثم قام بالأمر بعد السلطان مصطفى السلطان عثمان ابن السلطان محمد خان الثانى بويع بالملك يوم الأربعاء ثالث ربيع الأول سنة ثمان وعشرين وألف هجرية أى سنة تسع عشرة وستمائة وألف ميلادية وله من العمر إحدى عشرة سنة لاغير. قال بعض أصحاب التاريخ: فكان مع صغر سنه واسع الفكر هماماً ذا هيبة فأول عمل بدأ به هو أنه أمر فأطلقوا سفير الفرنسيس وكاتبه وترجمانه من الحبس وسير إلى ملك الفرنسيس وهو يومئذ الملك لويز الثالث عشر رسولاً يستعطفه ويستميله إلى الصفح فأجابه إلى ذلك وعادت الأمور بين البلادين إلى سابق مجراها فعمد السلطان بعد ذلك إلى إصلاح ما فسد من أحوال الدولة ودفع ما استولى على جميع أمورها من الخلل فلم يتمكن لخروج العساكر عن الطاعة وتطرق الفساد إلى جميع المصالح وأخذ الأوغاد والأغرار بزمام جميع الأمور وتصدرهم فى الوظائف العالية والمراتب السامية ومع ذلك فإن هذه الشوائن لم تقعده عن الغزو وفتح المدن والبلدان فتأهب لقتال مملكة بولونيا وجعلها حداً بين أملاكه وبين أملاك الروس وجيش لذلك الجيوش وأعد المعدات وخاف أن يترك أخاه الأمير محمداً فى دار السلطنة فينازعه فى الملك فأمر بقتله صبرا وكان إلى هذا الحين لا يبرم أمراً فى دار السلطنة إلا بإشارة مفتيها ولا يتم للسلطان ورجال الدولة عمل إلا برأيه فكان يعزل ويولى من يشاء من الولاة والحكام ويمضى الأحكام بلا معارض ولا منازع فخاف السلطان منه وخشى من تركه فى دار السلطنة على هذا الحال من نفوذ الكلمة وبسط اليد لاسيما وقد كان الانكشارية لا يقفون عند حد وقد تفشى الخلل والفساد بين كبارهم وصغارهم فنزع منه ذلك النفوذ وأبعد عنه تلك الهيبة وأوقفه عند حد الإفتاء لا غير ليأمن شره وسير فى طلب أحمد باشا الدفتردار والى ديار مصر فجاءه المرسوم السلطانى بالانصراف عن الولاية فانصرف عنها فى يوم الخميس ثالث عشر صفر سنة تسع وعشرين وألف هجرية فكانت مدة تصرفه سنتين وأحد عشر شهراً وثلاثة أيام كلها إسعاد وبركة وخير ورفاهية على البلاد وأهلها.

(مطلب)

ولاية مصطفى باشا السلحدار

وولى بعده مصطفى باشا السلحدار فدخل القاهرة فى ثالث عشر صفر من السنة ثم سار السلطان بجيوشه لغزو مملكة بولونيا فالتقى الجمعان واقتتلا قتالاً عنيفاً للغاية ولما كانت طوائف الانكشارية مضطربة الأحوال ناقمة على السلطان تقاعست عن الحرب وأظهرت الملل وطلبت مخابرة البولونيين فى تقرير قاعدة للصلح والكف عن القتال فمانع السلطان فى ذلك وأبى إلا القتال حتى يتم له النصر فلم يفلح وأبى الانكشارية إلا عقد الصلح وألحوا فى الطلب وبالغوا فى التهديد فتقرر الصلح بين الفريقين وعاد الانكشارية إلى دار السلطنة إلى أن كان من أمرهم ما سيتلى عليك فى موضعه. ولما عاد السلطان إلى القسطنطينية خلع مصطفى باشا عن ولاية الديار المصرية أخريات سنة تسع وعشرين فكانت مدة تصرفه سنة إلا شهراً لم يأت فيها من الأعمال شىء يذكر فإنه كان ضعيف الرأى خامل الفكر كثير التحجب والانزواء.

(مطلب)

ولاية جعفر باشا

وولى بعده جعفر باشا وكان جعفر باشا هذا لما قدم من اليمن أقام بالقاهرة أياماً والناس يترددون عليه فكان ذا علم وفضل ومشاركة فى غالب العلوم العالية وأبحاث جيدة فلما رأى إقبال الناس عليه وميل قلوبهم إليه طمع فى الولاية فأرسل إلى دار السلطنة التماساً بذلك ولبث ينتظر الجواب وكان لما علم مصطفى باشا بذلك خشى الفتنة وساءه ما فعله جعفر باشا فأرسل إليه بعض كبار الأمراء يحثه على الرحيل عن مصر ويعلمه شر عاقبة البقاء فامتنع أولاً ثم عاد فأذعن وسافر براً فى نفر من أتباعه وحاشيته ولكنه لم يلبث أن عاد بمرسوم الولاية فخرج لاستقباله الأمراء والعلماء وأكابر الدولة وكبار العسكر ودخل القاهرة فى موكب لم يعهد له مثيل وفرح العامة والخاصة بقدومه وكان دخوله القاهرة فى أواسط صفر سنة ثمان وعشرين وألف كما تقدم القول فلم يستقر به المقام حتى فشا الطاعون بمصر والقاهرة ثم عم جميع القرى والمدن وكثر الموات فى الناس واشتد اشتداداً عظيماً فقفلت الأسواق بمصر والقاهرة. قال بعض كتاب الأخبار: إلا أسواق الأكفان فلم تقفل ليلاً ولا نهاراً ومنع جعفر

باشا عامل الأموات من التعرض للأموات، فكان الناس يدفنون موتاهم بغير إذن فى الليل والنهار واستمر الحال على هذه الشدة نحو الشهرين مات فيهما خلق كثير لا يكاد يدخل تحت حصر ثم ارتفع الموات وزال فسكنت القلوب واطمأنت الخواطر وكره الناس جعفر باشا وتطيروا من ولايته وحسبوها شؤماً على البلاد، فلما كان شهر رمضان سنة ثمان وعشرين وألف جاءه مرسوم السلطان بالعزل فسافر بحراً إلى الديار الرومية فكانت مدة تصرفه ستة أشهر وأياماً قال بعض كتاب الأخبار: فلم يقم بالديار الرومية إلا أشهراً قلائل ومات فعاد ولده إلى مصر وعاش بها فقيراً وليس له من يسأل عنه.

(مطلب)

ولاية مصطفى باشا

وتولى بعده مصطفى باشا فدخل القاهرة فى عاشر رمضان سنة ثمان وعشرين وألف فلم تستقر به الولاية حتى جار وظلم وضرب المغارم والمكوس وأكثر من جمع الأموال بجميع وسائل العسف والقهر وشدد على أصحاب الأموال وضيق وهدد وبالغ فى الإرهاب فكثر الوشاة وأصحاب السعاية على بابه ينقلون له أخبار الناس فضاقت أحوال أصحاب الأموال واختلت جميع الأمور فكان من وشى به إليه وبذل ما طلبه منه سلم ومن تقاعس ولم يبذل حقر وأخذ منه أكثر مما طلب منه، قال بعض كتاب الأخبار: وتتبع أثر مصطفى بك البقجلى زعيم ثورة الجند التى حصلت على عهد مصطفى باشا وقبض عليه وقتله بيده فظن الناس قيام الفتنة بسببه وتمنوا ذلك فلم يحصل فكبر خوفهم منه ورفعوا ظلامتهم إلى دار السلطنة وضجوا وطلبوا خلعه فجاءه مرسوم السلطان بخلعه فى ثالث رمضان سنة تسع وعشرين وألف فكانت مدة تصرفه سنة إلا ثلاثة أيام.

(مطلب)

ولاية حسين باشا

وتولى بعده حسين باشا فى ثالث عشرى الشهر المذكور ووصل إلى القاهرة وأدرك مصطفى باشا المعزول قبل سفره فمنعه من السفر وأنزله من قلعة الجبل إلى بيت مراد باشا بالسبع قاعات بالقاهرة وجعل على بابه الحرس وتركه على هذا الحال

أياماً ثم طلبه فلم يجده وكان قد تخلص بتدبير أحد كبار الدولة وسار إلى الديار الرومية فتبعه كثير ممن صادرهم وأخذ أموالهم فادعوا عليه ونالوا منه وأخذوا جميع ما كان اغتاله منهم وسار حسين باشا الوالى الجديد سيرة حسنة للغاية فأبطل بعض المغارم والمكوس المستحدثة على أيام مصطفى باشا ورتب أمور الدولة وأحكم نظام ما اختل منها أيام أسلافه ووقع فى أيامه غلاء عام حتى بيع أردب القمح بالكيل المصرى بمائتى نصف فضة والشعير بمائة وعشرين نصفاً والفول بمائة وستين نصفا وكذلك بقية الغلال فكانت شدة عظيمة للغاية. ثم زاد النيل زيادة فوق الحد وعم جميع الأرض وثبت على الزيادة فوق جميع الأراضى لغاية شهر هاتور القبطى حتى كاد الناس ييأسون من زرع الأرض ثم هبط فتمكنوا من الزرع ولكنه لم يأت إلا بما قل من المحصول وضربت على الناس فى أيامه أيضاً ضريبة جديدة هى ضريبة النطرون وقد فرضت على جميع المدن والثغور فتألم الناس منها وراجعوه فى رفعها فلم يرض فانحرفت الخواطر عنه وابتعدت القلوب ونقموا عليه وظهر الخلل فى جميع أمور الدولة واستخف الناس بحرمته وزالت عنهم هيبته فعاد أهل الفساد فى جميع المدن والقرى للعبث وكاد يستفحل أمرهم فلما كان عاشر ربيع الآخر سنة إحدى وثلاثين وألف جاء مرسوم السلطان بعزله فكانت مدة تصرفه سنة وسبعة أشهر وعشرة أيام.

(مطلب)

ولاية محمد باشا البستنجي

وتولى بعده محمد باشا البستنجي فى حادى عشر ربيع الآخر ولكنه لم يقدم إلى مصر لقيام الفتنة فى دار السلطنة وخروج طوائف الانكشارية عن طاعة السلطان عثمان وخلعهم إياه ثم سجنه ثم قتله فناب عنه فى الولاية على مصر حسن افندى الدفتردار. قال أصحاب التاريخ: لما ظهر عصيان الانكشارية أيام قتال البولونيين أمام مدينة شوك زم وإكراههم السلطان عثمان على عقد الصلح مع البولونيين والكف عن القتال وإلحاحهم فى ذلك عاد السلطان إلى القسطنطينية وقلبه يلتهب غيظاً وأقسم أن يستأصل الانكشارية ويمحو آثارهم عن وجه الأرض فرسم من هذا الحين بجمع عسكر جديد فى بعض عمالات آسية وجعل يعد لهم المعدات ويبالغ فى إتقانهم وتنظيمهم فأحس الانكشارية بذلك وعلموا ما وراء التقاعد والسكوت فقاموا على

قدم واتحدوا على خلع السلطان فخلعوا بيعته فى التاسع من رجب سنة إحدى وثلاثين وألف هجرية ودخلوا عليه فى قصره وهو بين نسائه وجواريه وقبضوا عليه وأخذوه قهراً إلى محلتهم وسبوه بأقبح السب والشتم ثم نقلوه إلى قعلة يدى قله فلبث بها يوماً وبعض يوم ثم دخل عليه جماعة من كبار الدولة وأصحاب الفتنة فقتلوه ونادوا بولاية السلطان مصطفى الأول ثانية بدله وطيروا الخبر بذلك إلى الآفاق فكانت سلطنة السلطان عثمان أربع سنين وأربعة أشهر وعشرة أيام وكان جليل القدر واسع المعرفة كبير السياسة عظيمها شديداً فى الحروب عظيم التدبير ومع هذا كله فإنه لم يفلح مع جماعة الانكشارية ولم يقدر على إبادتهم كما كان يتمنى.

ومات فى سلطنة السلطان عثمان يوحنا بطرك المتأصلين فكانت أيامه كلها شدة وعناء وضيق وفناء ومصائب وإحن ومحن ذاق فيها القبطة من جور العمال وظلم الحكام وعسفهم أشكالاً وكانت مدة تصرفه ثلاث سنوات فأقيم بعده يوحنا وهو رابع تسعيهم وأصله من بلدة صدفة يعرف بابن المصرى وكان تقياً ورعاً كثير الصدقة مهيباً محبوباً ووقع فى أيامه من الحوادث ما سيذكر فى محله.

□□□

(الفصل التاسع)

(فى سلطنة السلطان مصطفى الثانية)

ثم قام بالأمر بعد قتل السلطان عثمان السلطان مصطفى أرجعوه إلى تخت الملك ثانى يوم قتل السلطان العثمانى فى ثامن رجب سنة إحدى وثلاثين وألف هجرية أى سنة ثمان وأربعين وستمائة وألف ميلادية ولم تستقر به السلطنة حتى قامت الفتنة واشتد لهيبها فإنه لما تم لطوائف الانكشارية ما أرادوه من خلع السلطان عثمان وقتله كبر استخفافهم بالأمور واستصغارهم لكبار الدولة ورجال السلطنة فعاثوا فى القسطنطينية وأفسدوا وصاروا يعزلون ويولون من يشاؤون من الوزراء وكبار الدولة ويبيعون الوظائف جهاراً ويقبضون على من يتوسمون فيه سمة الإنكار حتى اختلت جميع الأمور وفسد نظام الدولة وزالت هيبة السلطنة وظهر الأوغاد وأسافل الناس وقبضوا على زمام الأمور واشتد الكرب وسرت نار الفتنة إلى جميع

العمالات التابعة لدار السلطنة فنهض والى طرابلس الشام ووالى أرضروم إلى شق عصا الطاعة وركب والى أرضروم فى عسكر عظيم للغاية ونادى بالثارات عثمان ونزل على مدينة سيواس وأنقره وفتحهما وأعمل السيف فيمن كان فيهما من طوائف الانكشارية وضبط أموالهم وأرزاقهم ثم سار إلى مدينة بروسة وقد تبعه والى سيواس ووالى سنجق قره شهر فحاصروها وأقاموا على حصارها ثلاثة أشهر حتى دخلوها عنوة ووردت الأخبار بذلك إلى القسطنطينية فلم يلتفت إليها لاشتغال طوائف الانكشارية بالنهب والسلب والقتل وإراقة الدماء ظلماً وظل الحال على ذلك من الخلل والارتباك سنة ونصف سنة والناس فى ضيق ما عليه من مزيد ثم اجتمع رجال الدولة واتحدت كلمتهم على تولية على باشا كما نكش منصب الصدارة وتفويض الأمور إليه لعله يتمكن بخبرته من إرجاع الأمور إلى سابق مجراها فتولى المنصب وجعل يتصرف فى الأمور ويدبر الأحوال جهد الاستطاعة ويعمل على إعادة الأمن إلى داخلية البلاد ويدفع غارات الانكشارية عن أهلها بالتى هى أحسن حتى كان من أمره بعد ذلك ما سيذكر فى محله. ولم تثبت نيابة حسن أفندى الدفتردار فى ولاية مصر عن محمد باشا البستانجى فقد صرف محمد باشا المذكور عن الولاية قبل أن يقدم إلى مصر فكانت مدة تصرف حسن أفندى الدفتردار أربعة أشهر وسبعة أيام.

(مطلب)

ولاية إبراهيم باشا السلحدار

ثم تولاها إبراهيم باشا السلحدار ودخل إلى رشيد فى يوم الجمعة ثانى عشرى شعبان سنة إحدى وثلاثين وألف ووصل إلى القاهرة فى أوائل رمضان من السنة وكان ذا فكر ومهابة واسع الدراية صاحب تدبير ولكنه كان محباً للمال والكسب بكل ما تصل إليه قدرته واتفق أنه وقع فى أيامه غلاء زائد جداً فجاء الناس من الأقطار الحجازية والديار الشامية ومن غزة وغيرها إلى مصر ليمتاروا فمن كان ذا مال امتار ما يحتاج إليه ورجع إلى أهله ومن لا مال معه وله قدرة على الكسب أو الخدمة صار يقتات من خدمته أو كسبه ومن لا مال له ولا قدرة له على الكسب ولا الخدمة صار يستعطى حتى امتلأت مصر وقراها منهم فكان ما بيع فى مصر والمدن والكفور والثغور والقرى من القمح والفول والعدس والشعير وبقية الحبوب شيئاً كثيراً جداً لايكاد يدخل تحت حصر، ولما طالت أيام إبراهيم باشا تغيرت أحواله وتزايد

جوره وجود أتباعه وكثرت على الناس طلبـاته وطلبات أتباعه فكانت له تجارة واسعة فى بن القهـوة يأتيه من اليـمن فى كل عام فكان يلزم به التـجار ومشـايخ الأسواق فحـصل لهم بسبب ذلك خسارة عـظيمة فشكوا إليـه فلم يلتفت لشكواهم فرفـعوا ظلامتهم إلى بعض كبـار الدولة فتحرك عليه جماعـة منهم ومنعوه من ذلك فانحط قدره وقصرت كلمته وبقى مقهوراً مدحوراً إلى أن صرف عن الولاية فى يوم الأربعاء سابع رمضان سنة اثنتين وثلاثين وألف هجرية فكانت مدة تصرفه سنة واحدة وتسعة عشر يوماً.

(مطلب)

ولاية مصطفى باشا

وتولى بعده مصطفى باشا فدخل القاهرة فى الثـانى والعشرين من رمضان فلما صعد إلى قلعة الجبل أتى إليه كتبة الديوان يشكون من إبراهيم باشا المعزول وقالوا إنه أخذ من مال الخزينة السلطانية أموالاً جزيلة فـسير مصطفى باشا فى أثره جماعة من العسكر فالتقوا به فتـهددهم فرجعوا وأخبروا بما كان فسيـر إليه مصطفى باشا الأمير صالح بك فأدركه وقـد نزل البحر عند الاسكندرية فسأله أن يتـربص فقال إنى سائر إلى دار السلطنة فإذا كان علىَّ لـلخزينة شىء دفعته هناك فـألح عليه صالح بك فلم يلتفت لكـلامه وأقلعت به المركب فأطلقـوا عليه المدافع من طابيـة منارة الإسكندرية فلم ينله منها ضرر ونجا بما كان معه من الأموال والمتاع وكان شيئاً كثيراً، فلما وصل إلى القسطنطيـنية لم يصبـه من جانب السلطنة شىء لاشتـداد الفتنة يومئـذ وارتباك الأحوال وتعذر إرجاع الأمور إلى سابق مـجراها وانكماش على باشا الصدر الأعظم ورفضه البقاء فى مـنصب الصدارة إن بقى السلطان مصطفى فى منصب السلطنة مع ما هو فيه من وهن العزيمة وضعف العقل وعدم الوقوف عند حدّ، فلما رأى رجال الدولة أن لا خـلاص من هذه الفتن إلا بخلع السلطان قامـوا عليه وخلعـوه فى يوم السبت الثالث والعـشرين من ذى القعدة وقيل فى الخامس والعـشرين منه سنة اثنتين وثلاثين وألف هجرية وولوا بدله ابن أخيه السـلطان مراد ابن السلطان أحمد فكانت سلطنة السلطان مصطفى سنة واحدة لاغير.

◻◻◻

(الفصل العاشر)

(فى سلطنة السلطان مراد الرابع ابن السلطان أحمد)

ثم قام بالأمر بعد خلع السلطان مصطفى ولد أخيه السلطان مراد بويع له بالملك يوم الأحد فى الرابع والعشرين من ذى القعدة سنة اثنتين وثلاثين وألف هجرية أى سنه ثلاث وعشرين وستمائة وألف ميلادية فكان مغلوباً على أمره لا كلمة له لحداثة سنه إذ كان لايناهز الثانية عشرة من العمر وكانت كلمة الانكشارية فوق كل كلمة ويدهم فوق كل يد. قال أصحاب التاريخ: ولما كان كل من يتولى الحل والعقد فى تلك الأيام من أهل هذا الاختلال والغش كان الخروج من هذه الدائرة الفاسدة وإصلاح الأمور من المحال وشاع الخبر بذلك عند ملوك الدول المجاورة وكثر تحدثهم به وكان ممن سره هذا الخلل وأفرحه وهن أركان الدولة العثمانية عباس شاه ملك فارس لما كان بين الدولتين من البغضاء والشحناء فاغتنم هذه الفرصة وعمد إلى أخذ بعض بلاد الدولة العثمانية وإرجاع ما أخذ من بلاده وسار فى جيش عظيم إلى بغداد فحاصرها وكان بها عسكر السلطان فأقام على حصارها حتى احتلها عنوة وأعمل السيف فى أعناق من بها من العسكر السلطانى وقتل جميع كبار الدولة وعظماء الجند ووردت الأخبار بذلك إلى القسطنطينية فهال السلطان هذا الأمر وأزعجه جداً وكان للصدر الأعظم كثير من الأعداء والخصوم من بطانة السلطان وقرنائه فوشوا به عند السلطان وقالوا إن سقوط دار السلام فى يد العدو إنما كان بخيانة الصدر الأعظم فغضب السلطان وأمر بقتله فقبضوا عليه وقتلوه وولى مكانه شركس محمد باشا فلم تطل مدته ومات وتولى الصدارة بعده حافظ باشا.

وورد مرسوم السلطان إلى مصطفى باشا والى مصر بتثبيته فى مقام الولاية والإيعاز إليه بالرفق بالرعية والقيام بما يلزم للحرمين وخروج الحاج فى أوقاته فقرئ بحضرة العلماء والأمراء والمشايخ وأخذ مصطفى باشا يتصرف فى الأمور ولكنه لم يلبث أن جاءه الأمر بالعزل والعود إلى الديار الرومية فلما شاع خبر عزله اجتمع طوائف العسكر على عادتهم وساروا إلى عيسى بك نائب الغيبة وطلبوا أن يعطيهم العطايا التى كانوا يأخذونها عند تولية الولاة فلم يعطهم ومنعهم من الإتيان إلى ديوانه فألحوا فى الطلب وكرروا النداء فلم يلتفت إليهم فاجتمعوا وساروا من وسط

المدينة وهم يضجون وينادون لانريد أحداً يتولى أمور البلاد غير مصطفى باشا وكان مصطفى باشا بعد أن جاءه الأمر بالعزل لبث ينتظر الخلف ومازال الجند يطوفون وينادون إلى أن وصلوا إلى قره ميدان فتحالفوا على أن يكونوا جميعاً يداً واحدة وقلباً واحداً ووصل الخبر بذلك إلى مصطفى باشا ففرح فرحاً لايوصف وتقوت عزيمته وكتب إلى دار السلطنة يلتمس البقاء على ولاية مصر وكذلك كتب العلماء والمشايخ والقضاة فلم تكد تصل رسل مصطفى باشا إلى دار السلطنة حتى وصل الخبر بوصول على باشا الوالى الجديد إلى ثغر الإسكندرية فسيروا إليه فى الحال من يعلمه بأن الجند وأهل البلاد كافة لا تقبله فبعث هو كتاباً إلى العسكر وكافة الأمراء والأجناد وأعيان البلاد يمتدحهم ويثنى عليهم ويقول :

أما بعد، فإنى لم آت إلى مصر إلا طائعاً لأمر السلطان الذى يجب على وعلى كل مسلم صحيح الدين طاعته فلما قرئت الكتب على أهل الحل والعقد سيروا إليه ثانية يقولون إنا لا نقبلك فقبض عند ذلك على الرسل وقيدهم فى سجن قلعة الإسكندرية وكان العسكر المرابطون فيها إخواناً لأولئك الرسل ففكوا فى الحال قيودهم وهجموا جميعاً على وطاق على باشا المذكور بسيوفهم وقبضوا عليه وأنزلوه فى مركب وأخرجوه من مينا الإسكندرية وكانت الريح معاكسة فأعادت المركب إلى المينا قهراً فأطلق عليه الأمير مصطفى أمير جند قلعة المنارة عدّة طلقات ثقبت المركب عدة ثقوب ولم تغرقها فخرج القارب من فوره قاصداً الديار الرومية وعاد الرسل إلى القاهرة فأخبروا بما جرى ففرح مصطفى باشا بذلك.

ولما كان العشرون من ربيع الآخر سنة ثلاث وثلاثين قدم إلى القاهرة من الاسكندرية طائر البطاق يحمل الخبر بقرب وصول قابوجى (أى رسول) من دار السلطنة ومعه مرسوم سلطانى فبعد أيام قلائل وصل القابوجى المذكور ودخل القاهرة فى موكب حافل للغاية وصعد إلى قلعة الجبل وجمع الأمراء والعلماء وجميع الصناجق وتلا عليهم الفرمان بتثبيت ولاية مصطفى باشا على مصر إجابة لطلبهم ثم ألبس مصطفى باشا خلعة سنية وقلده سيفاً عظيماً ففرح الجند بذلك فرحاً لايوصف حيث فازوا بمقصودهم واستقر المنصب بمصطفى باشا فتصرف وعلت كلمته ومالت إليه القلوب وأحبته وزاد النيل فى أيامه زيادة عظيمة فارتفع إلى أربع وعشرين ذراعاً وثبت على ذلك أياماً فخاف الناس من وقوفه إلا أنه هبط بعد ذلك سريعاً وانكشفت الأراضى ففرح الناس وأخذوا فى الحرث والبذر. وبينما هم على هذا الحال والقلوب

مطمئنة ساكنة إذا ظهر الطاعون بالقاهرة ومصر فى أوائل ربيع الأول سنة خمس وثلاثين، وامتد امتداداً سريعاً فى جميع المدن والبنادر والقرى وعم البلاد شرقاً وغرباً فمات به خلق كثير.

(مطلب)

ولاية بيرم باشا

قال بعض الكتاب: كان عدد من مات فى هذا الطاعون نيفاً وثلثمائة وألف بين الخامسة عشرة والعشرين من العمر واشتد اشتداداً عظيماً لم يسبق له مثيل ثم أخذ فى التناقص فى شعبان من تلك السنة وارتفع فى أوائل رمضان فتطاولت يد مصطفى باشا إلى أخذ تركات ومقتنيات جميع من ماتوا فى هذا الوباء وادعى لنفسه حق التوريث فشكا الوراث من ذلك فلم يسمع منهم فرفعوا أمرهم إلى دار السلطنة وأكثروا من الشكوى فجاء الأمر بعزله وتولية بيرم باشا بدله فدخل القاهرة فى جمادى الأولى سنة سبع وثلاثين وألف فكانت مدة تصرف مصطفى باشا المذكور فى المدة الأولى والثانية نحو ثلاث سنين وبضع أشهر، ولما استقر ببيرم باشا المقام منع مصطفى باشا من السفر وحجزه فى بيت بالقاهرة ووكل به من يحرسه وحاسبه على ما فى ذمته من أموال الخزينة وتركات الأموات وألزمه بإرجاع جميع ما أخذه فباع كل متاعه وجميع مقتنياته ودفع ما عليه ورحل إلى الديار الرومية ولبث بها إلى أواخر سنة سبع وثلاثين ثم أمر السلطان بقتله فقتل.

وتصرف بيرم باشا فكان يرى فى الجند شدة العناد الذى يكاد يذهب بنفوذه ويحط بمرتبته إذ كان تحرشهم لعزل وتولية الولاة والخروج عند أقل سبب وتداخلهم فى أمور الدولة مجلبة للبوار وإذهاب رونق النظام الذى أسسه السلطان سليم الفاتح لكل طائفة من الطوائف الحاكمة بديار مصر وقد زاد الجند جراءة وتداخلاً تهاون رجال السلطنة وإجابتهم إلى كل ما يطلبون وعدم الالتفات إلى ما ينجم عن ذلك من الخلل والفساد فبذل بيرم باشا جهده فى ترتيب الأمور ومنع هذه المضار وإعادة نفوذ الدولة إلى ما كان عليه قبلاً فلم يفلح ولم يتم له الأمر إلا بقدر الحاجة فاطمأنت مع ذلك قلوب الرعية وسكنت الخواطر المضطربة بسبب الفتن المتوالية والإحن المتراكم بعضها فوق بعض وراجت أسباب المعاملات وتحسنت التجارة ولكنه أكثر من المكوس والضرائب على أغلب البضائع ولاسيما الصابون فلما كان شهر

شعبان سنة ثمان وثلاثين استدعى بيرم باشا المذكور إلى دار السلطنة فسار إليها فكانت مدة تصرفه سنة ونحو ثلاثة أشهر.

(مطلب)

ولاية محمد باشا الوزير

وتولى بعده محمد باشا الوزير فدخل القاهرة فى أواخر شعبان المذكور وصعد إلى قلعة الجبل فى موكب حافل وتصرف وجلس للناس على العادة فكان رجلاً حازماً مهيباً واسع الرأى نافذ الكلمة متحجباً عن الناس لا ينزل المدينة ولا يتجول فى الشوارع ولا يزور المتنزهات قيل ولم يظهر فى طرق القاهرة فى مدة تصرفه إلا ست مرات وكانت الأحوال فى أيامه هادئة والقلوب مطمئنة وظهرت فى أيامه الفتنة فى بلاد اليمن وخرج أهلها عن الطاعة فعرض على السلطان إخضاعها وتمهيد سبلها وإرجاعها إلى طاعة الدولة فأجابه السلطان إلى ذلك وعهد إليه بالأمر فنظم جيشاً من العسكر المصرى وبالغ فى تنظيمه وعقد لواءه إلى قانصوه بيك أمير الحاج يومئذ فأعجب السلطان ذلك وولى قانصوه بيك ولاية اليمن واعطاه رتبة الباشاوية فجعل قانصوه المذكور يرتب أمور جيشه ويكثر من معدات الحرب فاجتمع تحت لوائه ثلاثون ألفا وبينهم زهاء الألف من العساكر العثمانية وقد حضروا من دار السلطنة لهذه الغزوة وأخرج قانصوه خزائنه فكانت كثيرة للغاية وبعد أن رتب أمور جيشه على ما أراد انقطع فى داره أياماً لغير سبب معلوم ولا أمر ظاهر فأركنت العساكر إلى البغى والفساد وعاثت فى الأسواق وأخذت من الباعة سلعها بغير ثمن فكان إذا مانع البائع عن ماله ضربوه وربما قتلوه وتعرضوا للنساء والصبيان فى الطرق والحارات فانكف الناس عن الخروج وأغلق أصحاب الحوانيت حوانيتهم واحتاج الناس إلى الخبز فلم يتيسر الحصول عليه لغلق الحوانيت والأفران فضج الناس إلى محمد باشا فجمع إليه كبار العسكر العثمانى وكلمهم فى أمر ذلك فكفلوا له الراحة ورد العسكر المصرى عن فعاله وألزموا قانصوه بالخروج والسفر إلى اليمن فخرج صاغراً قيل وكان امتناعه لأسباب يطول شرحها وسار بالعسكر وقاتل اليمانيين حتى أخضعهم وأرجعهم إلى الطاعة وكان خروجه فى المحرم افتتاح سنة تسع وثلاثين ولبث هناك يتصرف فى الولاية فلما كان شهر شعبان من السنة جاء الخبر إلى محمد باشا والى مصر بأن قد نزل فى الشهر المذكور بمكة سيل عظيم فأغرق معظم أرضها

وهدم جميع بنيان البيت الحرام ولم يبق منه إلا الجدار الأيمن فأبلغ محمد باشا هذا الخبر إلى دار السلطنة فعهد إليه السلطان أمر ترميمه فقام بذلك وتوسع فى النفقة فكان ما أنفق عليه مائة ألف قرش رومى.

وفى سنة أربعين وألف قصر النيل فى الزيادة وجاء شهر توت ولم يبلغ الستة عشر ذراعاً فخاف الناس من حصول القحط فاعتنى محمد باشا بأمر رى الأراضى وتقسيم المياه بقدر الاستطاعة فأمنت البلاد من الجوع وأعطت الأراضى بعض المحصول فاطمأنت القلوب ومالت إلى محمد باشا خواطر الرعية وأحبوه وتعلقت آمالهم به ولكنه لم يلبث أن جاء إليه الأمر بالقيام إلى دار السلطنة فى السنة المذكورة واعتزال المنصب فاعتزله وقام إلى الديار الرومية فى ربيع الآخر من السنة فكانت مدة تصرفه سنة وثمانية أشهر.

(مطلب)

ولاية الوزير موسى باشا

وتولى بعده الوزير موسى باشا فلما وصل محمد باشا إلى القسطنطينية قوبل بأحسن قبول وولاه السلطان مسند الصدارة العظمى ودخل الوزير موسى باشا القاهرة سلخ ربيع الآخر سنة أربعين وألف فى موكب حافل وكان الناس قد خرجوا لملاقاته عند شبرا وصعد إلى قلعة الجبل فى كبكبة فلما استقر به المنصب أطاع هوى النفس فتطاولت يده إلى أخذ أموال الناس وقبول الرشاوى والبراطيل فأداه ذلك إلى الجور والظلم والعسف بالناس وترصد أحوال الأغنياء من أهل البلاد وبالغ فى التجسس عليهم وتعقب زلات الأكابر منهم وتفنن فى أفانين السلب والنهب جهد الاستطاعة واتفق أن أرسل السلطان يعهد إليه تجريد حملة من الجند المصرى وتسييرها لقتال ملك فارس فجمع جيشاً كبيراً وجعل مقدمه الأمير قيطاس ثم فرض على البلاد النفقة لهذه الحملة وبث أصحاب الجباية فطافوا البلاد شرقاً وغرباً وجمعوا من ذلك مالاً جزيلاً فلما جاءوا إليه بالمال أخذه لنفسه ولم ينفق منه شيئاً فى لوازم الحملة فطالبه قيطاس بيك فقال لا قدرة للبلاد على القيام بنفقة العسكر لاسيما وأن الحرب التى أعدت لها هذه الحملة لا تفيد مصر بشىء ما فراجعه قيطاس بيك وألح عليه فى الطلب وبالغ فى الشدة وكذلك فعل أشياع قيطاس بيك، وكان الباشا يكره قيطاس المذكور ويتمنى هلاكه فلما عظم الخلاف بينهما استدعى الباشا قيطاس يوم عيد

الأضحى العاشر من الحجة من السنة إلى قلعة الجبل فصعد إليه في نفر قليل من غلمانه فلما دخل قبض عليه جماعة من أعوان الباشا وقتلوه بالسيوف وأنزلوا جثته في نعش إلى بيته بالمدينة وكان ممن تأهب من الأمراء المصريين للخروج مع قيطاس بيك لقتال ملك فارس الأمير كنعان بيك والأمير على بيك فلما جاءهما الخبر بموت قيطاس قاما واجتمعا بكبار الجند وأعلما هم بخبر قيطاس فاجتمع الجند فى الحال بالرميلة تحت قلعة الجبل وحاصروها من كل جانب واجتمع العلماء والمشايخ والقضاة والصناجق وكبار الدولة بجامع السلطان حسن وتناجوا فى الأمر واتفقت كلمتهم على خلع موسى باشا المذكور وتولية من يحل محله حتى يأتى أمر السلطان فخلعوه وولوا حسن بيك مكانه وكتبوا إلى دار السلطنة بالواقعة وطلبوا صرف موسى باشا وتولية من يصلح فلم يكن بأسرع من أن ورد الخبر بعزله وتولية خليل باشا.

(مطلب)

ولاية خليل باشا

فلما كان شهر ربيع الأول سنة إحدى وأربعين وألف وصل خليل باشا المذكور إلى القاهرة وخرج موسى باشا وهو فى أسوء حال من الخزى والعار فكانت مدة تصرفه نحو سنة إلا بضعة أيام وجعل خليل باشا يتصرف فى الأمور فكان جليل القدر عادلاً حازماً فسكنت فى أيامه الفتن وزالت عن البلاد الرزايا والإحن وأخصبت الأرض وكثرت محصولاتها فهبطت الأسعار وكثر وارد الغلال والمأكولات وفرح الناس بذلك وخرج فى أيامه الشريف نامى شريف مكه بجماعة من اللصوص فعاثوا فى الأرض ونهبوا مكة فلما جاء الخبر بذلك إلى خليل باشا جيش له جيشاً عظيماً وجعل مقدمه الأمير قاسم بيك فسار وقاتل الشريف ومن معه فاستظهر عليه وظفر بزعماء الفتنة وأعمل فيهم السيف ثم عاد ظافراً منصوراً فدخل القاهرة فى صفر سنة اثنين وأربعين فخلع عليه خليل باشا خلعة سنية واتسعت من هذا الحين كلمة خليل باشا وظهر نبله وكبرت هيبته وأحبته الرعية. حكى ابن أبى سرور أنه جيء إلى خليل باشا المذكور يوما بثلاثة من اللصوص قبض عليهم وهم يسرقون فرسم بمحاكمتهم فقال رجل من ديوانه ليس فى الأمر ما يدعو إلى المحاكمة وقد قبض عليهم وهم يسرقون فلا شيء بعد ذلك إلا الحكم عليهم بالقصاص فلما سمع خليل باشا مقالته نظر إلى أحد أعوانه وقال: اذهب الساعة واهدم بناء بيت هذا

وأشار إلى المتكلم فقال: ولماذا أيها الأمير؟ قال إذا كان هدم بيتك المبنى من حطام الدنيا قد دعاك إلى معارضتى فكيف يكون حالنا عند ذلك البانى العظيم إذا هدمنا ما بناه ظلماً. قال ناقل الحكاية: وأطلق اللصوص فتابوا من ذلك الوقت خوفاً من الباشا، وفى أخريات سنة اثنتين وأربعين وألف أنزل خليل باشا المذكور نفسه عن منصب الولاية وكتب إلى دار السلطنة بذلك فأرسل السلطان يستقدمه فسافر فكانت مدة تصرفه سنة وثمانية أشهر كلها خير وبركة على البلاد وأهلها.

(مطلب)

ولاية أحمد باشا الجورجي

وتولى بعده أحمد باشا الجورجي فدخل القاهرة فى موكب حافل وكان قبل ولايته على ديار مصر أميرا خور للسلطان مراد فتصرف وجعل يدبر الأمور على النحو الذى نحاه خليل باشا فكان حازماً كاملاً واسع المعرفة بأساليب السياسة فلما كان شهر صفر من سنة ثلاث وأربعين جاءه مرسوم سلطانى بتجريد ألف مقاتل من العسكر المصرى ليسيروا مع العسكر المنصور إلى قتال طائفة الدروز بلبنان وأن يسير معهم أربعة آلاف قنطار من البارود وخمسة آلاف من البقسماط فجيش ذلك الجيش ولم يتم تنظيمه حتى جاءه مرسوم آخر بتجريد ألفين آخرين وثلاثة آلاف قنطار من البارود وتسييرهم لغزو ملك فارس فهاله هذا الأمر وكتب إلى دار السلطنة يقول إن البلاد فى فاقة ولا قدرة لأهلها على القيام بهذه المطالب الجسيمة فبعث إليه السلطان باثنى عشر ألف قنطار من النحاس ليضربها سكة ويبعث بدلها إلى خزينة السلطان ثلثمائة ألف محبوب ذهباً نفقة لتلك الحروب فجمع لذلك العمال وأعد المعامل ولكنه لم يفلح إذ مات أكثر العمال وعجز من بقى عن القيام بهذا العمل فجمع إليه أهل الديوان وأصحاب الشورى من الأمراء والقضاة والعلماء وشاورهم فى الأمر وقال إنه يرى وجوب صرف هذا المال من ماله رحمة بأهل البلاد وأن يجعل ذلك النحاس سبائك صغيرة ويبعث بها إلى السودان فتباع فيها وقد رأى أحد القضاة غير ذلك وأن تجبر أهالى القاهرة على أخذ النحاس ودفع مطالب السلطان ثم تقررت القاعدة بينهم على عمل تفريدة على أهالى القاهرة فأقاموا لذلك عمالاً وقيدوهم بالعمل فجعلوا يوزعون النحاس ويجمعون عوضه الذهب وبدءوا بذلك من السادس عشر من ذى الحجة سنة ثلاث وأربعين إلى أواخر شعبان من سنة أربع وأربعين

فعمت هذه البلوى الغنى والفقير والتاجر والصانع بلا فرق ولا تمييز فكانت من أشد الضـربات ويلاً وأثقلها حـملاً فـضجـوا وعجـوا إلى الله وقلت النقود ثم امـتنعت وارتفعت أسعـار المأكولات وغلت غلاء فاحـشاً جداً وأعقب ذلك تقصـير النيل فى وفاء أذرعـه المعتـادة وتشريق الكثيـر من الأراضى فاسـتغاث النـاس وانكشف حال الميسورين وضاقت الدنيا برحبها فى وجوه الفقراء والمحتاجين وظهرت بعض إصابات بالطاعون بأسـباب الجوع ولكنه لم ينتـشر ولم تشتـد وطأته، فلما أتم الجبـاة جمع أموال هذه التـفريدة طمعت نفس أحمـد باشا فأخذها لنفسه ولم يرسل منها شـيئاً لخـزينة السلطان فلم يمض عليـه بعـد ذلك إلا القليل حـتى أتاه الطلب من البـاب العالى فرحـل عن القاهرة فى سلخ القعدة من سنة أربع وأربعـين وألف فكانت مدة تصرفه نحو سنتين إلا أياماً فلمـا وصل القسطنطينية قام بعض أهالى القاهرة وشكوا أمره إلى الباب العـالى وطالبوه بما أخذه من المال فى ضريبة النحـاس فعين السلطان جماعة لتحقيق ذلك ثم أمر بقتله فقتل.

(مطلب)

ولاية الوزير حسين باشا

وتولى بعده الوزير حـسين باشا فـدخل القاهرة فى الثانى من الحـجة سنة أربع وأربعين وألف ومـعه طائفـة من العسكر من دروز لبنان وهم أخـلاط من الأشقـياء وقطاع الطرق فلما استقرت به الولاية واستـقر بهم المقام جار وجازوا وظلم وظلموا وسامـوا أهل البلاد الخسف وأكـثروا من قتل الباعـة وهدر دماء السوقـة لأقل سبب وتعرضوا للسـابلة وقطعوا الطرق وتطاولت أيديهم إلى نهب أموال النـاس بغير ممانع واشتدت مظـالم حسين باشا أيضـا إلى حد لم يسبق له مثـيل فكان إذا مات الرجل أرسل أتباعه وأعوانـه فيحملون إليه ماله ويحـجرون على عقاره فيأخذه لـنفسه أيضا ويحرم ورثتـه وعم فعله هذا جمـيع المدن والبنادر وكان يكثـر التطواف فى الشوارع والحارات راكـبا ويقتل فى كل مرة طافـها الرجل والرجلين أو أكثـر بلا موجب ولا سبب وربما قتل كل ما صادفـه من الدواب فى طريقه. قال بعض الكتاب: فكان من قتله فى مـدة تصرفه زهاء ألفـى رجل وكان كثـير الأخذ بالشـبهات فكثـر فى أيامه الوشاة وتزاحم أهل السعاية على بابه فكان إذا وقع بين رجل وآخر مخاصمة وذهب أحدهما ووشى إلى البـاشا المذكور بأن خصـمه من ذوى الأموال قبض عليـه الباشا

وألقاه فى السجن فلا يخرج منه إلا بالبذل الكثير ومازال على هذا الحال من القتل والسلب حتى جاءه الأمر بالعزل من منصب الولاية فى سلخ القعدة سنة ست وأربعين فكانت مدّة تصرفه سنة ونحو أحد عشر شهرا.

(مطلب)

ولاية الوزير محمد باشا ابن أحمد باشا

وتولى بعده الوزير محمد باشا ابن أحمد باشا فدخل القاهرة فى آخر القعدة من السنة المذكورة وصعد إلى قلعة الجبل فى موكب حافل من العسكر المنصور وتصرف فكان شهما مهيبا صاحب فكر وتدبير ثم لم يلبث أن تبدلت حاله وتغيرت أخلاقه وركب متن الجور فأفسد وظلم وتتبع خطوات السلف فى مصادرة الناس ومد اليد إلى تركات الأمراء والأغنياء والمستورين من أهل البلاد فأثرى وكثر ماله ومنع الصدقات والمرتبات الخيرية عن الأرامل واليتامى وأخذها لنفسه فضج الناس واستغاثوا وعجوا إلى الله تعالى وتضرعوا إليه بزوال ولايته فكان كلما طالت أيامه زاد عسفه وكثر فساده وسام الناس الخسف ، وجاءه الأمر من الباب العالى فى شوال من سنة سبع وأربعين بتجريد حملة للغزو مع العسكر المنصور ببغداد لخروج أهلها ففرح الناس بذلك وظنوا خروجه مع الحملة حسب مرسوم السلطان فلم يخرج وسلم قيادتها إلى قانصوه بك أمير الحاج فسارت فى المحرم من السنة أى سنة ثمان وأربعين وعاد من بقى منها فى صفر سنة تسع وأربعين ومحمد باشا الوالى على ما هو عليه من الجور والعسف فضج الناس ورفعوا ظلامتهم إلى دار السلطنة فلم يلتفت لشكواهم لقيام الفتنة فى دار السلطنة وخروج طوائف الانكشارية عن طاعة السلطان وقتلهم حافظ باشا الصدر الأعظم فى السراى السلطانية وإصرار كبارهم على إرجاع خسرو باشا الصدر المعزول وعدم مراعاة حرمة المراسيم السلطانية. قال بعض كتاب الأخبار: لما كانت سنة تسع وثلاثين وألف هجرية أو نحوها مات شاه عباس ملك فارس وتولى الملك بعده ابنه شاه مرزا وكان صبيا لم يبلغ أشدّه فلما جاءت الأخبار بولايته إلى دار السلطنة تقوت عزيمة كبار العسكر المنصور وفرح خسرو باشا الصدر الأعظم بذلك وسار فى جيش عظيم إلى بلاد فارس لرد ما أخذ من بلاد الدولة ونزل على همذان ودخلها ثم سار منها قاصدا بغداد فلاقته فى الطريق عساكر فارس فقاتلهم وانتصر عليهم وساق خلفهم حتى نزل على بغداد

وحاصـرها من كل جانب وشدد فى حـصارها ووالى الرمى عليهـا بالمكاحل بالليل والنهار فلم ينل منها وطالت أيام الحصار ودخل الشتاء فتذمر الانكشارية وطلبوا رفع الحصار والعود إلى القسطنطينية فـمناهم بالأمانى الكثيرة فلم يقبلوا وأبوا إلا الرجيل فسار بهم عن بغداد إلى الموصل ولبث معهم حتى انقضى الشتاء وعزم على الرجوع إلى حصار بغداد فلم تطعـه العساكر فألح عليهم فأبوا إلا الرجـوع إلى القسطنطينية فسار بهـم إلى حلب خوفا من أن يداهمه العـدوّ وهو بالموصل ولا قبل له على رده ووصلت الأخبار بما جرى إلى السلطان فاستعظم هذا الأمر جدا ورسم بخلع خسرو باشا من منصب الصدارة وسير إليه الفرمـان بذلك وأعاد حافظ باشا ثانية إلى منصبه فكبر الأمر على خسرو باشـا ودس إلى طوائف الانكشارية من يعلمهم أن خلعه من منصبه إنما كان للذب عنهم والعمل برأيهم فهاجوا عند ذلك وساروا إلى دار السلطنة وأشعلوا نار الفـتنة ودخلت طائفة منهم إلى السراى السـلطانية وقبضـوا على حافظ باشا الصدر وقـتلوه فى الثامن والعشرين من رجب سنـة إحدى وأربعين وألف ولم يراعوا للسلـطان حرمة ولا حـفظوا له عهدا ولاذمـة فكبر الأمر جـدا على السلطان وسير إلى خسرو باشا جماعة فـقتلوه وولى الصدارة محمد باشا بيرم وتجرد السلطان من هذا الحين إلى إخضاع الانكشارية وإذلال كبارهـم فأعمل فيهم القتل لأقل سبب ورسم بمنع الناس كافـة من شرب القهـوة والدخان فكان يخرج فى كـل ليلة متنكرا ويمشى فى أسواق القسطنطينية بدعوى تأديب المولعـين بشرب القهوة والدخان ومعه جمـاعة من أعـوانه وهو إنما يخرج لإتـلاف الأشرار وقطع شـأفة أهل الفـساد من الانكشارية وغـيرهم فخافـوا وانكمشوا وامـتلأت قلوبهم رعبـا منه وخشيه الكبـير والصغـير فمـهدت الطرق وزال البـأس عن الناس وأمنوا على أموالهم وأعـراضهم ولبثـوا على الطاعة والانكمـاش إلى سنة إحدى وأربعين وألـف هجرية فهـبوا إلى الحركة وتجردوا إلى الثورة ومقدمهم يومـئذ رجل اسمه رجب باشا فعاجلهم السلطان وقبض على رجب بـاشا المذكور وأمـر به فذبحوه وألقـوا جثـته من شبـاك السراى السلطانية بين جمهور الانكشارية فكبر عند ذلـك خوفهم وتفرق جمعهم وعادوا إلى السكينة وملازمة الحدود وزالت من هذا الحـين سطوتهم وانحطت شهرتهم وتفرقت كلمتهم وكفى الله الناس شرهم، ولما دانت للسلطان الأمور وزالت عن مقر سلطنته المخاوف بقطـع شأفة أهل الفـساد سـار فى جيش عظيم لغـزو بلاد فارس فـحارب ملكهم واسترجع كثيراً من القلاع والحـصون التى أخذها ملك فارس على عهد الفتن

المتابعة ونال أيضا من بلاد فارس ففتح بغداد واريوان فسير إليه ملك فارس من يخابره فى الصلح وطال الكلام فى أمر ذلك ثم تقررت القاعدة بين الفريقين على بقاء دار السلام فى حوزة السلطان ورد اريوان إلى مملكة فارس وتم الصلح على ذلك وعاد السلطان ظافر منصورا، ثم مرض بعيد ذلك وطال مرضه فلما كان تاسع عشر شوال سنة تسع وأربعين وألف هجرية مات من غير عقب ولم يتجاوز التاسعة والعشرين من العمر فبكاه أهل الفضل من الناس وتولى السلطنة بعده أخوه السلطان إبراهيم الأول فكانت سلطنة المتوفى ست عشرة سنة وأحد عشر شهرا وخمسة أيام رحمه الله تعالى .

□□□

(الفصل الحادى عشر)

(فى سلطنة السلطان إبراهيم خان الأول)

ثم قام بالأمر بعد السلطان مراد أخوه السلطان إبراهيم الأول ابن السلطان أحمد بويع بالملك فى عاشر شوال سنة تسع وأربعين وألف هجرية أى سنة أربعين وستمائة وألف ميلادية. قال بعض الكتاب: ووافق تاريخ توليته (٩٨١ ٦٨ سنة ٤٩ ١٠) استعنت بالله ولما كان مشابها فى أحواله وأطواره لعمه السلطان مصطفى تولى أمور السلطنة الأغرار وقرناء السوء فاختلت أحوال المملكة وعادت إلى ما كانت عليه من الفساد وهبت طوائف الانكشارية من رقدة الخمول والانكماش إلى الظهور فعاثوا على عادتهم وطلبوا المطالب الطويلة العريضة فمناهم وأجزل عطاءهم وفتح أمامهم أبواب الحرب ليشغلهم عن العبث بأمور الدولة ومصالح السلطنة فسير طائفة منهم لاسترجاع مدينة أزاق من بلاد القرم التى أخذها القوزاقيون فقاتلوا وأبلوا بلاء حسنا حتى استردوها ثم سير طائفة أخرى لغزو جزيرة كريد إحدى الجزر التابعة يومئذ إلى جمهورية البندقانية وسير لذلك سفنا حربية ومقدمها يوسف باشا ففتحوا الجزيرة المذكورة بعد قتال خفيف فسيرت جمهورية البنادقة سفن حربها إلى بتراس وكورون وموررون من ثغور كريد فأحرقتها تشفيا وانتقاما نظير فتح جزيرة كريد فكبر هذا الأمر على السلطان وهمَّ بقتل جميع النصارى الذين فى بلاد الدولة فمنعه من ذلك على ما قيل أسعد زاده أبو سعيد مفتى دار السلطنة وهوّن عليه الأمر فأطاعه

وبذل السلطان جهد الاستطاعة فى إصلاح ما اختل من أحوال المملكة الداخلية، وقد وصل إلى مسامعه خبر ما يلاقيه أهل مصــر من جور محمد باشا واليها وظلمه فأمر بعزله وورد الخبــر بذلك إلى القاهرة ففرح الناس به فرحا لا يوصف وتأهــب محمد باشا للرحيل إلى الديار الرومية وأخذ فى جمع أمواله ومتاعه فكان شيئا كثيرا للغاية وتباطأ فى السفر والخروج من مصر أياما كانت على أهل البلاد كأنها أعوام ثم نزل من قلعة الجبل وأقام فى بيت أحد الأمراء أياما أخرى جاءه الأمر فيها ثانيا من دار السلطنة ببقائه فى منصب الولاية فلما شاع الخبر بذلك حزن الناس حزنا ما عليه من مزيد فصعــد إلى قلعة الجبل وعاد إلى التصرف فى الأمــور فضاعف الجور وبالغ فى الظلم واشتد على الرعية وأكثر من مـصادرة الناس على اختلافهم وفتك وقتل وأراق الدماء ظلما ومازال على هذا الحال من الجور والعسف حتى قدّر الله سبحانه وتعالى بخلعه فجــاءه الأمر بذلك فى سلخ جمادى الآخرة سنة خمــسين وألف فكانت مدة ولايته ثلاث سنين ونحو ستة أشهر.

(مطلب)

ولاية مصطفى باشا البستانجي

وتولى بعده مصطفى باشا البستانجى فـدخل القاهرة فى غرة الحجة سنة خمسين فى مــوكب حافل وتصــرف فكان عــاقلا أبىّ النفس قنوعــا لا يتطلع إلى مــا بأيدى الرعيــة وكان له ديوانىٌّ اســمه أحمــد افندى وهو جاف خــشن الطباع ظلوم فــخور مختال وكان بيده مقاليد الأمور فــاستبد وجار وظلم وأعاد أيام أحمد باشا من الأخذ بالشبهات ومصادرة الأغنياء والعظمــاء وأخذ أموال الصدقات والخيرات فشكا الناس أمره إلى مصطفى باشــا المشار إليه فلم يفلحوا لتحجــبه عن الناس وترك الأمور إلى ديوانيه المذكور يتصــرف فيها كما يشاء فــاضطربت لذلك الأحوال غاية الاضطراب واختل النــظام وفشا الخــصام وظهــر أهل الفســاد واللصوص وقطاع الطرق وكــثرت السرقات فى حارات القاهرة وبيوت مصر القديمة وما جاورها من القرى وقصر النيل فى الزيادة فــغلت الأسعار وقل وارد الحــبوب واشــتد البــلاء على الناس فكانوا بين قرمــين عنيدين الغلاء واللصوص وكــان إذا أتى إلى والى القاهرة بلص أو بجمــاعة منهم أطلق سبــيلهم وكذلك كانت تفــعل كشاف البــلاد والأقاليم فلما اشتــد الحال بالناس اجتمعــوا زمرا تحت قلعة الجبل وصاحوا على البــاشا وشكوا من أفعال والى

القاهرة وكشاف الأقاليم وضجوا ونادوا ما يحل من الله ياباشا اتق الله فى خلقه فاضطرب الباشا وخشى العاقبة وخلع فى الحال والى القاهرة وولى بدله كنعان بك ورسم بالقبض على كل من تقع عليه شبهة فقبض على كثير حتى ملئوا السجون فاطمأنت القلوب وسكنت الخواطر وظنوا بقاء الحال على ذلك، فلما كان شهر شوال سنة إحدى وخمسين ثار جند وجاق الجاويشية على كبارهم واشتدوا على أميرهم على بك وقالو بأنه لم يفرق عليهم شيئا من أموال العطايا وأن الكتاب هم الذين يأخذون هذه العطايا وطلبوا من الباشا خلعه فسايرهم وطاولهم فلم يرتجعوا وشددوا فى طلب عزله فعزله وأقام مكانه عابدين بك، فلما رأى جماعة العسكر ما كان من فوز إخوانهم الجاويشية ثاروا هم كذلك وشكوا من فراغ مخازن ذخرتهم وطالبوا بمعاشاتهم المتأخرة واتهموا أحمد افندى ديوانى الباشا السابق الكلام عنه ببيع ما فى تلك المخازن وأخذ أثمانها فعين لتحقيق ذلك قاضى قضاة المحروسة فبحث عما فى الأشوان والحواصل فلم ير فيها شيئا وثبت أن الكاتب المذكور باع ما كان فيها وأخذ الثمن لنفسه فخلعه الباشا تسكينا للفتنة واسترضاء لخواطر الجند فاستنجد الكاتب المذكور بجماعة الجاويشية فأنجدوه وأرجعوه إلى منصبه قهرا فزاد عسفه وتضاعف جوره وظلمه وبالغ فى إيذائه ومازال والناس فى شدة وضيق حتى صرف مصطفى باشا عن الولاية فى جمادى الآخرة سنة اثنتين وخمسين.

(مطلب)

ولاية مقصود باشا

وتولى بعده مقصود باشا فدخل القاهرة فى رجب من السنة فكانت مدة تصرف مصطفى باشا المذكور سنة وثمانية أشهر ولما استقرت بمقصود باشا الولاية جعل ينظر فيما وقع من مصطفى باشا وعوّقه عن السفر من مصر وقبض على كاتبه أحمد افندى وعلى الكيخيا وجلدهما جلدا مبرحا وأخذ منهما مائتى كيس نقرة من أموال الخزينة السلطانية وقد كانا أخذاها لأنفسهما غيلة ثم بعث مصطفى باشا المذكور إلى دار السلطنة تحرسه طائفة من الجند فلما وصل إليها أخذ منه مائة كيس للخزينة السلطانية ثم أخلى سبيله ولبث حينا متحجبا عن الناس ثم أدخل فى خدمة الدولة ومازال حتى بلغ مسند الصدارة العظمى ودبر مقصود باشا أمور البلاد أحسن تدبير فأبطل كثيرا من المكوس والمغارم وأزال بعض الضرائب وأعاد حقوق الوراثة لأهلها

وضرب علـى الورثة ضريبـة يدفعـونها للخـزينة السلطانيـة فقط ثم جـعل يتعـقب اللصوص وقطاع الطرق فقـبض على كل من نالته شبهة منهم وسـجن وغرّق وقتل فخافوا واختفى خـبرهم وارتاحت الأفكار من شرورهم، وبينما كانت القلوب هادئة والخواطر مطمئنة إذ ظهر الطاعون واشتد وعم القاهرة ومصر القديمة وضواحيهما ثم تفشى فى جمـيع المدن والقرى وعم وكثر الموات وكان ظهـوره أولا من ناحية بولاق القاهرة فى أوائل شعـبان من سنة اثنتين وخمسـين وألف ومازال على هذا الحال من الاشتداد والانتشار من ابتداء ذى القعدة من السنة إلى غاية صفر سنة ثلاث وخمسين وألف ثم بدأ بالتناقص إلى آخـر شهر ربيع الأول ولم يسـمع بمثل هذا الطاعون فى الفتك والشدة فكانت تنقل الجثث عشرات عـشرات والجنازات تسعى خلف بعضها حتى أبطلت الصلاة على الأمـوات لكثرتهم وفتك بالقرى كذلك فـتكا ذريعا جدا. حكى أن مائتـين وثلاثين قرية أصبحت خـرابا ليس فيها ديار ولا نفـاخ نار وكانوا يجدون الأموات فى الطرق وعلى جوانب الجدران والكلاب تحوم حولها ومازال على شدته حتى ارتفع وزال .

وبعد انتـهاء الطاعون بقليل مـن الزمان ظهرت فى العـشرين من القعـدة فتنة بمدينة الإسكندرية والسـبب فى ذلك أن ستمائـة من الروم المسيحيـين كانوا مقـيدين بسجن الاسكندرية وقاسوا من العذاب أمرّه فأتت بعد حين لخلاصهم سفينة وجاءت إليهم أخبار قـدومها فقاموا وكسروا أبواب السـجن فى اليوم المذكور والمسلمون فى صلاة الجمـعة وطافوا فى شوارع المدينة وجعلـوا ينهبون البيوت والحـوانيت ومخازن الأرزاق وعـاثوا وأفسـدوا فلم يبقـوا ولم يذروا ثم نزلوا بتلك السـفينة وأقلعـوا من فورهم ونجوا بما كسبوا ولم يظفروا بأحد منهم، وضيق مقصود باشا على الصناجق وطالبـهم بثلث الأموال المرتبـة على الإقطاعـات التى بأيديهم لصرف عـلائف الجند ورواتب العسكر المنصور فأغضب ذلك الجمـاعة الصناجق ولم يقبلوا فرأوا منه قرما عنيدا فاجتمعوا فى بيت الأمير رضـوان أبى شنب فى يوم الجمعة ثانى عشر رمضان سنة أربع وخمـسين وتحالفـوا على خلعه إن هو شـدد فى الطلب فطولبوا فرفـضوا وطلبوا عزل كـبار مشورة الباشا فـأجابهم إلى ذلك وطالبهم فأبوا وكتـبوا إلى الباب العالى يشكون من تصرف مقصود باشا فـورد إليه مرسوم السلطان بالاستعلام عن السبب الموجب لتلك الشكوى، فأجاب بما دفع عنه الريبة وأفـحم أصحاب الخصومة وقد علم أن زعماء هذه الفـتنة الأمير على بك والأمير ماماى بك وشعـبان الدفتردار

فعزم على الفتك بهم ورتب لذلك كمينا وأقام لهم رصدا ليقتلهم فى الديوان إذا نزلوا إليه فى يوم الاثنين الثالث والعشرين من ذى الحجة سنة أربع وخمسين فلم ينزل من الديوان من ذلك اليوم إلا الدفتردار فقط فأمسك عن قتله وأبقى العمل إلى يوم آخر فلما كان يوم الثلاثاء الرابع والعشرين من ذى الحجة من السنة المذكورة جاءه الأمر السلطانى بالخلع واعتزال المنصب وتوليه شعبان بك الدفتردار النيابة حتى يأتى الوالى الجديد، قيل فشق هذا الأمر على مقصود باشا واستعظمه جدا وسلم الأمر إلى الدفتردار صاغرا ثم جاء الخبر من الباب العالى بتولية أيوب باشا فلبثوا ينتظرونه وهم فى خوف حتى انصرف مقصود باشا عن الولاية فكانت مدة تصرفه سنة ونحو سبعة أشهر.

(مطلب)

ولاية أيوب باشا

وقدم أيوب باشا إلى مصر ودخل القاهرة فى موكب حافل قيل ولم يقبل هذا المنصب إلا بعد إقدام وإحجام لما يعلمه من اختلال الأمور واستفحال أمر الجند واتساع سلطتهم وصعد القلعة فى العاشر من صفر سنة خمس وخمسين وألف وأخذ فى تدبير الأمور وترتيبها على الوجه الأتم فأحكم نظامها وقطع دابر اللصوص واقتفى أثر من فر منهم وأعمل فيهم القتل والشنق والتغريق وأخذ على الصغائر فخافه أهل الفساد وانكمش أصحاب الغايات واستتب الأمن وزال الخوف وسادت الراحة واطمأنت قلوب الناس ولازم كل حده ففرحت بأيامه الرعية ولبث يتصرف سنتين ثم كتب يستأذن السلطان فى الانصراف عن منصبه فأذن له فسافر فى سلخ رجب سنة سبع وخمسين وألف فكانت مدّة تصرفه سنتين ونحو ستة أشهر وخرج فى موكب حافل جدا والناس فى حزن عليه.

(مطلب)

ولاية الوزير محمد باشا ابن حيدر

فتولى بعده الوزير محمد باشا ابن حيدر فلما وصل أيوب باشا إلى دار السلطنة رقى إلى مسند الصدارة العظمى فأحسن التصرف والتزم الحزامة وحسن التدبير ثم

نزل وترك المنصب وعكف على العبادة وتنازل عن جميع أمـواله ومقتنياته إلى خزينة السلطان وتزيا بزى الدراويش وانفرد فى جـامع من جوامع الروم إيلى، وتصرف ابن حيدر المذكور فى ولاية مصر فأساء التصرف وعكـس التدبير وأفسد ما نظمه مقصود باشا فكانت أيامـه كلها خروج وطغيان واشـتد حوله الجند واستفـحل أمرهم فكانوا يثورون عند أقل حادثة أو لأصـغر سبب وقامت منهم طائفة الانكشـارية فى العاشر من رجب سنة سبع وخمسين وألف بمصر القديمة فـعاثوا وأفسدوا وفعلوا ما لا خير فيـه فركب عليهم والى القـاهرة وتهددهم إن هم بقـوا على هذا الحال فضـجوا فى وجهـه وساروا إلى ما تحت قلعـة الجبل ونادوا بقتل الوالى المذكـور وكان الوالى من وجاق الجاويشيـة فجاءهم الخبر بعزم البـاشا على قتل الوالى انتصارا للعامـة فركبوا جميعا ونادوا على البـاشا بالويل والثبور فخشى الباشا العاقبـة فدعا إليه قانصوه بك وشاوره فى الأمـر وكان قـانصوه ناقمـا على الأميـر رضوان بك والأميـر علىّ بك فأشار إليـه أن يكتب إلى دار السلطنة بما جرى ويسند حدوث جـميع هذه الفتن إلى الأميرين المذكـورين ويقول إنهما قد أخـذا أيضا مال الخزينة واختلسـا المناصب بغير استـحقاق وكان قـصد قانصوه بذلك رجـوعه هو وماماى إلى منصب إمـارة الحاج وولاية جرجا فجنح الباشا إلى مشورته وطلـب بعض الأعيان للتوقيع على محضر بذلك فاتصل الخبـر برضوان بك فبادر هو بالكتابة يشكو البـاشا إلى الباب وبالغ فى الشكوى وعظم البلوى فورد الجـواب من الباب بتفـويض رضوان بك وعلى بك فى تحقيق جميع ما أسند فعله إلى الباشا وقانصوه بك وورد إلى الباشا فرمان بذلك فى الحـادى والعشـرين من جـمـادى الأولى سنة سـبع وخمـسـين وألف وفى السـابع والعشرين منه استدعاهما الباشا إلى الديوان الخـاص بقلعة الجبل فصعدا إليه وعقدا مجلسا وتجادلا مع من حـضر من الأمراء والعلماء ثم تقرر قتل قـانصوه بك وماماى بك ومن كان على دعوتهما فقتلا وقتل معهما عدة من الأمراء ثم قام بعد ذلك على بك إلى مـقر وظيفـته بجـرجا وسكنت الفـتنة وزالت بعض القلاقل وتسـابق بعض الأمـراء إلى أخذ منصب قـانصوه بك وكـان ممن تقـدم إلى ذلك وبذل الجهـد فى الحصول عليه مصطفى كتخدا الملقب بالششيز فلم يفلح وخاب سعيا فتجرد للعصيان وشق عصا الطاعة وكـادت تستفحل فتنته لولا ماعـاناه رضوان بك من إيقاف تيارها بحسن تدبيره، واستدعى الباشا الأميـر رضوان بك إلى وليمة كان أعدها عنده بقلعة الجبل فخاف رضوان بك على نفسه وأبى الحضـور فغضب الباشا ورسم بتجريده من

إمارة الحاج وكأنه كان ينوى له ذلك فقام رضوان بك من القاهرة فى نحو مائتى رجل وكثير من الأمراء والكشاف ولحق بالأمير على بك بجرجا فجهز الباشا ألفين من الجنود ونحو خمسمائة من الانكشارية وأمرهم فاجتمعوا بالرميلة تحت قلعة الجبل وتأهبوا للسفر ثم عدلوا واتفقوا على نبذ طاعة الباشا إن هو أصر على قتال رضوان بك وعلى بك فخاف الباشا وتحير فى أمره ولبثت العساكر أياما بغير حركة فورد فى هذه الأثناء فرمان السلطان بإبقاء رضوان بك وعلى بك فى منصبيهما فخاب الباشا سعيا وأرسل يستقدمهما إلى القاهرة فقدما فى التاسع عشر من رمضان من السنة أى سنة سبع وخمسين وسعى فى مصالحتهما مع مصطفى كتخدا وأعقب رجوع رضوان بك وعلى بك إلى القاهرة الإشاعة بخلع الباشا وتولية آخر اسمه مصطفى باشا فلهج الناس بهذا الخبر وعم واتصل بالباشا فأخذ يتأهب للسفر وجمع أمواله وأمتعته ولم يبق إلا أن ينزل من قلعة الجبل فلما كان السادس والعشرون من رمضان المذكور ورد فرمان السلطان بتثبيته فى منصب الولاية فعاد وتصرف فى الأمور على ما كان عليه، وفى غاية شهر رجب سنة ثمان وخمسين وألف وردت الأخبار إلى القاهرة بخلع السلطان إبراهيم ابن السلطان أحمد وتولية ابنه السلطان محمد بدله فسار المنادى بذلك فى شوارع القاهرة ومصر القديمة وطيروا الخبر بذلك إلى الآفاق، قال أصحاب التاريخ: ولما كثر عبث طوائف الانكشارية وزاد تمردهم وعمت شرورهم كبر أمرهم على السلطان إبراهيم وعمد إلى الفتك بكبارهم وأصحاب الكلمة فيهم وأخذ يدبر الحيلة فى ذلك فأسر إلى بعض خواصه أن يقتلوهم إذا حضروا وليمة زفاف إحدى بناته على ابن الصدر الأعظم فتأهبوا لذلك واستعدوا فأحس كبار الانكشارية بما فى عزم السلطان فخافوا عاقبة السكوت وتجردوا لخلعه وساروا إلى مسجد أورطة جامع ونادوا بخلع بيعته فوافقهم على ذلك بعض العلماء والمفتى عبد الرحيم وشاع الخبر بذلك فهاج الانكشارية وطوائف السباه ونادوا جميعا بخلعه وولاية ابنه محمد بدله وهو لم يبلغ يومئذ إلا السابعة فخلعوه فى ثامن عشرى رجب سنة ثلاث وخمسين وألف هجرية وحجروا عليه فى مقره فاضطربت عند ذلك الأحوال واختل النظام وزاد عسف الانكشارية وبقى الحال على ذلك عشرة أيام فعادت طوائف السباه وطلبت إرجاع السلطان إبراهيم إلى منصب السلطنة وألحت فى ذلك وتجردت لإرجاعه فخشى زعماء الثورة عاقبة ذلك وعمدوا إلى قتل السلطان إبراهيم فساروا إلى مقره ومعهم الجلاد ودخلوا عليه وقتلوه خنقا فمات شهيدا وكان مدة تصرفه نحو ثمان سنين وتسعة أشهر.

ومات فى أيامه يوحنا بطرك المتأصلين بعد أن أقام أربعين سنة وفى أيام يوحنا المشار إليه كان من حوادث الطاعون والغلاء وتوالى الإحن ومصاردة الناس فى أموالهم وتطاول أيدى العساكر والأجناد وانتشار أصحاب السعاية والوشاة والأخذ بالشبهات وغير ذلك من فرض الفرض والمغارم والمكوس ما مر بيانه فى محله فأقيم بعده غبريال وهو خامس تسعيهم واسمه روفائيل من رهبان دير السريان ومولده فى منشاة المحرق وكان من الحوادث فى أيامه ما سيذكر فى محله.

(الفصل الثانى عشر)

(فى سلطنة السلطان محمد الرابع ابن السلطان إبراهيم)

ثم قام بالأمر بعد خلع السلطان إبراهيم وقتله ابنه السلطان محمد الرابع بويع بالملك فى العشرين من رجب سنة ثمان وخمسين وألف هجرية أى سنة ثمان وأربعين وستمائة وألف ميلادية وكان عمره يومئذ سبع سنين فكانت سلطنته بالاسم فقط والتصرف للوزراء وكبار الانكشارية فصارت لذلك أحوال المملكة فى انحلال وأمورها فى اختلال ونظامها فى زوال لعدم وقوف طوائف العسكر عند حد وتداخلهم فى جميع أمور الدولة وعزلهم للولاة والحكام عند أقل سبب وتطاول أيديهم إلى أموال الناس وإراقة الدماء ظلما فكان إذا عمد صدر من الصدور إلى إصلاح الأمور وإرجاع الأحوال إلى سابق مجراها قاموا عليه وخلعوه وربما قتلوه وطافوا بجثته فى الشوارع والطرقات فلم يجسر قط أحد على فعل ما لا يرضونه وقد أخلدوا إلى الترف وكرهوا الحروب فكانوا إذا ساروا إلى غزوة تثاقلوا وركبوا متن هواهم ولم يسمعوا لكبارهم كلمة فيستخف بهم العدو ويتم له النصر عليهم. قال أصحاب التاريخ: وقد سرى هذا الداء أيضا إلى الجنود البحرية فتولى عليهم الخمول ولازمهم الفشل فآنست جمهورية البندقية منهم ذلك وسيرت مراكبها لقتالهم عند مدخل الدردانيل فانتصرت عليهم نصرة عظيمة واحتلت مدينة تيننsaid وجزيرة لمنوس وغيرهما وقطعت الطريق على السفن الحاملة للغلال والمؤنة فلم تتمكن من الوصول إلى القسطنطينية فارتفعت لذلك الأسعار ووقع الغلاء وعز وجود الخبز واشتد الحال بالفقراء وطالت أيام هذه الشدة إلى سنة ست وستين وألف هجرية وقد

تولى الصدارة محمد باشا الكوبريلى وفوض إليه تدبير جميع الأمور وكان شيخا قوى العزم ثابت الجأش حسن التدبير عظيم السياسة خبير بأحوال المملكة فأخذ بزمام جميع الأمور وأتى أوجه الإصلاح من أبوابها واشتد على طوائف الانكشارية شدة عظيمة للغاية فقتل منهم وغرق وشرد وسام كبارهم الخسف فثاروا فاشتد عليهم وضيق فخافوا وانكمشوا ولازموا الطاعة وسير سفن الحرب لاسترجاع ما أخذته مراكب جمهورية البندقية من الجزائر والثغور العثمانية وفتح طريق القسطنطينية فلاقتها سفن البندقية واقتتلوا فكانت الحرب بينهم سجالا ثم انتصرت سفن الدولة واستردت ما أخذ من الجزائر والثغور ومازال يقاوم أعداء الدولة فى الداخل والخارج ويأتى على أوجه الإصلاح من أبوابها حتى مرض واشتد به مرضه فسأله السلطان عمن يتولى المنصب بعده فقال ولدى وعليه فى إتمام ما لم أتمه معتمدى، ومات فى سنة اثنتين وسبعين وألف هجرية فتولى الصدارة بعده ولده أحمد باشا فكان كأبيه فى الحزم وأصالة الرأى وحسن السياسة والتدبير فخافه طوائف الانكشارية وتجرد لمحاربة أعداء الدولة ففاز وظفر ونهى وأمر وغلب وقهر وفتح القلاع والحصون ودوخ المدن والأمصار وأتم الإصلاحات التى كان بدأ بها أبوه فأعاد للدولة مجدها القديم.

(مطلب)

ولاية الوزير أحمد باشا

وكان لما تولى السلطان محمد الملك وبلغ مسامعه خبر الخلاف الواقع ما بين محمد باشا والى الديار المصرية ورضوان بيك وعلى بيك مقدمى الأمراء المصريين رسم بخلع محمد باشا المذكور فجاءه الفرمان بالعزل فى أواخر رمضان سنة ثمان وخمسين وألف، وتولى مكانه الوزير أحمد باشا فسافر محمد باشا المعزول فى العشر الأولى من شوال فكانت مدة تصرفه سنة ونحو ثلاثة أشهر ودخل أحمد باشا القاهرة فى غاية شوال وصعد إلى قلعة الجبل وتصرف فكان سيىء التدبير ضعيف الرأى مشئوم الطالع على البلاد فإنه منذ قبض على زمام الأحكام ظهرت الفتن وبدأت القلاقل ودرج أهل الفساد وقصر النيل عن زيادته المعتادة فلم يبلغ فى سنة ستين وألف زيادة عن الستة عشر ذراعا فشرقت الأراضى فى الأقاليم القبلية جميعها وبعض أراضى الأقاليم البحرية وغلت الأسعار وعزت الأقوات وانقطع واردها إلا القليل جدا وتجرد أحمد باشا من ذلك الوقت إلى تجديد المغارم وفرض

الفرض وإحداث المكوس وتتبع أهل اليسار وعادى جميع الأمراء وخص بالمكيدة رضوان بيك أمير الحاج وكاتب دار السلطنة فى شأنه وطلب عزله من منصب إمارة الحاج وتولية على بيك بدله ليوقع النفرة بينهما فلم يفلح إذ كان رضوان بيك وعلى بيك على غاية المودة والإخاء.

(مطلب)

ولاية عزل أحمد باشا وولاية الوزير عبد الرحمن باشا

فلما كان يوم السبت السادس من صفر سنة إحدى وستين وألف جاء فرمان السلطان إلى أحمد باشا المذكور بالعزل وولاية الوزير عبدالرحمن باشا فدخل عبدالرحمن باشا القاهرة فى سلخ صفر وصعد إلى قلعة الجبل وقبض ومن ساعته على أحمد باشا وسجنه فى بيت وحاسبه على ما فى ذمته من أموال الخزينة فكانت شيئا كثيرا ولم يفرج عنه إلا بعد أن دفعها وسافر إلى الديار الرومية فكانت ولايته نحو سنتين.

(مطلب)

ولاية الوزير محمد باشا

وتصرف عبدالرحمن باشا المذكور فأساء السلوك وحذا حذو السلف فأكثر من جمع الأموال السحت وزاد فى التعرض لأموال الناس وأكثر من الفرض والعوائد والمغارم وتطاولت يديه إلى مال الخزينة السلطانية ولم يقف عند حد فجار وظلم ومازال إلى غرة شوال سنة اثنتين وستين وألف فخلع من منصبه، وأتى مكانه الوزير محمد باشا ولم يدخل القاهرة فى موكبه إلا فى ثامن المحرم افتتاح سنة ثلاث وستين وألف وصعد إلى قلعة الجبل وقبض على عبدالرحمن باشا الوالى المعزول وسجنه ثم حاسبه على ما كان فى ذمته من مال الخزينة السلطانية ولم يفرج عنه من السجن إلا بعد أن أدى ما عليه صاغرا.

وتصرف محمد باشا المذكور فكان حازما عاقلا مدبرا واسع الكلمة مهيبا فخافه الجند وخشوا بأسه فتجرد إلى إصلاح ما أفسدوه ورتب أمور البلاد على أحسن ترتيب فأمن الطرق وقطع دابر اللصوص وأهل الفساد فسكنت فى أيامه القلاقل

واطمأنت قلوب الرعية ودرت الأرزاق وكثرت الأقوات وزال الغلاء وانقطعت أسبابه ومازالت أيامه زاهية زاهرة حتى جاءه فرمان السلطان بالخلع سلخ المحرم سنة ست وستين وألف هجرية فأسف الناس على فراقه أسفا ما عليه من مزيد وخرج جميع الأمراء والكبراء والعلماء والأعيان فى ركابه مودعين.

(مطلب)

ولاية غازي باشا وعزله وولاية عمر باشا

وتولى بعده غازى باشا فأقام بضعة أشهر وجاءه الأمر بالعزل فسار إلى الديار الرومية وتولى بعده عمر باشا فى أواخر سنة سبع وستين وألف هجرية فطالت أيامه، ولما كانت سنة إحدى وسبعين وألف قامت الفتنة بين العساكر المصرية على اختلاف طبقاتها واشتدت نارها وعلا لهيبها فى القاهرة ومصر القديمة ثم امتدت إلى الأقاليم القبلية وعظم أمرها فتطاولت أيدى الجند والغوغاء معا إلى السلب والنهب وهتك الحرمات وظهر العربان فتخطفت كل من خرج من مصر فرارا من الفتنة فكانت شدة عظيمة للغاية مات فيها الجم الغفير من الناس وجرى الدم فى الشوارع والحارات ومات الكثير من الأمراء الفقارية وغيرهم وطالت أيام الفتنة ثم انحسمت أسبابها ولبث عمر باشا الوالى المذكور يتصرف إلى سنة سبع وسبعين وألف هجرية، **قلت**: فإن صح ذلك كانت ولايته زهاء عشر سنين وهذا بعيد فى جانب ما تعوده رجال السلطنة من كثرة العزل والتولية فى ولاة مصر لاسيما وقد كانت أيام عمر باشا المذكور مفعمة بالفتن والكوارث والمحن وخروج الجند بعضهم على بعض فكان لابد لتسكين الفتنة ومنع حدوث مثل هذه القلاقل من تغيير وتبديل فى الولاة.

(مطلب)

ولاية أحمد باشا أو وهو إبراهيم باشا وعزله وولاية حسين باشا

ثم عزل عمر باشا المذكور وتولى بعده أحمد باشا وقيل إبراهيم باشا وذلك فى أواخر سنة سبع وسبعين فأقام سنة وعزل فى أواخر سنة ثمان وسبعين وألف هجرية وفى رواية أنه أقام يتصرف إلى سنة خمس وثمانين وألف هجرية فكانت مدة تصرفه زهاء تسع سنين، وتولى بعده حسين باشا وجاء الخبر بوصوله إلى بولاق مصر

فخرج الناس للقائه وركب فى موكب حافل للغاية وصعد إلى قلعة الجبل ومعه كثير من الخدم والحشم فأخذ يتصرف مع الحكمة والعقل وكان محبا للرعية غير متحجب كان يجلس للناس فترفع له القصص فيأمر وينهى مع الرفق واللين وجاءه فرمان السلطان بطلب ثلثمائة كيس قروش كلاب على حساب القرش الكلب ثلاثون نصف فضة. قال بعض الكتاب: وكانت قيمة القرش الكلب إلى ذلك الوقت أربعين نصف فضة، وكانت قيمة الريال اثنين وأربعين، والشريف البندقى خمسة وتسعين نصف فضة، والشريف المحمدى خمسة وثمانين.

(مطلب)

ولاية حسن باشا جانبلاط

ولبث حسن باشا يتصرف حتى جاءه الأمر بالعزل فى المحرم افتتاح سنة سبع وثمانين وألف هجرية وتولية حسن باشا الجانبلاط فكانت مدة تصرف حسين باشا سنة وبضعة أشهر ودخل حسن باشا الجانبلاط القاهرة فى منتصف المحرم فخرج للقائه العلماء والمشايخ والأمراء وكبار الجند وأصحاب العكاكيز فصعد إلى قلعة الجبل فى الموكب المعتاد وأطلقت لقدومه البشائر فأخذ يتصرف فى الأمور فكان مشئوم الطالع وقع فى أيامه غلاء عظيم وانقطع الوارد من المأكول وعز وارتفعت الأسعار جدا فبيع الأردب القمح بمائة وثمانين ونصف فضة والأردب الشعير بمائة وثلاثين وكذلك الفول والتبن كل حمل بمائة وخمسين نصفا فضة واشتد الحال على الفقراء حتى أكلوا الميتة وجذور الأشجار وطافوا فى الشوارع يتخطفون الخبز من الأفران ويرجمون بيوت الأمراء بالأحجار ويصيحون ويضجون. قال بعض أصحاب التاريخ: ومع هذا فقد كان النيل فى غاية الكمال.

(مطلب)

ولاية عثمان باشا

وأقام حسن باشا يتصرف إلى أن جاءه الأمر بالعزل فى المحرم سنة إحدى وتسعين وألف هجرية وتولية عثمان باشا فكانت مدة تصرفه أربع سنين، ودخل عثمان باشا القاهرة وصعد إلى قلعة الجبل وأخذ يتصرف فى الأمور فكان عادلا

كاملا حسن السيرة قنوعا غير محب لأخذ ما بأيدى الناس وزاد النيل فى أيامه زيادة عظيمة فعم جميع الأراضى القبلية والبحرية ورواها وأخصبها فأثمرت وأنتجت غلاتها فنزلت الأسعار وكثر الوارد وامتلأت العرصات بالقمح والفول والشعير والعدس والأرز وكثر الخبز بالأفران والدكاكين وشبع الفقراء ووجه غايته إلى ضبط المقاييس والمكاييل وتحرير عيار النقود على اختلافها فلم يتم ذلك حق جاء الأمر من دار السلطنة بأن يكون وزن الألف نصف فضة مائتين وثلاثين درهما وكل مائة درهم فضة يدخله خمسة وعشرون درهما من النحاس ونودى بذلك فى القاهرة ومصر القديمة فتكدر الناس من ذلك جدا وخصوصا السوقة وأصحاب التجارة وراجعوا الباشا فى ذلك فرفع الأمر إلى دار السلطنة وبالغ فى شكوى الناس من ذلك فلم يلتفت إليه وجاءه الأمر بالتعجيل ففعل.

وكانت إلى هذا الحين لم تبطل الحرب القائمة ما بين الدولة وخصومها ولم يتم جميع الإصلاحات التى بدأ بها كوبريلى أحمد باشا بعد توليته الصدارة العظمى إنجازا لمقاصد أبيه إذ عاجلته المنية فمات حتف أنفه فى سنة سبع وثمانين وألف هجرية، فولى الصدارة بعده زوج أخته قره مصطفى. قال بعض الكتاب: فلم يكن كفؤا لهذا المنصب الجليل ولا هو موصوف بحسن السياسة التدبير فلما استقر به المنصب تغلب عليه هواه فركب متن الشطط وباع المناصب العالية وعاقد الدول على ما يأباه شرف دولته وعزة جانبها وخلط وخبط فأبعد عن الدولة قلوب معاهديها وأزال بسوء تدبيره ما أسسه كوبريلى الكبير وابنه من بعده فظهر الخلل وتطرف إلى جميع مصالح الدولة وتقدمت الأوغاد وعلت كلمة الأغرار واشتد خصوم الدولة عليها فسار قره مصطفى الصدر المذكور فى جيش عظيم يريد محاصرة ويانه عاصمة النمسا فنزل عليها وحاصرها وضيق عليها وأقام على حصارها زهاء شهرين واستولى على جميع قلاعها الأمامية ورمى عليها بالقنابل وراسل الرمى ليلاً ونهاراً حتى هدم بعض أسوارها ولما يأخذها فسير بابا رومه رسله إلى ملك بولونيا وملك ساكس وبافييرا يستنهضهم إلى نجدة النمساويين وقتال المسلمين وخلاص البلاد من أيديهم فقاموا جميعا للقتال وهاجموا عساكر المسلمين وقاتلوهم قتالا عنيفا للغاية فظفروا بهم وانتصروا عليهم نصرة عظيمة وفشلت جنود قره مصطفى باشا وتمزقت فاستولت الأحزاب على جميع مدافعهم وما تركوه من مؤنة ودواب وآلات الحرب وكانت شيئا كثيرا للغاية ثم جمع قره مصطفى باشا مابقى من جنوده على نهر داب وقفل

راجعا بهم إلى مدينة بور فتتبعه ملك پولونيا فى عكسره وصار يتخطف من خلفه ووصل الخبر بذلك إلى دار السلطنة فكبر الأمر على السلطان وسير على الفور أحد حاشيته إلى قره مصطفى باشا فقتله وبعث رأسه إلى القسطنطينية وولى مكانه إبراهيم باشا وكبر الأمر على دولة النمسا وتعلقت آمال ملكها بالنصر بعد استخلاص ويانه من هجمات العساكر العثمانية فتحالف مع مملكة بولونيا وجمهورية البندقية ورهبنة القديس يوحنا وبابا رومية ودولة الروس على قتال المسلمين وأخذ جميع ما بأيديهم من البلاد فى قارتى آسية وأوربا ودعوا هذه المحالفة بالمحالفة المقدسة ثم فتحوا الحرب على الدولة من كل صوب وحدب فسارت سفن جمهورية البنادقة تتهدد سواحل اليونان وبلاد الموره ومعها سفن حرب البابا وسفن رهبنة القديس يوحنا فتغلبوا على مدن اليونان وأخذوا كورنيشه وأثينه وزحفت جيوش الملك سوبسكى على بلاد البغدان وأغارت عساكر النمسا على بلاد المجر فاحتلت مدينة بست وحاصرت مدينة بور وضيقت عليها فلم تنل منها فهاجموا بعض القلاع والحصون وأخذوها عنوة وفاز الأحزاب وانتصروا عدة نصرات متتابعة فكبر ذلك على السلطان وظنه خيانة من الصدر الأعظم فسير إليه الأمر بالعزل والإبعاد إلى جزيرة رودس وعين مكانه سليمان باشا السردار فلم يغن عزله شيئا ولم يفلح لسليمان باشا السردار عمل وافتتح النمساويون مدينة بور ودخلوها وأعملوا فيمن بها من العساكر العثمانية القتل، وقتلوا عاملها المدعو عبدى باشا فكان سقوط هذه المدينة فى أيدى الأعداء خسارة عظيمة على الدولة العثمانية وفشلت بعد ذلك عساكر سليمان باشا وتولى عليها الجبن والضعف وفازت عساكر الأحزاب وتقدمها النصر فى جميع حروبها والسلطان فى شاغل عن جميع أمور السلطنة بالصيد والقنص ومنادمة قرناء السوء فى القسطنطينية وضواحيها.

ولما وردت الأخبار إلى دار السلطنة بتوالى هزيمة العساكر العثمانية وفوز الأحزاب ودخول الشتاء رسم السلطان بأن يكون الروم إيلى مشتى العساكر فى ذلك العام أيضا وقد كانوا أشتوا فيها عدة سنين فهاج العسكر عند ذلك وماجوا وأبوا إلا العود إلى دار السلطنة فلما صاروا على مقربة منها كتبوا محضرا بما عليه السلطان من سوء الأخلاق وعدم صلاحيته لمنصب الخلافة وطلبوا خلع بيعته فوافقهم على ذلك العلماء والمشايخ وأهل الدولة وخلعوه فى غرة المحرم افتتاح سنة تسع وتسعين وألف هجرية وأجلسوا بدلا منه أخاه السلطان سليمان الثانى وبقى السلطان محمد محجورا عليه حتى مات سنة خمس ومائة وألف هجرية.

(الفصل الثالث عشر)

(فى سلطنةالسلطان سليمان خان الثانى)

ثم قام بالأمر بعد خلع السلطان محمد آخوه السلطان سليمان خان الثانى بويع له بالملك فى الثانى من المحرم افتتاح سنة تسع وتسعين وألف هجرية أى سنة سبع وثمانين وستمائة وألف ميلادية وطيروا الخبر بذلك إلى الآفاق فلما تمت له البيعة دخل جميع العساكر الذين كانوا فى حومة القتال إلى دار السلطنة بسلاحهم وكراعهم ودوابهم وضربت كتائب السباهيين خيامهم فى المكان المعروف بميدان السلطان أحمد وضرب الانكشاريون خيامهم فى المكان المعروف بأت ميدان وما غنموا حتى قبضوا بعد ذلك على أزمة الأحكام وأمروا ونهوا وصاروا يعزلون ويولون ويقصون ويدنون من شاءوا ويقتلون ويصادرون الوزراء والأمراء والحكام على السواء وتطاولت أيديهم أيضا على أموال الرعية واشتدوا على الناس شدة بالغة وعاثوا وأفسدوا وهتكوا الحرمات ودخل جماعة منهم يوما إلى الباب العالى وقبضوا على الصدر الأعظم سيواس باشا وقتلوه شر قتلة فعم الخلل وظهر أهل الفساد فتبعوا العسكر فى النهب والسلب وعاثوا وعربدوا واتفق أن جماعة منهم دخلوا إلى بيت شريف من الأشراف ينهبون فمانعهم الشريف فلم يقدر فخرج وهو يصيح ويضج ثم رفع منديلا على رأس عصا وصار ينادى من كان مؤمنا بالله ورسوله فليأت تحت الصنجق فلما سمع الناس نداءه أتوا إليه من كل صوب وحدب وأحاطوا به وهم يضجون ويعجون إلى الله وذاع الخبر فى جميع أطراف القسطنطينية بخروج البيرق النبوى أى بيرق صاحب الشريعة فهرع الناس أفواجا أفواجا إلى السراى السلطانية وهم لا يشكون فى أن منديل ذلك الشريف هو البيرق النبوى فتعجب الأمراء وكبار الدولة من هذا الأمر الغريب وظنوا أن اجتماع هذه الجموع الكثيرة على هذه الصورة إنما هو بإرادة سماوية ومشيئة إلهية فأسرعوا فى إخراج البيرق النبوى للحال ووقع السيف فى أعناق أهل الشقاوة والفساد وكثر القتل والتفريق وعمت الثورة واستفحل الخطب واشتد الويل والكرب وأغلقت الأسواق وتترس الناس فى البيوت والدروب فكانت فتنة كبرى .

وبينما كانت القسطنطينية تتأجج بنار الفتنة والدماء تسيل فى طرقاتها كانت

عساكـر الأحزاب تقاتل بلاد الدولة وتحتل الثغـور وتأخذ القلاع والحصون فـاستولى البندقيون على إيالة المورة ووصل النمساويون إلى بلغراد ثم استولوا على قلاع ودين وفـتح الإسـلام ونيس والافلاق وغـيـرها ووردت الأخـبار بذلـك إلى دار السلطنة فاجتـمع كبار الدولة وأهل الحل والعقـد فيها وتشـاوروا فى الأمر واعترفـوا بعجزهم وعدم قدرتهـم على إطفاء نار هذه الفتنة وبعد إقـدام وإحجام اتفقت كلمـتهم على تسليم كوبريلى مصطفى باشـا خاتم الصدارة العظمى فاستقـدموه فى الحال وسلموه الخاتم فقبض على زمام الأمور بهمة عالية وأبطل كثيرا من البدع والمظالم المستحدثة وأزال جميع الأمانات والالتزامات وأبطل رسوم وعادات الوزراء فى الأعياد والمواسم وبالغ فى إرجاع الجند إلى حدود الطاعة وملازمة النظام وصرف لهم جميع جماكيهم وعلوفاتهم المتأخرة وبث حول كبارهم العيون والأرصاد فخافوه وأخلدوا إلى السكينة وقطع دابر أصـحاب الشقـاوة وأهل الفسـاد وأمن الطرق فأحـبه الناس ومـالت إليه قلوب الجند فأذعنوا لأمره واجتمعوا عند كلمته وانطلقت ألسنة الناس كافة بالدعاء له فلما تم ما أراده من تنظيم أمور المملكة الداخلية تجـرد للغزو وأخذ الثأر من الأعداء وأثار الحرب على النمسـا وجمهورية البندقيـة وبقية الأحزاب وسير لقـتالهم عسكرا جرارا فكانت بينهم سجـالا، وبينما كانت نار الحرب تشتعل بين العـساكر السلطانية وجيوش الأحـزاب تحرك كذلك بطرس الأكبـر قيصر الروس ونكث الـعهد وزحف بجيش عظيم يريد إما التخلص من الجزية المفـروضة على مملكته لبكوات القريم وإما الحرب والقتال فكبر هذا الأمر على الصدر الأعظم ورسم لجيوش التتار بقتال الروس فقاتلوهم قـتالا عنيفا وهزموهم شـر هزيمة وغنموا ما كـان معهم من المدافع وآلات الحرب والخيام والدواب وكانت شيئا كثيرا وعادت التتار ظافرة وتفرغ الصدر الأعظم حينئذ لقـتال الأحزاب وشدد فى ذلك فهزمت العـساكر السلطانية عساكـر جمهورية النبدقـية وانتصرت عليـها نصرا عظيمـا وركب هو بعسكره أيضا على دولة النمـسا فافـتتح قلعة نيس وجـميع القلاع والبـقاع المتصلة إلى قـلعة بلغراد وقلعـة سمندرة واسترجـعت أيضا السفن العثمـانية قلعة ودين وسير طائـفة من العسكر إلى أطراف أردل ففتحوها وانتصروا على من كان بها من الأعداء.

(مطلب)

ولاية حسن باشا السلحدار

ولم تكن هذه الحروب المتتابعة لتشغل رجال السلطنة عن التولية والعزل فى ولاة

مصر فـإنه بعد أن لبث عثمـان باشا يتصرف جاءه الأمـر بالعزل فى أوائل سنة تسع وتسعين وألف هـجرية وتولية حسن باشا الـسلحدار فكانت مدة تصرفـه نحو ثمان سنين وبضعة أشهر، ووصل حسن باشا إلـى الإسكندرية فخرج للقائه الأمراء وكبار الجند والعلماء والوجـهاء فدخل القاهرة فى مـوكب حافل للغاية وصعـد إلى قلعة الجبل وأخذ يتصرف فى الأمور فلمـا كانت سنة ألف ومائة هجرية وقع الغلاء بمصر وامتنع الوارد من الغلال إلى القـاهرة فبيع الأردب القمح بمائة وعشرين نصـفا فضة والأردب الشعير بثمـانين والفول بخمسة وتسعين نصفـا. قال بعض الكتاب: وأجرة طحـين ويبة القـمح أربعة أنصـاف فضـة فضج الفـقراء وطافـوا بالأزقـة والحارات يتساءلون وصـاروا يتخطفون ما يجـدونه من الخبز فى الأفران وفى الدكـاكين واهتم حسن باشا بأمر الـغلاء ففتح الأشوان السلطانية وأطعم حـتى زال الغلاء وكثر الوارد من الغلال واطمأنت قلوب الناس.

(مطلب)

ولاية أحمد باشا جانبلا

وبث حسن باشـا يتصـرف إلى ربيع الثانى سنة إحدى ومـائة وألف هجرية فـجاءه الأمر بالعزل وتولية أحمد باشا فنزل من قـلعة الجبل، ودخل أحمد باشا القاهرة فى آخر ربيع الثـانى المذكور فكانت مدة تصـرف حسن باشا ثلاث سنين غيـر كوامل وتصرف أحـمد باشا تصـرفا حسنا إلا أنه لم تطل مـدته وكان السلطان سليمـان قد رحل عن القسطنطينيـة إلى أدرنه وأقام بها يستطلـع أخبار الحرب ويستنشـق نسمات النصر بعد ذلك الخذلان المتتابع فبينما هو على هذا الحال جاءته الأخبار بظفر جنوده وقـهرهم للأعـداء ففـرح بذلك فرحـا لا يوصف وسـار من أدرنه إلى دار السلطنة فضربت لقدومه البشائر وعاد بعـد أيام أيضا الصدر الأعظم بجميع عساكره وارايات النصر تخفق على رؤوسـهم كان ذلك فى وقت الشتاء فتفـرغ من الحرب إلى إمضاء الأحكام وتنظيم أمـور الدولة وإعادة مـا خـسرته من العـز والجاه وبقى كـذلك إلى دخول الربيع فخـرج بجيوشه يريد بلغراد للغزو والجـهاد وخرج السلطان إلى أدرنه تشجيـعا للمقاتلين فلم يلبث بها إلا أيامـا حتى مرض واشتد به مرضـه فمات فى العشرين من رمضان سنة اثنتين ومائة وألف فكانت سلطنته ثلاث سنين وتسعة أشهر وتولى الملك بعده أخوه السلطان أحمد خان الثانى ابن إبراهيم خان.

◻◻◻

(الفصل الرابع عشر)

(فى سلطنة السلطان أحمد الثانى ابن إبراهيم)

ثم قام بالأمر بعد السلطان سليمان أخوه السلطان أحمد الثانى ابن السلطان إبراهيم بويع له بالملك يوم موت أخيه سنة اثنتين ومائة وألف هجرية أى نحو سنة إحدى وتسعين وستمائة وألف ميلادية فلما استقرت به السلطنة أخذ يتصرف فى الأمور ولم تكن الحرب القائمة بين جيوش مصطفى كوبريلى صدر الدولة وبين جيوش النمسا قد انقضت إلى ذلك الوقت فاهتم السلطان أحمد بأمرها وسير مصطفى باشا المشار إليه إلى بلاد النمسا لإخضاعها واسترداد ما بقى تحت يدها من المدن والبلدان فسار مصطفى باشا ومازال يحارب حتى مات فى ساحة الحرب وانهزم جيشه شر هزيمة ومات منه زهاء العشرين ألفا وتشرد من بقى منه فاضطرب السلطان من ذلك وصمم على الأخذ بالثأر فجعل يعد المعدات ويجيش الجيوش ويراقب الفرص ويتبين انتفاعها فبينما هو على هذا الحال إذ قام الحريق بالقسطنطينية واشتد بها شدّة بالغة جدا فاحترق نحو ربع المدينة ومات كثير من الشيوخ والأطفال وعم الخطب فتعوق تسيير الحملة على بلاد النمسا ولم تخرج إلا فى سنة خمس ومائة وألف وكانت جيوش النمسا فى هذا الحين تشدد الحصار على مدينة بلغراد فلما جاء الخبر بمقدم العساكر العثمانية خاف قائد جيوش النمسا وفك الحصار عن بلغراد ورجع عنها فنزلت العساكر العثمانية حول بلغراد ولبثت هناك من غير قتال ولم يقع الاتفاق بين قائد الجيوش العثمانية وقائد جيوش الفرنجة على شىء من أسباب الصلح أو المهادنة ولم تزل الحال كذلك إلى أن مات السلطان أحمد سنة ست ومائة وألف هجرية فكانت سلطنته ثلاث سنين وبضعة أشهر وقيل أربع سنين ومات فى أيامه أحمد باشا والى مصر فدفن بالقرافة.

(مطلب)

ولاية علي باشا قلج

وجاء فرمان السلطان بتولية على باشا قلج بدله فدخل القاهرة فى ربيع الثانى سنة اثنتين ومائة وألف هجرية فكانت مدة تصرف أحمد باشا سنة وبضعة أشهر

وتصرف على باشا قلج فكان غير موفق فى جميع أعماله ميالا للإيذاء غير قنوع وقصر فى أيامه النيل عن زيادته المعتادة فرسم للشيخ يوسف السادات بأن يبيت فى قاعة المقياس ويتلو حزبه فى كل ليلة حتى يحصل الوفاء وأقام بطرك المتأصلين كذلك الصلاة ودعاء الله سبحانه وتعالى، قيل فزاد النيل ووفى فى السابع والعشرين من مسرى القبطى وعم الأراضى ثم انحدر عنها فأخصبت وأنتجت غلاتها ولبث يتصرف حتى تولى السلطنة السلطان مصطفى الثانى ابن السلطان محمد الرابع وكان من أمره ما سيذكر فى محله .

(الفصل الخامس عشر)

(فى سلطنة السلطان مصطفى الثانى

ابن السلطان محمد الرابع)

ثم قام بالأمر بعد السلطان أحمد ابن أخيه السلطان مصطفى الثاني ابن السلطان محمد الرابع وبويع بالملك سنة ست ومائة وألف هجرية أى سنة خمس وتسعين وستمائة وألف ميلادية وكان متأدبا حسن السيرة محبا للعلوم والمعارف رزينا كريم الأخلاق فلما استقرت به السلطنة جيش على جزيرة ساقس ففتحها ثم سار إلى قتال النمسا إذ الحرب لم تكن خمدت نارها بين الفريقين فلما التقى الجمعان واقتتلا انهزمت جيوش السلطان شر هزيمة فقفل راجعا بمن بقى معه ثم سار بجيش آخر لقتال الروس فلاقته جيوشهم وقاتلته قتالاً عنيفاً فانتصرت عليه نصرة عظيمة وأخذت منه مدينة أزوف ولما رأى السلطان من توالى نصرة أعدائه وموت عساكره سلم خاتم الصدارة إلى حسين باشا عموجه زاده من عائلة كوبريلى ففرح الناس بذلك وعدوا هذا الفعل من تدابير السلطان الحسنة وكانوا يودون لو أن الصلح يقع مع الدول المحاربة على يد حسين باشا الصدر المذكور فتحقن الدماء وتزول ويلات الحروب وكان الصدر الأعظم يرى وجوب التمسك بقول القائل: إذا أردت الصلح والصلاح كن مستعدا للحرب والكفاح. فسار من فوره بالعسكر السلطانى إلى نواحى بلغراد يريد القتال فتداخلت عند ذلك دولتا الإنجليز والفلمنك

فى تقرير قاعدة للصلح فأذعن الصدر بذلك خوفا من ملل الجنود من توالى الحروب عليهم فى أربع جهات مختلفة ونفاد الأموال فضلا عما طرأ على البلاد من الخراب فتم أمر الصلح مع الأحزاب ولكن لم يرق هذا العمل الخطير فى عين فيض الله افندى شيخ الإسلام وحسد الصدر الأعظم على هذا الفوز فدس فى حقه إلى السلطان وأكثر من النميمة والوشاية به وأثار عليه الخواطر ورماه بالمروق ووسمه بالخيانة فلم يطق الصدر هذا الحال واعتزل المنصب وكتب إلى السلطان بذلك فجاءه جواب السلطان بالقبول. قال أصحاب التاريخ: وقد ختمت بهذا الوزير سياسة محمد باشا الكويريلى ولم تلبث الأحوال أن تغيرت وظهر الأغرار وقبضوا على زمام الأحكام وكان للسلطان ميل تام إلى فيض الله افندى شيخ الإسلام لأنه شيخه ومربيه فأركن إليه واعتمد فى كل الأمور عليه فتاقت نفس فيض الله إلى الانفراد بالأمر ففعل ما لم يفعله أحد قبله من سلفائه وأمضى ما لا يليق بشأن العلماء فولى أولاده ومن ينسب إليه المناصب العالية وإرقاهم المراتب السامية وقبض على أزمة جميع الأمور فنهى وأمر وفاز واشتهر وغلب وقهر وحصر المنافع فيه وفى أولاده وأتباعه وأقبلت عليه الدنيا بحذافيرها فلم تبق كلمة فوق كلمته ولايد فوق يده، وتولى السلطان مصطفى والوالى على مصر على باشا قلج فأتى إليه فرمان الرضا فلبث يدبر الأمر وكان على باشا هذا سيئ الطالع قليل الرأى عديم التدبير متحجبا عن الناس إلا عن بعض خواصه وكانت أيامه كلها شدائد وقع فيها غلاء شديد جدا فقل ورود الغلال يوما عن يوم حتى انقطع وعزت الأقوات وضاقت أمور الفقراء واشتد بهم الجوع شدّة بالغة فأكلوا الجيف وجذور الأشجار ثم اجتمع منهم السواد الأعظم رجالا ونساء وصبيانا وصعد إلى قلعة الجبل وذلك فى منتصف المحرم من سنة سبع ووقفوا بحوش الديوان وصاحوا من الجوع واستغاثوا ونادوا على الباشا فلم يجبهم أحد فرجموا بالأحجار وأكثروا من العربدة فركب الوالى وطردهم فنزلوا إلى الرميلة ونهبوا ما بها من حواصل الغلال وكذلك وكالة القمح وحواصل كتخدا الباشا وكانت ملأى بالشعير والفول وأصناف الحبوب الأخرى فلم يقدر أحد على ردهم واشتد الغلاء حتى بيع الأردب القمح بستمائة نصف فضة والشعير بثلثمائة والفول بأربعمائة وخمسين والأرز بثمانمائة نصف فضة أما العدس فكان لاوجود له بالكلية وحصلت شدة عظيمة بمصر والأقاليم كافة وجاء أهالى القرى والأرياف إلى القاهرة ومصر القديمة فامتلأت منهم الأزقة والحارات واشتد الكرب وعم الخطب

ومات الكثير من الناس جوعا وخلت أكثر القرى من أهلها وخطف الأهالى الخبز من الأسواق ومن الأفران والذى على رؤوس الخبازين مع ندرته فكان يذهب الرجلان والثلاثة مع طبق الخبز يحرسونه من الخطف وبأيديهم العصى حتى يخبزوه ويعودوا به واستمر الأمر على ذلك إلى أن عزل على باشا المذكور فى ثامن عشرى من المحرم افتتاح سنة سبع ومائة وألف هجرية.

(مطلب)

ولاية مسلم باشا إسماعيل

وخلفه فى الولاية مسلم باشا إسماعيل وهو من ولاة الشام فلما جاء الخبر بعزله فرح الناس فرحا لا يوصف واستبشروا بالفرج بعد الضيق وقام إبراهيم بك أبو شنب فى نيابة الغيبة حتى يقدم مسلم باشا إسماعيل المذكور إلى مصر، ونزل على باشا المخلوع إلى بيت أحمد كتخدا العزب المطل على بركة الفيل واستقر به فكانت مدّة تصرفه أربع سنين وثلاثة أشهر وأياما وحضر إسماعيل باشا الوالى الجديد من البر وصعد إلى قلعة الجبل بالموكب فى يوم الخميس السابع والعشرين لصفر من السنة فلما استقر به المنصب ورأى ما فيه الناس من الجوع والكرب والموات رسم بتوزيعهم على بيوت الأمراء والأعيان كل إنسان على قدر حاله وقدرته وأخذ لنفسه جانبا ولأعيان دولته جانبا وعين لهم ما يكفيهم من خبز وطعام فى الصباح والمساء إلى أن انقضى الغلاء ثم أعقب ذلك وباء عظيم للغاية فرسم الباشا لأصحاب بيت المال بأن يكفنوا جميع الفقراء والغرباء كافة فكانوا يحملون الموتى من الطرقات عشرات عشرات ويذهبون بهم إلى مغسل السلطان عند سبيل المؤمن ومازالوا على هذا الحال إلى أن انقضى الوباء أيضا فكان عدد الموتى لا يكاد يحصر وكان انقضاء الوباء فى آخر شوّال من السنة فعمل الباشا أفراحا وختن ولدا له اسمه إبراهيم وختن معه ألفين وثلثمائة وستة وثلاثين غلاما من أولاد الفقراء ورسم لكل غلام بكسوة كاملة ودينار، وكان من ملتزمى دار الضرب على عهد على باشا الوالى المنفصل يهودى اسمه ياسف وكان طاغية داهية وقد طلب إلى دار السلطنة وسئل عن أحوال مصر وما يتعلق بها فأملى على أمور والتزم بتحصيل أموال الخزينة زيادة عن القاعدة المقررة فى كل عام وحسن إحداث بعض إحداثات فأجازت له الدولة ذلك وأعطت له مرسوما فلما حضر مصر تلقته طائفة اليهود من بولاق وأصعدوه إلى الديوان فى

كبكبة فقرئت الأوامـر التى حضر بها ووافقه الباشا على إجرائهـا والعمل بها وأشهر النداء بذلك فى شوارع مصـر والقاهرة فاغتم الناس وتوجه التجـار وأعيان البلد إلى الأمراء وراجـعوهم فى ذلك فـركب الأمراء والصناجق وطلعـوا إلى القلعة وكـلموا الباشـا فلم يقبل منهم فغـضبوا وسـألوه أن يسلمهم اليهـودى فامتنع فـأغلظوا عليه وصمموا على أخـذه فأمرهم بوضعه فى العرقانة وأن لا يشـوشوا عليه حتى ينظروا فى أمره ففعلوا به ذلك فـقام الجند على الباشا وطلبوا أن يسلمهم اليـهودى ليقتلوه فامتنـع فمضوا إلى السـجن وأخرجوه وقتلوه عند بابه وجـروه من رجله وألقوه فى الرميلة فـقام العـامة وجمـعوا حطبا وأحـرقوه بمرأى من الناس كـافة وذلك فى يوم الجمعة بعد الصلاة ثم سكنت الفتنة ،كأنها لم تكن، ومن هذا الحين انحرف الجند على الوالى ونقموا عليه وصاروا ينكرون عليـه كل فعل ولو لم يستحق الإنكار حتى قـاموا عليـه فى الثانى والعـشرين من ربيـع الأول من السنة وعزلوه فكانت ولايتـه سنتين اثنتين.

(مطلب)

ولاية حسين باشا

وقام مصطفى بك بالأمر إلى أن حضر الوالى الجـديد واسمه حسين باشا واليا على صيدا من أعمال الشام فلما حـضر إلى القاهرة طلع إلى قلعة الجبل فى موكب حافل فى منتصف رجـب سنة تسع ومائة وألف فلما استقـرت به الولاية أخذ ينظر فى أمور البلاد ومصالح الخلق فكان يرى نفسه مغلوبا على أمره لا كلمة له بين الجند والأمراء والصناجق فعمل على تعزيز جانبه وإعـلاء كلمته فلم يتمكن لقصر أيامه، واتفق فى ولايته أن خـرج المغاربة من أهل تونس وفـاس المقيمـين بالقاهرة فى رابع عشـر شوال من السنة ليحمـلوا كسوة الكعبـة التى تحمل فى كل عام للبـيت الحرام وكـانت عادتهـم فى ذلك اليوم إنـهم يمرون بالكـسوة فى وسط القـاهرة مع غـاية الاحتفـاء والاحتفال ويـضربون كل من رأوه يشرب الدخان فى أثناء مـرورهم فرأوا رجلا من أتباع مـصطفى كتخدا القـازدغلى يدخن فكسروا أنبوبته وضـربوه وشجوا رأسه وكان فى مقدمتهم أناس منهم متسلحون فزاد التشاجر واشتد الأمر فقام عليهم أهل السوق وأوقـعوا الضرب فى بعـضهم بعضا وكـادت الفتنة تعم القاهرة ومـصر وخاف الناس العـاقبة وحضـر أودة باشا البوابة فقـبض على جماعة منهم وقـيدهم

بالحديد وصعد بهم إلى حيث الباشا فأمر بهم فحبسوا حتى سافر الحاج من مصر ومات منهم جماعة فى السجن ثم أفرج عنهم بعد ذلك.

(مطلب)

ولاية قره محمد باشا

وورد عقب هذا الحادث بقليل الخبر بعزل حسين وولاية قره محمد باشا فحضر مصر فى منتصف ربيع الآخر سنة إحدى عشرة ومائة وألف فكانت ولاية حسين بشا سنة وسبعة أشهر وأياما ولم يكن لقره محمد من حظ الولاية على البلاد إلا ما كان لسلفه فإنه كان مغلوبا على أمره وكانت الكلمة للأمراء والصناجق ولم يبق له إلا صغائر الأمور فوجه عنايته إليها وما هى إلا إزالة بعض السقائف والدكاكين لتوسعة الطرق والأسواق وقطع الأرض وتمهيدها ورسم بترميم جامع الأربعين الذى بجوار باب قره ميدان وأنشأ فى الميدان المذكور جامعا بخطبة وتكية لفقراء الخلوتية من الروم وأسكنهم بها وأنشأ تجاهها مطبخا ودار ضيافة للفقراء وفى علوها مكتبا للأطفال ورتب لهم ما يكفيهم وأنشأ فيما بينها وبين البستان المعروف ببستان الغورى حماما فسيحا مفروشا بالرخام الملون وجدد بستان الغورى وغرس فيه الأشجار ورمم قاعة الغورى التى بالبستان وعمر بجوار المنزل سكن أمير اخور وبنى مسطبة عظيمة برسم الباس القفاطين وتسليم المحمل لأمير الحاج وأرباب المناصب، **قلت** : وهى موجودة إلى يومنا هذا، وعمر مسطبة يرمى عليها بالنشاب وأنشأ الحمام العظيم بقره ميدان ونقل إليه من قلعة الجبل حوض رخام ضمن قطعة واحدة وعملوا به فسقية فى وسط المسلح وعمر بالقرافة مقام سيدى عيسى بن عبدالقادر الجيلانى وجعل به فقراء مجاورين ورتب لهم ما يكفيهم وأنشأ صهريجا بداخل القلعة بجوار نوبة الجاويشية ورتب فيها خمسة عشر نفرا يقرؤون القرآن كل يوم بعد الشمس.

أما فيض الله افندى شيخ إسلام دار السلطنة فإنه لما اتسعت كلمته وبسط يده على جميع الأمور وصار السلطان طوع يده أبغضه الناس وكثرت خصومه وناواه جميع أعيان الدولة وأركانها وظهرت الفتنة وعظمت واستفحل أمرها فقامت الجنود على السلطان فخلعوه وقبضوا على شيخ الإسلام وقطعوا عنقه بحد السيد وسجنوا السلطان مصطفى ووكلوا به طائفة منهم تحرسه وذلك سنة خمس عشرة ومائة وألف

هجرية فكانت مملكتـه تسع سنين وقيل ثمان سنين ومـازال مسجونا حـتى مات فى نحو سنة تسع عشرة وخلفه أخوه السلطان أحمد ابن السلطان محمد .

ومات فـى أيام السلطان مصطفى مـتاوس بطرك المتـأصلين بعد أن أقـام أربع عشرة سنة وكان اسمه جرجس من رهبـان دير البراموس ونقل فى أيامه دار البطركية من حارة زويلة إلى إلى حارة اروم بالقـاهرة وسكن بها وكان تقيا عالما فـأقيم بعده يوحنا وهو الثـالث بعـد المائة واسمـه إبراهيم من رهبـان دير انطونيوس وكـان من الحوادث فى أيامه ما سيذكر فى محله.

(الفصل السادس عشر)

(فى سلطنة السلطان أحمد ابن السلطان محمد)

ثم قام بالأمر بعـد السلطان مصطفى أخوه السلطان أحمد ابن السلطان مـحمد بويع بالملك بعد خلع أخـيه سنة خمس عـشرة ومائة وألف هجـرية أى سنة اثنتين وسبعمائة وألف ميلادية فلما استـقر به الملك اشتد على العسكر وضيق عليهم وكان شديد البطش عظيم البأس سفاكاً للدماء فهـابه العسكر وخافته الرعية فأصلح بعض الأمور التى فسدت على عهد السلف وأعاد للدولة بعض القوة والنظام وظهرت فى أيامه وقـعات الروس مع الأسوجـيين وزحف بطرس الأكبـر قيصـر الروس بعسكر عظيم للغاية على قلعة ازاق فى بلاد القـريم وحاصرها وضيق عليها حتى فـتحها وطمحت آمـاله إلى ضم بلاد اسوج إلى مملكته فـسار لقتـالها وكان ملكهـا كرلوس الثانى عشر جليل القـدر واسع المعرفة بأساليب السياسة وتدبيـر الممالك وكان يعرف عند أهل الإسلام باسم تيـمور باش وقد أنذر الدولة العثمـانية بالخطر الذى يلحق بها إذا تركت بطرس قيصر الروس وشأنه يغزو ويدوخ الممالك المجاورة له فلم تلتفت يومئذ لقـوله فلما نال بطرس الغلبة وكاد يأخذ ملك أسوج أسـيرا هرب ملك أسوج إلى دار السلطنة العثـمانية فنال بطرس من بلاد أسـوج وضم جانبا عظيمـا منها إلى مملكته من ناحية بحر البلطيق وتجاوزت العساكر الروسية بعض الحدود العثمانية فرسم السلطان إلى بلطجى محـمد باشا الصـدر الأعظم بالمسير لقتـال بطرس ورد غارات عسكره فسار فى جيش عظيم وعبر الطونة وقطع أياله بسارابيا وكانت عساكر الروس قد عـبرت قـبل ذلك نهر بروت فنزلوا على سـاحل الطونة فلم يلتفت إلـيهم وظل

سائراً بجيوشه حتى بلغ ممر فالجى وقصد عبور نهر بروت من هذا الممر فلما تحقق ذلك القيصر ظن الظنون البعيدة وسير فريقا من عساكره لمنعهم من العبور فلم يقدروا وتمكنت العساكر العثمانية من العبور وقاتلوا الروس فهزموهم وساقوا خلفهم حتى ألحقوهم بمعسكرهم بعد الزوال ولم يطلبوا الراحة من التعب بل فاجئوا العدو وهجموا عليه هجمة رجل واحد فانهزم وتقهقر فعارضه نهر بروت من جهة وسد عليه أيضاً خان القريم الطريق من الجهة الثانية فنظر القيصر وإذا به قد وقع بين متطح عنزين فسير رسله إلى الوزير فى طلب الأمان وتقرير قاعدة للصلح فأجابه الوزير إلى ذلك وتقررت بين الفريقين القاعدة وتم الصلح على ما سيذكر وكتب به أيضا عقد مؤقت وهو:

الباعث لتحرير هذا الكتاب الصحيح النصاب هو أنه بتوفيق الله الملك العلام انتهت حرب عساكرنا المنصورة مع قيصر الروس وعسكره فى طرف نهر بروت وبعد حصارهم والتضييق عليهم فبلطفه تعالى الكريم وفضله العميم طلب القيصر المرقوم إجراء المصالحة وعند ذلك عقدت وربطت قيود وشروط الصلح والصلاح على الوجه الآتى بيانه: وهو أن قلعة أزاق مع أراضيها وسائر ملحقاتها يجرى تسليمها كالأول للدولة العلية، والقلعة الجديدة الكائنة فى أعالى طغيان وقمانكة وصمصار المختصة بالقيصر تهدم بالكلية والمدافع والجبخانة الموجودة ضمن قمانكة يجرى تسليمها بتمامها للدولة العلية، وفيما يأتى من الزمن لا ينشأ فى المحل المذكور قلعة ولا تحصل مداخلة بعد الآن من طرف القيصر المرقوم مع اللهويين والتابعين لهم وهم راياش والبورتغال ولا إلى القزاق التابعين لحضرة صاحب السعادة دولتكراى خان القريم بل يرفع القيصر يده عن جميع تلك المواضع بحيث تعود كما كانت قبل الآن وبعد اليوم لا يحق للقيصر أن يقيم سفيرا فى استانبول من طرفه. وأما التجار الروسيون الذين يأتون برا للممالك المحروسة لأجل التجارة فإنهم مأذونون فى الإقامة بها. والأسرى من المسلمين الذين أسروا من قبل ومن بعد يلزم ويجب على القيصر أن يسلمهم للدولة العلية مهما كان عددهم. وملك أسوج حيث إنه التجأ ووقع تحت جناح عناية الدولة العلية فبعد الآن يتوجه إلى مملكته بالأمن والسلامة ولا يحصل له التعرض والممانعة من طرفهم قطعيا وإذا وجد بينهم عدم توفيق ورضا اتحاد فعليهم أن يجريا المصالحة. وأنا أرجو من كمال أفضال مولانا وسلطاننا صاحب الشوكة والعناية والعظمة ومن فيض مكارمه الملوكية غض النظر من طرف الدولة

العلية عن الحركـات الخارجية عن الأدب التى سبق وقوعهـا فى جانب رعايا الدولة وسائر المنسوبين إلى الممالك المحروسة وأن لا يصيـر عليهم فيما يأتى من الزمان تعد كمـا تقرر ذلك فى الشـروط والعهـود. وبحسب الوكـالة المطلقة حـرر هذا الصك وأعطى لطرف القيصر إلى أن يعقد العهـد والميثاق إن شاء الله تعالى فى دار السعادة بالوجه المشـروح وتعطى صورته له. وبعد أن يأخذ القـيصر صك العهـد فلا تكون حينئذ ممانعة ومداخلة فى أمر ذهاب عسـاكره إلى بلاده فى الطرقات المستقيمة لا من طرف العساكر المنصورة ولا من فرد من أفراد طوائف التـتار وجماعتهم. وأما أمين أسرار القـيصر قـدوة أعيان الملة المسـيحيـة قبارون قـانجلبر بترد شـافروف والجنرال ميخائيل أولدبورس حفيـد شرمت. ختمت عواقبهما بالخير حـيث إنهما كانا حضرا من طرف القـيصر لـلمعسكـر المنصور ليكونا رهنا فـمن بعد تسليم المـواد المذكورة وإعطاء صك العهد من طرف القيصر وإتمام خدمتهما يعطى لهما الأذن والرخصة من طرف الدولة العلية بذهابهمـا إلى بلادهما بلا تأخير ولبيـان ذلك حرر هذا فى اليوم السادس من جمادى الآخرة سنة ثلاث وعشرين ومائة وألف .

بيـــــور لدى صـــــحـــــراء التـــوقـيع خـــدش كـــجـــدى

قال بعض كتاب الأخبـار : وكان الوزير المحكى عنه صاحب حيل ودهاء دقيق الفكر فى أعماله وحركاته ولم ينل مسند الصدارة العظمى إلا بما أجراه من الدسائس الكثيرة والحيل الغريبة فلما علم السلطان أحمد بحقيقة حاله وأنه من الطغاة أعرض عنه ثم عـزله من منصب الصـدارة وبقى معـزولا حـتى قامت الحـرب بين الروس وأسوج وكان من أمرها ما تقدم بيانه فاقتضت المصلحة إعادته إلى مقام الصدارة ثانية فأحسن فيها العمل وفـاز بالظفر والغلبة على ذلك الرجل العظيم وهو بطرس الأكبر ولكن لم تطل أيامه حـيث وشى به خصومه ورمـوه بالخيانة وقالوا إنه إنما عـقد هذا الصلح بالرشـاوى والبراطيل وقـد كان فى وسـعه أن يقطع شـأفة جـميع الجـيوش الروسيـة بعد أن تحقق له أن بطرس الأكـبر لم يسلم بهذه الشـروط مع ما فيـها من الفضيحة والعار عليه وعلى بلاده إلا بعد أن أكلت جيوشه جميع دواب الحمل حتى جذور الاشـجار وبعد أن سـدت عليهم جمـيع المسالك ومازالو يحـسنون للسلطان الانتقام منه إلى أن أمر بعزله ونفيه قبل أن يصل إلى دار السلطنة بعد نصرته فى تلك الحرب الهائلة. قـال بعض الكتاب: وهو وإن كان بريئا من هذه التهمـة فقد ارتكب فى صدارته الأولى من المعاصى والذنوب ضد الكثير من خيار الناس ما لا يكاد يعد فظهر به الآن سر قولهم. إن الجزاء من جنس العمل.

(مطلب)

ولاية رامي محمد باشا

وكان الوالى على ديار مصر عند تولى السلطان أحمد للسلطنة قره محمد باشا فأقره فى منصبه وأتاه فرمان الرضا فلبث يتصرف بعد ذلك أشهرا ثم خلعه. وولى مكانه رامى محمد باشا وكان قد تولى مسند الصدارة على عهد السلطان مصطفى وعزل منها وتولى على جزيرة قبرس ثم حضر منها واليا على مصر فصعد إلى قلعة الجبل يوم الاثنين سادس شعبان سنة ست عشرة ومائة وألف هجرية وجعل يتصرف فى الأمر فكان مشئوم الطالع قليل الحظ توقف النيل عن الزيادة فى سنته فضج الناس وعجوا وابتهلوا إلى الله بالدعاء وطلب الاستسقاء واجتمعوا على المقطم وغيره فاستجاب الله لهم فى حادى عشر توت وزاد النيل فكان من النوادر الغريبة وقد أرخه بعضهم بهذين البيتين:

النيل فى مصر وافى | فى توت حادى وعاشر
والناس قد أرخوه | لله جبر الخواطر

فروى بعض البلاد وهبط سريعا فشرقت البلاد الأخر وحصل الغلاء وبلغ سعر الأردب القمح مائتين وأربعين نصف فضة والفول كذلك والعدس مائتى نصف فضة والشعير مائة نصف فضة والأرز أربعمائة نصف فضة وبيع اللحم الضأن كل رطل بثلاثة أنصاف فضة والجاموسى والبقرى بنصفى فضة والسمن القنطار بستمائة نصف فضة والزيت بثلثمائة وخمسين والدجاجة بثمانية أنصاف. قال الراوى: فكثر الشحاذون فى الأزقة وعزت الأقوات وعم الكرب واشتد الخطب على الفقراء وخشى الناس العاقبة بظهور الوباء فلم يقع شىء من ذلك.

(مطلب)

ولاية علي باشا

وجاء الخبر بعزل رامى محمد باشا فى رجب سنة ثمان عشرة ومائة وألف هجرية وشاع القول بولاية على باشا فنزل محمد باشا من قلعة الجبل فى موكب عظيم وسكن فى بيت أحمد كتخدا العزب المطل على بركة الفيل بالقرب من حمام

السكران حتى قدم على باشا الوالى الجديد من طريق البحر وذهب الناس لملاقاته فأرسى بساحل بولاق يوم الاثنين تاسع شعبان من السنة وهو فى نحو ألف ومائة رجل خلاف الأتباع فلبث ببولاق إلى ثانى عشرى رمضان وركب فى موكبه وصعد إلى قلعة الجبل فأطلقوا المدافع لقدومه وزينت القاهرة ومصر ثلاثة أيام ولم يكد يستقر به المنصب حتى قامت الفتنة على ساق بين وجاق العزب والمتفرقة . وتحرير الخبر أن شخصا من وجاق العزب اسمه محمد افندى من صغار الكتاب كان بعد عزله من منصبه تولى خليفة أى ثانى كاتب فى ديوان المقابلة وحصل له تهمة عزل بسببها من هذا الديوان أيضا فجعل يسعى ويجد حتى نال وظيفة سردار على طائفة العزب النازلين بالإسكندرية ثم كتخدا القبطان واتفق بعد ذلك أن سافر فى إحدى المراكب فشاع الخبر بموته غرقا فحلوا اسمه وماله من المعلقات فى بابه ولكنه لم يلبث أن عاد إلى مصر وصعد إلى الديوان وصحح اسمه الذى فى سجلات العزب وجراياته ومتعلقاته وبقى له بعض تعلقات لم يقدر على خلاصها ولم يساعده أهل بابه على ذلك وأهملوا أمره فأعظم هذا الأمر وأكبره وذهب من فوره إلى تلك المتفرقة وطلب الانضمام إليهم وسألهم أن يخرجوه من العزب فأجابوه إلى ذلك فجعل يركب معهم كل يوم للديوان ويمر على باب العزب. وبينما هو ذات يوم سائر إلى الديوان إذ وقف له جماعة من العزب وقبضوا عليه وأنزلوه وحبسوه فى بابهم فبلغ الخبر جماعة المتفرقة وهم فى الديوان فحضر أمين بيت المال إلى باب العزب وكان يومئذ نائبا عن باشجاويش لتمرضه فعاتبه جماعة المتفرقة على ما فعله جماعة العزب فأغلظ عليهم في الكلام وخاطبهم بفحش القول فقبضوا عليه من أطواقه وأرادوا ضربه فحال بينهم وبين بعض المصلحين وخلصوه من أيديهم فنزل إلى باب العزب وأخبرهم بما فعله المتفرقة فاجتمعت طائفة العزب ووقفوا على بابهم فمر بهم اثنان من جماعة المتفرقة ذاهبين إلى منازلهما فهجم عليهما جماعة العزب وضربوهما ضربا مبرحا وأنزلوهما عن الخيل وشجوا رؤوسهما ونهبوا ما على الخيل من العدد وأخذوا ما عليهما من الملبوس فلما جاء الخبر للمتفرقة اجتمعوا مع بقية الوجاقات وجلسوا على باب الانكشارية ورفعوا أمرهم إلى الأغوات والصناجق وأهل الحل والعقد وبقوا على هذا الحال ثلاثة أيام إلى أن وقع الاتفاق على إبعاد أربعة أشخاص عن الديار المصرية وهم سبب إشعال نار هذه الفتنة فوافق الجميع

على هذا الرأى وصمموا عليه وبعثوا بهم إلى الصعيد الأعلى وانحسمت هذه الفتنة وكفى الله الناس شرها.

وأعقب هذه الفتنة ورود مرسوم السلطان بعزل على باشا الوالى فعزل فى أوائل رجب من السنة ثم حبس فى قصر يوسف بك وبيعت جميع موجوداته لوفاء ما عليه لبعض تجار القسطنطينية ثم أفرج عنه. ووردت الأخبار بولاية حسين باشا فقدم إلى الأسكندرية وجاء منها إلى القاهرة فى ثالث عشرى شعبان سنة تسع عشرة ومائة وألف هجرية فكانت ولاية على باشا سنة واحدة وأياما وكانت قبل قدوم حسين باشا المذكور بأيام قد وقعت فتنة أخرى بباب الانكشارية لها وكادت تشتعل نارها ويعلو لهيبها فتسارع الأغوات وأصحاب الحل إلى تسكينها خوفا من قدوم الوالى الجديد فيرى ما هى عليه البلاد من الخلل وعدم طاعة العسكر وعزلوا أحمد أوده باشا المشهور بأفرنج أحمد وحسين أوده باشا وأبعدوهما إلى الطينة بدمياط فسكنت الفتنة وخمدت نارها فلبثا بالطينة أياما ثم هربا وعادا إلى القاهرة واختفيا عند أغوات الشراكسة والتجأ أحدهما حسين إلى باب النفكشية فلما علم الانكشارية بقدومهما فارين اجتمعوا ببابهم وطلبوا رجوع فرنج أحمد إلى منفاه فلم تقبل طائفة الشراكسة وامتنعوا من تسليمه وقالوا لابد من نقله من وجاقكم وساعدهم على ذلك بقية الوجاقات فصمم الانكشارية على طلبهم ووقفوا ببابهم يومين وليلتين وكذلك فعل كل بلك ببابه فعم الخوف الناس وانقطعوا عن الخروج من بيوتهم وأغلق أصحاب الحوانيت حوانيتهم وكاد ينقطع الوارد من المأكول والمشروب إلى القاهرة ومصر خوفا من عبث العساكر فاجتمع العلماء والمشايخ والتقوا بالصناجق والأعيان وخاطبوهم فى أمر العسكر وفيما كان عليه الناس من الخوف وما يتهدد راحتهم من هذه الفتن المتراكمة وسألوهم فى حسم الفتنة منعا من تفاقم الخطب وانتشار العامة والحرافيش فى الأسواق للعربدة والنهب ثم كلموا الباشا فى ذلك أيضا وألحوا فى الطلب فوقع الاتفاق على أن يولوا فرنج أحمد المذكور رئاسة طبلخاناة وأرسلوا له القفاطين مع كتخدا الباشا وأصحاب الدرك وأحضروه إلى مجلس الأغا وقرءوا عليه مرسوم الصنجقية وأنه إن خالف ولم يطع عوقب بغير معاودة فأطاع وقبل وخرج بموكب عظيم إلى بيته ونزل له الصنجق السلطانى والطبلخاناة فانحسمت الفتنة وسكن الاضطراب واطمأنت قلوب الخلق.

وكان الوالى يرى أنه غير مسموع الكلمة مقهور على جميع أعماله وأقواله ولا قدرة له على دفع هذا الخلل الضارب على البلاد فكان كثير التوجع والشكوى قلقا مضطربا لا يستقر له قرار حتى مال إلى وجاق الانكشارية واستمال كباره إليه واستخلصهم لنفسه ليقوى بهم على قمع الفتن ومنع الدسائس. فبينما هو يدبر هذا الأمر إذ وقعت الفتنة بين طوائف العسكر وكان من خبرها أن مملوكا لرجل من آحاد الناس وقف على دكان قصاب بباب زويلة يشترى منه لحما فوقع بينه وبين حمار عثمان أوده باشى نزاع أدى إلى المشاتمة ثم إلى الملاكمة فوصل الخبر إلى عثمان أوده باشى المذكور فأرسل أعوانه وأتباعه فقبضوا على ذلك المملوك وأحضروه إليه فأمر بحبسه فى سجن الشرطة فلما بلغ سيده خبر حبسه حضر هو وأولاده وأتباعه إلى باب صاحب الشرطة لخلاص المملوك فتطاول بعضهم على بعض بفحش القول ووقعت بينه وبين صاحب الشرطة مشاجرة فقبض عثمان أوده باشى على سيد ذلك المملوك ووضعه فى السجن وأعلم باش أوده باشى وكتخدا مستحفظان بما فعله فلم يرضيا بما وقع وأمراه بإطلاق المملوك وسيده على الفور فرجع وأخرجهما من السجن فاجتمع فى ثانى يوم الحادثة طائفة الجاويشية مع طائفة المتفرقة والاسباهية والأمراء والصناجق والأغوات فى الديوان وطلبوا إبعاد عثمان أوده باشى المذكور جزاء ما فعله من حبس ذلك المملوك وسيده فلم يوافق الانكشارية على ذلك ومانعوا فى إبعاده فوقع بينهم جدال طويل ثم صعدوا جميعا إلى الديوان وطلبوا عثمان المذكور للدعوى فحضر وأقيمت الدعوى بحضرة الباشا والقاضى فأمر القاضى بحبس عثمان كما حبس محمد جاويش سيد ذلك المملوك فلم يرض الأخصام بذلك وقالوا لابد من عزله وإبعاده فلم يوافقهم الانكشارية فطلب العسكر من الباشا أن يرسم بنفيه فأبى عليهم ذلك فنزلوا مغضبين واجتمعوا بمنزل كتخدا الجاويشية وأنزلوا مطبخهم من نوبة خاناه إلى منزل كتخدا صالح أغا وأقاموا به ثلاثة أيام وامتنعوا من الذهاب إلى الديوان ثم اجتمع أهل البلكات وتحالفوا على أن يكونوا على قلب رجل واحد وصمموا على نفى عثمان أوده باشى المذكور ثم اجتمعوا على الصناجق واتفقوا على أن يكونوا معهم على طائفة الانكشارية وأرسل الأسباهية الرسائل إلى أصحابهم المحافظين على الكشاف بالولايات يلزمونهم بالحضور فلما شاع الخبر بذلك رسم الباشا بعزل عثمان أوده باشى المذكور إخماد النار الفتنة فلم يغن عزله شيئا ووردت الأخبار إلى وجاق الانكشارية بأن العسكر على أهبة القتال وأنهم قد

تجهزوا لذلك فبعثوا هم كذلك يطلبون أصحابهم من الجهات فاجتمعوا على الأثر ومروا بالأسواق فانزعج أهلها وأغلقوا الحوانيت كافة واستمر أهل الوجاقات الستة يجتمعون ويتشاورون فى الأمر وكذلك الانكشارية كانوا يجتمعون بالباشا ويتشاورون معه فيما يفعلونه مع العسكر وفى كيفية قتالهم وبالغ كل من الفريقين فى التأهب والاستعداد. وقدم فى هذه الأثناء محمد بك حاكم الأقاليم القبلية فى جند كثير وأتباع وعدة وطلع إلى ديوان مصر على عادة حكام الصعيد المخلوعين ثم لبس الخلع السلطانية ونزل إلى بيته بالصليبة فظن الناس أنه إنما أتى بعسكره لقتال العسكر أو وجاق الانكشارية فخافوا وانكمشوا حتى كادت الأسواق كلها تتعطل وطال الحال بين أخذ ورد أياما فكانت الانكشارية لا تنفك عن مراقبة الحوادث والأخذ بصغائر الأمور وقد شاع أن بعض الأمراء يسعى للحصول على منصب إمارة الحاج بدلا من قيطاس بك المعتاد تقريره فى كل عام لهذا المنصب فلما علم الانكشارية بذلك اجتمعوا بسلاحهم ووقفوا خارج الباب الكبير على طريق الديوان كى لا يمكنوا أحداً من تولى إمارة الحاج خلاف قيطاس بك وعلم الصناجق والأمراء بذلك فخافوا شر العاقبة وأجمعوا رأيهم مع أهل الوجاقات الستة على نفى ستة أشخاص من الانكشارية وهم الذين بيدهم الحل والعقد وإخراجهم من مصر إلى بلد التزامهم تسكيناً للفتنة وعلم الانكشارية بما دبره هؤلاء فاجتمعوا فى بابهم أيضاً فى عدَدهم وعددهم فلم يهم الأمراء والصناجق أمر اجتماعهم وقالوا لابد من نفيهم أو محاربتهم واجتمعوا هم كذلك فى أبوابهم واستعد الانكشارية فى بابهم وشحنوه بالأسلحة والذخيرة والمدافع وأغلق أصحاب الحوانيت حوانيتهم وخلت الطرق من المارة ونقل جماعة الجاويشية مطبخهم من قلعة الجبل من النوبة إلى دار كتخدا الجاويشية وأقام الانكشارية منهم طوائف يحافظون على أبواب القلعة وباب الميدان والصحراء الذى بالمطبخ الموصل إلى القرافة خوفاً من أن العسكر يستميلون الباشا وينزلون إلى الميدان واجتمع الصناجق بعد ذلك وكبار العسكر واستقر الرأى بينهم على أن ينتدبوا محمد بك الذى كان بالإقليم القبلى لحصار القلعة من جهة القرافة على المقطم بالمدافع والعسكر فقبل ذلك وأسرع فى عمل الحصار فأتمه على أحسن ما يرام وخاف العسكر من وقوع النهب والفتنة بالمدينة إذا انتشب القتال بينهم وبين الانكشارية فألزموا مصطفى أغا الشراكسة بالتطواف فى الأسواق وفى شوارع البلد وحاراتها وأقاموا أحمد بك المعروف بإفرنج أحمد أغات التفكشية لحصار طائفة

الانكشارية من بابهم الموصل إلى المحجر وباب الوزير ومنعوا من يصل إليهم بالمدد.

أما الانكشارية الذين كانوا بالقاهرة فإنهم اجتمعوا بباب الشرطة واتفقوا على أن يدهموا العسكر المحافظين بالباب ويدخلوا إلى باب الانكشارية فلما بلغ الصناجق والعسكر ذلك انتدبوا إبراهيم الوالى ومصطفى أغات الجبجية فى طائفة من الأسباهية فنزلوا إلى باب زويلة وعلم الانكشارية الذين اجتمعوا فى باب الشرطة بنزولهم فتفرقوا واختفوا فجلس مصطفى أغا محل جلوس أوده باش وإبراهيم بك فى محل جلوس العسس وانتشرت طوائفهم فى نواحى باب زويلة وباب الخرق واستمروا على هذا الحال ليلة الأحد وأصبحوا وقد خرج نقيب الأشراف والعلماء وقاضى القضاة وأرباب الأشائر واجتمعوا بالشيخونية فى الصليبة وتكلموا فى الأمر طويلاً ثم كتبوا فتوى بأنه إن لم يذعن الانكشارية إلى نفى المطلوبين وإلا جاز محاربتهم بغير معاودة. وأرسلوا الفتوى صحبة جوخدار قاضى القضاة إلى باب الانكشارية فلما قرئت عليهم فترت عزائمهم وانفشلوا وأذعنوا إلى إبعاد المطلوبين بشرط ضمانهم من القتل فضمنهم الأمراء والصناجق وكتبوا بذلك حجة وسلموها لهم ثم أنزلوهم إلى أمير اللواء إيواز بك ورضوان أغا فسارا بهم فى الحال إلى بولاق ومن هناك سيروهم إلى الريف فلبثوا حيناً ثم عادوا ففرقوهم على الوجاقات بعد رضا الأمراء والصناجق.

ولم تكن الفتنة قد سكنت تماماً حتى جاء الخبر بعزل حسين باشا الوالى وتولية إبراهيم باشا القبودان وأن يكون حسين باشا المعزول نائباً عن إبراهيم باشا حتى يحضر فحضر فى منتصف الحجة سنة اثنتين وعشرين ومائة وألف هجرية وصعد إلى قلعة الجبل فى الموكب المعتاد ونزل حسين باشا من القلعة إلى بيت الأمير يوسف أغا دار السعادة بسويقة عصفور وأمامه الصناجق والأغاوات وكثير من أرباب المناصب فكانت مدة تصرفه ثلاث سنين وأربعة أشهر وثلاثة عشر يوماً. ولم يستقر المنصب بإبراهيم باشا الوالى المذكور حتى أتاه الأمر بخلعه وتولية آخر اسمه خليل باشا وذلك فى الخامس عشر من رجب سنة اثنتين وعشرين فنزل ابراهيم باشا من القلعة إلى بيت عباس أغا ببركة الفيل وأقام به أياماً فكانت مدة تصرفه ثمانية أشهر لم يعمل فيها عملاً يذكر. ووصل خليل باشا وكان بصيدا والياً فأقام بالبر يوم الثلاثاء خامس شعبان سنة (١١٢٢) اثنين وعشرين ومائة وألف وصعد إلى القلعة فى

الموكب المعتاد فلم يمض على جلوسه إلا شهران حتى قامت الفتنة ثالثة بين أصحاب الوجاقات واستفحل أمرها وعم ضررها. وتحرير الخبر أنه فى صفر من السنة أى سنة ثلاث وعشرين اجتمع من يدعى حسن جاويش القازدغلى وآخر اسمه الأمير سليمان جريجى وآخر اسمه إبراهيم جوربجى وعقدوا النية على ترك خدمة باب مستحفظان والانتقال إلى خدمة أخرى فذهب إليهم اختيارية بابهم واستعطفوهم وسألوهم الرجوع عن هذا العزم فلم يقبلوا وصمموا على الخروج ثم طلب آخر اسمه موسى جوربجى الخروج كذلك فلم يرض رؤساؤه بذلك فذهب موسى إلى إبراهيم بك وإيواز بك وقيطاس بك فسألهم الوساطة فى أمره فلم يقبل رضوان أغا رئيسه إجابة طلبهم ومانع فى ذلك وشدد فى المنع فلما رأوا منه الشدة وعدم الرضوخ لطلبهم من إخلاء سبيل موسى المذكور اتفقوا على إغراء الوالى على عزل رضوان أغا وتولية على أغات الانكشارية سابقاً بدله وأن يعزل أيضاً سليمان كتخدا الجاويشية ويولى بدله إسماعيل أغا تابع إبراهيم بك فكلموا الباشا فى ذلك وألحوا عليه فى عزلهم فامتنع وقد كان اختيارية وجاق الجملية توافقوا مع الأمراء والصناجق على عزل رضوان أغا المذكور واجتمعوا ببيت باشجاويش واجتمع أهل كل وجاق ببابهم واستمروا على ذلك أياماً والوالى لا يجيبهم إلى ما يطلبون خوفاً من قيام العسكر عليه. أما الانكشارية الذين انتقلوا إلى العزب فإنهم اجتمعوا بباب العزب وقطعوا الطريق الموصلة إلى القلعة ومنعوا من يريد الصعود إلى باب الانكشارية من العسكر والأتباع فلم يبق فى الطريق الموصلة إلى القلعة إلا باب المطبخ ثم قصدوا سد السواقى لمنع الماء عن القلعة فمنعهم العسكر من الوصول إليها فكسروا آلات السواقى التى بعرب اليسار وخربوها وسار نفر من الانكشارية من طريق المحجر يريدون الصعود إلى قلعة الجبل فقبضوا عليهم وضربوهم وشجوا بعضهم فمضى أحدهم من طريق الجبل ودخل من باب المطبخ واجتمع بافرنج أحمد وبقية الانكشارية وأخبره بحالهم وما جرى لهم فأخذه جماعة منهم ورفعوا أمره إلى الوالى وقاضى القضاة وبالغوا فى الشكوى وعظموا البلوى فقال القاضى قد جاز قتال هؤلاء القوم حيث منعونا الماء وخرجوا عن طاعتنا وأخافوا الناس وسلبوهم فحقت محاربتهم. فلما فاض الخبر بذلك تقدم أحمد أوده باشا إلى الوالى فى محاربة أصحاب باب العزب فأذن له بذلك وتعوق القاضى عن النزول ولبث مع الوالى وخرج أحمد أوده باشا وشرع فى القتال وراسل الرمى بالمدافع على أصحاب باب العزب من بعد الزوال إلى

ما بعد العشاء واشتد عليهم شدة بالغة فقتل من جماعة العزب كثيرين وعم الخوف أهالى مصر والقاهرة وباتوا ليلتهم تلك وهم فى خوف ما عليه من مزيد وأصبحوا وقد اجتمع الأمير إيواز بيك أمير الحاج والأمير إبراهيم بيك أبو شنب وقانصوه بك ومحمود بك ومحمد بك تابع قيطاس بك الدفتردار وتحادثوا فيما أصاب أصحاب باب العزب واتفقوا على أن يلبسوا آلة سلاحهم ويذهبوا إلى الرميلة مددا للعزب على الانكشارية وهموا بذلك فأخبروا أن أيوب بك قد وضع المدافع على طريق المارين على منزله وعلى قلعة الكبش فامتنعوا من الركوب وجلسوا فى بيوتهم بسلاحهم خوفاً من طارق واستمر إفرنج أحمد يقذف نيران مدافعه على أصحاب باب العزب ثلاثة أيام بلياليها واجتمع على رضوان أغا طائفة من نفره وتذاكروا فيمن كان السبب فى إثارة هذه الفتنة فعرفوهم وهم أربعة من الاختيارية فخلعوهم وكتبوا لهم مرسوماً بأن يخرجوا من بيوتهم ثم ذهبوا إلى بيت قيطاس بك وأرسلوا من كل بلك اثنين من الاختيارية إلى منزل أيوب بك يطلبون رضوان أغا فأركبوه فى موكب حافل ثم عادوا إلى منزل أيوب بك وتناجوا فى أمر الصلح وكتبوا إلى أحمد أوده باشى الذى هو إفرنج أحمد بالكف عن القتال فأبى فكتبوا عرضاً إلى الباشا من جميع الصناجق وأغوات الوجاقات الخمسة بطلب الكف عن القتال فأرسل الباشا إلى الانكشارية بالكف فامتثلوا وتركوا القتال وتكلم الصناجق والأغوات المذكورون مع بعض الاختيارية من وجاق الانكشارية فى أمر الصلح فتقررت القاعدة بينهم على إرسال حسن كتخدا العزب وأحمد بن بقر رسلاً إلى المعسكر فى طلب ذلك فاجتمعوا بالعسكر والصناجق فى بيت إسماعيل بك وحضر معهم أيضاً جميع أهل الحل والعقد وتشاوروا فى إخماد نار الفتنة بالتى هى أحسن وأرسلوا إلى باب الانكشارية فى ذلك فقالوا لا نأبى الصلح بشرط أن هؤلاء الثمانية الذين كانوا سبباً فى إثارة هذه الفتنة لا يكونون فى باب العزب بل يذهبون إلى وجاقهم وأن يسلم الأمير حسن الأخميمى إلى الباشا يتصرف فى أمره كيف يشاء فأبى أهل باب العزب ذلك ولم يرضوه فأرسل الأمراء إلى إفرنج أحمد يشفعون عنده بأن الأشخاص المذكورين يرجعون إلى وجاقاتهم فقط ويعفون من النفى ومن القبض على الأمير حسن الأخميمى فلم يوافق افرنج أحمد على ذلك وقال إن لم يرضوا بشرطى وإلا حاربتهم ليلاً ونهاراً حتى أمحو أثرهم فتفرقوا على غير صلح وبقى الحال على ذلك أياماً ثم اجتمع جميع الأمراء بمنزل إبراهيم بك بقناطر السباع وتذاكروا فى أمر

الصلح على كل حال وكتبوا حجة علـى أن من ضدر منه بعد اليوم ما يخالف رضا الجماعة يكون خصم الجمـاعة كلهم وكلموا أيوب بك فى أن يرسل إلى إفرنج أحمد بصورة الحـال وأن يكف عن القتـال إلى تمام الأمر المشـروع فيه فـبطل القتـال نحو الخمسة عشر يوماً وأخذ أفرنج أحمد فى خلال هذه الأيام فى تحصين جوانب القلعة وعمل المتاريس ونصب المدافع وتعـبية الذخيرة وقد ملأ الصـهاريج بالماء وصار على تمام الأهبة والاسـتعداد واتفق أن حـضر فى هذه الأثناء مـحمد بك حـاكم الأقاليم القبلية ونزل بفضاء البساتين ولبث به ثلاثة أيام ثم دخل القاهرة ومعه السواد الأعظم من العربان والمغاربة والهوارة فلم يكن بأسرع من أن جعل يقاتل كذلك بمن معه من جامع السلطان حسن ومن بـيت يوسف أغاة الجراكسة فلم يفلح وقـتل من أصحابه جماعة كثـيرة وانتصر عليه محمد بك المعروف بالصـغير مع من انضم إليه من أتباع إبراهيم بك وإيواز بك ومماليكه وكانوا قد تترسوا فى سوق السلاح ووضعوا المتاريس فى شبابيك الجـامع الذى هناك فانتقل محمد بك المذكـور وسار إلى طولون وتترس بها وهجم على طائفة العزب الذين كانوا بسبيل المؤمن فـوقعت بينهم موقعة عظيمة مات فيها خلق من الفريقين ولم يطق أهل العزب المقـاومة فتركوا السبيل وذهبوا إلى باب العزب فعند ذلك انكف محمد بك عن القتال وترك جماعة من أصحابه بالسبيل رباطا وسار بمن بقى إلى غـير ذلك المكان. ولما اشتد الحال وضـاقت أمور أهل البلد وكبر خوفهم سـار جماعة من كبارهم إلى الشيخ الخليفى أحـد كبار المشايخ وشكوا إليه ما يلاقيـه الناس فسار الشيخ الخليفى إلى إفرنج أحمـد وتكلم معه ومع من كان معه من الاختيارية فى أمر الصلح والكف عن القتال وشدد فى ذلك فرد عليه إفرنج أحمد ببـذئ الكلام وبفحش القول وأرسل فى الحال إلى أصـحاب المدافع أن يطلقوا مدافعهم على أصـحاب باب العزب وأن يوالوا رمى القنابل فجعلوا يطلقـونها تباعاً فانـزعج الناس كافـة وكبـر خوفـهم وقام سكان باب العـزب وأخذوا مـا خف من أمتعتـهم وتركوا بيوتهم ونزلوا بالمدينة وتفرقوا فى الحارات بالـقاهرة ومصر وأغلقت جمـيع الوكائل والخـانات والأسواق وخرج أكـثر السكان القـريبين من قلعـة الجبل كالرمـيلة والحطابة والمحجر هائمين علـى وجوههم وقد هدمت المدافع أكثـر بيوتهم وأحرقتـهم نارها وطاف الانكشارية يحرقـون ما بقى من تلك الدور ولم يصب باب العزب شىء من ذلك إلا القليل من أماكنه ثم إن إفرنج أحمد وأيوب بك أقاما بعض أصحابهما بالمـدرسة بقوصون وجامع مزداره بسويقة العزى وجـامع قجماس بالدرب

الأحمر ليعطلوا الطريق على العزب واختار إفرنج أحمد جماعة من الانكشارية وأعطى لكل واحد دينارا وأرسلهم بعد الغروب إلى تلك الأماكن مدداً لمن بها وجعل هو يقاتل من كان مع الجانبكية. واتفق أن مرّ فى صباح ذلك اليوم رجل من أهل العزب ممن كانوا مرابطين فى جامع مزدارة من ناحية السلطان حسن يريد منزله فقبض عليه طائفة من الانكشارية وسلبوه ثيابه وتركوه عرياناً وبعثوا به إلى إفرنج أحمد فلما بلغ أهل العزب ما حل برجلهم أرسلوا طائفة منهم إلى المترسين بجامع مزدارة فدخلوا من بيت الشريف يحيى بن بركات ونقبوا منزل عمر كتخدا مستحفظان إذ ذاك وما يجاوره من الدور إلى أن وصلوا منزل مراد كتخدا فلما رآهم العسكر الذين كانوا بالجامع المذكور فروا هاربين وتركوا الجامع وما فيه من أسلحة وذخيرة. أما عمر أغاة الشراكسة ومن كانوا معه بجامع قجماس فإنهم بعد أن ترسوا وأحكموا متاريسهم بشبابيك الجامع فرقهم عمر المذكور جهة باب زويلة وجهة التبانة فوقع الخوف فى قلوب سكان تلك الجهة ونزحوا منها إلى حوارى القاهرة حتى ضاقت بهم فأرسل أهل العزب صالح جوربجى الرزاز بجماعة من عسكر العزب وآخرين ممن انضم إليهم من الانكشارية وغيرهم فقاتلوا من كان بجامع قجماس واستولوا على الجامع والمتاريس وأخذوا كذلك جامع المردانى وقهروا من كانوا فيه وأقام به طائفة منهم وأخرى بجامع أسلم وانتشرت طوائفهم بتلك الأخطاط والأماكن فسكنت خواطر أهلها واطمأنت قلوبهم قليلاً.

وهجم طائفة من بلك المتفرقة والأصبهانية على بيت الأمير قرا إسماعيل كتخدا مستحفظان فدخلوا من بيت مصطفى بك ابن إيواز ونقبوا الحائط بينه وبين بيت قرا إسماعيل المذكور فلما جاء الخبر إلى أهل العزب أرسلوا طائفة منهم ومعهم بيرق ومقدمهم أحمد جويجى فلم يتمكن أحمد من الدخول من جهة الباب فخرق صدر دكان هناك وتوصل منه إلى بيت أحمد افندى كاتب الشراكسة ثم نقبوا منه محلا توصلوا منه إلى حيث المتفرقة والأصبهانية فداهموهم وهم مشغولون بنهب الأثاث والأمتعة وهجموا عليهم هجمة واحدة فألقوا ما بأيديهم من السلب ورجعوا القهقرى إلى المكان الذى دخلوا منه فتبعوهم واقتتل الفريقان قتالاً عنيفاً إلى أن دارت الدائرة على طائفة المتفرقة والأصبهانية وتمزقوا كل ممزق ونهبت طائفة العزب بيت مصطفى بك المذكور حيث مكن المتفرقة والأصبهانية من الدخول إلى بيته وانتقل أحمد بمن معه من العسكر إلى قوصون ودخل جامع الماس وتحصن به وكان محمد بك حاكم

الأقاليم القبلية فى هذا الحين يغدو ويروح ما بين جامع الماس والصليبة فكمن له أحمد بطائفة من أصحابه بمنزل البيرقدار فى محل فيه يشرف على الطريق فلما مر بهم فى وسط قومه أطلقوا عليه البنادق فأصابوا أربعة من أصحابه فظن أن النيران أتت من بيت محمد كتخدا البيرقدار فوقف على بابه وأضرم فيه النار فاحترق أكثره ونهبوا ما فيه من أثاث وأمتعة ولحقت النار بالبيوت الملاصقة والمواجهة له فعلقت بها وعلا لهيبها وطار شررها إلى جميع بيوت تلك الخطة فأحرقت أكثرها من الرباع والدكاكين التى هناك من ناحية جامع الماس إلى تربة المظفر يميناً وشمالاً وأفسدت ما بها من أثاث ومتاع وما لم يحترق نهبه النهابة والحرافيش الذين كانوا يتبعون الحريق ويزيدونه ضراماً فكان المنظر مخيفاً جداً وخرجت النساء حاسرات مكشفات الوجوه هائمات فى الأزقة والحارات يطلبن الملجأ وعم النهب والسلب فى هذا اليوم إلى حد لم يسبق له مثال وتعطلت الطرق من المارة والهاربين من نيران الحريق وعلى الخصوص طريق بولاق القاهرة ومصر القديمة والقرافة فقد كانت ملأى بالأخلاط من طوائف الدجوية والهوارة وغيرهم الذين جاءوا مع محمد بيك حاكم الأقاليم القبلية كما تقدم القول وقد أحاطوا بأطراف البلد وصاروا يسلبون المارة واستاقوا جميع جمال السقائين وأخذوها فكان الخطب شديداً والكرب عميماً. وانقسم العسكر فى هذه الآونة إلى فريقين فريق مؤلف من إيواز بك وقيطاس بك وإبراهيم بك أمير الحاج سابقاً ومحمد بك وقانصوه بك وعثمان بك ابن سليمان بك ومحمد بك ومعهم بلوكات الأصبهانية الثلاثة والجاويشية والعزب والثانى من أيوب بك ومحمد بك الكبير وأغوات الأصبهانية ومحمد بك أغاة متفرقة باشى وأهل بلكة وسليمان أغا كتخدا الجاويشية وبلك الانكشارية المقيمين بقلعة الجبل مع إفرنج أحمد والوالى وقاضى القضاة ونقيب الأشراف وأغلقوا أبواب القلعة جميعها ما خلا باب الجبل فامتنع الناس من النزول من القلعة أو الصعود إليها إلا من الباب المذكور واستمر افرنج أحمد ومن معه يطلقون المدافع على باب العزب ليلاً ونهاراً وبالباب المذكور خلق كثيرون منتشرون حوله وحول ما قاربه من الحارات ورتبوا لهم جوامك تصرف إليهم فى كل يوم . ولما طال الأمر على هذا الحال واشتد البلاء على الرعية اجتمع الأمراء بجامع يشبك بدرب الجماميز وأجمعوا على خلع الباشا وتعيين نائب من الأمراء حتى يرد الأمر من السلطان بما يراه واتحدت كلمتهم على إقامة قانصوه بيك ثم ولوا أغوات البلوكات وأرباب الرتب والوظائف وأحكموا الترتيب فبلغ الخبر

أغوات الانكشارية فأعلموا خليل باشا الوالى به فكبر عليه وأعظمه وكتب إلى أغوات جميع البلكات الثلاثة يحضهم على قتال الصناجق ومن معهم لخروجهم على نائب السلطان ثم جمع جماعة للقتال ورتب لهم جوامك ومرتبات واتفق محمد بك حاكم الصعيد مع إفرنج أحمد على أن أحدهما محمد بك يهجم بأصحابه على طائفة العزب من طريق قراميدان ويكسر باب العزب الموصل إلى الميدان فوصل خبر ذلك أيضاً إلى طائفة العزب فاستعدوا وكمنوا على مقربة من بابهم فلما كان بعد العشاء الأخيرة هجم محمد بيك وأصحابه على الباب وكان جماعة العزب قد أحضروا شيئاً كثيراً من حطب القرطم وطلوه بالزيت والقار والكبريت فلما تكامل عسكر محمد بيك أوقد جماعة العزب النار فى ذلك الحطب فأضاء لهم قراميدان وصار كالنهار فأطلقوا على أصحاب محمد بك البنادق وأحكموا الرمى وتابعوه ففر جماعة محمد بك وتقهقروا وقد قتل منهم خلق كثير وأرسل خليل باشا إلى إبراهيم بك وإيواز بك وقيطاس بك يطلبهم إلى الديوان ليتفاوضوا فى الأمر فاعتذروا بما هم عليه من ترتيب أمور الدفاع وعدم فتح الطريق فلما أيس منهم جمع إليه أيوب بك ومن انضم إليه من العسكر واستقرت القاعدة بينهم على استمرار القتال حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً وبرزوا جميعاً إلى ظاهر القاهرة وأخذوا فى التأهب للقتال.

فلما كان يوم الأحد ثالث ربيع الأول أرسلوا أيوب بك ومحمد بك إلى العربان ليأتوا بجميع جمال السقائين وحميرهم ويمنعوا الماء عن البلد ففعلوا وأخذوا جميع ما وجدوه من الجمال والحمير فعز الماء وبلغ ثمن القربة خمسة أنصاف فضة فضج الناس وعجوا وابتهلوا إلى الله تعالى وكبر الأمر على أصحاب العزب فسار طائفة منهم إلى القصر العينى ليستخلصوا تلك الدواب وجلسوا يراقبون من يمر بهم من المعتصبين فلم يكن بأسرع من أن دهمهم محمد بك بجماعة من طائفة الهوارة فدافعوا ساعة ثم هربوا وقد قتل منهم جماعة كثيرة وأرسلت رؤوسهم إلى الباشا قيل فسره ذلك جداً ورجع المنهزمون إلى بيت قانصوه بك وإيواز بك وأخبروا بما حل بهم فكبر الأمر على قانصوه بك وإيواز بك وصمما على البراز فركبا فى يوم الاثنين رابع عشر ربيع الثانى وخرج الفريقان إلى جهة قصر العينى والروضة واقتتلا قتالاً عنيفاً قتل فيه من العسكر خاصة زهاء الأربعمائة من الفريقين خلاف العربان والهوارة وغيرهم من الأخلاط وركب إيواز بك على محمد بك حاكم الأقاليم القبلية فانهزم محمد بك إلى جهة المجرى فساق خلفه وكان محمد المذكور قد أجلس

كميناً فوق المجرى فلما مر بهم إيواز بك أطلقوا عليه الرصاص وعلى من معه فأصابوه فى صدره فسقط عن جواده ميتاً وتفرق من كان معه فقام عليه من بالكمين واحتزوا رأسه وجاء الخبر بقتله إلى أصحابه ففترت عزائمهم وضعفت قلوبهم وذهبوا فى طلبه فوجدوه جثة بغير رأس فحملوه وذهبوا به وتفرقوا وتمزق جمعهم. أما جماعة الانكشارية فإنهم طلعوا بالرأس إلى مقر الباشا وأعلموه بما جرى ففرح وظن تمام الامر وسكون الفتنة بموت إيواز بك وأمر بالرأس فسلخ ثم طلبه أصحاب إيواز من أيوب بك فدفعه لهم فدفنوه مع الجثة. واشتد حزن أصحاب إيواز بك على فقده وكبر كيدهم مما حل به فاجتمعوا ببقية الأمراء وولوا ابنه بدله وتجهزوا للقتال فتجهز الفريق الثانى أيضاً وخرجوا فى يوم السبت تاسع عشر ربيع الثانى والتقى الجمعان فوقع بينهما أمور يطول شرحها فلما رأى جماعة العزب اشتداد الأمر وعدم التمكن من الوصول إلى قلعة الجبل وامتناع من بها وتوالى الرمى عليهم بالمدافع ليلاً ونهاراً اتحدت كلمتهم على أن يولوا كتخدا جديداً لطائفة الانكشارية ويجلسوه بباب الوالى بطائفة من العسكر وينادوا فى الشوارع أن كل من له علوفة فى وجاق مستحفظان يأتى تحت البيرق بالبوابة ومن لم يأت بعد ثلاثة أيام نهب بيته من غير معاودة ففعلوا ذلك وركب الكتخدا المذكور وألبسه قانصوه بك النائب قفطانا وسلمه البيرق فسار العسكر أمامه بالبيرق والمنادى ينادى بما ذكر إلى أن وصل إلى بيت الوالى . وعادوا إلى القتال فبرزوا إلى خارج القاهرة من باب قناطر السباع واجتمعوا بقرب قصر العينى بالمدافع وآلات الحرب واقتتلوا من ضحوة النهار إلى العصر فقتل من الفريقين خلق ثم افترقوا وعاد بعضهم إلى البلد وتخلف طائفة من العزب فأتى إليهم محمد بك حاكم الأقاليم القبلية وأحاط بهم من كل جانب فلما بلغ الخبر قانصوه بك أرسلَ إليهم مدداً فقاتلوا محمد بك وهزموه شر هزيمة وتبعوه إلى قنطرة السد وكان أيوب بك فى هذه الأثناء متترساً بداخل التكية المجاورة لقصر العينى فلما شاهد احتدام الوطيس فر ونجا بنفسه فأحرق طائفة العزب القصر ونهبوا ما فيه واستمر الحال على هذا المنوال أياماً متتابعة.

وأرسل قانصوه بك إلى من بالقلعة من الوجاقات يتهددهم بحرق بيوتهم ونهب ما فيها إن لم يتركوا ما هم فيه من القتال والعمل بإشارة إفرنج أحمد فاختلفت عند ذلك كلمتهم وخارت عزائمهم وأرسل قانصوه بك بعض الأمراء والعسكر إلى نهب بيت أيوب بك وغيره من بيوت الأمراء فاتصلوا بها من ربع يجاورها وأطلقوا على

من بها النيران فهرب أيوب بك وأتباعه فدخلوا ونهبوا ما فى البيت وعم النهب فى ذلك اليوم جميع دور الأمراء وأحرقوا منها ما قدروا عليه ونهبوا ما جاورها من الدور والربوع والدكاكين وغيرها وتقوت بذلك عزيمتهم فأرسلوا طائفة منهم إلى الجيوشى ومعهم بعض المدافع فجعلوا يطلقونها تباعاً على بيت الباشا وعلى قلعة المستحفظان وأحاطوا بالقلعة من أسفل ورموا بالبنادق فرفع الباشا عند ذلك على بيته بيرقاً أبيض يطلب الأمان وفر من كان داخل القلعة من العسكر فهجمت العساكر الخارجة على الباب واقتحموه عنوة ودخلوا الديوان فانزعج الباشا وأرسل القاضى ونقيب الأشراف يطلبان له الأمان فتلقوهما بالتكريم فقالا إن الباشا يقرؤكم السلام ويقول لكم إنا كنا اغتررنا بهؤلاء الشياطين وقد فروا والمراد أن تعلمونا مطلوبكم فلا نخالفكم فقالوا اعلما بأن الصناجق والأمراء والأغوات وسائر العسكر قد اتفقوا على خلعه وأن قانصوه بك يكون نائباً وأما الباشا فإنه ينزل ويسكن فى المدينة إلى أن تعرض الأمراء على الدولة ويأتينا الجواب فأرسل القاضى نائبه إلى الباشا يعرفه بذلك فأجابه بالطاعة واستأمنهم على نفسه وماله وأتباعه وركب من ساعته فى خواصه يقدمه قانصوه بك وأغات مستحفظان على يمينه وأغات المتفرقة على شماله واختيارية الوجاقات من خلفه وأمامه ونزل من باب الميدان إلى الرميلة على الصليبة وقد اصطف العامة على جانبى الطريق وهم يسبونه ويلعنونه ويخاطبونه بفحش القول إلى أن وصل إلى بيت على أغا الخزندار بجوار المظفر. وهجم بعد ذلك أصحاب العزب على باب مستحفظان فملكوه ونهبوا ما وجدوه فيه من متاع وغيره وقتلوا من صادفوه بالباب وبطريق المحجر من أصحاب الفتنة وطلع الذين كانوا بباب العزب من الانكشارية إلى بابهم فكانت عدتهم ستمائة ثم اجتمع الأمراء جميعاً ببيت قانصوه بك وكتبوا محضراً بصورة ما وقع وطلبوا من دار السلطنة إرسال وال آخر وانقضت الفتنة وسكنت الخواطر.

(مطلب)

ولاية والي باشا

ولبث خليل باشا محجوراً عليه بالقاهرة حتى جاء والى باشا من دار السلطنة وصرح له بالسفر فسافر فى ثامن عشر جمادى الأولى سنة أربع وعشرين ومائة وألف هجرية فكانت أيامه كلها فتناً وقتالاً وهى سنة وتسعة أشهر وأيام وكانت أيام

هذه الفتنة خمسة وسبعين يوماً. وطلع والى باشا إلى مقره بقلعة الجبل فى أواخر شهر رجب سنة ثلاث وعشرين ومائة وألف هجرية.

واتفق أن جلس فى مستهل شهر رمضان واعظ من الروم بجامع السلطان الملك المؤيد وأخذ يعظ الناس فكثر عليه الجمع وازدحم المسجد بالأتراك وصار يجلس كذلك فى كل عام ثم انتقل الوعظ إلى ذكر ما يفعله أهل مصر بأضرحة الأولياء من إيقاد الشموع والقناديل فى القبور وتقبيل أعتاب الأولياء وغير ذلك وصرح بأن فعل هذا كله منكر يجب على الناس الإقلاع عنه وعلى ولاة الأمر السعى فى إبطاله وعرض بذكر ما قاله الشعرانى فى طبقاته أن بعض الأولياء اطلع على اللوح المحفوظ وقال إنه لايجوز ذلك أبداً وان الاطلاع على اللوح المحفوظ لا يمنح حتى ولا للأنبياء فضلاً عن الأولياء ونددت ببناء القباب على أضرحة الأولياء والتكايا وجزم بهدمها وذكر أيضاً وقوف الفقراء بباب زويلة فى ليالى رمضان فكان لقوله وقع مهم فى قلوب السامعين وما أتم كلامه حتى خرج الناس بعد الصلاة ووقفوا بالنبابيت والمساوق والأسلحة على مقربة من باب زويلة فهرب الذين يقفون هناك فقطعوا الجوخ والأكر التى كانت معلقة وهم يقولون أين الأولياء فتأثر الناس من ذلك جداً وذهب بعض العامة إلى العلماء بالأزهر وحدثوهم بما قاله الواعظ الرومى وما فعله الناس بباب زويلة فأفتى الشيخ أحمد الغزاوى والشيخ الخليفى بأن كرامات الأولياء لاتنقطع بالموت وإن إنكار الواعظ المذكور اطلاع الأولياء على اللوح المحفوظ لا يجوز ويجب على الحكام كفه عن ذلك فأخذ بعض الناس تلك الفتوى ودفعها للواعظ وهو فى مجلس وعظه فلما قرأها غضب وقال: أيها الناس إن علماء بلدكم قد أفتوا بخلاف ما ذكرت لكم وإنى أريد أن أتكلم معهم وأباحثهم فى مجلس قاضى القضاة فهل منكم من يساعدنى على ذلك وينصر الحق فصاحوا جميعاً نحن معك لا نفارقك فنزل عن كرسيه واجتمع عليه من العامة خلق كثير ومر بهم من وسط القاهرة إلى أن دخل بيت قاضى القضاة فانزعج القاضى وخاف وسألهم عن السبب لحضورهم فرفعوا له ورقة الفتوى وطلبوا منه إحضار المفتين والبحث معهم بحضرته فقال القاضى: لا بأس عليكم اصرفوا أولاً هؤلاء اللموم ثم نحضر من أفتى بهذه الفتوى فقالوا: وما تقول أنت فى هذه الفتوى؟ فقال هى باطلة قالوا: اكتب لنا حجة ببطلانها فقال إن الوقت قد فات والشهود قد انصرفوا. قال الراوى: وكان الذى يخاطبهم ترجمان القاضى فقبضوا على الترجمان وأوسعوه ضرباً وطلبوا

القاضى فهرب فقبضوا على النائب فكتب لهم حجة بما شاءوا فتفرقوا وانصرفوا واجتمعوا بعد ذلك لسماع الواعظ على عادتهم فلم يحضر فأخذوا يسألون عنه فقال بعضهم ربما منعه القاضى من الجلوس فقام فى الحال رجل منهم وقال: أيها الناس من أراد أن ينصر الحق فليتبعنى فتبعه الجم الغفير فمضى بهم إلى مجلس القاضى فدخلوا عليه وقالوا أين شيخنا؟ قال لا أدرى فقالوا قم واركب معنا إلى الديوان لنكلم الباشا فى هذا الأمر ونسأله أن يحضر لنا أخصامنا الذين أفتوا بقتل شيخنا ونتباحث معهم فإن أثبتوا دعواهم نجوا من أيدينا وإلا قتلناهم فركب القاضى مكرها وتبعوه إلى أن طلعوا الديوان فسأله الباشا عن سبب حضوره فعرفه بقصة القوم الذين حضروا معه وما وقع منهم بالأمس واليوم وأنهم ضربوا ترجمانه وأخذوا الحجة قهراً وأتوا اليوم وأركبوه قهراً فأرسل الباشا إلى كتخدا الانكشارية وإلى كتخدا العزب وقال اسألا هؤلاء عن مرادهم فقالوا نريد إحضار الغزاوى والخليفى ليبحثا مع شيخنا فيما أفتيا به فرسم الباشا بإحضارهما وافترقوا على ذلك فأرسل الباشا بعد افتراقهم إلى إبرهيم بك وقيطاس بك يعلمهما بما حصل من العامة ويقول: إن لم يعاقب هؤلاء فلابد لى من السفر أنا وقاضى القضاة. أما العامة فإنهم نزلوا بمرسوم الباشا إلى جامع الملك المؤيد وأتوا بالواعظ وأصعدوه إلى كرسيه فصار يحضهم على الاجتماع فى غد بالمؤيد كى يذهبوا بجملتهم إلى القاضى ويحضهم أيضاً على الانتصار للدين وقمع طائفة المفسدين ثم افترقوا على ذلك. ولما وصل مرسوم الباشا بمعاقبة العامة إلى الأمراء اجتمعوا جميعاً ببيت الدفتردار وتناجوا فى الأمر فاتفقوا على أن تركب الأغوات وتطوف بالشوارع والحارات فمن وجدوه من أهل تلك العصابة قبضوا عليه وأن يطردوا كل من يجدونه فى جامع المؤيد من طائفة الترك فلما كان اليوم الثانى صباحاً ركب الأغا وأرسل الجاويشية إلى جامع المؤيد فلم يجدوا منهم أحداً وجعل يفحص ويفتش على أفراد المعتصبين فمن ظفر به أرسله إلى بابه فضرب بعضهم ونفى بعضهم ومازالوا كذلك حتى سكنت الفتنة وعادت الأمور إلى ما كانت عليه.

وما كادت تطمئن القلوب بسكون هذه الفتنة حتى ظهرت فتنة أخرى ومحنة كبرى وذلك أن رجلاً من الأشراف تشاجر مع تركى فى سوق البندقانيين فضرب التركى الشريف فقتله وفر ولم يعلم أين ذهب فقام الأشراف كافة ووضعوا المقتول فى نعش وطافوا به الأسواق حتى طلعوا به إلى الديوان وأثبتوا القتل على القاتل فلم

يقفوا له على أثر فنزل الأشراف وأصبحوا وقد قفلوا الأسواق التى بالقاهرة وصاروا يرجمون أصحاب الحوانيت بالحجارة كى يقفلوا حوانيتهم ويضربون كل من عثروا عليه فى الطريق من المارة ومكثوا على هذا الحال يومهم وأصبحوا كذلك وأرسلوا إلى الأشراف القاطنين بقرى مصر ليحضروا ثم اجتمعوا بالمشهد الحسينى وخرجوا وأمامهم بيرق وساروا إلى بيت قيطاس بك الدفتردار فخرج عليهم أتباعه وطردوهم وهزموهم بعد قتال فرجعوا وقد عاثوا بالطرق وفعلوا ما لا خير فيه فلما تفاقم أمرهم وكادت الفتنة تتسع تحرك عليهم العسكر وركب أغوات الأصبهانية الثلاثة وأغوات الانكشارية فى عددَهم وعددِهم وطافوا المدينة فخاف الأشراف وتفرقت جموعهم ثم نادوا بالأمن والأمان وفتح الحوانيت ففتحت وسكنت الفتنة بعد أن كاد يستفحل أمرها.

وأعقب هذه الفتن المتراكمة والمحن المتوالية طاعون شديد أمات خلقاً كثيراً جداً وبقى على شدته بالقاهرة ومصر من ربيع الأول من السنة إلى أواخر جمادى الثانية ففتك فتكاً ذريعاً وعم وامتلأت البيوت والطرق بالموتى والدفن مستمر ليلاً ونهاراً فكانت شدة عظيمة للغاية ثم ارتفع وزالت بزواله ولاية والى باشا وجاءت الأخبار بعزله وتولية عابدين باشا فقدم إلى مدينة الإسكندرية ثم حضر إلى القاهرة فى صفر سنة خمس وعشرين ومائة وألف هجرية فنزل والى باشا وسافر إلى الديار الرومية فكانت مدة تصرفه عشرة أشهر وأياماً. وأخذ عابدين باشا يتصرف فى الأمور فقدم له الأمراء كافة التقادم والتعابى النفيسة وقدم له إسماعيل بك أيضاً تقدمة نفيسة للغاية فاستعظمها عابدين باشا ومال إليه وأحبه واختص به ومال إلى طائفة القاسمية إرضاء لإسماعيل بك المذكور فجعل يوليهم المناصب العالية حتى ظهروا بمظهرهم القديم من الأبهة والتكريم وزال عنهم البأس ولازمتهم النعمة فصارت أمور البلاد على أحسن ما يرام واستتب الأمن وعم واطمأنت قلوب الرعية وكثرت الأقوات ودرت الأرزاق وارتفع الغلاء وزال الوباء وراجت أسباب التجارة وسلكت الطرق وأخصبت الأرض وأجادت فكانت أيام عابدين باشا المذكور كلها راحة وهناء.

(مطلب)

ولاية علي باشا

فلما كانت أخريات سنة ثمان وعشرين ومائة وألف جاء الخبر بعزله وولاية آخر

اسمه على باشا فأسف الناس لذلك وحزنوا عـليه ونزل عابدين باشا من قلعة الجبل عند ما وصل الخـبر بوصول على باشـا إلى الإسكندرية ثم سافر إلى الديار الرومـية قبل وصول على باشـا إلى القاهرة فكانت مدة تصرفه ثلاث سنين إلا شـهراً وسافر إلى الاسكندرية أرباب الخـدم والعكاكـيز وكـبار الأمـراء للقـاء على باشا المذكـور وحضـروا معه إلـى القاهرة فصـعد إلى قلعـة الجبل على الرسم المعتـاد واستـقر به المنصب والأمور والفتن نائمة والقلوب مطمئنة فلم تبق الحال كـذلك مستتبة إلا قليلاً حتى قامت الفتنة بين أهل بولاق القاهرة من حـارة الجوابر وبين بعض الجمالة أتباع أمـير الحـاج وذلك أن بعض سكان الحارة المذكـورة تشـاجروا مع نفـر من الجمـالة لأسباب طفيفة للغاية فأدت هذه المشاجرة إلى الملاكمة والمضاربة بالأيدى ثم بالهراوى والمساوق وعلا الصـياح واجتمعت الغوغـاء والحرافيش وكثرت الجلبة فـخرج لمعاونة الجمـالة أميـرأخور الاصطبل ومـعه نفـر من الأتباع فـقام عليـهم أهل الحارة كـافة وأوسعـوهم ضرباً بالمساوق فوصل خـبر ذلك إلى الأمير إسـماعيل بك أميـر الحاج فأرسل إليـهم أغات الأنكشارية والوالى فـقاموا عليهـما كذلك وضربوهـمـا وكانت النساء فى هذه الأثناء يصـوتن بأعلى أصواتهن والصغـار يضجون ويسـبون كل من يحضر إليهم ويرجمون بالأحجـار فى الحارات ومن أعالى البيوت فعاد الوالى ورجع إليهم بطائفة من الجند وقصـدوا الحارة فتترس فيها أهلهـا وعلت الأصوات وصعدت النساء على أسطحة البيوت وصرن يرجمن بالأحجار فأطلق الجند البنادق فقتلوا عدة رجال ثم هرب من بقى فـدخلوا البيوت وأخـرجوا النساء والأولاد وحـملت النساء متـاعهن ثم قفلوا الأبواب ودقـوا فيهـا المسامير فـسكنت الفتنة ولما بلغ خـبرها من بالقاهرة ومصـر القديمة خافوا وظـنوا أنها من الفتن الكبرى فانكمشـوا ليلتهم تلك وتعطلت الأسواق حتى شاع الخبر بسكون الفتنة ورجوع الحال إلى سابق مجراه.

واتفق ان أرسل الوالى الخزينة السلطانية صحـبة محمد بك ابن إبراهيم بك أبى شنب وكان بين محمد بك المذكـور وبين إسماعيل بك ابن إيواظ وعلى باشا الوالى نفور ووحشـة فلما وصل محمـد بك إلى دار السلطنة واجتمع بصدر الـدولة يومئذ وشى فى حق إسماعـيل بك وبالغ فى الوقيعة به وقال إنه إن استـمر على هذا الحال وطالت أيامه فى مصر استقل بملكها وأزال عنها نواب الدولة فقد تمكن منها وبث فى خدمتها أتباعه ومماليكه ومماليك أبيـه وأن لا حرمة للوالى عنده ولا كلمة فوق كلمته وقد أبعد كل من كان ناصحاً للدولة وصادقـاً فى خدمتها وجعل للدولة أربعة آلاف

كيس إن هى أزالت إسماعيل بك المذكور وخلعت على باشا الوالى وأتت بغيره قيل فأجابه الصدر الأعظم إلى ذلك وبقى الأمر مكتوماً بينهما إلى أن تعين أمير للحاج الشامي اسمه رجب باشا فرسم له الصدر بأنه إذا وصل مصر يعرج على القاهرة ويقبض علَى على باشا واليها ويقتله ثم يحتال على قتل إسماعيل بك ابن إيواظ مع جميع عشيرته ماعدا علي بك الهندى. ورجع محمد بك أبو شنب ظافراً مطمئناً وجاء رسول رجب باشا ومعه مرسوم بحبس على باشا الوالى وإقامة أحمد بك الأعسر نائباً فحبسوه فى قصر يوسف بك ثم جاء رجب باشا إلى القاهرة وصعد إلى قلعة الجبل فى موكب حافل فلما استقر به المقام أحضر على باشا بين يديه وكذلك خازنداره وكاتب الخزينة والروزنامجى ورسم بعمل حساب على باشا ثم أمر به فذبحوه ذبح الشاة واحتزوا رأسه وسلخوها وبعث بها إلى دار السلطنة. قال بعض الكتاب: فمات على باشا شهيد الزور والافتراء ودفن بمقام أبى جعفر الطحاوى بالقرافة قال: ويعرف قبره إلى الآن بعلى باشا المظلوم ثم رسم بضبط جميع مخلفاته واستحضر إليه خفية محمد شركس وشاوره فى كيفية قتل إيواظ بك وجماعته فدبروا له ولكن لم يتم له تدبير إذ اختفى ابن إيواظ مدة ثم ظهر ومعه فرمان السلطان بخلع رجب باشا فدفعه إليه وأنزله من قلعة الجبل إلى بيت مصطفى كتخدا عزبان ووكل به من يحرسه ولبث على هذا الحال أياماً إلى أن جاء للولاية من قبل الدولة محمد باشا البستانجى وذلك فى أوائل سنة ثلاث وثلاثين فكانت مدة ولاية على باشا المظلوم سنتين وبعض أشهر.

(مطلب)

ولاية محمد باشا البستانجي وخلع رجب باشا

ولما استقرت بمحمد باشا الولاية أبرز فرماناً سلطانيا بالعفو عن ابن إيواظ وسرح رجب باشا بالسفر فسافر مهاناً مرذولاً وقد كان استفحل أمر محمد بك شركس واعتز جانبه فى أيام رجب باشا فظهر بمظهر الكبرياء والعظمة والاستخفاف بأقرانه من الأمراء وكان حقده على الأمير ذى الفقار وقومه يزداد يوماً عن يوم فطلب من محمد باشا الوالى مرسوماً بالخروج على ذى الفقار المذكور وقتله فأبى محمد باشا ذلك فألح عليه فلم يقبل فقام من عنده يوماً مغضباً وانقطع من ذلك اليوم عن الصعود إلى الديوان وأهمله فغضب لذلك الباشا وأبرز مرسوماً بخلع محمد شركس

المذكور من منصبه وكتب إلى المشايخ وأرباب الوجاقات بذلك فلما علم محمد شركس بالخبر أسرع وجمع إليه أصحابه ورتب أموره وقام معهم وأحاطوا بالرميلة وحوالى قلعة الجبل ونادوا بخلع محمد باشا البستانجى ثم أنزلوه من القلعة وسجنوه فى بيت ابن الوالى وكان ذلك فى أخريات سنة سبع وثلاثين فكانت مدة تصرفه فى هذه المدة التى هى المرة الثانية أربع سنين وأرسل إلى محمد بك أبى شنب فخلع عليه وولوه النيابة وأخذوا منه مرسوماً بقتال ذى الفقار وأصحابه وأرسلوا من يقتله ويأتى برأسه فلم يظفروا به واختفى ذو الفقار فنهبوا داره وأخذوا ما فيها وكتبوا بصورة الحال إلى دار السلطنة وطلبوا أن ترسل لهم والياً آخر بدل محمد باشا البستانجى.

(مطلب)

ولاية علي باشا

وكان محمد باشا المذكور قد كتب أيضاً بصورة ما وقع فأرسلت الدولة آخر اسمه على باشا فدخل القاهرة فى أوائل المحرم سنة ثمان وثلاثين ومائة وألف هجرية فلم تستقر به الولاية حتى عمد إلى العزل والتنصيب فى الأمراء والحكام ونقض فيهم وأبرم والكلمة يومئذ لمحمد بك أبى شنب وإسماعيل بك ابن إيواظ. قال بعض الكتاب: ولما كان هذا العزل والتغيير لم يتناول إلا ذو الفقار وجماعته اجتمعوا وتشاوروا فى الأمر وتكلموا فى كيفية خلاصهم من فعال على باشا المذكور وقد تحققوا ما وراء ذلك من الخيبة إن هم تراخوا ومازالوا حتى أحكموا تدبير أمورهم وعلى باشا وبقية الأمراء فى شاغل عنهم بالمناصب وتفريق الوظائف والعزل والتولية ثم ظهر ذو الفقار من مخبئه واجتمع بمحمد باشا البستانجى المعزول ولم يكن إلى ذلك الحين قد سافر إلى الديار الرومية وكلمه فى أمر الخروج واضطرام نار الفتنة فاستقرت القاعدة بينهم على إعمال الحيلة على قتل كتخدا العزب فإذا تم لهم قتله امتلكوا باب العزب وظفروا بمقصودهم ثم جمعوا لذلك طائفة من الفقارية وأخرى من الشواربية وركب أبو دفيه أحد المقدمين عند فجر ذلك اليوم ومعه بعض الأمراء وقيطاس ذو الفقار وحوله عدة من الكبراء من قومه وربطوا الأربطة بالطريق الموصل إلى قلعة الجبل وساروا إلى الرميلة ووقفوا هناك فلما مر بهم كتخدا العزب المذكور تقدم إليه أحدهم ليسلم عليه وقبض على يده وتبعه آخر وضربه بسيفه فسقط على

الأرض فتركوه وتراكضوا جميعاً إلى الباب وأجلوا من كانوا عليه وامتلكوه ووصل الخبر إلى محمد باشا البستانجى فركب فى الحال وجاء إلى جامع المحمودية وأتى إلى على باشا من أعلمه بالخبر فنزل إلى باب العزب وهو فى دهشة وحيرة واجتمع جميع الصناجق وتشاوروا فى الأمر طويلا فلم يروا بدأ من أن يعيدوا الوظائف إلى ما كانت عليه تسكيناً للفتنة وقسموها بين الفقارية . واتفق أن قبطانا من قباطين دار السلطنة كان قدم إلى القاهرة فى نفر من العسكر السلطانى ولبث بها فلما ظهرت هذه الفتنة ووصل إليه خبرها ركب فى عسكره وأتى إلى جامع السلطان حسن واستقر به مع ذى الفقار بك وظهرت كلمة محمد باشا البستانجى فى الحال فجعل يقسم المناصب العالية ويتصرف فى الولاية وخلع على الأمراء أصحاب الفتنة ولبث على هذا الحال بجامع المحمودية مع أصحابه أياماً. فلما رأى محمد بك شركس أن قد تمت الحيلة ودارت عليه وعلى أعوانه الدوائر كبر عليه هذا الأمر جداً وجعل يتأهب للذب والقتال وسير من فوره إلى بيت قاسم بك عدة كبيرة من الجند والمدافع ورسم فأقاموا المتاريس عند درب الحمام وجامع الحصرية وهجمت عساكره على من كانوا بسبيل المؤمن بالبنادق حتى أجلوهم وهزموهم وهربوا إلى جهة القلعة وسوق السلاح ولكنهم تمكنوا من عمل متاريس عند مذبح الجمال ورموا على من كانوا بجامع المحمودية وتتابع الرمى من كل صوب وحدب فهرب المجتمعون بالرميلة وبنى أصحاب شركس المذكور المتاريس أيضاً عند وكالة بالأشكمنية ومازال فى دفاع وقتال حتى كاد يتم له الظفر بالفقارية وبدأت شارات النصر وعلائم الفوز والغلبة فبرز يوسف الجربجى البركاوى وألقى بنفسه وتسلق على باب العزب ونط الحائط تحت رمى البنادق واتصل بمحمد باشا البستانجى ومن معه بجامع المحمودية وطلب أن يعطوه مرسوماً إلى كتخدا العزب كى يعطيه بيرقاً ومائة مقاتل وضمن لهم إجلاء الذين كمنوا بسبيل المؤمن ثم يتحول بعد إجلائهم بمن معه إلى بيت محمد شركس فيخربه تخريباً بشرط أن يولوه منصب كتخدائية العزب إن عاد إليهم ظافراً فأجابوه إلى ما طلب فنزل بمن معه من باب الميدان وسار بهم من جانب تكية إسماعيل باشا ووقف بجانب باب كان هناك يوصل إلى الرميلة وطوى البيرق وهجم بمن معه على سبيل المؤمن يطلق النيران المتتابعة وهم يهللون ويكبرون فانزعج من كانوا بالسبيل وتحيروا فى أمرهم وولوا جميعاً الأدبار إلى درب الحصرية وأصحاب يوسف جوربجى فى أقفيتهم يعملون فيهم الضرب والطعن حتى جاوزوا جميع متاريسهم

ودخل بيت قاسم بـك فحولوا المدافع صـوبه وصعدوا منـارة جامع الحصـرية ورموا بالبنادق على البـيت فنزلت عند ذلك سـائر البيـارق من الأبواب وساروا إلى جـهة الصليبـة وطلع القبطان إلى قـصر يوسف بك ووضع مدفـعاً على بيت محـمد بك شركس وأطلق عليه الكلل تباعاً وقد كان قاسم بك أصيب برصاصة ممن كانوا بمنارة جامع الحصرية فمات فلما رأى محمـد شركس ما حل بقومه وما يترصده من المكاره خرج هارباً فخـرج معه محمـد بك الأعسر ومحمـد شركس الصغير وأخـذ جميع أمواله وذهب بأصحابه إلى ناحية مصر القديمة وعبروا النيل إلى الجانب الغربى خفية وركب محمد باشا البستانجى وصعـد إلى قلعة الجبل فى أهبة وكبكبة ثانية فنزل على باشا وسافر إلى جزيرة جريد وقبض ذو الفقار بك على زمام الأمور فارتفعت كلمته وظهرت بعد الخـمول والانكماش عظمته وبعث بمن يقبض على مـحمد بك چركس فجد الرسل السـير خلفه فلم يدركوه ورجعـوا فأخبروا أنه سار إلى الجـبل الأخضر ومنه إلى أدرنة وكان خـروج محمـد جركس المذكـور فى يوم السبت سابع جـماى الآخرة سنة ثمـان وثلاثين ومائة وألف فسكنت بعد خـروجه الفتنة وزالت أسـبابها ووقف كل عند حده. قال بعض الرواة: وهذه الفتنة كانت بإيعاز من دار السلطنة.

واتفق بعـد ذلك بقليل أن على بك المعـروف بأبى العـزب ومـصطفى بك ابن إيواظ ويوسف بك الخائن ويوسف بك ابن الشرابـى وعبد الله أغا كتخدا الجـاويشية وسليمان أغـا أبادفية وهم جميعـاً من طائفة القاسميـة جلسوا على عادتهم فى بيت أحدهم على بك أبى العزب يشـربون الخمر فلما أخذ الشـراب من عقولهم فى تلك الليلة تأوه مصطفى بك ابن إيواظ وقال: يموت أخى العزيز الصـغير والكبير ويصير الهندى مملوكنا سلطاناً على مصر وله الكلمة النافذة علينا والوالى فى قبضة يده وكان النيل قريب الوفاء فقال على بك: خفف عنك والله إنى لقاتل الباشا يوم جبر البحر فقال أبو دفية وإنى لقاتل ذو الفـقار وقال مصطفى بك وإنى قاتل الهندى مملوكنا ثم تحالفوا على ذلك وتعاهدوا على العـمل وكان معهم فى تلك الليلة مملوك من مماليك عبد الله بك وقد كان هرب عند قتل سيده ولحق بالهندى وأقام فى خدمته أياماً فلما ارتقى مصطفى بك المناصب العاليـة أخذه من الهندى وجعله فى خدمتـه فلما سمع هذا المملوك ما تحالفـوا عليه ذهب إلى على بك الهندى وأعلمه بالخبـر فبعث به إلى ذى الفقار فأخـبره أيضاً فبعثه إلى مـحمد باشا فأخبره. فـلما كان يوم الديوان وقد صعد على بك أبو عزب إلى الخـدمة بالديوان أمر به الباشا فقبـضوا عليه وقتلوه من

ساعته تحت ديوان السلطان قايت باى وأحاط بداره ونهب ما فيها وكان شيئاً كثيراً للغاية وأرسل فى الحال مرسوماً إلى الأغا بالقبض على باقى أصحاب هذه المؤامرة فكان أول من قبض عليه منهم ابن إيواظ فأركبوه حماراً وأتوا به إلى الباشا فأمر به فقتل فى الحال واختفى الباقون فضعف بذلك جانب القاسمية وانحط قدرهم وعلت كلمة الفقارية ولم يبق ظاهراً من القاسمية إلا على بك الهندى فعمل ذو الفقار على قتله أيضاً فقتله وقتل معه آخرين.

واتفق أن عاد فى هذه الأثناء محمد بك شركس من فراره على ما تقدم بيانه فلما علم أصحابه برجوعه جاءوا إليه وأقبلوا جميعاً عليه فركب معهم ونزل إلى البحيرة يريد الإسكندرية فلاقاه حسين بك الخشاب فى جنوده يريد منعه والظفر به فهزمه جركس وغنم خيامه وخيله وجماله ثم هبط إلى الفيوم ونزل على بنى سويف ثم إلى القطيعة على مقربة من جرجا فاجتمع عليه من بقى منهم من القاسمية المتشردين فقام لصده حسين بك حاكم جرجا فركب عليه جركس المذكور وقاتله فقتل حسين بك وجماعة كثيرة من أتباعه وغنم جركس آلاتهم وجميع معداتهم وجاءت الأخبار بذلك إلى القاهرة فجمع ذو الفقار الأمراء وشاورهم فى الأمر فجهزوا لذلك عسكراً عظيماً صحبة عثمان بك وآخر اسمه على بك قطامش فتلاقوا مع جركس بوادى البهنسا واقتتلوا فكانت الهزيمة على عسكر ذى الفقار ومن معهم واستولى جركس على ما كان معهم من آلات الحرب والخيام والخيل وحال الليل بينهم فافترقوا ورجع المنهزمون إلى القاهرة فشق أمرهم على ذى الفقار وهاله جداً وجمع الأمراء ثانية واتفقوا على إرسال حملة أخرى ولكنهم لم يجدوا ما ينفقونه فطلبوا مرسوماً من محمد باشا البستانجى بثلثمائة كيس من مال الخزينة نفقة وعليهم رده من أموال السنة القابلة فامتنع الباشا فألحوا عليه فصمم على الامتناع فشكوا فلم يسمع فركبوا عليه وأنزلوه من قلعة الجبل وأقاموا محمد بك قطامش نائباً وأخذوا منه مرسوماً بالنفقة وجهزوا العسكر واهتموا بأمرها اهتماماً عظيماً فسارت هذه الحملة والتقت بجركس ومن معه فوقعت بين الفريقين حروب هائلة ووقائع متوالية انجلت عن هزيمة جركس وتبديد شمل جماعته وتمزيقهم كل ممزق.

(مطلب)

عزل محمد باشا البستانجي وولاية شاكر باشا

أما محمد باشا البستانجى فإنه بعد أن خلعوه أنزلوه من قلعة الجبل وحجروا

عليه أياماً حتى ورد الخبر بولاية باكر باشا وذلك فى سنة اثنتين وأربعين ومائة وألف فكانت مدة تصرفه الثانية أربع سنين وأشهراً ووصل إلى مصر باكر باشا الوالى الجديد فكان وصوله فى خلال الفتن واشتداد الخطوب والمحن فلم يعمل عملاً يذكر لأن البلاد كانت فى شدة وضنك بأسباب الحوادث المتراكم بعضها فوق بعض ولم يستقر به المقام إلا أياماً قلائل حتى ثار من فى البلد من القاسمية المختفين وثار معهم سليمان أغا أبو دفية فدخل منهم جماعة على ذى الفقار بك وقت العشاء فى رمضان من السنة وقتلوه وكان ذلك بتدبير من محمد بك جركس وهو مختف جهة الشرقية ينتظر موعدهم بعد قتل ذى الفقار بك فقضى الله بموت جركس قبل أن يعلم بخبر موت ذى الفقار وذلك أنه لما بعث ذو الفقار قومه فى طلب محمد جركس المذكور شددوا فى البحث عنه وتتبعوا خطواته فكان ينتقل من جهة إلى أخرى حتى سار إلى الشرق ومعه جماعة من عربان خويلد فتبعه عثمان بك قطامش بعسكره وسالم بن حبيب البدوى وقومه فتلاقوا معه واقتتل الفريقان قتالاً عنيفاً جداً انجلى عن هزيمة جركس ومن معه ففروا وألقوا بأنفسهم إلى النيل ونزل جركس بفرسه يريد العبور إلى الجانب الغربى من النيل فانغرز الفرس فى روبة تحتها الماء غزير فترجل عنه ليخلصه فسقط ومات غريقاً وكان على مقربة منه شادوف وعليه رجلان من الفلاحين ينقلان الماء إلى مزرعة لهما فنزلا إليه فوجدا الفرس وجركس ميتين ولم يعلما من هو فأخرجاه وأخذا ما عليه من الملابس وسلاحه وزرخه وما فى جيوبه ودفناه بالجزيرة ومر بها قارب صيد فطلباه ووضعاه فيه، وكان على بك جالساً بجانب النيل ومعه سالم بن حبيب فنظر سالم إلى القارب وهو مقبل فقال: ما هذا إلا سمكة عظيمة مقبلة إلينا فأوقفوا القارب فتقدم أحد الشدافين إلى على بك وقبل يده فقال له ما خبرك؟ قال وجدنا جنديا من المهزومين غريقاً ومعه حصان فلعله من المطلوبين وإلا ألقيناه فى الماء فقال لأحد أصحابه اذهب وانظر من هو فلعلك تعرفه فذهب وعاد فأخبر أنه محمد جركس الكبير وقد أحضر معه خاتمه فأمر به فأخرج من القارب وقبض على بك على أحد الشدافين وألزم الآخر باستحضار ما أخذه من الثياب والسلاح فأحضرها ثم أمر فاحتزوا رأس محمد بك جركس وغسلوا جثته ودفنوه ناحية شرونة وارتحلوا إلى القاهرة وكان القاسمية الذين بالقاهرة قد دخلوا على ذى الفقار وقتلوه كما تقدم القول ولبثوا ينتظرون قدوم محمد جركس وكان أبواب المدينة مقفلة وعلى كل باب منها صنجق والوجاقلية يطوفون فى الشوارع

وبأيديهم السيوف والقرابين المحشوة فلما وصل على بك قطامش إلى الآثار النبوية المعروفة عند العامة (بأثر النبى) أرسل يخبر بما جرى فخرج إليه عثمان بك ودخل صحبته بموكب حافل والرأس أمامهم محمولة فى صينية حتى طلعوا بها إلى قلعة الجبل ووضعوها بين يدى الباشا فخلع عليهم الخلع السمور ونزلوا إلى بيوتهم فأتتهم التقادم أيضاً من جميع الأمراء. قال أصحاب التاريخ : وكان جركس المذكور من أظلم خلق الله وأشدهم طغياناً وكان أتباعه على شاكلته فكانت أيامه شر الأيام وكانت الحروب فى عهده لا تقعد لها قائمة فاشتدت على الرعية الخطوب وتوالت المحن والكروب وتعاقب الغلاء وعم الويل والوباء واشتد البلاء وقتل البنون والآباء وكان موت محمد جركس المذكور فى أواخر سنة اثنتين وأربعين. أما الأمير ذو الفقار فقالوا أنه كان أميرًا جليل القدر شجاعاً بطلاً كريم الأخلاق مع قلة ثروته وعدم ظلمه وكان كثير الحسنات يرسل فى كل شهر رمضان من السنة لجميع الأمراء والأعيان والوجاقلية اليلكات والكساوى وللعلماء بالأزهر ستين كسوة ودراهم تفرق على الفقراء والمجاورين فكان محبوباً محترماً مهيباً نافذ الكلمة بكاه الناس كافة وحزنوا على فقده هذا ما كان من أمر الفتن بديار مصر.

أما ما كان من أمرها فى دار السلطنة فإنه لما تم لخصوم محمد باشا البلطه جى الصدر الأعظم النكاية به وعزله وتبعيده كما تقدم القول تولى الصدارة بعده عدة من الوزراء فلم تطل أيامهم ولم يفلحوا إلى أن تولاها على باشا دماد فأحسن التدبير وأصلح ما أفسده السلف وساق الجيوش إلى إخضاع أهل الجبل الأسود لتمردهم وخروجهم عن طاعة السلطان ثم سار لتدويخ البلاد التابعة لجمهورية البندقانيين وضمها إلى أملاك الدولة ومحو أثر الجمهورية المذكورة حيث كانت الدولة قد ملت من حروبها المتتابعة ففتح كثيراً من البقاع والقلاع كاستنديل وكورودوس وأتابولى وقتل وسبى وخرب ثم عاد إلى دار السلطنة ظافراً غانماً ولبث إلى أن زال الشتاء وكر راجعاً فى جيش عظيم لأخذ ما بقى من جمهورية البندقانية فلما علمت دولة النمسا بما وراء ذلك من استيلاء العثمانيين على خليج البندقانيين وأن هذا مما يفتح للعثمانيين بابا واسعاً لنقل مهماتهم وذخائر حربهم ويسهل لهم الهجوم على بلادهم ويغنيهم عن المجىء إليها عند طريق بلغراد وطمشوار أفاقت من غفلتها وراسلت الدولة العثمانية فى مجانبة الحرب مع جمهورية البندقانيين وأنذرتها بإنها إذا أبت ذلك أشهرت الحرب عليها فاستعظم الصدر هذا الأمر جداً وحول وجهه عن محاربة

البندقانيين إلى قتال النمسا فسار بجيوشه وشن الغارة على أملاكها فسيرت لقتاله جيشاً عظيماً للغاية ومقدمه البرنس أوجين دى سافوا وهو من أكبر قواد ذلك العصر وأعظمهم خبرة بفنون الحرب والقتال فاشتبكت الحرب بين الفريقين واشتد القتال فانتصر النمساويون نصرة مؤزرة فى موقعة بتروادين وقتلوا الصدر الأعظم فى ساحة الحرب ثم سار قائد الجيوش النمساوية إلى مدينة طمشوار فافتتحها بعد حصار أربعة وأربعين يوماً ثم نزل على مدينة بلغراد وحاصرها وشدد فى حصارها وكان قد تولى مسند الصدارة العظمى خليل باشا فحضر فى عسكر عظيم لاستخلاص المدينة ورفع الحصار عنها فلم يفلح وتغلب عليه العدو ودخل المدينة عنوة وأعمل فيمن بها من عساكر المسلمين السيف ووصلت الأخبار بذلك إلى القسطنطينية فعمدوا إلى طلب الصلح وأرسلوا إلى النمسا فى ذلك وكان الذى قد تولى هذا الأمر إبراهيم باشا نائب الركاب الهمايونى فاستكبر الجند هذا الأمر جداً وقالوا لا نترك طمشوار الجميلة فى أيدى الأعداء فأخذ الناس بقولهم ووافقوهم على استدامة القتال وتبعهم فى ذلك أيضاً طلبة العلم فسقط إبراهيم باشا فى يده وانفرد برأيه وبقى الكلام فى الصلح نسيا منسياً وأعيدت الحرب ثانية فانهزم العسكر الهمايونى هزيمة أشد من الأولى وانفشلوا وركبهم النمساويون بحد السيف فعادوا إلى طلب الصلح وكان إلى هذا الحين قد تولى إبراهيم باشا مسند الصدارة فعقد النمساويون الصلح بعد أخذ ورد فكانت شروطه شديدة على الدولة إذ تركت للنمسا ولاية طمشوار ومدينة بلغراد مع جزء عظيم من بلاد الصرب وآخر من بلاد الفلاخ وتركت لجمهورية البندقية ثغور شاطئ دلماسيا واسترجعت هى بلاد المورة ليس إلا. قال بعض الكتاب: ولو أظهرت الدولة يومئذ للعدو علامات القوة مع عزة النفس لتم عقد الصلح على وجه أليق بشرفها. فلما تمت شروط الصلح على هذه الصورة طمع الأعادى فيها واستخفوا بقدرها فتحركت دولة الروس إلى نكث العهود وسيرت سفيرها إلى دار السلطنة فى طلب إلغاء بعض الشروط المأخوذة على الروس فى معاهدة الصلح الأخيرة والتقى السفير بالصدر وكلمه فى الأمر وشدد عليه فى الطلب وقال إن لم تعجلوا بتعديل الشروط وإلا نقضناها بسيوفنا وكان الصدر الأعظم يكره الحرب ميالاً إلى الترف والراحة فخاف سوء العاقبة وأجابه إلى جميع ما طلب فلم يبق للدولة بعد ذلك شىء من الامتيازات والحقوق التى أريقت بسببها الدماء الكثيرة وقاتلت الأشهر والأعوام الطوال. قال بعض الكتاب: ومع أن المتاركة بين الدولة وخصومها

كان لأجل أن تتمكن الدولة من لم شعث جنودها لتقوى بهم على قمع الأعداء وإيقاف كل عند حده فقد كانت سبباً فى إدخال عوائد جديدة على الناس مالت بطباعهم إلى السفاهة وما شاكلها من نتائج الطيش فأصبح السواد الأعظم أسيرا للملاهى وعبدا للملاذ ففسدت الآداب وانحلت الرابطة الطبيعية القائمة بين الأزواج وزوجاتهم وبالغ الناس فى السرف والترف واندفعوا إلى تشييد المبانى الفاخرة والقصور العظيمة وأنشئوا القاعات الفسيحة المزينة بأنواع النقوش والرخام وغرسوا فى أطرافها الأزهار وأوقدوا فيها المصابيح وجعلوا ظهور السلاحف منائر لها فكانت تلك السلاحف تتجول فى طرق القاعات والجنائن والأنوار تسطع على ظهورها وتنبث مرتبة على أحسن نظام فكانوا لذلك يطلقون عليها اسم جراغان ومعناها الشموع. قال: وقد بنى إبراهيم باشا الصدر الأعظم قصراً جميلاً بجوار بشكطاش سماه بقصر جراغان فكان يأدب فيه فى كل سنة مأدبة حافلة للسلطان وأولاده فيأتى إليها للتفرج على تلك السلاحف الحاملة للأنوار فكان يقيم على هذه الحال أياما وكان هذا الدور فى دار السلطنة محسوباً من أحسن الأدوار صفاء وذوقاً إلا أنه قد أورث الدولة خللا والأمور خطلا والناس كسلا وذهب بكثير من حقوقها وامتيازاتها العظمى.

وانتبه الصدر الأعظم من رقدة ذلك الترف وسكرة تلك الملاذ فرأى أن دولة فارس قد انحلت أو كادت وأن الأفغانيين قد تغلبوا عليها واستولوا على أصفهان فخاف شر العاقبة واستعد لإرجاع ما كان فى حوزة الدولة العثمانية قديماً من البلاد والإيالات ودخلت فى يد فارس قبل أن يبتزها غيرها وسير لذلك جيشاً عظيماً فرافقه النصر وتغلب على عدة إيالات كهمذان وكنجه وروان وشروان وكورجستان وقام كذلك الروس واحتلوا ضاغستان وكافة سواحل بحر الخرز فلم تلبث تلك الإيالات تابعة للدولة حتى قام نادر شاه وتولى ملك فارس واستردها جميعها واسترد كذلك ما كان بيد الروس بعد حروب هائلة جداً كادت تخرب بسببها الأناطولى وغيرها وجعل نادر شاه من هذا الحين يشن الغارة على الحدود العثمانية ولا ينكف عن السلب وإراقة الدماء فكبر أمره على أصحاب الحل والعقد وأنكروا هذه الأحوال على إبراهيم باشا الصدر الأعظم ورموه بالمروق عن جادة العمل وتبعهم العامة فى ذلك فطعنوا فى الصدر وقالوا إنه ترك ما كان عليه أسلافه من الاعتناء بتدريب الجند وتنظيم أحوال المقاتلين وأنه منغمس فى الملاذ واللعب وقد عوّد السلطان على اللهو

والخلاعة وجعل مراتب الدولة ورتبة الوزارة فى أيدى الندامى بعد أن كانت لا تعطى إلا لأهل الخبرة والدراية بجميع الأمور والمستعدين للقيام بها من المجاهدين وأنه ترك لنادر شاه ما كان قد استولى عليه بالحرب والجهاد فلما أنس إبراهيم باشا منهم ذلك أخذ يستعمل الحيلة فضرب السرادقات الهمايونية فى إسكدار لإرهاب نادر شاه المذكور وأذاع السفر إلى بلاد فارس للانتقام منه ولبث على هذه الحال عدة أيام فاشمأزت من ذلك النفوس وتكدرت خواطر الناس وظهرت الفتنة فى القسطنطينية وتأججت نارها وارتفع لهيبها وكان بعض محبى الصدر الأعظم قد حذروه أمر الفتنة فلم يلتفت لقولهم وكذلك تقدم بعضهم إلى كتخدا بك وحذره وقال: إن الخطب شديد والفتنة قائمة فأنكر عليه ذلك وأنبه . واجتمع جماعة من أركان الدولة وأبلغوا السلطان ما كان عليه الناس عليه من الهياج والفتنة إن طال بقاء الصدر فى منصب الصدارة فلم يلتفت لقولهم نظراً لعلو مكانة الصدر عنده فانكمش أهل النصح ولبثوا ينتظرون ما يظهره القضاء وقد اتسع الخرق واشتدت نار الفتنة فرسم الصدر عند ذلك بإخراج البيرق الشريف. وهو بيرق صاحب الشريعة المحمدية، ونادى بالاجتماع حوله فلم يلتفت أحد للنداء وطاف العامة يفسدون وينهبون كل ما وصلت إليه أيديهم وكان زعيم هذه الفتنة رجلاً اسمه بطرونا خليل.

فلما كان خامس عشر ربيع الأول من السنة أى سنة ثلاث وأربعين ومائة وألف هجرية سير بطرونا المذكور إلى السراى السلطانية جماعة يطلبون قتل الصدر الأعظم والمفتى وقبطان باشا السفن الحربية فامتنع السلطان من إجابة الطلب فشددوا وهددوا وتوعدوا بما لا خير فيه فخاف السلطان شرهم ورسم لهم بقتل الصدر وأمير سفن الحرب ومانع عن المفتى فقتلوهما وألقوا جثتهما فى البحر على مشهد من جميع الناس. ولم تغرب شمس ذلك اليوم حتى عاد أهل الثورة إلى الهياج والجلبة والتطواف فى شوارع القسطنطينية وهم ينادون بخلع السلطان وتنزيله عن منصب الخلافة وتولية ابن أخيه السلطان محمود الأول بدله ثم ساروا إلى السراى السلطانية وأبلغوه ذلك فأسرع إلى إجابتهم وخلع نفسه وبايع ابن أخيه بالملك وذلك فى ليلة التاسع عشر من ربيع الأول سنة ثلاث وأربعين ومائة وألف هجرية وبقى معزولا إلى أن توفى فى أول المحرم افتتاح سنة اثنتين وخمسين ومائة وألف هجرية فكانت سلطنته زهاء سبع وعشرين سنة.

(الفصل السابع عشر)

(في سلطنة السلطان محمود خان الأول)

ثم قام بالأمر بعد السلطان أحمد ابن أخيه السلطان محمود خان الأول ابن السلطان مصطفى بويع بالملك فى الليلة التى خلع فيها عمه ليلة التاسع عشر من ربيع الأول سنة ثلاث وأربعين ومائة وألف هجرية أى سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة وألف ميلادية وقد تولى الأمور فى اضطراب والأحوال فى اختلال ولا كلمة فوق كلمة البطرونا خليل فإنه منذ خلعه للسلطان أحمد وقتله للصدر الأعظم وأمير سفن حرب الدولة بسط يده على جميع الأمور وصار يتصرف فى أعمال الدولة كيف شاء فأكثر من العزل والتولية وسام الناس الخسف ولم يفرق بين الجليل والحقير فأمر ونهى وجار وظلمْ وكان إذا رأى من طوائف الانكشارية تذمراً بالغ فى التضييق عليهم وشدد وأوقع بكبارهم فيخافون ويخلدون إلى السكون صاغرين فلما ضاق بهم الخناق ونفد منهم الصبر اجتمع كبارهم حول السلطان وحببوا إليه قتل البطرونا خليل المذكور وكان السلطان يتمنى حصول ذلك فوافقهم فقاموا وركبوا عليه فقتلوه وتأهبوا لقتال أصحابه إن هم قاموا للأخذ بثأره فلم يقو أصحابه على الخروج وأوقعت بهم طوائف الانكشارية وأعملوا فى كبارهم السيف فعادت الأمور إلى سابق مجراها من الهدو والسكينة وأمن الناس على أرواحهم وأموالهم وانطلقت كلمة السلطان فتصرف ودانت له الأمور فسير الجيوش لقتال ملك فارس واسترجاع ما أخذه من الإيالات على أيام عمه السلطان أحمد فوقعت بينه وبين العسكر السلطانى عدة حروب كان النصر فيها لعسكر السلطان ثم أقام عثمان باشا الأعرج أحد مقدمى العسكر الموصوفين فى المعامع والحروب سر عسكر لجيوش الشرق فقاتل ملك فارس وظفر به فى صحراء كركوك ومزق شمل عساكره ففر ملك فارس مجروحاً ثم عاد فى جيش جرار للقتال ثانية فكانت الحرب بين الفريقين سجالاً وطالت أيامها فمات فى خلالها السر عسكر عثمان باشا وأرسلت الدولة إلى ملك فارس فى طلب الصلح فأجابها إليه بشرط رد جميع ما أخذته الدولة من مملكته وإرجاع حدود الدولتين إلى ما هو مذكور فى معاهدة إبراهيم باشا فتم الصلح على هذا الوجه وبطلت الحرب وارتفعت أوزارها.

ورأت النمسا أن الدولة بعد عقد الصلح مع فارس تفرغت أو كادت ولابد من أن تنوبها الشرور فخافت ولم تمهلها وحشدت فى سنة ثمان وأربعين ومائة وألف جيشا عظيما واتفقت معها أيضا حنة قيصرة الروس على هذه الحرب فساقت عسكرها على عسكر الدولة تحت قيادة الجنرال مونيخ فجعل القائد المذكور يذيع الخبر بأنه سيجيء بهذه الغزوة دولة الروم القديمة ويعيد لها مجدها الأول ففرح بذلك الروم وأشرابت نفوسهم إلى هذا المأمول وتلقى أهالى البغدان عساكر الروس عند دخولهم إلى بلادهم بالفرح والقبول وسهلوا أمامهم السبل والعقبات فاشتبك القتال بين الروس والعثمانيين وتمزق جمع العثمانيين وأبلى فيهم الروس بلاء حسنا وأخذوا إقليم البغدان واحتلوا مدينة ياسى عاصمة الإقليم المذكور وانتصرت عساكر النمسا أيضا وأغارت على بلاد البوسنة والصرب والفلاخ فكبر كيد الدولة وكادت تسقط فى يدها، واتفق أنه تولى فى هذه الأثناء مسند الصدارة الحاج محمد باشا وهو من نخبة السياسيين المشهورين بالكياسة وحسن التدبير فرأى من تقهقر عساكر الدولة وانتصار الأعداء عليهم ما أدهشه فأسرع فى حشد الجيوش وإعداد المعدات وسار لمنع تقدم العساكر الروسية وإيقافهم عند حدهم وسير فريقا آخر لقتال عساكر النمسا فظفروا بهم وانتصروا عليهم وانهزموا شر هزيمة وتقهقروا إلى ماوراء نهر الدانواب ثم ساق الحاج محمد باشا بعسكره فرافقه النصر وقيض الله له الظفر فركنت النمسا عند ذلك إلى طلب الصلح ووافقها أيضا على طلبه حنة قيصرة الروس وخابروا الحاج محمد باشا فى أمره وسعت الرسل بين الفريقين وبعد أخذ ورد تمت شروطه على تنازل النمسا للدولة العثمانية عن مدينة بلغراد وجميع ما أعطى لها من بلاد الصرب والفلاخ بمقتضى المعاهدات السابقة لهذه الحرب وتعهدت كذلك قيصرة الروس بهدم قلاع وحصون مينا أزاق وعدم إعادتها مرة ثانية وبعدم إنشاء سفن حربية أو تجارية بالبحر الأسود أو ببحر أزاق وبأن ترد للدولة العثمانية جميع ما أخذته من الأقاليم والبلدان . قال أحد الكتاب: وسميت هذه المعاهدة معاهدة بلغراد ولما تم الصلح على ما ذكر بطلت الحرب وسكنت القلاقل أياما كثيرة .

(مطلب)

عزل أحمد باكير باشا وولاية عبد الله باشا التكفويرلي

وما كانت هذه الحروب المتتابعة والخطوب المتواصلة لتشغل رجال الدولة عن

كثرة العزل والتولية فى ولاة مصر فإنه لما تولى السلطنة محمود خان كان الوالى على مصر من قبل السلطان أحمد باكير باشا فجاءه الأمر بالعزل وتولاها عبد الله باشا التكفويرلى فدخل القاهرة فى سنة ثلاث وأربعين ومائة وألف هجرية . قال أصحاب التاريخ : وكان من أرباب الفضائل وأصحاب المعارف العالية والعلم والشعر وله ديوان شعر جيد على حروف المعجم ومدحه شعراء مصر لفضله وميله إلى أهل العلم والأدب فقال بعضهم.

ولما جاء مصرا أرخوه لقد سعدت بعبد الله مصر

١٣٤ ٥٣٤ ٧٨ ٦٦ ٣٣٠

سنة ١١٤٢

وكان خيرا صالحا منقادا للشريعة أبطل المنكرات وحانات الخمارين ومواقف المومسات والبوظ من بولاق وباب اللوق وطولون ومصر القديمة وجعل للوالى والمقدمين عوضا عما كان مرتبا لهم على تلك المحال فى كل شهر كيسا من كشوفيات الباشوات وكتب بذلك حجة شرعية ولعن فيها من تسبب فى إعادة تلك المحال ولم يحدث فى أيامه شيء يذكر إذ كانت قصيرة جدا حيث عزل فى أواخر سنة أربع وأربعين ومائة وألف هجرية.

(مطلب)

عزل عبد الله باشا وولاية محمد باشا السلحدار

وتولى بعده محمد باشا السلحدار والى البصرة فدخل القاهرة فى أوائل سنة خمس وأربعين ولبث يتصرف إلى سنة ست وأربعين ولم يعمل فى أيامه عملا يذكر وجاء الخبر بعزله وتولية عثمان باشا الحلبى فحضر إلى مصر عن طريق العريش ونزل بالعادلية ولاقته أرباب العكاكيز وأصحاب الوظائف فصعد إلى قلعة الجبل فى موكب حافل ونزل منها محمد باشا المعزول وسافر إلى الديار الرومية فأخذ عثمان باشا يتصرف وجاءه فرمان السلطان باحصاء اليهود والنصارى وجمع ما عليهم من الجزية فى كل بلد العال أربعمائة نصف وعشرون نصفا والوسط مائتان وسعبون والدون مائة نصف فاهتم عثمان باشا بالأمر وقيد بذلك عمالا فطافوا البلاد كافة وأحصوا أهلها وفعلوا من الجور والعسف بأهل البلاد ما لا يكيف فضج الناس وشكوا فلم يلتفت إليهم وظل الحال على ذلك حتى دخل شهررمضان واشتغلوا بظهور رجل

تكرورى بالجامع الأزهر يدعى النبوة وقد ذاع خبره وكادت تعم شهرته فأحضروه بين يدى الشيخ أحمد العماوى فسأله عن حاله فأخبره أنه كان فى شربين فنزل عليه جبريل وعرج به إلى السماء ليلة سابع عشرى رجب فصلى بالملائكة ركعتين وأذن له جبريل فلما فرغ من الصلاة أعطاه ورقة وقال له أنت نبى مرسل فأنزل وبلغ الرسالة وأظهر المعجزات فلما سمع الشيخ كلامه قال له أنت مجنون فقال لست بمجنون وإنما أنا نبى مرسل فأمر به فضروبوه وأخرجوه من الجامع فجعل يطوف الأزقة والحارات ويكثر من الجلبة والصياح فسمع عثمان كتخدا بخبره فأحضره وسأله فقال مثل ما قاله للشيخ فبعث به إلى دار المجانين فاجتمع الناس وكثرت حوله العامة رجالا ونساء وكادوا يصدقونه ويدفعون عنه الإيذاء فخاف الوالى شر العاقبة وأمر فأخفوه عن أعين الناس لتسكن الفتنة ثم طلبه الباشا وأمر بحبسه فحبسوه ومنعوا من دخول أحد إليه أياما، فلما كان النصف من رمضان اجتمع العلماء وأحضروه بين أيديهم فسألوه فلم يتحول عن كلامه فعالجوه فشدّد فأمروه بالتوبة فامتنع وصمم على ما هو عليه فأمر الباشا بقتله فقتلوه فى حوش الديوان وهو يقول : فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل. ثم أنزلوه وألقوه بالرميلة ثلاثة أيام فكاد الناس يفتنون ولم تهدأ الخواطر حتى شاع بين الناس بالقاهرة ومصر القديمة أن القيامة قائمة يوم الجمعة سادس عشرى ذى الحجة من السنة أى سنة سبع وأربعين وفشا هذا الكلام فى الناس قاطبة حتى فى القرى والأرياف وودع الناس بعضهم بعضاً وهم بين راغب فى التوبة وداع بطلب المغفرة وباك على ما فات من أيامه ومنهم من كان يقول لرفيقه بقى من عمرنا يومان فقد كانت هذه الأشاعة فى يوم الأربعاء رابع عشرى الحجة. وانتشر أهل الخلاعة فى الجنائن والمنتزهات ليودعوا الدنيا كما كان يقول بعضهم لبعض وخرج أهل الجيزة نساء ورجالا وصاروا يغتسلون فى النيل ومن الناس من علاه الحزن والوهم واعتقدوا صحة الإشاعة ووقع صدقها فى نفوسهم موقعا عظيما وكثر فيها الهرج واشتد بهم الخوف فتعطلت الأعمال وكادت تقفل الأسواق وما زالوا على هذا الحال إلى يوم الجمعة فلم يقع شىء مما كانوا يتوقعون ومضى يوم الجمعة وأصبح يوم السبت فلم يقع كذلك شىء. قال صاحب عجائب الآثار: فانتقلوا يقولون فلان العالم قال: إن سيدى أحمد البدوى والدسوقى والشافعى تشفعوا فى ذلك وقبل الله شفاعتهم فيقول الآخر اللهم نفعنا بهم فإننا يا أخى لم نشبع من الدنيا وشارعون فى عمل حظ ونحو ذلك من الهذيانات أهـ.

(مطلب)

عزل عثمان باشا وولاية باكير باشا الولاية الثانية

وأقام عثمان باشا يتصرف فى الولاية إلى سنة ثمان وأربعين ومائة وألف هجرية ثم عزل وتولى بعده باكير باشا وهى ولايته الثانية فكانت مدة تصرف عثمان باشا سنة وخمسة أشهر وحضر باكير باشا من جدة إلى السويس إذ كان واليا بجدة بعد عزله من ولايته الأولى على مصر وكان دخوله القاهرة فى يوم السبت رابع عشرى شوّال سنة سبع وأربعين ومائة وألف وصعد إلى القلعة فى موكب حافل للغاية وخلفه من الحشم والأتباع زهاء الثلاثين على ظهور الخيل الملبسة بالزروخ المذهبة وله من الأولاد خمسة ذكور ركبوا أيضا أمامه فلما مر من وسط المدينة صاح الناس فى وجهه وعلا صراخ العامة من ثقل المغارم والكلف وفساد العملة فلم يلتفت لصراخهم وسار حتى صعد القلعة ولم يلبث حتى جعل يدس الدسائس بين الأمراء وصار يعمل على فساد أمورهم وتفريق كلمتهم ومازال حتى كاد يتم له ما أراد ولكن ظهر فى غضون ذلك الطاعون وفشا فى المدينة وانتشر فى البلاد قاطبة وفتك بالناس فتكا ذريعا لم يسبق له مثال فسماه العامة طاعون كو وسموه أيضا الفصل العائق يأخذ على الرائق ومات به خلق كثير للغاية وكان فعله كثيرا فى الأعيان فكانت الناس تدفن الموتى فى ضوء المشاعل حتى كاد لا يوجد من يدفن الموتى التى كانت تقع فى الشوارع والحارات واشتد شدة بالغة جدا وطالت أيامه. وبينما الناس على هذا الحال من الشدة وهم يضجون ويعجون إلى الله من كثرة الموات إذ اضطرمت نار الفتنة بين الأمراء وعلا لهيبها واشتد سعيرها. وتحرير الخبر: أن كاشفا اسمه صالح زوج ابنة إيواظ بك كان ملتجئا إلى عثمان بك ذى الفقار وكان صالح هذا من القاسمية فحرضته زوجته على طلب إمارة القاسمية فطلب من عثمان بك أن يساعده على ذلك فوعده وخاطب محمد بك قيطاس المعروف بقطامش وهو إذ ذاك كبير القوم فى ذلك فلم يجبه خوفا من أن يعود القاسمية إلى مظهرهم القديم فيظفروا بالفقارية ويستأصلوا شأفتهم بعد الذى وقع بين الفريقين فبعث عثمان بك بصالح المذكور إلى البحيرة كاشفا نائبا عنه حيث كانت له فلما كملت السنة رجع إلى القاهرة وتحركت همته إلى طلب الإمارة وألحت عليه زوجته فى ذلك فعاود عثمان بك فى الخطاب وهو تكلم مع محمد بك فصمم محمد بك على الامتناع ووافقه على ذلك على بك تابعه وآخر اسمه خليل افندى فذهب صالح

المذكور إلى عثمـان كتخدا القزدغلى وشكا إليه حاله ومـا يلاقيه من قيطاس ثم بكى واستمال عثمان كتـخدا المذكور تابعه وخليل أفندى على أن يكونوا معه على قيطاس فقـام القزدغلى من سـاعته واجـتمع برضوان بك أمـير الحاج سـابقا وسليـمان بك الفراش وتكلم مـعهما فى أمر قـتل المذكورين فوافقـاه على أن يكون قتلهم فى بيت محـمدبك الدفتـردار على علم من باكيـر باشا الوالى وأخـبروا محـمد بك بذلك فرضى وكتب يطلب اجتماع الأمراء كافة فى بيت الدفتردار للمداولة فى أمور الخزينة فركـبوا جـميـعا إلى بيت قـيطاس بعد العـصر ومن هناك توجـهوا معـه إلى بيت الدفتـردار فلما تكاملوا ولم يبق منهم أحد أمـر محمد بـك قيطاس بتحرير عـريضة وأملى الكاتب بصورة ما يـكتب فخرج الكاتب وكان قد دخل الغـروب فأراد القوم الانصـراف فوقف الدفـتردار وقـال: مهـلا هاتوا لنا شـربات وكان هذا القـول هو الإشارة مع صالح المذكور وعثمان كاشف وآخـر من مماليك سليمان بك ففتحوا باب خزانة كانت بالمكان الجالسين فيه فخرج منها جماعة على رؤوسهم طرابيش وبأيديهم الأسلحـة فوقف عند ذلك مـحمد بـك قيطاس على أقـدامه مذعـورا فأطلق عـليه أحدهـم طبنجة فى صـدره ووقع الضرب وهاج من كـان فى المكان وامتـلأ المكان بدخان البارود وظلام الليل فلم يعلم القاتل من المقتـول وألقى على الترجمان بنفسه من شباك مطل على الجنينة وأصـاب عثمان بك ذا الفقار ضربة سـيف قطعت شاشه وقاووقه فأخذ بيده صالح صاحب هذه الفـتنة وأنزله فنجا بنفسه وركب حصان أحد الطوائف وخرج من باب البركة وأصـيب مستحفظان البرلى بجراح عظيـمة فحملوه إلى بيته ثم أوقـدوا الشموع ونظروا إلى الأموات وإذا هم محـمد بك قيطاس وعلى بك تابعـه وصالح بك وعـثمان بك كـتخـدا القازدغلى وأحـمد كـتخدا الخـربطلى ويوسف كـتخـدا البركـاوى وخليل افندى وأغـات الجمليـة وعلى صالح جـربجى والأسباهى فكانت عـدتهم عشرة غير مسـتحفظان البرلى الذى مات بجـراحه بعد ثلاثة أيام فعروا المقتولين من ثيـابهم واحتزوا رؤوسهم وأتوا بهم إلى جامع السلطان حسن فـوجدوه مغلقا فـأحرقوا الباب الذى جـهة سوق السلاح ووضـعوا الرؤوس العشرة على الدرج ووضعوا عند كل رأس شيئا من التبن ولما شاع الخبر بما جرى سار صالح كاشف رأس هذه الفتنة إلى باكير بـاشا ليلا من باب الميدان وأعلمه بما جرى فخلع عليه رتبة الإمارة فطلب منه مالا يفرقه على العسكر المجتمعين إليه فوعده بأن يرسل إليه مـا طلب فنزل صالح إلى جـامع السلطان حسن فـوجد محـمد كتـخدا الداودية وأتباعه وجماعة آخرين فلبث مـعهم ينتظر المال وصعد عمر جلبى بن على

بك قيطاس بطائفة من قومه إلى باكير باشا يطلب بثأر أبيه وكان وصوله بعد نزول صالح كاشف فخلع عليه الباشا إمارة أبيه قيطاس ورسم له بقتال قاتلى أبيه ومن معهم وكان يود لو أنهم يقطعون بعضهم بعضا فنزل ابن قيطاس وأصحابه وأمامهم بيرق من المحجر خلف جامع المحمودية وبيت الحصرى وزاوية الرفاعى وعملوا متاريس على باب الدرب قبالة باب جامع السلطان حسن وجعلوا يطلقون بنادقهم تباعًا على كل من يمر بهم من الخصوم وعلى من هم بجامع السلطان حسن وكذلك من باب العزب وبيت الأغا.

(مطلب)

عزل باكير باشا وولاية مصطفى باشا أميراخور

أما صالح كاشف رأس هذه الفتنة فإنه لبث ينتظر حصول المال للنفقة على الجند فلم يرسل له الباشا شيئا فخاف وخشى العاقبة ونزل إلى خان الخليلى ومعه رضوان بك وعثمان كاشف ومملوك من مماليك سليمان بك واختفوا وظل ابن قيطاس وأصحابه يوالون الرمى على الجامع حتى انقطعت أصوات بنادق من كانوا به فاقتحم هو وأصحابه باب الجامع فلم يجدوا به أحدا فرجعوا وباتوا ليلتهم خلف المتاريس فلما أصبحوا ذهبوا إلى بيت الدفتردار ونهبوه ونهبوا بيت رضوان بك ودخلوا على سليمان بك فقتلوه واحتزوا رأسه ونهبوا ما فى بيته فلما رأى كبار الوجاقات ما بلغت إليه هذه الفتنة وأنها إنما هى بإيعاز من باكير باشا قاموا على قدم رجل واحد وأحاطوا بالقلعة وأنزلوا باكير باشا ذليلا مقهورا وسجنوه وكتبوا إلى دار السلطنة بما وقع وطلبوا إرسال وال آخر فأرسل السلطان الأمير مصطفى باشا أميراخور لضبط أموال من قتلوا فى هذه الفتنة فلبث شهرين ثم ورد الأمر بولايته فتولاها فكانت مدة تصرف باكير باشا سنة وبضعة أشهر .

(مطلب)

عزل مصطفى باشا وولاية سليمان باشا الشامى المعروف بابن العظم

وجعل مصطفى باشا المذكور يتصرف إلى سنة اثنتين وخمسين ومائة وألف هجرية ثم عزل ولم يقع فى أيامه شيء يذكر وتولاها سليمان باشا الشامى المعروف بابن العظم فلما استقر به المنصب عمد إلى إيقاد نار الفتنة ثانية بين أمراء الوقت

وجعل يدبر لذلك فاستمال إليه عمر بك ابن على بك قطامش واختصه لنفسه ثم كاشفه بما فى ضميره واتفق معه على قتل عثمان بك ذى الفقار وإبراهيم بك قطامش وعبد الله كتخدا القزدغلى وعلى كتخدا الجلفى وهم إذ ذاك أصحاب الرئاسة ووعده إمارة مصر والحاج إن هو أنفذ ذلك فجمع عمر بك أربعة من أخصائه وأطلعهم على ما وقع الاتفاق عليه مع الباشا فتعهد كل واحد بقتل واحد منهم فكان أول من قتل منهم على كتخدا قتله رجل اسمه لاظ إبراهيم عند بيت اتبرى وهو صاعد إلى الديوان وشاع خبر قتله ففرح الباشا بذلك ظنا منه أن قد قضى الأمر فهم بضبط باب العزب وسير لذلك مائتى جندى فمنعهم جند الباب من العبور وطلب متولى الباب اثنين من كبارهم يسألهما عن مرادهم فقالا: إننا أتينا لتشفع لنا عند الباشا فإنه لم يعطنا علائفنا فأرسل معهم من يشفع لهم فلم يفلحوا فى هذه المرة ثم انكشف أمر الباشا وانفضح سره فقام حسين بك الخشاب وصعد إلى باب العزب ومازال بمتوليه حتى أنزله وتولى هو أشغال الباب وجمع إليه جميع أصحابه بالمكان الذى كان فيه الباشا وأرسلوا يقولون له انزل إلى قصر يوسف بك فركب من ساعته وأراد العبور من باب الانكشارية فوجهت أصحاب الباب أفواه البنادق نحوه فعاد ودخل قصر يوسف بك ثم نزل بعد أيام إلى بيت البيرقدار ومازال به حتى سافر إلى الديار الرومية فكانت مدة تصرفه إلى شهر جمادى الأولى سنة ثلاث وخمسين ومائة وألف هجرية وكانت أيامه كلها قلاقل واضطرابات.

(مطلب)

عزل سليمان باشا وولاية على باشا حليم أوغلى

وتولى بعده الوزير على باشا حليم أوغلى وهى الولاية الأولى على مصر فدخل القاهرة فى جمادى الأولى سنة ثلاث وخمسين وأقام إلى عاشر جمادى الأولى سنة أربع وخمسين فكانت أيامه كلها هدأ واطمئنانا والفتن فيها راقدة.

(مطلب)

عزل على باشا وولاية يحيى باشا

ثم جاء الأمر بخلعه فنزل من قلعة الجبل وأقام فى بيت القاردغلى ولبث ينتظر الوالى الجديد. فجاء إلى القاهرة يحيى باشا وصعد إلى قلعة الجبل فى الموكب المعتاد

وصعد إليه على باشا المخلوع فلاقاه وأكرمه ثم نزل هو كذلك فسلم عليه وسرحه فسافر إلى الديار الرومية وأخذ يحيى باشا يتصرف فى الأمور إلى أن جاءه الأمر بالعزل مستهل رجب سنة ست وخمسين ولم يقع فى أيامه شىء يذكر.

(مطلب)

عزل يحيى باشا وولاية محمد باشا اليدكشى

وتولى بعده محمد باشا اليدكشى فلما استقرت به الولاية لم يأت عملا ما سوى النهى عن تعاطى الدخان فى الشوارع والدكاكين والجلوس على أبواب البيوت وشدد فى ذلك جدّا فكان يطوف الأغا والوالى وهما فى التبديل كل يوم ثلاث مرات وشدّدا فى الإنكار والنكال بمن يفعل ذلك وكان الوالى إذا رأى فى يد أحد أنبوبة الدخان عاقبه وربما أطعمه حجر الأنبوبة الذى يوضع فيه الدخان بالنار وكذلك كان يفعل الأغا ولم يات من أعماله شيئا غير ما ذكر حتى جاءه الأمر بالعزل سنة ثمان وخمسين فكانت مدّة تصرفه نحو سنتين ففرح الناس بخلعه فرحا لا يوصف.

(مطلب)

عزل محمد باشا اليدكشى وولاية محمد راغب باشا

وتولى بعده محمد راغب باشا وحضر إلى الإسكندرية فذهب لملاقاته أصحاب العكاكيز وأرباب الرتب العالية فلما استقرت به الولاية أخذ يدبر الحيلة لقتل من بقى من الأمراء أصحاب الوقت واستمال إليه حسين بك الخشاب واستخلصه ثم كاشفه بما فى نفسه ثم أقسما الأيمان على أن لا يخونا بعضهما وأعلمه أن السلطان محمود إنما يريد قطع دابر بيت القطامشة والدمايطة وهم أصحاب الكلمة يومئذ فأجابه إلى مرغوبه وهون عليه الأمر وأخذ من يومه يدبر الحيلة ويتبين أنفع الوسائل وأحسن الطرق حتى اجتمع بمن يعتمد عليه من أصحابه وأخبرهم بما علمه من الباشا فاتفقوا على قتل كبارهم بالديوان عند صعودهم إليه وتحالفوا على ذلك وأغلظوا فى الأيمان. فلما كان يوم الديوان أخذ الأمراء فى الحضور جماعة بعد جماعة وحضر بينهم خليل بك وعلى بك الدمياطى ومحمد بك وجلسوا فى أماكنهم فبرز شخص اسمه عثمان أغا أغات المتفرقة وجلس بجانب خليل بك وقال: له لماذا لم تدخل

على الباشا وقد مضى عليك أيام ولم تفعل ذلك؟ فقال خليل بك: دعنا فإنا لسنا ممن يهتم بأمره وقد تركناه لك فأظهر عند ذلك عثمان أغا المذكور الغيظ وصاح فى وجه خليل بك وكأنك تهزأ بى وجرد خنجره فى الحال وطعن خليل بك فسقط ميتا لا حراك به وكان بقية المتؤامرين مختفين فلما سمعوا الصياح خرجوا جميعا والسيوف بأيديهم مسلولة فضربوا عمر بك بلاط واحتزوا رأسه ورأس خليل بك فهرب من كان بالمجلس ودخلوا بالرأسين على الباشا وهرب على بك الدمياطى ومحمد بك ونزلا إلى نوبة الجاويشية واختفيا فيها فأرسل الباشا يطلبهما وقال: إن السلطان رسم بذلك فأتوا بهما إليه فأمر بهما فقطعت أعناقهما أيضا وعم خبر ماجرى الآفاق فخاف من بقى من الأمراء وتجرد إبراهيم بك وعمر بك وسليمان بك الألفى للمقاومة فرسم الباشا بقتالهم وأمر العسكر بالتأهب لذلك فاجتمعوا وأخذوا ما لزمهم من آلات الحرب والمدافع والمكاحل وساروا إلى القاهرة ونصبوا بعض مدافعهم على قنطرة سنقر وكان بها بعض أولئك المشاغبين فلم يقووا على القتال مع العسكر وتفرقوا إلى الأقاليم القبلية فدخلت العساكر بيت إبراهيم بك ونهبوه وكذلك نهبوا بيت خليل بك وذهبوا إلى بيت على بك فوجدوا فيه صنجقا قد احتله وامتلكه بما فيه فلم يتعرضوا له وكذلك لم يتعرضوا ليوسف بك ناظر الجامع الأزهر بسوء.

ولم تكد تجف دماء الذين قتلوا بالديوان حتى طلب الباشا من حسين بك الخشاب أن يعمل على قتل إبراهيم جاويش القازدغلى ورضوان كتخدا الجلفى وأطمعه فى ولاية الأمر والانفراد بالكلمة فتعهد له بذلك وقام لساعته يدبر أمره مع أصحابه الذين عليهم معتمده فاتضح أمره وانكشف سره وعلم إبراهيم جاويش ورضوان كتخدا بالمكيدة فقاما وقامت معهما الجند والعسكر وامتلأ باب الإنكشارية وباب العزب بطوائف الجند واجتمع أمراء العسكر كافة بسبيل المؤمن والأسباهية بالرميلة وأرسلوا يطلبون من الباشا مرسوما بالركوب على بيت حسين بك الخشاب وقتله فلم يرض وامتنع فبعثوا له طائفة من كبار العسكر يطلبون ذلك فإن أبى أنزلوه من القلعة فامتنع فأنزلوه هو وجميع عياله وأتباعه من قراميدان إلى أن صار بالرميلة فأراد أن ينزل على شيخون إلى بيت حسين بك الخشاب وإذا بالعزب المرابطين فى جامع السلطان حسن أطلقوا عليه البنادق لرده فقتل أحد اتباعه فنزل على بيت آق بردى إلى بيت ذى عرجان تجاه المظفر فأرسلوا إليه إبراهيم بك بلقية صحبة كتخدا

الجاويشية فلم ير بدا من أن يوليه النيابة وعاد إبراهيم بك إلى بيته فأخذوا منه مرسوما بجر المدافع إلى ناحية الصليبة وسار أمراء الجند يتقدمهم عمر بك أمير الحاج وآخرون أمثاله واحتاطوا ببيت حسين بك الخشاب وبيت محمد بك أباظة من الجهات الأربع فحاربهم من داخل البيت من الصباح إلى الظهر وكان فى أثناء المناوشة يخرج أمتعته وأمواله وأثقاله وهم لا يشعرون فلما لم يبق فى البيت شىء خرج بمن معه من أصحابه وأتباعه إلى ناحية زين العابدين وسار إلى الإقليم القبلى وكذلك هرب عمر بك ابن على بك فى طائفة من أصحابه إلى أرض الحجاز ودخل العسكر بيت حسين بك الخشاب بعد انقطاع أصوات البنادق والمدافع فلم يجدوا فيه شيئا وكان ذلك فى أواخر سنة إحدى وستين ومائة وألف فعاد كل إلى مقره وسكنت الفتنة قليلا وجعل إبراهيم بك بلفية يتصرف ومحمد راغب باشا محجور عليه إلى أن سافر إلى الديار الرومية فكانت مدّة ولايته سنتين ونصفا .

(مطلب)

ولاية أحمد باشا كوروزير

وجاء الخبر بولاية الوزير أحمد باشا المشهور بكوروزير ووصل إلى الإسكندرية فنزل إليه الملاقون وأرباب العكاكيز وأصحاب الخدم فدخل القاهرة وصعد إلى قلعة الجبل فى الموكب المعتاد فى غرة المحرم افتتاح سنة اثنتين وستين ومائة وألف وعمل الديوان وخلع الخلع على الأمراء والأعيان والمشايخ ولكنه لم يتمكن من التصرف إذ كان مغلوبا على أمره والكلمة يومئذ لإبراهيم بك جاويش ورضوان كتخدا وهما صاحبا العقد والحل فأقام فى المنصب إلى عاشر شوّال سنة ثلاث وستين ومائة وألف .

(مطلب)

عزل أحمد باشا وولاية عبد الله باشا

وجاء الخبر بعزله وولاية عبد الله باشا فكانت مدة تصرفه سنة وعشرة أشهر وكان عالما مدققا فاضلا كريما محبا للعلم والعلماء مقربا إليهم وكانت أيامه هادئة

مطمئنة لم يقع فيها شيء من الحوادث والفتن. قال بعض الكتاب : وكان مولعا بالرياضيات وعمل عدة منحرفات على ألواح كبيرة من الرخام صناعة وحفراً وعمل له تاريخا منظوما نقشه عليها وهو:

مزولة متقنة	نظيرها لا يوجد
راسمها حاسبها	هذا الوزير الأمجد
تاريخها أتقنها	وزير مصر أحمد
٥٥٧	٢٢٣ ٣٣٠ ٥٣

سنة ١١٦٣

ونصب من هذه المنحرفات واحدة بالجامع الأزهر فى ركن الصحن على يسار الداخل بالركن فوق رواق معمر وهى لفضل دائر العصر وأخرى بسطح جامع الإمام الشافعى وفيها خيط مساترة وفضل دائرة وقسى عصر وفضل دائر الغروب وأخرى بمشهد السادات الوفائية وهى بشاخص للظهر والعصر أهـ.

(مطلب)

عزل عبد الله باشا وولاية محمد أمين باشا

وحضر الشريف عبدالله إلى الإسكندرية ونزل أحمد باشا من قلعة الجبل إلى بيت البيرقدار وسافر الملاقون إلى عبدالله باشا فدخل القاهرة فى رمضان سنة أربع وستين فأقام إلى سنة ست وستين. ثم عزل عنها ولم يقع فى أيامه شيئ من الحوادث والفتن وولى حلب فنزل إلى القصر بقبة العزب وهاداه الأمراء وسار إلى حلب فتولى بعده محمد أمين باشا فكانت ولايته سنة وبضعة أشهر لا شئ فيها من الحوادث أو الإحن ودخل محمد باشا المذكور القاهرة وصعد إلى قلعة الجبل وهو مريض فلبث شهرين على فراش الأوجاع ومات فى خامس شهر شوال سنة ست وستين ومائة وألف ودفن بجوار قبة الإمام الشافعى فبقيت مصر بلا وال سنة وخمسة أشهر والكلمة يومئذ لإبراهيم بك ورضوان بك، وفى خلال هذه الحوادث حضر إلى القاهرة من دار السلطنة بطرك الروم ومعه مرسوم سلطانى بمنع نصارى الشوام من الدخول إلى كنائس الفرنجة فإذا دخلها أحدهم عوقبوا جميعا بدفع غرامة قدرها ألف كيس لخزينة السلطنة واستفاض الخبر بذلك بين الشوام ثم أعقب ذلك أن سير إبراهيم كتخدا فى طلب أربعة من قسيسى الفرنجة فجاءوا بهم فحبسهم وأخذ منهم مالا كثيرا ومع ذلك لم تتكف الشوام عن الدخول إلى كنائس الفرنجة فانكشف

الغطاء وبرح الخفاء عن أنها حيلة من بنات أفكار إبراهيم بك لحصوله على المال من قسيسى الفرنجة. واتفق عقب هذا الحادث بقليل أن قصد القبط بمصر الحج إلى بيت المقدس وكان عظيمهم يومئذ المعلم نيروز كاتب رضوان كتخدا فكلم الشيخ عبدالله الشبراوى فى ذلك وقدم له هدية سنية وألف دينار فكتب له فتوى وجوابا يتضمن أن أهل الذمة لا يمنعون من القيام بشعائرهم الدينية وزياراتهم فشرعوا فى قضاء أشغالهم ثم خرجوا فى هيئة وأحمال ومواهى وتختروانات فيها النساء والأولاد ونصبوا خيامهم عند قبة العزب وأحضروا العربان ليسيروا فى خفارتهم وشاع أمر خروجهم بعد أيام فاستعظم المسلمون ذلك وأنكروه واتفق ذهاب الشيخ عبدالله الشبراوى إلى حيث الشيخ البكرى: لزيارة أخى البكرى حيث كان مريضا فلما استقر به المكان قال له البكرى متهكما: ما هذا الحال يا شيخ الإسلام كيف ترضى وتفتى النصارى وتأذن لهم بهذه الفعال هل كان ذلك لأنهم أرشوك وهادوك؟ فقال: إن ذلك لم يكن. قال: بل أرشوك بألف دينار وهدية وعلى ذلك تصير لهم سنة ويخرجون فى العام القابل بأزيد من هذا ويصنعون لهم محملا. ويقال حج النصارى وحج المسلمين وتصير سنة عليك وزرها إلى يوم القيامة قال صاحب عجائب الآثار : فقام الشيخ الشبراوى وخرج من عند البكرى وهو مغتاظ وأذن للعامة فى الخروج عليهم ونهب ما معهم وخرج عليهم كذلك طائفة من مجاورى الأزهر فاجتمعوا عليهم ورجموهم وضربوهم بالعصى والمساوق ونهبوا ما معهم ونهبوا أيضا الكنيسة القريبة من دمرداش. قلت: وهى كنيسة رويس. قال: وانعكس النصارى فى هذه الحادثة عكسة بليغة وراحت عليهم وذهب ما صرفوه وأنفقوه فى الهباء انتهى قوله.

(مطلب)

ولاية مصطفى باشا

وتولى بعد محمد باشا أمين الذى مات كما تقدم القول مصطفى باشا فدخل القاهرة وصعد إلى قلعة الجبل ثالث عشر ربيع الأول سنة سبع وستين ومائة وألف هجرية واستمر على الولاية إلى أن جاء الأمر بالعزل كما سيذكر فى محله .

ورأى السلطان محمود بعد تقرير الصلح مع خصومه شرقا وغربا أن لابد من قيام الروس يوما على دولة السويد وابتلاعها مضغة لينة ثم لا يمنعها بعيد ذلك مانع من شن الغارة على بلاده وأخذ كل ما يمكن أخذه منها فجعل يتدبر الأمر فحسن

له سفير الفرنسيس بدارالسلطنة يومئذ تعضيد دولة السويد وعقد محالفة دفاع وهجوم معهـا ضد الروس وكشف له عـما فى ذلك من الفائدة للدولة وكبح جـماح الروس ورد كيدهم فوافق السلـطان على ذلك وعقد محالفة مع السويـد فكانت حدا فاصلا بين الروس وبين مطامعهم السياسـية وهدأت الأحوال وسكنت الخواطر وتفرغ رجال الدولة للإصلاح داخـلا وخارجا ودبر الصدر الأعظـم أمور الدولة فأحسن التـدبير وأمـضى الأحكام وأزال بعض الخلل ومـا زال الحـال فى هدو وسكون حـتى مـات السلطان فى يوم الجمـعة السابع والعشـرين من صفر سنة ثمان وستـين ومائة وألف هجرية أى سنة أربع وخمسـين وسبعمائة وألف ميلادية فكانـت سلطنته نحو خمس وعشريـن سنة. قال بعض أصحاب التـاريخ: وهو آخر ملوك بنى عثمـان فى حسن السيـرة والشهامـة والحرمة واستـقامة الأمـور والمآثر الحسنة وله كثـير من المزايا التى خلدت فى بطون التـواريخ. وخلفه على سـرير الملك السلطان عـثمان الثـالث ابن السلطان أحمد خان.

ومات فى سلطنته يوحنا بطرك الإسكندرية بعد أن أقام اثنتين وأربعين سنة وكان ورعا تقيا عـالما فاضلا مسموع الكلمة وهو من بلدة طوخ وكانت أكـثر أيامه شدائد وخطوبا متراكمة بعضها فوق بعض كادت بسببها تتعطل شعائر الدين لولا لطف الله فأقيم بـعد موته بطرس وهو الرابع بعد المائة واسـمه مرجان من رهبـان دير انبابولا فأقام سبع سنين ومات ولم يقع فى أيامه من الحوادث شىء يذكر فأقيم بعده يوحنا وهو الخـامس بعد المائة واسـمه عـبدالسـيد من رهبـان انبابولا ووقع فى أيامـه من الحوادث ما سيذكر فى محله.

□□□

(الفصل الثامن عشر)

(فى سلطنة السلطان عثمان الثالث

ابن السلطان أحمد خان)

ثم قام بالأمر بعد السلطان محمود السلـطان عثمان الثالث ابن السلطان أحمد وقيل ابن مصطفى بويع بالملك فـى اليوم الذى مات فيه السلطان محـمود فى السابع والعشـرين من صفر سنة ثمـان وستين ومـائة وألف هجرية أى سنة أربع وخمـسين

وسبعمائة وألف ميلادية، وجاءت بذلك الأخبار إلى مصر فدقت البشائر ودخل الأمراء والعلماء والمشايخ على مصطفى باشا الوالى يهنئونه .

(مطلب)

عزل مصطفى باشا وولاية على باشا حكيم أوغلى

ثم ورد بعد أيام إلى مصطفى باشا فرمان التثبيت فبقى يتصرف فى الأمور إلى أن جاءه الأمر بالعزل فى أوائل ربيع الأول سنة تسع وستين ومائة وألف فكانت مدة تصرفه سنتين إلا أياما ولم يقع فيها من الحوادث شئ يذكر وتولى بعده على باشا حكيم أوغلى الولاية الثانية وقدم إلى الإسكندرية فنزل إليه الملاقون وأرباب المناصب ثم دخل القاهرة فى يوم الاثنين غرة جمادى الأولى من السنة وجعل يتصرف فسار فى الرعية سيرة حنسة ودبر أمورهم أحسن تدبير وأسكن الفتن وطمن القلوب فلم يقع فى أيامه شئ من الخطوب والمحن واستمر على الولاية معززا محبوبا من الرعية وكان قريب الاعتقاد بالخرافات ميالا إلى الزايرجات وأصحابها وكان له تعلق بالشيخ على بن تاج الدين محمد بن الحسن بن محمد بن سالم القلعى الحنفى المكى لغزارة معرفته بهذه العلوم وكان أول اجتماعه به فى الديار الرومية قيل إنه أخبر على باشا بأمور فوقعت كما قال فازداد عنده مهابة وأنزله فى منزل بالقرب من جامع أزبك بخط الصليبة وصار يركب فى موكب حافل مثل موكب الوزير وكان فيه الكرم المفرط والمروءة وسعة الصدر فى إجازة الوافدين مالاً وشعراً ومدحه شعراء عصره بمدائح جليلة جدا وكان على باشا لا يفارقه قيل ولا يعمل عملاً إلا بإشارة منه فله كثير من المزايا ومع ذلك فقد كان حسن التدبير موفقاً محبوباً من الرعية.

وسار السلطان عثمان فى الرعية سيرة رديئة للغاية وكثر تحجبه عن الناس وتجسسه على أحوال الرعية فكان كثير الأخذ بالشبهات ظلوماً غشوماً عسوفاً فظاً غليظًا سفاكا للدماء قيل إنه قتل فى أيام سلطنته ستة وزراء فثقلت أيامه على الرعية وأبغضوه بغضاً كبيراً وابتهلوا إلى الله تعالى وعجوا إليه وظل على هذا الحال من الجور والعسف إلى أن مرض واشتدت به علته فمات وجاء الخبر إلى القاهرة خامس عشرى صفر سنة إحدى وسبعين ومائة وألف هجرية أى نحو سنة سبع وخمسين وسبعمائة وألف ميلادية فكانت مدة سلطنته أربع سنوات غير كوامل فخلفه فى الملك السلطان مصطفى الثالث.

(الفصل التاسع عشر)

(فى سلطنة السلطان مصطفى الثالث
ابن السلطان أحمد)

ثم قام بالأمر بعد السلطان عثمان السلطان مصطفى الثالث ابن السلطان أحمد بويع بالملك يوم موت السلطان عثمان خامس عشرى صفر سنة إحدى وسبعين ومائة وألف هجرية أى سنة سبع وخمسين وسبعمائة وألف ميلادية فاستقرت به الخلافة وكان المتولى الصدارة العظمى الوزير محمد راغب باشا فأقره على منصبه وسلم إليه مقاليد جميع الأمور واعتمد عليه فى تدبير مهام الدولة فأحسن التدبير وأحكم السياسة وكان عالماً عاقلاً رزينا كيسا حازما محبا لنجاح الأمة فبالغ فى إصلاح الأحوال الداخلية وأحدث كثيرا من النظامات المألوفة ورتب الأمور على ما فيه المصلحة فزهت أيامه وسعدت ثم مات فتبدلت بعد موته الأحوال وتغير مجرى الحوادث وتحركت دولة الروس إلى نكث العهود وتجردت إلى الشر وطلبت كاترينة الثانية قيصرة الروس يومئذ التداخل فى شئون مملكة بولونيا فأقامت ستاسلاس بونياتوسكى ملكا على بولونيا بدل ملكها الذى مات خلافا للعهد المتفق عليه بين الروسية والعثمانية. قال أصحاب التاريخ : وقد قصدت كاترينة بذلك العمل بما أوصى به بطرس الأكبر من إزالة الموانع الثلاثة الحائلة بين أملاك الروس وأروبا الغربية وهذه الموانع هى مملكة السويد ومملكة بولونيا والمملكة العثمانية. قالوا وقد تمت إزالة المانع الأول منها بوضع يد الروس على جميع الإيالات السويدية وكاد يتم لها زوال الثانى بتولية ستانسلاس عشيق كاترينة ملكا على بولونيا فلم يبق منها سوى الدولة العثمانية فتنبهت الدولة لذلك وحضت خان القرم على قتال الروس فزحف بخيله ورجله وقاتلهم وانتصر عليهم عدة نصرات وخرب الكثير من أملاكهم وسار البرنس جالتسين بعساكر الروس إلى مدينة شوكزيم فحاصرها وضيق عليها فسير السلطان الصدر الأعظم محمد باشا البرشنجى لنجدتها فى عسكر عظيم فلم يفلح فاستعظم السلطان هذا الأمر وأكبره وسير إلى الصدر المذكور من قتله وأتى برأسه إلى القسطنطينية وانهزمت العساكر السلطانية مرة ثانية عند نهر دينستر بسبب فيضان النهر المذكور عند عبور العساكر السلطانية له فأعمل فيهم الروس القتل والتفريق وتمكن البرنس جالتسين من الدخول إلى شوكزيم واحتل إيالتى الفلاخ والبغدان.

وكانت المراكب السلطانية فى هذه الأثناء تتجول فى عرض البحار فلاقتها مراكب الروس فى المضيق الواقع ما بين جزيرة ساقص وساحل آسية فاقتتلوا قتالا عنيفا للغاية ثم افترقوا ودخلت المراكب السلطانية مينا جشمه فتبعهم حراقتان من مراكب الروس والتحما بالمراكب السلطانية وألقيا عليها النيران فاشتعل ما بها من البارود واحترقت جميعها فكان المنظر مريعا للغاية والخطب عظيم جدا وطال الأخذ والرد بين الدولتين وطالت أيام الحرب والقتال برا وبحرا ثم تخابر الفريقان فى أمر الصلح فشطت الروسية فى الطلب واشترطت على الدولة شروطا مهينة مزرية فأبت الدولة إجابتها إلى ذلك وعاد الفريقان إلى ما كانا عليه من الحرب والقتال فخرجت من يد الدولة مدينة بندر وعدة من جزائر الأرخبيل ودست الروس إلى اليونان والأرنؤد فثارا وأشهرا الحرب وخرجا عن طاعة السلطان ونهض أيضا على بك الكبير أحد أصحاب الكلمة بديار مصر يريد الاستقلال بملك مصر والخروج عن طاعة السلطان وقام أيضا أحد مشايخ عربان الشام المسمى ظاهر العمر وتملك بعض مدن الشام وأخذ يتصرف فى أمورها تصرف المالك المطلق حتى اختل نظام المملكة وسقطت كلمة السلطان وذهبت هيبته أو كادت واستخف به على بك واستصغر شأنه وهمّ بالخروج وشق عصا الطاعة وجعل يتأهب لذلك. وبينما هو على هذا الحال من التأهب والاستعداد إذ ظهر الطاعون بمصر والقاهرة وكان ظهوره عقب أن أمطرت السماء مطرا غزيرا جدا سالت منه السيول وامتلأت الأودية واشتد الطاعون شدة بالغة فكثر الموات وصارت الموتى تلقى فى الطرق والحارات لكثرتها وعدم وجود من يدفنها وكثرت الجيف واجتمعت حولها الكلاب تنهشها وطالت أيام الوباء فسمته العامة (قارب شيحة الذى يأخذ المليح والمليحة)واهتم الأمراء عند ذلك بدفن الموتى وأعملوا الجهد حتى خف الموت فى أواخر رمضان من السنة ولكنه لم يرتفع تماما إلا فى أوائل سنة اثنتين وسبعين.

(مطلب)

عزل على باشا حكيم أوغلى وولاية محمد باشا سعيد

وجاءت الأخبار عقب ذلك بعزل على باشا حكيم أوغلى وتولية محمد باشا سعيد فدخل القاهرة فى أواخر رجب سنة إحدى وسبعين وصعد إلى قلعة الجبل فى الموكب المعتاد فلم يكن لقدومه رونق ولا بهجة بأسباب الطاعون واشتغال الناس بدفن موتاهم ولم يكن لولايته أثر يذكر عند على بك الكبير إذ كانت الكلمة

والرياسة يومئذ له لا سيما بعد موت حسين بك القزداغلى على ما تقدم لك بيانه وكان لما أن بسط يده على جميع الأمور وقبض على زمام الأحكام ودانت له الرغائب استقدم أصحابه الذين كانوا مبعدين وولاهم المناصب العالية فاتسعت من ذلك الحين كلمته وبعدت شهرته ولكنه كان فى شاغل من جانب عبدالرحمن بك كتخدا المتولى مشيخة البلد فكان لا ينكف عن إعمال الحيلة فى قتله ولا تفتر له همة حتى اتفق مع بعض أعوانه على أن يقتلوه بعد قيامه هو بركب الحاج إلى المدينة وأن يولوا بعد قتله على مشيخة البلد خليل بك الدفتردار ويبقى الأمر مكتوما بينهم حتى قام بركب الحاج فجعل أصحابه يعملون على قتل عبد الرحمن بك فأحس عبد الرحمن بك بالمكيدة واستكشف السر وعلم بخفى أمرهم فأسرع هو إلى عمل الحيلة والتدبير فى تبعيدهم وأغرى بهم على بك بلاط فتمكن من تبعيد خليل جاويش المعروف بحيضان مصلى وأحمد جاويش إلى الأقطار الحجازية وحسن كتخدا الشعراوى وسليمان بك الشابورى إلى فارسكور فتمزق جمعهم وتفرقت كلمتهم. فلما نزل على بك بالعقبة وهو راجع بالحاج علم بما جرى لأصحابه فكتمه وأمر الجند بعمل بعض الأشكال الحربية ليوهم الناس أن الذى جاءه من القاهرة أخبره بخبر يسره ثم سار بركب الحاج إلى قلعة نخل فانحاز إلى القلعة وسلم الحاج والمحمل إلى بعض أمرائه وركب فى خاصته وسار إلى غزة ولبث بها زهاء ثلاثة أشهر وكاتب دار السلطنة ووشى لها فى حق الكثير من الأمراء بالديار المصرية وبالغ فى الوقيعة بهم فجعل رجال الدولة يوعدونه ويعللون منه الآمال بنيل أغراضه ومازألوا حتى استصفوا ما معه من مال ومتاع ولم يتم له أمر فعاد إلى القاهرة بوساطة صهره فلما دخل القاهرة لم يقم بها سوى ثمانية أيام ومات كمدا وقيل بل أطعمه بعض أصحابه سما فاطمأنت القلوب بموته فقد كان داهية قرما عنيدا كثيرا الصبر عظيم الجلد .

(مطلب)

عزل محمد باشا وولاية مصطفى باشا الصدر الأعظم وعزله أيضًا وولاية أحمد باشا سبيلان

وجاءت الأخبار من دار السلطنة بعزل محمد باشا عن الولاية وتعيين مصطفى باشا الصدر الأعظم بدله فدخل القاهرة فى أواخر السنة وأقام يتصرف فى الأمور إلى سنة أربع وسبعين ومائة وألف هجرية ثم نزل إلى القبة متوجها إلى جدة ليقيم بها

ولم يقع فى أيامه شىء يذكر وحضر بدله أحمد باشا كامل المعروف ببيلان ودخل القاهرة فى أواخر سنة أربع وسبعين فلما استقرت به الولاية صار يشدد فى الأحكام وينزل فى كل يوم لمعرفة أخبار الناس وأحوالهم ويكشف على أرزاق الأمراء ومصادر أموال الخزينة السلطانية وغير ذلك وكان شهما شديد العناد فخافه الأمراء وخشوا عاقبة أعماله فاجتمعوا وتشاوروا فى أمره فاتحدت كلمتهم على خلعه وصاروا يراقبون الفرص حتى دبروا أمرهم وركبوا عليه يوما فخلعوه وكان مصطفى باشا الوالى المعزول لم يزل بالقاهرة يتأهب للسفر إلى جدة فساروا إليه وأصعدوه إلى قلعة الجبل وسلموه زمام الأمور وشكوا إلى دار السلطنة ما وقع وسيروا بشكواهم الشيخ عبدالباسط السنديونى.

(مطلب)

عزل أحمد باشا كامل وولاية بكير باشا وموته وولاية حسن باشا

فلما وصلت شكواهم إلى صدر الدولة وهو يومئذ محمد راغب باشا سير أحمد باشا المذكور إلى ولاية كاندية وسير مصطفى باشا إلى ولاية حلب ووجه بكير باشا والى حلب واليا على مصر فحضر إلى القاهرة وصعد إلى قلعة الجبل فلم يتصرف إلا زهاء شهرين ومات مبطونا سنة خمس وسبعين ومائة وألف ودفن بالقرافة فجاءت الأخبار بولاية حسن باشا وقدم إلى القاهرة فى أواخر سنة ست وسبعين فكان محجورا عليه لا كلمة له والأمر يومئذ لعلى بيك بلاط فإنه بعد موت على بيك الكبير وتشريد كبار عصابته كما سبق ظهر شأن على بيك بلاط وارتفعت كلمته فجمع أصحابه وأعطاهم المناصب العالية وسلمهم زمام الأمور كغيره من الأمراء الذين تقبل عليهم الرياسة مسرعة وشاع ذكره ونما صيته فلما رأى عبدالرحمن بيك كتخدا الذى هو ابن أستاذ على بيك بلاط ما ناله على بيك من الشهرة ورفعة القدر انطوى على ممالأته ومال إلى مصادقته ليقوى به على أرباب الرياسة وكل منهما يريد تمام الأمر لنفسه وجعل على بيك من هذا الحين يمهد الأمور ويذلل العقبات ثم استكثر من شراء المماليك وبدأ فى مصادرة الناس وأعمل الحيلة على أخذ الأموال من أصحاب البيوتات والأعيان لأقل سبب. وكان يخشى جانب بعض من بيدهم الرياسة مثل عبد الرحمن كتخدا ابن أستاذه وعلى كتخدا الخربطلى وعمر جاويش الداورية ورضوان جربجى الرزاز وغيرهم فلما استتب قدمه فى المنصب

وتمكن وقوى جأشه ركب يوما فى مماليكه وأتباعه وهجم بهم على أبواب القلعة وأجلوا عنها من كانوا بها من أصحاب وأتباع من ذكروا فامتلكوها واحتل قومه بها فخاف الأمراء عند ذلك وانكمشوا فلم يمكنهم من عمل شىء وقبض فى الحال على عبد الرحمن كتخدا وأبعده إلى الأقطار الحجازية وأبعد باقيهم جميعا إلى الأقاليم البحرية فأخاف الناس خروج عبدالرحمن بيك كتخدا إلى منفاه فإنه كان ذا هيبة ووقار وحرمة كبيرة وقد ارتفعت به كلمة الإنكشارية وظهروا على طائفة العزب وكان له عز وأبهة ومماليك وأتباع وجند وغير ذلك من الأخلاط حتى ظن الناس وقوع فتنة عظيمة فى ذلك اليوم فلم يحصل شىء من ذلك سوى ما نزل بالناس من الدهشة والتعجب وأبعد بعد ذلك صالح بيك إلى مدينة غزة فلم يقم بها إلا أياما حتى أرسل إليه بعض الجنود فحملته من غزة إلى رشيد فبقى فيها ثم رتب له ما ينفقه بحسب الحاجة فلبث برشيد مدة فلما جاء الخبر بعزل حسن باشا الوالى وتعيين حمزة باشا بدله أرسل على بيك جماعة من أتباعه ليحملوا صالح بيك المذكور من رشيد إلى دمياط كى لا يجتمع بحمزة باشا إذا حضر إلى رشيد فوصلت إلى صالح بيك الأخبار بقيام أولئك الأتباع فأسرع وركب فى نفر قليل وأسرى ليلا إلى جهة البحيرة فأقام بها ما شاء الله ثم ذهب من خلف جبل الفيوم إلى الأقاليم القبلية فوصل إلى منية ابن خصيب فأقام بها واجتمع عليه خلق كثير ممن شردهم على بيك بلاط فابتنى له أبنية وعمل متاريس ومحال للدفاع وكان له معرفة وصداقة مع شيخ عربان تلك النواحى وطوائف الهوارة وسكان أكثر البلاد الجارية فى أقطاعاته فاجتمع عليه الكثير منهم وقدموا إليه التقادم والذخيرة وما يحتاج إليه وترس فى منية ابن خصيب وهو آمن مما يخشى فلم يجسر على بيك على قتاله ولم يناوشه الحرب خوفا من اتساع الخرق واستفحال الخطب .

(مطلب)

عزل حسن باشا وولاية حمزة باشا

ودخل حمزة باشا الوالى الجديد القاهرة فى أخريات سنة تسع وسبعين ومائة وألف هجرية وصعد إلى قلعة الجبل فنزل حسين باشا قاصدا السفر فكانت ولاية حسين باشا المذكور نحو ثلاث سنين. ولما استقر بحمزة باشا المنصب وأخذ يتصرف فى الأمور بقدر الاستطاعة شكوا إليه أمر صالح بيك وترسه فى منية ابن خصيب وإضراره بالناس ومنعه لورود الغلال وأموال الخزينة السلطانية وبالغوا فى الشكوى

وعظموا فى البلوى فرسم بقتاله فبعثوا له طائفة من الجنود مع أحد الأمراء المدعو حسين بيك كشكش وولوه أيضا الإمارة على إقليم جرجا وسافر معه عدة أمراء أخر فلما التقى الجمعان اقتتلا قتالا شديدا فانهزم صالح بك وهرب إلى شرقى أولاد يحيى فأقام حسين بيك كشكش بالمنية أياما يتأهب للمسير إلى جرجا مركز إمارته فبينما هو على أهبة الرحيل إذ ورد عليه مرسوم من على بيك بلاط بالتبعيد إلى جهة قد عينها له فكاد حسين بيك يتميز غيظا وركب من فوره فى مماليكه وأتباعه وأمرائه وحضر إلى القاهرة فوصلها ليلا فوجد الباب الموصل إلى قناطر السباع مغلقا فطرقه فلم يفتحوا له فكسره ودخل بمن معه وذهب إلى بيته وبقى الأمر بينه وبين على بيك بلاط على المسالمة أياما. واتفق لحظ على بيك بلاط أن حسين بيك المذكور طلب فى غضون هذه الأيام من عبدالله الحكيم طبيب الأمراء أن يصنع له معجونا صالحا للباه فأخبر الطبيب بذلك على بيك بلاط فأمره بأن يدس له فيه سما ففعل وذهب به إلى حسين بيك وبالغ له فى فوائده فقال له: لا بأس به ولكنى أحب أن تأكل أنت منه أولا فتلجلج الطبيب واضطرب فأمر به حسين بك فقتلوه بين يديه وعلم أنها من عزيمة على بيك بلاط فتأكدت بينهما الوحشة وأضمر كل منهما لصاحبه السوء وتوافق على بيك مع أصحابه على الغدر بحسين بيك أو إخراجه فوافقوه ظاهرا واشتغل حسين بيك أيضا بإخراج على بيك أو الغدر به وجمع إلى كلمته كثيرا من قومه فلما كان ذات يوم ركب وركبوا ومعهم المدافع والبنادق وساروا إلى بيت على بيك فصوّبوا أفواه المدافع نحوه، فأرسل على بيك لأصحابه يستنجدهم فلم يأته أحد وخذلوه فشق عليه الأمر واستعظمه جدا وأرسل إلى أصحاب حسين بيك يسألهم عن مرادهم فحضر إليه منهم من يأمره بالركوب والخروج من الديار حالا فقام لساعته وركب وخرج من بيته فسلموه إلى من يوصله إلى منفاه بالديار الشامية ومعه مماليكه وأتباعه وكان ذلك فى أواخر رمضان سنة تسع وسبعين فأنزلوه بالعادلية ثلاثة أيام حتى حاسبوه وحاسبوا أتباعه على ما هو عليهم وهم محاطون بالجند والسلاح والمدافع حتى فرغوا واستخلصوا ما بقى وسافروا إلى غزة، وكانت العادة فيمن ينفى من الأمراء بديار مصر أنه إذا خرج من الديار لم يخلوا سبيله حتى يستصفوا ما عليه وسار صحبة على بيك المذكور جميع أصحابه وكبار قومه وعزلوا من لم يسافر منهم من منصبه. وما كادت تستقر الأمور وتسكن الفتنة حتى جاء الخبر برجوع صالح بيك من شرق أولاد يحيى إلى منية ابن خصيب واستقراره فيها وتحصينها فجيشوا لقتاله جيشا عظيما فبرز بعضه إلى جهة البساتين وبينما هم على هذا الحال من

تجييش الجيوش وإعداد آلات الحرب والاشتغال بأمر القتال مع صالح بيك إذ رجع على بيك بلاط وأصحابه من غزة فلم يشعر أحد برجوعهم ودخلوا القاهرة ليلا ونزل على بيك ببيت حسين بيك كشكش ونزل باقى من كانوا معه فى بيوت أخر فلما علم حسين بيك بقدومه على هذه الصورة جمع إليه أصحابه بجهة الآثار المعروفة بأثر النبى وشاورهم فى الأمر فاختلفت كلمتهم وتباينت أغراضهم فمنهم من أشار بتبعيده إلى جدة ومن أشار بقتله ومن أشار بغير ذلك ثم عادوا فاتحدوا على أن يرسلوه إلى جدة وأرسلوا إليه من يلزمه بالخروج والسفر فقال لا أخرج أبدا من بيت سيدى إلا إذا كان إلى الجهة البحرية فرضوا بذلك واتفقوا على أن يعطوه النوسات أقطاعا وأن يذهب إليها فرضى وذهب إلى النوسات وأقام بها وأرسلوا أصحابه والذين كانوا معه إلى أسيوط وجهاتها وكان بها خليل بيك الأسيوطى فتعرفوا به وتقربوا إليه وصادقوه فأعانهم ومدّ لهم يد المساعدة فتيسرت أمورهم وراجت أحوالهم ولبثوا هناك ما شاء الله .

وعاد حسين بيك بعد تبعيد على بيك وأصحابه إلى تدبير أمر الجيش وإرساله لقتال صالح بيك كما تقدم القول فسار إلى منية ابن خصيب والتقى الجمعان واقتتلا فانهزمت العساكر وانفشلت فأرسلوا له جيشا آخر وأميره حسن بيك جوجو وكان حسن بيك المذكور ميالا فى الباطن إلى خذلة حسين بيك وأصحابه فلم يقاتل إلا بالأمر الخفيف ورجع بالعسكر كأنه مهزوم مذعور فأرسلوا جيشا آخر فكانت الحرب بينهم سجالا ثم رجعوا فلم يروا بدا من مصالحة صالح بيك فخابروه فى الصلح واستقرت القاعدة بينهم على أنه يذهب بمن معه إلى جرجا فتكون له التزاما ويقيم بها بشرط أن يدفع الأموال ويرسل الغلال فى حينها ويقوم بجميع المطاليب وكان ذلك فى شهر جمادى الأولى سنة ثمانين ومائة وألف. أما على بيك بلاط فإنه لم يمض عليه بالنوسات إلا القليل من الأيام حتى تخيلوا أن حسن بيك الأزبكاوى يراسله ويطلعه على عوراتهم فقاموا عليه فى ثانى شعبان من السنة وقتلوه بقصر العينى ورسموا بنفى أصحابه إلى الأقاليم البحرية وخشوا عاقبة بقاء على بيك بلاط بالنوسات فأرسلوا إليه خليل بك المعروف بالسكران فحمله إلى مدينة السويس ليسيره إلى جدة من القلزم وأنزله بإحدى السفن وسلمه إلى ربانها فكانت الريح غير صالحة فبقيت السفينة تنتظر اعتدال الريح فرجع خليل بك إلى القاهرة .

وجاءت أيام عيد الإفطار فركب الأمراء فى ثانى يوم شوال إلى قراميدان ليهنئوا حمزة باشا بالعيد وكان معتاد الرسوم فى مثل هذه الأعياد والمواسم أن كبار الأمراء

يركبون بعد الفجر من يوم العيد وكذلك أرباب العكاكيز فيصعدون إلى قلعة الجبل ويسيرون أمام الباشا على الأقدام من باب السراى إلى جامع الناصر بن قلاوون فيصلون صلاة العيد ويرجعون كذلك ثم يقبلون طرف ثيابه وينزلون إلى بيوتهم فيهنئ بعضهم بعضا على رسمهم واصطلاحهم وينزل الباشا ثانى يوم إلى كشك بقراميدان وقد هيئت مجالسه بالفرش والمساند والستور والطنافس واستعد فراشو الباشا بالقهوة وأطباق الحلوى والقماقم والمباخر ورتبوا جميع الاحتياجات واللوازم من الليل واصطفت الخدم والجاويشية والسعاة والملازمون وجلس الباشا بذلك الكشك وحضرت أرباب العكاكيز والخدم قبل كل أحد ثم يأتى الدفتردار وأمير الحاج والأمراء والصناجق والاختيارية وكتخدا الإنكشارية والعزب أصحاب الوقت والمقادم والأودة باشية والجربجية ويعيدون عليه بالترتيب على قدر مراتبهم ثم ينصرفون. فلما حضروا فى ذلك اليوم وهنئوا الباشا وخرجوا إلى دهليز القصر يريدون الانصراف إلى بيوتهم برز لهم طائفة من الجند وسيوفهم بأيديهم مسلولة وآخرون يحملون البنادق واندفعوا عليهم وأطلقوا البنادق وأعملوا فيهم السيوف فأصيب عثمان بيك الجرجاوى بضربة سيف فى وجهه وأصيب حسين بيك كشكش بطلق نارى فى خاصرته وجرح كثيرون جراحا بليغة فعند ذلك ارتفعت الأصوات وعلت الجلبة وصاح الأمراء بمماليكهم وأتباعهم لنجدتهم فاقتحموا الدهليز والسيوف بأيديهم وحالوا بينهم وبين المتوامرين حتى تسلقوا من حائط البستان وركبوا خيولهم وهم لا يصدقون بالنجاة وأركبوا عثمان بيك وهو يصيح إلى باب العزب وقد قطع السيف وجهه وفمه فذهبوا به إلى باب العزب وأنزلوه فلم يلبث إلا هنيهة ومات فحملوه إلى بيته وجهزوه ودفنوه ولم يمت ممن جرحوا أحد غيره وباتوا على ذلك وأصبحوا فاجتمعوا وصعدوا إلى الأبواب وأرسلوا إلى حمزة باشا يأمرونه بالنزول من القلعة على عجل فنزل من ساعته إلى بيت أحمد بيك كشك بقوصون ومر بباب العزب فوقف له حسين بيك كشكش وسبه سبا فاحشا وخاطبه ببذى القول وفحش الكلام فلم يجبه بشىء ثم رتبوا أمورهم وسلموا بعض الوظائف المهمة لمن يعتمدون عليه واستكشفوا خفى هذه الحادثة فتبينوا أنها كانت بإغراء من حمزة باشا وقيل بل هى خليقة على بيك بلاط فإنه ما برح منذ تبعيده إلى النوسات يراسل حسن بيك جوجو ويكاتبه سرا ومازالا على هذا الحال حتى تم التدبير لحسن بيك واستحضر طائفة من الجلفية وأطلعهم على ما فى نفسه فوافقوه فأخفاهم فى بيته أياما كثيرة وقد دبروا أن يكون إيقاعهم بالأمراء فى أول يوم العيد وذهبوا إلى

الكشك بقراميدان فى ذلك اليوم وكانوا نحو الأربعين فاختلفت عندئذ كلمتهم وانتقضوا ثم عادوا فاتفقوا على أن يتمو الأمر فى ثانى يوم بدهليز بيت القاضى وتفرقوا على ذلك وقد انحلت رابطتهم إلا أربعة فإنهم ثبتوا على هذا الاتفاق وساروا فى ثانى يوم إلى الدهليز وضربوا من صادفوه بالسيوف والبنادق، وبطل من هذا اليوم أمر العيد من قراميدان وتهدم القصر وخرب وكذلك البستان وذهبت نضارته وبعد وقوع هذا الحادث سيروا من يستكشف خبر على بيك بلاط وهل أقلعت به السفينة إلى جدّة فوجدوه بالسويس فردّوه وأركبوه مع أتباعه ومماليكه إلى القاهرة ومروا به من طريق الجبل وذهبوا إلى جهة شرق إطفيح ثم إلى أسيوط. فلما استقر به المقام اجتمع عليه المبعدون كافة وطوائف الهوارة وأخلاط أخر كثيرة فراسل صالح بيك بمنية ابن خصيب يريد الانضمام إليه بمن معه من هؤلاء الأخلاط فلم يرض صالح بيك ونفر منه فجعل يخادعه ويسايره وأرسل إليه خليل بيك الخربطلى أحد المبعدين يكلمه فى ذلك ومازال به حتى جنح لطلبه واجتمع به بكفالة شيخ العرب همام وتحالفا وتعاقدا وتعاهدا على الكتاب والسيف وكتبت بذلك حجة وكان العهد بينهما أنه إذا تم لهما الأمر أخذ صالح بيك الأقاليم القبلية بتمامها قيد حياته وأرسلوا بما وقع الاتفاق عليه إلى شيخ العرب همام قيل فسرّ بذلك ورضى به إرضاء لصالح بيك وأمدّهما بالعطايا والمال والرجال واجتمع عليهم جميع المتشردين من الغز والأجناد والهوارة والأبطال فصار لهم جيش عظيم فساروا إلى منية ابن خصيب وكان بها خليل بيك السكران عاملا فلما علم بقدومهم رحل عنها وجاء القاهرة هاربا فاستقر على بيك بلاط وصالح بيك ومن معهما بالمنية و بنوا حولها الأسوار والأبراج وركبوا عليها المدافع وقطعوا الطرق على المسافرين بروا وبحرا وأرسل على بيك بلاط إلى ذى الفقار بيك وكان مبعدا بالمنصورة ومعه جماعة من الكشاف يستقدمه إلى المنية بمن معه فارتحل من المنصورة ليلا إلى المنية فلما وردت الأخبار إلى القاهرة بما فعله على بيك وصالح بيك وأنهما فى عدة عظيمة جدا خافوا شرهما وخشوا عاقبة فعلهما فاجتمعوا جميعا وبينهم الشيخ الحفناوى شيخ الوقت يومئذ وتشاوروا فى الأمر وطال بينهم الأخذ والرد ثم اتفقوا على أن يرسلوا لهما عسكرا لقتالهما فقام الشيخ الحفناوى وخطأ رأيهم واستنقصه وأطال الكلام على ما أصبحت فيه البلاد من الضنك والاضمحلال بأسباب توالى الفتن وتعاقب الحروب والمحن وقال: ماذا عليكم لو أرجعتم على بيك وصالحتموه فيأتى ويقيم فى بيته آمنا مطمئنا؟ فقالوا إن لم نذهب لقتاله أتى هو لقتالنا بخيله ورجله

قال: لا تأتوا شيئا حتى أكاتبه ويأتى منه الجواب وقام وكتب له يوبخه ويزجره تارة وينصحه أخرى وينهاه عن فعل ما لا تحمد عاقبته وبعث إليه بالخطاب فلم يلبث الشيخ بعد ذلك إلا أياما ومرض ورمى بالدم ومات فشاع يومئذ أنهم أعطوه سما لينالوا أغراضهم من قتال على بيك وصالح بيك.

(مطلب)

عزل حمزة باشا وولاية محمد باشا راقم

ووردت فى هذه الأثناء الأخبار بعزل حمزة باشا وهو فى سجنه لا كلمة له كما تقدم القول وتولية محمد باشا راقم فقام إليه الملاقون ودخل القاهرة فى غرة ربيع الثانى سنة إحدى وثمانين ومائة وألف هجرية فسافر حمزة باشا إلى بلاد الروم فكان لبثه بمصر سنتين وشهرا. .

وعاد الأمراء بعد دخول محمد راقم باشا إلى جمع الجموع وتجهيز معدات القتال للحمل على على بيك بلاط وصالح بيك وكلموا محمد باشا فى أمرهما وأعلموه بأسباب خروجهما وموّهوا عليه الحال وأخذوا منه مرسوما بالقتال وسيروا حسين بيك كشكش ومعه عسكر جرار فطلب حسين بيك النفقة فلم يجدوا فى الخزينة شيئا من الأموال فجعلوا يصادرون التجار ويستصفون أموالهم وطلبوا أمراء البهار المعروفين بالتواخيد وألزموهم بدفع مال البهار معجلا فادّعوا الإعسار فهددوهم وأخذوا جميع ما عندهم من مال ومتاع ثم سار حسين بيك بعسكره والتقى الفريقان بناحية بياضة تجاه بنى سويف فاقتتلا قتالا عنيفا فانهزمت عساكر حسين بيك شر هزيمة وانفشلوا وقتل كثير من أمراء العسكر ورجع المنهزمون إلى القاهرة يوم السبت سابع عشرى الشهر وهم فى أسوأ حال، وأصبح يوم الأحد فطلعوا إلى أبواب القلعة وطلبوا من الباشا مرسوما بإعادة القتال وبأخذ مائتى كيس من مال الخزينة السلطانية نفقة للجند فامتنع الباشا من ذلك فراجعوه فلم يرض، وبينما هم ينازعونه فى ذلك إذ جاء يوم الاثنين الخبر بوصول على بيك وصالح بيك ومن معهما إلى ناحية غمازة وكان حسن بيك جوجو ومن معه من الأمراء نازلين بخيامهم جهة البساتين فارتحلوا ليلا وهربوا وانزعج خليل بيك وحسين بيك ومن معهما من الجند والعسكر وتحققوا أن لا قبل لهم بقتال على بيك بلاط وأن لابد من زوال دولتهم. وأرسل الباشا إلى أصحاب الوجاقات بملازمة كل وجاق لبابه فوصل على بيك وأصحابه إلى البساتين فلم يروا فيها أحدا وتسلل خليل بيك وحسين بيك وأصحابهما وطلعوا إلى

الأبواب فوجدوها مقفلة فرجعوا إلى قراميدان وأقاموا بها ساعة ثم رجعوا على أعقابهم وقد خرج الكثير فى تلك الليلة من الأمراء هاربين إلى حيث على بيك وصالح بيك وفى مقدمتهم حسن بيك جوجو ومن انضم إليه من الأمراء والأجناد وهرب خليل بيك شيخ البلد يومئذ وجميع أتباعه وأعوانه ومماليكه وحسين بيك كشكش وأتباعه وأعوانه وكانوا عدة كبيرة. وأصبح يوم الخميس فخرج الأعيان وغيرهم لملاقاة على بيك وصالح بيك ومن جاء معهما من الأمراء فدخلا القاهرة فى ذلك اليوم ومعهما جميع الذين كانوا مبعدين ولبثا إلى يوم الأحد ثم طلعا ومعهما باقى الأمراء المبعدين والذين تخلفوا عن الذاهبين إلى الديوان بقلعة الجبل فخلع الباشا على علىّ بيك خلعة الرضا وقرره شيخا للبلد وخلع على صناجقه خلع الاستمرار أيضا فى إماراتهم واستقر المنصب بعلى بيك فى إمارة مصر ورياستها وظهر نبله وعلت كلمته حتى ساعدته الأقدار وملك الديار المصرية والأقطار الحجازية والبلاد الشامية كما سيأتى بيان هذا كله فى محله إن شاء الله تعالى .

وتاقت نفسه ﴿ **إن النفس لأمارة بالسوء** ﴾ إلى الانتقام من بعض الأمراء وأعيان البلد وتبعيدهم فرأى أن لا قبل له بذلك خوفا من حسن بيك جوجو وأنه مادام حيا لا يصفو له الحال فأخذ من هذا الحين يدبر على قتله وأطلع بعض خواصه على ما فى سره فهونوا له الأمر وتعهدوا له بالعمل فلما كانت ليلة الثلاثاء ثامن رجب سنة إحدى وثمانين ومائة وألف حضر حسن بيك جوجو ومعه آخر اسمه على بيك جن وآخر اسمه محمد بيك أبو الذهب وأيوب بيك إلى بيت على بيك بلاط لزيارته فلبثوا عنده برهة من الليل يتحادثون ثم قام حسن بيك ومعه على بيك جن وركبا ومعهما الأمراء المذكورون ونفر من أصحاب على بيك يسايرونهم وهم المتكفلون بالقتل فلما صاروا فى الطريق التى عند بيت الشابورى خلف جامع قوصون جردوا سيوفهم وطعنوا حسن بيك فقتلوه وقتلوا معه على جن وتركوهما ورجعوا فأخبروا على بيك بلاط بما جرى فسرّ سرورا عظيما وبات وأصبح على بيك المذكور مالكا لجميع الأبواب لا رادّ لكلمته ولا يد فوق يده فلما صفا له الوقت ودانت له الأمور أبعد كثيرا من الأمراء والأعيان والوجهاء وشردهم فى الأقاليم القبلية والبحرية وضيق على كل من كان يتوسم فيه سمة الإنكار فخافه الناس وهابه الأمراء وعمت شهرته واتسعت صولته وجعل يتصرف فى الأمور كما يشاء. وبينما هو على هذا الحال من تتبع الخصوم وقطع دابر المخالفين إذ جاءه الخبر برجوع حسين بيك كشكش وخليل بيك من جهة غزة وهما فى جموع كثيرة للغاية وأخلاط من الجند والعسكر

يريدون القتال والزحف على الديار المصرية فأكبر هذا الأمر جدا وجيش لقتالهم جيشا ضخما للغاية فى البر والبحر واجتمع الفريقان عند الديرس والجراح من بلاد المنصورة وكان حسين بيك كشكش وأصحابه قد عرّجوا أولا إلى دمياط فنهبوا وسلبوا شيئا كثيرا ثم حضروا إلى المنصورة ففعلوا كذلك فلما التقى الجيشان واقتتلا انهزم أصحاب على بيك بلاط وانفشلوا وولوا راجعين وقتل منهم عدة كبيرة من الأمراء والجاويشية ولم يزالوا فى هزيمتهم إلى أن وصلوا دجوة فلما جاء الخبر بذلك اهتم له على بيك ونزل الباشا من قلعة الجبل وخرج إلى قبة باب النصر خارج القاهرة وجمع أمراء العسكر كافة والعلماء وأرباب السجاجيد ورسم أن كل من كان من الجند وأصحاب الوجاقات يبادر بالتأهب للخروج أو يخرج بدلا عنه واحدا واهتم كذلك على بيك بجمع العسكر وإعداد معدات الحرب فجمع جيشا عظيما وسلم لواءه إلى محمد بيك أبى الذهب فسار أبو الذهب من فوره والتقى بمن بقى من العساكر المتشردين فضمهم إلى عسكره وسار بهم فى طلب حسين بيك وخليل بيك وكانا قد نزلا بإقليم الغربية وساروا سيرا حثيثا يريدون القاهرة ليدخلوها فلاقتهم جيوش أبى الذهب بمدينة طنتدا وهم معسكرون فيها فأحاط أبو الذهب وعسكره بالمدينة من كل جانب فوقع الحرب بين الفريقين ولم يزل القتال قائما حتى فرغ ما عندهم من الذخيرة وقلت الأزواد فأرسلوا إلى أبى الذهب يطلبون الأمان فأمنهم وبطل القتال وكاتبهم أبو الذهب وخادعهم وتعهد لهم باسترضاء على بيك فانخدعوا وانحلت عزائمهم وتفرقت كلمتهم وباتوا ليلتهم تلك على بساط الطمان.
فلما كان ثانى يوم أرسل أبو الذهب إلى حسين بيك كشكش يستدعيه إلى معسكره ليتكلم معه فى أمر الصلح فسار إليه وليس معه سوى خليل بيك السكران أحد أتباعه فلما وصلا ودخلا مجلسه لم يجداه فجلسا برهة لطيفة ينتظرانه وإذا بجماعة من العسكر قد دخلت عليهما وضربتهما بالسيوف حتى ماتا وجاء فى أثرهما حسن بيك شبكة ولم يعلم بما جرى لأستاذه حسين بيك فلما اقترب من العسكر داخله الخوف وشعر برجفة فأراد الرجوع فعاقه رجل سائس اسمه مرزوق وضربه بنبوت فوقع إلى الأرض فلحقه أحد الجند واحتز رأسه. وجاء الخبر إلى خليل بيك الكبير ومن معه بما جرى على حسين بيك وأتباعه فخافوا خوفا عظيما وذهبوا إلى ضريح السيد أحمد البدوى والتجئوا إلى قبره وأيقنو أنهم لاحقون بإخوانهم وأرسل أبو الذهب إلى على بيك بلاط يستشيره فى أمر خليل بيك ومن معه فرسم بتبعيده إلى الإسكندرية فقبض عليه وبعث به إليها فلم يلبث بها إلا أياما وقتلوه خنقا ورجع

أبو الذهب ومن معه ودخلوا المدينة من باب النصر فى موكب عظيم وأمامهم رؤوس القتلى محمولة فى صوان من الفضة والخدم أمامهم يقولون« صلوا على محمد » وكانت عدة تلك الرؤوس ستا وهى رأس حسين بيك وخليل بيك السكران وحسن بيك شبكة وحمزة بيك وإسماعيل بيك أبو مدفع وسليمان أغا الوالى وكان دخولهم على هذه الصورة فى يوم الجمعة سابع عشرى المحرم افتتاح سنة اثنتين وثمانين ومائة وألف هجرية .

واشتد على بيك بلاط على ما بقى من الأمراء المخالفين وأبعد منهم عدة كثيرة إلى الصعيد الأعلى وأخرى إلى الأقطار الحجازية وقبض على أولاد سعد خادم ضريح السيد أحمد البدوى وصادرهم وأخذ أموالهم وكانت كثيرة وأبعدهم عن طنطا وأرسل آخر بدلهم اسمه الحاج حسن عبد المعطى وشرع فى بناء الجامع والقبة والسبيل والقيسارية العظيمة وأبطل عنها مظالم أولاد الخادم والحمل والنشالين والحرامية والصيادين وضمان المومسات وغير ذلك من أنواع المغارم التى كانت مفروضة عليها وبلغ على بيك شهرة عظيمة وكبر اسمه فى دار السلطنة العثمانية فأرسل إليه السلطان هدية قفطانا وسيفا صحبة رسول مخصوص بمرسوم سلطانى فتقاطر الأمراء لتهنئته ونزل الباشا إلى بيته وتزاحمت على بابه أقدام المهنئين فداخل صالح بيك من ذلك بعض الحسد وآنس منه على بيك بعض الوحشة فأصر له على بيك السوء وعزم أن يعجل به قبل أن تستحفل الوحشة فيعجل هو به وكاشف بعض رجاله على ما يريده بصالح بيك فهون عليه الأمر وتعهد له بالعمل فلما جاء صالح بيك إلى بيت على بيك ليهنئه بهدية السلطان وقفل راجعا إلى بيته ركب معه محمد بيك تابع على بيك وآخرون من الأمراء أتباع على بيك وساروا فى ركابه وخلفهم بعض الجند والأتباع فلما صاروا فى مضيق الطريق عند المفارق بسويقة عصفور تأخر محمد بيك ومن معه قليلا عن صالح بيك وصاح محمد بيك بخادمه ونهره وسبه وجرد سيفه بسرعة غريبة كأنه يريد قتله وطعن به صالح بيك فاخترط بقية من كانوا معه سيوفه وضربوه فسقط عن جواده إلى الأرض ميتا وتركوه وصعدوا من فورهم إلى قلعة الجبل فلما استقر بهم المقام أخذتهم نشوة الظفر بصالح بيك فجعلوا يتحدّثون فى أمر قتله وما فعله كل منهم وعابوا أحدهم أحمد بيك بشناق حيث لم يسرع فى إخراج سيفه وأحجم عن الطعن والضرب كما فعلوا هم فقال: إنى ضربته كما فعلتم فكذبوه وقالوا: أرنا سيفك إن كنت صادقا فلم يفعل وخاف أن يخبروا على بيك بلاط بما وقع منه فيقتله ثم انصرفوا وبات هو ليلته يدبر أمر

الخلاصه فلم ير له سبيلا غير الفرار إلى أرض الله الواسعة وأصبح فأخبر زوجته بما عزم عليه وشدد عليها أن لا تخبر بخبره أحدا حتى يصل إلى الإسكندرية ثم قام وتزيا بزى المغاربة وسار من ساعته وجدّ فى السير من ناحية شلقان فأتت السعاة وأخبرت على بيك بخبره فرسم لحاكم الإسكندرية بالقبض عليه فلم يتمكن من ذلك حيث كان قد نزل بإحدى السفن القاصدة بلاد الروم وكان من أمره بعد ذلك ما كان مما سيذكر فى حينه وأحمد بيك هذا هو أحمد باشا الجزار الشهير الذى ملك عكا وتولى الشام وإمارة الحاج الشامى وطار صيته فى الممالك شرقا وغربا فساء على بيك فراره وخشى عاقبة أمره.

واتسعت كلمة على بيك وكبرت هيبته فسقطت حرمة محمد باشا الوالى فى جانب حرمته وذهب اعتباره وصار مغلوبا على أمره ليس له من الولاية سوى الاسم فخاف على نفسه وأخذ يدبر على قتل على بيك وأعمل فى ذلك جهده وكاشف كتخداه عبدالله بيك بما فى خاطره فلم يكتم سره بل أعلم على بيك به وكشف عما ينويه له محمد باشا فلما علم على بيك بذلك أصبح فملك الأبواب والرميلة وحوالى قلعة الجبل والمحجر وأرسل إلى الباشا يلزمه بالنزول من القلعة فنزل من باب الميدان إلى بيت أحمد بيك كشك ولبث فيه محجورا عليه تخفره العسكر وتولى على بيك النيابة وجعل يتصرف فكثرت مصادرته للناس فى أموالهم ومتاعهم بلا فرق ولا تمييز فكانت هذه السنة السيئة من مبتكراته فى يوم نشأته ثم صارت سنة لمن يأتى بعده، وتاقت نفسه بعيد ذلك إلى الولاية على الشام أيضا فعمل على ذلك وهيأ هدية نفيسة للغاية وخيولا مصرية جيادا وبعث بها إلى السلطان وبعض رجال الدولة وكتب يشتكى من عثمان بيك ابن العظم والى الشام ويطلب من دار السلطنة عزله لقبوله المنفيين من أمراء مصر وانضمامهم إليه والأخذ بقولهم فى جميع أعماله وبالغ فى الشكوى واستفاض الخبر بذلك فى القاهرة ومصر وعلم محمد باشا الوالى به فكان يتحزن ويتوجع ولا قبل له على عمل شىء ومازال على هذا الحال من الحجر والضيق حتى مات فى المحرم افتتاح سنة ثلاث وثمانين ومائة وألف هجرية بقصر عبدالرحمن كتخدا بشاطئ النيل حيث كان مسجونا لم يخرج منه منذ أنزل من قلعة الجبل وقيل كان موته مسموماً فدفن بالقرافة الصغرى عند مدفن الباشاوات بالقرب من الإمام الشافعى ولم يحتفلوا بجنازته .

واجتمع الأمراء المبعدون إلى الأقاليم القبلية على اختلاف درجاتهم بشيخ العرب همام لعله يعاونهم على العود إلى ديارهم فأشار عليهم بالترفع إلى أسيوط

وأخذها عنوة وأن يقيموا بها ولم يسمح لهم بالمقام عنده خوفا من على بيك بلاط ووفاء بما بينهما من العهد فارتحلوا جميعا من عنده وترفعوا نحو أسيوط وكانوا عدة كبيرة واجتمع عليهم أيضا طوائف الهوارة وأخلاط من الناس ممن لا شاغل لهم وكان بمدينة أسيوط فى هذا الحين من قبل على بيك بلاط عبد الرحمن كاشف وذو الفقار كاشف وقد رمموا أسوار البلد وحصنوها تحصينا عظيما فلما وصلوا إليها ووجدوها على هذه الحال من المنعة والتحصين جعلوا يتلصصون إلى أن اتصل قوم منهم فى جنح الليل ببوابة البلد ومعهم خرق ملوثة بالقار والكبريت والزيت وأوقدوا فيها النيران فاشتعل الباب فهجموا على المدينة هجمة رجل واحد فلم يكن لهم بهم طاقة لكثرتهم وملكوا أسيوط وتحصنوا بها وهرب من كان فيها من العساكر والكشاف وجاءت الأخبار بذلك إلى على بيك فهاله الأمر واستعظمه وجيش لهم جيشا عظيما وسيره مع إبراهيم بيك بليفية ومحمد بيك أبو شنب وعلى بيك الطنطاوى وبالغ فى إرسال الذخيرة والميرة وغيرها فلما صاروا على مقربة من أسيوط خيموا عند جزيرة منقباط وعلم من بأسيوط بحضورهم فخافوا وتشاوروا فى الأمر فاتفقت كلمتهم على أن يركبوا ليلا ويدهموا عسكر على بيك فركبوا فى ساعة معلومة بينهم وسار بهم الدليل فى طوق الجبل فضلّ بهم وأسرى وإياهم حتى تجاوزوا المكان المقصود بنحو الساعتين فخافوا وعلموا فوات الوقت وأن القوم متى علموا بخروجهم ملكوا المدينة من غير ممانع قبل رجوعهم فما وسعهم إلا الذهاب إلى المعسكر ومصادمتهم على أى حال كان فلم يصلوهم إلا بعد طلوع الشمس وتيقظ القوم واستعدّوا لهم والتطموا معهم وهم قليلون فوقع القتال واشتد الجلاد وبذلوا جهدهم فى الطعن والضرب وبرز رجل منهم يريد محمد بيك أبو شنب فبرز له محمد بيك وهو يقول: لبيك ها أنا ها أنا فقصده جماعة منهم وقاتلوه وقاتلهم حتى قتل وحمى الوطيس وكثر الصياح وارتفع الغبار وانكشف عن هزيمة أهل الثورة ونصرة أصحاب على بيك وكانت هذه الوقعة الهائلة عند جبانة مدينة أسيوط فتمزقوا وتفرقوا أيدى سبأ ثم عاد من بقى وانضم إلى كبار الهوارة وملك أصحاب على بيك مدينة أسيوط واحتلوها ولبثوا بها أياما ثم ترفعوا لقتال شيخ العرب همام وكبار الهوارة ومن انضم إليهم من المهزومين فاتحد كبار الهوارة مع الأمراء المهزومين واستعدوا للقاء عسكر على بيك فراسل محمد بك إسماعيل أبوعبد الله ابن عم همام واستماله ومناه ووعده برياسة الصعيد عوضا عن عمه همام إن هو ختل قومه وتخلى عن القتال معهم ومازال به حتى ركن لقوله وصدق تمويهاته وتثاقل عن

القتال وخذل قومه ومن كان معهم من الأمراء فانفشلوا وتمزقوا كل ممزق وخاف شيخ العرب همـام شر العاقـبة فارتحل عن فـرشوط وانحدر على بعـد ثلاثة أيام منها ثم مرض أياما قـلائل ثم مات كمدا وحـزنا على ماجرى وسار محـمد بيك بالجند إلى فرشوط فدخلها من غير ممانع ونهب ما فيها وأخذوا جميع ما كان بدور همام وأقاربه وأتباعه من ذخـائر وأموال وغلال فزالت دولة همام المذكور من الأقـاليم القبلية من ذلك الحيـن ثم سار محـمد بيك بعـد ذلك من فرشـوط يريد القاهرة فـحضـر إليه درويش ولد همام بعد موت أبيه مـستجيرا فأحضره معـه إلى القاهرة فلبث بها أياما حتى رضى عنه على بيك وأعاده إلى فرشوط تحت عهود عاهدها له قبل السفر، أما محمد بيك أبو الذهب فإنه لم يلبث بالقاهرة إلا أياما قلائل بعد عوده ظافرا منصورا حتى وقعت بينه وبين أستاذه على بيك وحشة فخرج منها مغضبا إلى الأقاليم القبلية ولحق بدرويش بن همام وأقـام عنده فخلت البـلاد شرقا وغـربا لعلى بيك ومماليكه واستتبت كلمته وعمت الآفاق شهرته وتفرغ لقطع شأفة المنفيين فى الثغور كدمياط ورشيد والإسكندرية والمنصورة وغيرها ووكل جماعة من قومه بذلك فكانوا يذهبون إلى تلك الجهـات واحدة فواحـدة فيقـيمون بهـا أياما ويقتلـون من بها من أولئك المبعدين خـنقا ثم ينتقلون لغيـرها حتى أفنوهم ولم يبقوا منهم أحـدا وخاف الناس على بيك خوفـا عظيما فاتفق أنه دخل يـصلى يوما بجامع الداودية فعـصد خطيب الجامع وخطب ثـم دعا للسلطان ولعلى بيك بالنصـر والتأييـد فلما انقـضت الصلاة وقام على بيك يريد الانصراف استدعى الخـطيب وقال له: من أمرك بالدعاء باسمى على المنبـر أقيل لك أنى سلطان؟ وكـان الخطيب يغلب عليـه البله فقـال: نعم أنت سلطان وأنا أدعـو لك فأظهـر على بيك الغيظ وأمـر به فضـربوه بالعصى وتـركوه فركب حمارا لشدّة ما أصابـه من الضرب وسار إلى بيته وهو يصيح فى الطريق «بدأ الإسلام غريبا وسيعود كما بدأ» وأكثر من الصياح على هذا الحال فتبعه العامة إلى أن دخل بيتـه فلما علم على بيك بذلك خاف الـعاقبة فـأرسل إلى الشيخ كـسـوة سنية وبعض دنانير واستعطفه لما وقع منه.

مطلب)

ولاية محمد باشا الأورفلى ثم عزله وولاية الوزير أحمد باشا

وبعد أيام جاء الخـبر بولاية الوزير محمـد باشا الأورفلى بدلا من محـمد باشا راقم الذى مات كما تقدم القول فحضر على البـر فى أبهة وكبكبة عظيمة وقصد إلى قلعة الجبل وذلك فى آواخر سنة اثنتين وثمـانين ومائة وألف هجرية وجعل يتصرف

بقدر الاستطاعة إلى سنة ثلاث وثمانين ثم عزل وتولى بعده الوزير أحمد باشا فأتى من الأقطار الحجازية إلى السويس بالقلزم ودخل القاهرة في موكب حافل وهو متوعك ولم يصعد قلعة الجبل وسكن بدرب الحجر أشهرا ثم اشتد به مرضه فمات في السنة المذكورة .

واشتدت رغبة على بيك بلاط في الغزو وفتح المدن والأمصار لاسيما الديار الشامية والحجاز وقد تقدم القول أنه كتب إلى دار السلطنة يشتكى من ابن العظم ويرميه بالسوء فكانت رسله لا تنكف عن استطلاع أخبار الشام والحجاز وكان يتمنى لو أن الله ييسر له فتحهما فبينما هو على هذا الحال بين الرجاء والتمنى واستطلاع أخبار تلك الأصقاع إذ قدم إلى القاهرة في المحرم افتتاح سنة أربع وثمانين ومائة وألف هجرية الشريف عبدالله من أشراف مكة وكان من أمره أنه وقع بينه وبين ابن عمه الشريف أحمد أخى الشريف مساعد منازعة في إمارة مكة بعد وفاة الشريف مساعد فتغلب على الشريف أحمد واستقل بالإمارة وخرج الشريف عبدالله هاربا إلى دار السلطنة مستنجدا فرسم السلطان إلى على بيك بلاط بمساعدته وإعادة الإمارة إليه كما كانت فأنزله على بيك منزلا رحبا وأكرم وفادته وفرح فرحا عظيما ورتب له المرتبات من مأكول ومشروب وأمر بتجهيز الذخائر ومعدات الحرب وملأ بيوت الأمراء الذين قتلوا بالذخيرة وآلات القتال والمؤن واستعرض أصناف العسكر من ترك ومغاربة وشوام ومتاولة ودروز وحضارمة ويمانية وسودان وجبشان ودلاة وغير ذلك وأرسل معهم طوائف في المقدمات وأنزل المشاة منهم إلى القلزم في السفن وسار بقية الجند في صفر من السنة بعد دخول الحاج في تجمل زائد وكبكبة عظيمة ومعهم محمد بيك أبوالذهب وبعض كبار الأمراء وسار معهم الشريف عبدالله وقد ودعه على بيك وطيب نفسه فلما التقى الجمعان اقتتلا قتالا عنيفا على الينبع فانتصر المصريون على العرب نصرة مؤزرة وهزموهم شر هزيمة وقتلوا خلقا كثيرا من الأشراف وقتلوا والى الينبع العامل عليها من قبل الشريف ثم سار محمد بيك بعسكره حتى اقتربوا من سواد مكة فخرج عليهم قوم الشريف أحمد وأصحابه فقاتلهم وانتصر عليهم ودخل مكة عنوة فخرج الشريف منها هاربا فأباحها ثلاثة أيام فنهبوا ما فيها ونهبوا بيت الشريف وبيوت أصحابه وأخذوا شيئا كثيرا للغاية من متاع وأموال وجواهر وحلى ونفائس وغير ذلك وأجلس الشريف عبدالله في منصب إمارة مكة وولى حسين بيك أحد الأمراء المصريين على ولاية جدّة عوضا عن واليها من قبل الدولة وأقام أبو الذهب أياما بمكة حتى استتب قدم الشريف عبدالله ثم سار

بعسكره يريد القاهرة ووصلت الأخبار بذلك فخرج لملاقاته الملاقون بالعقبة، فلما جاء الخبر بوصوله إليها خرج الأمراء إلى بركة الحاج والدار الحمراء لانتظاره فدخل فى أوائل شهر رجب من السنة وقدم القاهرة فى ثامنه فى موكب عظيم للغاية وأتى إليه العلماء وأعيان البلاد وقصده الشعراء بالقصائد والتهانى فعلت شهرة على بيك بالأقطار الحجازية وطار صيته فى الآفاق، ولما تكامل ورود عسكره من غزوة الحجاز عزم على أن يوجه بهم لغزو الشام فبدأ بأن أرسل يمهد الطرق أمامهم وكان بغزة شيخ لعربانها اسمه طيط طاغية شديد المراس وكان يكره على بيك ويتمنى خذلانه وزوال دولته فسير إليه على بيك رجلا من أعوانه اسمه عبدالرحمن أغا ورسم له بقتله فسار إلى غزة فى نفر من الجند ولم يزل يتحيل حتى ظفر به وقتله هو وإخوته وأولاده وقد كان عقبة كبرى فى طريق الشام ثم استكثر على بيك من جمع طوائف الجند وإعداد معدات القتال والمؤن والذخائر وجيش جيشا ضخما وسلمه إلى إسماعيل بيك ومعه عدّة من الأمراء فبرزوا إلى العادلية بالآلات والأحمال والخيام وأقاموا بها أيامًا ثم ارتحلوا إلى الشام وسار خلفهم جيش آخر بحرا ومقدمه سليمان بيك والتقى الجمعان فقامت الحرب على ساقها بين الطرفين واشتدت وحمى وطيسها فتابع على بيك إرسال المدد من جند وسلاح ومؤن وذخيرة فى البر والبحر وحتى نفد ما عنده والطلب متواصل فعمد إلى مصادرة الناس وأخذ أموالهم بأرذل الطرق وأخس الوسائل وفرض على القرى أموالا وقرر على كل طائفة مائة ريال وثلاثة ريال حق الطريق فضج الناس وتعطلت أسباب الرزق وهاجر البعض وطلب من قبط مصر مائة ألف ريال ومن يهودها أربعين ألفا وضيق وشدد وهدد وبالغ فى الوعيد فأخذها جميعها.

وسير بعد ذلك جيشا آخر كامل العدد والعدد إلى يافا فحاصرها وضيق عليها ومازال منع الواصل إليها متتابعا حتى فتحت وأخذت عنوة ثم ركبوا على باقى المدن والقرى وقاتلوا من بها من النواب والولاة وهزموهم ففروا من وجوههم واستولى المصريون على جميع الديار الشامية إلى حلب وطار صيت على بيك وملأ الآفاق فداخله الغرور وتاقت نفسه إلى الغزو والفتوح فأرسل إلى محمد بيك أبى الذهب يأمره بتولية الأمراء الذين معه المناصب والولايات على البلاد التى ملكوها وأن يستمر على الغزو والفتوح ويتجاوز الحدود ويستولى على كل ما يصادفه من الممالك والبلدان إلى حيث شاء الله وهو يتابع إرسال المدد إليه من مال ورجال فجمع أبو الذهب من معه من الأمراء والأقران وكبار الجند وشاورهم فى الأمر أخبرهم بما

يريده على بيك فاختلفت كلمتهم وتفرقت أغراضهم وطال الجدال بينهم ثم اتفقوا على الرجوع بجميع العسكر إلى مصر وتحالفوا على أن يكونوا على قلب رجل واحد وساروا من يومهم فجاءوا القاهرة فى رجب من السنة ودخلوها على خلاف ما رسم به على بيك فساءه فعلهم واستعظمه جدا وبقى الأمر على السكوت أياما ثم تكلم على بيك مع أبى الذهب فى أمر رجوعه إلى الديار الشامية لفتح كل ما تيسر له فتحه من مدنها وأمصارها وشدد عليه فى ذلك فأظهر محمد بيك عين السخط وعدم الرضا وعارض فى الأمر كثيرا فصمم على بيك وقال لابدّ من السفر فبدأت بينهما الوحشة باطنا من هذا الحين وأخذت فى الازدياد يوما عن يوم وجعل كل يراقب الفرص ويتبين وجه الانتفاع بها، فلما كانت ليلة الرابع من شوّال من السنة دس على بيك بلاط إلى على بيك الطنطاوى وآخرين معه أن يغتالوا محمد بيك أبو الذهب ويقتلوه على كل حال فركبوا عليه فى تلك الليلة وأحاطوا بداره ووقفت العساكر بأسلحتها فى الطريق فلما أحس محمد بيك بحضورهم ركب من فوره وخرج من بينهم راكبا والسيف بيده وخلفه خواصه وبعض الأتباع وذهب إلى البساتين ثم ارتحل منها إلى الصعيد وعلم من بالأقاليم القبلية من الأمراء المبعدين بحضوره على هذا الحال فساروا إليه وقدموا له ما عندهم من مال ورجال وقدم له أيوب بيك أحد رفاقه هدايا من خيل وأقمشة وخيام وغيرها وقد وضع محمد بيك المذكور بالطريق عيونا وأرصادا لتأتى له بأخبار القادمين عليه من مصر فأحضروا له يوما رجلا يحمل مكاتبة من على بيك بلاط إلى أيوب بيك يأمره بها ويستحثه على سرعة قتل أبى الذهب على أى حال كان ويعده بإمارته وبلاده وغير ذلك فلما قرأ المكاتبة أكرم الرجل وناوله إياها وقال له: اذهب وائتنى بجوابه ولك عند غاية الإكرام فذهب الرجل وغاب ثم عاد بالجواب وناوله إلى محمد بيك فقرأه فإذا هو يذكر فيه أنه باذل ما فى الوسع وهو يراقب الفرص لينتهزها فتحقق محمد بيك خبث طوية أيوب بيك فجمع إليه خاصته وأمراءه وأعلمهم بالخبر وأمرهم بالاستعداد والتأهب وأنه إذا حضر أيوب بك إليه أخذ الأمراء نظراءهم من قوم أيوب بيك وتحفظوا عليهم، فلما حضر إليه أيوب بيك جلس معه فى خلوة فقال له أبو الذهب: بدا لى أن أسألك هل نحن مقيمون على الإخاء والمصافاة والصداقة والعهد الذى تعاهدنا عليه بالشام؟ قال نعم وزيادة قال: ومن نكث وخان اليمين ونقض العهد؟ قال يقطع لسانه الذى حلف به ويمينه التى وضعها على المصحف فقال له: بلغنى أنه أتاك كتاب من عند أستاذنا على بيك فقال لا. فقال لعل ذلك صحيح

وقدكتبت له الجواب أيضا قال لم يكن ذلك أبدا ولو أتانى منه خطاب لأطلعتك عليه ولا يصح أن أكتمه عنك أو أرد له جوابا فأخرج واستحضر له ذلك الرسول فسقط فى يده وأخذ يتنصل ببارد العذر فقال له أبو الذهب لا يصح أن تكون من رفاقى فقم واذهب إلى أستاذك واهنأ به فلما خرج قبضوا عليه وأنزلوه إلى مركب وأحاطوا بوطاقه وأسبابه فتفرقت عنه جموعه ثم أمر محمد بيك أحد رجاله فذهبوا وقطعوا يده ثم وضعوا صنارة فى لسانه وجذبوه ليقطعوه كما حكم هو بذلك فأفلت منهم ورمى بنفسه إلى الماء فغرق ومات فأخرجوه وغسلوه ودفنوه.

ولما فاض الخبر بما وقع لأيوب بك تحقق الناس استفحال الوحشة بين أبى الذهب وأستاذه على بيك وأقبل الأمراء والأجناد المنفيون إليه ودخلوا تحت لوائه واجتمع إليه جميع أتباع القاسمية والهوارة الذين شردهم على بك وسلب نعمتهم فأكرمهم وأنعم عليهم وواساهم وقلدهم الخدم والمناصب فتقيدوا بخدمته وبذلوا جهدهم فى طاعته وأخلصوا له النية، فلما وردت الأخبار بذلك إلى القاهرة نزل بعلى بيك بلاط من القهر والغيظ المكظوم ما لا يوصف وجعل يجيش الجيوش ويعد المعدات وسير إسماعيل بيك أحد أتباعه بجيش عظيم فى البر والبحر وذلك فى أواخر ذى القعدة من السنة فلما التقى الجمعان لم يقع بينهما من القتال إلا شىء خفيف جدا ثم انضم إسماعيل بيك بأكثر جنده إلى جند محمد بيك وصاروا جميعا على قلب رجل واحد فاشتد الأمر بعلى بيك ولاحت عليه لوائح الغم وكاد يموت قهرا وغما وعاد إلى جمع العساكر والإكثار من السلاح ومعدات الحرب وسير سبعة من الصناجق. قال أحد الكتاب: وكلهم مزلقون أى مترفهون متنعمون وضم إلى كل منهم عساكر وطوائف ومماليك وأتباعا وبرز بنفسه إلى جهة البساتين ورسم بعمل المتاريس من النيل إلى طريق الجبل ووضع عليها المدافع وسارت العساكر ومعها على بيك الطنطاوى وبقية الأمراء فى منتصف المحرم افتتاح سنة ست وثمانين ومائة وألف فالتقى الجمعان فى الطريق حيث كان أبوالذهب وقومه منحدرين إلى القاهرة واقتتلا عند بياضة أمام بنى سويف ووقعت بينهما مقتلة عظيمة انجلت عن هزيمة عسكر على بيك فساق أبوالذهب خلفهم بأصحابه وهم يمانعون عن أنفسهم حتى عبروا النيل ووصلوا إلى دير الطين وكان على بيك بلاط مقيما به فلما رأى أصحابه مقبلين على هذا الحال من الهزيمة والفشل اشتد قهره وتحير فى أمره ولكنه أظهر التجلد وأمر بالاستعداد وترتيب المدافع وأقام إلى الغروب على هذا الحال وقد تفرقت عنه عساكره من المغاربة وغيرهم ووصل محمد بيك إلى شاطئ النيل المقابل لدير

الطين ونصب صيوانه وخيامه تجاه صيوان وخيام على بيك فنظر إليها على بيك وقلبه يحترق بنار الغيظ ثم ركب عند الغروب ودخل من باب القرافة وطلع إلى باب العزب فلبث برهة من الليل ثم نزل إلى بيته وقد عقد النية على الفرار فحمل أحماله وأمواله وعياله وخرج سائرا إلى الشام وذلك فى ليلة خامس عشرى المحرم افتتاح سنة ست وثمانين وسار معه على بيك الطنطاوى وجميع صناجقه ومماليكه وأتباعه وطوائفه، وأصبح يوم الخميس سادس عشرينه فعلم محمد بيك أبوالذهب بخروج على بيك ومن معه فعبر محمد بيك النيل إلى الجانب الشرقى وأمر فأوقدوا النار فى دير الطين ودمروه تدميرا بعد نهبه ثم دخل المدينة بلا ممانع ونادى أصحاب الشرطة على أتباع على بيك بلاط بأن لا يؤويهم أحد فكانت مدة غيبة محمد بك عن مصر سبعين يوما، فلما استقر به المنصب أرسل فقتل عبدالله كتخدا الباشا ونادى بإبطال السكة التى كان ضربها على بيك باسمه وكانت قروشا وأنصاف قروش وكلها من النحاس قد صنعها المعلم رزق أحد قبط مصر وجعل يتصرف فى الأمور وينظر فى مصالح البلاد ويعطى المناصب ويفرق الوظائف وغير ذلك، وبينما هو على هذا الحال من النقض والإبرام إذ جاءه الخبر بخروج على بيك بلاط من الشام فى جيش عظيم يريد قتال محمد بيك فتهيأ محمد بيك للقائه وبرز بخيامه جهة العادلية ونصب صيوانه فأقام يومين حتى تكامل خروج العسكر وجاء الخبر بوصول على بيك بجنوده إلى الصالحية فارتحل محمد بيك فى خامس صفر سنة سبع وثمانين ومائة وألف هجرية فى جيش عظيم للغاية فالتقيا بالصالحية واقتتلا قتالا عنيفا جدا فكانت الدائرة على علىّ بيك وأصحابه وأصابته جراحة فى وجهه فسقط عن جواده فاحتاطوا به وحملوه إلى مخيم محمد بيك فخرج إليه محمد بيك وتلقاه بأحسن لقاء وقبل يده وأخذ بيده حتى أجلسه بصيوانه وجلس بين يديه وكان القتلى فى هذه الموقعة كثيرين للغاية وقد قتل بينهم على بيك الطنطاوى وسليمان كتخدا وعمر جاويش وغيرهم من كبار جند علىّ بيك بلاط وكانت هذه الموقعة فى يوم الجمعة ثامن شهر صفر من السنة ثم قفل محمد بيك راجعا بعسكره إلى القاهرة ومعه أستاذه على بيك بلاط وأنزله فى بيته الكائن بالأزبكية بدرب عبدالحق وحضر الأطباء لعلاجه فلم يلبث إلا سبعة أيام ومات. قيل: إنه سم فى جراحته ودفن عند أسلافه بالقرافة وزال وزالت دولته العظيمة. قال أصحاب الأخبار: كان شهما شجاعا مقداما فى الحروب داهية طاغية شديد البطش صعب المراس ثابت الجنان سريع الخاطر والانتقام فخلا الجو لمحمد بيك أبى الذهب واتسعت من هذا الحين شهرته وعلت كلمته واستتبت قدمه فى منصب الرياسة أو كادت.

(مطلب)

ولاية الوزير خليل باشا

وجاء الخبر بعد هذا الحادث بقليل بولاية الوزير خليل باشا على ديار مصر فدخل القاهرة فى تاسع عشر ربيع من سنة سبع وثمانين[1] وصعد إلى قلعة الجبل فى موكب حافل للغاية وكان وصوله من طريق دمياط فجلس فى ثانى يوم للناس فدخل عليه أرباب الديوان وأصحاب الوظائف فخلع عليهم الخلع المعتادة وجعل يتصرف فى الأمور كما سيذكر مفصلا فى محله.

قال بعض أهل التاريخ: واشتدت رغبة السلطان مصطفى فى ردّ ما أخذه المحاربون من المدن والأمصار وجيش لذلك جيشا عظيما وعزم على الخروج به إلى الدانوب فلم يتمكن لمرض أصابه ولازم الفراش فاشتدت به علته فلما أحس بقرب أجله استدعى إليه أخاه عبدالحميد وأوصاه بولده سليم وكان قاصرا ثم مات فى سنة سبع وثمانين ومائة وألف هجرية أى سنة أربع وسبعين وسبعمائة وألف ميلادية فكانت مدة تصرفه ست عشرة سنة وقيل سبع عشرة سنة وكانت له عناية ومعرفة تامة بالعلوم الرياضية محبا لأهل العلم وله مؤلفات فى الرياضة تعرف باسمه وكان شهما حازما مهيبا أعماله مشهورة للغاية.

ومات فى أيامه يوحنا بطرك الإسكندرية بعد أن أقام ثمان عشرة سنة واشتد فى أيامه على بيك بلاط على النصارى شدة عظيمة وضيق عليهم جدا وصادر الكثير منهم ثم ضرب عليهم غرامة قدرها مائة ألف ريال كما تقدم القول فانبث أعوانه لجمعها وقد عاثوا وأفسدوا وفعلوا ما لا خير فيه وبيعت بسبب هذه الغرامة الجواهر والأحجار الكريمة بأبخس الأثمان وبموته أقيم بعده مرقس السادس بعد المائة وهو من رهبان دير انبا بولا واسمه سمعان من بلدة قلوصنا وكان فى أيامه من الحوادث ما سيذكر فى محله.

ولما مات السلطان مصطفى تولى الملك بعده أخوه السلطان عبدالحميد ابن السلطان أحمد .

---

(١) لم أجد فيما راجعته من مذكرات أصحاب التاريخ التي جمعت منها هذا المؤلف اسما لمن تولى مصر من الباشاوات بعد الوزير أحمد باشا الذي قدم من الحجاز فى سنة ثلاث وثمانين ومائة وألف هجرية إلى ولاية خليل باشا هذا التى هى سنة سبع وثمانين فصارت المدة الخالية زهاء خمس سنين والله أعلم أ.هـ مؤلفه.

(الفصل العشرون)

(فى سلطنة السلطان عبدالحميد ابن السلطان أحمد)

ثم قام بالأمر بعد السلطان مصطفى أخوه السلطان عبدالحميد ابن السلطان أحمد بويع له بالملك يوم موت أخيه سنة ثمان وثمانين ومائة وألف هجرية أى سنة أربع وسبعين وسبعمائة وألف ميلادية وله من العمر يومئذ خمسون سنة أمضى منها أربعا وأربعين فى السجن محجورا عليه لا يجتمع عليه إلا بعض الغلمان والأتباع ولا يدرى من أحوال الدنيا شيئا فلم تكن فيه الأهلية لسياسة البلاد ولا القدرة على تدبير أمور المملكة فى ذلك الحين وقد كانت الأخطار تتهدّدها من كل جانب بسبب الحروب القائمة عليها من الداخل والخارج وكان السلطان مصطفى قبل موته قد جيش جيشا عظيما للزحف به على الروس واسترداد ما أخذ من أملاكه فاخترمته المنية قبل ذلك كما تقدم فلما تولى السلطنة السلطان عبدالحميد أمر بإنفاذ جيش السلطان مصطفى وبالغ جدا فى تنظيمه وأعدّ له كل ما يحتاجه من ذخيرة وميرة وأسلحة وكراع وكان زهاء أربعمائة ألف وسلم لواءه إلى الصدر الأعظم فساروا والتقوا بجيوش الروس واقتتلوا فدب الفشل فى العساكر العثمانية وانحصروا فى مدينة شوملة لسوء تدبير الصدر الأعظم وفساد رأيه فحاصرهم الروس وضيقوا عليهم جدا وكادوا يقتلونهم عن بكرة أبيهم فرأى الصدر أن يراسل قائد العساكر الروسية فى طلب الصلح فوافقه القائد على ذلك إذ كان كل من الطرفين يرى أن لا قبل له على إطالة زمن الحرب فعقدوا مجلسا فى مدينة بكرش وحرر المرخص العثمانى عهدا وأرسل صورته إلى دار السلطنة وكان محصل ما فى العهد المذكور إعطاء الحرية التامة للتتار وبقاء قلعة بكرش ويكى قلعة فى يد الروس وحرية سير السفن الروسية التجارية فى البحرين الأبيض والأسود فرضيت دولة الروس بشروط هذا العهد وتمسكت بها لاسيما ما جاء فيها من إعطاء التتار حرية فقد كان ذلك ما تتمناه وتسعى فى الحصول عليه وبناء على ذلك تساهلت هى أيضا للدولة العثمانية فى كثير من الأمور ولكنها كانت طفيفة فى جانب ما نالته هى. ولما شاع خبر هذا الصلح فى دار السلطنة هاج الناس وماجوا وخشى أكابر الدولة شر العاقبة وأنكروا قبول منح الحرية للقريم وسير السفن فى البحرين وقالوا: الحرب والنار ولا هذا العار. قال بعض كتاب الأخبار: وكان قصد الروس من منح الحرية للتتار إنما هو إيقاد نار الفتنة فى القريم وبث روح التعصب والفساد كما فعلوا فى لهستان من قبل

فإذا تم لـهم ذلك سهل عليـهم الاستيلاء عليـها كـما اسـتولوا على إيالتـى قزان وازدرهان قال: ولم يمنعـهم من العمل للمسـتقبل مـا هو واقع من الخلل والارتباك الداخلى وعدم استـقامة الأحوال فـإنه لما أخذت قيصرتهم كـاترينة فى إدخال أولاد الناس فى صفوف الجـند وأكثرت من المغارم والمكوس لنفقـة الحروب أبغض الناس الحرب ونفرت قلوبهم منه وتولى الخراب على الكثير من مدنها وبلدانها وضج الناس وابتهـلوا إلى الله بزوال ملكها وأخـذت من هذا الحين تذبل نضـارة دولة آل عثـمان وكـادت تزول سلطتـهـا من وراء الدانوب زوالا تامـاً فاشـتـد الأمـر على السلطان عبدالحميد وأعظمه جدا وكان منه ما سيذكر فى محله.

(مطلب)

عزل الوزير خليل باشا وولاية مصطفى باشا النابلسى

وجاء الأمر عـقب ولاية السلطان عبدالحميد بقلـيل بعزل الوزير خليل باشا من ولاية مصـر وتوليته على جدة وقـيام الوزير مصطفى باشـا النابلسى من دار السلطنة ليتولى على مـصر فحضر مـصطفى باشا إلى القاهرة فى أواخر جمـادى الثانية من السنة وطلع إلى قلعـة الجبل وقـيل إنه سكن ببركـة الفيل ، والثانـى أصح. وجعل يتصرف فى الأمور فلم يقـو على ذلك حيث كانت الكلمة والتصرف للأمـير الكبير محمد بيك أبى الذهب وأصحابه وكان وصول مصطفى باشا إلى القاهرة والوقت فى هدو والحال فى سكون والقلوب مطمئنة والأقـوات كثيرة والأسعار رخـية ولكن كما قال الشاعر

وما الدهر فى حـال السكون بساكن ولكنـه مـسـتـجـمـع لوثوب

ولما اطمأن قلب الأمـير محمد بيك بسكون الحال بعد مـوت أستاذه على بيك بلاط تاقت نفسه إلى غزو الشام واستـخلاص ما بيد الظاهر عمرو من المدن والبلدان فجـيش لذلك عسكراً عظيمـا وبرز بخيامه إلى الـعادلية وفرق الأمـوال على الأمراء والعسكر وسـيرهم فى البر والبحـر وأنزل الذخيرة والميرة وأكـثر من المدافع والقنابل الكبيرة وسار بنفسه مع هذا الجيش فى أوائـل المجرم افتتاح سنة تسع وثمانين ومائة وألف هجرية وسلم الإمارة ونيابة الغيبـة بمصر إلى إبراهيم بيك أحد كبار مماليكه ثم ترك بقيـة الأمراء ولم يصـحبه منهم إلا القـليل فلما وصل مدينـة غزة وشاع خـبر

وصوله خاف أهل البلاد ولم يظهروا أمامه وتحصن أهل يافا وتحصن كذلك الظاهر عمرو بعكا، فلما وصل محمد بيك إلى يافا حاصرها وضيق عليها وشدد فامتنعوا عليه وحاربوه من وراء السور فحاربهم ورمى عليهم بالمدافع والمكاحل وواصل الرمى عدة أيام وليالى فكانوا يصعدون على الأسوار ويسبون المصريين وأميرهم سبا قبيحا فلم يزل المصريون يوالون الرمى بالقنابل حتى نقبوا أسوارها وهجموا عليها من كل صوب وحدب وملكوها ونهبوها وقبضوا على أهلها وقيدوهم بالحبال والحديد وسبوا النساء والصبيان وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ثم جمعوا الأسرى خارج البلد وذبحوهم ذبح الغنم ولم يميزوا بين صنوف الناس وبنوا من رؤوس القتلى عدة صوامع ووجوهها بارزة والرياح تنسف عليها التراب ثم ارتحل عنها طالبا عكا فلما بلغ الظاهر عمرا ماوقع لأهل يافا اشتد خوفه وخرج من عكا هاربا وتركها وحصونها فوصل إليها محمد بك ودخلها من غير ممانع وأذعنت له باقى البلاد وأطاعته وهى صاغرة. فلما دانت له مصر والشام أرسل إسماعيل أغا إلى دار الخلافة بهدايا وأموال عظيمة جدا ملتمسا إمارة مصر والشام وكان السلطان يخشى استقلال محمد بيك بملك البلاد والخروج عن طاعته فأجابه على الفور إلى ما طلب وأرسل إليه مع رسوله تقاليد الولاية والخلع والبيرق والداقم وجاءت له الأخبار بذلك ووردت عليه البشائر بتمام الأمر فوافاه ذلك يوم دخوله عكا فامتلأ فرحا فحمَّ بدنه فى الحال فأقام محموما ثلاثة أيام ومات ليلة الأربعاء ثامن ربيع الثانى من السنة ووافى خبر موته دار السلطنة قبل قيام الرسول الذى كان يحمل التقاليد فانتقض الأمر وردّت التقاليد وفرح السلطان بموته. وكان قد جمع إليه قبل موته الأمراء ومقدمى الأجناد وأعلمهم بعزمه على السير إلى الأمام وفتح ما يفتح الله به عليه من المدن والبلدان فشق الأمر عليهم جدا إذ كانوا قد سئموا الحرب والابتعاد عن الأوطان فلم يجاوبوه بشىء خوفا منه. قال ناقل هذه الرواية: وأقمنا علي ما نحن عليه من الغم والكمد الثلاثة الأيام التى تمرض فيها وأكثرنا لا يعلم بمرضه ولا يدخل إليه إلا بعض خواصه ولم يذكروا مرضه إلا فى اليوم الثالث. قالوا إنه منحرف المزاج فلما كان صبح الليلة التى مات فيها نظرنا إلى صيوانه وقد انهدم ركنه وأولاد الخزنة فى حركة ثم زاد الحال وجرد السيوف بعضهم على بعضهم بسبب المال وظهر أمر موته وارتبك العسكر وحضر مراد بيك فكفهم عما هم عليه وجمع كبراءهم فى الحال وشاورهم فاتفق رأيهم على الرحيل إلى مصر فقاموا وقد غسلوا جثته وكفنوها ولفوها فى

أقمشة ثخينة وحملوها على عربة وساروا طالبين الديار المصرية فدخلناها بعد ستة عشر يوما وكان دخولنا فى ليلة الأربعاء الرابع والعشرين من ربيع الثانى فأرادوا دفن الجثة بالقرافة فحضر الشيخ الصعيدى وأشار بدفنه فى مدرسته تجاه الأزهر فحفروا له قبرا بالليوان الصغير الشرقى وبنوه ليلا فلما أصبحوا خرجوا بجنازته من بيته الذى بقوصون ومشى أمامه المشايخ والعلماء والأمراء وجميع الأحزاب وأولاده المكاتب وأمام نعشه مجامر العنبر والعود لإخفاء رائحة نتنه حتى واروه التراب أ هـ .

واستقر أتباعه أمراء البلاد المشار إليهم فى الحل والعقد ومقدماهم إبراهيم بيك ومراد بيك وكانت عدتهم ستة عشر أميرا.

(مطلب)

عزل مصطفى باشا وولاية الوزير إبراهيم باشا عرب كرلى وموته وولاية محمد باشا المعروف بالعزتلى الكبير

ووردت الأخبار بعزل مصطفى باشا النابلسى وولاية الوزير إبراهيم باشا عرب كرلى فدخل القاهرة وسافر مصطفى باشا فى أواخر جمادى الثانية سنة تسع وثمانين ومائة وألف هجرية إلى جدة ومات بالمدينة وكان وصول إبراهيم باشا المذكور إلى القاهرة رابع شعبان سنة تسع وثمانين فنزل بإمبابة وأقام بها ولم يكن له من الولاية سوى الاسم فقط والتصرف لإبراهيم بيك ومراد بيك ومازال بامبابة حتى مرض ومات فدفن بالإمام الشافعى وتولى بعده الوزير محمد باشا المعروف بالعزتلى الكبير فدخل القاهرة فى يوم الخميس سابع عشر ربيع الأول سنة تسعين فكان كمن سبقه محجورا عليه فى جميع أعماله ليس له من الولاية إلا الاسم فقط والتوقيع على القصص والجلوس فى صدر الديوان. ولم تكن لتسكن الفتن بموت على بيك بلاط وإسماعيل بيك الكبير حتى ظهرت فتنة أخرى بالجامع الأزهر واشتدت نارها وارتفع لهيبها وكان سبب ذلك أن طائفة من المغاربة المجاورين بالأزهر آل إليهم مكان موقوف فطلبوا استلامه واستغلاله فمانع واضع اليد وطعن فى الدعوى واستعان بالأمير يوسف بيك من الأمراء المقدمين ودافع عن المكان المذكور فرفع المغاربة أمره إلى القاضى وترافعوا أمامه فظهر الأمر على خلاف ما يشاء يوسف بيك فحنق لذلك ووسمهم بالغش وارتكاب الباطل وأرسل جماعة من أصحابه ليقبضوا على الشيخ عباس أحد المغاربة العاملين فى هذه القضية فطردهم المجاورون وسبوهم ولم يمكنوهم منه وأخبروا الشيخ الدردير بما جرى فكتب الشيخ إلى يوسف بيك يمنعه

من التعـرض لأهل العلم ومعاندة الحكم الشـرعى وأرسل المكاتبة صحـبة اثنين من المشايخ فلما قـرأ الرسالة غضب وأمر بالاثنين فقـبضوا عليهما وأودعـوهما السجن فوصل الخبر إلـى الشيخ الدردير وأهل الجامع فاجتمـعوا فى صبح ثانى يوم وأبطلوا الدروس والأذان والصلوات وقفلوا أبواب الجـامع وجلس المشايخ بالقبلة القـديمة وصعد الـصغار على المنارات يكثرون من الصـياح والدعاء على الأمراء وأصـحابهم وأغلق أهل الأسواق القـريبة الحوانيت وبلـغ الأمراء الخبر فـأرسلوا إلى يوسف بيك فأطـلق المسجـونين وأرسل إبراهيم بيك إلى المشـايخ بملازمة الهـدوء والسكون فلم يلتفتوا لقـوله وسبوا رسوله فحضرالأغا إلى الغـورية ونادى بالأمان وفتح الحوانيت فبلغ مـجاورى المغـاربة ذلك فذهب إليه جـماعـة منهم وتبعهم العـامة والغـوغاء وبأيديهم العصى والمساوق وضربوا أتباع الأغا ورجـموا بالحجارة فركب الأغا عليهم وركبت مماليكه والسيوف بأيديهم فقتل من مجاورى المغاربة ثلاثة وجرح منهم ومن العامة كذلك وبقى الهرج إلى ثانى يوم فحضر إسماعيل بيك والشيخ السادات وعلى كتخدا الجـاويشية وحسن أغا أغـاة المتفرقان وغيرهم ونزلوا بالأشـرفية وأرسلوا إلى الجامع بانفضـاض الجمع وتمام المطلوب وكان ذلك عند الغروب فـلم يرضوا وطلبوا الجماكى والمرتبات المتأخـرة فرجعوا وأصبحوا والهرج فى ازدياد فـعاد إسماعيل بيك ومعـه الشيخ الشيخ السـادات وجلسا بالجامع المؤيد وأرسـل إلى المشايخ على يدى الشيخ إبـراهيم السندوبى بان إسمـاعيل بيك المشار إلـيه قد تكفل بقـضاء أشـغال المشايخ وقضاء جميع حوائجهم وقبول فـتواهم واعتبارها معمولاً بها على كل حال مع صرف جـماكيـهم وجميـع مرتباتهم المتـأخرة وأن الضامن لـه فى ذلك الشيخ السادات فلما وصل الشيخ السندوبى ومعه الكتاب قرأه الشيخ عبد الرحمن العريشى على رؤوس الملا وهو قائم على الأقـدام فلما سمـعوه أكثروا الهـرج والجلبة وعلت أصواتـهم وقالوا لا نقـبل بذلك وترددت الرسل بين الفـريقين بطول النهـار ثم وقع الصلح وفتحت أبواب الجـامع وعادت أموره إلى ما كانت عليـه وبعثوا لهم فى ثانى يوم مبلغا برسم الجماكى وقد اشتـرطوا عدم مرور الأغا والوالى والمحتسب من حارة الأزهر وغير ذلك من الاشـتراطات التى لم يتم منها شىء ألبتـة. ولم سكنت الفتنة تتبع الأغا كل من كان له يد فيها من أولاد البلد فجعل يقبض عليهم واحدا فواحدا ويقتلهم خنقا وتغريقا ودفنا تحت التراب.

ووقعت الوحـشة بعـد هذا الحادث بقليل بين إسـماعيل بيك وبـين مراد بيك الكبير لأسباب يطول شـرحها فخرج إسماعيل بك مغضبـا يريد العادلية مرتحلا عن

مصـر فخرج خلفه إبراهيـم بيك الكبير وطيب خـاطره وأرجعه فعـاد وهو فى غيظ ولبث أياما والوحـشة ضارية أطنابهـا بينه وبين مراد بيك فـعمد مـراد بيك إلى قتله واتفق مع جماعة من قـومه على أن يركبوا عليه ويقتلوه فى بيـته وعينوا لذلك يوما معلومـا فعلم إسماعـيل بيك بخفى سرهم وخاف على نفـسه فحمل أثقـاله وجمع متاعـه وركب فى الصباح إلى العادلية وجلس بالأزبكيـة وركب مراد بيك ومر بمنزل إسماعيل بيك ليـعرف خبره فوجده قد خرج إلى الأزبكيـة وكان إبراهيم بيك الكبير قد ذهب فى هذا اليوم إلى قـصر العينى فبلغه خـبر خروج إسماعـيل بيك فخشى عاقبة خروجه وشاع الخبر بذلك فخرج خلفه كثير من الأمراء الناقمين على مراد بيك وإبراهيم بيك وكـانت عدتهم خمـسة أمراء ولحـقوا به بالعادليـة وعلم إبراهيم بيك ومراد بيك بذلك فركبا لساعتهما وركب معهما بعض الأمراء من خواصهما وصعدوا إلى قلعـة الجبل وملكوا الأبواب واستـفـاض الخبر فكـثر الهرج وتـوارد الأمراء إلى الرمـيلة واضطربت المدينة وأغلق الناس الدكـاكين وأقـفلت أبواب البيـوت وانقطع الناس عن الخروج واسـتمروا على ذلك أربـعة أيام بلياليـها وخرج الكثـير من أهل القلعة سرا ولحقوا بالأمير إسماعيل بيك ويوسف بيك ومن معهما فأرسل لذلك أهل القلعة إبراهيم أغا الوالى فجلس بباب النصر لمنع خروج من يريد الألتحاق بأصحاب إسماعيل بيك وأغلق الباب ونزل الباشا إلى باب العزب فـحضر قاسم كتخدا أمين البحرين وعبد الرحـمن أغا وهما من أصحاب الأمير إسماعيل بيك ومـعهما آخرون إلى باب النصـر وفتـحوا البـاب عنوة وطردوا الوالى ومن كان مـعه وملكوا الـباب فأرسلوا لهما جماعة من العسكر المغاربة فاقـتتل الفريقان وتفرق أصحاب إسماعيل بيك وجرح كثـير من المغاربة وانتشر أصحـاب إسماعيل بيك حوالى القـاهرة ومصر وسارت طائفة منهم إلى بولاق القاهرة فصادفوا فريقا من العسكر يحمل علوفة الخيل التى بالمعسكر فهجـموا عليهم وفرقوهم وأخذوا ما كان مـعهم من فول وتبن وتوجه فريق منهم أيضـا إلى المقطم فاشتـد الحال وعظمت الفتنة وخاف البـاشا شر العاقـبة فسعـى فى تدارك الأمر قبل استـفحال الخطب وأرسل إلى إسمـاعيل بيك فى طلب الصلح فلم يقبل فراجعه وأرسل ولده إليه وكتخداه مراراً فلم يقبل .

ودخل فى ثانى يوم عـبـد الرحمن أغـا من باب النصـر ومـر من وسط المدينة وأمامه المنادى ينادى على أصحاب الحوانيت برفع بضائعهم والتحذر فرفع الناس ما بقى منهـا ولم يزل سـائرا حـتى وصل إلى باب زويـلة ونزل بجـامع المؤيد ورتب عسكرا هناك على السقائف والأسبلة ثـم سار من هناك فى جند كثير إلى باب زويلة

ومنه إلى الدرب الأحمر إلى جامع المردانى وزحفوا إلى التبانة وعملوا متاريس بالقرب من المحجر ووضعوا بها عسكرا وكذلك فعلوا بناحية سويقة العزى فنزل إليهم بعض الجند الذين بالقلعة وأطلقوا عليهم النيران فدفعوهم برمى البنادق وقطعوا الطرق على من كانوا بالقلعة إلى ما بعد عصر اليوم فنزل إليهم بعض الفرسان المدرعة فحملوا عليهم وهزموهم أيضا وقتلوا منهم جماعة ورجع من بقى منهم إلى القلعة على أعقابهم وما دخل غروب اليوم حتى انفصل عن القلعة جميع العسكر المغاربة وحملوا سلاحهم وانحدروا وانضموا إلى من كانوا بالمحجر من أصحاب إسماعيل بيك ولاحت على أصحاب إبراهيم بيك ومراد بيك لوائح الخذلان وأصبحوا وقد دخل جماعة كثيرة من أصحاب إسماعيل بيك إلى المدينة ورابطوا فى جميع الجهات حتى انحصر من بقلعة الجبل ولم يبق لخلاصهم سبيل وأخذوا ينقبون الأسوار فلما أحسوا بذلك وأيقنوا بالهزيمة انحدر إبراهيم بيك ومراد بيك وجماعة من الأمراء ليلا من باب الميدان وذهبوا جهة البساتين إلى الأقاليم القبلية وتخلف منهم جماعة فخرجوا إلى إسماعيل بيك وخليل بيك وطلبوا الأمان فلما شاع خبر هروب إبراهيم بيك ومراد بيك هجم المرابطون بالمحجر وسوق السلاح على الرميلة ونهبوا جميع خيامهم التى كانت بها وبالميدان ولم يتركوا شيئا حتى ولا جمال الباشا ودخل إسماعيل بيك ويوسف بيك بعد العصر من ذلك اليوم من باب النصر فى عدة من الجند والمماليك والأتباع وسارا إلى بيوتهما وأصبح ثانى يوم فسار عبد الرحمن أغا فى الشوارع ونادى بالأمان والبيع والشراء فزال عن الناس بعض الخوف ولما كان يوم الأحد ثانى عشرى جمادى الثانية من السنة أى سنة إحدى وتسعين صعد إسماعيل بيك ويوسف بيك إلى الديوان فى كبكبة وزينة فخلع عليهما الباشا خلعتى سمور وولى إسماعيل بيك مشيخة البلد بدل إبراهيم بيك فتصرف وجعل يفرق المناصب العالية بين أصحابه وأصحاب يوسف بيك وأتباعهما وقبضوا على الكثير من الأمراء وأصحاب الوظائف على عهد إبراهيم بيك وأبعدوهم إلى أقاصى البلاد ولم يلبث إسماعيل بيك ويوسف بيك طويلا على الإخاء والمودة حتى قامت بينهما الشحناء وتبدل ودهما جفاء فجعل إسماعيل بيك يتدبر فى قتل يوسف بيك ومازال على هذا العزم حتى أرسل إليه جماعة من إتباعه الأخصاء ليقتلوه فى بيته فدخلوا عليه فوجدوه جالسا بالمقعد المطل على البركة فجلس أحدهم أمامه وجلس آخرون على شماله وجماعة بقوا واقفين يحادثونه ساعة لطيفة فى أمر من الأمور وتناقشوا مع بعض بحدة فتأخر عنهم الواقفون من المماليك والأجناد فسحب أحدهم

وهو عبـد الرحمن بيك خنجـرا وطعن به يوسف بيك فهمً يوسف بيـك ليدفع عن نفسه فداس على فروة من كـان جالسا بجانبه فسقط على ظهره فقامـوا عليه جميعا وضربوه بسيوفـهم وأطلق أحدهم طبنجة على الواقفين من الخـدم والأتباع ففروا من أمامهم فنزلوا مسرعين من القيطون الموصل إلى البـركة وركبوا وذهبوا إلى إسماعيل بيك وأخبروه بالخبر فركب فى الحال وصعد إلى قلعة الجبل وأرسل إلى الباشا وكان بقـصر العـينى يتنزه فـركب من هناك وصعـد إلى القلعـة وجلس بباب العـزب مع إسماعيل بيك فلمـا بلغ أصحاب خليل بيك وأتباعه خبـر موت أستاذهم تلك الليلة ركبوا وخرجوا من المدينة يريدون الصعيد فـأركب إسماعيل بيك خلفهم جماعة فلم يدركوهم فأرسل إلى من تخلف منهم فاختفوا ثم خرجوا ولحقوا بمن فر.

(مطلب)

عزل محمد باشا العزتلى وولاية الوزير إسماعيل باشا

وجـاءت الأخبـار فى هذه الأثناء بعـزل محـمـد باشا العـزتلى وتوليـة الوزير إسماعيل باشا فدخل القاهرة فى يوم الاثنين سادس ذى القعدة من السنة وصعد إلى قلعة الجبل فى موكب حافل ودخل عليه إسمـاعيل بيك الكبير وباقى الأمراء فخلع على إسماعيل بيك خلعة سمور وأقره على مشيخة البلد وتدبير الدولة والتصرف فى الأمور فـرسم إسماعيل بيك بعـد ذلك بجمع العسكر والجنود لقـتال من هرب من أصحـاب يوسف بيك ومن انضم إليهم من الأمراء الـهاربين بالأقاليم القـبلية واهتم بذلك وسلم قيادة هذه الحملة إلى إسماعيل بيـك الصغير وبرز العسكر إلى البساتين ونصبوا خيامـهم أياما ثم ساروا فى البر والبحر فالتقى الجمـعان عند بياضة تجاه بنى سويف واقـتتـلا قتالا عنيـفا انكشف عن هزيمـة أصحـاب إسماعـيل بيك وتمزيق جمعهم فرجعوا إلى القاهرة علـى الأعقاب ودخلوها فى أسواء حال وأخذت جميع خيامهم وأسلحـتهم ومراكبهم وكانت نيفـا وخمسمائة وكان مقدم عـسكر إسماعيل بيك فى حراقة صـغيرة فلما انهزم العـسكر انحدر إلى القاهرة وكذلك بقـية الأمراء انحدروا فـيما لحـقوه من المراكب وكان إسـماعيل بيك بالفـسطاط فلما علم بخـبر حضورهـم على هذا الحال من الهزيمة حـزن حزنا كبيـرا وأحس بزوال دولته ونزل الباشا من قلعة الجبل وخرج إلى الآثار ونادوا فى الناس بالنفير العام فخرج القاضى والمشايـخ والتجار وأرباب الصـنائع والمغاربة وأهل الحـارات كافة وأغلـقت الأسواق

حتى ملئـوا الفضاء فلمـا عاين ذلك إسمـاعيل بيك وعلم أنهم يحتـاجون إلى المال والميرة فـضلا عن الذخيـرة اختار منهم طائفـة المغاربة والتـرك وصرف من بقى من العامة وأرباب الحرف والمشايخ وأصحاب الأشاير والفقراء ووصل الأمراء من الصعيد إلى حلوان وتعلقت آمالهم بالاستيلاء على مصر والقاهرة بعد تلك النصرة العظيمة التى انتصروها فأرسل إليـهم إسماعيل بيك جيشا عظيما مـن الترك والمغاربة ومعهم المدافع الكبيرة فنـصبوا متاريسـهم مابين التبين وحلوان تجاه العدو وركـب فى ليلتها إسماعيل بيك وأمراؤه وأجناده وكان الباشا قد استـحضر من ثغر دمياط مركبا حربيا يحمل خمـسا وعشرين مـدفعا كان ربانه ذا خـبرة تامة بالحرب وفنونه اسـمه حسن الغاوى فأقلع به ليـلا تجاه المعسكر وارتفع حتى تجـاوز مراكب العدو وأطلق المدافع على معسكرهم برا وعلى مراكبهم بحرا وساق جـميع المراكب بما فيها واشتد الجلاد بين الفريقين فكانت مـوقعة عظيمة قتل فيـها كثير من الأمراء أعـداء إسماعيل بيك وانهزمـوا شر هزيمة وهرب إبراهيم بيـك الكبير ولم يظهـر مراد بيك الكبيـر بسبب جراحته وهم أصحاب إسـماعيل بيك على خيامهم ومعسكرهم فنهبـوه جميعه وفر من بقى منهم إلى الأقاليم القبلية فساقوا خلفهم فلم يدركوهم ودخل إسماعيل بيك بعساكره القاهرة منصورا مؤيدا ولم تكن لهم هذه النصرة فى حساب فكان رجوعهم فى يوم الأربعاء غرة شعبان من السنة .

واستوحش إسماعيل بيك الكبير من إسماعيل بيك الصغير بعد ذلك حيث ظهر عليه فى أحكامه وأوامره فكان كلما أصدر أمـرا عارضه فيه ورده عنه بل عمل على خـلافه حـتى ظهرت كلمـته وعلت وتزاحـم الناس على بابه وأقبل إليـه أصحـاب الظلامات والدعاوى وانضم إليه الكثير من الكشاف والأمراء وحدثته نفسه بالانفراد والاستقلال بحكم البلاد فآنس ذلك منه إسماعيل بيك الكبير فتركه وشأنه وأظهر أنه رمد بعينيه وانقطع عن الخروج من أول شـهر رمضان ثم خرج فى أواخره إلى زيارة السيد أحمـد البدوى ثم رجع وجمع إليه خواصه وشاورهم فى أمر قـتل إسماعيل بيك الصغير وكـاشفهم بما فى نفسه فاتفقوا على قـتله ودبروا لذلك تدبيرا. فلماكان ليلة التاسع والعـشرين من رمضان ركـبوا فى آخر الليل ومـعهم طائفة من العسـاكر والأجناد وأحاطوا ببيت إسماعـيل بيك المذكور فأحس بهم وركب فى مماليكه وخرج فوجد الطـرق كلها مزدحمـة بالجند فدخل من عطفة الفرن يريد الفـرار وخرج إلى قنطرة عمرشاه فوجد الجند أمامه وخلفه فصار يقاتلهم ويدفع عن نفسه من عطفة إلى

عطفة حتى وصل إلى عطفة البيدق وقد أصيب بضربة سيف على كتفه وسقطت عمامته وصار حاسر الرأس والدم يسيل منه إلى أن وصل تجاه درب عبدالحق بالأزبكية فلقيه عثمان بيك أحد خواص إسماعيل بيك الكبير فرده وسقط عن فرسه فاحتاطوا به ونزل على دكان أحد السوقة وهو فى أسوإ حال فعصبوا رأسه بعمامة رجل جمال كان فى الطريق وحمله عثمان بيك إلى بيته وتركه وذهب إلى إسماعيل بيك فأخبره بخبره فخلع عليه فروة سمور وأعطاه فرسا مرختا وأمر الوالى فذهب إليه وقتله خنقا ثم وضعوه فى تابوت وأرسلوه إلى بيت صغير كان له فبقى به إلى الصباح فأخرجوه ودفنوه بغير احتفال بجنازته. ورسم إسعميل بيك بالقبض على أشياع إسماعيل بيك المقتول وأنصاره وإبعادهم إلى أقاصى البلاد فأبعدوا منهم جماعة كثيرة وصادروهم وقتلوا منهم آخرين بعضهم ببولاق القاهرة وبعضهم بغيرها. ولم يطمئن قلب إسماعيل بيك الكبير بموت إسماعيل بيك الصغير وتشريد أنصاره حتى جاءه الخبر باشتداد أزر الأمراء الهاربين فى الإقليم القبلى واستفحال أمرهم وأنهم تملكوا جميع البلاد التى من جرجا إلى فوق وقبضوا الخراج ومنعوا إرسال الغلال فأخذ إسماعيل بيك فى تجبيش الجيوش وإعداد المعدات وضرب لذلك المغارم على القرى فجعل على كل قرية منها ثلثمائة ريال وأمر جميع الأمراء بالتأهب والاستعداد للخروج وخرج هو إلى دير الطين يريد السفر وكذلك رسم الباشا لجميع الأمراء وأرباب المناصب العسكرية فخرجوا جميعا ونصبوا خيامهم عند معادى الخبيرى ونزل الباشا من قلعة الجبل وجلس بقصر العينى وساروا وسار معهم إسماعيل بيك وقد ترك بالقاهرة جماعة من الأمراء من خواصه الذين يعتمد عليهم ورسم لمقادم الأبواب بأن يطوفوا فكانوا يطوفون بالأجناد فى الحارات ليلا ونهارا. فلما وصل إسماعيل بيك بعسكره إلى منية ابن خصيب لم يجد للعدو بها أثرا وعلم أنهم ساروا إلى مدينة أسيوط ومعهم إسماعيل أبو على أحد كبار الهوارة فسار لقتالهم وبينما هو يجد السير إلى أسيوط جاءه الخبر من القاهرة باتحاد جماعة من الأمراء الذين تركهم بها لتدبير أمورها على الانضمام إلى إبراهيم بيك ومراد بيك وكان زعيم هذه العصابة حسن بيك الجداوى ومعه جميع أصحابه ووافقهم على ذلك أيضا حسن بيك سوق السلاح وأحمد بيك شنن وأصحاب القلاع بأسرهم فلما تحقق ما وراء ذلك هاله الأمر جدا وركب من ساعته بمن معه وانحدر يريد القاهرة وجدّ حتى دخلها فلم يشعروا إلا وهو فى وسطهم وبات ليلته وأصبح فأمر بمنع

المعادى من التعدية وصعد فى ثانى يوم إلى قلعة الجبل وعقد الديوان بحضرة الباشا فاجتمع جميع الأمراء وأرباب الوجاقات والمشايخ وتكلموا فى أمر قتال المحاربين وفيما ظهر من الفتنة بالقاهرة وطال الكلام بينهم فلم يتفقوا على أمر مّا وتفرقوا وأخذوا فى توزيع متاعهم وقد اضطربت أحوالهم وأصبح إسماعيل بيك وقد جمع تجار البهار والمباشرين من الأقباط وطلب منهم مالا قرضة لنفقة الحرب وشدد فى الطلب وأرهب وتوعد. وبينما هو على هذا الحال إذ جاءه الخبر بوصول طلائع أصحاب إبراهيم بيك الكبير ومراد بيك إلى البساتين وأن قد وصل بعضهم إلى الجيزة فلما تحقق ذلك وقد كان على أهبة الفرار أمر أتباعه بحمل متاعه والخروج به فحملوه وخرجوا تباعا من بعد العصر إلى الساعة الرابعة من ليلة الثلاثاء رابع عشر المحرم من السنة أى سنة اثنتين وتسعين ومائة وألف هجرية ونزلوا بالعادلية وخرج معه جميع خواصه من الأمراء والمماليك والأتباع وبات الناس تلك الليلة فى وجل ما عليه من مزيد وأصبحوا فعلموا بخروجهم فاندفعت عند ذلك العامة على بيوتهم ونهبوا ما وجدوه فيها، أما هم فإنهم ساروا فى صبح اليوم قاصدين الديار الشامية وزالت دولة إسماعيل بيك المذكور فكانت مدة تصرفه فى الإمارة على مصر فى هذه المرة ستة أشهر وأياما لاغير.

وعلم إبراهيم بيك الكبير ومراد بك بخبر خروج إسماعيل بيك من القاهرة فعبر مراد بيك ومصطفى بيك وآخرون النيل فى ذلك اليوم إلى مصر القديمة ومروا من وسط المدينة ونودى بالأمان وأرسل إبراهيم بيك يطلب من الباشا الأمر بدخولهم القاهرة فأرسله إليه صحبة ولده وكتخدا فدخل إبراهيم بيك وبات ليلته تلك بقصر العينى وكذلك بقية الأمراء ثم ركب إبراهيم بيك إلى بيته ومعه إسماعيل أبو على أحد كبار الهوارة وأصبحا وقد صعدا إلى قلعة الجبل فقابلهما الباشا وخلع عليهما خلع القدوم ثم استدعى الباشا إبراهيم بيك ثانية وخلع عليه وأقامه فى منصب مشيخة البلد كما كان من قبل فلما استقرت بها سلم الوظائف العالية إلى أصحابه وخواصه فانقسم من هذا اليوم الأمراء بمصر إلى قسمين الأول أصحاب حسن بيك الجداوى ومن كان معه من الأمراء الذين نكثوا العهد مع إسماعيل بيك الكبير وانضموا إلى عصابة إبراهيم بيك ومراد بيك كما تقدم وسمى هذا القسم بالعلوية والثانى أصحاب إبراهيم بيك ومراد بيك الأولين وسمى بالمحمدية فكان فريق العلوية شامخ الأنف على المحمدية يرى المنة لنفسه والفضيلة

لأنه لولا ما بدا منه من الانحراف وخذله إسماعيل بيك ما دخل المحمدية قط إلى مصر ولا عادت إليهم الأمور فكان المحمدية لا يتصرفون فى أمر من الأمور إلا بإذن من العلوية وبرأيهم فكانوا مغلوبين على أمرهم محجورا على تصرفهم. واتفق إن حضر بعد قليل من الأيام إبراهيم بيك أوده باشى وهو ممن كانوا هربوا إلى غزة مع إسماعيل بيك الكبير وكان قد طلب الإجازة بالرجوع فأذنوا له فدخل بيته واعتزل عن الناس ولبث منكمشا أياما ثم لم يلبث بعدها إلا قليلا حتى اتهمه رضوان بيك بالموالسة وأنه إنما هو جاسوس من قبل إسماعيل بيك وعمل على تبعيده فاستجار أوده باشى المذكور بمراد بيك والتجأ إليه فطمن خاطره وخفف عنه وهون عليه فحرك ذلك ساكنا فى قلوب العلوية وفشت الوحشة بينهم وبين المحمدية وأخذت تزداد يوما عن يوم إلى أن خرج مراد بيك يوما ومعه بعض خواصه إلى ضرب النشاب فجعل يكلمهم فى أمر العلوية وتصديهم لسائر الأمور وتغلبهم عليها وغير ذلك ويظهر الغيظ والكمد فبينما هو على هذا الحال إذ أقبل عليه عبد الرحمن بيك وعلى بيك الحبشى وهما من العلوية وجلسا عنده برهة فلما أرادوا الانصراف أشار مراد بيك إلى بعض أتباعه بأن اقتلهما فوثب عليهما وطعن عبد الرحمن بيك فقتله وهرب الحبشى واختفى فى بعض الأشجار فمروا به ولم ينظروه فركب مسرعا ودخل على حسن بيك الجداوى وأخبروه بما جرى فجمع حسن بيك أصحابه وخواصه وجميع الأمراء المتحدين معه وشاورهم فى الأمر فاتفقت كلمتهم على القتال والتترس فى بيت الجداوى فتترسوا به وعملوا متاريس أيضا بباب زويلة وناحية باب الخرق والسروجية والقنطرة الجديدة وجاء الخبر إلى مراد بيك بما هم عليه من التأهب للقتال فجمع أصحابه وخواصه وكانوا عدة كبيرة وركب إبراهيم بيك الكبير من قبة العزب وصعد إلى قلعة الجبل وملك الأبواب وصوب المدافع نحو بيت الجداوى بالداودية وانتشبت الحرب بينهم طول النهار فأغلقت الأسواق وأقفلت كافة الدكاكين وباتوا على ذلك ليلة الأحد وأصبحوا وإطلاق المدافع والبنادق متتابع وهم يزحفون على بعضهم تارة ويتقهقرون أخرى وينقبون البيوت على من يكون داخلها منهم فسقطت بسبب ذلك عدة دور وتهدمت بأصحابها فمات خلق كثير تحت الردم وكثر النهب والحريق والقتل واختل النظام فتطاولت أيدى العامة إلى أصحاب البيوت وقام الخصم على خصمه فقتله من غير مراقب ولا ممانع وتسلق جماعة من المحمدية من الخليج وصعدوا إلى جامع الحين من بين المتاريس وفتحوا بيت

عبد الرحمن أغا من خلف وملكوه ووضعوا عليه المدافع ورموا بها على بيت الجداوى تباعا فأيقن العلوية بالغلبة وأحسوا بالهزيمة فركبوا وخرجوا من باب زويلة إلى باب النصر فركب خلفهم المحمدية وأعملوا في أقفيتهم السيف فقتلوا منهم خلقا ومات أغلب كبارهم وهرب حسن بيك الجداوى ورضوان بيك وكان ذلك وقت القائلة من يوم الأحد وكان يوما شديد الحر ولم يمت أحد من المحمدية بجراحة سوى مصطفى بيك الكبير بعد أيام قلائل .

وسار حسن بك ورضوان بك في طائفة قليلة على وجوههم هائمين فخرج عليهم جماعة من العربان وقاتلوهم قتالا شديدا ومزقوهم فتخلص رضوان بيك وذهب بخاصته إلى شبين الكوم وتتبع العربان أثر حسن بيك الجداوى وضيقوا عليه المسالك حتى قبضوا عليه وأخذوا ما معه وجردوه وشدوا وثاقه ثم قادوه بينهم ماشيا على أقدامه وهو حاف وأرسلوا إلى الأمراء بمصر من يخبرهم بخبره فبعث إليه إبراهيم بيك بمن يستحضره فسار معه حتى دخل القاهرة ثم أفلت منه وسار إلى بولاق ودخل إلى بيت الشيخ أحمد الدمنهورى فرجع الرسول وأخبر بذلك فركبت طائفة من المحمدية وذهبوا إلى دار الشيخ الدمنهورى وطلبوه فامتنع من تسليمه فلم يجسروا على أخذه قهرا واشتد به الخوف فصعد إلى سطح البيت وتسلق إلى سطح آخر ولم يزل حتى نزل بالقرب من وكالة الكتان فصادف بعض المماليك فضربه وأخذ حصانه وركبه وذهب مسرعا يريد النجاة فشاع خبر هربه فركبت الجند خلفه وسدّوا عليه المسالك وهو يدافع ولم ير للوصول إلى القضاء سبيلا فعاد إلى المدينة ثانيا وذهب إلى بيت إبراهيم بيك وكان جالسا مع مراد بيك فاستجار بإبراهيم بيك فأجاره وأمنه ولبث في بيته خمسة أيام وهو مفقود الشعور فلما أفاق وحسنت حاله رسموا له بالذهاب إلى جدة وبعثوا به إلى السويس في محفة فلما نزل بالمركب وأقلعت به طلب من ربانها أن يذهب به إلى القصير فامتنع الربان من ذلك فتهدده بالقتل فسار به وأنزله هناك فترفع إلى الصعيد واختفى خبره ثم أمر إبراهيم بيك ومراد بيك بتبعيد من بقى من العلوية فأبعدوهم إلى رشيد ودمياط وشبين وغيرها ثم سيروا جماعة فقتلوهم جميعا ولم يبقوا على أحد منهم. ولم تكد تسكن الفتنة حتى أحس إبراهيم بيك الكبير بانحراف من الباشا وتدليس مع إسماعيل بيك الكبير فاجتمع بمراد بيك وكلمه في ذلك فاتفقت كلمتهما على تنزيله من قلعة الجبل والحجر عليه فأرسلوا له أرباب الوجاقات يأمرونه بذلك وأن يسكن في بيت حسن

بيك الجداوى بالداودية فامتنع فأمر إبراهيم بيك الجند بالركوب عليه فطلعوا إلى حوش القلعة فلما علم الباشا بحضورهم خاف ونزل من ساعته إلى الداودية فأنزلوا خلفه خدمه ومتاعه فى ذلك اليوم وهو يوم الثلاثاء تاسع عشر جمادى الثانية من السنة أى سنة اثنتين وتسعين ومائة وألف هجرية فكانت ولايته سنتين وثلاثة أشهر.

(مطلب)

خلع الوزير إسماعيل باشا وولاية إسماعيل باشا الثاني

وجاء الخبر بولاية إسماعيل باشا(لعله إسماعيل باشا الثانى) فذهب إليه الملاقون وأرباب العكاكيز وأصحاب المناصب فحضر فى يوم السبت خامس المحرم افتتاح سنة ثلاث وتسعين وبات بامبابه ليلته تلك ثم أقام بالعادلية إلى يوم الثلاثاء ودخل بالموكب من باب النصر ومر بالقاهرة وصعد إلى القلعة فى الكبكبة المعتادة ولم تكن الأحوال على ما يرام من الهدوء والطمأنينة فلم يبرم أمرًا ولم يأت عملا إذ كان مغلوبا على أمره والكلمة يومئذ لإبراهيم بيك الكبير ومراد بيك ولم يستقر بالباشا المقام حتى جاءه الخبر باستفحال أمر حسن بيك ورضوان بيك بالإقليم القبلى وإنهما جمعا جموعا كبيرة وانحدروا إلى جرجا وانضم لهم من العربان أولاد همام والجعافرة وإسماعيل أبو على وأنهم سينحدرون إلى مصر فكلم الباشا إبراهيم بيك ومراد بيك فى ذلك فأعلماه بالخبر وجعلوا من هذا الحين يجيشون الجيوش ويعدون المعدات وسيروها مع أيوب بيك الصغير وسار خلفهم كذلك مراد بيك فلما وصلوا جرجا رجع حسن بيك بمن معه إلى الوراء فأقام مراد بيك بالعسكر فى جرجا إلى أوئل رجب من السنة وأخذ يعمل الحيلة حتى قبض على إسماعيل أبو على أحد مشايخ العرب وقتله ونهب ماله وعبيده ثم رجع إلى القاهرة واختفى خبر حسن بيك وأصحابه بعد ذلك ولم يعلم لهم مستقر ووافق وصول مراد بيك إلي القاهرة من هذه الغزوة الصغيرة أوان خروج الحاج فتولى الإمارة عليه وأخذ يتأهب فكثرت الطلبات وجمع الأموال والاحتياج للجمال والبغال والحمير فكانوا يأخذون بغال الناس ومن وجدوه راكبا على بغلة أنزلوه عنها وأخذوها بلا ثمن وإن كان من أصحاب المظهر دفعوا له ثمنا زهيدا فضج الناس وأخفوا دوابهم حتى سافر ركب الحاج وخرج مراد بيك فى كبكبة وزينة وخرج معه عدة كبيرة من الأمراء والصناجق ومشوا فى ركابه.

(مطلب)

ورود الأمر السلطاني بعزل إسماعيل

باشا ثم رجوعه إلى الولاية ثانية

وبعد خروج الحاج بأيام قليلة ، جاء رسول من دار السلطنة ومعه مرسوم سلطانى بخلع إسماعيل باشا عن ولاية مصر وقيامه إلى جدة وتولية إبراهيم باشا والى جدة والياً على مصر فنزل إسماعيل باشا من يومه من قلعة الجبل وسكن بمصر القديمة شهرا ثم تحول إلى العادلية ليسير منها إلى السويس ويذهب إلى جدة فقدر الله بموت إبراهيم باشا فى جدة فجاء إلى إسماعيل باشا مرسوم السلطان ببقائه على ولاية مصر ففرح بذلك وقد كان لا يود الخروج منها وركب فى موكبه وطلع إلى القلعة فى كبكبة وأبهة زائدة ودخل إليها من باب الجبل فلما استقر به المنصب تاقت نفسه إلى التصرف والانفراد بالأمر فنهاه إبراهيم بيك عن ذلك فأظهر الطاعة ولكنه كان يعمل على خلاف ذلك جهد الاستطاعة فنهاه إبراهيم بيك ثانية وثالثة فلم يرعو فأرسل بأمره بالنزول من قلعة الجبل فلم ير بدا من الطاعة ونزل إلى مصر القديمة ولبث بها وتولى إبراهيم بيك النيابة فكانت مدة ولايته الثانية ثمانية أشهر تنقص ثلاثة أيام وهو من أصحاب القلم وكبار الكتاب فى دار السلطنة. قال بعض أهل التاريخ: وكان مراد بيك الكبير من مماليكه فباعه لبعض التجار معاوضة وحضر إلى مصر ورافقته العناية صدف حتى صار أمير البلاد وكبيرها وحضر سيده هذا فى أيام إمارته فلم يراع له حرمة وعزله من الولاية لأسباب لم تعلم ولكنه كان يتأدب معه كثيراً ويهابه ويذكر سيادته عليه وكان إسماعيل باشا هذا رئيسا عاقلا ذا رأى وتدبير.
وجاء عقب ذلك بأيام مراد بيك ودخل بالحاج وهم فى أسوإ حال مما قاسوه بالطريق من العربان فقد فعلوا معهم ما لا خير فيه وسدوا عليهم الطرق وأخذوا منهم كل ما وصلت إليه أيديهم من الدواب والمتاع وأعقب دخولهم ورود الأخبار بظهور حسن بيك ورضوان بيك ثانية واستفحال أمرهما وانضمام الكثير من الجند والعسكر والعرب وغيرهم من أتباع إسماعيل بيك الكبير إلى جموعهم فخاف إبراهيم بيك ومراد بيك شر العاقبة وجمعا جيشا ضخما وسار به مراد بيك ومعه بعض الأمراء من خواصه وطلبوا الأموال وصادروا الكثير من التجار وأصحاب المظاهر وجمعوا المراكب وبرزوا بخيامهم إلى جهة البساتين فجاءهم الخبر بحضور إسماعيل بيك

الكبير من الديار الرومية خفية إلى الأقاليم القبلية فانزعج مراد بيك من هذا الخبر وأكبره وسار مسرعا بعسكره إلى الصعيد فكان كلما اقترب من مقام لهم رحلوا إلى آخر وإذا حل بعسكره فى محلة حلوا هم كذلك قباله ولبثوا على هذا الحال أشهراً ولم يقع بين الفريقين حرب ولا قتال ثم خابروه فى الصلح فرضى به وتقررت القاعدة بينهم على إعطاء أخميم لإسماعيل بيك الكبير مع جميع أعمالها وقنا وقوص وأعمالهما إلى حسن بيك وإسنا إلى رضوان بيك فلما تم الصلح على هذه القاعدة أرسل إليهم الهدايا والتقادم ورجع بعسكره إلى القاهرة ومعه إبراهيم بيك قشطة صهر إسماعيل بيك الكبير وسليم بيك أحد صناجقه رهنا على عدم التظاهر والخروج فكانت مدة غيبة إسماعيل بيك ثمانية أشهر وأياما.

(مطلب)

عزل إسماعيل باشا وولاية محمد باشا

وبقى إسماعيل باشا الوالى معتقلا فى دار بمصر القديمة حتى جاء الخبر بولاية محمد باشا ملك فدخل محمد باشا القاهرة أواخر صفر سنة خمس وتسعين ومائة وألف وصعد إلى قلعة الجبل وخرج إسماعيل باشا من حبسه وسار إلى الديار الرومية فلم يكن لمحمد باشا من حظ الولاية أكثر مما لغيره إذ كان كلما همّ بالنظر فى الأمور والتصرف فى الولاية وأحوال الدولة رأى من إبراهيم بك خصما عنيدا ومانعا لا يتحول فلازم الانكماش واتبع سنة أسلافه واقتصر على ما بيده من التوقيع على المراسيم الديوانية بدون بحث ولا تنقيب . وأعلمه مراد بك بعزمه على الخروج إلى بلاد الشرقية وقراها فأجاز له ذلك كارها فسار إلى بلاد الشرقية وطافها وضرب على أهلها المغارم الثقيلة والأموال الكثيرة والكلف الباهظة وصادر الموسرين منهم وحول عليهم أصحاب الجباية وأعوان المغارم حتى ضج الناس واستغاثوا ورفعوا أصواتهم باللعن والسب ثم نزل إلى الغربية وفعل بها كذلك ثم إلى المنوفية ثم إلى غيرها فكان تطوافه بالبلاد على هذا الحال أشد هولا من هول الطاعون وأصعب على أهل البلاد.

(مطلب)

عزل محمد باشا ملك وولاية علي باشا القصاب

وتمكن سليم بيك وإبراهيم بيك قشطة صهر إسماعيل بيك الكبير فى غيبة مراد

بيك هذهمن الاتفاق مع جماعة من الأمراء الذين ضاقت بهم الأسباب واشتدت عليهم الخطوب على الفرار والهروب فخرجوا ليلا على الهجن وجرد الخيل وهم نحو الثمانين وساروا إلى الصعيد وأصبح الخبر شائعا بذلك فارتبك إبراهيم بيك ونادى الأغا والوالى فى الناس بترك المشى بعد العشاء وملازمة الناس لبيوتها فخاف الناس وكثر اللغط وتنوعت الأقوال وكادت تتعطل أسباب الرزق وتتوقف المعاملات واشتد الخوف بالناس حتى أنهم أغلقوا حوانيتهم نهارا ولم تسكن الخواطر حتى شاع خبر طلب محمد باشا ملك إلى دار السلطنة ليتولى صدارة الدولة وكأنه هو الباعث على هذا الخوف والاضطراب فنزل محمد باشا من قلعة الجبل فى موكب عظيم فى منتصف شعبان من السنة وأقام بقصر العينى بقية شعبان وسافر إلى الإسكندرية فى غرة رمضان فكانت مدة ولايته ثلاثة عشر شهرا ونصفا وهاداه جميع الأمراء بالهدايا النفيسة وكان من أفاضل العلماء متضلعا من الفنون والآداب وكان شيخا جليلا متواضعا لا بأس به. وقدم على باشا القصاب واليا ودخل القاهرة فى أواسط رمضان أو فى عاشر شوّال وصعد إلى قلعة الجبل مارا من الصليبة خلافا لعادة أسلافه فلما استقر به المقام تحجب عن الناس إلا القليل ولم يتعرض لشىء من أمور الدولة وقد زاده تحجبا وامتناعا اللغط المستمر والأقوال الشائعة برجوع إسماعيل بيك الكبير ومن معه إلى شق عصا الطاعة وتطواف الوالى كل قليل من الأيام يكرر المناداة على الناس ويشدد بملازمة بيوتهم ليلا. وانحرفت خواطر الأمراء والصناجق الذين بمصر على إبراهيم بيك ومراد بيك من فعالهما ولا سيما فعال مراد بيك وبدت منهم أمارات الوحشة فخرج منهم أيضا جماعة كثيرة ولحقوا بإسماعيل بيك بالصعيد ولم يبالوا بوعيد مراد بيك ولا بتهديده فكبر خوفه مع إبراهيم بك وأخذا فى جمع العساكر وإعداد آلات الحرب وعزم مراد بيك على الخروج بهذه الحملة فطلب الأموال وقبض على مساتير الناس والتجار وحبسهم وصادرهم فى أموالهم وأخذ ما بأيديهم فجمع من المال ما جاوز الحد وكانت مغارم القبطة فى هذه المرة شيئا كثيرا جدا ثم برز بخيامه فى منتصف ربيع الآخر من السنة أى سنة سبع وتسعين إلى جهة البساتين وخرج معه جماعة من الأمراء وساروا إلى الصعيد فلما صاروا على مقربة من العدو فشل أصحاب إسماعيل بيك وانصرمت حزمتهم وتركهم رضوان بيك وجاء إلى مراد بيك طائعا فقبله وأبقاه عنده وقد تشتتت بانفصاله عنهم عصابتهم وتمزق شملها وساروا إلى الجهات القبلية فرجع مراد بيك

إلى القاهرة وسلم قيادة العسكر إلى ثلاثة من الأمراء وهم مصطفى بيك وعثمان بيك الشرقاوى وعثمان بيك الأشقر فلم يستقر به المقام بالقاهرة حتى وقف على سر مؤامرة أخرى من بعض أمرائه وأمراء إبراهيم بيك ومماليكه ومماليك إبراهيم بيك فعاجلهم بالنفى والتشريد بعضهم إلى المنصورة والمحلة وبعضهم إلى السرو ورأس الخليج والبحيرة وغيرها وكان بينهم إبراهيم أغا الوالى.

(مطلب)

عزل علي باشا القصاب وحضور محمد باشا السلحدار وقيل الصابونجي واليا

وجاء فى غضون هذا الحادث الخبر بخلع على باشا القصاب وولاية محمد باشا السلحدار وقيل محمد باشا الصابونجى فنزل على باشا من قلعة الجبل إلى قصر العينى وأقام به ينتظر حضور محمد باشا فحضر كتخداه ومعه مرسوم بالنيابة إلى إبراهيم بيك وخلعه فتولى إبراهيم بيك النيابة وجعل يتصرف فى جميع الأمور ويوقع على القصص وغير ذلك ووصل الخبر بذلك إلى جميع الأمراء المنفيين بالمنصورة والمحلة ورأس الخليج وغيرها فاجتمعوا وساروا معا إلى الإقليم القبلى يريدون اللحاق بإسماعيل بيك ومن معه فأرسل عند ذلك إبراهيم بيك فرمانا إلى عثمان بيك الشرقاوى باستقراره حاكما على جرجا وقد كان تركه مراد بيك مع العسكر على ما تقدم بيانه وشدد عليه بمراقبته الأحوال ومنع تظاهر الأمراء المذكورين فتكفل عثمان بيك بذلك وجعل يتصرف فى الأمور أياما كانت فيها رسل إسماعيل بيك ومن معه لا ينكفون عن الاجتماع به والتكلم معه فى أمر انضمامه إلى عصابتهم ومازالوا به حتى انضم إليهم فتقوى جانبهم واجتمعت به كلمتهم فلما علم إبراهيم بيك بذلك هاله الأمر واستعظمه للغاية وأرسل إلى كبارهم يؤمنهم ويمنيهم بالأمانى الكبيرة ويستميلهم إلى عقد الصلح فامتنعوا فطلب إبراهيم بيك حضور عثمان بيك الشرقاوى ومصطفى بك فامتنعا أيضا وقالا لا نحضر إلا إذا عاد إخواننا إلى مناصبهم وعادت إليهم إقطاعاتهم وأرزاقهم وإلا دافعنا عنهم حتى يقضى الله بيننا فخشى إبراهيم بيك ومراد بيك العاقبة وجهزا لذلك عسكرا عظيما وجعلوا يفتشون بيوت جميع الأمراء المبعدين ويأخذون كل ما فيها فكان شيئا كثيرا من غلال ومتاع ثم برز إبراهيم بيك بخيامه مع العسكر يريد المسير لقتال الخوارج وجمعوا

سائر مراكب النقل وأوقفوها وجمعوا جميع الملتزمين وأصحاب المزارع وأخذوا منهم أموالا جزيلة وسار إبـراهيم بيك بالعسكر فى كبكبة وتجمل فلمـا اقترب من الأعداء راسلهم وطلبهم إلى الصلح فأجابوه إليه وتقـررت القاعدة بينهم على رجوعهم إلى القاهرة وإعادة إقطاعاتهم إليهم فحضروا جميعا فى سادس عشر ذى القعدة من السنة فساء هذا الصلح مراد بيك ولـم يرض عنه ولكنه كظم غيظه وسار إلى زيارة إبراهيم بيك ولم يزر أحدا منهم فسعى إبراهيم بيك فى إصـلاح ذات البين فلم ينجح وكبر الأمر على مراد بيك فأخذ فى جمع أرزاقه ومـتاعه وأثقال بيته حتى تم له ذلك ثم خرج إلى جزيرة الـذهب فتبعه كـشافه وأتباعـه ومماليكه وأرسل إلى بولاق القاهرة وأخذ منها أرزا وغلالا وشعيرا وبقصـماطا وغير ذلك فسير إليه إبراهيم بيك بعض أخصائه ليمنعوه عن الرحيل فلم يقبل وعبر النيل إلى الشرق وسار إلى الصعيد وتبعه أصحـابه وأتباعـه ومماليكه وأحمـاله فى البر والـبحر فنزل فـى منية ابن خـصيب واتخذها له مقـرا واتفق أن حضر فى هذه الأثناء محمد باشـا الوالى الجديد فأنزلوه فى قصر عبد الرحمن كتخدا على النيل فأقام به يومين ثم صعد إلى قلعة الجبل فى موكب وسافر على باشا القصاب إلى دار السلطنة فلما استقر بالوالى المقام وعلم بما جرى مابين إبراهيم بيك ومراد بيك تكلـم مع إبراهيم بيك فى شأن ذلك وحثه على إرجاع مراد بـيك فنزل إبراهيم بيك من ساعته وجـمع إليه الأمراء فاتفـقوا على أن يرسلوا إليه محمد أفندى البكرى والشـيخ أبا الأنوار والشيخ السادات والشيخ أحمد العروسى شـيخ الجامع الأزهر يومئـذ ليرجعوه عن عـزمه ويهونوا عليـه أمر الصلح فســاروا إليه واجتمـعوا به وكلموه فاعـتذر وقال إنه لم يخـرج من القاهرة إلا هاربا خوفـا على حياته فـإن ضمنوا له عدم مـسه بضرر عـاد معهم بشـرط أن يحلفوا له الأيمان فلم يجيبوه إلى اليمين وقالوا: نضمن الراحة لك ولهم عسى أن ترتاح العباد فصرفهم على ذلك فرجعوا وأخبروا بما جرى ولـم يمض على رجوعهم إلا أيام حتى انحدر مـراد بيك إلى الجيـزة فى جموع كـثيـرة جدا من الغزو والأجـناد والعربان والغوغاء فهال إبراهيم بيك أمر حضوره وجـمع أصحابه وجميع الأمراء وحضر بهم إلى ناحيـة معادى الخبـيرى قبالة مـراد بيك وأصحابه وأرسل إليـه بعض الأمراء فى حراقـة ليكلموه فى الصلح ويسألوه عن جـميع طلباته فلم يأذن لهم بالدخـول عليه فرجعوا وكان البـاشا قد أرسل كتخداه أيضا مع إسمـاعيل أفندى الخلوتى فى حراقة أخرى ليلحـقا بمن ذهبوا إلى مراد بيك ويهـونا عليه الأمر فلم تصل بهمـا الحراقة

إلى منتصف النهر حتى صادفتهم الحراقة الأولى راجعة بمن فيها فتبعاها فأطلق عليهما أصحاب مراد بيك مدفعا فاخطأها فأسرعا بالرجوع وهما لا يصدقان بالنجاة ورأى ذلك إبراهيم بيك فغضب جدا وأمر بالمدافع فأطلقت على معسكر مراد بيك فأطلق كذلك مراد بيك مدافعه واستمر الطلق متتابعا بين الفريقين ولم يعبر فريق إلى الآخر وحجزت المعادى جميعها فى الجانبين واستمر الحال على ذلك عشرين يوما واشتد الخطب وضج الناس وتعطلت الأسباب وقفلت الأسواق وتعطلت الطرق برا وبحرا وكثر تعدى الأشقياء والمفسدين وتطاولت أيدى اللصوص وغلت الأسعار وقل وجود الغلال وأفحش قوم مراد بيك فى النهب والسلب من بلاد الجيزة وأكلوا المزروعات فلم يتركوا على وجه الأرض عودا أخضر وعين مراد بيك بعض الكشاف والأتباع يطوفون البلاد ويجمعون الخراج ويقضون الكلف والغرامات من أصحاب المزارع واعتقد الناس تمام الظفر لمراد بيك وأصحابه واشتد خوف الأمراء بمصر منه وتحدث الناس بعزم إبراهيم بيك على الهروب فكبر خوف أهل مصر والقاهرة وكادوا يتفرقون أشتاتا فلما كان يوم الخميس أمر إبراهيم بيك برمى المدافع تباعا فلبثوا اليوم بطوله يوالون الرمى بلا انقطاع فلما خيم الظلام أمر بالكف عن ذلك وعبر خمسة من أمرائه ليلا إلى الجانب الثانى من النيل وساروا تحت جنح الظلام فقابلهم طائفة من عسكر مراد بيك فأطلق الأمراء عليهم بنادقهم فولوا منهزمين فملكوا مكانهم واحتلوه وكان على مقربة من بولاق التكرور وعبر آخرون ومعهم مدفعان وجعلوا يزحفون قليلا قليلا حتى صاروا على مقربة من معسكر مراد بيك وأطلقوا عليه المدافع ووالوا إطلاقها فلم يجبهم أحد فباتوا على ذلك وهم فى تحذر وتتابع بهم عسكرهم وخيولهم فلما ظهر نور الصباح نظروا فلم يروا أحدا فى معسكر مراد بيك وقد رحلوا وتركوا جميع أثقالهم ومدافعهم فساروا إليه واحتلوه وعبر رجال إبراهيم بيك وساقوا خلف مراد بيك وأصحابه إلى حد الشيمى فلم يدركوهم فأقاموا بأرض الجيزة أربعة أيام ثم رجعوا وجازوا بالقاهرة .

ورأى إبراهيم بيك أن بقاء الحال على هذا الوصف مجلبة للدمار ووسيلة للبوار فأراد مصالحة مراد بيك فأرسل لذلك اثنين من كبار أصحابه. قال بعض الكتاب: وكان الحامل له على طلب الصلح واستمالة مراد بيك إليه ما رآه من تحزب عثمان بيك الشرقاوى وعدة من الأمراء ضده وعقدهم النية على الانتقاض عليه وقد استخفوا به وقعدوا له بالمرصاد فأخذ الحذر منهم ثم حضر بعد أيام كتخدا مراد بيك واجتمع

بإبراهيم بيك ثم عاد فأرسل إبراهيم بيك معه ولده مرزوق بيك وهو طفل صغير قد حملته مرضعته فلما وصل الطفل إلى مراد بيك جنح للصلح ومال إليه وقدم للطفل هدية سنية وتقادم جليلة منها بقرة ولابنتها رأسان وعاد مرزوق بيك مع مرضعته ومعه كتخدا مراد بيك ثم عاد الكتخدا وشاع الخبر بقرب قدوم مراد بيك فاجتمع الأمراء عند إبراهيم بيك وخوفوه من حضور مراد بيك وعدم سكونه فحالفهم وعاهدهم أنه إن لم يعتدل يكون الجميع يدا واحدة عليه. فلما كان يوم الجمعة وصل مراد بيك إلى غمازة فركب إبراهيم بيك وقت القائلة فى جماعة وخرج إلى ناحية البساتين ثم رجع من الليل وصعد إلى قلعة الجبل وملك الأبواب ومدرسة السلطان حسن والرميلة والصلبية والتبانة وأرسل إلى عثمان الشرقاوى وأيوب بيك ومصطفى بيك وسليمان بيك وإبراهيم أغا الوالى بأن يخرجوا على الفور من مصر وعين لهم دمياط والمنصورة وفارسكور ليذهبوا إليها فامتنعوا وأظهروا العصيان وأخلدوا إلى التترس والقتال فلم يروا لذلك سبيلا حيث ملك إبراهيم بيك القلعة وجميع المواقع الحصينة وقد بدأت جموع مراد بيك بالدخول إلى القاهرة فلم يروا بدا من الخروج وساروا إلى القليوبية ودخل مراد بيك فى كبكبة وسار إلى زيارة الإمام الشافعى فبلغه هناك خبر تبعيد الشرقاوى ومن معه وقد كان يبغضه بغضا ما عليه من مزيد فأسرع وسار من فوره خلف قلعة الجبل ونزل إلى الصحراء وحث السير حتى أدرك قناطر أبى المنجا ونزل عليها وأرسل خلف الشرقاوى ومن معه طائفة من العسكر فأدركوهم عند شبرا شهاب وناوشوهم القتال وأدركهم مراد بيك فالتطموا فكبا بمراد بيك فرسه وكاد يهلك فأدركه أصحابه ووقعت بين الفريقين مقاتلة خفيفة ثم رجع مراد بيك ومن معه إلى القاهرة وسار الأمراء الخمسة المذكورون وعبروا إلى وردان وكان معهم رجل من كبار العرب اسمه طرهونة يدلهم على الطريق الموصلة إلى الصعيد فسار بهم فى طريق مقفرة وعرة ليس فيها ماء ولا نبات يوما وليلة حتى كادوا يهلكون من العطش وانقطع عنهم جماعة ممن تبعهم وكانوا ينقطعون عنهم كلما اشتد بهم الظمأ حتى اقتربوا من سقارة ورأوا أنفسهم على مقربة من الأهرام فضاق خناقهم وايقنوا بالوقوع فى مخالب العطب فطلبوا هجنا ليركبوها وتركوا أثقالهم ومن معهم فقام عليهم الأتباع ونهبوا الأثقال والأحمال وتفرقوا عنهم فتعطلوا وأناخوا مطاياهم وأسرع مملوك من مماليك الشرقاوى على فرس وحضر إلى مراد بيك وكان بالروضة فأعلمه بخبرهم فأرسل لهم طائفة من الجند فلم تجدهم وقد كانوا رحلوا إلى جهة

أخرى خوفا من وقوعهم فى أيدى مراد بك واغتم الناس غما شديدا عندما شاع خبر هروبهم إلى الإقليم القبلى لما ينجم عن ذلك من تعطيل ورود الأقوات مع القحط والغلاء المستحوذ على البلد وبات الناس تلك الليلة وأصبحوا يوم الأربعاء حادى عشرى رجب سنة ثمان وتسعين وقد شاع الخبر بالقبض عليهم وكان من أمرهم أنهم لما وصلوا إلى ناحية الأهرام ووجدوا أنفسهم على مقربة من مصر تواروا قليلاً وطلبوا من الدليل أن ينظر لهم طريقا يسلكون منها فركب الدليل وانطلق إلى مراد بيك وأعلمه بمكانهم فأرسل لهم جماعة ليقبضوا عليهم فأحسوا بهم فركبوا هجنا وتركوا أثقالهم وولوا هاربين، وكان أصحاب مراد بيك قد أكمنوا لهم كمينا فلما مروا بالكمين خرج عليهم ومسك بزمام هجنهم من غير ضرب ولا قتال وحضروا بهم إلى مراد بيك بجزيرة الذهب فباتوا عنده ليلتهم وأصبحوا فأنزلوهم بالمراكب كل بمفرده تخفرهم المماليك والأجناد وأبعدوهم إلى الأقاليم البحرية فلبثوا بها زمانا يسيرا ثم راسل بعضهم بعضا واتفقوا على الهروب إلى الصعيد فهرب بعضهم وقبض على بعضهم فشددوا فى تنكيلهم.

واتفق بعد ذلك بقليل خروج الحاج إلى الأقطار الحجازية فأمّروا عليه الأمير مصطفى بيك الكبير فخرج فى موكب حافل للغاية وبرز بخيامه إلى بركة الحاج ينتظر ما بقى من مال الصرة فطال عليه الانتظار فذهب إلى إبراهيم بيك وطالبه بالمال فأحاله على مراد بيك فامتنع مراد بيك وأكثر أمير الحاج من الإلحاح على مراد بيك فلم يسع مراد بيك إلا الدفع وعلم أنها مكيدة من إبراهيم بيك فخرج إلى قصره بالروضة مغضبا وأرسل فى الحال إلى الأمراء المنفيين والهاربين بالصعيد أن يتأهبوا فلما علم إبراهيم بيك بذلك أرسل يستعطفه وترددت الرسل بينهما ونظر إبراهيم بيك فلم يجد حوله أحدا من قومه ورفاقه وقد تركوه وذهبوا إلى مراد بيك فساءه ذلك جدا وركب إلى الرميلة ووقف بها ساعة حتى سارت أحماله وأثقاله صحبة عثمان بيك الأشقر وعلى بيك أباظة يريد الصعيد وسار هو بعد ذلك من خلف الجبل وليس له من الأتباع سوى على أغا كتخدا الجاويشية وعلى أغا مستحفظان المحتسب وصناجقه الأربعة فلما بلغ مراد بيك خبر ركوبه على هذه الصورة ركب خلفه برهة من الليل ثم رجع وأصبح وهو منفرد بحكم البلاد فسر بذلك كثيرا وجعل يولى المناصب الغالية لمن شاء من قومه واستقدم بعض الأمراء المنفيين وقلدهم بعض المناصب ونادى مناديه بالأمان وأخرج الغلال المخزونة لتباع على

الناس وقد كان اشتد بهم الجوع وعظم أمـر مراد بيك وعلت كلمته فلم يترك للوالى شيئـا يتصرف فيه بل زاد فى الحجـر عليه إذ كان يبغضـه لميله إلى إبراهيم بيك عليه واتفق أن قدم فى هذه الأثناء رسـول من دار السلطنة ومعـه مرسوم سلطانى بتـقرير محـمد باشا الوالى المـذكور على ولاية مصـر سنة أخرى فظن البـاشا بلوغ الأمل فطلب جمـيع الأمراء إلى الديوان ليقرأ عليـهم ذلك المرسوم كالعادة فلم يجـبه أحد منهم وأهمل ذلك مراد بيك ولـم يلتفت إليه فكرر الباشـا الطلب فلم يسمعـوا قوله فساءه ذلك وأغضبه وأرسل إلى مراد بيك يعاتبه ويسفه رأيه فأرسل إليه مراد بيك فى الحال يأمره بالنزول من القلعة فامتنع فأرسل جماعة من أتباعه فأنزلوه قهرا إلى قصر العينى محجورا عليه وتولى مراد بيك النيابة وعلق الأستار فكانت ولاية محمد باشا المذكور أحد عشر شهرا سوى الخمسة أشهر التى أقامها بثغر الإسكندرية وكانت أيامه كلها شدائد ومحنا وخطوبا وإحنا وجوعا وغلاء وزيادة ونقصا فى النيل وغير ذلك .

ولما اسـتقـر المنصب بمراد بيك وتم له الأمـر أكثـر من طلب الأموال وتفـريد المغارم على البـلاد فلما لم يبق فيـها شىء حوَّل الطلب على الملتـزمين وبعث لهم المعينين فى البيوت فاحتاج الكثير منهم إلى بيع متاعه ودوره ومواشيه بسبب ذلك ثم تطاولت أيدى عمـال مراد بيك إلى المواريث فكان إذا مـات أحدا أحاطوا بمتـروكاته سواء كان له وارث أو لا. قال بعض كتاب الأخـبار: وصار بيت مال المسلمين من هذا الحين منصـبا من المناصب الديوانية التى يتـولاها الناس بجملة من المال فى كل شهـر ولا يعارض فيمـا يفعل فحل بالناس ما لا يـوصف من أنواع البلايا وانقطعت الطرق وكثرت عربدة الأشقياء والغـوغاء ومنعت السبل إلا بالخفارة ورحل الفلاحون من بلادهم لقـصور النيل وشـرق الأرض والمظالم المتـراكم بعضـها فـوق بعض وانتشروا فى جوف المدينة بأولادهم ونسائهم يضجون من الجوع ويأكلون ما يتساقط فى الطرقات من قشور الـبطيخ وغيره، ثم اشتد بهم الحال فأكلـوا الميتات من الخيل والحمير والجمال. قال: فكان إذا خرج من المدينة حمار ميت تزاحموا عليه وتضاربوا وقطعوه وأخذوه بل منهم من كان يأكل منه نيئا من شدة الجوع ومات كثير من فقراء المدينة أيضا جـوعا وعز الدرهم والدينار فى أيدى الناس وقل الـتعامل فيـما يؤكل أهـ.

ثم وردت الغلال من الديار الشامـية والرومية فانفرجت الأزمـة بعد الشدة وبيع الأردب منها بألف وثلثـمائة نصف فضة وأرسل شريف مكة إلى المـشايخ والعلماء

يتشكى من انقطاع ورود غلال الحرمين فلم يلتفتوا إليه ولا ردوا عليه جوابا فكانت جميع هذه البلايا والمحن ضربة شديدة على هامة مراد بيك وسببا فى عجزه عن القيام بتدبير البلاد وسياستها لاسيما وقد كان إبراهيم بيك الكبير له بالمرصاد فلما أحس بعجزه وأيقن أن لا قبل له على تولى أمور البلاد أرسل إلى إبراهيم بيك الشيخ الدردير وآخرين معه ليكلموه فى أمر الصلح ورجوعه إلى القاهرة على ما يحب فساروا إليه وكلموه وبعد جدال قبل الصلح والعود إلى القاهرة بشرط رجوعه إلى مشيخة البلد ورجوع على أغا كتخدا الجاويشية إلى منصبه فلما رجع الرسل وأخبروا بما يسأله إبراهيم بيك جمع مراد بيك الأمراء وأصحاب المناصب العالية وقرأ عليهم شروط إبراهيم بيك فأذعنوا لها وأحلوها محل القبول وأعادوا الرسل بالإجابة فلما وصلوا إليه عاد فانتقض وطلب طلبات أخرى جديدة فعاد الشيخ الدردير ومن معه وأخبروا بانتقاض إبراهيم بيك فلم ير مراد بيك بدا من معاودته وأرسل إليه ثانياً أيوب بيك الكبير وأيوب بيك الصغير ليهوّنا عليه فلما وصلا إلى بنى سويف أرسلا فاستقدما إليهما سليمان بيك الأغا وعثمان بيك الأشقر ثم ساروا جميعا إلى إبراهيم بيك وتكلموا معه فى الصلح فأجابهم وساروا جميعا إلى منية ابن خصيب ثم انحدروا منها إلى مصر فدخلوها فى يوم الاثنين رابع ربيع الثانى سنة تسع وتسعين ومائة وألف وحطوا رحالهم عند معادى الخبيرى فعبر إليهم مراد بيك فى عدة كبيرة من الأمراء والوجاقلية والمشايخ وعانق مراد بيك إبراهيم بيك وبكى ثم عبروا جميعا النيل إلى مصر ودخل إبراهيم بيك بيته ودخل معه مراد بيك ولبثا معا حصة طويلة فأقام ثلاثة أيام ثم جاءه مرسوم الباشا بالاستقرار على مشيخة البلد ومع المرسوم خلعة الولاية فلبسها بحضرة مراد بيك والمشايخ فقام عند ذلك مراد بيك وقبل يده وكذلك بقية الأمراء وردّت الوظائف إلى أصحابها وأخذ إبراهيم بيك من يومه يتصرف فى الأمور وينظر فى مصالح الرعية فتزاحم أرباب الخصومات على بابه ورفعت إليه القصص فأمر ونهى وأعطى ومنع وقسم المناصب بين ذويها.

وأعقب رجوع إبراهيم بيك إلى القاهرة حصول طاعون شديد فأخذ فى الاشتداد يوما عن يوم وكثر بسببه الموات فخرج الناس من مصر والقاهرة إلى الضواحى والقرى فرارا منه فلحق بهم واشتد وسقط الناس فى الشوارع والطرقات واهتم إبراهيم بيك بدفن الموتى فشدد على الوالى وأعوانه فكانوا يطوفون فى النهار والليل ويحملون الموتى من الطرق على ظهور الدواب ويدفنونهم بغير غسل ولا كفن عشرات عشرات وطالت مدته فكانت ثقيلة للغاية حتى قدر الله فارتفع وعاد الناس

إلى القاهرة وتناسوا أمره وكان عدد من مات لا يكاد يدخل تحت الحصر وأعقب زوال الطاعون.

(مطلب)

عزل محمد باشا وولاية محمد يكن باشا

ورود الخبر من دار السلطنة بخلع محمد باشا وولاية آخر اسمه محمد يكن باشا فلما وصل إلي الإسكندرية ومر بشوارعها يريد التفرج وقف له العامة بالطريق وصاحوا في وجهه وسبوا حاكم الإسكندرية وقبحوا أعماله ونادوا عليه بالويل وكان قد وقع بينهم وبينه فتنة كبرى وذلك أن أحد أتباعه وقع بينه وبين أحد العامة مشاجرة أدت إلى الملاكمة فتطاول تابع الحاكم وضرب الرجل فقتله فاجتمعت عند ذلك العامة وعلت الضوضاء وكثرت الغوغاء وحملوا المقتول على نعش إلى مقر الحاكم وشكوا له ما وقع من تابعه فحوّل وجهه عنهم ولم يلتفت إلى شكواهم فألحوا عليه فأمر أعوانه بطردهم فثاروا وقبضوا عليه وأنزلوه من ديوانه وأركبوه على حمار بالأكف عرضا وهو حاسر الرأس وعلا الصياح وطافوا به جميع شوارع المدينة على هذا الحال وهم يضربونه ويصفعونه بالنعال ويلطخون وجهه بالطين فكان يوما عبوسا أقفلت فيه جميع الدكاكين وسدت الأبواب وانكمش الناس فى بيوتهم وتطاولت أيدى الحرافيش إلى الخطف والسرقة وفعل ما لا خير فيه ومازالوا على هذا الحال اليوم كله حتى سقط الحاكم بين أيديهم فتركوه وتفرقوا فجاء أتباعه وحملوه فلبث أياما كثيرة حتى تراجعت إليه صحته فلما كثر صياحهم فى وجه الباشا سأل عن السبب فحدثوه بخبر ما جرى للحاكم فانقبض وهوّن عليهم ووعدهم خيرا ثم نزل من يومه على إحدى السفن يريد القاهرة ووصل إلى امبابة فبات ليلته وأصبح فذهب إليه الأمراء وأصحاب الوظائف وعبروا معه النيل إلى قصر العينى فلبث به ثلاثة أيام ثم ركب فى موكبه وصعد إلى قلعة الجبل فلما استقر به المنصب سأل مراد بيك عن مال الخزينة السلطانية وطلب منه سرعة إرساله فأظهر العناية بذلك وسار فى جماعة من كشافه ومماليكه وأتباعه إلى الغربية وجعل يطالب أهلها بالأموال وقد فرض عليهم منها شيئا كثيرا فضلا عن الكلف الخارجية وغير ذلك فكان المعينون للطلب إذا استوفوا شيئا من ذلك طلبوا حق الطريق فإن تأخرت قرية أو بلدة فى أداء

شيء من ذلك قاموا عليها ونهبوها وربما قتلوا منها أناسا ولم يزل مراد بيك وأصحابه على هذا الحال حتى وصلوا إلى رشيد فقرروا على أهلها جملة من المال وكذلك على التجار واشتد الطلب وعين على الإسكندرية أحد كشافه وضرب عليه كذلك مائة ألف ريال نقرة وقيد معه بعض الجباة فعاثوا وشددوا وضيقوا وأمرهم بهدم جميع كنائس الإسكندرية فهدموا منها عدة كنائس وهرب التجار وسافروا إلى الدياز الشامية والرومية وغيرهما فرارا من الطلبات المتتابعة ثم أقفل راجعا بمن معه إلى الدقهلية ففعلوا بها ما فعلوه برشيد والإسكندرية ثم إلى الشرقية وغيرها. وقد أفحش كشافه بمصر والقاهرة فى تعقب الناس وسلب أموالهم ومصادرة أصحاب البيوت. وهجموا يوما على بيت شخص اسمه أحمد سالم الجزار متولى رياسة دراويش الشيخ البيومى فنهبوه ولم يبقوا به شيئا ألبتة فثار لذلك أهل الحسينية وحضروا إلى الجامع الأزهر وهم فى ضجة وأمامهم طبول ودفوف فاجتمع عليهم جماعة كثيرة من العامة والسوقة وبأيديهم المساوق والعصى وذهبوا إلى الشيخ الدردير وشكوا إليه فشجعهم وحرضهم على التظاهر والخروج فساروا من الجامع وقد أقفلوا أبوابه وصعد منهم جماعة على المنارات وجعلوا يضجون ويضربون بالطبول ثم انتشروا فى الأسواق وهم فى صياح وجلبة وأغلقوا الحوانيت. قال بعض كتاب الأخبار: ومناهم الشيخ الدردير بالركوب معهم فى غد ومعه أهل الأطراف والحارات وبولاق ومصر القديمة لنهب البيوت أو أن يموتوا شهداء فلما كان بعد المغرب جاء سليم أغا مستحفظان ومحمد كتخدا إبراهيم بيك وجلسوا فى الغورية ثم ذهبوا إلى الشيخ الدردير وكلموه فى الأمر وقد خافوا من تضاعف الخطب واستفحال الفتنة ووعدوه بردّ جميع ما أخذ من بيوت الحسينية وإجراء ما فيه المصلحة للعميان والمجاورين بالأزهر وبعد جدال تقررت القاعدة بينهم على ما ذكر وسكنت الفتنة وعادت الأمور إلى سابق مجراها.

- ولما لم يرسلوا إلى الخزينة السلطانية ما لها من الأموال رغما عن كثرة الطلب أمر السلطان بتسيير بعض مراكب الحرب إلى الإسكندرية ورسولا مخصوصا معه مرسوم سلطانى خطابا إلى الأمراء فى شأن ذلك فدخل الرسول القاهرة وسلم المرسوم إلى إبراهيم بيك فجمع إليه مراد بيك وبقية الأمراء وتكلموا فى الأمر طويلا فلم يتفقوا على شيئ وطال اجتماعهم أياما على غير جدوى فبينما هم على هذا الحال إذ جاءهم الخبر بحضور مراكب أخرى إلى ثغر دمياط وعلى إحدى تلك

كبار البحر المدعو حسن باشا فخاف الأمراء وارتبكوا فى أمرهم وشاع الخبر فتحدث الناس به وكثر اللغط فركب سليم أغا مستحفظان ونادى فى الأسواق على الروم والغليونجية والترك المقيمين بمصر بأن يرحلوا إلى بلادهم بلا مهل ومن وجد منهم بعد ثلاثة أيام قتل بلا معاودة فأثر هذا النداء فى الناس وتزايد خوفهم وأرسل إبراهيم بيك اثنين من كبار أمرائه إلى رشيد لخفارتها ولكى يتحالفا مع عرب الهنادى على أن يكونوا عونا لهم عند مسيس الحاجة ثم كتبوا قصة ليرفعوها إلى دار السلطنة تتضمن أنه لم يكن من مانع يمنع إرسال أموال الخزينة السلطانية سوى كساد الحال وتعطيل أسباب التجارة والزراعة وأنهم سيبذلون جهد الاستطاعة فى إرسالها فى العاجل القريب. فلما كانت ليلة الخميس عاشر رمضان سنة مائتين وألف هجرية ركب إبراهيم بيك ومعهم مراد بيك وجماعة من الأمراء ومشايخ الوقت ودخلوا على الباشا بمقره فأعلموه بصورة ما وقع الاتفاق عليه وطلبوا وساطته بينهم وبين الباب العالى وأنهم من الآن يقومون بترتيب الأمور وتنظيم الأحوال على ما تشاؤه الدولة فكان طورا يمنيهم وأخرى يقبح فعالهم ثم بعد أخذ وردّ وافقهم على إرسال قصتهم وسير بها كتخداه وانصرف الأمراء وهم لا يدرون ما ستكون عاقبة حضور تلك السفن. وجاءهم الخبر بعد أيام قلائل من حاكم رشيد بأن قد نزل فريق من العساكر العثمانية المنظمة بالأسلحة وآلات الحرب إلى البر ومعهم قائد من كبار القواد وأنه لم يعرف شيئا من عزمهم فكبر خوف إبراهيم بيك ومراد بيك وهالهما حضور العساكر فشددا فى جمع غلال الحرمين وغلال الأنبار وجمع أموال الخزينة السلطانية وبالغا فى التشديد وألزما المعلم إبراهيم الجوهرى عظيم القبط بمصر يومئذ بجميع ذلك وبعثوا سفراء إلى حسن باشا أمير سفن الحرب من المشايخ والعلماء والوجاقلية ومعهم هدية مائة فرق من البن اليمنى ومائة قنطار سكر وعشر بقج ثياب هندية وتفاصيل كثيرة وعودا وعنبرا وغير ذلك فسافروا فى يوم الجمعة ثامن عشر رمضان من السنة فلم يكادوا يبلغون الإسكندرية حتى قدم إلى القاهرة رسول من قبل تلك السفن واجتمع بإبراهيم بيك قيل وعاتبه وقال: كيف تبعثون بسفارة إلى الأمير فى طلب الصفح عما وقع والعفو عما فات وقد أخذتم أهبتكم للحرب والقتال وأكثرتم من جمع الأسلحة والكراع؟ فقال إبراهيم بيك: معاذ الله أن نحارب رجال دولتنا وأمناء سلطاننا على عساكره وجنوده وهب أنا فعلنا فقد تبنا وندمنا ورجعنا إلى الحق فقال: وكيف ذلك وقد بعثتم منذ أيام بقوم قد طافوا البلاد فضربوا على أهلها

المغارم الثقيلة والمكوس الفادحة وجمعوا الغلال وضربوا على كل بلد أردبين من بن القهوة وهذا الصنف غريب عن زراعة البلاد حتى ضج الناس وهربوا وتركوا البلاد خاوية على عروشها وهاهم يموتون جوعا وبردا على الجسور وسواحل الترع وقد أقلق القبطان صوت صراخهم فقال مراد بيك وقد كان حاضرا ليس فى الأمر شئ من ذلك وما هى إلا وشاية من الأعداء يقصدون بها إبعادنا عن رحمة سلطاننا ورضائه وها أنت قد رأيت أن لا مدافع عندنا ولا بنادق ولا أثر للاستعداد ولله الحمد. قال بعض الكتاب: ولم يكن القول من رسول أمير السفن بتطواف الأمراء فى البلاد وأخذ الكلف والمغارم جزافاً فإنه لما سافر الأمراء الاثنان اللذان بعث بهما إبراهيم بيك لخفارة رشيد وسافر معهما أتباعهما وبعض الجند والمماليك مروا بالبلاد وطلبوا هذه الكلف والمغارم وحرقوا وردان لعدم إذعان أهلها للطلب فضج الناس وذهبوا إلى المعسكر العثمانى وشكوا إلى مقدم العسكر ما ألم بهم فهوّن عليهم وكتب لهم فرماناً برفع الخراج عنهم سنتين ثم سار مقدم العسكر المشار إليه من الإسكندرية إلى رشيد فى أبهة وجلالة وكتب عدة فرامين بالعربية إلى مشايخ البلاد وأعيانها ومشايخ العربان وأصحاب الكلمة من أهالى المدن يقول فيها ما نصه :

صدر هذا الفرمان الشريف الواجب القبول والتشريف من ديوان حضرة الوزير المعظم والدستور المكرم عالى الهمم وناصر المظلوم على الظالم مولانا العزيز غازى حسن باشا سر عسكر السفر البحرى المنصور حالاً ودونانمة همايون أيدت سيادته السنية وزادت رتبته العلية إلى المشايخ وعمد البلاد ومشايخ العرب المقيمين بديار مصر وفقهم الله تعالى. نفهمكم أنه بلغ حضرة مولانا السلطان نصره الله ما هو واقع بالقطر المصرى من الجور والظلم للفقراء وكافة الناس وأن سبب هذا خائنو الدين إبراهيم بيك ومراد بيك وأتباعهما فتعينا بخط شريف من حضرة مولانا السلطان أيده الله بعساكره المنصورة بحراً لرفع الظلم ولإيقاع الانتقام من المذكورين وتعين عليهم عساكر منصورة برا بسارى عسكر عليهم من حضرة مولانا السلطان نصره الله وقد وصلنا إلى ثغر الإسكندرية ثم إلى رشيد فى سادس عشر رمضان سنة مائتين وألف فحررنا لكم هذا الفرمان لتحضروا وتقابلونا ثم ترجعوا إلى أوطانكم مجبورين مسرورين إن شاء الله تعالى فحين وصوله إليكم تعملوا به وتعتمدوه والحذر ثم الحذر من المخالفة وقد عرفناكم ا.هـ.

فلما علم إبراهيم بيك ومراد بيك بما جاء فى ذلك الفرمان من الوعيد والتهديد

كبر خوفهما وكادا يسقطان فى أيديهما واجتمعوا بأصحابهما وتشاوروا فرأو أن الخرق قد اتسع والوحشة قد استفحلت والقتال لابد منه فاستقر رأيهم على العصيان والخروج عن طاعة السلطان وكان النيل قد أخذ فى الزيادة فباتوا ليلتهم وأصبحوا وقد بدءوا فى جمع العساكر وتجنيد الجند وإعداد معدات الحرب واتفقوا على أن يسيروا هذا الجيش مع مراد بيك إلى مدينة فوّة فيمنعوا الطريق ثم يرسلوا إلى حسن باشا المشار إليه خطاباً يعلمونه بأنهم شارعون فى عمل الحساب والقيام بغلاق المطلوب للدولة ويسألونه الرجوع إلى دار السلطنة فإن امتثل فيها وإلا فالحرب. وجمعوا السفن وعبوا الذخيرة ونقلوا متاعهم وأثاثهم ورياشهم إلى بيوت أخرى صغيرة بجهة المشهد الحسينى والشنوانى والأزهر وأمروا بغلق الأسواق ليلا والكف عن الختمات والقرآت فى ليالى رمضان فكثر عند ذلك اللغط وتزايد الهرج وخاف الناس سوء العاقبة وظهرت على مراد بيك وإبراهيم بيك وأصحابهما لوائح الخذلان وبرز مراد بيك بعسكره إلى ناحية بولاق وعبروا النيل ليلاً إلى انبابه ونصبوا معسكرهم وخرج مع مراد بيك مصطفى بيك الداودية ومحمد بيك الألفى وحسين بيك الشفت ويحيى بيك وعثمان بيك الأغا وعثمان بيك الشرقاوى وعثمان بيك الأشقر فسايرهم إبراهيم بيك الكبير مودعاً وعانق كلاً منهم وعاد إلى القاهرة وسار مراد بيك قاصداً فوّة وأصبح إبراهيم بيك وقد عاد رسله الذين ساروا إلى أمير سفن الحرب العثمانية وقالوا إنهم اجتمعوا عليه ثلاث مرات الأولى عند وصولهم فقابلهم بالإعزاز وأكرم وفادتهم وأنزلهم بمكان ورتب لهم المأكل والمشرب فى الإفطار والسحور ثم دعاهم فى ثانى يوم وكلمهم قليلاً فى أمر البلاد وما يكابده أهلها من جور الحكام وظلم الولاة والحروب المستمرة وأنه قدم ليعاقب الظالم. قال راوى هذه الحكاية: فقال الشيخ العروسى يامولانا رعية مصر ضعفاء وبيوت الأمراء مختلطة ببيوت الأهالى وهذه طامة كبرى فقال: لا تخشوا من شيء فإن أول ما أوصانى مولانا أوصانى بالرعية وقال إن الرعية وديعة الله عندى وأنا استودعتك ما أودعنيه الله تعالى ثم قال: كيف ترضون أن يملككم مملوكان كافران وترضونهم حكاماً عليكم يسومونكم العذاب والظلم؟ ولماذا لم تجتمعوا عليهم وتخرجوهم من بينكم؟ فأجابه إسماعيل أفندى الخلوتى وقال هؤلاء يامولاى عصبة شديدة البأس وكلهم يد واحدة فغضب الأمير من قوله ونهره وقال: ويحك أترهبنى بيأسهم وشدتهم؟ فاستدرك وقال أعنى بذلك يامولاى أنفسنا لأنه أضعفوا الرعية فحول وجهه عنهم

ساعة ثم صرفهم قالوا والثالثة كانت فى يوم جمعة بعد الصلاة فاستأذنو فى الانصراف فقال فى غد أكتب لكم مرسوماً للرعية فتقرءونه جهاراً فى الجامع الأزهر فاعتذر الشيخ العروسى وقال تشتد الفتنة يامولاى فقبل عذره وقال يكفى الاستفاضة ثم عوقهم يومين آخرين ثم كتب لهم مكاتبات وسلمها إلى أحدهم سليمان بيك الشابورى وسرحهم فودعوه ورجعوا وحدثوا بما جرى. أما رسول إبراهيم بيك الذى سار بالهدية إلى مقدم العسكر الشاهانى والمكاتبة كما تقدم فإنه لما وصل إلى الإسكندرية قبض عليه مقدم العسكر المشار إليه وعوقه عن السفر إلى دار السلطنة وأخذ منه المكاتبة ثم سرحه فعاد إلى القاهرة وأخبر بما جرى له. ووزع مقدم العسكر المذكور عدة مراسيم على مشايخ البلاد وكبار القرى وقد كانت هذه المراسيم وردت إليه من دار السلطنة خطاباً إلى المشايخ والأعيان فشاع خبرها وتحدث الناس بها وبالغوا وهوّلوا وأرجفوا وقالوا: لم يبق إلا الحرب والقتال فركب إبراهيم بيك عندئذ واجتمع بالشيخ العروسى والشيخ الدردير والشيخ البكرى وكلمهم فى أمر العامة وأراجيفهم وحثهم على مراقبة أحوالهم ولزوم حضهم على ملازمة الهدوء والسكينة وأبلغهم خبر انتصار عسكر مراد بيك على بعض العساكر العثمانية بعد قتال عسى أن تهدأ الخواطر وتطمئن القلوب مع أنه لم يحصل شيء من ذلك إلى يومها. وجعل إبراهيم بيك يوالى إرسال المدد والمؤن والأسلحة إلى مراد بيك فكانوا يمرون بها من وسط المدينة ليراها الناس ويعجبوا بها.

وبينما هم على هذا الحال من المواربة وإخفاء الحقائق إذ رست ببولاق مصر سفينة من السفن التى كانت تتبع عسكر مراد بيك فى النيل وفيها كثير من المرضى والجرحى من العسكر والمماليك والوجاقلية فتسابق الناس لاستطلاع أحوالهم ومعرفة حقيقة أخبارهم فأخبروا بهزيمة مراد بيك وعساكره وتمزيق شملهم. وذلك إنه لما وصل مراد بيك إلى الرحمانية عبر سليمان بيك الأغا وعثمان بيك الشرقاوى والألفى النيل إلى البر الشرقى وساروا فوقع بينهم نزاع أدى إلى الخلف فراجع بعضهم بعضاً فكان ذلك أول الفشل ثم تقدموا إلى محلة العلويين وكان بها فريق من العساكر الشاهانية فأخلوا عنها فدخلوا إليها وملكوها وأرسلوا إلى مراد بيك فى طلب المدد فرسم إلى بعض الأمراء أن يعبروا النيل لإمدادهم فامتنعوا فأكبر مراد بيك ذلك وأعظمه وسير بدلهم جماعة من العربان ثم أمر بالركوب فركب من ركب وتأخر من تأخر وسار العسكر جميعه يريدون فوّة فصادفهم فى طريقهم فريق من

العساكر الشاهانية وراء المتاريس فخافوا من التقدم إلى الأمام لوعر الطريق وضيقه وكثرة المساقى والمزارع، وكان فى مقدمة العساكر المصرية سليمان بيك أحد كبار الجند فلما صاروا فى مقربة من متاريس عسكر السلطان وجهت العساكر السلطانية أفواه بنادقهم نحو سليمان بيك المذكور ومن معه فانذعر ورجع مسرعاً إلى الوراء فكبا به فرسه وسقط فحصلت فى جموعه ضجة وظنوها هزيمة فرجعوا جميعاً القهقرى فتبعهم العربان الذين كانوا معهم وأخذوا منهم ما قدروا على أخذه من متاع وسلاح فعبروا النيل وكان مراد بيك محتلاً بمن معه فى مكان ضيق وعر المسالك فأشاروا عليه بتركه والارتحال إلى غيره واجتمعوا وهم على يقين من الهزيمة فكانوا يتخيلون أن العساكر السلطانية سائرة خلفهم ومن أمامهم لتذيقهم مر العطب ومازالوا على هذا الحال من الخوف والطيرة حتى خيم الليل فساروا تحت جنح الظلام ورجعوا القهقرى وطارت الأخبار بذلك فى مصر والقاهرة فعم الخوف جميع الأهالى وصاروا يضطربون من كل شىء ويتطيرون من كل شىء فكان إذا صاح صبى يا أماه ظنوا صياحه مقتلة وإذا نادى مناد على شىء قالوا هى عربدة. واتفق أن مملوكاً أراد الركوب على حمار أحد المكارية فازدحم عليه الحمارة على عادتهم وتراكضوا خلفه ناحية الصاغة فظن الناس أنها وقعة وأن العدو على أبواب الصاغة فتراكضوا جماعة خلف جماعة وصاحت الصغار فاضطرب أصحاب الحوانيت وأسرعوا فى غلق حوانيتهم بالأشراقية والغورية والعقادين إلى باب زويلة وغيره من الجهات القريبة ثم ظهر بعد ذلك أن لا شىء ألبتة فعاد الناس إلى أشغالهم. ووصل فى غروب ذلك اليوم كثير من الجرحى والمرضى من عسكر مراد بيك ومماليكه وطوائفه فزاد الإرجاف واشتد القلق ونزل الباشا من القلعة إلى باب العزب واستقر به وهم إبراهيم بيك بأخذ أبواب القلعة فلم يفلح وأرسل الباشا يطلب قاضى القضاة والمشايخ فى تلك الليلة، فصعد إليه بعضهم وتأخر البعض إلى الصباح فصعدوا جميعاً وصعدت كذلك طوائف الوجاقلية ورفع الباشا البيرق على باب العزب ونزل جاويش مستحفظان وجاويش العزب وأمامهما المناداة على العسكر والأجناد والطائعين كافة لله تعالى وللسلطان أن يأتوا تحت البيرق فخرج جميع العساكر والأجناد والتجار وأهل خان الخليلى وعامة الناس على اختلافهم حتى امتلأت الرميلة وقراميدان من الخلائق وأرسل الباشا يستحث أمير السفن العثمانية فى القدوم وكان فى عزمه التربص إلى خروج الحاج فيأتى إلى القاهرة ومعه العساكر البرية أيضاً فأخذ يتأهب

للحضور ووردت الأخبار بذلك إلى إبراهيم بيك.

ولما رأى إبراهيم بيك تسابق الناس إلى الطاعة واجتماعهم بقراميدان والرميلة وغيرهما أخذ فى نقل أمتعته من ثقيل وخفيف إلى دوره الصغيرة واحتجب عن الناس إلا القليل وتركه الأمراء كافة وطلعوا إلى الباشا يطلبون الأمان فكان الرجل منهم يأتى إلى باب العزب فيطرقه وينادى فلان يطلب الأمان ويكرر النداء وينتظر واقفاً على أقدامه برهة طويلة حتى يأتيه فرمان بالأمان فيدخل بغير سلاح خاضعاً ويبقى مع من بالقلعة أما الصغير منهم فإنه بعد أن كان يعطى له الأمان ينحدر إلى الرميلة أو قراميدان ويبقى مع من هم بها وكان الذين طلبوا الأمان من كبار الأمراء جماعة كثيرة وكذلك من الغز والأجناد، ولما تكامل حضور من حضر من المشايخ والعلماء الطائعين أبرز الباشا خطاً سلطانياً وقرأه عليهم وهو يتضمن الحث على سرعة إرسال إبراهيم بيك ومراد بيك إلى دار السلطنة وتأمين كل من يطلب الأمان أو غير ذلك وبعد تلاوة ذلك المرسوم أقر بعض أصحاب الوظائف العالية فى مناصبهم وفرق بقية الوظائف بينهم ونزلوا إلى المدينة ونادوا بالأمان والبيع والشراء ونادوا كذلك فى الناس بالانصراف إلى بيوتهم بشرط الإجابة عند الطلب ولم يبق إلا المحافظون على الأبواب وأصحاب الرتب. أما مراد بيك فإنه حضر فى ثانى يوم هذا الحادث إلى جهة انبابة وبات ليلته تلك وقام غلسًا إلى جزيرة الذهب وركب إبراهيم بيك فى تلك الليلة وذهب أيضاً إلى الآثار ونادى المنادى فى ثانى يوم بصعود الناس إلى قراميدان والرميلة فصعدوا أفواجاً أفواجاً وكثر زحامهم فنودى فيهم بالأمان وملازمة الهدوء والسكون. وتخييل الباشا من إبراهيم بيك أمير الحاج وقد كان ممن طلب الأمان فرسم له عند ذلك بالنزول إلى بيته فنزل من القلعة إلى جامع السلطان حسن وأقام به فأرسل إليه الباشا بالذهاب إلى بيته فذهب واجتمع ببعض الأمراء فى تلك الليلة سراً وأصبحوا فخرج سليمان بيك وأيوب بيك الكبير والصغير وهم ممن طلبوا الأمان أيضاً فأجيبوا إليه وساروا إلى مضرب النشاب وركب إبراهيم بيك أمير الحاج وذهب إلى بولاق ليأخذ جمال المناخ المعدة لخدمة الحاج فمنعه من أخذها عسكر المغاربة فرجع إلى مضرب النشاب فلما جاء الخبر بذلك إلى الباشا بعث إليهم رسولاً ومعه مرسوم خطاب لهم بأن يرجعوا إلى بيوتهم وأن لا يجتمعوا أبداً على هذه الصورة فمزقوا المرسوم وضربوا الرسول وأقاموا على هذا الحال أياماً بالمصاطب فاجتمعت عليهم عند ذلك طوائفهم وركبوا ولحقوا بمن خرج

قبلهم فاضطربت البلد وظن الناس صعودهم إلى المقطم بالمدافع ليطلقوها على المدينة والقلعة وأغلق الناس حوانيتهم فركب الباشا بعد صلاة الجمعة وركب كذلك قائد أغا ومعهما كثير من المماليك والعسكر يحملون البنادق والقرابين ووصلوا إلى الرميلة ورموا بالبنادق على جماعة الأمراء وأطلقوا عليهم المدافع فانحدر المتحزبون الى الصليبة ثم باب زويلة ومروا بالغورية والأشرفية وبين القصرين وطلعوا من باب النصر وأمامهم المنادى ينادى أمان واطمئنان حكم ما رسم إبراهيم بيك ومراد بيك وحكم الباشا بطال فلما سمع الناس ذلك ورأوا اجتماع الأمراء على هذه الصورة انزعجوا وأغلقوا الدكاكين وهاجوا وماجوا وعلم الباشا بخروجهم على هذه الصورة فأمر فحصنوا القلعة والمحمودية والسلطان حسن ونادى الأغا فى الجند والعسكر بالصعود إلى قلعة الجبل فصعدوا وجعل كل فريق يتأهب للحرب والقتال وعم الخبر مصر والقاهرة فانتشر عند ذلك الأشقياء فى الطرق والحارات ينهبون المارة وتطاولت أيديهم إلى القتل فى رابعة النهار وانقطعت الطرق حتى إلى بولاق القاهرة ومصر القديمة وركب إبراهيم بيك وحسين بيك فى نفر وأتوا إلى مناخ الجمال ليأخذوا جمال الحاج فدفعهم المغاربة فعربدوا فى ذلك الصقع عربدة لا توصف وطلعوا بعد العشاء وباتوا فى السبيل الذى على رأس الرميلة وشدد الباشا فى طلب العسكر وأنفق عليهم نفقة عظيمة فكثر تواردهم إلى قلعة الجبل وفى مواقع المتاريس والحصون واشتد الكرب بالناس وضاق خناقهم وكان الصياح لا ينقطع فى كل يوم فى أطراف الحارات من قحة اللصوص وتسلط النشالين ودخولهم البيوت ليلا وقتالهم مع أصحابها نهاراً وشاع فى هذه الأثناء خبر وصول بعض مراكب حرب الدولة إلى شلقان ومجىء حسن باشا مقدم العسكر السلطانى ففرح الناس وصعدوا إلى المنارات وأعالى الأسطحة ينظرون إلى النيل فلم يروا شيئاً فى ذلك اليوم فاشتد الانتظار وزاغت الأبصار فلما كان بعد عصر اليوم سمع صوت مدافع على بعد فأجابتها مدافع القلعة ففرحوا واستبشروا وحصل بعض الاطمئنان وصعدوا إلى المنارات فرأوا عدة مراكب ونقاير رست على بولاق القاهرة فسروا سروراً ما عليه من مزيد وضجوا ضجيج الفرح فارتجت الأرض من ضجيجهم وكان مراد بيك وجماعة من أمرائه قد ذهبوا إلى بولاق وشرعوا فى عمل المتاريس جهة السبتية وأحضروا عدة مدافع وجمعوا أخشابا وشيئاً كثيراً من حطب الذرة وزنابيل وغير ذلك فبينما هم يشتغلون فى إحكام تلك المتاريس إذ دهمتهم مراكب حسن باشا تجاه المتاريس

فتركوها وولوا الأدبار فضج الناس وصاح الصبيان صياح الهزء والفرح وخرجت النساء يزغردن واحتطن بمدافع مراد بيك.وكسرن أخشابها وأخذنها للحريق.

واجتمع إبراهيم بيك ومراد بيك وجميع الخوارج وكتبوا إلى قاضى القضاة والمشايخ يظهرون التوبة والرجوع إلى الطاعة فقرئت كتابتهم بحضرة محمد باشا يكن. قال الراوى: فقال سبحان الله كم يتوبون وكم يعودون فاكتبوا لهم جوابا معلقاً على قدوم قبطان باشا فكتبوا لهم بذلك ووصل حسن باشا فى عشاء ليلة الاثنين ثانى عشر شوال سنة مائتين وألف فأطلقوا لقدومه المدافع من بولاق القاهرة وبات ليلته وأصبح فركب ودخل القاهرة من ناحية باب الخرق ونزل ببيت إبراهيم بيك الكبير بأتباعه وحاشيته وعسكره ووصل بعده الشيخ الأترم المغربى فى طائفة من المغاربة فنزل بهم ببيت يحيى بيك فسكن الحال واطمأنت قلوب الرعية وفتحت أبواب قلعة الجبل ونزل من بها وشاع الخبر بذهاب إبراهيم بيك ورفاقه إلى الإقليم القبلى من خلف الجبل فسارت خلفهم طوائف العسكر على ظهور السفن لقتالهم فقبضوا على عدة مراكب مشحونة بالذخيرة والمؤن وأنفذ حسن باشا أمير السفن رسلاً إلى إسماعيل بيك الكبير وحسن بيك الجداوى يطلبهما إلى مصر وكانا مبعدين بالإقليم القبلى كما تقدم وجمع محمد باشا يكن من بقى من أهل الخير من الأمراء وقلدهم المناصب العالية وسلمهم الوظائف ورتب أمور البلاد ترتيباً محكماً وأباح على ما قيل للعساكر الشاهانية نهب بيوت الأمراء الفارين فدخلوا بعضها وأخذوا ما وجدوه من أمتعة وأثاث وتبعهم العامة والحرافيش فبلغ ذلك مقدم العسكر فركب بنفسه وطاف المدينة وقبض على من صادفه من العسكر وعلى من وجده فى تلك البيوت فقتل جماعة منهم ممن كانوا يحملون بعض المنهوبات فانكفوا عن النهب ثم نزل من باب زويلة ومر بالغورية ودخل من عطفة الخياطين على باب الأزهر وذهب إلى المشهد الحسينى فزاره وكان قد زاد إعجابه بنفسه أو وشى إليه بعض الوشاة فأمر فنودى على النصارى أن لا يركبوا الدواب المطهمة وأن لا يستخدموا المسلمين ولا يشتروا الجوارى ولا العبيد ومن كان منهم عنده شيء من ذلك باعه أو أعتقه وأن يلزموا زيهم الأصلى من شد الزنانير والزنوط فتسلط العامة عليهم وتتبعوهم بالإيذاء ومن جدوه بغير زنار رجموه بالحجارة وحثوا التراب فى وجهه فانكمشوا وانكفوا عن الخروج أياما وأرسل يطلب من قاضى القضاة إحصاء ما أوقفه المعلم إبراهيم الجوهرى عظيم القبط بمصر يومئذ على الكنائس والديارات من أطيان ورزق وأملاك

وغيـر ذلك ثم أحس بما وراء ذلك من الفشل وظهـور الفتنة فـخاف واستـدعى إليه المعلم إبراهيم وكلمه فى الأمر فصالحـه المعلم إبراهيم على مبلغ عظيم من المال فأمر فنودى فيهم بـالأمان وعدم التعرض لهم بمكروه فـعادوا إلى ما كانوا عليـه وكان ما فعله بالقبط مشجعاً للعسـاكر السلطانية على العود إلى الخطف من السوقة وأصحاب الحوانيت وكثر تعديهم على أهل الحرف مثل القهـوجية والحمامية والمزينين والخياطين وغيـرهم فكان يأتى الرجل منهم إلى الحـمامى أو القـهوجى أو الخيـاط ويخلع عنه سلاحه ويعلقه على باب الحمام أو القهوة أو حانوت الخياط ويرسم رنكه فى ورقة أو على باب دكان آخر وكأنه صار شريكه وفى حـمايته ثم يذهب حيث شاء أو يجلس متى شـاء ثم يأتى فى آخر اليوم ويحـاسبه ويقـاسمه فى ربح يومـه ذلك قيل وهذه عادتهم إذا ملكوا بـلدا ذهب كل ذى حرفة إلى حـرفته التى كـان يحترفـها فى بلده ويشـارك ابن تلك البلد فيـهـا، فثـقل على أهل مصـر هذا الفـعل وشكوا للباشـا واستغاثوا فنودى بإبطال هذه المحنة ومن أتاه عسكرى يشاركـه أو يأخذ منه شيئاً بغير حق قـبض عليـه وضرب وأتى به إلـى الحكام ثم طاف الوالى وقـبض على كل من وجده منهم بالحمـامات والقهاوى وطردهم ونهرهم فلم ينكفـوا إلا بعد حين ورسم حسن باشا أميـر السفن فجمعت ودائع جميع الأمـراء وأموالهم المحفوظة عند الناس واستـحضـرت زوجات إبـراهيم بك الكبيـر وأخذ مـا كان عندهن من مـال وحلى وغيره، وكذلك زوجات مراد بيك وقبضـوا على خفراء الحارات ليدلوا على البيوت التى فيها تلك الودائع فلم يتركوا محلاً إلا فتشوه وأخذوا ما فيه ونودى فى الأسواق بأن من كان عنده وديعة أو شىء من متاع الأمراء الخارجين ولم يظهره فى ثلاثة أيام أهدر دمه من غير معاودة وحجروا على زوجات إبراهيم بك ومراد بيك ببيت كتخدا أياماً كـثيرة فـشفع فيـهن العلماء والمشايخ فلـم يفرج عنهن واستـحضر النخـاسين والدلالين وأخرجوا جوارى إبراهيم بيك وباقى الأمراء بيـضاً وسوداً وأحباشا ونودى عليهن بـالبيع والشراء فى حـوش البيت فـبيعـوا بأبخس الأثمان اشـتراهن طوائف الضباط والعساكر السلطانية واشتد أمير السفن فى الغلظة وبالغ فى التهديد فأمر ببيع ولدى إبراهيم بيك الكبير وهما مرزوق بيك وعديلة هانم وضيق على زوجاته تضييقاً عظيماً فاجتمع المشايخ وصعدوا إلى قلعة الجبل وكلموا الوالى فى ذلك وقالوا: هذا أمر لا ترضاه الشريعة ولا يجوز قطعـاً بيع الأحرار وطلبوا منه أن يراجع أمير السفن فى ذلك فقال: لا قدرة لى على رد كلمته فاذهبوا أنتم إليه وكلموه. قالوا ولابد من

أن تذهب معنا فذهبوا جميعاً وكلمه الشيخ السادات وقال: يامولانا قد بعثك السلطان لتذب عن الشريعة المطهرة وتقيم الحدود وتقطع عرق الفساد وتمنع الظالم عن المظلوم لا أن تهدم معالم الدين وتبيع الأحرار فلما سمع كلام الشيخ السادات اغتاظ وأشار إلى أحد الكتاب أن اكتب أسماء هؤلاء المشايخ كى أبعث بها إلى السلطان وأعلمه بحالهم وتوقفهم فى سبيل أعمالى ثم التفت إليهم وقال: لا أجد الآن للإقامة بين ظهرانيكم سبيلاً وقد عزمت على الرجوع فليرسل إليكم مولانا السلطان آخر فتروا ماذا يفعل بكم أو ما كفاكم أنى فى كل يوم أقتل من عسكرى طائفة على أيسر شىء دفعاً لأذاهم عن البلاد وأهلها وإرهابا لمن لم يعرف الحدود ولو كان قائد هذه الجموع غيرى لنظرتم كيف كانت تفعل بالبيوت والأسواق والناس فخاف المشايخ وسقطوا فى أيديهم وتلجلج فصيحهم وقالوا إنما نحن يامولانا شفيعون والواجب علينا قول الحق ثم انصرفوا وهم على أشد ما يكون من الخجل.

ولما كان يوم السبت غرة القعدة من السنة قدمت إلى القاهرة الجيوش البرية ومعهم أمير اسمه عابدى باشا وآخر اسمه درويش باشا وهما مقدما الجيش المذكور فلاقاهم حسن باشا بالعادلية وسار معهم حتى دخلوا المدينة فى أبهة وجلالة وعسكروا بها فلم يحصل منهم إيذاء ولا عربدة بل كانوا إذا اشترى أحدهم شيئاً نقد صاحبه ثمنه حالاً وباتوا تلك الليلة بخيامهم عند سبيل قماز وأصبحوا وقد ركب عابدى باشا ودرويش باشا وسارا أمام العسكر إلى البساتين فمروا بالصحراء وباب الوزير وأجروا عليهم الرواتب من الخبز واللحم والأرز وكأنه لما استقر بهم المقام تاقت نفوسهم إلى استخدام الجوارى كما فعل عسكر حسن باشا بجوارى الأمراء المصريين وجوارى قبطة مصر، فقد نودى بعد أيام على المسيحيين من أهل البلاد كافة بإحضار ما عندهم من الجوارى ثم نزل العساكر بعد النداء وهجموا على بيوت المسيحيين واستخرجوا ما فيها من الجوارى والعبيد فكان شيئاً كثيراً وأحضروهم إلى حسن باشا فباعهم إلى العسكر بأبخس الأثمان ثم صاروا يبيعونهم بالمرابحة فإذا أراد أحد أن يشترى جارية ذهب إلى بيت الباشا وطلب ذلك فيعرض عليه الجوارى من مكان عند بيت النساء فإذا أعجبته جارية أو أكثر حضر صاحبها الذى اشتراها فيخبره برأس ماله ويقول له: وأنا آخذ مكسبى كذا فلا يزيد ولا ينقص فإن أعجبه الثمن دفعه وإلا تركها وذهب ثم وقع التشديد على ذلك وأحضروا الدلالين والنخاسين واستدلوا منهم على من عنده واحدة من الجوارى فكانوا يفتشون بيوتهم دفعات

متوالية حتى اشتد الكرب وعم الخطب ولم يقف حسن باشا المذكور عند هذا الحد من الجور والعسف بل أمر فجمعوا المهندسين والبنائين ليدلوا على الخبايا والمطامير التى ربما يكونون قد أنشئوها للأمراء والناس كافة فى بيوتهم فكان لا يشعر صاحب البيت وهو بجانب عياله إلا وقد هجم عليه جماعة من العسكر ودخلوا البيت وأخذوا ينقبون الحيطان وينبشون الأرض ويدخلون المحال بلا حياء فيأخذون ما يجدونه من فراش أو نحاس أو غير ذلك ويخرجون وصاحب البيت فى دهشة وجمود لايدرى ما سبب حضورهم ولا ما أخذوه وهكذا حتى ضج الناس وعم الخوف وراجت السعاية وظهر شأن أصحاب الدسائس والفتن، وعمت الشدة جميع النصارى فضربت عليهم المغارم وطولبوا بخمسة وسبعين ألف ريال نقرة وأمر بإحصاء جميع دورهم وملكهم فأحصيت فقرر عليها أجرة تدفع إلى خزينة السلطان ثم ضرب عليهم غرامة أخرى قدرها خمسة آلاف كيس فضاقت عليهم الدنيا برحبها وباع الكثير منهم جميع ما عنده حتى ملابسه وملابس عياله وقرر على كل شخص منهم جزية جديدة قدرها دينار بلا فرق وذلك خلاف الجزية الديوانية المقررة على كل واحد منهم، وتتبع الديارات وأخذ كل ما وجده فيها من ودائع وقبض على المعلم واصف أحد عظماء القبط يومئذ ورئيس حسابات الديار المصرية وعليه جميع الإيرادات والمصروفات فجلده وحبسه وطالبه بالأموال وكان المعلم واصف المشار إليه كاتباً حاسباً عاقلاً حاد الذهن وقاد الذاكرة وكان يعرف التركية حق المعرفة وقبض أيضًا على نساء المعلم إبراهيم الجوهرى وكن فى بيت حسن أغا كتخدا على بيك أمين الحساب وضيق عليهن فاعترفن ببعض الخبايا فأخرجوا منها أمتعة وأوانى ذهب وفضة وسروجاً وغير ذلك فأخذها ولم يترك سراح النساء بل بقين تحت الحجر أياماً كثيرة.

وجاء الخبر بوصول إبراهيم بيك الكبير ومراد بيك ومن معهما إلى أسيوط وأن السفن الحاملة للعساكر السلطانية سائرة خلفهم فبعث حسن باشا بسفن أخرى وعليها بعض طوائف الجند فسارت ولحقت بالأولى فلما صاروا أمام أسيوط أطلقوا عليها المدافع تباعاً فأجابتهم مدافع إبراهيم بيك ثم ترفع إبراهيم بيك ومن معه إلى الجبانة فلم تتمكن السفن من إطلاق المدافع عليهم وبعثوا إلى حسن باشا بذلك فعقد الديوان وجمع الأمراء وقلد قاسم بيك أبو سيف ولاية جرجا وقيادة الأجناد والعساكر التى تقرر إرسالها مع عابدى باشا ودرويش باشا وعين معهم عدة كثيرة من

الأمراء ورسم بسرعة التجهيز والرحيل وصرف النفقة فأنفق هو على قومه فأعطى لكل أمير خمسة عشر ألف ريال والوجاقلية سبعة عشر ألف ريال، وأنفق عابدى باشا فى عسكره فأعطى لكل نفر خمسة عشر قرشاً فغضبت من ذلك طائفة الدلاة واجتمعوا بأسرهم وخرجوا إلى ناحية العادلية مغضبين يريدون الرجوع إلى أوطانهم فانزعج الناس ولم يعرفوا ما الخبر فلما بلغ حسن باشا ما وقع ركب فى عسكره وسار إلى العادلية يريد قتلهم فخرج معه بعض العساكر المصرية وركب كذلك عابدى باشا ولحق به عند قصر قايماز وكان هناك أحمد باشا الجداوى فنزل إليه أيضاً وأخذوا يستعطفونه ويسكنون غضبه وأرسلوا إلى الدلاة فاسترضوهم وزادوا أعطيتهم وجعلوا لكل نفر أربعين قرشاً فأذعنوا وأطاعوا وعادوا جميعاً إلى القاهرة. وخرج عابدى باشا ودرويش باشا بعسكريهما ونزلوا بالبساتين يومين ثم ارتحلوا إلى الأقاليم القبلية فخرجت طوائف الوجاقلية أيضاً ونزلوا بخيامهم فى البساتين ولبثوا أياماً قلائل حتى جاء أحد كبار العساكر السلطانية من الشام ومعه طائفة من العسكر فنزلوا بالعادلية يوماً ثم ساروا إلى البساتين وقاموا منها إلى الأقاليم القبلية فقامت معهم طوائف الوجاقلية ونودى بأن لا يتخلف أحد من العسكر ومن تثاقل قتل من غير معاودة.

ولم يكن تسيير الجنود وإعداد معدات الحرب ليشغل حسن باشا أمير السفن عن كشف عورات الناس ومصادرتهم فى متاعهم وأموالهم وأخذ كل ما وصلت إليه يده وتفتيش مساكن أصحاب البيوتات العالية وإخراج ما فيها وقد دلوه على مكان ببيت المعلم إبراهيم الجوهرى مرتفع مهدوم الدرج وكان هذا المكان لولد له مات فى عنفوان شبابه من نحو الستين سنة فلما مات هدمت والدته الدرج الذى يوصل إليه حزنا على ولدها وترك بما فيه فصعدوا إليه وأخرجوا منه شيئاً كثيراً من فرش وأمتعة مزركشة وأوانى ذهبية وفضية وصينية وغير ذلك فأحضرت جميعها إلى حسن باشا فباعها بالمزاد بين يديه فى عدة أيام وبالغ فى تفتيش البيوت والإصغاء لأهل السعاية والوشاة واشتدت رغبته فى قطع دابر إبراهيم بيك ومراد بيك ومن معهما ومحو آثارهم فأجهد النفس وبالغ فى اتخاذ الطرق والوسائل وأكثر من المدد لعساكره الذين ذهبوا لقتالهم، وكان فى كل يوم يبعث بالرسل لتأتى له بالأخبار فلما كان يوم الأربعاء عاشر ذى الحجة من السنة الذى هو يوم عيد النحر وردت إليه الأخبار بوقوع موقعة عنيفة بين إبراهيم بيك والعساكر السلطانية لم يتم فيها الظفر لأحد من

الطرفين فاغتاظ من ذلك جداً إذ كان يرجو انقضاء الأمر قبل دخول فصل الشتاء وهبوط النيل وتعذر انحدار سفن الحرب فأمر عند ذلك بعدم فتح الترع التى كانت تفتح عادة بعد عيد الصليب كبحر أبى المنجا وبحر مويس والقرينين خوفاً من نقص الماء وأرسل إلى عابدى باشا ودرويش باشا ومن معهما من كبار العسكر يستحثهم ويستنهض هممهم إلى الفتك بإبراهيم بيك ومراد بيك فرد عليه عابدى باشاً رداً حسناً وأرسل إليه أيضاً بمكاتبة كانت وردت إليه من ابراهيم بيك رداً على خطاب كان بعث به عابدى باشا يقول فيه بعد كلام ما نصه: كم تخاطبوننا بالكفرة والمشركين والظلمة والعصاة مع أننا بحمد الله تعالى موحدون وإسلامنا صحيح وحججنا لبيت الله الحرام وتكفير المؤمن كفر ولسنا عصاة ولا مخالفين وما خرجنا من مصر عجزاً ولا جبناً عن الحرب إلا طاعة للسلطان ولنائبه فإنه أمرنا بالخروج تسكيناً للفتنة وحقناً للدماء وقد وعدنا أنه يسعى فى تقرير قاعدة للصلح فخرجنا على هذا الشرط ولم نرض بإشهار السلاح فى وجوهكم وتركنا بيوتنا وعيالنا فى عرض السلطان ففعلتم بهم ما فعلتم ونهبتم أموالنا وهتكتم أعراضنا وبعتم أولادنا وأحرارنا وأمهات أولادنا وهذا الفعل ما سمعنا به حتى ولا فى بلاد الكفر وما كفاكم ذلك حتى أخرجتم خلفنا العساكر ليخرجونا من بلاد الله الواسعة ويهددونا بكثرتهم وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله وأما عساكر مصر فأمرها فى الحرب والشجاعة مشهور فى سائر الأقاليم والأيام بيننا وكان الأولى لكم الاجتهاد والهمة فى استخلاص البلاد التى أخذها الكفار واستولوا عليها مثل القرم والورن وإسماعيل لا أن تأتوا هنا على هذه الصورة المنكرة. وكتب غير ذلك من أقوال أخرى ركيكة المبنى قد أضربنا عن إيرادها. فأجابهم عابدى باشا ونقض عليهم وزحف بعسكره فاشتبك بينهم القتال عند المنشية والتحم الفريقان فقتل منهم جملة كبيرة وأبلى المصريون بلاء حسناً للغاية فتنحت عنهم العساكر السلطانية ناحية وهجم إبراهيم بيك وأصحابه وألقوا بأنفسهم فى نيران الحرب وطلب كل غريمه، ثم اندفع العثمانيون وظهر من شجاعة عابدى باشا ما شهدت به الأعداء وأصابت إسماعيل بيك الكبير رصاصة فى فمه فخرجت من صدغه فولى منهزماً وألقى بنفسه إلى النيل وركب فى حراقة صغيرة وانحدر إلى مصر وكان حسن باشا أكثر من استدعائه وهو يعده ويرجوه كتمان خبر طلبه فلما دخل القاهرة اجتمع بحسن باشا برهة ثم ذهب إلى بيت مملوكه على بيك جركس وقد خلع عليه حسن باشا خلعة سمور وأصبح وقد

شاع خبر حضوره على هذه الصورة فتحدث الناس فى أمره وكثر اللغط وأعقب ذلك أيضاً الإشاعة بهزيمة العساكر السلطانية وأرسل حسن باشا فى طلب طوائف العسكر الذين بمدينة الإسكندرية وأرسل أيضاً إلى دار السلطنة يطلب المدد وحضر حسن بيك الجداوى ومعـه بعض الجند وقد أصيب بجراحة عظيـمة فثبت بحضوره خـبر هزيمة العساكر السلطانية وكذلك حضر بقية الأمراء وأكثرهم مصاب بجروح.

(مطلب)

عزل محمد باشا يكن وولاية عابدي باشا

ثم وصل عابدى باشا أيضاً ونزل بقصر العينى أياماً وهو محتجب عن الناس إلا القليل من قومـه ولم يظهر إلا لملاقاة الـرسول الذى حضر مـن دار السلطنة بمرسوم ولايته على مصر وخلع محمد باشا يكن وتسييره إلى ديار بكر بدلا من عابدى باشا وانتشر الخـبر بذلك فى مصر والقاهرة وعم الآفـاق وجعل عابدى باشا ينقل أمتـعته إلى بولاق القاهرة ويـتأهب للصعـود إلى قلعة الجبل وذلـك فى المحرم افتـتاح سنة إحدى ومائتين وألف هجرية وسافر محمد باشا يكن إلى مركز ولايته الجديدة فكانت مدة تصـرفه سنتـين وبضعة أشـهر، وكان كـريم الأخلاق عاقـلاً رزيناً يكره الظلم ويبغض أهله فلذلك لم يكن ليرضى عن أعمال حسن باشا أمير السفن بل كان ناقماً عليه كثير التوجع مما أصاب الرعية من عـسفه وجوره. وصعد عابدى باشا إلى قلعة الجبل وأخذ يتصرف فى الأمور ويدبر مع حسن باشا أمر الحرب مع الأمراء المصريين فأكـثر من إرسال المدد إلى درويش باشـا وبث العيون والأرصـاد حول ابراهيم بيك ومن معه فجاءه الخبر يوماً بانحدار إبراهيم بيك وجموعه إلى مصر واقتراب طلائعهم من بنى سـويف وأنه مات منهم عـدة كبـيرة من الأمـراء والكشاف ولكن مـازالت نفوسهم قـوية على الحرب وقد أحبوا الموت فـأزعجه هذا الخبر واستـعظمه ثم جاءه بعد قـليل رسول من قبـل مراد بيك ومعـه مكاتبة تتـضمن طلب الصـلح والإلحاح بالكف عن القتال حقناً للدماء وأنهم قد تابوا ورجعوا عما كانوا عليه، ثم قالوا: فإن لم تجنحوا إلى الصلح فليس بيننا وبينكم غير الحرب والقـتال فلما وقف أمير السفن على ما فى خطاب مـراد بيك أسرع فى تسيـير ما بقى عنده من مـراكب الحرب إلى ناحية التبين فاصطفت هناك وأمر فعملوا متاريس وحفروا خندقاً ووضعوا من المدافع

عدة كثيرة وخرج رضوان بيك بليفيا وسليمان بيك الشابورى وعبد الرحمن بيك عثمان وبرزوا بخيامهم ناحية البساتين ليسيروا منها إلى الصعيد وأتت الجواسيس فأخبروا بتربص إبراهيم بيك وجموعه بناحية بنى سويف ومراقبتهم للفرص فأنفق حسن باشا فى العسكر ثلث نفقة وطلب من التجار قرضة لينفقها فشكوا من كساد الحال فشدد فى الطلب فأغلقوا حوانيتهم فهجم الجنود على بيوتهم ونهبوا ما وجدوه فيها وفرض على الأهالى مبلغاً عظيماً من المال فجمعوه بشق الأنفس وطلب الخيول والبغال والحمير والجمال فأخذوا دواب الناس بلا ثمن وجمال السقائين كافة والمكارية فضج الناس وعجوا إلى الله تعالى ووقع الصياح فى العامة والبكاء من نساء السقائين والمكارية وغيرهن وكثرت ولولتهن وطفن حاسرات يندبن فلم يلتفت إليهن ولا رد شيئاً مما أخذ ووردت مكاتبة أخرى من إبراهيم بيك بطلب الصلح وحقن دماء المسلمين فجمع حسن باشا الأمراء كافة وقرأها عليهم فأبوا جميعاً إلا القتال وبعد كلام أشار حسن بيك الجداوى بصرف طائفة المحمدية من العساكر تخوفاً وتخيلاً منهم إذ هم ميالون إلى إبراهيم بيك وأصحابه فأجابه حسن باشا إلى ذلك وأمر فجمعت منهم خيولهم وسروجهم فكان لذلك أثر مهم وكادت جيوشه لذلك تفشل فهاله الأمر ووقف فى وسط الجند وقال مخاطباً لكبار العسكر: قد أمنتكم فلا تكونوا من الخائنين وإياكم والخدعة والأخذ بالوجوه فتنحازون إلى الأعداء بغضاً فينا أو تزلفاً إليهم وحرصاً على الجنسية فافقهوا واعلموا أنكم إن فعلتم شيئاً من ذلك خربت البلاد سبع سنين عقاباً وجعلت الدماء فيها إلى لبب الخيل. ثم نادى المنادى بالتأهب وعدم تخلف أحد وطاف الأغا على العساكر والأجناد يخرجهم من أماكنهم ويقف على الخانات ويسأل عمن بها منهم ويحثهم على سرعة الخروج والالتحاق بالعسكر. وعادت رسل إبراهيم بيك إلى معاودة حسن باشا فى أمر الصلح وأحضروا معهم ابن أخ عابدى باشا وكان قد أسر مع بعض العساكر السلطانية فى الوقعة الأخيرة وأرسلوا معه منهوبات عابدى باشا وجميع المجاريح وقد أنفقوا على كل واحد منهم ديناراً فلم يجبهم حسن باشا إلى الصلح إلا بشرط خروجهم من الديار المصرية بعيالهم ونسائهم إلى بلد يختارونها وإلا فالحرب والقتال فلما عادت الرسل بهذا البلاغ اتفقوا جميعاً على الانحدار إلى مصر وإصلاء نار الحرب حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً فانحدروا ووصلت طلائعهم إلى أرض الجيزة وصاروا بين الرقق والجيزة وفرضوا الكلف والمغارم ومؤنة العساكر على أهالى الجيزة فبرز عند

ذلك إسماعيل بيك الكبير وحسن بيك الجداوى بخيامهما إلى ناحية طرا ومنعوا السفن والمعادى كافة وأرسوهم بالجانب الشرقى من النيل كى لا يتمكن جموع إبراهيم بيك من العبور إلى مصر ونودى على جميع طوائف المحمدية بالخروج والاجتماع تحت لواء إسماعيل بيك ومن تأخر عوقب وقبضوا على عدة كبيرة منهم ونهبوا بيوتهم وسجنوهم بقلعة الجبل فخرجوا جميعاً من عساكر ومماليك وأتباع وطلب إسماعيل بيك من تجار المدينة قرضاً للنفقة فاعتذروا فادعى على تجار البن بمبلغ من المال قال هو باقى حساب له يوم كان قابضاً على زمام مشيخة البلد فصالحوه على مبلغ أربعة آلاف ريال وجاء رسول من قبل إبراهيم بيك إلى حسن باشا ينذره بالحرب والقتال ويعلمه بخروج جموع إبراهيم بيك وانحدارهم إلى مصر فتعجب حسن باشا من ذلك ولم يعوّق الرسول بل سرحه ونادى فى عسكره بالتأهب وخرج هو وإسماعيل بيك وحسن بيك الجداوى وجميع الأمراء وساروا إلى نواحى البساتين ثم اجتاز بعض العساكر البحرية النيل إلى انبابة وعملوا هناك متاريس وخنادق وانحاز إبراهيم بيك ومراد بيك وجموعهما إلى ناحية الأهرام بأحمالهم وجعلوا يتربصون الفرص ويتبينون انتفاعها وقد سئمت نفوسهم الحياة على هذا الحال واتفق أنه دخل المحمل والحاج القاهرة فى هذه الأيام بعد أمور وقعت للحجاج فى الطريق يطول شرحها فسار حسن باشا وبعض الأمراء للقائه وتحقق ما جرى على الحجاج فلما علم إبراهيم بيك بتغيب حسن باشا عن القاهرة زحف ليلاً بجموعه على المتاريس التى بانبابة وهجموا عليها هجمة رجل واحد فصدهم أصحاب المتاريس وأطلقوا عليهم المدافع من البحر والبر وتابعوا الرمى من الفجر إلى طلوع الشمس فرجع إبراهيم بيك وأصحابه إلى مواقعهم من غير طائل ثم عادوا بعد ظهر اليوم فردوا على أعقابهم وارتحلوا إلى دهشور وأقاموا بها أياماً فساءت جموعهم وداخلهم الفشل وانسلخ منهم جماعة كثيرة وانحازوا إلى العساكر البحرية فخاف إبراهيم بيك شر العاقبة وجنح إلى إعادة الكلام فى أمر الصلح وكتب يطلب أن تعطى لهم بعض الجهات بالصعيد ليقيموا بها ويتعيشوا منها وينكفوا عن القتال فأجابه حسن باشا إلى ذلك بشرط أن لا يسمح بذلك إلا لجماعة قليلة منهم ويحضر باقى الأمراء والعسكر إلى القاهرة ويقيموا بها فلم يرض إبراهيم بيك بذلك وترفعوا إلى ناحية بنى سويف واستقروا بها فرجعت عنهم عند ذلك عرب الهنادى الذين كانوا معهم وفارقوهم وأخذت أحوالهم فى التأخر وشدد حسن باشا فى تسيير

العساكر إلى الصعيد فساروا في خيل ومدافع وكثير من المعدات وسار خلفهم عابدى باشا ومعه لفيف الأمراء وجاء إلى حسن باشا المدد من عساكر السلطان من قبرس والقرمان وغيرهما فعسكروا فى البساتين ورسم حسن باشا فصنعوا أبراجاً نقالة ومتاريس على أشكال مختلفة وسيرها خلف العساكر ثم وردت الأخبار بعد أيام بارتحال إبراهيم بيك ومن معه من بنى سويف إلى أسيوط وأن قد تخلف عنهم كثير من المماليك والأتباع فى نواحى منية ابن خصيب وغيرها وجاء منهم جماعة إلى القاهرة وحدثوا بأخبارهم وقد انضم جماعة من الأمراء إلى معسكر عابدى باشا طائعين فأمنهم واستبقاهم ولما وصلت العساكر السلطانية إلى أسيوط ترفع إبراهيم بيك وجموعه إلى طحطا وتترسوا بها وتأهبوا للقتال فسارت العساكر خلفهم ثم انقطعت بعد ذلك الأخبار حيناً فخاف حسن باشا وتابع إرسال الرسل لاستطلاع الأخبار ومعرفة ما حل بالعسكر فلم يرجع منهم من يخبر بالخبر وبقى الحال هكذا أياماً ثم قدم رسول ومعه مكتوب من عابدى باشا يخبر بوقوع الحرب فى يوم الجمعة ثامن عشرى ربيع الآخر سنة إحدى ومائتين ناحية الأمير ضرار فكانت الهزيمة على إبراهيم بيك وجموعه بعد أن أبلوا بلاء حسناً جداً وهزموا العساكر السلطانية هزيمتين وهجموا على الحصون والمتاريس والأبراج النقالة هجوم الأسود الضوارى فقتل منهم عدة كبيرة من الأمراء والأجناد والمماليك. قال الراوى: وكانت الحرب بيننا نحو ست ساعات مات فيها من العساكر السلطانية عدة وافرة فلما علم حسن باشا بما ذكر سكن روعه وأمر فأطلقت المدافع من قلعة الجبل نهاراً والحراقات والألعاب النارية ليلاً وطاف المبشرون على بيوت المشايخ والأعيان يبشرونهم بنصر العساكر السلطانية فأتوا وهنئوا حسن باشا بهذا النصر وترفع إبراهيم بيك ومن بقى من جموعه إلى عقبة الهو ثم ساروا منها إلى إبريم والعساكر فى أثرهم تتخطفهم من خلف ثم عادت العساكر إلى إسنا ونزلت بها وكتب عابدى باشا يسأل البقاء بمن معه من العسكر والأمراء بإسنا أو الانحدار إلى مصر فكتب له حسن باشا بالانحدار ومعه إسماعيل بيك الكبير وباقى الأمراء وترك حسن بيك ومحمد بيك المبدول ويحيى بيك بإسنا مع سائر العسكر فانحدر عابدى باشا والأمراء المذكورون إلى مصر فدخلوها فى يوم الأحد حادى عشر رجب وصعد عابدى باشا إلى قلعة الجبل من غير أبهة ولا كبكبة فلم يستقر به المقام حتى جاءت الأخبار منبئة بزحف إبراهيم بيك وجموعه إلى أسوان وأنهم عبروا النيل إلى إسنا فأجلوا عنها من كان بها من العساكر

واحتلـوها وانحدروا إلى جرجـا فارتحل عنهـا من بها من العــساكـر أيضاً ورجـعوا القهقرى فأدهش حسن باشا هذا الخبر وجمع إليه الأمراء وأرباب المناصب وشاورهم فى الأمر فاختلفت كلمتهم وتباينت أهواؤهم ثم استقر رأيهم على أن يخابروهم فى الصلح بشرط أنهم يقـيمون فى البلاد التى كانت بيـد إسماعيل بيك الكبـير وحسن بيك الجداوى وأن يرسلوا إلى مصر أيوب بك الكبير وأيوب بك الصغير وعثمان بيك الأشقـر وعثمـان بيك المرادى ليقيـموا بها رهائن وكـتبوا بذلك مـكاتبات وأرسلوها صحـبة الشيخ سليـمان الفيومـى وبعض الأمراء فقبل إبـراهيم بيك ومراد بيك هذا الصلح وجنحـوا لشروطه فأرسلـوا أيوب بيك الكبيـر رهينة عن المماليك المحـمدية وعثمـان بيك الطنبرجى عن مراد بيك وعـبد الرحمن بيك عن إبراهيم بيك الكـبير فلما تمثل هؤلاء بين يدى حـسن باشا سأل الأمـراء فى أمرهم فقالوا لم يحـضر ممن طلب سوى أيوب بيك الكبير ولا سبيل للصلح إلا بتنفيذ شروطه فكتب حسن باشا بذلك ثانياً إلى إبراهيم بيك ومراد بيك وأرسل إليهما كتخداه فقبلوا بشرط إعطائهما بلاداً زيادة حيث إن ما أعطى إليهما لم يكفهمـا فزادهم حسن باشا خمسة بلاد أخر فلما استقرت القاعدة بينهم على مـا ذكر جاء الطلب إلى حسن باشا بسرعة الرجوع إلى دار السلطنة حيث انـتشب القتال بين الدولة العلية والروس وقـامت الحرب على ساقـها فجـمع المشايخ وسـائر الامراء وعابدى باشـا فى مقره وقـرأ عليهم مـرسوم السلطان بالطلب وطرف من أخبار الحرب مع الروس وتولى الروس على ما بقى من بلاد القرم وشنهم الغارة على كـثير من أملاك السلطنة ثم أبرز مرسومـاً آخر يتضمن العفو عن إبراهيم بيك ومراد بيك من القـتل وبقاء إبراهيم بيك بقنا ومراد بيك بإسنا وعدم التصريح لهـما بالعود إلى مصر أبداً ثم أظهر عزمـه على الركوب والسفر فى يوم الجمعة بعد صلاة الظهر ثانى عشر ذى الحجة من السنة.

فلما كان اليـوم المذكور ركب جميع الأمراء وسـار أرباب المناصب لوداعه فلما تكامل حضـورهم فى مقره أمـر فقبضـوا على جميع الأمـراء الرهائن وسلمهم إلى إسمـاعيل بيك وأمر فـسلموا له أيضـاً عدة مدافع وكـثيراً من آلات الحـرب وقليوناً صغيراً ورتب له جماعة من العساكر السلطانية عددهم ألف وخمسمائة يقيمون بمصر ثم رحل إلى الديار الرومية وأخذ معه الأمراء الرهائن ففرح الناس بارتحاله إذ لم يروا على يديه خيراً وقد ضاقت نفوسهم مما ذاقوه من جوره وعسفه فانفرد إسماعيل بيك بإمارة البـلاد وعلت كلمته ونفذت إشـارته وهابه الأمراء فوزع المناصب العـالية بين

قومه وأتباعه ومماليكه واستوزر محمد أغا البارودى فأعانه على فعل ما فى نفسه فتعقب زلات الناس وآخذ على صغائر الأمور وكبائرها وشدد وهدد فى طلب المغارم وفرضها على الناس على اختلاف أجناسهم فضجوا واستغاثوا واجتمعوا وذهبوا إلى الأزهر وصاحوا من جور هذا النازل وحضر الشيخ العروسى فقاموا فى وجهه وهموا بقفل أبواب الجامع فمنعهم من ذلك فصاحوا عليه وسبوه وسحبوه بينهم إلى جهة رواق الشوام فمنع عنه المجاورون وأدخلوه فى الرواق ودافعوا عنه الناس وأغلقوا عليه الباب ومعه طائفة المتعممين وكتبوا كتابة بذلك إلى إسماعيل بيك وأرسلوها إليه صحبة الشيخ الفيومى فبعث جواباً بالعفو والأمان وعدم المطالبة بتلك النوازل وأنها إنما هى قرض من القادرين على دفعه فلما قرأ عليهم الجواب صاحوا هذه خدعة لا نرضى بها أبداً فركب الشيخ العروسى وحوله هذا الجمع العظيم والغوغاء والمجاورون ولاسيما العميان منهم وطائفة من المجاورين تدفع الناس عن العروسى والعامة يصيحون عليه ويسبونه ويخاطبونه بفحش القول إلى أن وصل إلى باب زويلة فنزل بجامع المؤيد وأرسل إلى إسماعيل بيك يخبره بهذا الحال فحنق إسماعيل بيك وظن أنها مكيدة من الشيخ وأنهم إنما فعلوا ذلك بإغراء منه فأجابه الرسول وحلف له أن الشيخ برىء من ذلك ولا قصد له سوى الخلاص فأرسل لهم بالأمان ومعافاتهم من تلك المطالب فبلغهم الشيخ ذلك وأشار عليهم بالانصراف فأطاعوا وانصرفوا ومضى على ذلك يومان ثم أمر إسماعيل بك فانطلق المطالبون إلى أهل الصاغة والجواهرجية والنحاسين وطالبوهم بالمقرر عليهم فقاموا بوفائه صاغرين ثم طالبوا وكلاء الجلابة وتطرقوا إلى مطالبة بقية الأهالى وأرباب الحرف كافة فكانت اثنتين وسبعين حرفة.

ولم تكن لتستقر الراحة بإسماعيل بيك بعد تلك الخطوب حتى جاءه الخبر بانتقاض إبراهيم بيك ومراد بيك ومن معهما من الأمراء وأنهم زحفوا من أسيوط على منفلوط فهرب من كان بها من الجند والكشاف وجاءوا إلى مصر وأخبروا بذلك فلما تحقق الخبر صعد إسماعيل بيك فى صبح اليوم إلى قلعة الجبل وجمع الأمراء وكبار الوجاقات والمشايخ وقص عليهم الخبر وقال: هل يجوز قتالهم الآن؟ فقال المشايخ: يجوز قال حيث جاز قتالهم فقد وجبت النفقة من الخزينة السلطانية وحيث لا خزينة للسلطان فى هذه الديار فقد وجبت عليكم جميعاً فضاقوا عند سماعهم هذا الكلام واعتذروا وأظهروا العجز وكساد الحال وضيق ذات اليد فلم يقبل منهم

وشدد فى الطلب وهدد وبالغ فى الوعيد فطلبوا مهلة وعادوا إلى الكلام فى هذا الموضوع فاتفقوا على أن يبلغوا دار السلطنة خبر انتقاضهم ورجوعهم إلى العصيان وأن يكتبوا لهم أيضاً إنذاراً وتحذيراً فإن زحفوا على مصر قبل أن يأتى جواب الباب العالى قوتلوا وإلا تربصوا حتى يأتى الجواب. واتفق فى هذه الأثناء حضور والٍ إلى جدة اسمه محمد باشا بعسكر جرار ونزل بالسويس يريد ركوب السفن بعسكره إلى جدة فكتبوا إليه أن يحضر بعسكره إلى القاهرة وأمر إسماعيل بيك بغلق جميع أبواب المدينة إلا باب النصر ووضع على الأبواب طوائف الحراس وضربت المغارم على البلاد من أجل نفقة العسكر فجعلوا على كل بلد مائة دينار نقرة وعشرة عداً ما يتبع ذلك من الكلف وقيدوا بتحصيلها قوماً وجمعوا جميع مماليك وأتباع الأمراء الذين مع إبراهيم بيك وهم الذين تخلفوا بمصر والقاهرة فأخذوا ما وجدوه معهم من خيل وسلاح وأنزلوهم فى سفن إلى الإسكندرية وحبسوهم فى برج هناك وشرع إسماعيل بيك فى إعداد معدات الحرب وجمع الذخيرة والمؤن واجتهد فى سبك القنابل وإتقان المدافع، وكان يباشر ذلك بنفسه فى كل يوم وبينما هو على هذا الحال إذ قدم رسول من قبل إبراهيم بيك ومعه مكتوب للأمراء والمشايخ بمصر يكذب فيه ما عزى إليهم من نقض العهد والخروج ويقول إن الذى انتقض وعمل على خلاف العهد هو حسن باشا القبطان حيث أخذ معه الرهائن وأذاق الذرارى والنساء مضض الضيق فكتبوا له يلاطفونه ويهونون عليه حتى يتمكنوا من جمع العساكر والتأهب للقتال ولم يكتبوا له بما وقع الاتفاق حتى جاءت منه مكاتبة أخرى بعزمه هو ومن معه على القتال ومبارزة الاعداء وجهاً لوجه فجمع الباشا المشايخ والعلماء والأمراء فى ديوانه وقرأ عليهم مكاتبة إبراهيم بيك فوقع فيهم الهرج وكثر القال والقيل فأبرز لهم الباشا فتوى موقعاً عليها من شيخ إسلام دار السلطنة أجاز فيها قتال إبراهيم بيك وجموعه ومحاربتهم ثم طلب منهم أن يفتوه هم كذلك بجواز الحرب والقتال ليدفع أذاهم عن البلاد وأهلها فنزل المشايخ فى الحال من قلعة الجبل إلى الجامع الأزهر واجتمعوا جميعاً ونظموا هذا السؤال:

ما قولكم دام فضلكم فى جماعة أمراء وكشاف تغلبوا على البلاد المصرية وحصل منهم الفساد والإفساد ومنعوا خراج السلطان وأكلوا حقوق الفقراء والحرمين ومنعوا زيارة النبى عليه الصلاة والسلام وقطعوا علوفات الفقراء وجماكى المستخدمين والأنبار وأرسل لهم السلطان يأمرهم وينهاهم فلم يطيعوا ولم يمتثلوا

وكرر عليهم أوامره فلم ينتهوا فعين عليهم عساكره وأخرجهم من البلاد ثم إن نائبه صالحهم وفرض لهم أماكن وعاهدهم على أن لا يتعدوها حقناً للدماء وقطعاً للنزاع وتسكيناً للفتن وأخذ منهم رهائن على ذلك ورجع لمخدومه فعند ذلك تحركوا ثانياً وزحفوا على البلاد وسعوا فى إيقاع الفساد وقطعوا الطرق ونقضوا العهود فهل يجوز لنائب السلطان دفعهم وقتالهم بشرط عدم إزالة الضرر بالضرر أم كيف الحال؟ ثم كتبوا الجواب: يجوز قتالهم ودفعهم وأنه يجب على كل مسلم المساعدة. ورفعوا هذه الفتوى إلى الباشا فكتب الباشا فرماناً بالقتال ونزل أغاة مستحفظان ونادى فى المدينة بقتال إبراهيم بيك ومن معه ونادى على أصحاب الوجاقات بملازمة أبوابهم وعلى العساكر والأجناد بالتأهب للرحيل إلى الصعيد وأنفق إسماعيل بيك على العسكر وكتب الباشا إلى إبراهيم بيك يلزمه الرجوع إلى مقره والخلود إلى السكون وعدم نقض العهد ودفع الأموال المقررة على إقطاعاته وإقطاعات بقية الأمراء وإلا وجب قتالهم فلم يصل إليه هذا الكلام إلا وقد زحف من طحطا إلى منية ابن خصيب وقسم مراد بيك جميع البلاد التى ما بين منية ابن خصيب ومصر على أتباعه ومماليكه والأمراء الذين معه وصمم على الانحدار وإصلاء نار الحرب فلما علم الباشا بذلك فترت همته وضعفت عزيمته وقل اجتهاده فى جمع العساكر وترتيب الأجناد ثم بعثا إلى الباشا ثانيا يقولان: قد تركنا مصر وما فيها ولم نقصد الرجوع إليها وإننا قد اتخذنا هذا الإقليم لنا مقراً فإن قاتلتمونا عليه قاتلناكم إلى النفس الأخير وإن تركتمونا تركناكم ومصر ترتعون فيها وعقدنا معكم صلحاً لا يتخلخل فإن قبلتم ذلك فأرسلوا لنا بعض المشايخ والاختيارية نتفق معهم على ما يحسن السكوت عليه فعقد الباشا الديوان وجمع جميع الأمراء والمشايخ وأرباب الوجاقات وتشاوروا فى الأمر فاتحدت كلمتهم على أن يكتبوا لهما بقبول جميع طلباتهما بحيث إنهما يبعثان من قبلهما أميرين كبيرين فيهما الكفاية لفض النزاع ثم يعودان ومعهما من يلزم من المشايخ والاختيارية فقبل إبراهيم بيك ومراد بيك بذلك بشرط أن يكون لهما من البلاد من أسيوط وما فوق وطلبا إرسال المشايخ فأرسلوا لهما الشيخ محمد الأمير وإسماعيل أفندى الخلوتى ولم يرتحل الشيخ ومن معه من مصر حتى جاء الأرصاد فأخبروا بزحف إبراهيم بيك فى جموعه إلى طحطا وانحداره منها إلى بنى سويف وتأكد الخبر فخاف إسماعيل بيك الكبير وهاله الأمر وأمر بخروج العسكر فأخرجوا الخيام والمدافع إلى ناحية البساتين وعملوا المتاريس ناحية طرا والمعصرة

والجيزة وجمعوا البنائين والفعلة وحفروا الخنادق وبنوا أبراجاً من الحجر وأسواراً لوضع المدافع والمتاريس على جانبى النيل شرقاً وغرباً وكبر خوف بعض الكشاف والعسكر من أصحاب إسماعيل بيك وهربوا إلى حيث مراد بيك فأحاط إسماعيل بيك بدورهم ونهب ما فيها وأخرج نساءهم حاسرات حفايا تشفيا وانتقاماً وعاد الشيخ الأمير ومن معه وأخبروا بانحدار إبراهيم بيك فى أربعين من أصحابه إلى ناحية بنى سويف ولبثه بها وأنه عدل عن الإقامة بالصعيد ويرغب الرجوع إلى مصر فيعيش مع أصحابه ومن هم بها عيشة راضية هادئة وعفا الله عما سلف وإلا فالحرب والقتال فانزعج المشايخ عند سماع هذا الخبر، واجتمعوا وصعدوا إلى قلعة الجبل ودخلوا على الباشا فأدرك إسماعيل بيك ما وراء ذلك من الفشل والخيبة. قال بعض الكتاب: فزور مرسوماً من السلطان بالحث على الخروج وقتال إبراهيم بيك وجموعه فلما استقر بالمشايخ المقام كلموا الباشا فى أمر مجىء إبراهيم بيك فدخل عليهم إسماعيل بيك وأخبرهم بوصول المرسوم السلطانى فأمر به الباشا فقرئ فاختلفت عند ذلك كلمتهم وتفرقت أغراضهم وكادوا يفترقون على غير طائل ثم عادوا فاتفقوا على القتال فنودى فى الحال على العسكر بالخروج وملازمة المتاريس ونودى فى الأجناد كذلك بعد أخذهم النفقة فخرجت طوائفهم وملأت الحصون والمتاريس واشتد الأمر على الناس فتعطلت الأسواق وارتفع الأمن وكثرت مخاوف الطرق خصوصاً خارج أبواب مصر والقاهرة وتعطلت الأسفار وقل الوارد براً وبحراً واستقدم إسماعيل بيك عرب الهنادى فقدموا فى جموع كثيرة وأخلاط عظيمة وانتشروا فى الجهة الغربية من رشيد إلى الجيزة فجعلوا ينهبون البلاد ويأكلون المزروعات ويوقفون السفن فى النيل فيقتلون من بها ويأخذون أحمالها قيل إنهم قتلوا فى يوم واحد من بلدة النجيلة نيفاً وثلاثمائة إنسان وكذلك كانت فعال عرب الشرق والجزيرة ببلاد الجانب الشرقى وجاء المدد من الشام بناء على طلب الباشا فحضر فريق من الأرنؤد وكبيرهم اسمه إسماعيل باشا فخرج إسماعيل بيك للقائهم فدخلوا من باب النصر إلى بولاق واستقروا بها فقدمت لكبيرهم التقادم والهدايا النفيسة من جميع الأمراء ولبثوا على هذا الحال من الوقوف خلف المتاريس أياماً حتى سئمت نفوسهم وانسحب الكثير منهم إلى بيوتهم وكاد يتمزق جمعهم وقد وصل فى هذه الأثناء طائفة من جموع إبراهيم بيك على مقربة من متاريس ناحية طرا وعزموا على أن يدهموا من بالمتاريس فى الثالثة من الليل فسبق العين وأخبر

إسماعيل بيك بذلك فانزعج وركب الأمراء كافة وخرجوا إلى المتاريس وركب الوالى والأغاة وصاروا يفتحون الدروب والحارات ويخرجون الجند من بيوتهم إلى الحصون والأبراج وباتوا ليلتهم فى هرج واضطراب وأصبحوا والمناداة متتابعة على الأهالى والعساكر والجند بالخروج، فلما كان آخر النهار تحقق الخبر بأن إبراهيم بيك وقومه ترفعوا إلى بياضة ثم إلى الصعيد.

وجاء فى هذه الأثناء سفير من قيل قيصر الروس برسالة سرية إلى إبراهيم بيك ومراد بيك ونزل بالإسكندرية فأقام بها أياماً وعلم إسماعيل بيك بخبره فاستقدمه إلى مصر بحيلة لطيفة وأولم له وليمة فاخرة في قصر العينى ثم قبض عليه فى صباح تلك الليلة وصعدوا به إلى قلعة الجبل وحبسه ومنع من الوصل إليه. قال بعض أصحاب التاريخ: وكان سبب قدوم ذلك السفير أنه لما كثر عبث الأمراء المصريين بالبلاد وخرجوا عن طاعة السلطان رغب السلطان فى قطع شأفتهم ومحو أثرهم ولكنه كان فى شاغل عنهم بشن الروس الغارة على بلاده وحدود مملكته فكان كلما همّ بإرسال فريق من عسكره مدداً لمن بمصر منهم قامت الروس وشنت الغارة على أملاكه فيحجم عن تسيير العسكر إلى مصر ويوجه بهم إلى رد الروس وهكذا حتى أعياه الحال وكادت تضعف منه الآمال غير أنه عزم عزماً ثابتاً على أن لا يبقى لهم أثرا وأمر فجيشوا لذلك جيشاً ضخماً للغاية فلما علم قيصر الروس بذلك وكان من مصلحته أن تضطرم نار الحرب بين الفريقين وتطول أيامها أرسل القيصر المشار إليه رسوله إلى إبراهيم بيك ومراد بيك يخبرهما بقصد السلطان ويحثهما على جمع الكلمة والتكاثف وتحصين الحصون ومنع حسن باشا أمير السفن من النزول بعسكره إلى مدينة الإسكندرية أو غيرها من بقية الثغور واجتمع قنصل الروس بإبراهيم بيك قبل حضور أمير سفن السلطان وأخبره بخبره فلم يلتفت إبراهيم بيك يومئذ إلى قوله فجاء أمير السفن المذكور فى عسكره وكان من أمره وما فعله ما مر بيانه، وكان لما اشتد الضيق بإبراهيم بيك ومراد بيك وأصحابهما أرسلا إلى القنصل يطلبانه فسار إليهما سراً فسألاه المدد فوعدهما ورجع إلى الإسكندرية كما حضر وكاتب دولة الروس فى ذلك فأجابته إلى ما سأل وأرسلت إليه عسكراً جراراً وبعض سفن حربية وقدم ذلك السفير ومعه كتاب القيصر إلى الأمراء وكان قد شاع خبر رجوعهم إلى القاهرة فلما وصل السفير بالكتاب وجد الحال على عكس ما سمع فكاتب القيصر بصورة ما رأى وأنه وإن كان الحكم فى البلاد الآن للدولة العثمانية إلا أن بمصر من

الأمراء الذين هم على شاكلة إبراهيم بيك ومراد بيك عدة كثيرة وهم قاهرون للدولة غالبون على أمرها فإذا أمدهم القيصر بعسكره قاموا على الدولة وأخرجوها من البلاد وأذهبوا سلطتها فكتب القيصر إلى الأمراء بمصر يقول ما نصه : أيها الأمراء قد بلغنا أن عبد الحميد الملك الغادر الخائن يريد بكم شراً ويسعى فى إيقاع الفتن بينكم رجاء أن يقتل بعضكم بعضاً ثم لا يبقى على من بقى منكم ويملك بلادكم ويفعل بها ما فعل بغيرها من البلاد التى دمرها بظلمه وجوره فتيقظوا لأنفسكم واطرحوا عنكم الخلاف واطردوا من يأتى إليكم من الترك وارفعوا على حصونكم وقلاعكم رايتنا واختاروا لكم رؤساء منكم وحصنوا ثغوركم وامنعوا من يصل إليكم من هذه الأمة إلا من أتى للرزق ولا تهابوه فنحن نكفيكم مؤنته وقلدوا من قبلكم ولاة وعمالاً بالديار الشامية كما فعل ملوك مصر من قبلكم ويكون لنا الأمر ببلاد الساحل والواصل لكم كذا وكذا سفينة بها كذا وكذا من العسكر والمقاتلين وعندنا من المال والرجال ما تطلبون وزيادة على ما تظنون اهـ.

وجاء السفير بالخطاب ونزل بالاسكندرية وقيل بدمياط وأنفذ الخبر سراً بوصوله وطلب الحضور إلى القاهرة بنفسه فأعلم إسماعيل بيك الباشا بخبره سراً وأرسلوا إليه بالحضور فلما وصل إلى شلقان خرج إليه إسماعيل بيك فى تطريدة كأنه لم يشعر بمقدمه وكأنه على العهد معه وأعد له منزلاً ببولاق وأنزله به ليلاً ثم اجتمع به ومعه على بيك وحسن بيك ورضوان بيك وكأنهم هم زعماء العصابة وقرءوا المكاتبة بينهم ولم يتموا قراءتها حتى جاءهم جماعة من أتباع الباشا فى طلب السفير وكان ذلك بإشارة خفية بينهم وبين الباشا فركبوا معه إلى القصر العينى وأرسل الباشا فى تلك الليلة الأمر بحضور أهل الديوان فى صبحها فلما تكامل حضورهم أخرج الباشا تلك المكاتبة فقرئت عليهم. قال الراوى لهذه الحكاية: فشخصت عند ذلك الأبصار ومدت الأعناق وتفرقت الأقوال وتباينت الأغراض ثم عادوا واتفقوا على أن يبعثوا بها إلى دار السلطنة ففعلوا ووضعوا السفير المذكور بمكان فى قلعة الجبل وأسرعوا فى تسيير بعض سفن الحرب إلى الصعيد للتشديد فى قتال إبراهيم بيك ومن معه. وكانت دولة الروس لا تنكف عن قتال الدولة العثمانية وتحريض جميع الإيالات التابعة لها على الخروج وشق عصا الطاعة فإنها بعد أن سيرت سفنها إلى مصر وكتبت إلى إبراهيم بيك ومراد بيك بما كتبته جعلت تدس الدسائس وتلقى الفتن فى بلاد القرم لتتمكن من احتلالها ووضع اليد عليها بحجة منع القلاقل

والاضطرابات منها ومازالت على هذا الحال والدولة فى شاغل عنها حتى قام فريق من أهل القرم على أميرهم دولتكراى وخلعوه وأقاموا مكانه شاهين كراى فخالفهم فى ذلك الفريق الثانى وأبوا تعيينه فاشتد الخلاف بين الفريقين وقامت الفتنة وكان كاترينة قيصرة الروس قد أقامت على حدود القرم زهاء سبعين ألف جندى وجعلتهم على قدم الأهبة والاستعداد فلما بدأت الوحشة تقع بين الحزبين أوعزت إلى مقدم ذلك الجيش فدخل بلاد القرم بلا ممانع ولا معارض فتم لدولة الروس وقيصرتها ما كانت تتمناه وأصبحت وهى مالكة لجميع سواحل البحر الأسود من الجهة الشمالية فاستعظم السلطان هذا الأمر وأكبره وهمّ بالحرب وعمد إلى إعداد معدات القتال وأكثر من تجنيد الجند وتجهيز سفن الحرب فأشار عليه ملك الفرنسيس يومئذ بالتربص وعدم الاندفاع إلى حرب لا تحمد عاقبتها وأعلمه بأن بين كاترينة وأمبراطور النمسا معاهدة سرية على قتاله وتخريب مملكته ومحو أثرها من البسيطة فنظر السلطان فلم ير له قبلاً على فتح أبواب هذه الحرب فجنح إلى مشورة ملك الفرنسيس وغض الطرف عما فعلته الروس بالقرم بل واعترف لكاترينة بتملكها على تلك الإيالات العظيمة فلم ترض كاترينة من السلطان بهذا الإذعان والسكوت وقد تحققت عجزه وتقاعده عن الحرب فعمدت هى ويوسف الثانى أمبراطور النمسا إلى إيقاد نار الفتنة فى إيالتى الفلاخ والبغدان وبلاد اليونان وتوغير صدور مسيحيى تلك الإيالات على الدولة فأحس السلطان بما وراء ذلك وعلم أنهما إنما يريدان الحرب على كل حال فعاجلهما بها وسير إلى سفير الروس فى دار السلطنة يطلب منه تقرير أمور لا ترضاها كاترينة منها جعل الحق لمأمورى السلطان فى تفتيش جميع سفن الروس التجارية التى تمر من بوغاز القسطنطينية فلم يقبل السفير شيئاً من ذلك ألبتة فأمر السلطان عند ذلك فقبضوا عليه وسجنوه وساق العسكر فانتشبت الحرب بين الفريقين وخاف إمبراطور النمسا من ظفر العساكر السلطانية بالروس فسير إلى مدينة بلغراد جيشاً عظيماً للاستيلاء عليها وإرباك العساكر السلطانية فلم يفلح وعادت عساكره خاسرة وانتصرت عليهم العساكر السلطانية نصرة عظيمة وأدركت السلطان عبد الحميد منيته وهو على قدم القتال ثانى عشرى رجب سنة اثنتين ومائتين وألف هجرية أى سنة تسع وثمانين وسبعمائة وألف ميلادية فكانت سلطنته زهاء ست عشرة سنة وأشهراً فتولى السلطنة بعده ابن أخيه السلطان سليم الثالث ابن مصطفى.

(الفصل الحادى والعشرون)

(فى سلطنة السلطان سليم الثالث

ابن السلطان مصطفى)

ثم قام بالأمر بعد السلطان عبد الحميد ابن أخيه السلطان سليم الثالث ابن السلطان مصطفى بويع له بالملك فى اليوم الذى مات فيه السلطان عبد الحميد ثانى عشرى رجب سنة اثنتين ومائتين وألف هجرية أى سنة تسع وثمانين وسبعمائة وألف ميلادية فتولى السلطنة وهى محفوفة بصنوف المكاره والعدوّ يتهددها بتمزيق شملها ويعمل على إبادتها من عالم الوجود فاشتدت لذلك عزيمة السلطان وجعل يعبى الجيوش ويعد المعدات ويكثر من المؤن والذخائر ويستحث العساكر على القتال ودفع العدو عن البلاد وكانت العساكر قد ملت وكرهت الحرب فساقها فالتقوا مع الروس وعساكر النمسا معا واقتتلوا قتالاً عنيفاً للغاية دام زهاء ستين يوما ثم انكشف عن هزيمة العساكر السلطانية واستيلاء الروس على أكثر مدن الفلاخ والبغدان وبسارابيا واحتلوا مدينة بندر الشهيرة واحتل النمساويون بلغراد وفتحوا بلاد الصرب وغيرها ثم سارت بعد ذلك العساكر الروسية إلى مدينة إسماعيل ونزلوا عليها وقاتلوها وكان بها الغازى حسن باشا بعسكر عظيم فقاتلوا عنها واشتد القتال بين الفريقين حتى فتحها الروس عنوة وأباحها قائدهم فأعمل فيها العسكر الذبح والنهب وأفحشوا فى ذلك جدا وجاء الخبر بما وقع فى المدينة المذكورة إلى دار السلطنة فهاج الناس وماجوا وقاموا على ساق وقدم ونادوا بالويل والثبور على الغازى حسن باشا وطلبوا قتله أخذا بثأر تلك النفوس البريئة فقتل واشتدت الحال على السلطان شدة بالغة وهاله اتحاد الروس من النمساويين على قتاله وتحقق أن بقاء الحال على ذلك يدعو إلى تمزيق مملكته وتمكن العدوّ منها فبالغ فى حشد الجيوش وإعداد معدات الحرب واستنهاض همم كبار الجند وأمناء الحرب وبقى الحال على ذلك أياماً حتى أتاح الله من الأسباب ما أوقف رحى القتال وشغل النمساويين بموت إمبراطورهم فتوسطت عند ذلك دولتا الإنكليز وبروسيا بين المتحاربين فى أمر الصلح فتم على قاعدة تقررت لذلك بعد أخذ ورد قد أضربنا عن إيراد تفصيلهما خوف الإطالة. وزاد اجتهاد إسماعيل بيك الكبير بعد القبض على سفير الروس وسجنه فى قلعة الجبل

فى جمع العسكر ومعدات الحرب وأنشأ فى طرا قلعة على ضفة النيل وجعل بها مساكن عديدة ومخازن وحواصل وعمل الأبراج والمتاريس والأبنية ممتدة من قلعة الجبل إلى سفحه وأخرج إليها المهمات والأدوات وغير ذلك وأرسل إلى دار السلطنة يطلب المدد. وارتحل إسماعيل باشا مقدم العساكر السلطانية بعسكره من بولاق إلى الصعيد فتربص إبراهيم بيك وجموعه فى بلدة صول وعملوا بها سبعة متاريس فلما وصلت سفن عسكر السلطان إلى المتراس الأول ورست قباله وأطلقت مدافعها تباعا فلم تصل إلى من بالمتاريس فأطلقت عليها المتاريس ووالت الرمى بالقنابل فأحرقت بعضها حتى كادت تغرق بمن بقى فيها فخرج فريق من العساكر الذين بالسفن يريدون الهجوم على ذلك المتراس فدهمهم كمين من أصحاب إبراهيم بيك وأعمل فيهم القتل فقتل منهم خلق كثير وهرب من بقى إلى السفن فأخذ أصحاب إبراهيم بيك رؤوس القتلى ورفعوها على الرماح ليراها من بالسفن ومع ذلك فإنهم أرسلوا إلى الباشا فى طلب الصلح فلما جنح إليه الباشا ومن معه من الأمراء عادوا فتعللوا ولم يعطوا الرهائن فكبر هذا الأمر على الباشا وشدد على مقدم الجيوش السلطانية بسرعة القتال وقطع شأفة هؤلاء الخوارج فمال القائد المذكور بعسكره إلى ناحية صول وأخذ من فى السفن مما بقى من العسكر وحملوا على إبراهيم بيك وجموعه فى يوم الجمعة ثامن صفر من السنة أى سنة ثلاث ومائتين حملة رجل واحد فأجلوهم عن بعض المتاريس وقيل بل هم الذين أخلوا لهم فلما صارت العساكر السلطانية خلف ما أخذوه من تلك المتاريس خرج عليهم كمين من الخلف وأعمل السيف فى أقفيتهم فقتل منهم مقتلة عظيمة فتحصنت العساكر واشتبك القتال بين الفريقين يومى السبت والأحد وإطلاق المدافع متتابع ليلا ونهارا فكانت الحرب بينهم سجالا وكان كل من الفريقين يعمل الحيل وينصب الشباك ويكمن ليلا فيجدون الأرصاد والعيون التى لا تغفل وكثر الموات فى الفريقين وانفصلوا على غير طائل وقدم المصابون إلى القاهرة فانزعج لقدومهم الناس وخافوا عاقبة الهزيمة وتمكن إبراهيم بيك وأصحابه من مستقرهم وتربصوا مرقبة الأحوال. واحتاجت العساكر السلطانية إلى النفقة فطلبوها من إسماعيل بيك فقررها على البلاد وضيق على أهلها فى جبايتها وعمل لها ديوانا فى بيت على بيك الدفتردار فضج الناس واستغاثوا بمشايخ الجامع الأزهر ولا محيص فلما علم إبراهيم بيك بإلحاح العساكر السلطانية فى طلب النفقة واشتغال إسماعيل بيك بجمعها أرسل من قبله رسولا إلى الباشا

يكلمه فى أمر الصلح وقد أعيا عابدى باشا هذا الحال فعقد لذلك الديوان وجمع فيه جميع الأمراء والمشايخ واستحضر بينهم رسول إبراهيم بيك وسأله عما يطلبه إبراهيم بيك وأصحابه فقال إنهم يطلبون أن يكون لهم من أسيوط إلى الصعيد الأعلى شرقا وغربا بشرط أن يقوموا بدفع الأموال الأميرية والغلال وأن يطلقوا سراح السفن والمسافرين بالغلال والأسباب وأنتم لا تمنعون عنهم الواردين بالاحتياجات إلا ما كان من آلات الحرب أو معدات القتال وبعد أن يتقرر الصلح على هذه القاعدة يعرض منكم ومنهم إلى الدولة وتنتظرون ما يكون فإن جاء الجواب بالعفو والقبول أو تعيين مكان آخر لإقامتهم فلا يجادلوا ولا ينقضوا بشرط أن يطلعوا على ذات الأمر الذى يرد بذلك فوافق الجميع على هذه الطلبات وكتبوا بها جوابا وسيروا به الرسول وآخرين معه. ووردت الأخبار فى هذه الأثناء بخلع عابدى باشا عن ولاية مصر وتولية إسماعيل بيك كتخدا حسن باشا أمير سفن البحر وفاض الخبر بذلك فى مصر والقاهرة وسائر المدن فلما وصل المبعوثون إلى إبراهيم بيك ومعهم المكاتبة على قاعدة ما وقع الاتفاق عليه إقرارًا للصلح انتقض وقال: لسنا على ثقة من نجاحنا مع عابدى باشا والاعتماد على صلحه وقد بلغنا عزله عن ولاية البلاد فلا نتقدم إلى عقد الصلح معه إلا إذا أتاه فرمان من السلطان بتأييد ولايته أو أننا نتربص حتى يتولى الأمر غيره ثم كتب جوابا بذلك وسلمه لمن جاءه من قبل عابدى باشا فغضب عابدى باشا وكاد يتميز من الغيظ وجمع إليه المشايخ والعلماء وقاضى القضاة والأمراء وأطلعهم على الجواب فتحيروا فى أمرهم وقالوا لابد من استمرار القتال حتى يرجعوا أو يموتوا عن آخرهم. فقال الباشا: قد عيل صبرى وفرغ تدبيرى فلم يبق عندى إلا أن أقبض على جميع نسائهم وأسكنهم فى الوكائل وآخذ جميع ما فى بيوتهم وأبيعه وأنفقه على العسكر وأكتب لهم بذلك وتوقعوا جميعكم على ما أكتبه فإن خالفتمونى فأنا تارك لكم البلاد وما فيها وأرحل إلى دار السلطنة فأعيش فيها هادئا مطمئنا ثم أخذته رجفة فقالوا جميعا لا نخالف لك كلمة فافعل ما أنت فاعل فكتبوا إلى إبراهيم بيك بذلك ووقع الباشا والعلماء والمشايخ والأمراء كافة على الكتابة ونادى الوالى والأغا بمصر والقاهرة بأن من كان عنده وديعة لأحد من أتباع إبراهيم بيك أو جميع من هم معه وأتباعهم ولم يردها لأصحابها عاجلا قتل من غير معاودة وكان إبراهيم بيك قد عمل جسرا من السفن ممتدا من الجانب الشرقى من النيل إلى الجانب الغربى وعبروا جميعا عليه إلى

الجانب الغربى فلما وصل إليه الجواب بما ذكر خشى العاقبة وعلم ما سيلحق بالنساء والذرارى فأرسل رسله إلى الباشا بارتحاله مع من هم معه إلى الصعيد الأعلى وعدم انحدارهم ألبتة إلى مصر وأنهم لا يأنفون من عقد الصلح على ما رسم به عابدى باشا والمشايخ فعاد الباشا وعقد لذلك ديوانه فأبلغت الرسل أرباب الديوان رسالتهم فرضوا بها وضمن الباشا غائلة إبراهيم بيك وأصحابه وضمن المشايخ غائلة إسماعيل بيك الكبير وحرروا محضرا بذلك ووقعوا عليه جميعا وأرسلوه صحبة مقدم الاختيارية وظهرت علامات الطاعة من إبراهيم بيك ومن معه إذ كسروا ذلك الجسر وسرحوا للسفن بالانحدار فكثر توارد الغلال وغيرها وهبطت الأسعار وزال الغلاء واطمأن الفقراء.

(مطلب)

عزل عابدي باشا وولاية إسماعيل باشا

وقدم فى هذه الأثناء ورسول من القسطنطينية يحمل ثلاثة كتب سلطانية فأصعده الباشا إلى قلعة الجبل وأمر فعقدوا الديوان وحضره المشايخ والعلماء والأمراء والوجهاء وقرئت تلك الكتب فكان الأول منها بتقرير عابدى باشا واليا على مصر سنة ثلاث ومائتين والثانى بلزوم مقاتلة إبراهيم بيك ومراد بيك حتى يرجعا إلى الطاعة أو يموتا، والثالث بطلب تسيير سفير الروس الذى كان مسجونا بقلعة الجبل إلى دار السلطنة فلما أتموا قراءة تلك الكتب أطلقت المدافع من قصر العينى وقلعة الجبل ومراكب البحر ببولاق وذاع الخبر بذلك شرقا وغربا وأصبح وقد طلع الباشا إلى القلعة واستقر بها فجاء إليه المهنئون وأنزل سفير الروس وسيره إلى الديار الرومية وبالغ فى التأهب والاستعداد لقتال إبراهيم بيك ومراد بيك حتى يرجعا إلى الطاعة أو أنهما ومن معهما يموتون عن آخرهم فلم يتم له بعض الاستعداد حتى جاءه الأمر بالعزل وولاية إسماعيل بيك ووصل رسول دار السلطنة فى العاشر من جمادى الآخرة عن طريق دمياط فنزل عابدى باشا من يومه إلى قصر العينى ولبث به أياما، ثم برز بخيامه إلى بركة الحاج وسار منها إلى ديار بكر وسار معه إسماعيل باشا مقدم العساكر السلطانية التى كانت فى قتال إبراهيم بيك .

ولما استقر بإسماعيل باشا الوالى الجديد منصب الولاية أرسل إلى إبراهيم بيك يطلب الغلال والمال حكم قاعدة الاتفاق فلم يرد عليه جوابا ولم يرسل شيئا من

ذلك فخاف إسماعيل بيك الكبير من انتقاض إبراهيم بيك ونزوله إلى القاهرة بخيله ورجاله وهى خالية من العسكر والمرابطين فأرسل إلى دار السلطنة فى طلب المدد فلم يكن بأسرع من أن أرسلوا إليه أخلاطا من الأرنؤد وأهل الأناضول ممن لا كسب له وتراكم حضورهم فى هيآت مختلفة وأشكال متباينة فأنزلهم فى طرا ومصر القديمة والجيزة وبولاق وأجرى عليهم النفقات وجلب له النخاسون المماليك فاشترى منهم عدة كبيرة وخصهم بالغربية كل ذلك للحرص على مقاومة عدوه وتابع إرسال الهدايا النفيسة والأموال والتحف والخيول العربية وأنواع الأقمشة الفاخرة وغير ذلك إلى دار السلطنة قصد استمالة جانب الدولة إليه وتقربا من رجال الحل والعقد بها وتحريضا لهم على بغض إبراهيم بيك ومن معه ومع ذلك فلم يكن إبراهيم لينكف عن بث العيون والأرصاد حول إسماعيل بيك ومن معه ودس الدسائس واستمالة كل من يقدر على استمالته ومازال حتى تمكن بواسطة المعلم يوسف كساب الشامى معلم الجمارك يومئذ من الاتفاق مع أغاة جماعة الأرنؤد المدعو صالح أغا على أن صالحا المذكور يسلم إلى إبراهيم بيك جميع السفن السلطانية والقلاع التى بناحية طرا والجيزة نظير مبلغ من المال التزم به المعلم يوسف وكتب على نفسه تمسكا به فعلم إسماعيل بيك بخبر ذلك فقبض على المعلم يوسف وسأله فاعترف فأمر به فألقوه فى النيل فمات غرقا وأبعد صالح أغا عن ديار مصر وقيل بل قتله خفية فخابت بذلك مساعى إبراهيم بيك ورأى وجوب الترفع ومراقبة الفرص وأن لا شىء أنجح من المطاولة كى تتفرق جموع إسماعيل بيك وأخلاطه الذين جاء بهم من البلاد الرومية، فلما طال لبث أولئك الأخلاط على هذا الحال بطروا وزاد عسفهم بأهالى بولاق ومصر القديمة والجيزة فضج الناس وملت نفوسهم وضجروا. وكان الأغا الوالى يخشى من إخلاد أهل الحسينية إلى الفتنة والخروج عند أقل إشارة فكان يكثر التعدى عليهم بالضرب والحبس وأخذ الأموال ونهب البيوت لأقل سبب إخضاعا لهم وتذليلا واتفق أنه قبض يوما على شيخ طائفة البيومية وكان له حرمة وافرة بين أهل هذه الخطة فثار طوائفه على أتباع الوالى ومنعوه منهم وتجمعوا واجتمع عليهم خلق كثير من تلك النواحى وساروا وهم فى ضجة عظيمة وأمامهم جماعة يضربون بالطبول إلى أن وصلوا إلى الجامع الأزهر وقد أغلقوا الأسواق والدكاكين وصعد جماعة منهم على المنارات يضجون ويسبون إسماعيل بيك ومن معه وهيجوا من بالجامع من المدرسين فقام معهم العميان وهموا بالخروج ليفسدوا فى الشوارع

والأسواق فمنعهم المشايخ وركب الشيخ العروسى واجتمع بإسماعيل بيك وأخبره بخبر العامة وما يفعله الوالى بهم فاعتذر وقال: لو كان الوالى من أتباعى لخلعته الساعة إرضاء للعامة ولكنه تابع حسن بيك الجداوى وأرسل إلى حسن بيك يخبره بما وقع ويطلب خلع الوالى فلم يرض الجداوى وقال إن كان مراده الرفق بالرعية فليخلع أولا الأغا تابعه ويخلع رضوان كتخدا المجنون من قلعة الجبل ويخرج مصطفى كاشف من قلعة طرا ويصرف العساكر القليونجية والأرنؤد الذين عاثوا فى الأرض وملئوها فسادا قال ذلك وخرج إلى العادلية مغضبا وكان الوالى المذكور يركب فى كل يوم ويمر فى شوارع المدينة بالقاهرة ومصر ليرى العامة أنه أكبر من أن يخشاهم فوقف له العامة بالطرق واجتمع منهم خلق كثير ووقعت بينهم وبينه مقتلة قتل وجرح فيها كثير واشتد الهرج وكثر اجتماع العامة جماعات يحملون القرابين والعصى والمساوق وأمام كل جماعة منهم الطبول فركب المشايخ كافة وساروا إلى بيت البكرى فحضر إليهم إسماعيل بيك وطيب خاطرهم والتزم لهم بعزل الوالى ومر الوالى فى ذلك الوقت على بيت البكرى فمنعه العامة وصاحوا فى وجهه وكادوا يبطشون به فاستل سيفه وهجم عليهم وشق من وسطهم وذهب فى طريقه فزاد الحال بالعامة وكثرت غوغاء الناس وعلت الضوضاء وسار جماعة منهم يأمرون الناس بغلق الحوانيت واجتمع آخرون منهم بالأزهر يضجون وينادون بالويل والثبور على الوالى وبقى الحال على ذلك ثلاثة أيام فاجتمع إسماعيل بيك ببقية الأمراء وشاورهم فى أمر العامة فاتفقوا على خلع الوالى والأغا معا ونادوا فى الناس بذلك فهلل العامة وانصرفوا وانقضت الفتنة. وعقب هذا الحادث بيومين غامت السماء غيما عظيما مطبقا وسحت الأمطار كأفواه القرب مع رعد شديد الصوت وبرق هائل متتابع متصل يخطف الأبصار واستمر ذلك ليلة الجمعة ويوم الجمعة والأمطار لا تنقطع حتى سقطت الدور القديمة فى عدة جهات ومات من كان بها من السكان وانحدر السيل من الجبل شديداً حتى ملأ الصحراء وخارج باب النصر فهدمت المقابر وخسفت وانحدر السيل من باب النصر فدخل المدينة وامتلأت الوكائل بالمياه وكذلك جامع الحاكم وسقطت عدة بيوت من الحسينية، وكان ذلك أمرا مريعا جدا فظن الناس أنها تشقيل ونقمة من قبل الله سبحانه وتعالى وإنذار للأمراء على ما فعله الوالى بشيخ البيومية وما يفعلونه فى كل يوم بخلق الله وتكلموا كثيرا فى هذا الأمر حتى كاد الأمراء يعتقدونه ولم تكد تجف الأرض من مياه ذلك السيل حتى ظهر

الطاعون واشتد وكثر الموات فى الأمراء والصناجق وأرباب الوجاقات والمماليك فصار الظن عند الناس يقينا واشتد الطاعون شدة لم يسبق لها مثيل وكثر الموات كثرة بالغة فمات ما لا يكاد يدخل تحت الحصر من الأطفال والشبان والجوارى والعبيد والمماليك والأجناد ومن أمراء الألوف نحو الاثنى عشر أميرا ومات إسماعيل بيك الكبير شيخ البلد المشار إليه فكان لموته ضجة ورجة ووقع الموات أيضا فى طوائف العسكر الذين ببولاق ومصر القديمة والجيزة وعلى الخصوص منهم القليونجية والأرنؤد فكانوا يحفرون الحفر بجانب أبى هريرة ويلقون الأموات فيها بلا غسل ولا كفن وكان يخرج من البيوتات الكبيرة فى جنازة واحدة الخمسة أو الستة نعوش معا لكثرة الموات وقيل العشرة أيضا وكثر تزاحم الناس على الحوانيت لأخذ المغسلين والمغسلات والنعوش لنقل الأموات واشتد الخوف بالناس شدة عظيمة وندر جدا من كان يصاب بالطاعون ولا يموت وندر ظهور الطعن فى الأبدان ولم يكن يحم المصاب كما هى عادة الطاعون بل يكون الإنسان جالسا فيرتعش ويبرد فيدثر فلا يفيق إلا مخلطا ويموت من نهاره أو ثانى يوم وربما زاد أو نقص واستمر الحال هكذا شهرين إلى أوائل رمضان سنة خمس ومائة وألف ثم ارتفع ولم يقع بعد ذلك إلا قليلا نادرا وكان ختام انفضاضه موت الأغا والوالى فولوا غيرهما فماتا بعد ثلاثة أيام فولوا خلافهما فماتا أيضا فكان ذلك من غريب الاتفاق وأعجب ما سمع به.

(مطلب)

عزل إسماعيل باشا وولاية محمد عزت باشا

ولما مات إسماعيل بيك الكبير تنازع الرياسة حسن بيك الجداوى وعلى بيك الدفتردار ووقع بينهما نزاع طويل الأهداب واشتد بينهما الخلاف ثم عادا فاتفقا بعد كلام طويل على تعيين عثمان بيك طبل تابع إسماعيل بيك المذكور فى مشيخة البلد وإعطائه دار سيده ففعلوا ذلك. قال بعض كتاب الأخبار: وكأنهم تابوا عن إيذاء الرعية وكفوا عن إحداث المغارم والكلف وقصرت أيديهم عن نهب البيوتات العامرة بعد الذى رأوه من فعل الطاعون بهم وفتكه فيهم فنادوا بإبطال جميع ذلك وطاف المنادون أياما متوالية فاطمأنت قلوب الرعية قليلا وقالوا أفلح إن صدق. وورد الخبر عقب ذلك بقليل بخلع إسماعيل باشا والوالى عن مصر وتولية محمد عزت باشا الذى كان واليا على جدة فنزل إسماعيل باشا من قلعة الجبل إلى قصر

العينى وأنزل جميع أمتعته وتأهب للسفر إلى موره حيث تقلد منصب ولايتها فمنعه الأمراء من ذلك حتى يحضر محمد باشا عزت ويرى فيما له وما عليه للخزينة فأبى إسماعيل باشا إلا السفر فحجروا عليه بقصر العينى ووقف الحراس على أبوابه أياما حتى حضر محمد باشا عزت إلى القاهرة فى شوّال من السنة أى سنة خمس ومائتين ورست سفينته على بولاق فنزل لاستقباله الأمراء كافة وركب معهم إلى قصر العينى ثم ركب فى يوم الاثنين رابع الشهر وصعد إلى قلعة الجبل فلما استقر به المنصب نظر فى حساب إسماعيل باشا واستخلص ما كان فى ذمته ثم أنزل متاعه بالسفن ولم تقلع من ساحل بولاق حتى ورد الخبر بإعادة محاسبته على مال الخزينة واستخلاص ما أخذه منها فعوّقوه وأوقفوا سفنه حتى استصفوا ما عليه وسافر بعد ذلك بأيام قليلة. ولم يتمكن محمد عزت باشا من التصرف حتى جاءه الخبر بتحرك إبراهيم بيك الكبير ومراد بيك للقتال وعقدهما النية على الانحدار بمن معهما إلى مصر ودخولها إن طوعا وإن كرها وقد تحقق الأمر إذ انحدر مراد بيك من الصعيد إلى منية ابن خصيب وانتشرت جموعه فى المقدمة وعبر بعضهم النيل إلى الشرق ووصلت طلائعهم إلى العياط وتربص إبراهيم بيك بمنفلوط ينتظر ارتحال الحاج من القاهرة فينحدر إليها عاجلا بجموعه ومن معه من الأمراء فأخذ محمد عزت باشا و الأمراء بمصر يتأهبون للقتال وأرسلوا على بيك إلى طرا وآخر إلى الجيزة وأخذوا فى الاهتمام وحفروا خندقا من النيل إلى المتاريس وبالغوا فى التأهب وأكثروا من الحيطة فبينما هم على هذا الحال من الاهتمام والأرصاد تنقل لهم أخبار مراد بيك وأصحابه إذ جاء عمر أفندى مكرم الأسيوطى بكتاب من إبراهيم بيك خطابا إلى شيخ البلد والمشايخ والباشا فعقد الباشا ديوانه وقرئ الكتاب فكان حاصل ما فيه رغبتهم فى العودة إلى مصر بعد هذه الغربة الطويلة والوعد منهم بملازمة الهدء والسكينة وعدم الخروج عن حد الطاعة وأن قد جاءهم مرسوم من دار السلطنة على يد رسول مخصوص بالعفو عما سلف وأن المشايخ يضمنون حسن سيرهم واستقامة أحوالهم فلما أتموا قراءة الكتاب سأل الباشا المشايخ ماذا تقولون فى هذا الطلب؟ فقال الشيخ العروسى: أصلح الله الأمير إن كان التفاقم بينهم وبين أمرائنا المصريين الموجودين بين ظهرانينا فإننا نترجى عندهم وإن كان ذلك بينهم وبين السلطان فالأمر لنائب مولانا السلطان فبعد جدال وقيل وقال اتفقوا جميعا على أن يكتبوا جوابا محصله، إن طالب الصلح لابد أن يقدم الرسالة

بذلك قبل أن يتحرك من مكانه وذكرتم أنكم تائبون وقد تقدم منكم القول بالتوبة فلم نر لها أثرا على أن شرط التوبة رد المظالم وعدم إضرار خلق الله تعالى وأنتم لم تفعلوا ذلك ولم تدفعوا ما عليكم من مال الميرى فى هذه السنة فإن كانت نواياكم ثابتة على الصلح وجب أن ترجعوا إلى أماكنكم وترسلوا المال والغلال وسنطلب لكم من مولانا السلطان العفو فإن عفا عدتم إلى دياركم والإ فلا. ووقع جميع من حضر على هذا الجواب وبعثوا به على يد السيد عمر ثم قرروا بعد ذلك نفى وتبعيد جميع أتباع إبراهيم بيك ومراد بيك الذين بالقاهرة ومصر فأبعدوهم ووضعوا على أبواب المدينة الحراس والمرابطين ونادوا على العساكر والأجناد بالخروج إلى طرا وملازمة المتاريس والخنادق وأشار الأمراء على الباشا بالنزول من القلعة إلى طرا وملازمة المتاريس فنزل وخرج إليها وخرج أيضا جميع الأمراء وطاف الأغا والوالى وهما يناديان على الجند بأن لا يتخلفوا وتسلم المرابطون بقلعة الجبل أبوابها وشددوا المراقبة وأتى الجواسيس فأخبروا أن مراد بيك وأصحابه على عزم الانحدار إلى العادلية من خلف المقطم فأرسل الباشا بعض الأمراء إلى العادلية فعسكروا بها وأرسل أيضا إلى عرب العائد فجاءوا إلى العادلية ونزلوا بها فلما كان الليل تحول الباشا وجميع الأمراء إلى ناحية العادلية وأخذوا بعض المدافع وآلات الحرب والمؤنة وعملوا فيها المتاريس والخنادق فلم يكادوا يفرغون من عملهم حتى شاهدوا إبراهيم بيك ومراد بيك وأصحابهما منحدرين من الجبل إلى العادلية فى أسوإ حال فهم الأمراء المصريون بالهجوم عليهم وأخذهم فى حالة التعب فمنعهم عثمان بيك أبو طبل من ذلك وثبط هممهم وقد كان على عهد مع إبراهيم بيك ومراد بيك بحضورهم فى هذا الحين ثم أمر فرجعت جميع آلات الحرب والذخيرة إلى القاهرة ولبثوا واقفين على ظهور الخيل من غير أن يبدوا حراكا فتمنع إبراهيم بيك وقومه وترفعوا عن مواقع المتاريس ونزلوا عند سبيل علام للراحة حتى يتكامل حضورهم ثم نصبوا خيامهم واستراحوا إلى عصر اليوم كل ذلك وعثمان بيك والباشا ومن معهما لا يبدون إشارة وركب ممن كانوا مع الباشا مصطفى كاشف كتخدا على بيك الذى هو مملوك محمد بيك الألفى وهو أحد الذين كانوا مع إبراهيم الكبير وأخذ معه خمسة مماليك وانحاز إلى أستاذه بمعسكر إبراهيم بيك وركب محمد بيك المبدول أيضا وانحاز بأتباعه إلى أستاذه إبراهيم بيك وكذلك فعل قاسم بيك فانحاز إلى مراد بيك الكبير وكذلك مصطفى كاشف الغزاوى الذى هوأخو عثمان بيك طبل شيخ

البلد واستوثق لأخيه فكتب إليه إبراهيم بيك بالحضور فلم يتمكن من الذهاب إليه إلا بعد العشاء الأخيرة حتى انفرد عن على بيك وحسن بيك الجداوى فلما فعل ذلك وفارقهما علما حقيقة الخبر وأحسا بأنهما قد وقعا فى مخالب العطب فأغمى على علىّ بيك ثم أفاق وركب مع حسن بيك الجداوى وأتباعهما وعدتهم ستة وبعض المماليك والخدم وذهبوا جميعا من خلف القلعة إلى الأقاليم القبلية حيث كانت أخصامهما. فسبحان مقلب الأحوال وهادم بناء صروح تلك الآمال إنه الواحد القهار. ولما التقى عثمان بيك بإبراهيم بيك الكبير أجله كثيرا وأرسله مع ابنه مرزوق بيك إلى مقر مراد بيك فسلم عليه، وقد حضر أصحاب الوجاقات والاختيارية وأرباب المناصب للسلام وبدأ أتباعهم بالدخول إلى القاهرة طول ليلة السبت حادى عشرى القعدة سنة خمس ومائتين وألف هجرية وأصبحوا فدخلت الأحمال والجمال والدواب فكانت شيئا كثيرا جدا ثم دخل إبراهيم بيك ومر بالمدينة ومعه أمراؤه ومماليكه وأكثرهم لابسون الدروع ثم دخل بعده سليمان بيك الأغا وأخوه إبراهيم بيك الوالى ثم بقية الأمراء ودخل مراد بيك من طريق الصحراء ونزل على الرميلة ومعه عثمان بيك الإسماعيلى الذى هو عثمان بيك أبو طبل شيخ البلد وجميع أمرائه ومماليكه وأتباعه ودخلوا بيوتهم وكان فى أكثرها عائلات الأمراء الذين هلكوا بالطاعون وبقى بها نساؤهم ومات أغلب نساء الذين كانوا بالأقاليم القبلية من الأمراء فلما رجعوا وجدوها آهلة بالنساء والجوارى والخدم فتزوجوهن وجددوا فراشهم وعملوا أعراسهم ومن لم يكن له منهم بيت دخل ما أحب من البيوت وأخذه بما فيه من غير ممانع وكأن الله سبحانه قد أورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم وأزواجهم وهى عبرة وتذكرة.

وركب الأغا فى ثانى يوم ونادى على طوائف القليونجية والأرنؤد والشوام بالرحيل عن مصر عاجلا وكل من وجد منهم بعد ثلاثة أيام قتل بغير معاودة وتتبعهم المماليك والجند فكانوا إذا رأوا أحدا منهم قبضوا عليه وأخذوا ما معه من السلاح وأشبعوه ضربا وكانت العامة تسخر بهم ثم صعد إبراهيم بيك ومراد بيك ومن معهم من الأمراء إلى الباشا بقلعة الجبل فقابلهم بالترحاب وخلع عليهم الخلع وكتب إلى دار السلطنة يومئذ بكل ماجرى ولم تكد تستقر بهم الراحة بعد تلك الخطوب المدلهمة حتى جاء الخبر بأن حسن بيك الجداوى وعلىّ بيك اللذين فرا إلى الصعيد قد ضبطا المراكب المنحدرة إلى مصر بأموال ومتاع إبراهيم بيك وأخذوا ما

فيهـا ومنعا من نزول الغلال وعبثـا بالبلاد فاهتم إبراهيم بيك لذلك وجيش جـيشا وسلم قـيادته إلى إبـراهيم بيك الوالى وقلد عـثمـان بيك المرادى ولاية الصـعيـد وسيرهما للقبض على حـسن بيك وعلى بيك المذكورين وبينما هم على هذا الحال قدم رسـول من دار السلطنة يحمل فرمـانا بالعفو عن إبراهـيم بيك ومراد بيك ومن معـهما من الأمـراء والجند والإذن لهم بالرجوع إلى مـصر والبقـاء فيهـا وكان ذلك بالتماس من مـحمد باشا عزت حـيث كتب إلى الباب العالى يبالغ فـيما ينجم عن بقائهم خارج مصر وفيما هم عليه من المنعة والقوة وفى عجز الأمراء الذين بمصر عن ردهم فعـقدوا لذلك الديوان بقلعـة الجبل فلمـا قرئ الفرمـان أطلقت المدافع وخلع عليهم الباشا خلع الرضا ونزلوا فزارهم العلماء والمشايخ والأمراء وقدمت لهم التقادم والهدايا واستقرت بإبراهيم بيك ومـراد بيك المناصب وبث إبراهيم بيك العيون لتأتى له بخبـر حسن بيك الجداوى وعلى بيك فجـاءوا وأخبروا بانفصـال حسن بيك عن على بيك وذهابه إلى جدة عـن طريق القصير فـاطمأن قلبه وسكن روعـه وأخذ فى تقسيم المناصب بين أتبـاعه وأتباع مراد بيك فعـزل وولى وأحكم الأمور وفتح أبواب المغارم القـديمة والفرض والضرائب الفـادحة وقلد أرباب الجباية وأصـحاب المكوس وسيرهم إلى القرى والأرياف فضـلا عن المدن هذا والغلاء منشب أظفاره فى جوف البلاد لتـقصيـر النيل فى عامـه وعدم وجود الغـلال وقد تولد عن ذلك اختـصاص الأمراء بما وجد من الغلال فى بعض القرى فنقـلوه لأنفسهم ووقع القحط فى البلاد فهام أهلهـا ودخلوا مصر والقاهرة طلبا للقوت فكانوا يطـوفون فى الأزقة والحارات والشوارع طائفة خلف طائفة يضجون ويبكون من الجوع وكانوا يلقون بأطفالهم فى جوانب الجدران أمواتا من الجوع وكذلك كان يقع من أهالى مصر والقاهرة ويموت منهم فى كل يوم خلق كـثير وكـان إذا وجد الأردب القمح بيع بثـمانية عـشر ريالا والشعيـر بخمسة عشـر والفول بثلاثة عشر ريـالا وكانت الأوقية الخبـز بنصف فضة واشتد القحط وكثر الصياح والعويل ليلا ونهارا فكانت لا تكاد تقع الأرجل إلا على خلائق مطروحة بالأزقـة وكانوا إذا مات حمار أو فرس أخذوه وأكلـوه نيئا ولو كان منتنا ثم زاد الحال شـدة فصاروا يخطفون الأطـفال من أحضان أمـهاتهم ويأكلونهم فانكف الناس عن الخروج بأطفالهم وطال الحال على ذلك أياما حتى جاءت الغلال من الديار الرومية وتتـابع ورودها فكثرت وارتفع القحط فأكل الناس وشـبعوا ووافق ورود هذه الغلال حـصاد الذرة فـعاد الناس إلى بلادهـم وعـمرت بعض القـرى بعد

خرابها فكانت شدة عظيمة للغاية وعلا النيل ووفا فانحطت الأسعار وبورك فى رمى الغلال فكان الفدان الواحد ينتج غلة خمسة أفدنة وبلغ النيل زيادته المتوسطة وعم الماء غالب الأرض فأحياها بعد الموات .

ووصل فى هذا الحين إلى ثغر الإسكندرية يوسف باشا صدر الدولة العثمانية يريد الأقطار الحجازية فاهتم إبراهيم بيك بشأنه جدا وأرسلوا إليه الملاقين وقدموا التعابى والتقادم الثمينة وهيئوا لمقامه قصر العينى وزينوه بأنواع البسط والفرش الفاخرة وأنزلوه به وتمثلوا بين يديه فخلع على إبراهيم بيك ومراد بيك خلعة سنية وقدم لهما حصانين مسرجين مرختين وتخوف إبراهيم بيك من حضوره فى هذا الحين وترامت ظنونه إلى المرمى البعيد فأعمل الحيلة ووضع لخفارته عبدالرحمن بيك الإبراهيمى ومعه فريق من الجند فصعد الصدر المشار إليه بعد أيام إلى قلعة الجبل باستدعاء من محمد باشا عزت ثم نزل إلى مقره وأخذ إبراهيم بيك فى إعداد ما يلزم لسفر الصدر المذكور من غلال وأرز وتعابى هندية وغير ذلك من الهدايا والنفائس خوفا من طول لبثه بمصر وإفساد أمورهم وأعدوا له السفن بالسويس فركب فى أواسط جمادى الثانية من السنة أى سنة ثمان ومائتين وألف هجرية فزالت مخاوف إبراهيم بيك ومراد بيك وعادا إلى ما كانا عليه من إعمال الجهد فى تحصيل المغارم وتقرير المكوس والضرائب وغير ذلك وأكثروا من أعوان الجباية وبثوهم فى البلاد والقرى لا يسايرون غنيا ولا يرحمون فقيرا.

(مطلب)

عزل محمد عزت باشا وولاية صالح باشا

وجاء الخبر بتوجيه مسند الصدارة إلى الوزير محمد باشا عزت والى مصر وتولية صالح باشا بدله فنزل محمد باشا من القلعة وسافر إلى الاسكندرية فى صفر من السنة أى سنة تسع ومائتين وألف وأقام بالاسكندرية أياما حتى قدم صالح باشا فى العشرين من ربيع الأول ووصل تقليد الصدارة إلى محمد باشا عزت وهو بالإسكندرية فنزل من فوره وسافر إلى دار السلطنة وحضر صالح باشا إلى القاهرة وصعد إلى قلعة الجبل فى الموكب المعتاد وصعد الأمراء والمشايخ للسلام عليه فقابلهم وأكرم لقاءهم وأراد التصرف فى الأمور والنظر فى مصالح الخلق فلم يتمكن لتغلب إبراهيم بيك ومراد بيك واستقلالهما بالأمر فالتزم التحجب والانكماش.

مطلب

عزل صالح باشا وولاية أبى بكر باشا

وبقى على هذا الحال عشرة أشهر حتى جاء الخبر بخلعه وتولية السيد أبى بكر باشا وذلك فى ذى الحجة من سنة عشر ومائتين وألف فنزل من قلعة الجبل إلى قصر العينى وتأهب للرحيل وأقام به أياما قلائل ثم سار إلى الإسكندرية فكانت مدة ولايته زهاء عشرة أشهر، وحضر السيد أبوبكر باشا من الأسكندرية إلى القاهرة وركب فى الموكب المعتاد إلى القلعة فى الخامس والعشرين من ربيع الأول سنة إحدى عشرة ومائتين وألف هجرية فلم يكن له من حظ الولاية إلا ما كان لغيره من الولاة فكان مغلوبا على أمره والكلمة لإبراهيم بيك ومراد بيك والناس فى غم من الضرائب الفادحة والمغارم المتوالية والمكوس المتراكمة وضجيجهم مستمر وابتهالهم إلى الله تعالى متواصل بزوال دولة الظالمين ومحو آثار القوم المفسدين وقد بلغت منهم الروح الحلقوم والعظم السكين فأرسل الله سبحانه على زمرة المماليك بونابارته قائد جيوش الفرنسيس فى عسكر عظيم فقهرهم وأباد سلطانهم حينا كما سيأتى بيان ذلك فى محله إن شاء الله .

(فصل)

(فى نزول نابوليون بونابارته بجيوشه على مصر وما جرى بعد ذلك من الحوادث والمحن)

لما عظمت دولة الفرنسيس وكبر سلطانها بما عانته من الغزو وتدويخ الممالك على يدى قائد عسكرها العظيم بونابارته الكبير واتسعت كلمتها وعمت هيبتها مشرق الأرض ومغربها بعد قتل لويس السادس عشر ملكها وقيام الحكومة الإدارية فيها لم يبق من معاند لها ولا واقف فى وجهها كما قاله أصحاب الأخبار سوى دولة الإنجليز فإنها كانت لا تضن أبدا ببذل كل مرتخص وغال فى سبيل إذهاب تلك السلطة ومحو تلك الهيبة وقطع شأفة ما استقر منها فى قلوب كبار الممالك والدول الذين علا هامتهم سيف بونابارته العظيم فأذلهم وأخضعهم وكان كلما عاهدت دولة الفرنسيس دولة بعد الغلبة عليها حقنا للدماء أو حفظا لحرمة الجوار حركها الإنجليز ودفعوا بها إلى نكث العهود ونقض الوعود وأمدوها بما تحتاجه لذلك من المال

ومعدات القتال أو تاركت دولة أخرى أنهضها الإنجليز إلى القتال قبل انقضاء الأجل وحسنوا لها القبيح من هذا العمل فكان بونابارته من ذلك فى كمد دائم وحزن ملازم ولا ينكف عن تدبير الحيل وتعليل الأمل بكسر شوكة هذا العدو الألد وسحق سلطانه من أدنى الأقطار إلى أقصاها فكان مما دبره يومئذ نزع المملكة الهندية من يد الإنجليز وبذل النفس والنفيس فى سبيل ذلك وكأنه رأى أن هذا الأمر لا يتم إلا بنزوله بجيش عرمرم على مصر واستخلاصها من أيدى المماليك وجعلها رباطا لحركاته الحربية ومقرا لمناوشاته السياسية فجعل يفكر ويتدبر وهو قلق البال مضطرب الأحوال حتى اجتمع برجال الحكومة الإفرنسية وهم المعرفون فى ذلك الوقت برجال الإدارة وكاشفهم على ما فى نفسه وبالغ فى الشكوى وأراهم أنه لا سبيل إلى الخلاص من مخالب هذا الأسد الرابض إلا بإرهابه وتذليله ومناهضته فى أرض الهند الواسعة ففكر رجال الإدارة فى ذلك حينا وأحلوه محلا عظيما فكانوا فيه بين إقدام وإحجام وخوف ورجاء فأنس منهم بونابارته ذلك فجعل يشجعهم ويستميلهم وكتب إليهم كتابا يقول ما محصل ترجمته:

لستم تنكرون أيها السادة أن مصر أكثر المدن خصوبة وأكبرها عمرانا وأنها إنما كانت أهراء لأهل رومية وفى هذا الأوان لأهل القسطنطينية فإن أرضها تنبت القمح والفول والأرز وسائر أنواع البقول فضلا عن القطن وقصب السكر والكتان والنيلة والقنب والخيار شنبر والسنامكى والنطرون وفيها من الماشية أشكال ومن الطيور الداجنة ألوان فضلا عما فيها من الحمر والإبل التى لا مثيل لها فى أقطار الأرض ومصر كما لا يخفاكم مركز متوسط بين قارتى آسية وأفريقية تؤمه القوافل من جزائر العرب والشام وسواحل الغرب وبلاد الحبشة وربما جاءته من رأس الرجاء الصالح والسنغال بأنواع المتاجر من الزيت والخشب والفحم والبن ومن الجوار والعبيد والصمغ والتبر والريش وسن الفيل والشالات والعطريات والأطياب وسائر صنوف المتاجر والمحصولات الهندية وقد كانت هذه المحصولات والأرزاق العظيمة تأتى إلى بلادنا قبل اكتشاف رأس الرجاء الصالح من طريق مصر فهى منذ القدم الطريق المأمون والسبيل الميمون ما بين قارتى آسية وأروبا وكانت تلك الأرزاق والمحاصيل العظيمة تحط أحمالها قبلا عند مدينة برنيس على ساحل القلزم ثم تنقل منها حملا على ظهور الإبل إلى مدينة طيبة زهاء أربع وعشرين مرحلة ثم تسير منها فى النيل إلى قارة أوروبا وكانت فى بعض الأحيان تنقل بحرا إلى القصير ثم إلى مدينة

السويس ومنها على ظهور الإبل إلى منف فتأتينا كما هى وليعلم السادة رجال الإدارة أننا لو فتحنا هذه الديار وأحسنا سياسة أهلها ودبرنا شئونهم على ما تقتضيه مصلحتهم خمسين عاما فقط لعمرت البلاد وسعدت وزاد عدد أهلها أضعاف أضعاف ماهم عليه الآن وراجت محاصيل بلادنا فيها وفيما جاورها من الأمصار وأغنتنا عن أمريكا وكفتنا مؤنة التعاقد معها وليعلم أيضا السادة رجال الإدارة أنه إذا قدر الله ركوز قدمنا فى تلك الديار ووفقنا إلى حسن إدارتها قصرت أيام الإنجليز فى بلاد الهند وصار جلاؤهم عنها أمرا خفيفا فإننا نقيم الجند المرابطين على سواحل القلزم وننشئ المعاقل والحصون المنيعة وندّخر فيها ما نشاء من محاصيل تلك البلاد ونحول التجارة الهندية إليها على أهون ما يكون وإذا فرضنا بقاء الإنجليز فى رأس الرجاء الصالح وقلنا باستحالة رحيلهم عنها فإنه يكون من السهل علينا أن نباريهم ونفتح بين النيل والقلزم ترعة تذلل لنا المصاعب وتذهب عنا تلك المتاعب ونكون قد غلبنا الإنجليز وقهرناهم وقبضنا على زمام تجارتهم بيد من حديد وعندى أن فتح هاته الترعة ليس بالأمر الصعب فقد كانت جارية من قبل وآثارها باقية إلى الآن. وفى فتح مصر وبسط يدنا عليها الطامة الكبرى على الإنجليز والداهية الدهياء التى لابد وأن تذهب بهم إلى حضيض الذل والدمار. أهـ.

فلما وقف رجال الإدارة على ما فى خطابه هذا من البراهين الدامغة والحجج القوية حاروا فى أمرهم وخشوا شر العاقبة وقد كانوا يرون فى دولة الإنجليز أمة قادرة غنية تضرب بحسام غناها ذات اليمين وذات الشمال كما كانوا يرون فى بونابارته هماما مقداما حسن السياسة والتدبير كبير المعرفة بأحوال الممالك والأمم فلما كان الخامس من شهر مارس سنة ثمان وتسعين وسبعمائة وألف ميلادية أى سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف هجرية. اتفق رجال الإدارة مع بونابارته على تسيير حملة يقودها هو مع من يصطفيهم لنفسه من رجال الحرب ففرح بونابارته فرحا لا يوصف وبقى السر مكتوما بينهم لا يعلم به أحد ألبتة ثم جعل من هذا الحين يجيش الجيوش ويعد المعدات فاجتمع له أربعون ألفا من المقاتلين وأربعون قائدا من نخبة القواد أهل النجدة ومائة من المهندسين ومثلهم من أهل العلم بتخطيط الأرض وأصحاب الكيميا والطبيعة ونحوها ومعهم مطبعة عربية وجماعة من الكتاب والمترجمين والأطباء والجراحين والكحالين ومثلهم من الصناع وأصحاب العمل والحفر والنقش وهيأ عمارة عظيمة لم ينقصها شىء ما من آلات الحرب والقتال

وأميرها برويس أحد كبار أمراء البحار وهى مؤلفة من مائة سفينة بين كبيرة وصغيرة وبينها سفينة عظيمة للغاية اسمها الشرق تحمل مائة مدفع وعشرين مدفعا وممن صحب بونابارته فى هذه الحملة من كبار القواد كلابير وديزيه المشهوران ورينيروبون وينو للمشاة والقائد مورات للفرسان ودومارتين لأصحاب المدافع وكافرالى للمهندسين وخرجت سفن الحرب بما عليها من المقاتلين البحرية وهم زهاء عشرة آلاف من أربع جهات متباعد بعضها عن بعض حتى لا يعلم بخبرها أحد من عيون الإنجليز وخرجت معها السفن والشوانى التى كانت تحمل جيوش الحملة فكانت جملتها زهاء سبعمائة سفينة وسار معها بونابارته وحاشيته فى التاسع من مايو من السنة تمخر بهم السفن فى عرض البحر فأنفذ رجال الإدارة إلى دار السلطنة العثمانية (آلالتاليران) أحد كبار السياسة سفيرا من قبلهم ليكلم السلطان في أمر حملة بونابارته هذه والإقرار عليها فسافر إلى القسطنطينية ولم يعلم بخبره أحد ألبتة.

ولما فاض الخبر بقيام تلك الجيوش العظيمة والمعدات الهائلة كثر تحدث الناس بها وترامت ظنونهم إلى المرمى البعيد فمن قائل أنها لقتال الإنجليز وإبادة سلطانها ومن قائل بل أنها لفتح المدن والأمصار فى آسية وإفريقية ومن قائل غير ذلك وطارت الأخبار بذلك إلى الآفاق فخاف الإنجليز شر العاقبة وجعلوا يتدبرون فى الأمر ويبالغون فى البحث والتجسس فلم يقفوا لهذه الحملة على جلية خبر فكبر عليهم هذا الأمر وأعظموه وأنفذوا الأمير نلسون أحد كبار البحر عندهم فى أسطول عظيم وعهدوا إليه أن يتتبع سفن بونابارته أينما حلت وأن لا يمكنها من عمل شيء ألبتة فسار نلسون بسفنه يمخر فى عرض البحار وقد ظن أن بونابارته إنما خرج بجيوشه يريد مصر أو الشام فسار قاصدا مدينة الإسكندرية فأدركها يوم الخميس ثامن المحرم افتتاح سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف هجرية أى سنة ثمان وتسعين وسبعمائة وألف ميلادية وسفنه أمامها وكان العامل عليها السيد محمد كريم أحد عظماء البلد ثم أنزل نلسون نفرا من عسكره فى زورق فطلعوا إلى البر وطلبوا لقاء السيد محمد كريم فأدخلوهم عليه ومعه بعض أعيان المدينة فسألهم عن حالهم وسبب حضورهم بتلك السفن الكثيرة فى ذلك الوقت فقالوا: أتينا نبحث عن طوائف من الفرنسيس خرجوا فى عمارة عظيمة يريدون جهة من الجهات ولاندرى أين يقصدون فربما دهموكم فلا تقدرون على ردهم ولا تتمكنون من منعهم ولذلك رأينا أن نرسو ههنا بمراكبنا لنحافظ على المدينة ومن فيها ولا نسألكم شيئا من المدد

سوى الماء والزاد بثمنه فـظن السيد محمـد كريم أنها خدعة وحـيلة فقال: هذه بلاد السلطان فليس للفرنسيس ولا لغيرهم عليها سـبيل فعادت رسل الإنكليز بغير طائل وأقلعوا ليمتاروا فسـير السيد محمد كريم إلى كاشف البحـيرة من يخبره بخبر تلك السفـن ويأذنه بجمع العـربان والإتيان بهم إلى الإسكندرية للـمحافظـة عليها فـلما شاعت هذه الأخبار بالقـاهرة ومصر خاف الناس وتحدثوا فى الأمر كثـيرا وأصحاب الحل والعقد فى شـاغل عنه كأنهم فى مأمن من العاقبـة أو أنهم على ثقة من الظفر والغلبة فـلما كان يوم الاثنين ثامن عـشر المحـرم وصلت العمارة الفـرنسوية مـياه الإسكندرية أمام المدينة وأرسلت جماعـة منهم يطلبون قنصل الفرنسيس وبعض أهل المدينة فذهبوا إليـها فمنعوهم من العودة ولما جن الليل تحـول من تلك العمارة بعض السفن إلى ناحية العجمى وأبى قير وأنزلوا من بها من العسكر إلى البر وكان برويس أمير السفن يعارض بونابارته فى ذلك ويمنع من نزول العساكر فى تلك الليلة خوفا من حـادث يحدث فلم يلتـفت بونابارته إلى كـلامه وقـال: لابد من نزول جمـيع العسكـر فنزلوا ليلا وساروا نـحو الإسكندرية فلم يصـبح أهل المدينة إلا والعسـاكر منتشـرون حول المدينة انتشار الجـراد فخرج الناس ومن انضم إليـهم من الأنكشارية والعرّبان وكاشف البحيرة ليقاتلوهم فلم يستطيعوا مدافعتهم ولا أمكنهم ممانعتهم ولم يثـبتـوا لحربهم وانهـزم الكاشف ومن مـعه من طوائف العـربان ورجع الأهالى إلى التترس فى البيـوت وخلف الحيطان ودخل الفرنسيس المدينة وانبث فيـها الكثير من ذلك العدد فـأيقن أهل الإسكندرية أنهم مأخوذون علـى كل حال وليس ثم عندهم للقتال اسـتعداد لخلو الأبراج من معدات الحـرب فضلا عن المقاتلين مع كـثرة العدو وغلبته فطلبوا الأمان فأمنوهم ورفعوا عنهم القتال ونودى فى المدينة بالأمان ورفعت الأعلام الإفرنسية على مـا بالمدينة من القلاع والحصون والأبراج وأرسل بونابارته فى طلب أعيان الثغر والسيد محـمد كريم فحضروا وهم فزعون وجلون وتمثلوا بين يديه فلاطفهم وكلم السيد محمد كـريم لحظة لطيفة ثم ألزمهم بجمع ما بيد الأهالى من الأسلحة ومعدات القـتال وإحضاره إليه وأن يضعوا عـلى صدورهم علامة هى على شكل زهرة مـسـتـديرة ذات ثلاثة ألـوان أحـمر وأسـود وأبـيض وهى ألوان الراية الإفرنسية وتسمى هذه العلامة عندهم جوكار ففعلوا وجعلت طوائف العسكر تطوف فى شوارع المدينة وبأيديهم البنادق والحـراب وأخذ جماعة منهم يصلحـون ما تهدم من الحـصون ويرممون مـا تخـرب من الأبراج وزحفت بقـيـة الجيـوش إلى رشيـد

ودمنهور فهاجر أهلهما ونزحوا عنهما إلى فوه ونواحيها فرسم بونابارته بتحريرمنشور للأهالى كافة يؤمنهم فـيه على أعراضهم وأموالهم ويطمـئن قلوبهم ويسكن روعهم فكان نص ما فى ذلك المنشور.

بسم الله الرحمن الرحـيم لا إله إلا الله ولا ولد له ولا شريك له فى ملكه من طرف الفرنساوية المبنى على أساس الحرية والتسوية السـر عسكر الكبير أمير الجيوش الفرنساوية بونابارته يعرف أهالى مصر جـميعهم أنه من زمان مديد والصناجق الذين يتـسلطون فى البـلاد المصرية يتـعاملـون بالذل والاحـتـقار فى حـق الملة الفرنسـوية ويظلمون تجارها بأنواع الإيذاء والتعدى فحضـر الآن ساعة عقوبتهم وأخرنا من مدة عصور طويلة هذه الزمرة المماليك المجلوبين من بلاد الأباظة والشراكسة يفسدون فى الإقليم الحسن الأحسن الذى لايوجد فى كرة الأرض كلهـا فأما رب العالمين القادر على كل شئ فإنه قـد حكم بانقضاء دولتـهم. يا أيها المصريون قد قـيل لكم أنى ما نزلت بهـذا الطرف إلا بقـصد إزالتكم فـذلك كـذب صريح فـلا تصـدقوه وقـولوا للمفـترين إننى ما قدمت إليـكم إلا لتخليص حقكم من يد الظالمين وإننى أكـثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالى وأحترم نبيه والقرآن العظيم. وقولوا أيضا لهم أن جمـيع الناس متـساوون عند الله وأن الشيء الذى يـفرقهم عن بـعضهم هو الـعقل والفضائل والعلوم وبين المماليك والعقل والفضائل تضارب فماذا يميزهم عن غيرهم حتى يسـتوجبـوا أن يتملكوا مـصر وحدهم ويختـصوا بكـل شيء حسن فيـها من الجوارى الحسـان والخيل العتاق والمساكن الـفرجة فإن كانت الأرض المصـرية التزاما للمماليك فليرونا الحـجة التى كتبها الله لـهم ولكن رب العالمين رؤوف وعادل وحليم وبعـونه تعالى من الآن فـصاعـدا لا ييـأس أحد من أهالى مـصر من الدخـول فى المناصب السامـية ومن اكتـساب المراتب العاليـة فالعلمـاء والفضلاء والعـقلاء بينهم يدبرون الأمور وبذلك يصـلح حالة الأمة كلهـا. وسابقا كـان فى الأراضى المصرية المدن العظيـمـة والخلجـان الواسعـة والمتـجـر المتكاثر ومـا أزال ذلك كله إلا الظلم والطمع من المماليك. أيهـا المشايخ والقضاة والأئمـة والجربجية وأعيـان البلد قولوا لأمتكم أن الفرنسوية هم أيضا مسلمـون مخلصون وإثبات ذلك أنهم قد نزلوا رومية الكبـرى وخربوا فيـها كـرسى البابا الذى كـان دائما يحث النـصارى على مـحاربة الإسلام ثم قصدوا جزيرة مالطة وطردوا منها الكولارية الذين كانوا يزعمون أن الله تعالى يطلب منهم مقاتلة المسلمـين ومع ذلك الفرنسوية فى كل وقت من الأوقات

صاروا محبين مخلصين لحضرة السلطان العثماني وأعداء أعدائه أدام الله ملكه ومع ذلك فإن المماليك امتنعوا من الطاعة للسلطان غير ممتثلين لأمره فما أطاعوا أصلا إلا لطمع أنفسهم طوبى ثم طوبى لأهالى مصر الذين يتفقون معنا بلا تأخير فيصلح حالهم وتعلوا مراتبهم وطوبى أيضا للذين يقعدون فى مساكنهم غير مائلين لأحد من الفريقين المتحاربين فإذا عرفوا بالأكثر تسارعوا إلينا بكل قلب لكن الويل ثم الويل للذين يعتمدون على المماليك فى محاربتنا فلا يجدون بعد ذلك طريقا للخلاص ولا يبقى منهم أثر.

(المادة الأولى) جميع القرى الواقعة فى دائرة قريبة بثلاث ساعات من المواقع التى يمر بها عسكر الفرنسوية فواجب عليها أن ترسل للسر عسكر من عندها وكيلا كيما يعرف المشار إليه أنهم أطاعوا وأنهم نصبوا علم الفرنسوية الذى هو أبيض وكحلى وأحمر.

(المادة الثانية) كل قرية تقوم على العسكر الفرنسوية تحرق بالنار.

(المادة الثالثة) كل قرية تطيع العسكر الفرنساوى تنصب صنجق السلطان العثمانى محبنا دام بقاؤه.

(المادة الرابعة) المشايخ فى كل بلدة يختمون حالا جميع الأرزاق والبيوت والأملاك التى تتبع المماليك وعليهم الاجتهاد التام لئلا يضيع أدنى شىء منها.

(المادة الخامسة) الواجب على المشايخ والعلماء والقضاة والأئمة أنهم يلازمون وظائفهم وعلى كل واحد من أهالى البلدان أن يبقى فى مسكنه مطمئنا وكذلك تكون الصلاة قائمة فى الجوامع على العادة والمصريون بأجمعهم ينبغى أن يشكروا الله سبحانه وتعالى على انقضاء دولة المماليك قائلين بصوت عال أدام الله إجلال السلطان العثمانى أدام الله إجلال العسكر الفرنساوى لعن الله المماليك وأصلح حال الأمة المصرية .

تحريرا بمعسكر إسكندرية فى ١٢ شهر سدود سنة ١٢١٢ من إقامة الجمهورية الفرنساوية يعنى فى آخر شهر محرم سنة ١٢١٣ هجرية انتهى بنصه.

وسارت جيوش بونابارته سيرا حثيثا جدا فدخل فريق منهم إلى فوه وآخر إلى الرحمانية وعسكروا فيهما وفاض الخبر بذلك فى القاهرة ومصر فانزعج الناس

انزعاجا شديدا وعول أكثرهم على الفرار وجمع إبراهيم بيك ومراد بيك جميع الأمراء بقصر العينى وكذلك العلماء والمشايخ وقاضى القضاة ونزل الباشا من قلعة الجبل وتكلموا فى هذا الأمر وطال الأخذ والرد ثم اتفقوا على أن يكتبوا بخبر هذا الحادث إلى دار السلطنة العثمانية وأن يتجهز مراد بيك بالعسكر ويخرج للقتال وصد هذا العدو فكتبوا إلى دار السلطنة وسيروا الكتاب مع مخصوص على البر وأخذوا فى الاستعداد وجمع آلات الحرب ومعدات القتال وجعلوا يصادرون الناس ويأخذون ما يحتاجون إليه بغير ثمن ثم ارتحل مراد بيك عن القاهرة وبرز بخيامه إلى الجسر الأسود فأقام به يومين حتى تكامل خروج العسكر وخرج معه على باشا الطرابلسى وآخر اسمه ناصف باشا وقد كانا مقيمين معه بالجيزة وخصيصين به وأخذ عدة كبيرة من المدافع وشيئا كثيرا من الذخيرة وسار برا فى الفرسان وسافرت العساكر المشاة بحرا بسفن الحرب الصغيرة وقد كانوا أخلاطا من القليونجية والأروام والمغاربة وحمل معه سلسلة عظيمة لوضعها على البوغاز عند برج مغيزل لتمنع سفن الفرنسيس من الدخول إلى النيل وظن أن الفرنسيس يطاولونه الحرب وهو يطاولهم كذلك حتى تأتيه النجدة من جانب الدولة فكان الأمر على خلاف ما ظنه فإنه لما دخل بونابارته مدينة الإسكندرية ورتب أموره فيها على ما رأى فيه المصلحة سار بجيوشه على الجانب الغربى من النيل سيرا حثيثا من غير ممانع يطلب القاهرة وبث أمامه العيون والأرصاد لتأتى إليه بخبر مراد بيك ومن معه وكانوا إذا نزلوا على قرية أو بلد أو مدينة رأوا من أهلها الطاعة والإخلاد إلى السكينة وقد بدأت الوحشة بين سكان مصر والقاهرة وكثر الهرج والإرجاف وانقطعت الطرق وأخذت اللصوص فى كل ليلة تطرق المدينة وانكف الناس عن الخروج إلى الأسواق بعد الغروب فنادى الأغا والوالى بفتح الحوانيت ليلا وتعليق القناديل على البيوت والدكاكين لإذهاب الوحشة من القلوب والاستئناس وكشف خبر الدخيل على البلد إذا دخل ولم يكن إلا أيام قلائل من خروج عساكر بونابارته من مدينة الإسكندرية حتى التقوا بجيوش مراد بيك فى يوم الجمعة تاسع عشرى المحرم عند منية سلامة فاقتتل الفريقان فلم تكن إلا ساعة حتى انهزم مراد بيك بمن معه وكان القتال هينا جدا ثم أطلق الفرنسيس مدافعهم على سفن مراد بيك فأحرقتها بما فيها من البارود وآلات الحرب والمؤن والذخيرة والعساكر فأزعج هذا المنظر المريع مراد بيك وهاله جدا فولى الفرار وتبعه عسكره ونزل المشاة منهم فيما بقى من السفن وأقلعوا بها إلى بولاق ووصل

بعضهم إلى القاهرة وهم فى أسوإ حال فانزعج الناس واشتد الخوف وركب إبراهيم بيك إلى ساحل بولاق وتبعه الباشا والعلماء والمشايخ والأعيان فتشاوروا فى عمل متاريس من شبرا إلى بولاق وأن يتولى الإقامة فيها إبراهيم بيك وأتباعه ومماليكه فأجابهم إبراهيم بيك إلى ذلك واهتم له جدا وأحضر السفن الكبيرة والغلايين التى أنشأها حديثا وأوقفها على ساحل انبابه وشحنها بالعساكر والمدافع فكان جانبا النيل شرقا وغربا مشحونين بالعساكر والأجناد والمدافع وآلات الحرب والمتاريس .

قال بعض كتاب الأخبار وكان العلماء من يوم خروج مراد بيك بجيوشه يجتمعون بالجامع الأزهر كل يوم يقرؤون البخارى وغيره من الدعوات وكذلك مشايخ فقراء الأحمدية والرفاعية والإبراهيمية والقادرية والسعدية وغيرهم من الطوائف وأرباب الأشاير ويعملون الأذكار بالأزهر وكذلك أطفال المكاتب كانوا يضجون فى كل يوم بيالطيف وكان الأمراء فى وجل ما عليه من مزيد فكانوا ينقلون فى هذه المهلة أمتعتهم من بيوتهم وقصورهم الرحبة إلى بيوت حقيرة غير معلومة وأرسلوا بعضها إلى الأرياف وتأهبوا للرحيل وكاد يتبعهم فى ذلك أكثر الأغنياء وأصحاب المقامات العالية ووقع النداء بالنفير العام فخرج الناس إلى المتاريس وكرروا النداء فى كل يوم فأغلق الناس الحوانيت والأسواق وخرج الجميع إلى بولاق القاهرة فكانت رجال كل طائفة من أرباب الصنائع يجتمعون وينصبون لهم خياما أو يجلسون فى مكان خرب أو مسجد ويرتبون لهم فيما يصرف عليهم ما يحتاجون له مما جمعوه من بعضهم من المال وكان البعض يتطوع بالإنفاق على الآخرين ومنهم من جهز جماعة من المغاربة أو الشوام بالسلاح والذخيرة وغير ذلك واجتهد الناس اجتهادا عظيما وخرج الفقراء بالطبول والزمور والأعلام والكاسات وهم يضجون ويصيحون ويذكرون بأذكار مختلفة وصعد السيد عمر أفندى نقيب الأشراف إلى قلعة الجبل فأنزل منها بيراقا كبيرا سمته العامة البيرق النبوى فنشره بين يديه من قلعة الجبل إلى بولاق القاهرة وأمامه وحوله الألوف المؤلفة من العامة وبأيديهم النبابيت والعصى والمساوق وهم يضربون بالطبول ويهللون ويكبرون وكانت شوارع القاهرة فى غاية الوحشة إذ كنت لا ترى فيها أحدا سوى من فى بيوتها من النساء والأطفال وضعفاء الرجال وكانت الدكاكين كلها مقفلة نهارا وليلا وجلس العلماء والمشايخ بزاوية على بيك ببولاق القاهرة يدعون ويبتهلون إلى الله بالنصر وأرسل إبراهيم بيك إلى العربان المجاورين لمصر ورسم لهم بأن يكونوا فى المقدمة بنواحى شبرا وما

والاها واجتمع له أيضا كثير من عرب البحيرة والصعيد والجيزة والقيعان وأولاد على والهنادى وغيرهم فكان الجمع يزداد فى كل يوم ويعظم الهول ويشتد الضيق بالفقراء لتعطل الأسباب واجتماع الناس فى صعيد واحد وانقطعت الطرق وتعدى الناس بعضهم على بعض وجمع إبراهيم بيك جميع الفرنجة الذين بمصر والقاهرة فحبس بعضهم بقلعة الجبل وبعضهم ببيوت الأمراء وفتشوا بيوتهم لعلهم يجدون فيها شيئا من السلاح أو آلات الحرب وكذلك فتشوا جميع بيوت الشوام والقبط والروم وجميع الكنائس والديارات والعامة لا ترضى إلا أن يقتلوا النصارى واليهود فيمنعهم الحكام عنهم قال صاحب عجائب الآثار ولولا ذلك المنع لقتلتهم العامة وقت الفتنة أهـ.

ولما كان يوم الجمعة سادس صفر وصل بونابارته بجيوشه إلى الجسر الأسود فباتوا ليلتهم وأصبحوا فساروا إلى أم دينار فوصلوها فى يومهم وقد كان الظن بهم أن يأتوا من جانبى النيل شرقا وغربا فلم يأتوا إلا من الجانب الغربى ونظر بونابارته إلى صفوف العدو على يمين موقفه وهرم الجيزة الكبير على يساره فخاطب جنوده وقال أيها الأبطال البواسل إن أرواح أناس قد مضى عليها خمسون قرنا تنظر إليكم من قمة هذا الهرم العظيم وترقب حركاتكم فى قتال هؤلاء المماليك فافطنوا ثم رسم إلى الجنرال ديزه أن يسير بعسكره نحو اليمين وبقية العساكر نحو اليسار وكان الوقت وقت القائلة وقد خرج جماعة من عسكر إبراهيم بيك وقدموا نحو بشتيل فتلاقوا مع مقدم عسكر الجنرال ديزه فكروا عليهم بالخيول فرماهم الفرنسيس بالبنادق رميا متتابعا وأبلى الفريقان بلاء حسنا فقتل جماعة كثيرة من كشاف محمد بيك الألفى ومماليكه وتعقبتهم عساكر الجنرال ديزه فلما اقتربوا من متاريس مراد بيك ترامى الفريقان بالمدافع وكان قد حضر من دمياط فريق من عسكر البحر الأرنؤد فقاموا بالقتال من خلف المتاريس وحاربوا مع العساكر البرية فلما احتدم القتال وارتفعت أصوات المدافع ضج العامة والغوغاء من الرعية وأخلاط الناس بالصياح فى الجانب الشرقى من النيل ورفعوا أصواتهم بيارب ويا لطيف ويارجال الله وغير ذلك وشرع فريق من العسكر الذين بالجانب الشرقى فى العبور غربا فلم يتم عبورهم حتى تمت الهزيمة على المصريين وكانت الريح شديدة وأمواج النيل تتلاطم وفى قوة اضطرابها والرمال يرتفع غبارها وتنسفها الريح فى وجوه المصريين فلا يقدر أحد أن يفتح عينيه لشدتها وانقسم الفريق المقاتل من الفرنسيس إلى شطرين بشكل مخصوص واقترب من متاريس مراد بيك فصارت المتاريس فى القلب والفرنسيس من الأمام ومن

الخلف ودقوا طبولهم ورموا بالبنادق والمدافع تباعا وقد اشتد هبوب الريح وانعقد الغبار وأظلمت الدنيا من دخان البارود وغبار الريح وصمت الأسماع من أصوات المدافع وبقى الحال هكذا نحو ثلاثة أرباع الساعة وانكشف عن هزيمة المصريين وغرق العدد العديد من فرسانهم فى النيل لإحاطة العدو بهم وظلام الوقت وأسر منهم خلق وملك الفرنسيس المتاريس جميعها وفر مراد بيك ومن معه هاربين إلى الجيزة ثم جاء منزله فى حالة رديئة وقضى أشغاله وسار من فوره إلى الصعيد الأعلى.

ولما تمت هزيمة من كانوا يقاتلون بالجانب الغربى من النيل حول الفرنسيس أفواه مدافعهم إلى الجانب الشرقى وتابعوا الرمى بها مع الرمى بالبنادق أيضا فتحقق من كان بالجانب الشرقى من الهزيمة فقامت فيهم ضجة عظيمة وكثر صياح العامة وتساقط بعضهم فوق بعض وداستهم سنابك خيل الفارين من الأمراء والمماليك وفر إبراهيم بيك والباشا والأمراء وجميع العسكر والأهالى كافة وتركوا جميع الأثقال والخيام ولم يأخذوا منها شيئا وذهب إبراهيم بيك والباشا إلى العادلية ودخل الناس قبيل الغروب المدينة وهم يضجون بالعويل والنحيب ويبتهلون إلى الله من شرّ هذا اليوم العصيب فصارت النساء عند ذلك يصرخن بأعلى أصواتهن من البيوت ويولولن فلما جن الظلام خرج الكثير من الناس خارج أبواب المدينة بنسائهم وأولادهم وخرج بعضهم هائما على وجهه لايرى للسلامة سبيلا غير مبال بترك الزوجة والولد واستمر الحال على هذا المنوال طول تلك الليلة وأصبحوا وقد أحاط بهم العربان من كل جانب فسلبوا ما كان معهم من متاع ولباس وأحمال فلم يترحموا لمن وقع فى أيديهم ما يستر به عوزته أو يسد جوعه وعاد من الهاربين من لم يبعد عن أبواب المدينة فدخلوا عرايا نساء ورجالا حتى الأطفال والصبيان والبنات فكانت ليلة وصباحها من أشنع ما رأته أعين المصريين جرى فيها من القتل والنهب وفضيحة النساء على اختلاف درجاتهن مالم يسمع بما شابه بعضه فى تواريخ المتقدمين وأصبحوا وقد اجتمع العلماء والمشايخ بالجامع الأزهر واتفقوا على ان يبعثوا بكتاب إلى بونابارته بمعسكره فى انبابة يسألونه فيه عن مراده وعما يسأله من الطلبات فكتبوا الكتاب وأرسلوه مع أحد المشايخ المغاربة فلما وصل الرسول وتمثل بين يدى بونابارته بش فى وجهه ولاطفه وقرأ الخطاب ثم التفت إلى الرسول وقال وأين عظماء البلد ومشايخها ولم تأخروا عن الحضور لنرتب وإياهم ما يكون فيه الراحة لهم ولأهل بلادهم فقال نريد أمانكم فقال قد أمناكم وبعثنا لكم به قبل الآن قال

الرسول ولكن لتطمئن الناس أيضا فأمر بونابارته فكتب جوابا من معسكر الجيزة خطابا لأهل مصر أننا أرسلنا لكم قبل الآن كتابا فيه الكفاية وذكرنا لكم أننا ما حضرنا إلا بقصد إذهاب دولة المماليك الذين أهانوا الفرنسيس وساموهم الخسف وقد تطاولت أيديهم إلى سلب التجار ومال السلطان فلما حضرنا إلى الجانب الغربى من النيل خرجوا إلينا فقابلناهم بما يستحقونه وقتلنا بعضهم وأسرنا البعض ونحن فى طلبهم حتى لا يبقى أحد منهم بالديار المصرية وأما المشايخ والعلماء وأصحاب المرتبات وكامل الرعية فيكونون مطمئنين ساكنى الخواطر لاخوف عليهم أهـ.

ثم التفت إلى الرسول وقال لترجمانه قل له أنه لابد من حضور المشايخ والأعيان إلينا لنرتب ديوانا ننتخبه من سبعة من عقلاء الناس يدبرون الأمور وينظرون فى مصالح الخلق، فعاد الرسول وأخبر بجميع ماجرى فاطمأن الناس وسكنت خواطرهم وركب الشيخ مصطفى الصاوى والشيخ سليمان الفيومى ولم يبق من كبار المشايخ يومئذ غيرهم لفرارهم مع بعض الأمراء وعبروا إلى الجيزة فتلقاهم بونابارته وبش فى وجوههم وسألهم أأنتم كبار المشايخ فقالوا لا وإنما كبار المشايخ قد هربوا فقال لأى سبب يهربون اكتبوا لهم بالحضور وسنعمل لكم ديوانا ينظر فى مصالح الرعية ويقضى أمورها ويقوم بما تقتضيه الشريعة ثم أمر فكتبوا عدة مكاتيب للمشايخ بالأمان وسرعة العودة ثم قام الشيخ الصاوى ومن معه وعبروا إلى مصر بعد العشاء الأخيرة فاطمأن الناس برجوعهم وأصبحوا فأرسلوا خطاب بونابارته للمشايخ فحضر الشيخ السادات والشيخ الشرقاوى وبقية المشايخ ومن تبعهم من الأهالى الفارين من ناحية المطرية فتقوت قلوب الرعية برجوعهم ودخل معهم أيضا جماعة كبيرة من الحرافيش والأوباش الذين كانوا يقتفون الهاربين من الأمراء والأهالى وقصدوا بيتى إبراهيم بيك الكبير ومراد بيك اللذين بخطة قوصون ونهبوا ما بهما وأحرقوهما بغير ممانع ونهبوا عدة بيوت أخرى من بيوت الأمراء وأخذوا ما فيها من متاع وغيره وكانوا يبيعون ذلك فى الأسواق جهارا.

ولما كان يوم الثلاثاء عاشر صفر عبر بونابارته النيل إلى مصر فى فريق من عساكره ونزل فى بيت محمد بيك الألفى بخط الساكت الذى أنشأه وزخرفه وفرشه بأنواع البسط والفرش الثمينة ولم يسكن به إلا أياما قلائل ثم رحل عنه عند وصول الأخبار بدخول الفرنسيس مدينة الإسكندرية فاحتله بونابارته وكأنه قد بنى وفرش له

ولم يدرج فى المدينة من عسكر الفرنسيس إلا نفر ومشوا بالأسواق من غير سلاح ومع غاية الحشمة والوقار فكانوا يبشون فى وجوه الناس ويضاحكونهم ويشترون ما يحتاجون إليه بأغلى ثمن فيأخذ أحدهم الدجاجة ويعطى صاحبها فى ثمنها ريالا ويأخذ البيضة بنصف فضة فلما رأى منهم العامة ذلك أنسوا بهم واطمأنوا لهم وخرجوا إليهم بالكعك وأنواع الفطير والخبز والبيض والدجاج وأنواع المأكولات وصاروا يبيعون عليهم بما أحبوا من الأسعار وفتح أكثر السوقة الحوانيت والقهاوى.

وأرسل بونابارته يطلب المشايخ والأعيان فذهبوا إليه فلما استقر بهم المقام كلمهم فى إقامة عشرة من المشايخ للديوان وفصل الخصومات وقضاء مصالح الرعية فوقع اتفاقهم على الشيخ عبد الله الشرقاوى والشيخ خليل البكرى والشيخ مصطفى الدمنهورى والشيخ أحمد العريشى والشيخ مصطفى الصاوى والشيخ سليمان الفيومى والشيخ محمد المهدى والشيخ موسى السرسى والشيخ يوسف الشبرخيتى والشيخ محمد الدواخلى وانتظم فى عداد هذا المجلس أيضا محمد كتخدا أبوبكر باشا عامل السلطان على مصر وقاضى القضاة وقلدوا محمد أغا المسلمانى أغاة مستحفظان وعلى أغا الشعراوى والى الشرطة وحسن أغا محرم أمين احتساب وقد ألح المشايخ بإعطاء هذه المناصب لمن ذكروا من المماليك خلافا لما أشار به بونابارته من تبعيد طوائف المماليك وعدم إدخالهم فى الوظائف العالية وأعلموا بونابارته بأن سوقة مصر لا يخافون إلا من الترك ولا يحكمهم سواهم، قال صاحب عجائب الآثار وأقاموا ذا الفقار كتخدا محمد بيك كتخدا بونابارته والخواجه موسى كانوا وكيلا عن الفرنسيس المقيمين بمصر والخواجه حنا بنتو عن أرباب المجلس، فلما استقر بأرباب هذا المجلس المقام رسم بونابارته فنادى الأغا والوالى فى شوارع مصر والقاهرة بالأمان فلم تكن العامة لتكترث بهذا النداء وبقيت أكثر الدكاكين مقفلة والناس فى ريب من سكون الحال وكانوا لأجل أن يأمنوا شر الطارق من عسكر الفرنسيس يعلقون على أبوابهم الراية الإفرنسية أو يأخذون من معسكر الفرنسيس ورقة مكتوبة بالإفرنسية يلصقونها على الباب ثم أمر بونابارته بتقليد الوظائف لمن يرون فيه الأهلية لذلك فقلدوا برتلمين النصرانى الرومى كتخدا مستحفظان قال وهو الذى كانت تسميه العامة فرط الرمان فركب بموكبه المعتاد من بيت بونابارته وأمامه عدة من طوائف الجند مشاة بين يديه وعلى رأسه حشيشة من الحرير الملون وهو لابس فروة وبين يديه الخدم بالحراب المفضضة وقد رتب الأربطة فى مراكز أخطاط

مصر والقاهرة وسكن ببيت يحيى كاشف الكبير بحارة عابدين وأخذه بما فيه من فرش ومتاع قيل وجوار وغير ذلك وكان برتلمين هذا من أصحاب المدافع عند محمد بيك الألفى وقلدوا أحد الفرنجة أمانة البحرين وآخر أغاة الرسالة وجعلوا الديوان ببيت قائد أغا بالأزبكية قرب الرويعى وسكن به رئيس الديوان وسكن قائمقام مصر ببيت إبراهيم بيك الوالى المطل على بركة الفيل وسكن شيخ البلد ببيت إبراهيم بيك الكبير وآخر ببيت مراد بيك على رصيف الخشاب وسكن بوسليك مدير الحدود ببيت الشيخ البكرى القديم فكان يطلب الكتاب من القبط فى كل يوم ويسألهم عن دفاتر البلاد وحسابها ومربعاتها وغير ذلك، وأفرج بونابارته عن الأسرى من المماليك والأجناد المصرية بشفاعة أرباب الديوان فدخل الكثير منهم بالجامع الأزهر وهم فى أسوإ حال وعليهم الثياب الزرق الرثة فمكثوا يأكلون من صدقات الفقراء المجاورين ويتكففون المارين وفى ذلك عبرة وتذكرة لقوم يعقلون، وجمعوا جميع الأسلحة وآلات الحرب وتتبعوا من كان عنده شيء من ذلك وأخرجوا الدفائن والودائع ودلهم طوائف الخدم على ودائع الأمراء وأمتعتهم فأخرجوها وأخذوها إلى بيت القائمقام فكانت شيئا كثيرا جدا وطلبوا قرضة من التجار المسلمين والقبط والشوام والفرنجة قدرها خمسمائة ألف ريال فطلبوا التخفيف فلم يرض بونابارته فقاموا بدفعها ودخلت العساكر إلى المدينة فملؤا شوارعها وحاراتها وهم فى غاية الحشمة والوقار وكانوا يعاملون الناس بالرفق ويخاطبونهم باللين فاطمأنت القلوب وسكنت الخواطر وأسرع السوقة إلى فتح دكاكينهم وزال عنهم الخوف.

وجاء الخبر بوصول الحجاج إلى العقبة وقرب دخولهم إلى مصر فذهب أرباب الديوان إلى بونابارته وأخبروه بوصول أمير الحاج ومن معه من العساكر والأجناد وطلبوا منه إذنا له بالدخول هو ومن معه فامتنع ولم يسمح إلا بدخوله فى قلة وأن لا تدخل معه مماليك كثيرة ولا عسكر فكتب المشايخ إلى أمير الحاج بأن يحضر إلى الدار الحمراء ويتربص هناك حتى ينظر فى دخوله إلى مصر فلم تصل إليه مكاتبة المشايخ حتى كاتبه إبراهيم بيك الكبير وحبب إليه الحضور إلى بلبيس بمن معه من العسكر فساروا جميعا إلى بلبيس وأقاموا بها أياما وكان إبراهيم بيك عند هروبه من مصر قد ذهب إلى بلبيس وأقام بها وبعث النساء والذرارى إلى القرين بإقليم الشرقية فلما قدم عليه أمير الحاج بمن معه سار بهم إلى المنصورة وقد تفرق جميع الحجاج إلى بلادهم وعلم بونابارته بذلك فخرج فى جيش عظيم إلى العادلية وسار

إلى أن وصلت طلائعه الخانكة وأبا زعبل وطلبوا كلفة من أبى زعبل فامتنع أهلها فقاتلوهم وهزموهم ونهبوا البلد وأحرقوها وارتحلوا إلى بلبيس فملكوها بغير قتال ووصل الخبر بذلك إلى إبراهيم بيك الكبير ومن معه من الأمراء وبعض الأعيان فركب ليلا بمن معه وترفع إلى القرين فتبعه بونابارته بجيوشه فسار إبراهيم بيك إلى الصالحية وأنزل النساء والذرارى فيها ومعهم متاعه وأقام عليهم طائفة من العرب تحرسهم فجاء أحد العربان وأخبر بونابارته بموضع النساء والأمتعة فسير بونابارته فريقا من الفرسان لأخذها فوقف إبراهيم بيك وأصحابه فى طريق أولئك الفرسان واشتبك القتال بين الفريقين ساعة كادت تنهزم فيها الفرنسيس لقلتهم وإذا بالخبر جاء إلى إبراهيم بيك بأن العرب على وشك أن يأخذوا الأمتعة وجميع الأحمال ففر وفر من كان معه على أثره وتركوا قتال الفرنسيس ولحقوا بالأحمال وأجلوا عنها العرب وقتلوا منهم جماعة وساروا مسرعين إلى قطيا فلم تدركهم الفرنسيس بعد ذلك ومازالوا سائرين إلى أن استقر بهم المقام بغزة فعاد بونابارته بجيوشه إلى مصر وجعل ينظر فى الأمور ويرتب أحوال البلد وأكثر من طلب الكلف والمصالحات للنفقة على جيوشه الكثيرة.

وبينما هو على هذا الحال إذ جاءه الخبر بقدوم عمارة الإنكليز إلى ناحية أبى قير مع نلسون أحد أمراء البحر وأنها أحرقت جميع مراكبه وما فيها من آلات الحرب والذخيرة وغيره عند السد وتحرير الخبر أنه لما خرج بونابارته بمراكبه يريد الإسكندرية لم يسر بها فى درب البحر المعلوم خوفا من أن تلحقه مراكب الإنكليز فسار خلفه ربان السفن الإنجليزية ولحق بالإسكندرية ليمنعه من النزول بها فكان من أمر حضوره وعدم ملاقاته بسفن بونابارته ما تقدم بيانه فرجع بمراكبه يمخر فى البحر لعله يعثر على سفن بونابارته فيقاتلها أو يتبعها حيثما سارت فدخلت مراكب بونابارته إلى أبى قير على يسار مدينة الإسكندرية عند غروب الشمس وقيل بعد غروبها وألقت مرساها وكانت الريح على وشك الخروج والبحر كثير الأمواج فقال بونابارته لربانه فلتنزل الجند حالا إلى البر فقال كيف يا مولاى والبحر فى هياج والأمواج فى شدة وماذا علينا إن بقينا إلى الصباح فقال بونابارته لابد من خروج العسكر بلامهل فأخرجت وأصبحوا فلم يبق فى المراكب إلا ملاحوها فقط وسار بونابارته من فوّة إلى الإسكندرية ومنها إلى رشيد ودمنهور والرحمانية قاصد القاهرة كما تقدم لك.

أما سفن الإنجليز فإنه بعد أن أقلع بها نلسون من مياه الإسكندرية وسارت تمخر في عرض البحار تبحث عن بونابارته وسفنه عادت مسرعة إلى أبي قير فرأت سفن بونابارته راسية هناك فظنت أن بونابارته وعسكره بها فأطلقت عليها المدافع وكانت السفن الفرنساوية راسية على خط واحد ممتدة من الشمال الغربي إلى الجنوب الغربي من أبي قير وربانها الأميرال برويس وكان برويس قد أنزل من كل مركب منها في ذلك اليوم خمسة عشر رجلا إلى البر لخفر الفعلة الذين أتوا بهم لحفر الآبار للاستقاء فلما شاهد الأميرال برويس سفن الإنجليز قادمة استدعى عساكره الذين بالبر وعقد مجلسا من ضباطه وتناجوا في أمر القتال مع المراكب الإنكليزية فأشاروا عليه بالخروج إلى ظهر البحر وملاقاتها بعيدا عن أبي قير دفعا للخطر فلم يذعن لمشورتهم وأبقى سفنه في مرساها وكان نلسون أمير السفن الإنجليزية في كمد دائم وحزن ملازم بسبب عدم اهتدائه إلى مقر السفن الفرنساوية فلما شاهدها عند أبي قير فرح وأخذ يدبر أمر قتالها قيل فسير بعض مراكبه إلى التحرش في مراكب الفرنسيس والدخول بينهم حتى يصلوا بالبر وأتى بما بقي من مراكبه أمام مراكب الفرنسيس وكانت الشمس قد مالت إلى الغروب وأطلق مدافعه على سفن الفرنسيس فأجابته مدافع الفرنسيس واشتبك القتال بين الفريقين وتتابع الرمي بالقنابل وعلا الدخان وقد دخل الليل فازداد الجو ظلاما على ظلامه وتحطم بعض المراكب الفرنسوية وأسر البعض الآخر في قليل من الزمن وكان أميرال السفن الفرنسوية على ظهر أكبر مراكبه المسماة الشرق وبها نحو ألف من الملاحين وكان نلسون على ظهر إحدى بوارجه فأصابته رصاصة في جبهته فحملوه إلى غرفته وكذلك أصاب أميرال المراكب الفرنسوية شظية من قنبلة قطعته نصفين فحملوه لينزلوا به إلى غرفته فأبى وأشار لهم أن أبقوني حتى أموت في موقفي هذا واشتد القتال وعلت أصوات المدافع إلى عنان السماء فلما كان بعد العشاء الأخيرة أصابت النار مخازن بارود مركب الفرنسيس الكبرى المسماة الشرق فأشعلتها فارتفعت بما فيها من الرجال والأموال والذخيرة والمدافع والآت الحرب أذرعا كثيرة عن وجه الماء ثم هبطت إلى قاع البحر وقد تمزقت كل ممزق ولم يبق لها من أثر ورأى حريقها أهل الإسكندرية ورشيد وغيرهما وبطل عندئذ القتال نحو ساعة ثم عاد نلسون يرمي بالقنابل تباعا على ما بقي من سفن الفرنسيس إلى نحو ظهر اليوم الثاني حتى دمرها تدميرا وكان الجنرال كليبر في هذا الحين محتلا بجيشه الإسكندرية فشاهد نيران الحريق وعلم بما

جرى على السفن الفرنسوية من الحريق والدمار فهاله الأمر وأزعجه جداً فبات هو ومن معه من العسكر على قدم الاستعداد فلم يغمض لهم جفن ليلتهم تلك وأصبحوا وقد جاء الخبر بما جرى وأقلعت سفن العمارة الإنجليزية تمخر فى عرض البحار لايعلم أحد أين يكون مرساها بعد هذا النصر العظيم.

واغتم بونابارته غماً شديداً مما حل بالعمارة الفرنسوية وكادت تفتر همته وتخمد عزيمته وأصبح وهو بين منتطح عنزين فقد رجع الإنجليز بسفنهم إلى مياه الإسكندرية يغدون ويروحون يرصدون الفرنسيس ويمنعون عنهم المدد وأطلقوا قنابل مدافعهم على سد أبى قير ليجرى فيه الماء الملح على أراضى البحيرة جميعها لتغرق جيوش بونابارته التى كانت منتشرة يومئذ فى تلك الأطراف فلم تلحق بهم ضررا وقيل بل ألحقت ببعضهم وقيل غير ذلك وكاتب بونابارته أحمد باشا الجزار عامل السلطان سليم يومئذ على الشام يستميله إلى الخروج وشق عصا طاعة مولاه وتسليم البلاد لبونابارته وجعل يمنيه بالأمانى الطويلة وسير إليه الرسل بذلك من نصارى الشوام ومسلميهم وهون عليه الأمر وسار مع هؤلاء الرسل أحد الفرنسيس بهيئة متنكرة وزى التجار فلما قدم على عكا أمر الجزار بذلك الفرنسوى فنقلوه إلى إحدى السفن العائدة إلى دمياط ولم يقابله وأمره بالرحيل حالا ولم يأخذ منه الكتاب وحجز من كانوا معه فعاد ليومه ولم تنجح سفارته وجعل الجزار يكاتب من هذا الحين بعض التجار والمشايخ بمصر والقاهرة ويراسلهم سرا فكان بونابارته لذلك على حذر دائم من المشايخ والعلماء والأعيان كثير التطير منهم فكان يقلب عليهم أنواع التجارب ليعرف ما استكن فى صدورهم فكان تارة يلزمهم بلبس الجوكار وأخرى بتركه وطورا بلبس الفرجيات وأخرى بتغيير شكلها إلى شكل آخر وأرسل إلى أهل الديوان منهم يوما فحضروا فخاطبهم بواسطة ترجمانه ساعة ثم نهض من المجلس ورجع وبيده طيلسانات ملونة بثلاثة ألوان وكل طيلسان ثلاث شقات أبيض وأحمر وكحلى فوضع منها واحدة بيده على كتف الشيخ الشرقاوى فرمى بها الشيخ إلى الأرض وتغير لونه ثم استعفى من لبسها فقال بونابارته لترجمانه قل لحضرات المشايخ أنهم صاروا أحبابنا وإنى لذلك أرغب فى تعظيمهم بزى رايتى وعلامتى فإن تزيوا بها احترمتهم الجند وعظمتهم العساكر فقال المشايخ ولكن يضيع قدرنا عند الله وإخواننا المسلمين فدمدم بونابارته واغتاظ لذلك وقال لا يصلح الشيخ الشرقاوى للرئاسة فلاطفوه وألانوا له الكلام فكان لا ينكف عن تجربتهم كل قليل بمثل هذه

الأمور وغيرها، وعلم بونابارته بترفع مراد بيك الكبير إلى الفيوم بعد فراره من وقعة انبابه فسير إليه فريقا من الجند فترفع وفارقه عثمان بيك الأشقر وعبر إلى الجانب الشرقى من النيل وسار من خلف الجبل ولحق بأستاذه إبراهيم بيك بغزة وكان السيد محمد كريم حاكم الإسكندرية قد أقره بونابارته فى منصبه كما تقدم فأرسل إلى مراد بيك مكاتبة يمنيه فيها بتسليم الإسكندرية إليه إن هو حضر بعسكره ومماليكه وأتباعه فعلم بونابارته بتلك المكاتبة وأتت إليه بها الجوسيس فاستقدم السيد محمد كريم وسأله فأنكر فأبرز له تلك المكاتبة فتلجلج فحكم عليه بغرامة من المال عظيمة للغاية فإن لم يقم بدفعها قتل بغير معاودة فلم يدفع وشفع فيه المشايخ والعلماء فلم تقبل شفاعتهم وأمر به بونابارته فقتلوه واحتزوا رأسه وطافوا بها شوارع المدينة والمناداة أمامها هذا جزاء الخائن وأخبر بونابارته الجواسيس أيضا بورود مكاتبات أخرى من إبراهيم بيك الكبير إلى بعض المشايخ خطابا لهم وللرعية فأرسل فى الحال يطلبها فخاف المشايخ خوفا عظيما وأرسلوها إليه فجمع أرباب الديوان وأمر ترجمانه فقرأ المكاتبات المذكورة فكانت تتضمن الحث لهم على الاتحاد واليقظة والمحافظة على الرعية وأن السلطان بعث إليه بجيش وأنه على عزم الحضور به إلى الديار فتبسم بونابارته وقال هى فرية لا أنزل الله بها من سلطان ثم سرح المشايخ فانصرفوا، واتفق إن جاء فى هذه الأثناء أغا من خصيان دار السلطنة وكان محجورا عليه بالإسكندرية فمر من المدينة يريد المشهد الحسينى فرآه الناس واستغربوا هيأته وقالوا هذا رسول الحى جاء من عند السلطان بمرسوم يأمر الفرنسيس فيه بالجلاء عن البلاد وكثرت أقوالهم فى هذا الشأن وتباينت أخبارهم واجتمعوا بالمشهد الحسينى وتبع بعضهم بعضا وتزاحموا فبلغ بونابارته ما تشيعه العامة وما تتناقله الناس من ورود مرسوم من السلطان خطابا للمشايخ وقد أخفوه عن بونابارته فركب من فوره وحضر إلى بيت الشيخ السادات بالمشهد الحسينى وكان الوقت بعد الظهر فدخل على حين غفلة ولم يكن تقدم له مجئ وهو فى كبكبة وخيول كثيرة وعسكر فانزعج الشيخ ونزل إليه وهو لا يعرف السبب فى مجيئه فى مثل هذا الوقت على هذه الصورة فلما رآه بونابارته سأله عن ذلك المرسوم فقال لاعلم لى بذلك ولم يكن بلغه الخبر فجلس بونابارته مقدار ساعة ثم ركب ومر بعسكره من باب المشهد والناس قد كثر ازدحامهم بالجامع والخطة وهم فى هرج فلما نظروه وشاهد هو جمعهم داخله أمر من ذلك فصاحوا جميعا بصوت واحد وقالوا الفاتحة فسأل عن سبب الصياح

والحامل عليه فقالوا إنهم يدعون لك بخير وأصبح وقد سير جيشا عظيما إلى حيث مراد بيك وآخر إلى الشرقية لمراقبة أحوال إبراهيم بيك الكبير واستطلاع أخباره وقد انحط عنده شأن أرباب الديوان فأهمل أمره أياما ثم شرع في ترتيب ديوان آخر سماه محكمة القضايا ورتب له أصولا وقواعد ترجع أموره إليها وعين له اثنى عشر عضوا ورئيسا ستة من القبط وستة من تجار المسلمين وجعل رئيسه المعلم ملطى القبطى وفوض إليهم الفصل فى أمور التجارة والعامة والمواريث والدعاوى وجعل لذلك الديوان قواعد وأركانا وكتبوا منها نسخا كثيرة أرسلوا منها إلى الأعيان وغيرهم وأمر فأنزل من كان بقلعة الجبل من الأهالى الساكنين فى دورها ودروبها وأصعدوا إليها عدة كبيرة من المدافع ووضعوها فى عدة مواقع وهدموا بها أبنية كثيرة ورمموا بعض الأسوار بها وما تهدم منها وهدموا قصر يوسف صلاح الدين ومحوا محاسن أولئك الملوك والسلاطين ورفعوا ما كان بباب العزب من الأسلحة والدرق والبلط والحراب الهندية وغير ذلك واستقدم مشايخ البلاد وأعيان البنادر والثغور إلى القاهرة فحضروا واجتمعوا ببيت قائد أغا بالأزبكية وجميع من قدم أيضا من الثغور والبنادر معهم وكذلك أعيان التجار ونصارى القبط والشوام ومديرو الديوان من الفرنسيس وغيرهم جمعا موفورا فلما استقر بهم الجلوس برز المعلم ملطى كبير محكمة القضايا وقرأ مرسوم شروط وقاعدة أعمال المحكمة المذكورة فلما تمت قراءته أبرز كبير المديرين قرطاسا كبيرا وناوله لترجمانه فنشره وقرأه فكان محصله شرح حال الديار المصرية وما كانت عليه فى القدم من رفعة الشأن والغنى والثروة واتساع نطاق الزراعة والتجارة وتقدم الصنائع وبلوغ المعارف والعلوم إلى أقصى الدرجات وإنها كانت محط الآمال ومنبث عظماء الرجال ولذلك قد أحدقت بها الأبصار ومدت إليها الأعناق وتطاولت إليها الأيدى فملكها أهل بابل واليونانيون والعرب والترك وغيرهم إلا أن الدولة التركية بالغت فى تخريبها إذ من طبعها أنها إذا حصلت الثمرة قطعت عروق الشجرة فذلك لم تبق الترك بأيدى الناس شيئا إلا النزر اليسير وصار الناس لأجل ذلك مستترين تحت حجاب الفقر وقاية لأرواحهم من الفتك ولأعراضهم من الهتك ثم إن طائفة الفرنسيس بعد أن تمهد أمرها وبعد صيتها وفتحت البلاد وقبضت على أزمة الممالك العظيمة تاقت نفسها لاستخلاص مصر مما هى فيه من المذلة والضنك وإراحة أهلها من عناء هذه المظالم وانتشالها من وهدة هذه الدولة المفعمة جهلا وغباوة فقدمت وأتاح الله لها النصر فبددت شمل

المماليك ومـزقتـهم تمزيقا ومع هذا الانتـصار فإنهـا لم تعامل الرعـية بالقـسوة ولم تتعرض لشيء من أمـورهم الذاتية بمكروه وقد وضعت دولة الفرنسيـس في مقدمات أعمالها الخـطيرة في هذه الديار إصلاح الطرق وتأمين السبل وحفـر الخلجان والترع وتقريب المواصلات بين البلاد وبعـضها وتوسيع نطاق التجارة وتعمـير ما تخرب من البلاد ومنع القوى من ظلم الضعيف وغيـر ذلك استجلابا لخواطر أهل البلاد وإبقاء للذكر الحـسن فعلى أهل البلـد ترك الشغب والإخلاد إلى السـكون وإخلاص المودة والإقلاع عن فعل مـا لا تحمد عاقبتـه ولم يكن المراد من استقدام من استـقدموا من أهل البلاد وعـمدها في هذا اليـوم إلا إبلاغهم نوايا دولـة الفرنسيس نـحو بلادهم وأهلها وهي على يقين من أنهم يمدون لذلك يد المعـونة ويبلغون سر عسكر الدولة الأفرنسية بونابارته بما تحتاجـه بلادهم من الأعمال الخطيرة والمنافع الضرورية إلى أن قال وإنا نريد منكم الآن يا مشايخ أن تختاروا من بينكم واحدا يكون كبيركم وعليكم طاعته والإخلاد لإشـارته، فقال بعض الحاضرين نختار الشيخ الشـرقاوى فقيل لهم وإنما يكون ذلك بالقرعة فاقـترعوا فظهرت القرعة للشيخ عبـد الله الشرقاوى وما تم هذا الأمر حتى غربت الشمس فأذنوا لهم بالانصراف وأن يعودوا في غد وذهبوا في ثاني يوم وانتـخبـوا بقيـة من وقع الاختـيار عـليهم لديوان مـصر من أهالي البـلاد والمشايخ والقبط والشوام وتجار المسلمين ثم أخذ أعضاء هذا الديوان في ترتيب أمور الحوادث والنظر في المقـررات على العقار والأمـلاك ورتبوا لذلك ترتيبـا بأن جعلوا على الأعلى منها ثمـانية فرانسة في كل سنة وعلى الأوسط سـتة وعلى الأدنى ثلاثة وما كـانت أجرته أقل مـن ريال في الشهـر فلا شيء عليـه وأما الوكائـل والخانات والحمـامات والمعاصـر والسيارج والحـوانيت فمنها مـا جعلوا عليـه ثلاثين وأربعين بحسب الخـسة والرواج والاتساع وكـتبوا بذلك أوراقـا وألصقـوها بالطرق والمفارق وأرسلوا نسخا للأعيـان وعينوا جماعة المهندسين ومعهم أشـخاص لتقدير أجرة كل ملك وعقـار وشرعوا في الإحـصاء وطافوا ببعض الجـهات لتجـهيز القـوائم وضبط أسماء أصحابها فلما شاع خبر هذا العـمل بين الناس استعظموه وانتبذ جماعة منهم وتناجوا في ذلك ووافقهم عليه بعض المتعممين فاجتمع عند ذلك الكثير من الغوغاء من غير رئيس يسـوسهم ولاقائد يقودهم وأصبحـوا يوم الأحد وهم في جمع عظيم وأظهروا ما كانوا قد أخفوه من الآلات والأسلحة وخرج رجل اسمه السيد بدر ومعه حرافيش خطة الحسينية وزمر الحارات الخـارجة عن القاهرة وهم في صياح وضجيج

عظيـمين وينادون بأعلى أصـواتهم نصر الله دين الإسـلام وساروا إلى بيت قـاضى القضاة فخشى العـاقبة وخاف هذا الأمر فأمر فأغلق خدامه الأبواب ووقـفوا أمامها يمنعون هذه اللمـوم من الدنو منها فرجمـوا بيت القاضى بالحجارة واجـتمع كذلك بالجامع الأزهر عدد عديد من أولئك السوقـة والغوغاء ووصل الخبر إلى الجنرال بون حاكم البلد فركب على الفور فى عدة من الفـرسان ومر بشارع الغورية وعطف على خط الصنادقية وذهب إلى بيت القاضى فوجد ذلك الزحام العظيم فهاله أمره وخرج من بين القصرين وباب الزهومة وكانت جـميع هذه الخطط مزدحمة بأخلاط الأهالى فبادروا إليه وضربوه وأثخنوه جراحا وقـتلوا بعض فرسانه ثم أخذ المسلمون حذرهم وخرجوا يهرعون وضبطوا عدة أماكن بالقاهرة مثل باب الفتوح وباب النصر والبرقية إلى باب زويلة وباب الشـعريـة وجهـة البندقانيـين ومـا حاذاها وهدمـوا مصـاطب الدكاكين وجعلوا أحجارها مـتاريس ووقف دون كل متراس جمع عظيم من الناس واقتصـر هذا الحادث على من بقلب القاهرة ولم يشاركـهم فى هذا الخروج أحد من أهالى مصـر القديمة ولا أهل بولاق ولاغيـرهم من الأطراف فسار إليـهم طائفة من الفرنسيس وظهـروا من ناحية المناخلية وأطلقوا بنادقهم على المتـاريس الكائنة بناحية الشوايين وقد كان بها طائفـة من تجار ناحية الفحامين المغاربة فقـاتلتهم المغاربة قتالا شديدا وأجلوهم عن المناخلية وعند ذلك زاد الحـال وكثر الزحف والزلزال وخرجت العامة الخـروج التام وبالغوا فى الإفساد وتطاولت أيديهم إلـى النهب وهجموا على حارة الجوانـية ونهبوا دور النصـارى الروم والشوام وما جاورها من بيـوت المسلمين وسلبوا النسـاء والبنات وكذلك نهـبوا خان الملايات وباتوا تلك الليـلة على ماهم عليه من النهب والخطف وأصـبح الفرنسيس وقد رتبـوا مدافعهم على تلال البـرقية وقلعة الجـبل ووقفوا ينتظرون إشـارة بونابارته وكان بونابارته قـد أرسل إلى المشايخ خطابا يسألهم فيه رد العامة بالتى هى أحسن حـقنا لدمائهم واستيقاء لأرواحهم فلم تجبـه المشايخ بشىء فـأطال الانتظار فلم يردوا عليـه وقد كثـر رمى العامـة بالبنادق وعبثهم بالمدينة وأفحشوافى النهب والخطف ومازالوا على هذا الحال إلى مابعد الظهر فلما أعياه الانتظار أمـر أصحاب المدافع فجعلوا يطلقون مدافعهـم تباعا على البيوت والحارات وعـلى الخصـوص الجامع الأزهر ومـا جاوره من المسـاكن فكانت القنابل تخرج من أفـواهها كالمطر وقـد دمرت تلك النواحى وخربتـها تخريبا فـخرج الناس والمجاورون على وجوههم وهم يضجون بأعلى أصواتهم، «ياخفى الألطاف نجنا مما

نخاف»، وخرجت النســاء حاسرات وأولادهن فى أحضانــهن وهن مولولات وتتابع الرمى بالقنابل من قلعة الجبل وتلال البرقية حتى تزعزعت أركان المدينة وكادت البلد تندك عن آخــرها فلمـا اشــتـد الخطب وعظم الهـول والكرب ركب المشــايخ إلى بونابارته واستغاثوا فعــاتبهم واتهمهم بالخدعة والتقصير فـاعتذروا وتلطفوا فى القول واستنهضوا مروأته فقبل عذرهم وأمر بالكف عن إطلاق المدافع فقاموا من عنده وهم ينادون بالأمان وتســامع الناس بذلك فاطمأنت قلوبهم وسكنت خـواطرهم وكان قد أقبل الليل.

أما أهل الحـسينيـة ومن معــهم من أهالى الأطراف فإنــهم لبثوا وراء المـتاريس يتابعون الرمى حتى فرغ منهم البارود فانكفوا عن القتال وقد مات منهم العدد العديد بنيران الفرنسيس التى كانت تتساقط عليهم من كل جانب ثم انكف عنهم الفرنسيس وتركوهم وبعد هـزيع من الليل دخلت العساكر الأفـرنسية الى المدينة مشــاة وفرسانا ومروا بالأزقة والشوارع فلم يعثروا على أحــد فهدموا ما وجدوه من المتاريس ودخل طائفة منهم باب البرقية وساروا إلى الغورية ثم كروا ورجعوا وتراسلوا أرسالاً ركباناً ورجــالاً ثم دخلوا إلى الجامع الأزهر وهم علـى ظهور الخـيل وبينهم المشاة وعــاثوا بالأروقة وكسروا ما وجدوه من القناديل والمصابيح وأصبحوا وقد اصطف منهم فريق بـبــاب الجامع وتفـرقت طوائف منهم بتلك النواحى واتخــذوا السعى والتطواف بـهـا منهاجاً فخرج سكان تلك الخطة يهرعون وهم فى أسوإ حال وكان الفرنسيس يسيرون بالشوارع ويفتــشون كل من يمر بهم فمن امتنع قتلوه ثم أخــذوا يحملون القتلى من المسلمين والفرنسيس فكانوا كثيــرين ومات فى هذه الثورة الجنرال بون بجراحاته التى أصابته وهدموا ما بقى من المتاريس ورفعوا ترابها وأحجارها وقيدوا برتلمان بالعسس والبحث عن الأسلحة المخبأة فـبث أعوانه فى أطراف المدينة وأكثر من الإساءة وبالغ فى تنكيل المسلمين فملأ منهم الحبوس وكذلك فعل الأغا وأصبح يوم الأربعاء فركب المشايخ كافـة وذهبوا إلى بونابارته وخاطبوه بالعــفو ولاطفوه فوعدهم وعــداً مشوباً بالتسويف وطالبهــم بأن يدلوه على المتعممين الذين أضرموا نار هــذه الفتنة فغالطوه وأكثروا من المواربة فقال إن لم تذكروهم لى الساعــة فإنى لا أعفوا أبداً فالتمسوا منه إخراج العسكر من الجامع فـأجابهم إلى ذلك وأمر فأخرجوا ولم يبق ســوى سبعين جعلوهم رباطاً وبالغ بونابارته فى البحث عن مثيرى هــذه الفتنة من المتعممين فكانوا الشيــخ سليمان الجــوسقى شيخ طائفة العميان والشــيخ أحمـد الشرقــاوى والشيـخ

عبـد الوهاب الشبراوى والشيـخ يوسف المصيلحى والشيخ إسـماعيل البراوى فـأمر بونابارته فقبضـوا عليهم وسجنوهم ببيت الشيخ البكرى ولم يعـثروا على السيد بدر المقدسى الذى جمع لموم الحسينية حيث فر هارباً إلى الشـام فخاف بقية المشايخ خوفاً ما عليه من مزيد وأكثروا مـن الذهاب إلى بونابارته والتخشع إليه وطلب فك سجن أولئك المشايخ فغولـطوا وقد اتهم أيضاً إبراهيم أفندى كاتب البهار بأنه جـمع جمعاً لإثارة هذه الفتنة من المـماليك المختفين عنده وقد أعطاهـم شيئاً كثـيراً من الأسلحة والمسابوق والعصى وغيرهـا فقبضوا عليه وسجنوه ببيت الأغا ثـم قبضوا على آخرين وسجنوهم بقلعـة الجبل واشتد البحث وتتبع المشاركين فى هذا الحادث فـاشتد قلق المشايخ وركب الشـيخ السادات وبقية المشايخ إلـى بونابارته وتشفعوا وتخـضعوا فلم يقبل واسـتمر القبض على الناس بأدنى شـبهة وزد بعضـهم ما كان نهبـه من بيوت النصارى والشوام وغـيرهم أيام الثورة فكان شيـئاً كثيراً وتطاير شـرر هذه الفتنة إلى جوف البلاد أيضاً فقام بعض أهالى القـرى والبلدان على كتائب الفرنسيس المرابطين بها فقتلوهم وأظهروا الخروج والعصيـان فاهتم بونابارته لذلك واستخدم جماعة من المغاربة فى الجندية وسلم أمـرهم لكبير اسـمه عمر القلفـنجى من مغاربة الفحـامين وسيرهم إلى تلك النواحـى فقهروا الأهالى وظفروا بهم وسـاموهم الخسف وأسكنوا الفتنة وضربوا بلدة عشما وقتلوا شيخـها ونهبوا داره وأحضروا جميع أولاده وإخوته فقتلوا جميعهم ولم يبق منهم سوى ولد صغير قد أقاموه شيخاً عوضاً عن أبيه وسار برتلمان إلى ناحية الشرقية فى طلب من فر من أصحاب الفتنة فلم يدرك أحداً منهم فعاد إلى سرياقوس بعسكره ثم رجع إلى الـقاهرة وقد دخل بعده رسول على هجين قادماً من الديار الشامية ومعه مكاتبـات على شكل فرمان من أحمد باشا الجزار والى الشام وآخر من أبى بـكر باشا الذى كان عامل مصـر قبل دخول جيـوش الفرنسيس وقد هرب إلـى الديار الشاميـة خطابا إلى مـصطفى أغا كـتخدائه وخطابـاً آخر من إبراهيم بيك الكبيـر إلى المشايخ حاصل ما فيـها بعد الاستـهلال وذكر بعض الآيات القرآنية والأحـاديث والآثار المتعلقة بالجهـاد ولعن طائفة الفرنجة والحط عـليهم وذكر عقائدهم وكذبهم وتحيلهم الحض على قتالهم والتخلص منهم وكذلك بقية المكاتبات فأخذها الكتخـدا المذكور وذهب بها إلى بونابارته فلما علم ما فيهـا قال هى أحبولة من حبائل إبراهيم بيك بقصد إيقاع الفـتنة وإضرام نار الوحشة فاحذروا وانظروا فى عواقب الأمور.

وأخذ الفرنسيس من هذا الحين يشيدون الحصون ويرتبون المعاقل ويعدون الأبراج العظيمة على التلال والآكام المحيطة بالبلد ووضعوا عليها المدافع وهدموا أماكن كثيرة بالجيزة وحصنوها تحصيناً عظيماً وكذلك مصر القديمة وشبرا وقد هدموا منها عدة جوامع منها الجوامع المجاورة لقنطرة انبابة ومسجد المقس المعروف الآن بأولاد عنان على الخليج الناصرى بباب البحر وقطعوا نخيل جهة الحلى وبولاق وخربوا دوراً كثيرة وأخذوا ما فيها من الأخشاب ثم ذهبت منهم طائفة بعد أيام إلى منزل الشيخ البكرى فى نحو نصف الليل وطلبوا المشايخ المحبوسين فخرجوا وإذا هم فى وسط فريق من الجند وقد قبضوا عليهم وذهبوا بهم إلى بيت حاكم المدينة بدرب الجماميز ثم عروهم من ثيابهم وصعدوا بهم إلى قلعة الجبل وسجنوهم فلما أصبحوا أخرجوهم وقتلوهم برمى البنادق وألقوهم من السور خلف القلعة وخفى خبرهم عن أكثر الناس وركب فى ذلك اليوم بعض المشايخ إلى مصطفى بيك كتخدا الباشا ليتشفعوا وإياه لأولئك المشايخ فذهبوا إلى بيت بونابارته وهم لا يعلمون بموتهم فقابلهم ترجمانه بعين غامضة ثم تركهم فانصرفوا وأمر بونابارته فكتبوا عدة أوراق على لسان المشايخ وأرسلوها إلى البلاد وأرسلوا منها صوراً إلى المشايخ وهى نصيحة من كافة علماء الإسلام بمصر المحروسة وفيها : نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن ونتبرأ إلى الله من الساعين فى الأرض فساداً نعرف أهل مصر قاطبة أنه حصل بعض الخلل فى المحروسة من بعض الجعيدية وأشرار الناس فحركوا الشرور بين الرعية وبين العساكر الفرنسوية بعد ما كانوا أصحاباً وأحباباً بالسوية وترتب على ذلك قتل جملة من المسلمين ونهبت بعض البيوت ولكن حصلت ألطاف الله الخفية وسكنت الفتنة بسبب شفاعتنا عند أمير الجيوش بونابارته وارتفعت هذه البلية لأنه رجل كامل العقل عنده رحمة وشفقة على المسلمين ومحبة للفقراء والمساكين ولولاه لكان العساكر أحرقوا جميع المدينة ونهبوا جميع الأموال وقتلوا كامل أهل مصر فعليكم أن لا تحركوا الفتنة ولا تطيعوا أمر المفسدين ولا تسمعوا كلام المنافقين ولا تتبعوا الأشرار ولا تكونوا من الخاسرين سفهاء العقول الذين لا يقرءون العواقب لأجل أن تحفظوا أوطانكم وتطمئنوا على عيالكم وأديانكم فإن الله سبحانه وتعالى يؤتى ملكه من يشاء ويحكم ما يريد ونخبركم أن كل من تسبب فى تحريك هذه الفتنة قتلوا عن آخرهم وأراح الله منهم العباد والبلاد ونصيحتنا لكم أن لا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة واشتغلوا بأسباب معايشكم وأمور دينكم وادفعوا الخراج الذى عليكم والدين النصيحة والسلام اهـ. بنصه.

ولما طار الخبر فى الآفاق بورود مكاتبات إبراهيم بيك والجزار وتكلم فى أمرها أهل البلاد وأكثروا اللغط بها خاف المشايخ من رجوع الحال إلى ما كان عليه وقيام الفتنة فعمدوا إلى تحرير منشور وأرسلوا عدة صور منه إلى المدن والبلدان يقولون فيه، نصيحة من علماء الإسلام بمصر نخبركم يا أهل المدائن والأمصار من المؤمنين ويا سكان الأرياف من العربان والفلاحين أن إبراهيم بيك ومراد بيك وبقية دولة المماليك أرسلوا عدة من المكاتبات والمخاطبات إلى سائر الأقاليم المصرية لأجل تحريك الفتنة بين المخلوقات وادعوا أنها من حضرة مولانا السلطان ومن بعض وزرائه بالكذب والبهتان وسبب ذلك أنه حصل لهم الغم الشديد والكرب الزائد واغتاظوا غيظاً شديداً من العلماء والرعايا حيث لم يوافقوهم على الخروج معهم وأن يتركوا عيالهم وأوطانهم فأرادوا أن يوقعوا الفتنة والشر بين الرعية وذلك لشدة ما حصل لهم من الكرب الزائد بذهاب دولتهم وحرمانهم من مملكة مصر المحمية ولو كانوا فى هذه الأوراق صادقين بأنها من حضرة سلطان السلاطين لأرسلها جهاراً مع أغوات معينين ونخبركم أن الطائفة الفرنساوية بالخصوص عن بقية الطوائف الإفرنجية دائماً يحبون المسلمين ويبغضون المشركين وطبيعتهم وهم أصحاب لمولانا السلطان قائمون بنصرته وأصدقاء ملازمون لمودته وعشرته ومعونته يحبون من والاه ويبغضون من عاداه ولذلك بين الفرنساويين والموسكوب غاية العداوة الشديدة ومن أجل هذا يعاونون حضرة السلطان على أخذ بلاد الموسكوب إن شاء الله ولا يبقون منهم بقية فننصحكم يا أهل الأقاليم المصرية أن لا تحركوا الفتن ولا الشرور بين البرية ولا تعارضوا العساكر الفرنسوية بشيء من أنواع الأذية فيحصل لكم الضرر والهلاك والبلية ولا تسمعوا كلام المفسدين ولا تطيعوا أمر المسرفين الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون وإلا فتصبحوا على ما فعلتم نادمين وإنما عليكم دفع الخراج المطلوب منكم لكامل الملتزمين لتكونوا فى أوطانكم سالمين وعلى عيالكم وأموالكم آمنين مطمئنين لأن حضرة سارى عسكر الكبير أمير الجيوش بونابارته اتفق معنا على أنه لا ينازع أحداً فى دين الإسلام ولا يعارضنا فيما شرعه الله من الأحكام ويرفع عن الرعية سائر المظالم ويقتصر على أخذ الخراج ويزيل ما أحدثه الظلمة من المغارم فلا تعلقوا آمالكم بإبراهيم ومراد وارجعوا إلى مولاكم مالك الممالك وخالق العباد فقد قال نبيه ورسوله الأكرم «الفتنة نائمة لعن الله من أيقظها بين الأمم» عليه أفضل الصلاة والسلام ختام اهـ.

ولصقوا نسخاً من هذا المنشور بشوارع القاهرة وأرسلوا منها فى سائر البلاد، وشدد بونابارته فى اليقظة والالتفات وأكثر من العيون والجواسيس وأقام الجنرال استنك واليا على القاهرة بدل الجنرال بون واليها الذى قتل فى الفتنة كما تقدم القول فاطمأن الناس بعد ذلك وسكنت الأحوال وعادت الأمور إلى سابق مجراها وأمر بونابارته فجعلوا يمهدون الطرق والعقبات ويسهلون المواصلات داخل المدينة وقد كانت معرقلة بالتلال الكبيرة والوديان العميقة والأشجار الكثيرة فردموا جميع الجهات التى حوالى بركة الأزبكية وهدموا الأماكن المقابلة لبيت بونابارته حتى جعلوها رحبة متسعة وهدموا الدور المقابلة لها من الجهة الأخرى وردموا مكانها بالأتربة الممهدة على خط معتدل من الجهتين مبتدئاً من بيت بونابارته إلى قنطرة المغربى وفعلوا بعدها كذلك على الوضع والنسق بحيث صار جسراً عظيماً ممتداً ممهداً مستوياً على خط مستقيم من الأزبكية إلى بولاق وينقسم بقرب بولاق إلى قسمين قسم إلى طريق أبى العلاء وقسم يذهب إلى جهة التبانة وساحل النيل وبطريقه الطريق المسلوكة الواصلة من طريق أبى العلاء وجامع الخطيرى إلى ناحية المدابغ وحفروا فى جانبى ذلك الجسر جميعه خندقين وغرسوا بجانبه الأشجار العظيمة وأحدثوا طريقاً أخرى فيما بين باب الحديد وباب العدوى عند المكان المعروف بالشيخ شعيب حيث معمل الفواخير وردموا جسراً ممتداً ممهداً مستطيلاً يبتدئ من الحد المذكور وينتهى إلى جهة المذبح خارج الحسينية وأزالوا ما يتخلل ذلك من الأبنية والغيطان والأشجار والتلال وقطعوا جانباً كبيراً من التل الكبير المجاور لقنطرة الجاحد وردموا فى طريقهم قطعة من خليج بركة الرطلى وقطعوا أشجار بستان كاتب البهار المقابل لجسر بركة الرطلى وأشجار الجسر أيضاً والأبنية التى بين باب الحديد والرحبة التى بظاهر جامع المقس وساروا على المنخفض بحيث صارت طريقاً ممتداً من الأزبكية إلى جهة قبة النصر المعروفة بقبة العزب جهة العادلية على خط مستقيم من الجانبين وقيدوا بذلك ناساً منهم يتعهدون تلك الطرق وأنشئوا مطاحن هواء ومطاحن ماء وجعلوا فى الروضة مستشفى يسع خمسمائة مريض ومثله فى الإسكندرية ورشيد ودمياط وأنشأوا مدرسة بالقاهرة لأبناء الفرنسين المولودين بمصر وجريدتين بالإفرنسية إحدهما تسمى كاد اجبسيان والثانية تسمى كوريه دى إجبت ومعامل للأقفال والأسلحة والمدافع وآلات الحرب وصناعة الورق والأقمشة وسائر ما يلزم للبلاد وفعلوا جميع هذه الأعمال العظيمة فى مدة يسيرة جداً مع همة غريبة وجعلوا جامع

الظاهر بيبرس خارج باب الحسينية قلعة ومنارته برجاً ووضعوا على أسواره المدافع العظيمة وأسكنوا به عدة من العسكر وبنوا فى داخله عدة مساكن وكان هذا الجامع معطل الشعائر من مدة وقد باع نظاره منه انقاضاً وعمداً كثيرة وعملوا عدة أبراج على تل العقارب بالناصرية ووضعوا فيها عدة آلات حربية وأفردوا لجماعة المديرين والفلكيين منهم وأصحاب العلوم الرياضية كالفلك والهندسة والهيئة والنقوشات والكتاب والحساب وغيرهم من أرباب القلم حارة الناصرية حيث الدرب الجديد وما به من البيوت وجعلوا بيت حسن كاشف جركس فى تلك الخطة مكتبة للمطالعة يحضرها من يريد المطالعة منهم فى أوقات معينة من النهار وكان إذا دخلها أحد المصريين فرحوا به وأحسنوا لقاءه وإذا أراد التفرج أطلعوه على ما أراد أو أراد المطالعة أعطوه ما أراد من الكتب ولا سيما الكتب التى تبهج البسطاء بما فيها من الرسوم البديعة وفى جملتها رسم صاحب الشريعة المحمدية ورسوم أخرى للخلفاء الراشدين وغيرهم وكانوا يطلقون فى كل يوم عند الزوال مدفعاً.

ولم ينكف بونابارته عن البحث عمن كان له يد فى الفتنة من عمد البلاد وأعيانها فقبض على شيخ العرب سليمان الشواربى شيخ قليوب حيث عثروا على خطاب منه إلى أهالى سرياقوس يحضهم على القيام والتأهب للفتك بالفرنسيس عند خروجهم من القاهرة مقهورين فسجنوه بقلعة الجبل وسار بونابارته على أثر ذلك ومعه طائفة من الجند والسيد أحمد المحروقي وإبراهيم أفندى كاتب البهار وبعض المديرين والمهندسين والمعلم جرجس الجوهرى والمعلم أنطون أبو طقية وغيرهم قاصداً مدينة السويس لأمر لم يعلم سره فلما شاع بين أهل السويس خبر مقدمه هربوا كافة وتركوا البيوت قائمة على عروشها فنهبها العسكر وأخذوا ما وجدوه فيها من متاع وفرش فأبلغ بونابارته بعض من كانوا معه ما فعله العسكر فرد جميع ما أخذوه ووعد برد ما فقد أو دفع ثمنه وكان مدة لبثه بالسويس يركب فى كل يوم ويطوف فى حارات وشوارع المدينة وجهات الساحل ليلاً ونهاراً قيل وكان معه من الأدم فى هذه السفرة ثلاث دجاجات مقلية ملفوفة فى ورقة وقليل من الخبز، قال صاحب عجائب الآثار وليس معه طباخ ولا فراش ولا خيمة وكل شخص من عسكره معه رغيف كبير مرشوق فى طرف حربته يتزود منه ويشرب من سقاء لطيف من صفيح معلق فى عنقه اهـ.

ثم سار من السويس إلى الشرقية ودخل مدينة بلبيس وقبض على عدة كثيرة من

عربان الشرقية وأولادهم من ذكور وإناث وبعث بهم إلى القاهرة مع جماعة من العسكر وقام من بلبيس قاصداً القاهرة فمر بأبى زعبل فضرب أهلها وضرب كذلك أهل المنير وأمر فأخذت جميع مواشيهما ودخل القاهرة ليلاً فلما كان الصباح أنزلوا شيخ العرب سليمان الشواربى ومعه ثلاث عربان آخرون إلى الرميلة ومعهم الأغا فقتلوهم ذبحا ثم سلموا جثة الشواربى ورأسه لقومه فحملوه فى نعش وساروا به إلى قليوب وفاض الخبر بذلك فى مصر والقاهرة فخاف الناس وانكف أصحاب الفتنة وشدد بونابارته فى تتبع خطوات مراد بيك الكبير وتسيير الجند خلفه أينما سار فكان مراد بيك كلما لحقت به عساكر بونابارته ترفع إلى الصعيد حتى وصل بمن معه إلى عقبة الهواء وقد داخلهم من لقاء الفرنسيس هيبة ورهبة فلم يقابلوهم وبونابارته يشدد فى أمر قتالهم وقطع شأفتهم وقبض على كثير من التجار الترك والقليونجية المقيمين بالقاهرة ومصر بدلالة الأغا وسجنهم بقلعة الجبل وأخذوا ما كان لهم بوكالة ذى الفقار بالجمالية من متاع وغيره وجعلوا يفتشون على من بقى منهم بالقاهرة ومصر وبولاق وخصوصاً من كان منهم فى خدمة مراد بيك الكبير وجمعوا جميع الكريديين الذين كانوا فى الخدمة العسكرية عند إبراهيم بيك ومراد بيك وأدخلوهم فى صفوف العساكر الفرنساوية وزيوهم بزيهم وسير منهم طائفة خلف مراد بيك فلما تزايدت الشدة بمراد بيك ومن معه وضاقت عليهم الدنيا برحبها تخلى عنه على باشا ونصوح باشا وسارا مع بعض اتباع إبراهيم بيك الكبير من خلف الجبل إلى الشام فأمر بونابارته بتحصين تلك الأطراف فسار قوم من الفرنسيس وبنوا فى قطية بعض الأبراج والحصون ومهدوا فيها بعض العقبات وأكثروا من الأسلحة والذخيرة ومعدات القتال وأمر بونابارته بعد ذلك فقتلوا جميع من كان مسجوناً من المماليك والأجناد التركية بقلعة الجبل وكانوا كثيرين وأخذوا فى إعداد دواب النقل من جمال وبغال وحمير والتأهب لغزو الشام وقتال أحمد باشا الجزار واليها.

ولما شاع بين أهل الحجاز خبر تملك الفرنسيس على ديار مصر وتصرفهم فى أمور المسلمين هالهم هذا الأمر واستعظموه جداً وقام فيهم مغربى اسمه الكيلانى من مجاورى مكة والمدينة وجعل يحض الناس على الجهاد واستخلاص البلاد من أيدى الفرنسيس فانزعج الناس وضجوا بالحرب وعجوا إلى الله وجردوا الكعبة من أستارها وجعل الكيلانى يعظ الناس ويدعوهم إلى الجهاد وقرأ بالحرم كتاباً مؤلفاً فى معنى ذلك فاستنهض بعض الناس وبذلوا أموالهم وأنفسهم وكانوا زهاء الستمائة وركبوا

البحر إلى القصير مع من انضم إليهم من أهل ينبع ونزلوا بالصعيد فانضم إليهم العدد العديد من أهله وبعض الترك والمغاربة الذين كانوا مع مراد بيك والكشاف والغز الذين هربوا بعد مقتلة انبابه وزحفوا على جرجا وكان بها الجنرال ديزه بجيوشه يطارد مراد بيك ومن معه فلاقت جيوشه تلك الجموع واقتتل الفريقان فلم تثبت الترك والغز كعادتهم وانهزموا فتبعهم هوارة الصعيد واللموم المجتمعة من القرى وثبت الحجازيون برهة ثم اشتدت عليهم نيران الفرنسيس فتقهقروا ثم ولو الأدبار وترفع من هرب من الترك والمماليك إلى إسنا ومعهم حسن بيك الجداوى وعثمان بيك تابعه وجاء الخبر بذلك إلى بونابارته وبما وقع فتأخر عن الخروج بعسكره إلى غزو الشام وتربص حتى يرى ما سيكون من أمر الحجازيين ومازال الحجازيون يعاودون الكرة على الجنرال ديزه وعساكره والحرب بينهم سجال حتى تمكن منهم وبدد جموعهم وأعمل فيهم القتل والتشريد ومزقهم فى شهر رجب سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف وانقطع خبرهم ولم يظهر بعد ذلك منهم أحد، ووردت البشائر بما أصابهم إلى بونابارته فجعل يتأهب للخروج بجيشه وخرج فى مستهل رمضان من السنة قاصداً الشام وسارت طوائفه طائفة بعد أخرى فى أحمال ومهمات وكراع زائدة للغاية وعقد بونابارته قبل خروجه ديواناً جمع فيه العلماء والمشايخ والأعيان من النصارى والمسلمين وحدثهم بأمر خروجه بعسكره إلى الشام ليقطع شأفة إبراهيم بيك الكبير ومن معه كما فعلت عساكره بمراد بيك ومن معه وأنه سيمهد الطرق ويجعلها فى أمن ويفتح باب التجارة بين مصر والشام ترويجاً لأرزاق مصر وتوسيعاً لنطاق ثروتها قال بونابارته ولا أغيب عنكم سوى شهر ثم أعود فأبذل الجهد فى تحسين أحوال البلاد وترتيب جميع أمورها على النحو المرغوب بعون الله ولا أطالبكم إلا بالخلود إلى السكينة وملازمة الهدوّ ومراقبة أحوال العامة وحضهم على ملازمة السكون وعدم الاختلاط بالجند المقيمين بمصر والقاهرة وهذه وصيتى إليكم فاحفظوها فتعهدوا له بذلك.

وقد سلم زمام القاهرة إلى الجنرال دوغا والصعيد إلى الجنرال ديزه والإسكندرية إلى الجنرال مرمون وخرج إلى العادلية يوم الأحد خامس رمضان من السنة ومعه طوائف الجند وقاضى القضاة ومصطفى بيك كتخدا الباشا وبعض المشايخ والمديرين والمترجمين وغيرهم من أصحاب الوظائف العالية وترك عدة من العساكر بالقلاع والأبراج التى أنشأها فلما وصل إلى قلعة العريش قاتله من بها من العساكر وعدتهم

نحو الألف بين مغاربة وارنؤد فحاصر القلعة وضيق على من بها فأرسلوا يطلبون المدد من غزة فجاء إليهم قاسم بيك أمير البحرين ومعه طائفة كبيرة فلم يتمكن من الوصول إلى القلعة حيث هاجمه عساكر الفرنسيس وحالوا بينهم وبينها ثم كبسوا عليهم ليلاً فقتل قاسم بيك وقتل معه خلق كثير وفر من بقى وهم النزر اليسير واشتد بونابارته فى حصار القلعة وضيق عليها من كل جانب فاستأمن من بقى فيها فأمنهم وأنزلهم من القلعة وأدخل منهم بجيوشه من رام الدخول والانتظام فى سلكهم وصرف من لم يقبل إلى مصر تخفرهم طائفة من الفرنسيس ثم ارتحل إلى العريش واحتلها وكتب كتابا إلى أهل الشام ونصه :

فرمان عام موجه من أمير الجيوش إلى أهل الشام قاطبة بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين، من طرف بونابارته أمير الجيوش الفرنساوية إلى حضرة المفتين والعلماء وكافة أهالى نواحى غزة والرملة ويافا حفظهم الله تعالى، بعد السلام نعرفكم أننا حررنا لكم هذه السطور نعلمكم أننا حضرنا فى هذا الطرف لقصد طرد المماليك وعسكر الجزار عنكم وإلى أى سبب حضور عسكر الجزار وتعديه على بلاد يافا وغزة التى ما كانت من حكمه وإلى أى سبب أيضاً أرسل عساكره إلى قلعة العريش وبذلك هجم على أراضى مصر فلا شك كان مراده إجراء الحروب معنا ونحن حضرنا لنحاربه فأما أنتم يا أهالى الأطراف المشار إليها فلم نقصد لكم أذية ولا أدنى ضرر فأنتم استمروا فى محلكم ووطنكم مطمئنين ومرتاحين وأخبروا من كان خارجاً عن محله ووطنه أن يرجع ويقيم فى محله ووطنه ومن قبلنا عليكم ثم عليكم الأمان الكافى والحماية التامة ولا أحد يتعرض لكم فى مالكم ولا ما تملكه يدكم وقصدنا أن القضاة يلازمون خدمهم ووظائفهم على ما كانوا عليه وعلى الخصوص أن دين الإسلام لم يزل معززاً ومعتبراً والجوامع عامرة بالصلاة وزيادة المؤمنين، إن كل خير يأتى من الله تعالى وهو يعطى النصر لمن يشاء ولا يخفاكم أن جميع ما تأمر به الناس ضدنا فبغدر باطل ولا نفع لهم به ولأن كل ما نضع فيه يدنا لابد من تمامه بالخير والذى يتظاهر لنا بالحب يفلح والذى يتظاهر بالغدر يهلك ومن كل ما حصل تفهمون جيداً أننا نقمع أعداءنا ونعضد من يحبنا وعلى الخصوص لكوننا متصفين بالرحمة والشفقة على الفقراء والمساكين.

وسار بجيوشه إلى غزة فوصل فى ليلة التاسع عشر من رمضان إلى خان يونس فباتوا ليلتهم وعند الفجر ساروا إلى غزة فشاهدوا قبل الظهر بقليل عساكر المماليك والجزار معسكرين أمامها فهاجموهم فلم تدافع عساكر المماليك إلا بالأمر الهين ثم

ولوا جميعاً الفرار فتبعهم الفرنسيس وقاتلوا مؤخرتهم قتالاً يسيراً وبينما كانت العساكر الأفرنسية تطارد جند المماليك انعطف الجنرال كليبر بجيوشه إلى غزة فملكها واحتلها وأخذ ما فيها من الذخائر والشعير والبقسماط وزهاء الأربعمائة قنطار بارود واثنى عشر مدفعاً وعدداً عظيماً جداً من الخيام وغير ذلك من معدات الحرب وبعث إلى القاهرة ببعض الرايات التى غنموها من قلعة العريش وغزة صحبة طائفة من الجند فدخلوا القاهرة فى كبكبة عظيمة وبأيدى بعضهم تلك الرايات ومروا من وسط المدينة إلى الجامع الأزهر فاصطفوا رجالاً وركباناً بباب الجامع وضربوا طبولهم وأبواقهم ثم طلبوا شيخ الجامع فسلموه تلك الرايات وأمروه برفعها على منارات الجامع فنصبوا رايتين منها على المنارة الكبيرة وواحدة على منارة أخرى فلما رفعت تلك الرايات أطلقوا لها عدة مدافع من قلعة الجبل وكان ذلك ليلة عيد الفطر فلما كان عند الغروب أطلقوا عدة مدافع أيضاً إعلاماً بالعيد وطاف بعد العشاء أصحاب الشرطة ينادون بالأمان وخروج الناس على عادتهم لزيارة القبور بالقرافتين والاجتماع لصلاة العيد وأن يفعلوا جميع عوائدهم فى ذلك اليوم.

وسارت جيوش بونابارته من غزة فى الثالث والعشرين من رمضان فوصلوا إلى الرملة فى الخامس والعشرين منه فانجلت عنها عساكر الجزار وولوا هاربين فدخلها فريق من الفرنسيس وملكوا ما فيها من الذخائر وآلات الحرب ثم قصدوا يافا فوصلت طلائع الجيش إليها فى الثامن والعشرين من رمضان ثم حاصروها شرقاً وغرباً فتم حصارها وشددوا عليها وسير بونابارته جيشاً آخر إلى عكا ليناوشها القتال حتى يأتى إليها بجميع عساكره وخندق حول يافا وعمل المتاريس ووضعوا عليها المدافع العظيمة فخرج عساكر الجزار للقتال وهجموا على متاريس الفرنسيس هجمة شديدة للغاية فلاقاهم عسكر الفرنسيس وصدموهم صدمة قوية فكروا راجعين إلى المدينة وامتنعوا فى قلعتها فعند ذلك أرسل بونابارته خطاباً إلى والى يافا يعلمه بأن الغرض من حضوره إلى يافا إنما هو قهر عسكر الجزار وإخراجهم وأنه إن جنح إلى التسليم بالرضا كان ذلك فيه مصلحة للبلد وأهلها وحقن للدماء وإن أبى إلا الحرب فلا يمضى إلا قليل من الساعات حتى ينسف أسوار المدينة نسفاً ويعمل السيف فى رقاب أهلها حتى لا يبقى بها أحد فلما علم الوالى بما فى الخطاب قبض على رسول بونابارته ووضعه فى السجن ولم يجب بونابارته بشىء فلما غاب الرسول وانقطع الأمل من رجوعه أمر بونابارته فأطلقوا المدافع وتابعوا الرمى على المدينة بالقنابل

وحمى الوطيس وارتفع الدخـان إلى عنان السماء واشتد الرمى فلم يمض قليل من الزمن حتى تعطلت مدافع حصون يافا وتراسل الرمى من متاريس الفرنسيس ومازالوا حتى تهـدم بعض السور وحـمل الفرنسيس حـملة رجل واحد على السـور فملكوا الأبراج ودخلوا المدينة عنوة وأعـملوا السيف فى أهلها واشـتد الأمر ونـهب العسكر المدينة وأخذوا جمـيع ما صادفوه فكان يوم وليلة يشيب من هولهمـا الرضيع ثم أمر بونابارته بالكف عن القتل والنهب فكان الموتى لايكادون يدخلون تحت حصر، وكان بمدينة يافا عـدد كبير من أهالى مصـر ودمشق الشام وحلب وغيـرها فرسم بونابارته برجوع كل فـريق منهم إلى وطنه سواء كان من المحـاربين أو غير المحـاربين وجمع الغنائم فكانت شـيئاً كثـيراً من الأموال والمتـاع والسلاح والكراع وغيـر ذلك فأرسل بعضهـا إلى مصر مع بعض رايات عسـكر الجزار وعددها ثلاث عشرة رايـة فرفعت على منارات الجامع الأزهر وأنـزلوا ما كان عليـها من رايات قلعة العـريش وأطلقوا لذلك عدة مدافع من قلعة الجبل ثم سار بونابارته بعساكره إلى حيفا ففتحها وغنم ما فيها فكان شيئاً كثيراً جداً وانتقل إلى عكا فحاصرها فتمنعت عليه فشدد فى حصارها وضيق وهى لا تزداد إلا منعة قد طال حصارها.

وبينما كان بونابارته يقـاتل أهل الشام ويفتح مدنها وبلدانها كان عـساكره بمصر يقاتلون أيضـاً الهاربين من الأمـراء المصريين ويبددون شـملهم بالصعـيد والشرقـية ودمنهور ويتبعون خطوات الألفى أينما سار فلما ضاق بالألفى رحب الصعيد نزل فى قلة من أصحابه من خلف الجـبل ولحق بالشرقية وراسل قـبائل العربان ومن بقى من المماليك فانضـم إليه منهم جماعة كـثيرة وتأهبوا لقتـال الفرنسيس فسـارت لقتالهم طائفة من العسكر وسـارت أخرى أيضاً إلى دمنهور لقتال أهلهـا حيث خرجوا على العمـال وجباة الأموال وشـقوا عصـا الطاعة وتبعوا رجـلاً مغربيـاً نزل على دمنهور وادعى المهدوية وصار يدعو الناس ويحرضهم على القتال والجـهاد فاجتمع إليه كثير من أهل البحيرة وغيرهم وجـاءوا إلى دمنهور وقاتلوا من بها من الفرنسيس وطردوا العمال واسـتمروا على ذلك أياماً كـثيرة وجعل ذلك المغـربى يكاتب البلاد ويحض أهلها على القتال فلما وصلت إليها العساكر الفـرنساوية قاتلتها وأعملت فيها السيف وأفحشت فى القتل والنهب وأراقت فيها من الدماء شيئاً كثيراً جداً ونهبت ما وجدته فكان شيئـاً لايكاد يدخل تحت حصر وقتـل فى هذه الوقعة ذلك المغربى وكـثير من أخصائه وكبار دعوته.

وجاء الخبر بذلك إلى بونابارته وهو على حصار عكا ففرح وبالغ فى الحصار وأجهد النفس وتابع الرمى بالقنابل عليها فلم ينل منها مناله وامتنعت عليه فصمم على تركها والعود إلى مصر وكتب إلى قائده بمصر يقول: اعلم أيها الصديق أنه ما حملنى على ترك حصار عكا والعودة إليكم إلا خمسة عشر سبباً الأول قيام عسكرنا أمام أسوارها ستة أيام بدون حرب حتى وصل إليها بعض ضباط الإنجليز فحصنوها تحصيناً هندسياً قد زاد فى منعتها الثانى أخذ الإنجليز لمراكبنا الكبيرة الستة بما فيها من المدافع عند يافا الثالث كثرة الموات فى عسكرنا بالطاعون واشتداده الرابع عدم حصول عسكرنا على الأقوات الكافية بأسباب خراب البلاد المجاورة لعكا الخامس اضطراب ضباطنا من حوادث الصعيد وعصيان مراد بيك الكبير وموت طائفة كبيرة من الجنود الفرنساوية فى تلك الأصقاع السادس خروج الحجازيين مع الكيلانى إلى الصعيد السابع خروج المغربى المدعو محمد ومن خرج معه من أهالى البلاد الثامن ضبط مراكب الإنجليز لبوغاز الإسكندرية ودمياط التاسع وقوف عمارة الروس أمام رودس العاشر ورود الخبر بنقض الصلح بين أمتنا والأمة النمساوية بتحريض الإنجليز الحادى عشر موت تيبو أحد ملوك الهند أعداء الإنجليز وقد كان بينى وبينه عهد قبل نزولى بعكا الثانى عشر موت كفرللى الذى قد عملت المتاريس برأيه وإشارته وعجزى عن تعيين آخر مكانه لا يلبث أن يغير هيئة تلك المتاريس فيحوجنا إلى عطلة لابد منها، وكفرللى هذا هو المعروف بأبى خشبة وهو من فحول أركان حرب بونابارته، الثالث عشر نزول مصطفى باشا من القسطنطينية بمراكب الإنكليز وسيره إلى مياه الإسكندرية الرابع عشر وقوف مراكب الإنكليز أمام عكا الخامس عشر ما رأيناه من وجوب إطالة الحصار إلى أربعة أشهر على الأقل مع ما وراء ذلك من الارتباك والأخطار التى ذكرناها فهذه يا صديقى هى الأسباب الحاملة لى على ترك الحصار والعود إليكم أهـ.

وكان الإنجليز قد هيجوا على بونابارته الخواطر وحزبوا عليه سائر أهالى الشام من المسلمين والنصارى وأرسل سفيرهم المقيم فى دار السلطنة منشورات إلى لبنان يحض فيها مشايخ وأمراء تلك الأصقاع على الخروج على بونابارته وجيوشه ومد يد المساعدة للدولة العثمانية وأرسل إلى كبار النصارى منهم صورة منشور كان أصدره بونابارته يقول فيه أنه هدم أركان الديانة النصرانية وقوض بنيانها فكان لنشر هذا المنشور بينهم أثر مؤلم جداً فتحزبوا عليه ومنعوا من إعطائه الدقيق والخمر والمؤنة

للعسكر ولا سيما البارود وكانت السفن الإنجليزية تمخر فى البحار طولاً وعرضاً وتضرب كل ما تصادفه من مراكب الفرنسيس وتدمرها تدميراً ورست أمام أسوار عكا بحراً وجعلت تتابع رمى القنابل على معسكر بونابارته ليلاً ونهاراً حتى عرقلت مساعيه وأضعفت أمانيه وبلغت منه الروح التراقى فارتحل عن عكا فى الحادى والعشرين من ذى الحجة سنة أربع عشرة ومائتين وألف يريد مصر بجميع جيوشه وأركب الجرحى والمرضى منهم على دواب الحمل وخيول الفرسان وسار الجيش يطوى تلك الصحارى طياً لعله يدرك القاهرة فقاسوا الشدائد والأهوال وأعمل فيهم الظمأ وتفشى فيهم الوباء وكانت مراكب الإنجليز تتعقبهم فى البحر وترمى عليهم القنابل كلما اقتربوا فى طريقهم من ساحل البحر والعربان تتبعهم من خلف تشن الغارة على مؤخرتهم كل قليل وكذلك كانت الجيوش العثمانية تزحف خلفهم مرحلة بعد مرحلة فكانوا لذلك يخربون كل بلد أو مدينة يمرون بها كى لا تتمكن خصومهم من الاستيلاء عليها فلما جاءوا العريش أمر بونابارته فبالغوا فى تحصينها ومنعتها ولبثوا بها أياماً ولا ماء عندهم وكان القيظ شديداً جداً فكانوا يأتون بالماء من بعض المستنقعات الآجنة فيشربونه وهو مشحون بالديدان والعلق فكان العلق يلصق بأفواههم ويمتص دماءهم ثم رحلوا عن العريش فوصلت مقدماتهم ضواحى القاهرة فى يوم الثلاثاء سابع المحرم سنة أربع عشرة ومائتين وألف هجرية وأخبروا بوصول بونابارته إلى الصالحية فلما كانت ليلة الجمعة عاشره أرسلوا إلى المشايخ والأعيان للخروج لملاقاته فاجتمعوا بالأزبكية عند الفجر بالمشاعل ودقت الطبول فركبوا وركب جميع أرباب الوظائف العالية والمديرون ونائب بونابارته مع كبار العسكر وساروا إلى العادلية فقابلوا بونابارته وسار معهم فى خواصه ودخلوا إلى القاهرة من باب النصر فى موكب حافل للغاية وأمامهم الطبول وخلفهم المركبات والأحمال وساروا على هذا الحال إلى أن دخل بونابارته داره بالأزبكية وأطلقوا عدة مدافع.

فلم تكد تستقر ببونابارته وجيوشه الراحة من غزوة الشام وقيظ تلك الصحارى حتى جاء الخبر بانحدار مراد بيك وأصحابه فراراً من الفرنسيس ونزوله بدهشور أياماً ثم ارتحاله منها إلى نجع الطرانة ثم إلى البحيرة من خلف الجبل فأغضبه هذا الخبر وعبر النيل من فوره فى عسكره ونزل على نجع الطرانة ودهشور وضربهما وأهلك منهما خلقاً كثيراً جداً فعلم بعد ذلك أن مراد بيك عاد ثانياً إلى الأقاليم القبلية وأن عثمان بيك الشرقاوى وسليمان أغا الوالى وآخرين مروا من خلف الجبل إلى ناحية

الشرق فسير بونابارته لقتالهم برتلمان الرومى فى عسكر عظيم من أخلاط الروم والمماليك والقبط والفرنجة فأدركوهم على مقربة من مدينة بلبيس وأتوهم من خلف الطريق المسلوك فأخذوهم غيلة وكان فى هذا الحين عثمان بيك يغتسل فلما أحسوا به بادروا جميعاً إلى الفرار وركبوا وركب عثمان بيك بقميص واحد وطاقية على رأسه وهربوا وتركوا ثيابهم ومتاعهم وذخرتهم وجميع ما كان معهم حتى قدور الطعام على النار ووجدوا على فراش عثمان بيك مكاتيب من إبراهيم بيك الكبير يستدعيهم إلى الحضور إليه بالشام.

وشاع الخبر عقب ذلك بأيام بحضور مراكب كثيرة أمام مدينة الإسكندرية وأبى قير وأن بها كثيرا من الجنود العثمانية فكثر لغط الناس وتحدثهم بهذا الأمر وتحقق الخبر بخروج طوائف الفرنسيس وعبورهم النيل إلى الجيزة واهتمامهم بإعداد مهمات الحرب وآلات القتال ثم خروج بونابارته أيضاً ومعه المعلم إبراهيم الجوهرى واهتم حنا بنتو متولى ساحل بولاق بجمع المراكب وشحنها بالمعدات والذخيرة وغيرها وأقام بونابارته فى مخيمه بجانب الأهرام حتى تكامل الجيش وسير المقدمة وركب هو فى ثانى يوم وهو الثلاثاء ثانى عشرى صفر سنة أربع عشرة ومائتين قاصداً الإسكندرية فلم يكد يصل بجميع جيوشه إلى البحيرة حتى جاءته الأخبار بنزول فريق عظيم من العساكر العثمانية على أرض أبى قير فجد فى السير يريد الوصول على عجل.

قال صاحب عجائب الآثار وكتب بونابارته إلى أرباب الديوان بمصر خطاباً يقول فيه: لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى محفل الديوان بمصر المنتخب من أحسن الناس وأكملهم بالعقل والتدبير عليكم سلام الله تعالى ورحمته وبركاته بعد مزيد السلام عليكم وكثرة الأشواق الزائدة إليكم نخبركم يا أهل الديوان المكرمين العظام بهذا المكتوب أننا وضعنا جماعات من عسكرنا بجبل الطرانة وبعد ذلك سرنا إلى إقليم البحيرة لأجل ما نرد راحة الرعايا المساكين ونقتص من أعدائنا المحاربين وقد وصلنا بالسلامة إلى الرحمانية وعفونا عفواً عمومياً عن كامل أهل البحيرة حتى صار أهل الأقليم فى راحة تامة ونعمة عامة وفى هذا التاريخ نخبركم أنه وصل ثمانون مركباً صغاراً وكباراً حتى ظهروا بثغر الإسكندرية وقصدوا أن يدخلوها فلم يمكنهم الدخول من كثرة البنب والكلل النازلة عليهم فرحلوا عنها وتوجهوا يرسون بناحية أبى قير وابتدءوا ينزلون فى البر وأنا الآن تاركهم وقصدى أن

يتكامل الجميع فى البر وأنزل عليهم أقتل من لا يطيع وأخلى بالحياة الطائعين وآتيكم بهم محبوسين تحت السيف لأجل أن يكون فى ذلك شأن عظيم فى مدينة مصر والسبب فى مجئ هذه العمارة إلى هذا القطر العشم بالاجتماع على المماليك والعربان لأجل نهب البلاد وخراب القطر المصرى وفى هذه العمارة خلق كثير من الموسكو الإفرنج الذين كراهتهم ظاهرة لكل من كان يوحد الله وعداوتهم واضحة لمن كان يعبد الله ويؤمن برسول الله يكرهون الإسلام ولا يحترمون القرآن وهم نظراً لكرههم فى معتقدكم يجعلون الآلهة ثلاثة وأن الله ثالث تلك الثلاثة تعالى الله عن الشركاء ولكن عن قريب يظهر لهم أن الثلاثة لا تعطى القوة وإن كثرة الآلهة لا تنفع بل أنه باطل لأن الله تعالى هو الواحد الذى يعطى النصرة لمن يوحده هو الرحمن الرحيم المساعد المعين المقوى للعادلين الموحدين الماحق رأى المفسدين المشركين وقد سبق فى علمه القديم وقضائه العظيم أنه أعطانى هذا الإقليم وقدر وحكم بحضورى عندكم لأجل تغييرى الأمور الفاسدة وأنواع الظلم وتبديل ذلك بالعدل والراحة مع صلاح الحكم وبرهان قدرته العظيمة ووحدانيته المستقيمة أنه لم يقدر للذين يعتقدون أن الآلهة ثلاثة قوة مثل قوتنا فلم يقدروا أن يعملوا الذى عملناه ونحن المعتقدون وحدانية الإله ونعرف أنه العزيز القادر القوى القاهر المدبر للكائنات والمحيط علماً بالأرضين والسموات القائم بأمر المخلوقات هذا ما فى الآيات والكتب المنزلات ونخبركم بأن المسلمين إن كانوا بصحبتهم يكونوا من المغضوب عليهم لمخالفتهم وصية النبى عليه أفضل الصلاة والسلام بسبب اتفاقهم مع الكافرين الفجرة اللئام لأن أعداء الإسلام لا ينصرون الإسلام ويا ويل من كانت نصرته بأعداء الله وحاشا الله أن يكون المستنصر بالكفار مؤيداً أو يكون مسلما ساقتهم المقادير للهلاك والتدبير مع الثقالة والرذالة وكيف لمسلم أن ينزل فى مركب تحت بيرق الصليب ويسمع فى حق الواحد الأحد والفرد الصمد من الكفار كل يوم تخريفاً واحتقاراً لا شك أن هذا المسلم فى هذا الحال أقبح من الكافر الأصلى فى الضلال نريد منكم يا أهل الديوان أن تخبروا بهذا الخبر جميع الدواوين والأمصار لأجل أن يمتنع أهل الفساد من الفتنة بين الرعية فى سائر الأقاليم والبلاد لأن البلد الذى يحصل فيه الشر يحصل لهم مزيد الضرر والقصاص انصحوهم يحفظوا أنفسهم من الهلاك خوفاً عليهم أن نفعل فيهم مثل ما فعلنا بأهل دمنهور وغيرها من بلاد الشرور بسبب سلوكهم المسالك القبيحة فقاصصناهم ، والسلام تحريراً فى الرحمانية يوم الأحد خامس عشر صفر سنة أربع عشرة ومائتين وألف هجرية انتهى بنصه.

قلت: وفى هذا الخطاب إن كـان صحيـحاً من النقـد على بونابارته والتعـييب ورميه بالغش والخديعة ما يزرى ويحط بعظمته ويذهب بشهرته.

وسار بونابارته بجيوشه حتى نزل على أبى قير واقتتل مع الجيوش العثمانية التى كانت بالقـلاع قتالاً عـنيفاً ومـازال حتى قهـرها واسترد منهـا ما أخـذته من القلاع والحصون وأخذ مصطفى باشا أمير الجيوش العثمانية أسيراً وكذلك عثمان خجا الذى كان عاملاً على رشيد على عهد إبراهيم بيك الكبير وقتل من العساكر العثمانية خلقاً كثيراً وغنم الفرنسيس من آلات الحـرب والذخيرة والمؤن وغير ذلك ما لايكاد يدخل تحت الحصـر ثم قفل بونابارته راجعـاً بجيوشـه ورايات النصر تخـفق على رءوسهم فدخل القاهرة ليلة الأحد التاسع من ربيع الأول من السنة ومعه عدة كثيرة من أسرى المسلمين وشاع الخبر بحضـوره فى تلك الليلة فلم تصدق الناس ذلك وذهب جماعة ليتحـققوا الخبـر على جليته فشـاهدوا الأسرى وقوفاً فى وسط بركة الأزبـكية وبقوا كذلك إلى ظهـر اليوم ثم أرسلوا بعضهم إلى جـامع الظاهر بيبرس خارج الحـسينية وأصعدوا باقيهم إلى قلعة الجبل وبعثوا بمصطفى باشا إلى الجيزة وسيروا عثمان خجا إلى إسكندرية فكان لهذا الحـادث أثر مؤلم فى خواطر المصـريين فقد كـانوا يتمنون الخلاص على يدى أولئك المقاتلين فـخابت منهم الآمال، ولما استقـر ببونابارته المقام أمر بعثمان خجا فنقل من الإسكندرية إلى رشيد وأدخلوه إليها فى طائفة من العسكر مكشوف الرأس حافى الأقدام وطافوا به حول البلد وهو على هذا الحال ثم ساروا به إلى بيته الذى كان يسكنه قبل فراره إلى القسطنطيـنية وأوقفوه أمام بابه واحتزوا رأسه وعلقوها على إحدى نوافذ الدور الأعلى ليراها الناس كافة.

وعاتب بونابارته أرباب الديوان بمصر على عدم ولائهم وإخـلاصهم للفرنسيس وخص بشديد العتاب الشيخ المهدى والشيخ الصاوى فلاطفاه وسايراه حتى أزالا عنه ما كـانا يخشيانه ولبـث بونابارته يدبر الأمور على ما يشـاء إلى أن كان يوم الاثنين سادس عشر ربيع الأول من السنة ركب من القاهرة وخرج خروج المسافر فى قلة من خـواصه وسـار إلى الإسكندرية فـلما نزل بهـا اسـتـقدم الجنرال مـنو وولاه قيـادة الإسكندرية وولى الجنرال كلابير نيابة الغيبـة بمصر وكتب له بذلك مرسوما ثم أعلم الأميرال جانتـوم بعزمه فأعد له دارعتين عند العجـمى فلما رتب أموره على ما أراد ركب ليلاً فى قلة من خواصه ونزل بإحدى الدارعتين وبات ليلته تلك وأقلع صباحاً وقد تركوا خيولهم على البر ولم يعلم أحد بخبر قـيامه إلى عاصمة الفرنسيس حتى جاء كـتابه إلى الجنرال دوجيـه بمصر فتلاه على أرباب المجلـس فكان مضمونه قـيام

بونابارته من الإسكندرية إلى باريز ليمهد لعمارته البحرية المسالك والعقبات التى أحدثتها سفن الإنجليز فى سبيلها وأنه لا يتغيب عن مصر أكثر من ثلاثة أشهر وأنه أقام على مصر الجنرال كلابير نائب الغيبة فلما قرئ هذا الخطاب أخذ العجب من أرباب المجلس مأخذه وكادوا لا يصدقونه لملازمة مراكب الإنجليز مياه الإسكندرية صيفاً وشتاء ومنعها جميع المواصلات بالإسكندرية فكرروا على الأمير دوجيه السؤال فأكد لهم سفر بونابارته فى يوم الجمعة حادى عشر ربيع الأول من السنة وحضر الأمير كلابير من معسكره بدمياط إلى القاهرة ونزل فى مكان بونابارته ببيت الألفى بالأزبكية فذهب المشايخ والأعيان وأرباب الديوان لزيارته فلم يروا منه صدرا رحباً ولا وجهاً باشاً كما كانوا يرون من بونابارته وركب فى ثانى يوم فى موكب حافل للغاية وصعد إلى قلعة الجبل وأمامه طائفة كبيرة من القواصة بالعصى يأمرون الناس بالقيام إجلالا له وخلفه عدة كثيرة من الفرسان والمشاة وطوائف الأجناد والوالى والأغا وغيرهما ولبث بالقلعة ساعة ثم رجع إلى مقعده وكان رجلاً حازماً واسع التأمل كبير الفكر عظيم الخبرة بفنون السياسة والحرب فلما استقر به المنصب كتب إلى أرباب الحل والعقد بباريز عاصمة الفرنسيس يقول ما ترجمته :

قد رحل بونابارته عن مصر إلى باريز ولم يعلم بخبره أحد ولم أكن لأعلم بذلك إلا بعد أن أتانى خطابه وقد علمت أنه أرسل بكتاب أيضاً إلى صدر الدولة العثمانية بعد علمه بوصول الصدر المشار إليه إلى دمشق الشام ولا يخفاكم أنه لم يكن لنا عدو سوى المماليك فقط أما الآن فقد أصبح أعداؤنا غير المماليك وهم فى كل من دولة الإنجليز والدولة العثمانية ودولة الروس وقد صارت جنودنا فى نصف العدد الذى احتلت به ديار مصر وهم مع ذلك متفرقون فى جوف البلاد من العريش والإسكندرية إلى جزيرة أسوان وليس لديهم من معدات الحرب ما يكفيهم لتعطيل معامل الأسلحة والبارود وكذلك ليس عندهم من الثياب ما يقيهم من أمراض البلاد ولا مال عندنا بقدر الكفاية إذ خسرت الخزينة زهاء اثنى عشر ألف ألف من الفرنكات هذا وإن كنا قد ضربنا المماليك فمزقنا جمعهم ولكن ما برح مراد بيك الكبير يقاتلنا فى الأقاليم القبلية وفى عدة وافرة من الرجال وأخلاط الناس ولا سبيل إلى التغلب عليه إلا بعد أيام كثيرة وقد جاء صدر الدولة العثمانية من القسطنطينية إلى دمشق الشام من أجل الزحف علينا وقتالنا فلا نعلم ما سيكون من وراء ذلك أما حصوننا وقلاعنا فلا تزيد فى قوتنا شيئاً ومنها حصن العريش فإنه لايدفع مهاجما

وما الإسكندرية إلا شبه معسكر تحيطه زربية فلذلك أرى أن أنجح الوسائل وأفلحها أن تفتح المخابرة مع الدولة العثمانية عسى نتفق على ما يكون فيه المصلحة فقد علمت اليوم أن عمارة عثمانية عظيمة رست أمام حصون دمياط اهـ.

وجاء الخبر بانحدار مراد بيك الكبير إلى الفيوم وعبثه بالبلاد وتكليف أهاليها بالمغارم والكلف فأرسل لقتاله عسكرا فساروا والتقوا معه ووقعت بينهم وقائع عدة ثم ترددت بين مراد بيك وبين الأمير كلابير الرسل والمراسلات وتكلموا فى أمر الصلح فاتفقوا على شروط منها تقليد مراد بيك إمارة الصعيد من قبل دولة الفرنسيس فوقعت بينهما هدنة على ذلك وكادت تتم لمراد بيك الإمارة وتفرغ الأمير كلابير إلى غير ذلك فحصن الصالحية والقرين وبلبيس وأكثر فيها من الأسلحة والذخيرة ورتب الأربطة وهيأ الحصون وحصن الأبراج وبالغ فى ترتيبها فكانت الأخبار تزداد وروداً بتجمع العساكر السلطانية فى الديار الشامية وقرب حلولها بمصر لإخراج الفرنسيس منها وإجلائهم عنها وكان لما سافر بونابارته إلى باريز وترك الأمر فى مصر إلى الأمير كلابير طمعت الدولة العثمانية فى استخلاص البلد من أيدى الفرنسيس وزادها رغبة فى ذلك السير سدنى سمث أمير السفن الإنجليزية فرسم السلطان إلى يوسف باشا الصدر الأعظم يومئذ بالذهاب إلى الشام ليجمع منها الجند والعسكر ويسير بهم إلى برا إلى مصر وسير جيشاً آخر على ظهر العمارة الإنجليزية ومعه كثير من ضباط الإنجليز وكبار الحرب فسارت العمارة بمن فيها حتى أتت دمياط ونزل من كان بها من العسكر فى قلعة متخربة شرقى البوغاز فخرج الفرنسيس لقتالهم فحاصروهم وضربوهم حتى أجلوهم عنها وقد مات منهم خلق كثير ولم ينالوا من الفرنسيس أما يوسف باشا فإنه لما نزل بالشام ومن معه من كبار السلطنة قيل أنهم عسفوا فى البلاد وضربوا على أهلها الضرائب الفادحة وجبوا الأموال كرهاً وعاثوا فى الأرض مفسدين فكانت شدة عظيمة على أهل الشام ومازالوا على هذا الحال حتى رحلوا عنها وجاءوا إلى غزة فى منتصف رجب من السنة ثم العريش وحاصروا من بها من الفرنسيس وقاتلوهم حتى ملكوا قلعتها فى التاسع عشر من رجب المذكور وغنموا جميع ما كان بها من الذخيرة وآلات الحرب ودخل قائد الجيوش السلطانية وجماعة كبيرة من عسكره وبعض الأمراء المصريين إلى القلعة بعد انسحاب الفرنسيس منها ورفعوا عليها أعلامهم وضربوا طبولهم وأبواقهم فرحاً بأخذها من أيدى الفرنسيس وكان الفرنسيس قد تركوا فيها جندياً عند مخازن البارود

مختفياً فلما صاروا جميعاً داخل القلعة ألهب البارود وكان شيئاً كثيراً للغاية فزلزلت الأرض فى الحال زلزالها وتطايرت أبنية القلعة بمن فيها كافة فمزقتهم عن آخرهم وتطايرت أشلاؤهم إلى عنان السماء ومات كثير من العساكر الذين كانوا خارجاً عنها بما سقط عليهم من النيران والأحجار المتطايرة ولم يبق إلا نفر قليل فكان حادثاً مريعاً جداً ومنظراً تقشعر منه الأبدان وقد تغطى وجه الأرض بالإشلاء والعظام والمشامش المتفتتة وجاءت الأخبار إلى الأمير كلابير فخرج بعسكره من القاهرة وسار مسرعاً إلى الصالحية وضم إليه من بقى من عسكر قلعة العريش وكان قبل دخول العساكر السلطانية إلى قلعة العريش قد ترددت الرسل بين الفرنسيس والعثمانيين على يد أمير الدوارع الإنجليزية بشأن تقرير الصلح على قاعدة صالحة للفريقين وجاءت مكاتبة من يوسف باشا إلى مقدم الفرنسيس باستدعاء رجلين ليتشاور معهما على أمر يكون فيه المصلحة للفريقين فوجهوا إليه رئيس الكتاب بوسليك والأمير ديزه أمير جيوش الصعيد فسارا بحراً وغابا أياماً افتتح فى خلالها العثمانيون قلعة غزة والعريش وجاءوا إلى الصالحية فى الثانى والعشرين من شعبان من السنة ومعهم رئيس كتاب الدولة والدفتردار ثم حضروا جميعاً إلى القاهرة لتقرير الصلح وقد جنح الفريقان إليه حقناً للدماء وأظهر الفرنسيس من المسايرة ما اؤتمن معه جانبهم وزال عن رجال الدولة الخوف من مكرهم فحصل الاتفاق على مصالحة تضمنت اثنتين وعشرين شرطاً وهى معربة

قد صار الاتفاق بين كل من الجنرال ديزه والجنرال بوسيلك مدير الحدود العام النائبين عن الجنرال كلابير قائد عموم جيوش الفرنسيس بمصر من جهة وما بين سامى المقام مصطفى رشيد أفندى الدفتردار ومصطفى راسيه أفندى رئيس الكتاب المفوضين بكمال التفويض من قبل حضرة الوزير يوسف باشا من جهة أخرى على ما هو آت :

حقنا للدماء واستبقاء للنوع الإنسانى من غوائل الحروب وتوالى الخطوب قد رغب ديوان الجمهورية الفرنساوية فى عقد هذا العهد بإخلاء الديار المصرية من جميع الجيوش الفرنساوية رجاء أن تذهب الوحشة الموجودة الآن ما بين المشيخة الفرنساوية والدولة العثمانية وتتوطد به أيضاً دعائم السلام فى أنحاء المغرب ولذلك قد صار التوقيع ممن ذكروا على الشروط الآتية عهداً وميثاقاً كافلين بإخلاء الديار المذكورة من جميع جيوش المشيخة المشار إليها :

الشـرط الأول : تنسحب العساكر والأجناد الفرنساوية بجميع أسلحتها ومهماتها وآلات حربها وذخـيرتها إلى ثغور الإسكندرية ورشـيد وأبى قير ليسـيروا منها على ظهور السفن التى ترد من جـانب المشيخة وإن لم توجد فمن طرف الدولة العـثمانية بقدر الكفاية وقد تعين لذلك مدة شهر واحد وبعد مضى هذه الوعدة التى تبتدئ من تاريخ التوقيع على هذه الشروط يحتل بقلـعة الإسكندرية نائب من قبل الباب العالى ومعه خمسون شخصاً.

الثـــانى : تحصل المهادنة مـدة ثلاثة أشهر لا يحصل فيـها حرب بكامل الديار المصرية اعتـباراً من تاريخ التوقيع على هذا العقـد وإذا انقضت هذه المدة قبل أن ترد السفن من طرف الدولة العـثمانية اللازمة لـنقل جميع العساكـر جاز تمديدها لأجل تتمكن معـه الدولة المشار إليها من إعداد السفن اللازمـة لذلك ووجب محافظة كل من الفريقين على مـا بيده من المواقع والحصون والقلاع منعا لما عـساه أن يحدث من الفتن بأسباب دخول العساكر العثمانية أو من خروج الأهالى عن الطاعة.

الثـالث : انسحاب الجيوش الفرنساوية وتسييرها يكون بأوامر وتعليمات كل من يعينه لذلك الباب العالى والأمير كلابير أمير الجيوش المشار إليها وإذا وقع خلاف بين الوكيلين المذكورين يكون فض هذا الخـلاف والحكم فيه موكولاً لعهـدة السير سدنى سمث أميـر الدوارع الإنجليزية ويجب أن يتبع فى فضه الأصـول المقررة فى القوانين البحرية المرعية بالدولة الإنجليزية.

الرابـع : إخلاء كل من قطية والصالحية من جميع الجيوش الفرنساوية يكون فى بحر ثمـانية أيام بالأقل وعشـرة أيام بالأكثر من تاريخ التـوقيع على هذا العهـد أما المنصورة فـمن بعد خمســة عشرة يوماً وأمـا دمياط وبلبـيس فمن بعد عشـرين يوماً والسويس تخلى كذلك قبل إخلاء مصر والقاهرة بستة أيام ولا تخلى البلدان والمحال الواقعـة فى الجهة الشرقـية من النيل إلا فى اليوم العـاشر من إخلاء مصـر والقاهرة وكذلك مـصر السفلى لا تخلى بأجـمعهـا إلا بعد خمســة عشرة يومـاً من التاريخ المذكور أما الجهة الغربية وما يتبعها فإنها تبقى بيد الفرنسيس إلى أن يتم جلاء جميع العساكـر من الصعيد ومصـر والقاهرة ويجب أن تسلم كل جهة من جمـيع الجهات التى كانت مقاماً للجيوش الفرنساوية بالحالة التى هى عليها.

الخامس: يصير إخلاء مصر والقاهرة بعد مضى أربعين يوماً على الأقل وخمسة وأربعين على الأكثر اعتباراً من تاريخ التوقيع على هذا العهد إن أمكن ذلك.

السادس : يتعهد الباب العالى أن لا يحصل للعساكر والأجناد الفرنساوية لدى انسحابهم من الجهات الغربية أدنى إهانة ولا أن يمسوا بأقل ضرر بحيث يخرجون بكامل أسلحتهم وأمتعتهم وذخيرتهم بدون أن يلحق بأحد منهم إهانة لا من أفراد الأهالى ولا من أفراد العساكر العثمانية.

السابع : قياماً بهذا الشرط ومنعاً لما ربما أن يحدث يجب حتماً تبعيد مواقع العساكر الإسلامية عن مواقع العساكر الفرنساوية بقدر الاستطاعة.

الثامن : اعتباراً من تاريخ التوقيع على هذا العهد يطلق سراح جميع المسجونين من تبعة الدولة العثمانية على اختلاف أجناسهم فى جميع أنحاء القطر ما عدا من هم ببلاد الفرنسيس وكذلك يخلى سبيل جميع التبعة الفرنساوية المسجونين بكامل المدن والأساكل والبنادر العثمانية ويعفى عن جميع من دخل فى خدمة مراسلات وقناصل المشيخة الفرنساوية.

التاسع : إعادة أملاك وأموال كل من رعايا الباب العالى ورعايا المشيخة الفرنساوية يناط برجال تنتخبهم حكومة الدولتين لذلك بالأستانة بحيث يحصل الشروع فى إجراء ذلك عقب إخلاء مصر والقاهرة من العساكر الفرنساوية.

العاشر: يعفى عمن كان له علاقة أيا كانت مع الجنود الفرنساوية من أهالى مصر على اختلاف مذاهبهم.

الحادى عشر : يعطى حتماً للجنود الفرنساوية تذاكر المرور اللازمة إما من قبل الدولة العثمانية أو من قبل الدولتين المتحدتين معها وهما دولة الروس والدولة الإنجليزية وكذلك لجميع السفن التى تحمل أولئك الجنود إلى أوطانهم ببلاد الفرنسيس.

الثانى عشر : يتعهد الباب العالى والدولتان المتحدتان معه بأن لا يحصل للجنود الفرنساوية ما يكدر صفو راحتهم وكذلك يتعهد الجنرال كلابير أمير الجيوش الفرنساوية بأن لا يحصل من قبل عساكره ما لا يرضاه الباب العالى لا للسفن الحاملة لهم ولا للأساكل والثغور الخاصة بالباب العالى أو بالدولتين المتعاهدتين معه كما أنه لايجوز للسفن المذكورة أن تعطف إلى أى أسكلة غير الأساكل الفرنساوية إلا عند الضرورة.

الثالث عشر : تنفيذا لهذا العهد وملاحظة لإخلاء الأقطار المصرية من جميع العساكر والأجناد الفرنساوية فى بحر المدة التى وقع الاتفاق عليها قد اتفق الباب

العالى والدولتـان المتحدتان مـعه على أنه إذا قـدم إلى مصر فى خـلال المدة المقررة للجلاء عنها سفن فـرنساوية على غير علم من سفن الدولتين المـتعاهدتين مع الباب العالى وجب قـيامها على الفـور بعد تزويدها بالماء والزاد ولزم رجوعـها إلى الموانى الفـرنساوية بلا مـهل بناء على تذاكـر المرور التى تعطى إليـهـا من جانب الدولتـين المتعـاهدتين مع الباب العـالى وإذا تبين أن إحدى تلك السـفن تحتـاج إلى ترميم أو تصليح فى بعض آلاتـها وجب مكثـهـا حتـى يتم تصليـحهـا ثم تقـوم إلى الموانى الفرنساوية بمجرد موافقة الرياح لسيرها.

الرابع عـشـر : يتعهد الجنـرال كلابير أمير الجيوش الفـرنساوية أن يبلغ ما وقع الاتفاق عليه إلى أرباب الحل والعـقد بفرانسا بحيث تعطى لمن يتعـين لتوصيل هذه الأجناد تذكرة المرور المطلقة تسهيلا لوصول الخبر فى أمد قريب.

الخـامس عشـر: حيث يلزم للجنود الفرنساوية الحـصول على المؤن يوميا بمدة الثلاثة أشهـرالمعينة لجلائها عن البـلاد وكذلك بمدة الثلاثة أشهر الـتى تبتدئ من يوم نزولهم بالمراكب إلى يوم وصولهم فـقد تعهد البـاب العالى بأن يقدم لهم جـميع ما يلزم من قمح ولحم وأرز وشعير وتبن بمقتضى القـوائم التى تتقدم من أمراء العساكر المكلفين بذلك وما يكون قد أخذ من ذلك بعد التوقـيع على عهد الجلاء يستبعد من مجموع تلك القوائم.

السادس عشر: لايجوز لأمراء الجيوش الفرنساوية بعد التوقيع على عهدة الجلاء أن يضربـوا على البلاد ضـرائب أو يفرضـوا عليهـا فروضاً أيـما كانت أو يـحدثوا إحداثات بل يكون للباب العالى دون غيره الحق فى جميع الضرائب والفرض المقررة اعتبارا من تاريخ التوقيع على العهد وكـل ما تركته الجنود الفرنساوية بعد الجلاء من جمال أو هجن أو مدافع أو ذخيرة أو غـير ذلك وكذلك الغلال التى تبقى بالأشوان من أصل الأموال المفروضـة لغاية تاريخ التوقيع على عـهد الجلاء فهذه كلهـا يصير تقديرها بمعرفة معينين من قبل الباب العالى على يد أمين البحر الإنجليزى ومن يعينه الجنرال كلابير من قـبله ويتعين ثمنها بحيث لا يـنقص عن ثلاثة آلاف كيس وهو ما رؤى كفايتـه لنفقة الجند إلى أن تصل إلى أوطانها وفى حـالة عدم بلوغ أثمان تلك الأشياء إلى هذا الـقدر يجب على الباب العالى دفع العـجز من طرفه بصفـة قرضة وعلى حكومة الفرنسيس وفاء هذه القرضـة اعتمادا على سندات الاستلام التى تكون قد أعطيت من الأمير كلابير أمير الجيوش إلى الباب العالى.

السابع عشر: يدفع مبلغ الثلاثة آلاف كيس المذكور على الوجه الآتى بعد وهو خمسمائة كيس تدفع بعد مضى خمسة عشر يوما اعتبارا من تاريخ التوقيع على عقد الاتفاق بذلك وخمسمائة كيس أخرى تدفع بعد انقضاء ثلاثين يوما وبتمام الأربعين يوما ثلثمائة كيس أخرى وخمسمائة كيس عند تمام تسعين يوما وعند تمام ستين يوما ثلثمائة كيس ويدفع أيضا عند تمام سبعين يوما ثلثمائة كيس وعند تمام ثمانين يوما ثلثمائة كيس أخرى وخمسمائة كيس عند تمام تسعين يوما ويكون اعتبار مبلغ كل كيس من هذه الأكياس خمسمائة قرش عثمانى وعلى الباب العالى بعد التوقيع على نسختى هذا العقد أن يوجه من قبله إلى مصر المحروسة وكافة المدن والبنادر التى تحتلها الآن الجيوش الفرنساوية مأمورين مخصوصين لأجل تسهيل أسباب الجلاء فى أمد مناسب بحيث إذا رؤى عدم كفاية مبلغ الثلاثة آلاف كيس لنقل الجند على الوجه المرغوب وجب على الباب العالى القيام بصرف ما يرى لزوم صرفه أيضا.

الثامن عشر: جميع الأموال والضرائب التى تكون رجال الفرنسيس قد تحصلت عليها من البلاد قبل العلم بالتوقيع على عهد الجلاء تقدر وتخصم من مبلغ الثلاثة آلاف كيس المتقدمة الذكر.

التاسع عشر: تسهيلا لأسباب الجلاء فى الأجل المضروب لا بأس من نقل الجند بالسفن الفرنساوية الراسية الآن بأساكل النيل من وإلى الإسكندرية ورشيد ودمياط .

العشرون: حفظا لسلامة الممالك الغربية ومنعا لنقل الوباء بالطاعون إليها بواسطة المرضى من الجنود الفرنساوية لا ينقل أحد ممن يكون مصاباً منهم بهذا المرض أو بغيره من الأمراض الأخرى التى لا يصح معها السفر بالبحار بل يبقون جميعا فى بيوت المرضى المعدة لهم تحت أمان الوزير الأعظم ومعالجة أطباء الفرنسيس فإذا شفوا من أمراضهم عوملوا فى الحل والترحال بما عوملت به بقية الجنود من قبل كما جاء فى أحكام الشرطين الحادى عشر والثانى عشر من هذا الاتفاق وعلى أمير الجيوش الفرنساوية أنه عند ركوبهم المراكب للعود إلى أوطانهم أن يشدد على ضباطهم غاية التشديد بأن لا يسمحوا لهم بالنزول فى أى أسكلة من الأساكل التى هى فى طريقهم إلا ما تجيز لهم الأطباء النزول فيها لقضاء مدة الحجر الصحى .

الحادى والعشرون: كل خلاف يحدث بعد عقد هذا الاتفاق ولم ينص عنه شىء بهذا الاتفاق يصير فضه بالطرق الحبية بين المأمورين الذين يعينهم الوزير

الأعظم والجنرال كلابير أمير الجيوش لهذا الغرض على وجه السرعة قياما بالجلاء فى الأجل المضروب.

الثاني والعشرون: لايعتبر هذا العهد نافذ المفعول إلا بعد مضى ثمانية أيام من تاريخ التوقيع عليه من الفريقين بحيث بعد التوقيع عليه يجب مراعاته والعمل به.

ورجع كلابير أمير الجيوش الفرنساوية بعد ذلك من الصالحية إلى العادلية ومعه رجل من رجال الدولة العثمانية اسمه محمد أغا فبعث بمحمد أغا المذكور إلى القاهرة وأرسل إلى المحتسب يأمره بأن يتلقاه ويكرم مثواه فلما كان بعد العشاء دخل محمد أغا إلى القاهرة فى موكب فحصل الناس ضجة عظيمة وتزاحموا لمشاهدته وارتفعت أصواتهم وعلا ضجيجهم وركبوا على مصاطب الدكاكين والسقائف.

قال صاحب عجائب الآثار وانطلقت النساء بالزغاريت من الطاقات واختلفت آراء الناس في ذلك ولم يعلموا ما هو فدخل من باب النصر وشق القاهرة ولم يزل سائرا حتى وصل إلى بيت حسن أغا بسويقة اللألأ فأنزل هناك فلما استقر به الجلوس ازدحم الناس والأعيان للسلام عليه ولمشاهدته بالمشاعل والفوانيس قال فلما كان صبح تلك الليلة عمل ديوانا وجمع العلماء والوجاقلية وأعيان الناس وكبار النصارى من الأقباط والشوام فلما تكاملوا أبرز لهم فرمانا من الوزير فقرئ عليهم بالمجلس فدل مضمونه على أنه أغات الجمارك أى المكوس بمصر وبولاق ومصر القديمة وفيه التحكير على جميع الواردات من أصناف الأقوات فيشتريها بالثمن الذى يقدره هو بمعرفة المحتسب ويودعه فى المخازن قال وأبرز فرمانا آخر قرئ بالمجلس مضمونه أن الوزير أقام مصطفى باشا الذى كان أسيرا بأبى قير وكيلا عنه وقائمقامه بمصر إلى حين حضوره وأن السيد أحمد المحروقى كبير التجار ملزوم ومقيد بتحصيل الثلاثة آلاف كيس المعينة لترحيل الفرنساوية وانتفض المجلس على ذلك وأخذ السيد أحمد المحروقى فى تحصيل ذلك القدر من الناس وفرضوه على التجار وأهل الأسواق والحرف وشرعوا فى تحكير الأقوات فغلت أسعارها وضاقت مؤن الناس قال ودهي الناس من أول أحكامهم بهاتين الداهيتين وكان أول قادم فيهم أمير المكوسات ومحكر الأقوات وأول مطلوبهم مصادرة الناس وأخذ المال منهم وتغريمهم قال واجتهد السيد أحمد المحروقى فى توزيع ذلك وجمعه فى أيام قليلة فكان كل من توجه عليه مقدار من ذلك اجتهد فى تحصيله وإخراجه عن طيب نفس وانشراح وبادر بالدفع من غير تأخير لعلمه أن ذلك لترحيل الفرنساوية ويقول سنة مباركة

ويوم سعيد بذهاب الكلاب الكفرة قال كل ذلك بمشاهدة الفرنسيس ومسمعهم وهم يحقدون ذلك عليهم أهـ.

وجاء مصطفى أغا من الجيزة وسكن ببيت عبد الرحمن كتخدا بحارة عابدين وأرسل الوزير الفرمانات إلى البلاد وعين المعينين والمباشرين لطلب الأموال والغلال والكلف من الأقاليم وأرسل إلى البنادر وجعل فى كل بندر أميرا ووكيلا لجمع الغلال والمطلوبات من الذخيرة ووضعها بالحواصل، وجعل العامة وبسطاء العقول من أهالى القاهرة ومصر ينظرون إلى الفرنسيس كافة بعين السخط والسخرية وتطاولوا عليهم بالسب والتحقير وصار فقهاء المكاتب وعلى الخصوص العميان منهم يجمعون الأطفال ويطوفون بهم فرقا وهم يجهرون للنصارى بالسباب وفحش القول وهذر الكلام ولم يملكوا أنفسهم صبرا حتى يتم الجلاء وينقضى الأجل المضروب فنقم الفرنسيس عليهم ذلك وأبغضوهم جدا وصاروا ينظرون إلى جميع أهل البلاد بعين القلى ثم أخذوا فى أهبة الرحيل وشرعوا فى بيع أمتعتهم وما فضل من سلاحهم ودوابهم وسلموا أكثر الثغور والقلاع كالصالحية وبلبيس ودمياط والسويس وتدرج العساكر العثمانية فى الدخول إلى القاهرة وصار فى كل يوم يدخل منهم جماعة بعد جماعة وجعلوا يشاركون الناس فى حرفهم وصنائعهم كالحمامية والقهوجية والخياطين والحلاقين وغيرهم فشق الأمر على أصحاب تلك الحرف والصنائع فاجتمعوا وذهبوا إلى مصطفى باشا النائب عن الصدر الأعظم وشكوا من فعال العساكر العثمانية فلم يلتفت لشكواهم ثم قدم الوزير يوسف باشا إلى مدينة بلبيس ونزل بها ومعه الأمراء المصريون وأرسلوا إلى مراد بيك الكبير بالحضور إلى المعسكر العثمانى فاعتذر حيث كان يومئذ بالصعيد فلم يقبلوا عذره وشددوا عليه فى الحضور قيل فسأل فى ذلك كبير الفرنسيس سرا فأذن له وكان سفيره فى ذلك عثمان بيك البرديسى فحضر مع إبراهيم بيك الكبير واجتمع بالوزير يوسف باشا فخلع عليهما وعاد مراد بيك فخيم بجهة العادلية وحضر حسن أغا نزل أمين أحد رجال الدولة ودخل القاهرة فأخلى الفرنسيس عند حضوره قلعة الجبل وبقية القلاع والحصون التى أحدثوها ونزلوا منها فلم يحتلها أحد من العساكر العثمانية وأعرضوا عن المحاذرة استخفافا بالأمر ودخل الكثير من الأمراء والعساكر المصرية الذين كانوا فروا عند دخول الفرنسيس وأرسل إبراهيم بيك إلى السيد أحمد المحروقى يطلب بعض الثياب لمماليكه فأخرجت لهم الخيام والتراتيب وهيأت نساء الأمراء والجند

احتياجاتهم ولازم الخدم والفراشون الغدوّ والرواح إلى مضارب ساداتهم وهم راكبون البغال والحمير الفارهة وفى حجورهم تعابى الثياب والبقج المزركشة بالذهب والفضة وكذلك الخدم الذين يحملون الخوانات والأسمطة وهم يتغنون برفع أصواتهم ويتجاوبون بكلام وسخريات ولعن للنصارى من أهل البلاد والفرنسيس بمرأى منهم ومسمع، ولما استقر المقام بالوزير يوسف باشا فى مدينة بلبيس وذلك فى أخريات رمضان من السنة بعث بنصوح باشا والأمراء المصريين إلى القاهرة فوصلوا إلى الخانكاه ثم إلى المطرية وقدم درويش باشا الذى كان والى الصعيد على عهد حسن باشا أميرالبحر ونزل بالشيخ قمر أياما ثم سار إلى الصعيد ومعه طائفة من الجند وكذلك سارت طائفة أخرى إلى السويس وأخرى إلى المنصورة ودمياط وانبثوا فى البلاد شرقا وغربا ودخلوا القاهرة جماعات صغيرة وجعلوا يطوفون بالشوارع وانبثت عساكرهم فى الأزقة والحارات يعبثون فيها ويشوشون على النساء والصبيان فلما كان فى اليوم السابع من شوال من السنة أى سنة أربع عشرة ومائتين حدث أن تشاجر بعضهم مع بعض الجنود الفرنساوية فأدّت هذه المشاجرة إلى الملاكمة والقبض بالأطواق ثم إلى الضرب واشتد تألب العساكر السلطانية وأفحشوا فى الضرب فقتل بينهمَ أحد الفرنسيس وفاض الخبر بذلك فى القاهرة فوقعت فى الناس زعجة وأغلقوا الحوانيت وخاف العساكر السلطانية شر العاقبة فأسرعوا وتترسوا ناحية الجمالية وما والاها واجتمعوا جميعا فى تلك الأنحاء خلف المتاريس التى أقاموها ووصل الخبر بما وقع إلى مقدم الجيوش الفرنساوية فجاءهم جماعة من الفرنسيس ووقع القتال بينهم بالبنادق واشتد فقتل من الفريقين وباتوا ليلتهم وهم على أهبة الحرب والقتال فأصبحوا وقد تداخل كبراؤهم فى الأمر وأزالوا المتاريس وانكف الفريقان عن القتال وشدد مصطفى باشا فى البحث على مثيرى هذه الفتنة فكانوا ستة فقبض عليهم وأمر بهم فقتلوا جهارا وأرسل رؤسهم إلى أمير الجيوش الفرنساوية فلم يطب خاطره وطلب سرعة خروج جميع من دخل القاهرة ومصر من العساكر العثمانية حتى ينقضى الأجل المفروض وإذا دخل منهم أحد إلى المدينة فبغير سلاحه فلم يسع مصطفى باشا إلا الإذعان وأمر فنادوا على جميع من كان فى مصر والقاهرة من الجنود العثمانية فخرجوا على الفور ووقف جماعة من العساكر الفرنساوية خارج باب النصر رباطا فكان إذا أراد أحد من العساكر أو الأعيان من العثمانيين الدخول إلى المدينة ترجل عن دابته عند قربه منهم ونزع عنه جميع سلاحه ثم يتركه عندهم

ويدخل ومعه شخص أو شخصان موكلان به يمشيان أمامه حتى يقضى حاجته ويرجع فإذا وصل إلى العسكر المرابطين أعطوه سلاحه وظل الحال هكذا أياما.

وسافر فريق من الجند الفرنساوية إلى الإسكندرية بمتاعهم وأثقالهم وفيهم الأمير دورجيه النائب العام والأمير ديزه سر عساكر الصعيد والأمير رئيس الكتاب ومدير الحدود ولبثوا بالإسكندرية أياما قد تأهبوا فى خلالها إلى ركوب السفن إلى أوطانهم قيل فلما صاروا على ظهور بدت لهم من سفن الإنجليز إشارات الوحشة وعلامات الانتقام فأحجموا عن السير ومضوا إلى الأمير كلابير يعلمونه بالخبر فأرسل إلى الصدر الأعظم بعلمه بنوايا الإنجليز نحو جنود الفرنساوية ومخالفتهم لأحكام العهد فأجابه بجواب لم يرضه وأصبح زاحفا إلى سطح ـ وكان ذلك فى آخر المهلة المتفق عليها فى دخول الصدر الأعظم إلى القاهرة وجلاء الفرنسيس عنها فلما رأى الأمير كلابير ذلك طلب ثمانية أيام أخرى آجله زيادة على أيام المهلة المقدرة فأجيب إلى ذلك ووصل الأمراء المصريون وجيوش نصوح باشا وكثير من العساكر العثمانية إلى ناحية المطرية وعسكروا هناك وكان من الفرنسيس أن جعلوا الثمانية أيام التى طلبوها ظرفا لجمع عساكرهم وطوائفهم من البلاد القبلية والبحرية ونصبوا معسكرهم على ساحل النيل متصلا بأطراف المدينة ممتدا من مصر القديمة إلى شبرا وترددوا إلى نواحى القلاع التى كانوا أنشئوها داخل البلد فلم يكن بها أحد من العساكر العثمانية فأخذوا فى رد آلات حربهم وذخيرتهم من بارود وقنابل ومدافع وغيره إلى تلك القلاع ليلا ونهارا والناس يتعجبوا من ذلك ومصطفى باشا نائب الصدر الأعظم ومن معه يشاهدون ذلك وهم فى شاغل عنه قيل وكان السبب فى ذلك هو ما ظهر من سوء نوايا أمير العمارة الإنجليزية بسفن الفرنسيس الحاملة لعسكرهم وأن بعض أصدقاء الفرنسيس من جماعة الإنجليز أبلغوهم أن الصدر الأعظم اتفق مع أمير العمارة الإنجليزية على الإحاطة بسفن الفرنسيس إذا صارت على ظهر البحر فلما وقع ما سبقت الإشارة إليه تحقق الأمير كلابير صحة الخبر وأرسل إلى يوسف بيك الوزير فلم يجبه بجواب شاف بل أسرع فى الرحيل والقدوم إلى مصر كما تقدم القول.

وكان الفرنسيس عندما تراسلوا وترددوا على معسكر يوسف باشا عرفوا عدد جنوده وأحوالهم وما هم عليه من القوة والضعف وتحققوا ضعفهم عن المقاومة وقد ردوا أدوات حربهم وجميع آلاتهم إلى القلاع وحصنوا الجهات وأبقوا جماعة وقيدوا

بتلك القلاع والحصون عدة من عسكرهم واستوثقوا من ذلك جيداً ثم خرج من بقى وهم الصدر الأعظم إلى ظاهر القاهرة عند قبة النصر وانتشروا فى تلك النواحى ولم يبق فى المدينة منهم إلا من كان بداخل القلاع ونفر ببيت الألفى بالأزبكية وبعض بيوت أخرى من الجهة المذكورة ولبثوا إلى العشرين من شوال من السنة ثم أرسل كلابير فى طلب مصطفى باشا وحسن أغا نزل أمين فلما تمثلا بين يديه أمر فقبض عليهما وأرسلوهما إلى الجيزة وسجنوهما بها فلما كان ثالث عشرى الشهر المذكور ركب الأمير كلابير قبل طلوع الفجر وسار بعسكره ومدافعه وقد قسم العسكر إلى قسمين قسم سار إلى معسكر الوزير يوسف باشا وقسم سار إلى من هم بالمطرية من الأمراء المصريين والجند الذين معهم فلما صاروا على مقربة منهم رموهم بالبنادق وتابعوا الرمى بقنابل المدافع وأحدقوا بهم واشتدوا فى الرمى شدة بالغة فولوا الفرار منهزمين وتركوا خيامهم وجميع آلات حربهم وركب نصوح باشا ومن معه من الأمراء المصريين وطلبوا جهة القاهرة فتركهم كلابير ولم يلتفت لصدهم عنها وسار خلف الفارين إلى الخانكاه وهو يعمل السيف فى أقفيتهم وقد نهبوا جميع ما فى معسكرهم وأتلفوا المدافع وأخذوا جميع ما وجدوه من متاع وغيره ولحقوا بمعسكر الصدر الأعظم فأرسل إليه كلابير يأمره بالرحيل فى مدة لا تتجاوز أربعا وعشرون ساعة فلم يسعه المخالفة وسار فسار خلفه كلابير بجيوشه وكان أكثر عساكر الصدر الأعظم متفرقة فى هذا اليوم فى أنحاء القرى والبلدان لجمع المال ومفردات الفرض والتشديد على الرعية والتضييق عليهم فسمع أهالى القاهرة ومصر أصوات المدافع والبنادق فهاجوا وماجوا وتراكضوا إلى أطراف البلد فصادفوا فى طريقهم بعض رعايا الفرنسيس فقتلوهم وذهبت جماعة منهم إلى بركة الأزبكية فنهبوا ما وجدوه فيها حيث كان معسكر الفرنسيس وجعلوا يكثرون من الجلبة والصياح وهم لا يعرفون السبب الحامل لهم على ذلك سوى ما سمعوه من أصوات المدافع والبنادق وخرج السيد عمر نقيب الأشراف والسيد أحمد المحروقى.

قال صاحب عجائب الآثار وانضم إليهما أتراك خان الخليلى والمغاربة الذين بمصر وكذلك حسين أغا شنن أخو أيوب بيك الصغير وتبعهم كثير من عامة الناس وتجمعوا على التلال خارج باب النصر وبأيدى الكثير منهم النبابيت والعصى والقليل منهم السلاح وكذلك تحزب كثير من طوائف العمة والأوباش وجعلوا يطوفون بالأزقة وأطراف البلد ولهم صياح وضجيج وتجاوب بكلمات يقفونها من اختراعاتهم

وخرافاتهم وقاموا على ساق وخرج الكثير منهم إلى خارج البلد على تلك الصورة فلما ارتفع النهار حضر بعض الأجناد المصريين ودخلوا مصر وفيهم المجاريح وطفق الناس يسألونهم فلم يخبروهم بشئ لجهلهم أيضا حقيقة الحال قال ثم لم يزل الحال كذلك إلى أن دخل وقت العصر فوصل جمع عظيم من العامة ممن كان خارج البلدة ولهم صياح وجلبة على الشرح المتقدم ذكره وخلفهم إبراهيم بيك الكبير ثم أخرى وخلفهم سليم أغا ثم أخرى وخلفهم عثمان كتخدا الدولة ثم نصوح باشا ومعه عدة وافرة من عساكرهم وصحبتهم السيد عمر النقيب والسيد أحمد المحروقى وحسن بيك الجداوى وعثمان بيك المرادى وعثمان بيك الأشقر وعثمان بيك الشرقاوى وعثمان أغا الخازندار وإبراهيم كتخدا مراد بيك المعروف بالسنارى ومعهم مماليكهم وأتباعهم فدخلوا من باب النصر وباب الفتوح ومروا على الجمالية حتى وصلوا إلى وكالة ذى الفقار فقال نصوح باشا عند ذلك للعامة اقتلوا النصارى وجاهدوا فيهم فعندما سمعوا منه ذلك القول صاحوا وهاجو ورفعوا أصواتهم ومروا مسرعين يقتلون من يصادفونه من نصارى القبط والشوام وغيرهم فذهبت طائفة إلى حارة النصارى وبيوتهم التى بناحية بين الصورين وباب الشعرية وجهة الموسكى فصاروا يكبسون الدور ويقتلون من يصادفونه من الرجال والنساء والصبيان وينهبون ويأسرون حتى اتصل ذلك بالمسلمين المجاورين فتخوف النصارى واحترسوا وجمع كل منهم ما قدر عليه من العساكر الفرنساوية والروم وقد كانوا قبل ذلك محترسين وعندهم الأسلحة والبارود والمقاتلون لظنهم وقوع هذا الأمر فوقع الحرب بين الفريقين وصارت النصارى تقاتل وترمى بالبنادق والآخرون يرمون من أسفل ويكبسون الدور ويتسورون عليها وبات نصوح باشا وكتخدا الدولة وإبراهيم بيك وبعض من صناجق مصر والكشاف والأتباع وطوائف من العسكر بخط الجمالية بوكالة ذى الفقار فلما أصبح الصباح أرسلوا إلى المطرية وأحضروا منها ثلاثة مدافع فوجدوها مسدودة الفالية فعالجوها حتى فتحوها وقام ناصف باشا وشمر عن ساعديه وشد وسطه ومشى وصحبته الأمراء المصرية على أقدامهم وجروا أمامهم الثلاثة مدافع وسحبوها إلى الأزبكية وضربوا بها على بيت الألفى وكان به بعض المرابطين من عساكر الفرنساوية فضربوهم أيضا بالمدافع والبنادق واستمرت الحرب بين الفريقين إلى آخر النهار انكفت وباتوا ينادون بالسهر أ هـ.

وفى هذا اليوم وضع أهل القاهرة ومصر والعساكر المتاريس بأطراف المدينة كلها

وبجهة الأزبكية وشرعوا فى بناء وترميم بعض جهات سور المدينة وبالغوا فى تحصينها جهد الاستطاعة وبات الناس فى تلك الليلة خلف المتاريس فلما أظلم الليل عمد الفرنسيس إلى إطلاق مدافعهم على المدينة وراسلوا إطلاق القنابل من القلاع وتابعوا الرمى على خط الجمالية لاجتماع الأمراء والجند به وشددوا فامتلأ الجو بدخان البارود وتهدم الكثير من الوكائل والبيوت وكثر الصراخ من كل صوب وحدب وخرج الناس على وجوههم هائمين وعجز الأمراء عن الدفاع وإسكات مدافع الفرنسيس ثم أجمع رأى الكبراء والرؤساء منهم على الخروج من المدينة فى تلك الليلة لعجزهم عن المقاومة وعدم وجود آلات الحرب وغير ذلك من وسائل الدفاع وفاض الخبر بذلك بين الناس فركب بعضهم بعضا وازدحمت تلك النواحى بالحمر والبغال والخيول والجمال المحملة بالأثقال وباتوا على تلك الصورة المحزنة ووصلت الأخبار بخروج الناس إلى أهل خان الخليلى وبعض مغاربة الفحامين والغورية فجاؤا إلى الجمالية وشنعوا على من يريد الخروج وعضدهم طائفة الإنكشارية وعمدوا إلى خيول الأمراء فحبسوها ببيت القاضى والوكائل وأغلقوا باب النصر وبات فى تلك الليلة أكثر الناس على مصاطب الحوانيت وبعض الأعيان فى بيوت أصحابهم بخط الجمالية وفى الأزقة والحارات وكلهم على أهبة الخروج إلى ظاهر المدينة وأصبح يوم السبت فتهيأ كبار الجند والجند كافة والكثير من سكان القاهرة ومصر ممن لا قدرة له على الحرب وساروا إلى الأزبكية فأقام بعضهم فى البيوت الخالية التى بها وأقام جماعة أخرى خلف المتاريس واستحضروا عدة مدافع مما كان مدفونا فى بيوت الأمراء.

قال صاحب عجائب الآثار واستحضروا فى حوانيت العطارين من المثقلات التى يزنون بها البضائع من حديد وأحجار يرمون بها على العدو بدل القنابل وجعلوا يرمون بها على بيت الأمير كلابير بالأزبكية ولبث عثمان كتخدا بوكالة ذى الفقار فكان كل من قبض على نصرانى أو يهودى أو فرنسوى أخذه وذهب به إلى الجمالية عند عثمان بيك المذكور ويأخذ عليه البخشيش فيحبس البعض حتى يتحرى عن أمره ويقتل البعض ظلما وربما تقتل العامة من تقتلة وتأتى برأسه لتأخذ البخشيش وكذلك كل من قطع رأسا من رءوس الفرنسيس يذهب بها إما إلى نصوح باشا بالأزبكية وإما إلى عثمان بيك بالجمالية وبعد أيام أغلقوا باب القرافة وباب البرقية وبقية الأبواب التى بأطراف البلد وزاد الناس فى عمل المتاريس وفى الاحتراس

والتحذر وجلس عثمان بيك الأشقر عند متاريس باب اللوق وناحية المدابغ وعثمان بيك طبل عند متاريس المحجر ومحمد بيك المبدول عند الشيخ ريحان ومحمد الكاشف أيوب وأصحاب أيوب بيك الكبير وأيوب بيك الصغير عند الناصرية ومصطفى بيك الكبير بقناطر السباع وسليمان كاشف الحمزاوى عند سوق السلاح وأولاد القرافة والعامة وزعر الحسينية والعطوف عند باب النصر مع طائفة من الإنكشارية وباب الحديد وباب القرافة وطائفة خان الخليلى والجمالية عند باب البرقية المعروف الآن بالغريب ولم يبق أحد من أهل البلد إلا وانضم إلى من يقرب إليه من طوائف العسكر بحيث صار جميع أهل مصر والعساكر كلها واقفة بأطراف البلد عند الأبواب والمتاريس والأسوار وأقام بعض العساكر العثمانية ومعهم جماعة من الأهالى بالأسلحة عند الجمالية حتى إذا جاء صارخ من جهة من الجهات أمدوه بفريق منهم ولم ينم أحد فى بيته إلا الضعيف وكان ناصف باشا وإبراهيم بيك الكبير ومن معهما من الإنكشارية والأرنؤد والدلاة وغيرهم مرابطين جهة الأزبكية وناحية باب الهواء والرحبة الواسعة عند جامع أزبك والعتبة الزرقاء وأنشأ عثمان بيك كتخدا معملا للبارود ببيت قائد أغا بخط الخرنفش وأحضر الحدادين والنجارين والسباكين لسبك المدافع والقنابل وإصلاح المدافع التى وجدت فى بيوت الأمراء وعمل العجلات وما يلزم للقتال واهتم لذلك اهتماما عظيما وأرسلوا فاستحضروا بقية المدافع التى كانت بمعسكر المطرية وقد عطلتها عساكر الفرنسيس فكانوا كلما أدخلوا مدفعا أدخلوه بجمع عظيم من الأوباش والحرافيش والأطفال ولهم صياح ونباح وتجاوب بكليمات من مثل قولهم الله ينصر السلطان ويهلك فرط الرمان وغير ذلك أهـ.

واشتدت عزيمة الأمراء المصريين وبدا منهم غاية الهمة والإقدام وثابروا على القتال من خلف المتاريس وظهر رجل مغربى قيل إنه الذى كان يقاتل الفرنسيس بالبحيرة واجتمع إليه طائفة من المغاربة ممن كان قدم مع الجيلانى الذى سبق الكلام عنه ففعل المغربى المذكور ما لا خير فيه من النهب والقتل والسبى وكان يتجسس على البيوت التى بها الفرنسيس والنصارى فيكبسها ومعه جمع من العوام وأسافل الناس والعسكر فيقتلون من يجدونه منهم وينهبون الدار ويسجنون النساء ويسلبون ما عليهن من الحلى والثياب وكانوا يقطعون رءوس الأطفال وبعض البنات طمعا فيما عليهن من الحلى وتتبع الناس عورات بعضهم وما دعتهم إليه النفس الأمارة بالسوء واتهم الشيخ خليل البكرى بأنه يسالم الفرنسيس ويرسل إليهم الأطعمة وغير ذلك

فهجم عليه طائفة من العسكر مع بعض الأوباش من العامة ونهبوا داره وأخذوه مع أولاده ونسائه وأحضروه إلى الجمالية وهو ماش على أقدامه حاسر الرأس فكان العامة يخاطبونه بفحش القول ويكثرون من سبه ولعنه فلما مثلوه بين يدى عثمان كتخدا هاله أمره وطيب خاطره وسيره بنسائه إلى دار بعض الأعيان وطلبت العساكر النفقة فبادر السيد أحمد المحروقى وبقية التجار وأصحاب المظاهر من الناس بالنفقة على الجند والأمراء والمقاتلين من مأكل ومشرب وكذلك فعل جميع أهل القاهرة ومصر، أما الفرنسيس فأنهم تحصنوا بالقلاع المحيطة بالمدينة وبيت الألفى وما والاه من البيوت الخاصة بهم كل ذلك ولا يعلم أحد حقيقة الحال ولا ما جرى بالفرنسيس الذين ساروا مع كلابير خلف عسكر الصدر الأعظم يطاردونهم من بلد إلى آخر واختلفت فى شأنهم الأقوال وكان الصدر الأعظم قد ترك ببلبيس فريقا من عسكره أوهم تخلفوا عنه بعد أن مزقت شملهم العساكر الفرنساوية فسارت إليهم طائفة من الفرنسيس وحاصرتهم وشددت عليهم وضيقت فاستأمنوا فأخرجوهم بغير سلاح وصرفوهم حيث شاؤو فذهبوا أشتاتا بالأرياف يتكففون الناس ويأوون إلى المساجد الخربة فمات أكثرهم من العرى والجوع ولحق بعض الأمراء المصريين بالصدر الأعظم عند الصالحية فعابوا عليه فعله وقبحوه وبالغوا فى سوء تدبيره وخاطبوه ببدى الكلام وفحش القول فاعتذر وقال إنه لم يكن عليه أهبة القتال لتركه الأسلحة والكراع بقلعة العريش اعتمادا على ما تقرر بينه وببن مقدم الجيوش الفرنساوى من الصلح وإنه لم يكن ليعتقد يقظة الفرنسيس إلى حد كشف ما دبره عليهم مع أمير السفن الإنجليزية عند ركوبهم السفن فطلب منه عثمان بيك أن يأمر بجمع الجنود الهائمة على وجهها كالإبل وهو يسير بهم لقتال العدو فاجابه إلى ذلك وخاطب العسكر وبذل لهم الرغائب فامتنعوا ولم يمتثل منهم إلا المطيع وهم لا يبلغون الألف وعادوا على إثرهم وجمعوا إليهم المتشردين منهم ورجعوا يريدون قتال الفرنسيس فنزلوا بوهدة على مقربة من القرين حيث كان الفرنسيس فى قلة يستكشفون مواقع العدو فقاموا عليهم بالنبابيت والحجارة فأصابوا ترجمان الأمير كلابير وسقط على الأرض وتسامع المسلمون فركبوا لنجدتهم واستصرخ الفرنسيس عسكرهم فلحقوا بهم ووقع القتال بين الفريقين حتى حال بينهم الليل والفرنسيس يطاولونهم ثم انكف الفريقان وانحاز كل فريق إلى ناحية فلما دخل الليل واشتد الظلام أحاط الفرنسيس بعسكر المسلمين فأصبح المسلمون وقد رأوا إحاطة العسكر بهم من كل جانب فركب الفرسان

وتبعهم المشاة وقاتلوا حتى اخترقوا صفوف العدو ونجا من نجا وهم قليلون وقتل خلق كثير ورجعوا إلى الصالحية على إثرهم فلما رأى الصدر الأعظم ما حل بهؤلاء أيضا وقد كان يعلل الأمل بفوزهم رحل إلى الشام فيمن بقى أما مراد بيك الكبير فإنه لما رأى هجوم الفرنسيس على من كانوا بالمطرية مع نصوح باشا وكان هو على مقربة من المقطم ركب من ساعته هو ومن معه ومروا بسفح الجبل وساروا إلى دير الطين وعسكروا فيها لينظروا ما سيحل بعساكر السلطان وأقام مطمئنا على نفسه واعتزل الفريقين وحافظ على عهده وولائه للفرنسيس واشتد الخوف والفزع بنصوح باشا ومن معه من الأمراء المصريين لما علموا بما أصاب الصدر الأعظم وجنوده وخارت منهم العزائم وذهب الصبر والجلد ولكنهم خافوا أيضا عاقبة صرف من اجتمع عليهم من العامة والحرافيش وأهل العطوف وأخلاط العسكر فكانوا يذيعون بينهم أخباراً ملفقة لا أصل لها ويمنون الناس بقرب حضور الصدر الأعظم بجيوشه المظفرة وتابعوا المناداة بالتركى والعربى بالتحريض والاجتهاد والحرص على الصبر والقتال وملاقاة العدو، وبينما الناس على هذا الحال وتعلق الآمال بقرب عودة الصدر الأعظم وجيوشه إذ حضر فريق من الفرنسيس نجدة لإخوانهم الذين بالحصون والقلاع التى بداخل البلد ووقفت طائفة منهم خارج باب النصر وباب الحسينية ونهبوا زاوية الدمرداش وما حولها كقبة الغورى والمنيل وعسكروا على بعض التلول ورجع فى هذه الأثناء طائفة قليلة من عسكر الدولة وهم الذين كانوا بالقرى والأرياف يقبضون الكلف والفرض بأمر الصدر الأعظم فلما صاروا عند أبواب المدينة دفعتهم طوائف الفرنسيس فدافعوا عن أنفسهم حتى تمكنوا من دخول المدينة ففرح الناس بقدومهم وتقوت نفوسهم فكانوا يقولون للناس إنهم حاضرون مددا وأن سيأتى على أثرهم عشرة آلاف مقاتل من جيوش الصدر الأعظم لقطع شأفة العدو.

وقام ببولاق رجل اسمه الحاج مصطفى البشتيلى وجمع إليه طوائف السوقة وحرافيش السبتية فكانوا عدة وافرة وساروا نحو معسكر الفرنسيس الذى كان بساحل بولاق وهجموا على من كان به من المرابطين فقتلوا منهم من أدركوه ونهبوا جميع ما فيه من خيام ومتاع وغيره ورجعوا إلى المدينة وهم يترامحون وفتحوا مخازن الغلال والودائع التى لجيوش بونابارته وأخذوا منها ما قدروا على حمله وتترسوا حول بولاق واستطالوا على من كان بها من القبط والشوام فأوقعوا فيهم القتل والنهب وفعلوا مالا خير فيه فكان البلاء عاما والخطب شديد جدا.

ولما استوثق الأمـير كلابير من هزيمة الوزير يوسف باشا وعـجزه عن الرجوع وهروبه إلى الديار الشـامية وضع بالصـالحية رباطا من الفـرنسيس وكـذلك بالقرين وبلبيس وسار إلى القاهرة وقد بلغه خبر دخول نصوح باشا إليها وماجرى على يديه من قتل ونهب وتخريب وتعييب وغير ذلك فـوصلها بعد ثمانية أيام من ظهور الفتنة ودخل إلى داره بالأزبكية من غيـر ممانع إذ لم يقف فى طريقه أحد من الجند ولا من العامة وأمر فـأحاط جنده بالقاهرة وبولاق من الخارج وشددوا فى الحـصار فصار لا يدخل إليها أحد ولا يخـرج منها أحد ومنعوا عنهما الوارد من الأطـعمة ثم جعلوا يطلقون عليهما المدافع ويراسلون القنابل من أعلى التلال والقلاع ليلا ونهارا واشتدوا فى ذلك شدة بالغة وقد عـدمت الأقوات وعز وجود الخبز وصار العـساكر السلطانية الذين بالقاهرة يخطفون ما يجدونه بأيدى الناس من المأكل وغلا سعر الماء المأخوذ من الآبار والأسبلة حتى بلغ سعر القربة نيفا وستين نصفا إذ تعذر الوصول إلى النيل.

قال صـاحب عجـائب الآثار وتكفل التجـار ومسـاتير الناس والأعيـان بكلف العسـاكـر المقيمين بالمتـاريس المجاورة لهم فألزموا الشـيخ السادات بكلف الذين عند قناطر السباع وأمـا أكابر القبط مثل جرجس الجوهرى وفلتـاؤس وملطى فإنهم طلبوا الأمـان من المتكلمين من المـسلمين لكونهم انـحصـروا فى دورهم وهم فى وسطهم وخافوا من نـهب دورهم إذا خرجوا فارين فأرسـلوا إليهم الأمان فحضـروا وقابلوا الباشا والكتـخدا والأمراء وأعانوهم بالمال واللوازم وأما يعقـوب فإنه كرنك فى داره بالدرب الواسع جهـة الرويعى واستعد اسـتعدادا كـبيرا بالسلاح والعـسكر المحاربين وتحصن بقلعـته التى كان شيدها بعـد الواقعة الأولى فكان معظم حـرب حسن بيك الجداوى معه هذا والمناداة فى كل يوم بالعربية والتـركية على الناس بالجهاد والمحافظة على المتاريس قـال واتهم مصطفى أغا مـتسحـفظان بموالاة الفرنساوية وأن فى بيـته جماعـة من الفرنسيس فهجم العـساكر على داره بدرب الحجر فـوجدوا أنفارا قليلة من الفرنسـيس فقاتلوا ودافعـوا عن أنفسهم وقتل منهم البـعض وهرب البعض على حمية حتـى خلصوا إلى الناصرى وأما الأغا فإنهم قبضـوا عليه وأحضروه بين يدى عثمان كتخدا ثم تسلمه الإنكـشارية وخنقوه ليلا بالوكالة التى عند باب النصر ورموا جيـفته علـى مزبلة خارج البلد واستقـر عوضه جـاهين كاشف السـاكـن بالخرنفش فاجـتهـد وشدد على الناس وكرر المـناداة ومنعهم من دخول الـدور وكل من وجده داخل داره مقته وضـربه فكان الناس يبيتون بالأزقة والأسواق حـتى الأمراء والأعيان

وهلكت البهائم من الجـوع لعدم وجود العلف من التبن والفول والشـعير والإدريس بحيث صار يـنادى على الحمار أو البغل المعـدد الذى قيمته ثلاثون ريـالا وأكثر بمائة نصف فضة أو ريال واحد أو أقل ولا يوجد من يشتريه وفى كل يوم يتضاعف الحال ويعظم الهول أهـ.

وزحف المسلمون على رصـيف الخشاب وترامى الفريقان بالمـدافع والنيران حتى احترق مـا بينهم من الدور وكان إسمعيـل كاشف الألفى قد تحصن ببيت أحـمد أغا شويكار فى نـفر من العسكر وقـد كان الفرنـسيس قبل الجـلاء عنه عملوا به لغـما بالبارود المدفون فلمـا استقروا به أشعل الفـرنسيس اللغم فارتفع ما فـوقه من الأبنية والناس إلى عنان السماء واحتـرقوا جميعا ومات بينهم الألفى وانهـدم ما كان حوله من البناء والدور والوكـائل والمبانى العـظيمـة والقصـور المطلة على بركة الأزبكـية واحترقت جميع البيوت إلى رصيف الخشـاب والخطة المعروفة بالساكت بأجمعها إلى الرحبـة المقابلة لبيت الألفى مقـر الأمير كلابـير وكذلك جمـيع خطة الفوالة وخطة الرويعى بالسباطين العظيمين وما فى ضـمن ذلك من البيوت إلى حد حارة النصارى فصارت كلها تلالا وخـرائب كأنها لم تكن فضعفت عند ذلك عـزيمة نصوح باشا والأمراء المصريين وكادوا يفشلون وأرسلوا إلى مـراد بيك الكبير يسألونه الإسراع فى نجدتهم بمن معه وألحوا عليه فأرسل يعتذر ويقول إنه محافظ على الجهة التى هو فيها فأرسلوا إليه ليكشف لهم خبر الصدر الأعظم وماجرى عليه فأرسل يقول لهم اعلموا أن الفرنسـيس إذا ظفروا بأحد مـن المسلمين فلا يقـتلونه ولا يضربونه فـإذا أحسنتم فافـعلوا أنتم كذلك وخـابروهم فى الصلح فهـو خير لكم وأبقى وانجـلوا عن البلاد سالمين فحـنق حسن بيك الجداوى وعثمـان بيك الأشقر وغيـرهم من المسلمين عند سمـاعهم هذا الكلام وسفـهوا رأيه وقبـحوا قوله ورمـوه بالموالاة للفرنسيس فـأشار إبراهيم بيك الكبيـر بذهاب البرديسى إليه ومعه عـثمان بيك الأشقر ليـبينا له خلطه وشططه فذهبـا ورجع عثمان بيك وقـد تبدلت أحواله وتغـيرت أفكاره وذهبت عنه تلك الحدة التى كانت تزعجه وجنح لرأى مـراد بيك فداخلهم من ذلك الفتور وكاد يتولاهم المملـل وقد اشتـد الخطب وعظم البلاء وعم الكرب وتوالى سـقوط القنابل على الدور والمساكن مـن القلاع وكثـر صياح النسـاء فى البيوت وبكاء الصـغار من الخوف والهلع والجوع ومات الكثير من النساء والأطفال والشيوخ والحيوانات والطيور وغـير دلك تحـت ردم الدور والمساكن التـى سقطت وكـان مـقام الـرجال بالأزقـة

والأسواق ليلا ونهارا ومقام النساء والصبيان بأسفل الحواصل والعقودات تحت طباق الأبنية إلى غير ذلك وكان المشايخ والسيد أحمد المحروقى والسيد عمر نقيب الأشراف يمرون فى كل وقت ويأمرون الناس بالقتال ويحضونهم على الجهاد وبقى الحال على هذا الوصف عشرة أيام كوامل وترددت الرسل من أصحاب مراد بيك الكبير بين الفرنسيس والأمراء المصريين بشأن الصلح وجلاء جميع العساكر السلطانية عن البلاد فلم يتفقوا على أمر ما فلما كان اليوم الثانى عشر أمر كلابير فأقاموا ببركة الأزبكية فسطاطا لطيفا ورفعوا عليه علما وانكفوا عن الرمى فى تلك الليلة وأرسل كلابير بطلب المشايخ ليتكلم معهم فيما فيه المصلحة فأمرهم نصوح باشا بالذهاب فسار إليه جماعة منهم فلما استقر بهم المقام مع الأمير كلابير عاتبهم على ماوقع ثم أمن جميع الرعية وعفا عما سلف بشرط خروج نصوح باشا وجلاء جميع العساكر السلطانية وارتحالهم إلى حيث الصدر الأعظم وعلى الفرنسيس النفقة عليهم بقدر الكفاية وأما الجنود المصرية الذين أتوا معهم فمن شاء منهم الجلاء فله مالهم ومن شاء البقاء بقى معززا وأن الجرحى والمرضى من العساكر العثمانية ينزعون عنهم أسلحتهم ويعالجون فمن تم برؤه منهم وشاء الإقامة فمعزز أو الرحيل فله ما كان لأصحابه من الكلفة حتى يصل إلى وطنه فجنح المشايخ إلى هذا الصلح وتقررت القاعدة بينهم على ذلك ورجعوا فلما كان الغد شاع أمر الموادعة واستفاض أمر الصلح وعلم الأنكشارية بخبره فقاموا على ساق وقدم وقالوا لا يكون هذا أبدا وخرجوا وخرج العامة معهم وسبوا المشايخ وقبضوا على اثنين منهم وأوسعوهما ضربا ورموا عمائمهما.

قال صاحب عجائب الآثار وصاروا يقولون هؤلاء المشايخ ارتدوا وعملوا فرنسيس ومرادهم خذلان المسلمين وأنهم أخذوا دراهم من الفرنسيس وتكلم السفلة والغوغاء من أمثال هذا الفضول وشدد فى ذلك الرجل المغربى الملتف عليه أخلاط العالم ونادى من عند نفسه الصلح منقوض وعليكم بالجهاد ومن تأخر عنه ضرب عنقه.

قال وكان السادات ببيت الصاوى فتحير واحتال بأن يخرج وأمامه شخص ينادى بقوله الزموا المتاريس ليقى بذلك نفسه من العامة وكان قصد المغربى المذكور دوام الفتنة ليتوصل بها إلى ما يريده من النهب والسلب والتصور بصورة الإمارة باجتماع الأوغاد عليه وتكفل الناس له بالمأكل والمشرب هو ومن انضم إليه واشتطاطه فى

المآكل مع فقد الناس لأدنى ما يؤكل حتى أنه كان إذا نزل جهة من جهات المدينة لإظهار أنه يريد المعونة أو الحرس فيقدمون له بالطعام فيقول لا آكل إلا الفراخ ويظهر أنه صائم فيكلف أهل تلك الجهة أنواع المشقات والتكلفات بتعنته فى هذه الشدة بطلب أفحل المأكولات وما هو مفقود قال ثم هو مع ذلك لا يغنى شيئا بل إذا دهم العدو تلك الجهة التى هو فيها فارقها وانتقل لغيرها وهكذا كان ديدنه وسبحه أهـ.

ولما وقع من الإنكشارية والعامة هذا التظاهر ومانعوا فى إمضاء الصلح لم ترد العلماء على الأمير كلابير جوابا وأطلقوا مدافعهم على معسكر كلابير وأكثروا من إطلاق البنادق إعلانا بأنهم مازالوا على قدم الدفاع فأرسل كلابير يطلب الجواب فأجابه الباشا والكتخدا أن العسكر يرفضون كل صلح وهم يقولون لا تراجع عن حرب الفرنسيس حتى نظفر بهم أو نموت عن آخرنا فأرسل عند ذلك كلابير مكاتبة يقول فيها قد عجبنا من قولكم أن العساكر لم ترض بالصلح فكأن الأمر بيدهم وكيف يكون الأمير أميرا على جيش ولا ينفذ أمره فيهم ثم أرسل كلابير رسولا إلى أهل بولاق أيضا يطلبهم للصلح وترك الحرب ويحذرهم العاقبة فلم يذعنوا فكرر عليهم الطلب فكانوا لا يزدادون إلا عنادا فأرسل كلابير أحد فرسانة فطاف ينادى بالأمان فقام عليه العامة وأنزلوه عن فرسه وقتلوه وظن الناس بالقاهرة ومصر وبولاق أن الفرنسيس إنما يطلبون الصلح لعجزهم وعدم قدرتهم على استمرار القتال فلما علم كلابير بما فعلوه برسوله غضب وأمر فأطلقت عساكره المدافع على المدينة ووالوا الرمى بالقنابل من جميع الحصون والقلاع وراسلوا نيران البنادق واستمروا على هذا الحال الشديد إلى يوم الخميس ثانى عشرى شوال من السنة فلما كان ضحوة هذا اليوم غامت السماء وأرعدت وأبرقت ثم أمطرت مدرارا وطالت وأظلمت الدنيا واشتد المطر وانفتحت أبواب السماء فانهمل السيل انهمالا عظيما لم يسبق له مثال وكثرت الأوحال وتعطلت الطرق بالقاهرة ومصر وبولاق فاشتغل الناس والعساكر بنزح المياه من بعض الطرق وحمل الأوحال تجفيفا لها فانتهز الفرنسيس هذه الفرصة المناسبة وهجموا على القاهرة وبولاق من كل ناحية وكبسوا من ناحية باب الحديد وكوم أبى الريشة وجهة بركة الرطل وقنطرة الحاجب وجهة الحسينية والرميلة وكانوا يرمون القنابل من قلعة جامع الظاهر وقلعة قنطرة الليمون ويزحفون أمامهم المدافع وخلفهم المشاة بالبنادق يتابعون رميها وطائفة أخرى بأيديها فتائل مغمسة بالنفوط والزيت والقطران وكعكات مدبرة تلتهب عند نزول الماء عليها فكانوا يلقونها ملتهبة

بالسقائف وأبواب الحوانيت وشبابيك الدور ويزحفون على هذه الصورة والمسلمون يقاتلون قتال الأبطال وانتقل الأغا وأغلب العامة إلى تلك الجهات وزلزلوا فى ذلك اليوم زلزالا شديدا وهاج العامة وأكثر النساء من الصياح والولولة وتركن البيوت وخرجن حاسرات عن وجوههن فكانت النيران تأخذ كل من صادفته ثم هجموا هجمة رجل واحد على مدينة بولاق من ناحيتى النيل وبوابة أبى العلا فقاتل أهل بولاق وبذلوا الجهد حتى أحاطت بهم الفرنسيس إحاطة السوار بالمعصم وأخذوهم من كل جانب وأزعملوا فيهم السيف والتحريق فقتلوا فى هذا اليوم مالا يكاد يدخل تحت الحصر وملكوا بولاق عنوة وفعلوا بأهلها ما تشيب من هوله النواصى وصارت القتلى مطروحة تدوسها سنابك الخيل وأقدام الناس فى الأزقة والطرقات واحترق أكثر المدينة من الدور والقصور المطلة على النيل وخرج الناس على وجوههم هائمين إلى الصعيد ثم أحاط الفرنسيس بالبلد ومنعوا من يخرج منها واستولوا على الخانات والوكائل والحواصل والودائع والبضائع وملكوا الدور وما فيها من متاع وأموال ونهبوا جميع ماعثروا عليه وصنعوا بكبارها وتجارها مالا خير فيه وكان ذلك اليوم يوم الجمعة ثالث عشرى شوال واختفى البشتيلى زعيم عصابة بولاق ففتشوا عليه وقبضوا عليه وعلى وكيله وجميع أنصاره وكبار العصابة كافة وسجنوهم وضيقوا عليهم عدة أيام ثم أطلقوهم ماعدا البشتيلى وكبار عصابته وكان البشتيلى هذا قد بعث فى أيام الفتنة بخطاب إلى عثمان كتخدا يقول فيه إن الكلب دعانا للصلح يريد كلابير فأبينا منه وأرسل الخطاب مع رجل ليوصله إلى الكتخدا فوقع فى يد الأمير كلابير قيل فحركه ذلك إلى فعل ما فعله ببولاق ثم سلم البشتيلى إلى أهل عصابته ووكلهم بقتله جزاء ما فعل مما كان سببا لما حل بهم فأركبوه حمارا وطافوا به جميع أنحاء بولاق ثم قتلوه بضرب النبابيت وألزم كلابير أهل بولاق بغرامة قدرها مائتا ألف ريال فأدوها وهم صاغرون .

أما أهالى القاهرة ومن فيها من العساكر العثمانية والأمراء المصريين فأنهم جعلوا يقاتلون ويدافعون جيوش الفرنسيس إلى السادس والعشرين من شوال حتى ضاق خناقهم وكادوا يهلكون من الجوع فضلا عن نيران العدو فهجم الفرنسيس على المدينة فى ذلك اليوم من ناحية باب الحديد وناحية كوم أبى الريش وقنطرة الحاجب وغيرها ودخلوا البلد وهم يحرقون بالفتائل والنيران الموقدة ويجلون العساكر السلطانية عن المتاريس واحدا فواحد إلى أن وصلوا إلى ناحية قنطرة الخروبى وناحية باب الحديد

إلى قرب الشعرية وزحفوا على المتاريس التى بهـا فوقعت الهزيمة على من كانوا بها من الأمراء المصـريين والجند فولوا الأدبار وتبـعهم العـامة بالصيـاح والولولة وملك الفرنسيس كوم أبى الريش وصعدوا إلى أعلاه وصوبوا أفواه المدافع ناحية المسلمين، والمسلمون من أسفل الكوم فعملت فيهم نيران المدافع مالا يمكن وصفه وقتلت ما لا يكاد يدخل تحت الحصـر وكان البرديسى ومصطفى كـاشف الأشقر أصـحاب مراد بيك يسعون بين نصوح باشا والأمير كلابير وفى المهادنة والكف عن القتال ويكثرون من التردا بين الفريقـين فلما شاهد نصوح باشا مـاحل بعسكره من الفشل والموات جنح إلى جميع ما يطلـبه الأمير كلابير وألح فى طلب كف القتـال وتقررت القاعدة بين الفريقين على أن الفرنسيس يمهلون نصوح باشا وجـميع من معه من العثمانيين والأمراء المصريين ثلاثة أيام حـتى يتأهبوا للجلاء عن البلاد وجـعلوا الخليج بالقاهرة حدا بين مقام الفـريقين فى خلال أيام الهدنة وتركوا الحرب وأخـمدوا النيران وأخذ العسـاكر السلطانية والمصـرية والأمراء من الفريقيـن فى التأهب والاستعـداد للجلاء وزودهم الأميـر كلابير بما لزم من مـال وميرة ودواب للحمل وكـتبوا بعـقد الصلح دستورا من شروطه أن الفـرنسيس يبقون عندهم عثمان بيك البـرديسى وعثمان بيك الأشقر رهينة ويرسلون ثلاثة من كبار الفرنسيس يكونون مع الكتخدا حتى يصل بمن معـه إلى الصالحية وأن يرافـقهم ثلثمائة من جـند كلابير ثم يعودوا ومـعهم الرهائن وأن من شاء الخروج من أهل مصر فلا حرج عليه ماعدا عثمان بيك الأشقر فإنه متى رجعت الرهائن يذهب هو والبـرديسى ويلحقان بمراد بيك فى الإقليم القـبلى، وأمر كلابـير بالرهائن من الفـرنسيس فـذهبوا إلى وكـالة ذى الفقـار وأجلسوهم بجـامع الجمالى بالجمالية مع نصوح باشا فلما رآهم العامة هاجوا وماجوا وأرادوا البطش بهم وهموا بقتل عثـمان كتخدا فأغلق دونهم الباب ومنع نصـوح باشا من دنو العامة من المسجد وركب المغـربى الذى تقدم الكلام عنه وسار إلى الحسينيـة وهو ينادى بالجهاد وقتل الكفار فـحضر إلى عثمان كـتخدا من أهل الحسينيـة من سأله فى ذلك فنهاهم وحذرهم وأمـرهم بمنع ذلك المغربى وركب كـذلك المحروقى وأمـامه بعض العـامة ينادون بأن لا صلح ولا اتفـاق ولازمـوا المتـاريس ومـر على هذه الصـورة بسـوق الخشاب فقـام عليه نزله أمين وأوقفه عن التطواف ومنعـه من المناداة وفتح فى الحال باب خان ذى الفقار فخرج منه طائفة من الجند وبأيديهم العصى فمزقوا شمل العامة وفرقـوا جمـعهم وضربوهم بـالعصى فانكمـشوا وسكن الحـال وكان نصـوح باشا

والأمـراء المصريون لما دخلوا القاهرة وضـربوا على أهل الـبلاد المغـارم وزادوا فى المكوس والمظالم وشددوا فى تحـصيلها حتى من المشايخ وأرباب الـطرق طالبوا أيضا الشيخ أبا الأنوار الـسادات بمبلغ من المال وجاءه السيد أحمـد المحروقى بخطاب من كتخدا الدولة بشـأن ذلك فاعتذر الشيخ وطلب المعافـاة فلم يقبل المحروقى وأبى إلا أخذ المقرر فشق الأمر على الشيخ وأحزنه جدا.

قال صاحب عـجائب الآثار فكتب له الشيخ تذكرة وصورتهـا حسبنا الله ونعم الوكيل نعم المولى ونعم النصير وماهو من الظالمين ببعيد.

وظننـت أنك عـدتى أسطـو بهـا ويدى إذا اشتـد الزمان وسـاعدى

فـرمـيت منك بغـيـر مـا أملتـه والمـرء يـشـرق بالزلال الـبـارد

أما بعـد فقـد نقضت عـهدى، وتركت مـودة آل بيت جدى، وأطعت الظـلمة السفلة وامتثلت أمر المارقين الثقلة، فأعنتهم على البغى والجور، وساعدت فى تنجيز مرامـهم الفاسد على الفـور، من إلزامك الكبير والصغـير، والغنى والفقـر، إطعام عـسكركم الذى أوقع بالمؤمـنين الذل والمضـرات، وبالغ فى النهب والفـسـاد غـاية الغـايات، فكان جهـادكم فى أمـاكن الموبقات والملاهى حـتى نزل بالمسلمـين أعظم المصـائب والدواهى، فـاسـتـحكم الدمـار والخـراب ، ومنعت الأقـوات وانقطعت الأسبـاب، فبذلك كـان عـسكركم مخـذولاً، وبهم عم الحريق كل بيت كان بالخـير مشمـولا، كيف لا وأكابركم أضمـرت السوء للمرتزقـة فى تضييق معـاشهم وأخذ مرتباتهم، وإتلاف ما بأيديهم من أرزاقهم وتعلقاتهم، وقد أخفتم أهل البلد بعد أمنها وأشعلتم نار الفـتنة بعد طفئهـا ثم فررتم فرار الفـيران من السنور وتركتم الضعـفاء متوقـعين أشنع الأمور، فواغوثاه واغوثاه أغـثنا ياغياث المستغـثين واحكم بعدلك يا أرحم الراحمين. أهـ.

فلما وقعماوقع لنصوح باشا وقومه من الأمير كلابير فرح الشيخ بخذلتهم وفرح معه أيضا جماعة من المشايخ لخلاصهم من ظلم الجنود العثمانية وأمرائهم وخرجوا جميعا وخرج معهم إبراهيم بيك الكبير وأمراؤه ومماليكة والألفى وأصحابه ومعه السيد عمر مكرم النقيب والسيـد أحمد المحروقى وكثيرون من أهل مـصر والقاهرة وساروا إلى الصالحـية وسار مـعهم حسن بيك الجـداوى وأصحابه ودخل الفـرنسيس إلى المدينة واستولـوا على ما كان أعده العـثمانيون من المدافع والقنابل والـبارود وآلات الحرب وركب المشايخ والأعيان عصر ذلك اليوم إلى مقر الأمير كلابير فلما استقر بهم المقام

أبرز لهم ورقة مكتوبا فيها مانصه، النصرة لله الذى أمر من آتاه النصر باستعمال الشفقة مع الناس وبناء على ذلك فإن أمير الجيوش الفرنساوية لا يبخل بالعفو عن جميع الأهالى ولو أنهم شاركوا العثمانيون فيما ارتكبوه من جرائم القتل وإراقة الدماء فعليهم إذن أن يشتغلوا بأمر معاشهم، ثم التفت إلى المشايخ وقال لترجمانه قل لهم أن يأتوا إلينا فى غد عند قبة النصر فقاموا من عنده مطمئنين وطافوا بالأسواق وبين أيديهم أرباب المناداة ينادون بالأمان العام وباتوا وأصبحوا فركبوا جميعا وذهبوا إلى خارج باب النصر وخرج أرباب المناصب وكبراء القبط والشوام فلما تكامل حضورهم رتبوا موكبا وساروا ودخلوا من باب النصر وأمامهم القواصة يأمرون الناس بالقيام ثم عدد عظيم من الفرسان ثم المشاة وأمامهم الطبول والأبواق ثم الأعيان والمشايخ والعلماء والأمراء والوجاقلية وأتباعهم ثم الأمير كلابير وخلفه الأمير عثمان بيك البرديسى وعثمان بيك الأشقر وخلفهم طوائف الفرسان وبعد انقضاء الموكب زينت البلد ثلاثة أيام ثم أدب الجنرال كلابير ودعا جميع المشايخ والعلماء والأمراء فلما فرغوا من الطعام خلع على الشيخ البكرى خلعة عظيمة وقلد محمد أغا الطنانى أغاة مستحفظان ثم انصرفوا ونادى الأغا بالأمان فى تلك الليلة وأصبحوا وقد دعا مراد بيك الكبير الأمير كلابير وبطانته ومن معه من المقاتلين إلى وليمة أعدها لهم بجزيرة الذهب فذهبوا إليه فبالغ مراد بيك فى إكرام الأمير كلابير وقدم له تقادم وهدايا نفيسة وكذلك لكل واحد من أركان حرب كلابير وقدم إليه أربعة آلاف رأس من الضأن وعجول البقرة وفحول الجاموس وكان قد بعث بها درويش باشا الذى كان بالأقاليم القبلية إعانة إلى نصوح باشا ومن معه من الأمراء المصريين فسر الجنرال كلابير سرورا عظيما فى ذلك اليوم وانشرح صدره وقلد مراد بيك إمارة الصعيد من جرجا إلى إسنا ثم عاد راجعا إلى داره بالأزبكية .

ولما كان فى صبح يوم الجمعة ثامن الحجة من السنة أى سنة أربع عشرة ومائتين وألف حضر المشايخ والعلماء فى زيهم وزينتهم إلى بيت الأمير كلابير باستدعاء من أجل ترتيب الأمور وتقسيم الوظائف والمناصب العالية فذهب كل وهو يؤمل بلوغه ما يتمنى فلما دخلوا أجلسوهم فى مكان برهة طويلة ولم يحضر إليهم أحد وأهملوا ثم طلبوا إلى مكان آخر فدخلوا وجلسوا وأهملوا حصة ثانية أطول من الأولى ثم خرج بعد ذلك الأمير كلابير فى أصحابه ومعه ترجمانه فجلس وأصحابه حوله وكلم ترجمانه ثم بعد أن فرغ التفت الترجمان إلى المشايخ والعلماء وقال يقول الجنرال إنما

قد استحضرتم اليوم إلى هنا من أجل أن تدفعوا إلى خزينة الجيش الفرنسوى عشرة آلاف ألف فرنك عبارة عن ألف ألف فرانسة منها خمسمائة ألف وخمسة وثلاثون ألف فرانسة على الشيخ السادات خاصة وخمسون ألفاً على الشيخ محمد ابن الجوهرى وخمسون ألفاً على أخيه الشيخ فتوح وخمسون ألفاً على الشيخ مصطفى الصاوى والشيخ العنانى ومائتان وخمسون ألفاً نقتطعها من ذلك نظير نهب دور الفارين مع العساكر العثمانية مثل المحروقى والسيد عمر مكرم وحسين أغا شنن وما بقى من المبلغ توزعونه على التجار والأهالى كل بلد وما يناسب حاله ويبقى منكم هنا خمسة عشر رجلا رهينة فاختاروا من يبقى ، ثم قام كلابير من فوره ودخل مع أصحابه إلى داخل وأغلق بينه وبينهم الباب فاستلم فريق من الحراس الأبواب ووقفوا دونها بالبنادق يمنعون من يخرج من الجالسين فبهت الجماعة وانتقعت وجوههم ونظر بعضهم إلى بعض وهم فى دهشة وحيرة ولم يعاف من هذه الغرامة سوى الشيخ المهدى والشيخ البكرى واشتد بالمشايخ الأمر ولم يزالوا على ذلك إلى قريب العصر فأفرجوا عمن دخل معهم من خاملى الذكر وأخذ أرباب الديوان فى توزيع المطلوب وتدبيره وترتيبه فى قوائم حتى وزعوه على الملتزمين أرباب الحرف الدنيئة وجميع صنوف التجار وقضاة المحاكم وقد وضعوا الشيخ الصاوى والشيخ فتوح بن الجوهرى فى السجن وهرب الشيخ العنانى وكانت داره احترقت فضافوا غرامته على الشيخ السادات ووكلوا بالتحصيل المعلم يعقوب والقائمقام مع الخزنة دار لقبض المتحصل وتدبير الأمور والرهونات وركب كلابير مع أصحابه وذهب إلى الجيزة ونزل الشيخ السادات يريد الذهاب إلى داره فسار معه عشرة من الفرنسيس وجلسوا على بابه إلى نصف الليل فحضر إليه عشرة آخرون فأنزلوه من بيته وصعدوا به إلى قلعة الجبل وسجنوه فى مكان فهاله هذا الأمر وأزعجه جدا فأرسل إلى عثمان بيك البرديسى مستغيثا به فركب إلى الأمير كلابير وكلمه فى أمره فقال كلابير أما القتل فلا نقتله لشفاعتك وأما المال فلابد منه إن طوعا وإن كرها ثم أنزلوه من قلعة الجبل وسجنوه فى بيت القائمقام يومين ثم أصعدوه ثانيا إلى القلعة وشددوا عليه وضيقوا فلما اشتد به الخطب طلب أن ينزلوه إلى بيته ليسعى فى سداد المفروض فأنزل فباع متاعه وأثاث داره وما عنده من المال دفعة فلم يبلغ سوى أحد وعشرين ألف فرانسه لاغير ففتشوا جميع بيته ونبشوا أرضه فلم يعثروا فيه على شيء وكان قد نقل نساءه وولده إلى مكان آخر وضيقوا على بقية

المشايخ فى تحصيل المفروض فهرب البعض فنهبوا داره واسترحم البعض فخففوا عنه وأضافوا ما خففوه على الغرامة العامة وانبث الأعوان يطالبون الناس ويقبضون على من لم يدفع ماعليه فاشتد بالناس هذا البلاء وعم الخوف والذل الحقير والعظيم وذهب الدرهم والدينار وعز وجدانهما فصاروا يأخذون المصوغات والأمتعة بأبخس الأثمان حتى نفدت أيضا فأخذوا الدواب وخرج الناس من المدينة وأجلوا عنها إلى القرى والأرياف فرارا فكانوا كالمستجير من الرمضاء بالنار.

(مطلب)

(مقتل الجنرال كليبر قائد الجيوش الفرنساوية وماجرى بعد قتله)

لما خرج نصوح باشا من مصر بعد عقد الصلح مع الأمير كليبر وانجلى عن البلاد بمن كان معه من العساكر السلطانية والأمراء والصناجق المصريين ولحقوا جميعا بيوسف باشا صدر الدولة كبر هذا الأمر عليهم واستعظموه فجعلوا ينظرون فى أمر الخلاص من شر الأمير كليبر ويتدبرون فى أمر قتله فأرسل أغاة الانكشارية إلى حلب يطلب رجلا قادرا مقداما يجسر على قتل كليبر ومناه بالعطايا الجزيلة والمناصب السامية والتحف الجليلة فحضر إليهم رجل اسمه سليمان الحلبى لم يبلغ من العمر سوى أربع وعشرين سنة فقربه الأغا ومناه بالعطايا إن هو قتل كليبر فأقسم أنه يقتله وأخذ لذلك خنجرا وسار إلى القاهرة ونزل بالجامع الأزهر برواق الشوام عند جماعة من مجاورى الشوام له بهم سابق المعرفة ولبث ثلاثين يوما متتبع خطوات كليبر أينما سار ثم كاشف ثلاث من المجاورين بما عزم عليه من قتل كليبر أحدهم اسمه السيد محمد المغربى والثانى اسمه السيد أحمد الوالى والثالث الشيخ عبد الله المغربى وكاشف آخر غيرهم أيضا اسمه السيد عبد القادر الغزى قيل فمنعوه من ذلك ونهوه فلم ينته فلما كان سادس المحرم افتتاح سنة خمس عشرة ومائتين وألف عبر الحلبى النيل إلى الجيزة واجتمع بنفر من بحارة زورق كليبر فسألهم عن كليبر وعن محل وجوده وإقامته وغير ذلك وأراهم أنه رجل غريب يريد الاجتماع به لأمر يهم كليبر فأعلموا بأن عادته أن يتجول فى بستان داره فى كل يوم حصة مقررة فتركهم ورجع إلى مقره بالأزهر وبات ليلته تلك وأصبح يوم سابع المحرم قاصدا الفتك بكليبر وأعلم السيد محمد الغزى ومن معه بأنه سيقتله فى ذلك اليوم وتأبط

خنجره وخـرج من الجامع وسـار إلى بيت كليبـر فعلم بخـروجه إلى الروضـة سار نحوها فـصادفه عائدا إلى داره بالأزبكيـة فتبـعه حتى وصل إلى الدار فدخل كليـبر ولبث الحلبى يراقب الفرص حتى علم بنزول كليبر إلى بستانه على عادته فى كل يوم فتمكن من الدخـول إلى البستان من غيـر أن يشعر به أحد من الحراس فوجـد كليبر يتمشى ومعه المسـيو بروتين كبير مهندسى الجيش فسار الحلبى نحـوهما فوقف كليبر وأشار إليـه بيده أن ارجع فلم يـرجع فقال له بـالعربية مـا فيش وكـررها فلم يرجع وأوهم أن له حاجة عند الجنرال فلمـا اقترب منه مدّ يده اليسار كـأنه يريد تقبيل يده فمد إليه الجنرال يده فـقبض عليها وضربه بخنجره أربع ضربات متـوالية فمزق بطنه وظهرت أمعاؤه وسقط إلى الأرض صارخا فصاح كبير المهندسين على الحرس فأسرع الحلبى نحوه وعاجله بضربة فضربه كبيـر المهندسين عدة ضربات بعصا كانت فى يده فهـرب الحلبى واختفى فى مكان خـرب بقرب سقاية هـناك فسمع الحراس الصـياح فدخلوا مـسرعين فوجـدوا الأمير كليبـر مطروحا وبه بعض الرمق وكبيـر المهندسين ملقى بجانبـه ولم يجدوا للقـاتل أثر فاضطربوا وهاجوا ومـاجوا ونفخـوا فى البوق فاجتمع كثير منهم بين فرسـان وركبان وذهب فريق إلى القلاع وصوبوا أفواه المدافع نحو المدينة يريدون تـدميرها وهلاك جـميع من فيـها وبحث الفرنسـيس عن القاتل فوجدوه منزويا فى ناحيـة من البستان المجاور لبيت كليبـر وقيل بل إن جارية سوداء كانت تنظر إلى ما وقع من شباك بمنزل سيدها المطل على بستان بيت كليبر وقد رأت القاتل عندمـا اختفى فى ذلك المكان فصـاحت على الجند الذين كانوا يفتشـون عليه ودلتهم على مكانه فقـبضوا عليه وأمسكوا معه خنجـره ملوثا بالدم ووجدوا بجانب جثة كلابير قطعـة قماش مصبوغة باللون الأخضـر هى من لباس القاتل قيل ولو لم تدل تلك السوداء على مكان القاتل لتهدمت المدينة بأسرها وقتل جميع من فيها بحد السيف ولما قبضوا عليه سألوه فى الحال عن اسمه وعمره وصنعته وبلده ومحل إقامته فاتضح أنه حلبى واسمه سليـمان ومهنته كاتب وقد جاء إلى مصـر يريد الاستخدام بطرف أحد التجـار وهو يأوى بالجامع الأزهر وأنكر قتل الأمير كـلابير ودخوله إلى البستان فشددوا عليه وضربوه فاعترف بارتكابه جناية القتل وبأن الذى ساقه إلى ذلك أغاة الأنكشارية حيث أطمعه فـى العطايا الجزيلة والمناصب العالية إن هو فعل ذلك فاستحضـره كبار المشايخ وأخبروهم بخبـر هذا الحادث وعوقوهم عندهم إلى نصف الليل وألزموهم بإحضار الأربعة المشايخ الذين يـعلمون بعزم القاتل على فعل القتل

فأحضروا ثلاثة وغاب عنهم رابعهم ونقلوا جثة الأمير كليبر فكان بها أربعة جروح أهمها فى الجنب الأيمن وكانت جثة المسيو بروتاين كبير المهندسين مطعونة ست طعنات أهمها بين ضلوع الجنب الأيسر ثم عقدوا مجلسا لمحاكمة القاتل بعد تحقيق وتدقيق أضربنا عن إيرادهما صفحا فحكم عليه بقطع يده اليمنى ثم رفعه على خزوق بالتل المعروف بتل العقارب ويبقى كذلك حتى تأكل الطيور لحمه وأن ينفذ عليه هذا الحكم بعد دفن جثة كليبر بحيث يراه جميع من يمشى فى جنازة كليبر وحكم كذلك بقتل السيد عبد القادر الغزى وأخذ جميع ما يمتلكه لخزينة الجيش ورفع رأسه على بيته كى يرمى للناظرين وبجانبه ورقة الحكم وحكموا على محمد الغزى وعبد الله الغزى وأحمد الوالى بقطع رءوسهم ورفعها على خشب وحرق جثثهم بالنار على تل العقارب بمرأى من سليمان الحلبى، ولما فرغوا من تحقيق مقتل الجنرال كليبر والحكم على قاتله وشركائه أخذوا يشتغلون بأمر دفن كليبر وكان ذلك بعد موته بثلاثة أيام وأقاموا بدله الجنرال جاك منو ونادوا ليلة الأربعاء خامس عشرى المحرم بتنظيف الطرق والشوارع وأصبحوا فاجتمع عسكرهم وأكابرهم وخرجوا بجنازة كليبر ركبانا ومشاة وقد وضعوا جثته فى تابوت من رصاص ووضعوا التابوت على عربة يجرها أربعة أفراس وعلى التابوت قبعة الأمير وسيفه والخنجر الذى قتل به وهو ملوث بدمه ورفعوا على العربة أربعة أعلام والموسيقى تصدح بأصوات الحزن والبنادق منكسة إلى أسفل فلماخرج النعش من بيته أطلقوا له عدة مدافع وبنادق وساروا من بيت الأزبكية على باب الخرق إلى درب الجماميز إلى جهة النصرية فلما وصلوا إلى تل العقارب حيث القلعة التى أنشأوها هناك أطلقوا عدة مدافع وكانوا قد أحضروا سليمان الحلبى وشركاءه فى الجناية وأوقفوهم عند القلعة تحرسهم الجند ليشاهدوا مشهد قتيلهم ثم ساروا بالجثة إلى أن وصلوا باب قصر العينى فحملوا التابوت ووضعوه على ربوة صغيرة داخل تقفيصة كانوا أعدوها لذلك وعليها كساء أبيض ووقف عند بابها نفر من الجند بالبنادق ملازمين ليلاً ونهاراً ثم عاد الجمع فأوقف عند قلعة تل العقارب ونفذ الحكم على سليمان الحلبى وأصحابه على الوجه المتقدم فكان المنظر مريعا فظيعا للغاية وعندما دنا الجلاد من سليمان ليقد يده اضطرب للغاية وجعل يلتفت يمنه ويسرة كأنه يطلب النجاة فلما رفعوه على الخشبة صاح واستغاث وجعل يكرر كلمات لا معنى لها ثم انصرف الناس وبقى جماعة من الجند حول الخازوق ولما كان ثانى يوم سار القائمقام والأغا إلى الجامع

الأزهر وفتشوا جهاته وأروقته وزواياه بحضـرة المشايخ ثم خرجا بمن معهما من الجند ثم عاد الجنرال ومـعه القائمقـام والأغا بعد أيام وطافوا به ودقـقوا فى تفتيـشه وأمر الجنرال فنبـشوا أرضه لاسـتخراج مـاهو مدفـون فيهـا من الأسلحة والودائع فـأخذ المجاورون عند ذلك فى نقل أمـتعتـهم منه وكتبـهم وإخلاء الأروقة وأحـصى الأغا المجاورين وكـتب أسمائهم ورسم بأن لا يبـيت عندهم غريب ولا يؤوا إليـهم أحداً مطلقا وأخرجـوا منه المجاورين من طوائف الترك فتـقدم الشيخ الشرقـاوى ومن معه إلى الجنرال جاك فى قفل أبواب الجامع منعا للريبة ودفعا للظنون فأذن بذلك فقفلت ثم جمـعوا أرباب الوجاقـات وألزموهم بجـمع ما عندهم من الأسلحـة فجمـعوها فكانت شيئا كثيرا جدا وجعلوا من هذا الحـين يؤاخذون العامة بأقل سبب ويضيقون ويهددون ويبالغون فى النكاية تشفيا وانتـقاما فأخذ بعض الناس يهاجرون إلى القرى والأرياف ومالوا إلى الجلاء عن المدينة تخلصا مما يخشون فأمر عند ذلك الجنرال منو فطاف الأغا ينادى بعدم جلاء الناس ورجوع جميع من سافروا بعد خمسة عشر يوماً وإلا نهبت بيـوتهم من غير معـاودة فرجعوا على أعقـابهم صاغرين فضـربوا عليهم غرامـة أخرى قـدرها أربعة آلاف ألف (لعلها فـرنكات) فقـرروا منها على العـقار والدور مائتى ألف فرانسـة على الملتزمين مائة وستين ألف وعلى التـجار مائتى ألف وعلى أرباب الحرف المستوريـن ستين ألفا وقسموا المدينة إلى ثمـانية أخطاط وجعلوا على كل خطة منها خمـسة وعشرين ألف ريال ووكلوا مشـايخ الحارات بقبض ذلك مع الأمير الساكن فى تلك الخطة فضاق خناق الناس واشتد بهم الكرب وعجزوا عن السداد فتـابعوا نهب الدور بأدنى شبهة واحتـجب الجنرال منو عن الناس وامتنع عن الاجتـماع بالمسلمين وكذلك عظـماء القواد واستـوحشوا وزادوا فى تحصـين القلاع وجددوا منها عدة كـثيرة وبنوا بها المخازن والمساكن وصهـاريج الماء فى جميع أنحاء القطر حتى فى الصعيد وهدموا كثـيرا من أخطاط الحسينية وخارج باب النصر وباب الفتوح من الحارات والدور وغيرها وزادوا فى التنكيل بالأهالى وفى تذليلهم جزاء ما فعلوه.

وبينمـا هم على هذا الحـال من التحـذر والتـحـجب إذ قـدم على أبى قـيـر والإسكندرية عمارة عظيمة من السفن الإنجليزية وجعلت تغدو وتروح أياما وكان بها أيضا جماعة من العساكر العثمانية فلما علم الفرنسيس بخبرها خرج فريق منهم يريد البحـيرة والناس لا تعلـم ما هناك واستـحضـر الوالى والمحتـسب مشـايخ الحارات

والأخطاط وشددا فى التنبيه عليهم بمراقبة السوقة وملاحظة أحوال العامة والتأكيد عليهم بالخلود إلى السكينة وعدم التظاهر بمظاهر الدين الموجبة لتوغير الصدور وظهور كامن الضغائن وبالغا فى النصيحة للغاية وأعلماهم بأنهم هم المؤاخذون بذنوب العامة المسؤلون عنها، وبينما كانت العمارة الإنجليزية تغدو وتروح فى عرض البحر بين أبى قير والإسكندرية وتمنع الوارد عنهما كانت العساكر العثمانية تنحدر من الشام قاصدة ديار مصر ومعهم يوسف باشا صدر الدولة ومازالوا يجدون السير حتى نزلوا على العريش وعسكروا بها أياما فسار للقائهم طائفة من الفرنسيس ومعهم آلات الحرب الكثيرة ونزلوا بالصالحية وأقاموا بها أياما وخرج كذلك الجنرال منو فى نفر من أركان حربه وطائفة من الجند إلى البحيرة فلم يستقر بها حتى جاءه الخبر بنزول طائفة عظيمة من عسكر سفن الحرب الإنجليزية إلى أرض أبى قير وقد كان لا يظن ذلك فسار بمن معه من الجنود من البحيرة إلى انبابة وساروا منها إلى مدينة الإسكندرية مسرعين ولحقت بهم طائفة أخرى ممن هم بالقاهرة ومصر وبرح الخفاء وصارت الحرب أدنى من قاب قوسين وتحقق زحف بعض مقدمات الجيوش السلطانية إلى مقربة من العريش ووردت الأخبار بذلك إلى الجنرال فوريه نائب الغيبة فجمع إليه المشايخ وأرباب الديوان وأعلمهم بخبر وصول السفن الإنجليزية إلى أبى قير والإسكندرية وزحف يوسف باشا الصدر الأعظم بعساكره إلى العريش ووجوب أخذ بعض المشايخ رهينة مادامت الحرب قائمة بينهم وبين العدو فلم يروا بدا من قبول ذلك بالطاعة ووقع الاختيار على أخذ الشيخ الشرقاوى والشيخ المهدى والشيخ الصاوى والشيخ الفيومى فأصعدوهم إلى قلعة الجبل فى الساعة الرابعة من الليل وأنزلوهم بجامع سارية ونقلوا إليهم أيضا الشيخ السادات وأمروا من بقى من أرباب الديوان وهم أربعة مشايخ بأن يلازموا شيخ البلد ويداوموا على حض الرعية بالخلود إلى السكون وملازمة الطاعة واستحضروا كثيرا من الأعيان وأصحاب المناصب القديمة على عهد المماليك وأصعدوهم إلى قلعة الجبل رهائن وأكثروا من نقل الذخيرة والأمتعة والصناديق والفرش والأسلحة إلى قلعة الجبل ليلا ونهارا.

وكان الجنرال منو لما تولى الرياسة لم يحسن التدبير ولم يفلح فى سياسته لعدم خبرته بالتدابير العسكرية وتجرده عن الهيبة الشخصية فأبغضه كبار الفرنسيس وقواد الجنود ومقتوه وكان منو قد أسلم ودعا نفسه عبد الله منو وتزوج إحدى بنات المسلمين وولدت له ولدا فسماه سليمان وسكن بخطة سيدنا الحسين وجعل يخالط

العامة والسوقة بتلك الخطة ليستميلهم إلى محبته وكان ديوان القاهرة إلى ذلك الحين مؤلفا من المسلمين والنصارى كما رتبه بونابارته وكليبر من بعده فأخرج منهم النصارى وسلم الأحكام لمن بقى من المسلمين ومال إلى جانبهم وبالغ فى استرضائهم وأخذ جباية الأموال من يد الأقباط وسلمها إلى المسلمين وقد كانت بيد القبط من عهد عمرو بن العاص إلى ذلك الحين ثم خلط وخبط وقلب نظام الهيئة الحاكمة وأفسد منها ما أصلحه الأمير كليبر وعمل غير ذلك أيضا.

قال بعض أصحاب التاريخ وقد كان إسلام منو هذا خدعة من مكايد الفرنسيس وتغريرهم بالمسلمين، قلت وقد اطلعت على صورة عقد زواج منو المذكور بمجلة الموسوعات منقولة بالنور الشمسى من سجل محكمة رشيد الشرعية فآثرت نقله هنا تتميماً للفائدة التاريخية وهى، بمحضر كل من مولانا العلامة السيد أحمد الخضرى المفتى الشافعى ومولانا الشيخ محمد صديق النائب والمفتى الحنبلى ومولانا السيد محمد غرا النائب والمفتى المالكى والسيد أحمد بدوى نقيب الأشراف حالا والأمير محمد بدوى چوربجى سردار مستحفظان وأحمد أبو جاويش مستحفظان والحاج أحمد جاويش العسال والحاج محمود اللومى المغربى وإبراهيم الجمال الرزاز والحاج محمد ميتو وعبد الله بربيره والحاج بدوى الشناوى وأوذن إسماعيل السلانكلى وعلى جاويش كتخدا البيك دام كمالهم:

بعد أن أقر واعترف مينو باشا صارى عسكر القطر المصرى حالا بصريح لفظه وفصيح نطقه بكلمتى الشهادتين وهما، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله عارفا معتقداً معناها ومصدقا لمضمونها تاركا لدين النصرانية والأديان الرديئة على الترتيب والولاء وإعادة التشهد واستيفاء الشروط المعتبرة فيهما شرعاً طائعاً مختارا من غير إكراه ولا إجبار بمقتضى ذلك صار له ما للمسلمين وعليه ما عليهم وظهر منه الرغبة والحب للمسلمين والميل إليهم وسمى نفسه عبد الله باشا وأشهد على نفسه الجماعة المذكورين بجميع ذلك إشهادا شرعياً ثم بعد ذلك رغب عبد الله باشا المذكور فى تزوجه بامرأة مسلمة فخطبها خطبة شرعية وأجيب لذلك بعد إبرازه لفتيا شرعية لفظ سؤالها.

ما قولكم دام فضلكم فى رجل أحب الإسلام وأهله ورغب فيهما تاركا لدين النصرانية ناطقا بكلمتى الشهادتين مصدقا على الوجه الأكمل ثم أراد أن يتزوج امرأة مسلمة على كتاب الله العظيم وسنة نبيه الكريم فهل يجوز له حينئذ التزوج بها

والعقد عليها بشروطه الشرعية أفيدوا الجواب، وبأدناه، الحمد لله حيث كان الحال ما شرح فى السؤال فيجوز للرجل المسلم المذكور خطبة المرأة المسلمة والعقد عليها بشروطه الشرعية والله أعلم.

كتبه الفقير أحمد الخضرى الشافعى لطف الله به وبأدناه، الحمد لله حيث أقر الرجل المذكور بالشهادتين بشروطهما الشرعية فيجوز له أن يعقد على المرأة المسلمة عقدا شرعيا مستوفيا لشرائطه الشرعية والله أعلم، كتبه الفقير محمد صديق الحنبلى عفى عنه وبأدناه، الحمد لله حيث رغب الرجل المذكور فى الإسلام ونطق بكلمتى التوحيد جاز له أن يتزوج المرأة المسلمة وأن يعقد عليها العقد الشرعى بشروطه الشرعية والله أعلم، كتبه الفقير محمد غرا المالكى غفر له الله وعفا عنه.

فبمحضر كل ممن ذكروا أعلاه تزوج عبد الله باشا المذكور بمخطوبته زبيدة المرأة بنت محمد البواب التى كانت زوجا لسليم أغا نعمة الله وطلقها وانقضت عدتها منه شرعا على كتاب الله العظيم وسنة نبيه الكريم وصداق جملته ألفا ريال اثنان معاملة ومائة دينار ذهبا محبوبا فالحالّ لها من ذلك المائة دينار المذكورة أقبضها لوكيلها الحاج حسين ابن السيد محمد الموقت فقبض منه ذلك عددا بالمجلس بمعاينة من ذكر أعلاه وعليه الخروج من عهدة ذلك لها شرعا والباقى الألفا ريال الاثنان يحلان لها عليه بموت أو فراق زوجها له ذلك، وعقد نكاحها عليه وكيلها الحاج حسين الموقت المرقوم بإذنها له فى ذلك بشهادة كل من أخيها لأمها السيد على الحمامى بن حسن البواب والسيد أحمد وشقيقه السيد إبراهيم المكلف كل منهما ابنى السيد سليمان النقرزان تزوجا شرعيا قبله للزوج المرقوم وكيله الحاج أحمد شهاب حسبما وكله صريحا بالمجلس بشهادة شهوده المذكورين وعلى عبد الله باشا الزوج المذكور القيام لزوجته المذكورة فى كل سنة تمضى من تاريخه أدناه بعمل كسوة أقمشة شتاء وصيفا لائقين بحالهما وثبت ذلك لدى مولانا أفندى بعد أن ثبت لديه معرفة زبيدة المذكورة المعرفة الشرعية التى لا جهالة معها شرعا بشهادة كل من شهود توكيلها المذكورين ثبوتا شرعيا وحكم بموجبه حكما شرعيا فى الخامس والعشرين من رمضان سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف انتهى بنصه.

وبعد أن تم عقد الزوجية بين الجنرال منو المذكور وزبيدة بنت محمد البواب على الوجه المتقدم حصل التعاقد بينهما أيضا على شروط وعهود يعيشان على مقتضاها معا وقد تسجلت بالطريقة الشرعية بسجل محكمة رشيد بعد تسجيل عقد الزوجية ونصه، بحضرة كل من مولانا الشيخ أحمد الخضرى المفتى الشافعى ومولانا

الشيخ محمد صديق النائب والمفتى الحنبلى ومولانا السيد محمد غرا النائب والمفتى المالكى والسيد أحمد بدوى نقيب الأشراف والأمير محمد بدوى چوربجى سردار مستحفظان وأحمد أبو جاويش مستحفظان والحاج أحمد جاويش العسال والحاج محمد اللومى المغربى وإبراهيم الجمال الرزاز والحاج محمد ميتو وعبد الله بربيره والحاج محمد الشناوى وأوزن إسماعيل السلانكلى وعلى جاويش كتخدا البيك ولوى چوسيف ويكتور جوليان صارى عسكر حاكم ولاية الثغر ولوى چوست دروى رئيس طائفة عسكرية وكتخدا صارى عسكر الآتى ذكره فيه وجان فرنسواه لوى لويكه مهندس وميقاتى الجيش الفرنساوى ولويزى وانولى باش حكيم الفورنتينه دام كمالهم.

صار التوافق والتراضى بين الحاج حسين ابن السيد محمد الميقاتى الوكيل الشرعى عن زبيدة المرأة بنت السيد محمد البواب الثابت معرفته وتوكيله عنها فيما يذكر فيه بشهادة كل من أخيها لامها السيد على الحمامى بن حسن البواب والسيد أحمد وشقيقه السيد إبراهيم ابنى السيد سليمان النقرزان الثبوت الشرعى وبين الحاج أحمد شهاب الحاضر معه بالمجلس القائم فى ذلك بوكالته الشرعية عن عبد الله باشا منو صارى عسكر القطر المصرى حالا الثابتة صريحا بالمجلس وبتصديقه على ذلك التصديق الشرعى وهو زوج زبيدة الموكلة بموجب كتاب الزوجية المسطر بمحكمة الثغر المؤرخ بخامس عشرى شهر تاريخه أدناه على شروط تكون وتوجد بين عبد الله باشا منو وبين زوجته زبيدة بإقرار الوكيلين المذكورين.

الشرط الأول: أن زبيدة الزوجة أقامت وأذنت زوجها المذكور وكيلا عنها فى سائر ما تمتلكه يدها الآن وفيما يوجد لها من المال يتصرف لها فى ذلك بحسن نظره السديد.

الثاني: أن عبدالله باشا منو الزوج المذكور أقر بأن كامل ما هو تحت يدها من متاع ومصاغ وحلى فهو ملك لها بمفردها.

الثالث: عبد الله باشا منو الزوج المرقوم أعطى لوكيله الحاج أحمد شهاب المذكور مائة محبوب كل واحدة منها بمائة وثمانين نصفا فضة فى نظير صداق زوجته المذكورة وأن الحاج أحمد شهاب سلم جميع ذلك ليد وكيلها الحاج حسين المذكور فسلم له ذلك عددا بالمجلس وذلك على حسب عادة عقودات المسلمين،

الرابع : أن الزوج المذكور شرط على نفسه أنه إن حصل بينه وبين زوجته فراق

يدفع لها ألفى ريال اثنين معاملة فى نظير فراقه لها وكل ما كان تحت يدها وقت ذلك يكون جميعه لها حسب عادة دفع مؤخر صداق المسلمين.

الخامس: أن زبيدة الزوجة المذكورة إن كانت تطلب طلاقها من زوجها المذكور بحسب شرع المسلمين لم يكن لها من الألفين ريال المذكورة ولا نصف فضة ماعدا ما تحت يدها من مصاغ وغيره فهو لها.

السادس: زبيدة لم تزل وارثة فى كل ما كانت ترثه شرعا.

السابع: أن زبيدة أقرت بنفسها أنه إذا مات زوجها المذكور وهى فى عصمته تأخذ من ماله الألفين ريال المذكورة وليس لها موارثة ولا طلب فى تركته وذلك فى نظير أرثها الشرعى حسب رضاها بذلك .

الثامن: أنه إن مات الزوج المذكور وخلف أولادا من زوجته المذكورة وهم قصر يقام عليهم رجلان ناظران ووصيان واحد فرنساوى والثانى ابن عرب يتصرفان فى أموالهم بحسب المصلحة فى طريقة الفرنساوية وطريقة المسلمين.

التاسع: أن الزوجة المذكور إن ماتت وخلفت أولادا من زوجها المذكور فى حياته يكون أبوهم هو الوكيل الشرعى على أولاده وعلى مالهم.

العاشر: الناظر الوصى الفرنساوى المذكور فى الشرط الثامن يقام من طرف حكامً الفرنساوية الموجودين فى بر مصر وقت ذاك والناظر الوصى الثانى يقام بحسب عادة المسلمين وإن حصل تداع بسبب اختلاف تقام الدعوى على يد الحاكم الشرعى إن كان ببر مصر أو ببر الفرنساوية .

الحادى عشر: عبد الله باشا منو وزوجته إن ماتا جميعا وخلفا أولادا تكون أولادهما تحت حماية جمهور الفرنساوية والزوجين المذكورين يقصد أفضل الحكام الخمسة التى ببلاد فرنسا يكونوا نظراء على أولادهما وأن الزوج والزوجة أقرا واعترفا برضاهما على هذه الشروط المذكورة على يد وكيلهما الإقرار والاعتراف الشرعيين الصادرين منهما بالمجلس بحضرة من ذكر أعلاه وأنهما التزما بهذه الشروط يفعلانها وقت الاحتياج إليها غير إكراه ولا إجبار التزاما مرضيا وثبت ذلك لدى مولانا أفندى ثبوتا شرعيا وحكم بموجبه فى سابع عشرى رمضان سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف، انتهى بنصه.

وبقيت زبيدة في عصمة الجنرال منو ولم تفارق رشيد مسقط رأسها وسكنها حتى أخذت رشيد من الفرنسيس وانجلوا عنها فسارت منها بالبحر فى المحرم افتتاح سنة

ست عشرة ومائتين وألـف مع أخيها السيد على الرشيدى أحد أعـضاء الديوان بثغر رشيـد إلى الرحمانيـة ولبثت أمامهـا أياما حتى نزل على الرحـمانية القـادمون من العساكر السلطانية والعـساكر الإنجليزية واحتلوا قلعتها فسار السـيد علىّ باخته زبيدة إلى مصـر ونزل بها ببـيت الألفى بالأزبكية أيامـا قلائل صعـد بها إلى قلعـة الجبل فأقامت بها وورد كـتاب الجنرال منو على أعضاء الديوان بالقاهرة يوصيـهم خيرا بها وبولده منها سليمان مراد.

قال القائمقام توماس ولسن الإنجليزى فى كتابه المسمى البعثة الإنجليزية بمصر ما تعريبه، ولما كان سابع عشر يونيه سنة إحدى وثمانمائة وألف ميلادية سلم الفرنسيس قلعة القاهرة بعـد أن وقعوا على شروط الجلاء عن ديار مـصر وخرج من بقى منهم وخرجت امـرأة الجنرال منو تريد اللحاق بزوجـها فعـارض جماعـة الترك فى ذلك وشددوا فى منعـها وبالغوا فى التـشديد فقام فى وجـههم القائد بيـار وقال لابد من ذهابها وأنا الكفيل بها والضامن لراحتها فخرجت مع من خرجوا اهـ.

وكان تزوج الفرنسيس على اختلاف درجاتهم بالمسلمات قد فشا وعم سائر المدن والقرى وكـان حكام الأخطاط من الفرنسيس يـلبسون نسـاءهم من المسلمات الأزياء الفرنجيـة ويمشون معـهن فى الأخطاط للنظر فى أمور الرعيـة والأحكام فكن يأمرن وينهين كأنهن الحكام وكانت تمشى المرأة منهن بنفسها أو معها بعض أترابها وأضيافها على مثل زيهـا وأمامها الـقواسة والخدم وبأيديهم العـصى يفرجون لهن الناس كـما يفعلون عند مرور كـبار الحكام بالطرق والشوارع وكن كثيرا ما يـأمرون أيضا وينهين فى الأحكام وكادت هذه المحنة تـعم سائر البلاد لولا جـلاء الفرنسيس عنهـا بقدوم العساكر السلطانية والعساكر الإنجليزية.

وبينمـا كـان الفرنسـيس يعـدون المعـدات ويسـيرون العـسـاكر إلـى أبى قيـر والإسكندرية ودمنهور والرحمـانية وغيرها لمنع تقدم الإنجليز ظهـر الطاعون بالقاهرة ومصر واشتد شدة عظيمـة فكثر الموات وتزايد يوما عن يوم وصار ينتقل من بلد إلى آخر حتى بلغ الصعيد الأعلى وفتك بأهله فتكا عظيما ومات به مراد بيك الكبير رابع الحجة سنة خمس عشرة ومائتين وألف وجاء الخبر بذلك إلى القاهرة فأقام الفرنسيس بدله عثمـان بيك الجوخدار المعروف بالطـنبرجى وأقروه على إمرة الصـعيد الأعلى ومات كـثيـر ممن كان بقلعـة الجبل من الأمـراء والأعيـان الرهائن وكان مع اشـتداد الطاعون وكثـرة الموات لم ينكف الفرنسيس عن تعبئـة الجنود وإرسال المعدات وبذل الجـهـد فى منع جيـوش الإنجليـز من التـمكن من الإسكنـدرية وكان السـيـر رلف

أمبركرومبى أمير العمارة الإنجليزية قد تمكن من إنزال جنوده خارج الإسكندرية وعملوا بعض المتاريس فكانت غاية فى المنعة والتحصين والتقت العساكر الفرنساوية بالعساكر الإنجليزية وانتشبت الحرب بين الفريقين واقتتلا قتالا عنيفا اليوم بطوله فلم يظهر أحد منهما على الآخر ومع ضعف رأى الجنرال منو وقلة تدبيره وجهله بفنون الحرب وترتيب الصفوف فقد كانت خسائر الفرنسيس فى ذلك اليوم خمسمائة رجل وخسائر الإنجليز مائة وألف ورجع الفرنسيس إلى الإسكندرية وأرسل الجنرال منو إلى بونابارته يطلب المدد وكان قد وصل حسين باشا بجيوشه فأنزلهم بأبى قير فضعفت نفوس الفرنسيس وكادت تفتر عزائمهم ولكنهم تابعوا إرسال النجدات إلى الإسكندرية وأبى قير وصار يخرج فى كل يوم طائفة من كبارهم وقوادهم إلى الإسكندرية وخرج معهم المعلم إبراهيم الجوهرى وآخرون من عظماء القبط وكأنهم رهينة وزادوا فى تحصين مصر والقاهرة وعملوا خندقا عظيما بباب البرقية وأصبحوا بين عدوين ألدين وخصمين عنيدين جنود الأعداء المتحالفين والطاعون الذابح لرجالهم بغير سكين ولكنهم ثابروا على القتال بقلوب مائتة وعادوا لقتال الإنجليز والإنجليز من خلف المتاريس وأشار ضباط الفرنسيس على الجنرال منو بمهاجمة الإنجليز من ناحية حصنهم الأيمن إذ كان هو أقوى حصونهم وأمنعها فتردد فى الأمر ولم يقدم عليه إلا فى ليل ذلك اليوم فلم يفلح ورجع بغير طائل فلما أصبحوا أعادوا الكرة على المتاريس وهجموا عليها ميمنة وميسرة وقيل بل هجموا عليها فجر اليوم الثانى وكانوا يودون أخذ الإنجليز على حين غفلة ولكن الإنجليز كانوا على أهبة واستعداد فانتشبت الحرب بين الفريقين وتتابعت أصوات المدافع وتراسل الرمى بالقنابل وزلزلوا وزاد الجو ظلاما على ظلامه ثم تقهقر الفرنسيس مجانبة فأدرك السير رلف أمبركرومبى أمير السفن الإنجليزية قصدهم من ذلك وخاف العاقبة فعزز ميمنة معسكره فعاد القتال بين الفريقين واشتد وحمى الوطيس وزلزلت الأرض من أصوات المدافع وتساقط القنابل وجرح السير أمبركرومبى بجراحة عظيمة ألقته على الأرض ومازالت الحرب على ساقها إلى ثانى يوم قبيل الظهر علا صوت بوق الفرنسيس بالكف عن القتال فعاد الفرنسيس إلى معسكرهم وقد قتل منهم فى هذه الواقعة زهاء الألفين وأقام الإنجليز وراء المتاريس وقد مات منهم زهاء المائتين وأربعين وجرح ألف ومائتين وخمسين ومات السير رلف أمبركرومبى بجراحته بعد أيام قليلة فأقاموا الجنرال هتشنسون أميرا على سفن العمارة الإنجليزية وتقدم حسين باشا قبطان بمن معه من الجيوش السلطانية فأخذ منهم الجنرال هتشنسون أربعة آلاف مقاتل وضم

إليهم فرقتين من الجنود الإنجليزية وثمانية من المدافع وسيرهم مع الكولونيل سبنسر لأخذ مدينة رشيد وكان برشيد حامية قليلة من الفرنسيس فأرسل الجنرال منو يستطلع عدد هؤلاء الجنود فأعلم بأنها أقل عددا مما هى فاستخف منو بها ولم ينجد حامية رشيد فسار إليها الكولونيل سبنسر ودخلها بغير قتال ثم حول مدافعه على حصن هناك يسمى حصن جوليان وفيه نفر من الفرنسيس فضيق الإنجليز عليهم وشددوا حتى استسلموا فأمنوهم وأخرجوهم من الحصن ولما جاءت الأخبار بذلك إلى من كان بالرحمانية من الفرنسيس أرسلوا يطلبون المدد من الجنرال بيار قائد حامية القاهرة فاعتذر فكاتبوا فى ذلك منو فأمدهم بنفر قليل وملك الإنجليز والعثمانيون مدينة رشيد ودمياط والمنصورة وما جاورها من القرى والبلدان فقويت عندئذ عزائمهم وتابعوا القتال ووالوا الزحف ومنعوا من وصول مراكب الفرنسيس إلى الشطوط المصرية وأطلقوا مياه البحر الملح على الأراضى المجاورة للإسكندرية فأغرقتها وصارت لجة عظيمة إلى يومنا هذا ومانعا من خروج عساكر الفرنسيس من الإسكندرية فلم يبق لهم من سبيل إلا من ناحية العجمى إلى البرية وقد وقف لهم فيه الإنجليز ثم رجعوا إلى الرحمانية فملكوها وأجلوا من كان بقلاعها من الفرنسيس وأخذوها وأخذوا جميع الحصون القريبة منها بجهة العطف وغيرها وذلك فى الخامس والعشرين من الحجة سنة ست عشرة .

وبينما كان الإنجليز يقاتلون عساكر الجنرال منو وغيرهم من بقية العساكر الفرنسوية كان يوسف باشا الصدر الأعظم يتنقل بجيوشه على طريق الفرنسيس من قرية إلى أخرى ومن بلد إلى آخر وهو لا يدفع إلا بالأمر الخفيف حتى احتل الشرقية وتربص بها أياما لجمع الكلف والمغارم فأبق الناس وحضر الكثير منهم فارين إلى القاهرة وأخبروا بوصولهم فخرج الجنرال بيار لقتالهم وخرج معه القائمقام فقاتلهم العثمانيون فلم يثبت الفرنسيس أمامهم لقلتهم وكثرة عدد العثمانيين فقد كانوا ثلاثين ألفا وعساكر بيار لا تتجاوز الخمسة آلاف ورجع الفرنسيس مسرعين إلى القاهرة وكتموا الأمر عن الناس ومنعت العساكر السلطانية دخول المأكولات إلى المدينة فعزت الأقوات واجتهد الفرنسيس فى عمل الخنادق والمتاريس خارج المدينة وجهة القرافة وألقوا الأحجار العظيمة والمراكب الكبيرة فى مجرى النيل لتعطيل سفن العدو وكانت أوائل متاريسهم من باب الحديد ممتدة إلى قنطرة الليمون إلى قصر أفرنج أحمد إلى السبتية إلى مجرى النيل ووصلت طلائع الجيوش الإنجليزية والعثمانية الى بلدة نادر

عند رأس ترعة الفرعونية على الجانب الغربى من النيل ووصلت طلائع جيوش حسين قبطان باشا من الجانب الشرقى إلى بنها العسل وطحلا بساحل النيل ونزل يوسف باشا صدر الدولة ناحية دجوه ومازال حتى وصل إلى شلقان ووصل العساكر الإنجليزية أيضا إلى الوراريق وزحفوا حتى جاءوا ناحية انبابه وعسكروا بها وسار العساكر العثمانية على الجانب الشرقى من النيل ومراكب الذخيرة والمؤنة بين الفريقين حتى وصلوا إلى منية السيرج.

ولما كان يوم الأحد الثانى من صفر من السنة أى سنة ست عشرة أطلق الإنجليز المخيمون بأراضى انبابه مدافعهم تباعا كأنهم يدعون الفرنسيس إلى النزال فردت عليهم مدافع الفرنسيس من جميع القلاع والحصون وخرج فى ثانى يوم بعض الفرسان من الفرنسيس وقاتلوا فريق الإنجليز والعثمانيين وقد شغلوا ساحلى النيل شرقا وغربا وبينهما فى النيل الذخيرة والمؤنة وظلت الفرسان تناوشهم القتال اليوم بطوله ثم انفصلوا بعد حصة من الليل ورجع كل إلى مأمنه واستمروا على هذا الحال إلى اليوم السادس من صفر فزحفت العساكر العثمانية حتى قربوا من قبة النصر وكان فى مقدمتهم إبراهيم بيك الكبير فنزل بزاوية الشيخ دمرداش وأشرف بعض الجنود العثمانية على الجزارين الذين كانوا يومئذ بالمذبح من حائط المذبح وكان به ثلاثة من العساكر الفرنساوية فوقع بينهم مضاربة أصيب فيها أحد الثلاثة الفرنسيس فى ساقه ومات جزار يهودى فلما أحس من بقلعة الظاهر من الفرنسيس بذلك أطلقوا المدافع على معسكر العثمانيين وكذلك فعل من بقلعة نجم الدين والتل فأضروا بمقدمات العثمانيين ضررا عظيما وقتلت نيران المدافع منهم خلقا كثيرا وظل إطلاق المدافع متراسلا إلى ما بعد عصر ذلك اليوم ثم انكف الفريقان وأصبحوا فاقتتلوا بالبنادق والمدافع اليوم كله ولم يتعد أحد الفريقين موقفه وأغلق الفرنسيس فى ذلك اليوم باب النصر وباب العدوى وشددوا فى التجسس وأكثر العسس من التطوف ليلا والأغا والوالى نهارا فكان الناس من الخوف سكارى وماهم بسكارى وزحف الإنجليز أيضا من انبابه إلى أن وصلوا ناحية الجيزة ومعهم كثير من الأمراء المصريين وانتشروا فى الجهات القبلية من الجيزة ومنعوا المعادى من العبور إلى البر الشرقى وانكف الفريقان عن القتال أياما تناجوا فيها على عقد شروط الصلح على قاعدة حافظة لحقوق الفريقين وكان الساعون فى ذلك حسين باشا القبطان وهتشنسون مقدم الجيوش الإنجليزية وأفرجوا عمن كان أسيرا من العثمانيين بقلعة

الجبل وأرسلوهم إلى معسكر يوسف باشا وأفـرجوا عن المشايخ وغيرهم الذين كانوا رهائن بالقلعة وأخـذوا فى نقل أمتعتـهم وبيع خيولهم وأنزلوا عدة مـدافع من قلعة الجبل وقلعة البرقيـة وسارعثمان بيك البرديسى إلى الصعيد ومـعه مرسوم من صدر الدولة خطابا لأهالى الصعيد بالأمـان ووجوب ملازمة السكون والخلود إلى الطاعة ونزل يوسف باشا إلى شبرا ومعه فريق من العساكر السلطانية فسار تجاههم من انبابه فريق من الإنجليز ونصبوا هـناك جسرا وعبر الفريقان لزيارة بعضهـما وتقررت قاعدة الصلح فى ثلاث عشرة مادة حاصل ما فيهـا سرعة الجلاء عن مصر والقاهرة وجميع القلاع والحصون التى بهمـا فى مدة أقلها خمسون يوما وقيام عـساكر الفرنسيس برا بجميع مـتاعهم وأثقالهم وكـراعهم إلى رشيد وعلى مـقدم الإنجليز النفقـة من مؤنة ودوابّ للحمل ومراكب للنقل وسفن لحمل العسـاكر بالبحر الأبيض وعلوفة الخيول ودواب الحـمل التى تؤخد من الـقاهرة بحـيث لاتدخل تلك السـفن من الموانى إلا ماكـان منها للفرنسـيس وإذا أراد أحد المصريين على اخـتلاف مذاهبـهم الخروج مع الجيوش الفرنسـاوية فلا مانع يمنعه مع المحافظة على مـاله وعياله ولاجناح على من خدم الفرنسيس أو أشار على أحد بخدمتهم وأن المرضى والجرحى منهم يبقون بمصر تحت العلاج بمعرفة أطباء الفرنسيس المعينين لذلك مع الاعتناء بأمرهم والقيام بجميع احتياجاتهم وأن يبعث بكبير من كبـراء الإنجليز والعثمانيين إلى مدينة طولون لعرض عقد الصلح وعلى كل من الفرنسيس والعثمانيين تسليم من عنده من الأسرى وإبقاء رهائن من أكابر الفريقين حتى يتم الجلاء.

ودخل بعض أكابر الإنجليز إلى القاهرة ومعـهم بعض أكابر الفرنسيس لمشاهدة ما فـيها من الآثار والأبنية وكـذلك دخل بعض أكابر العثـمانيين فـزاروا تربة الإمام الشافـعى والمشهد الحـسينى والشيخ عـبد الوهاب الشعـرانى فكان كبراء الفـرنسيس يتظرونهم على الأبواب مع التخـشع والأدب وأصبحوا وقد انسـحب من الفرنسيس السـواد الأعظم ونودى فى الأسواق بأن سـتطلق المدافع فى غد من جـميع الـقلاع والحصون إجلالا لخروج جثة الأميـر كليبر من أرض مصر فأطلقت فى ثانى يوم من جميع الأبراج والحـصون تباعا وحملوا نعـشه من قصر العينى وسـاروا به فى كبكبة وأبهة عظيمة جدا وأخلوا قلعة الجبل فى ليلة الجـمعة الحادى والعشرين من صفر من السنة أى سنة ست عشرة وكذلك بقية القلاع والحصون وأجلوا عنها تماما وذهبوا إلى الجيـزة والروضة وقصـر العينى ولم يبق منهم أحـد بالمدينة وبولاق ومصر القـديمة

والأزبكية وتكاثر دخول العساكر السلطانية إلى القاهرة.

قال صاحب عجائب الآثار ففرح الناس كعادتهم بالقادمين وظنوا فيهم الخير وصاروا يستقبلونهم بالسلام ويباركون لقدومهم والنساء يلقلقن بألسنتهن من الطيقان وفى الأسواق وقام للناس جلبة وصياح وتجمع الصغار والأطفال كعادتهم ورفعوا أصواتهم بقولهم نصر الله السلطان ونحو ذلك وهؤلاء الداخلون دخلوا من نقب الغريب المنقوب فى السور وتسلقوا أيضا من ناحية العطوف والقرافة وأما باب النصر والعدوى فهما على حالهما مغلقان لم يأذنوا بفتحهما خوفا من تزاحم العسكر ودخولهم المدينة دفعة واحدة فيقع منهم القتل والضرر بالناس وباب الفتوح مسدود بالبناء فلما أضحى النهار حضر فى قول وفتح باب النصر والعدوى وأجلس بهما جماعة من الأنكشارية فدخل كثير من العساكر مشاة وركبانا أجناسا مختلفة ودخلت بلوكات الأنكشارية وطافوا بالأسواق ووضعوا نشاناتهم ورنكهم على القهاوى والحوانيت والحمامات فامتعض أهل الأسواق من ذلك وكثر الخبز واللحم والسمن والشيرج بالأسواق وتواجدت البضائع وانحطت الأسعار وكثرت الفاكهة مثل العنب والخوخ والبطيخ وتعاطى بيع غالبها الأتراك والأرنؤد فكانوا يتلقون من يجلبها من الفلاحين بالبر والبحر ويشترونها منهم بالأسعار الرخيصة ويبيعونها على أهل المدينة وبولاق بأغلى الأثمان ووصلت مراكب من جهة بحرى وفيها البضائع الرومية واليميش من البندق واللوز والجوز والزبيب والتين والزيتون الرومى قال فلما كان قبل صلاة الجمعة وإذا بجاويشية وأغوات وعساكر وتلا ذلك حضرة يوسف باشا الصدر فشق من وسط المدينة وتوجه إلى المسجد الحسينى فصلى فيه الجمعة وزار المشهد الحسينى ودعاه حضرة الشيخ السادات إلى داره المجاورة للمشهد فأجابه فدخل معه وجلس هنيهة ثم ذهب إلى الجامع الأزهر فتفرج عليه وطاف بمقصورته وأروقته وجلس ساعة لطيفة وأنعم على الكناسين والخدمة بدارهم وكذلك خدمة المشهد الحسينى ثم ركب راجعا إلى وطاقه بناحية الحلى بشاطئ النيل وعملوا فى ذلك الوقت شنكا وضربوا مدافع كثيرة من العرضى والقلعة ودخل قلقات الأنكشارية وجلسوا برءوس العطف والحارات وكل طائفة عندها بيرق ونادوا بالأمان والبيع والشراء وطلب أولئك القلقات من أهل الأخطاط المآكل والمشارب والقهوات والزموهم بذلك وانحاز الفرنساوية إلى قصر العينى والروضة والجيزة إلى حد قلعة الناصرية وفم الخليج وعليها بنديراتهم ووقف حرسهم عند حدهم يمنعون من يأوى

إلى جهتهم من العثمانية فلا يمر العثمانى إلا إلى الجهة الموصلة إلى بولاق وأما إذا كان من أهل البلد فيمر حيث أراد وفى مدة إقامة المشار إليه بساحل الحلى ببولاق خرب عساكره ما قرب منهم من الأبنية والسواقى والمتريز الذى صنعه الفرنساوية من حد باب الحديد إلى البحر وأخذوا ما بذلك من الأفلاق الكثيرة المهندمة والأخشاب المنجرة المرصوصة فوق المتريز وتحته فى الخندق فخربوا ذلك جميعه فى هذه المدة القليلة وذلك لأجل وقود النار والمطابخ أهـ.

وتتابع دخول العساكر العثمانية إلى المدينة وانتشروا فى أنحاء مصر والقاهرة واحتل بعضهم القلاع والحصون والطوابى التى كان بها جنود الفرنسيس ورفعوا عليها أعلامهم ماخلا الحصون والقلاع التى انحازت إليها طوائف الفرنسيس وهى من قصر العينى إلى جهة النصرية كما تقدم القول وعاث فريق الانكشارية فى المدينة يزاحمون أرباب الحرف والصنائع فى أرزاقهم ووضعوا أسلحتهم على أبواب الحوانيت كافة إشعارا لأصحابها من الحلاقين والخياطين والقهوجية بأنهم شركاؤهم فى كسبهم اليومى فامتعض السوقة وأصحاب الحوانيت وشكوا من ذلك فدخل أغاة الأنكشارية ومر من وسط المدينة وخلفه بعض الصناجق المصريين وأمر بأسلحة الأنكشارية فرفعوها عن أبواب الحوانيت كافة إلا القهاوى فشكا أصحابها فلم يلتفت إليهم ودخل أيضا فى ذلك اليوم كثير من الجند والعسكر المصرى ومعهم محمد باشا المعروف بأبى مرق وهو المترشح للولاية على مصر من جانب السلطنة وسكن ببيت الهياتم بالقرب من مشهد الحنفى، واتفق فى يوم دخوله أن أحد العساكر السلطانية من الأرنؤد كان بالجمالية فمر به عرقسوسى فشرب منه قدحا ولم يعطه ثمنه فكلم العرقسوسى فى ذلك مقدم قلق الأنكشارية المرابطين بالجمالية فأحضر ذلك الجندى وأمره بدفع ثمن ما شربه فامتنع فنهره وأراد ضربه فأخرج الجندى غدارته وأطلقها على مقدم القلق فقتله وهرب إلى حارة الجوانية ودخل إلى إحدى الدور وامتنع فيها وصار يطلق غدارته على كل من يقصده فقتل خمسة من الجند واتفق أن مر اثنان من الأرنؤد بتلك الخطة فقام عليهما نفر من الأنكشارية وقتلوهما انتقاما ولما أعياهم أمر ذلك القاتل وتعذر عليهم ضبطه أحرقوا عليه الدار التى امتنع فيها فخرج هاربا من النار فقبضوا عليه وقتلوه شر قتلة واشتد الخوف بأهل تلك الخطة فترك أكثرهم دورهم بما فيها وخرجوا على وجوههم ولم تكد تسكن الخواطر بسكون هذا الحادث حتى وقع آخر على مقربة من الخطة المذكورة فاشتد خوف الناس وتبدل فرحهم بخروج الفرنسيس حزنا وأسفا.

مطلب

جلاء الجيوش الفرنساوية عن مصر والقاهرة وسائر الديار المصرية

وخرج طوائف الفرنسيس في يوم الأربعاء رابع ربيع الأول من السنة أي سنة ست عشرة ومائتين وألف هجرية وأخلوا قصر العيني والروضة والجيزة وانحدروا إلى الشمال من الوراريق وارتحل معهم أمير السفن العثمانية وعدد من الإنجليز وجماعة كثيرة من الأرنؤد وعثمان بيك الأشقر ومراد بيك الصغير وأحمد بيك الكيلارجي وأحمد بيك حسن من الأمراء المصريين يريدون الإسكندرية لعرض الصلح أيضاً على الجنرال منو قائد الجيوش الفرنساوية فلما وصلوا إلى الإسكندرية كلموه في أمر الصلح وعرضوا عليه شروطه التي وقع الاتفاق عليها فلم يقبل بها وأبى إلا القتال فقاتلوه وحاصروا الإسكندرية وشددوا في حصارها فكان العربان يدخلون إلى الفرنسيس بالمؤن وغيرها من طريق مجهول واشتد القتال بين الفريقين وتراسل رمى القنابل وكان الإنجليز والعثمانيون يهجمون في كل يوم فلم ينالوا من الفرنسيس وطال الحرب وسئمت أنفس المقاتلين فخاف الإنجليز والعثمانيون سوء العاقبة فصمموا على الهجوم وهجموا على متاريس الفرنسيس هجمة رجل واحد فقتل العدد العديد من جيوش حسين باشا أمير السفن العثمانية وكذلك قتل من الإنجليز جماعة كثيرة وانجلت الواقعة عن جلاء الفرنسيس عن بعض متاريس ناحية العجمى فملكها الإنجليز وعساكر المسلمين وقتل من الفرنسيس عدد ليس بقليل وكذلك من الأمراء والصناجق المصريين ومازالوا على هذا الحال والحرب قائمة والقتال لا ينفك حتى جاءت إلى الجنرال منو رسل بونابارته بالإذعان إلى الصلح والجلاء عن الإسكندرية فأجلوا عنها بشروط غاية في الفخر وعزة النفس ونزلوا على ظهور السفن التي أتى لهم بها أمير الدوارع الإنجليزية وساروا إلى أوطانهم في العشرة الأواخر من جمادى الأولى من السنة أي سنة ست عشرة ومائتين وألف هجرية فكانت مدة لبث الجنرال منو بمدينة الإسكندرية في الحصار والقتال بعد خروج الفرنسيس جميعا ونزولهم بأبي قير وقيامهم إلى أوطانهم شهرين وبضعة أيام لم يعتبر جماعة الكتاب هذه المدة في مدة تصرفهم في البلاد بل عدتها أيام حصر وقتال ليس إلا وقالوا إن مدة إقامتهم وتسلطهم لغاية جلائهم وخروجهم من القلاع هي ثلاث سنوات وأحد عشر يوما حيث نزلوا على انبابة والجيزة وغلبوا طوائف المماليك في يوم السبت تاسع صفر سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف هجرية وكان انتقالهم وخروجهم من القلاع وجلاؤهم عن المدينة وانخلاعهم عن التصرف والحكم ليلة

الجمعة الحادى والعشرين من صفر سنة ست عشر ومائتين وألف هجرية فسبحان من بيده الملك يؤتيه من يشاء من عباده.

□□□

(فصل)

(فى بقية مدة سلطنة السلطان سليم
وما فيها من الحوادث والأخبار)

لما تم جلاء الفرنسيس عن القاهرة ومصر دخل الوزير يوسف باشا إلى القاهرة يوم الخميس خامس ربيع الأول فى موكب حافل للغاية وكان دخوله من باب النصر ومر من وسط المدينة وأمامه الجند المختلف من أرنؤد وانكشارية وشامية والأمراء المصريين والمغاربة والقليونجية وطاهر باشا أمير العسكر الأرنؤد وإبراهيم باشا والى حلب ومحمد باشا أبو مرق والى مصر والكتبة ورئيس الكتاب وكتخدا الدولة وغيرهم من الخدم والحشم والأتباع وقاضى القضاة والنواب والعلماء المصريين ومشايخ التكايا والدراويش وأمامه الملازمون بالبراقع والجاويشية والسعاة والجوخدارية وخلفه اثنان على يمينه ويساره ينثرون دراهم الفضة على رءوس الناس بالطريق ثم النوبة التركية وبعض المدافع وعربات الذخيرة وكانت الحصون والقلاع جميعها تطلق المدافع تباعا ومازال حتى نزل ببيت رشوان بيك بحارة عابدين، فلما استقر به المقام جعل يتصرف فى الأمور ورسم بأن لا تدفع الأموال والعشور للملتزمين إلا بمرسوم منه واهتم بترتيب ديوان الأعشار والمكوس وبالغ فى ذلك فانقبض الناس وأخذتهم الطيرة من فعاله ولم يلبث حتى طلب قرضة من التجار قدرها مائة كيس وعشرة أكياس فاعتذروا فلم يقبل فاجتمع أصاغرهم عند بيته وصاحوا واستغاثوا ونادوا أرحمنا يرحمك الله فرسم برفعها عنهم وتكليف أهل الميسرة منهم بها فدفعوها وهم صاغرون وشدد فى تحصيل العشور فبلغ ما تحصل منه فى بضعة أيام ستة عشر ألف كيس ولم يكن بأسرع من أن عمد العسكر على اختلاف أجناسهم إلى العسف والجور والاختلاط بالسوقة.

قال صاحب عجائب الآثار وكثر اشتغال طائفة العسكر بالبيع والشراء فى أصناف المأكولات وتسلطوا على الناس بطلب الكلف ورتبوا على السوقة وأرباب

الحوانيت دراهم يـأخذونها منهم فى كل يـوم ويأخذون من المخابز الخـبز بغـير ثمن وكذلك يشربـون القهوة من القهاوى ويحـتكرون ما يريدون من الأصناف ويبيـعونها بأغلى الأثمان ولا يسرى عليهم حكم المحـتسب وكذلك تسلطوا على الناس بالإيذاء لأدنى سبب وتعرضوا للسكان فى منازلهم فيأتى منهم أناس ويدخلون الدار ويأمرون أهلها بالخروج منها ليسكنوها فإن لاطفهم الساكن وأعطاهم دراهم ذهبوا عنه وتركوه وإن عاند سبوه وضـربوه ولو عظيما وإن شكا إلى كبيرهم قـوبل بالتبكيت ويقال له ألا تفسـحون لإخوانكم المجـاهدين الذين حاربوا عنكم وأنقـذوكم من الكفار الذين كانوا يسومونكم سوء العذاب ويأخذون أمـوالكم ويفجرون بنسائكم وينهبون بيوتكم وهم ضـيوفكم أيامـا قليلة قال فـما يسع المسـكين إلا أن يكفلهم بما قدر علـيه وإن أسعفتـه العناية وانصرفوا عنه بأى وجه فيأتى إليـه خلافهم وإن سكنوا دارا أخربوها قال وأما القلقات والأنكشارية الذين تقيدوا بحارات النصارى فإنهم كلفوهم أضعاف ما كلفوا به المسلمين فكانوا يطلبـون منهم بعد كلف المأكل واللوازم مصروف الجيب وأجرة الحـمام وغيـر ذلك وتسلط عليهم المسلمون بالـدعاوى والشكاوى على أيدى أولئك القلقات فكانوا يتخلصون منهم بما لزمـهم بأدنى شبهة ولا يعطون المدعى إلا القليل من ذلك والمدعى يكتفى بما حصل له من التشفى والظفر بعدوه قال إذا تداعى شخص على شخص أو امـرأة على زوجها ذهب معهم أتـباع القلق إلى المحكمة إن كانت الدعوة شرعية فإذا تمت الدعوة وأخـذ القاضى محصوله يأخذ مثله أتباع القلق على قدر تحمل الدعوة.

قال وعاد يوسف باشا فأطلق للملتزمين التصـرف فى سنة خمس عشرة ليقضوا ما لهم وما عليهم من البواقى ومال الميـرى والمضاف ويدفعوا جميع ذلك إلى الخزينة بأوراق مختـومة من إبراهيم بيك وعثمـان بيك والقصد من ذلك اطمئنانـهم بالجباية والرجاء بالتصرف فى المستقبل ووعدهم بذلك سنة تاريخه بعد دفعهم الحلوان مع أن الفرنسـاوية لما استقـر أمرهم بمصـر ونظروا فى الأموال الميرية والخـراج وجدوا ولاة الأمور يقبضون سنة معجلة ونظروا فى الدفـاتر القديمة واطلعوا على العوائد السالفة ورأوا أن ذلك كـان يقبـض أثلاثا مع المراعاة فـى رى الأراضى وعدمـه فـاختـاروا الأصلح فى أسبـاب العمارة وقالوا ليس مـن الإنصاف المطالبة بالخراج قـبل الزراعة بسنة وأهملوا وتركوا سنة خمس عـشرة فلم يطالبوا الملتزمين بالأمـوال الأميرية ولا الفلاحين بالخراج فتنفس الفلاحون وتراجعت أرواحهم مع عدم تكليفهم كثرة المغارم

والكلف وحق طرق المعينين ونحو ذلك، انتهى.

وأخذ يوسف باشا الصدر الأعظم فى تدبير الأمور كما يشاء فقسم الوظائف العالية والرتب السامية على من كان يتوسم فيهم سمة الطاعة والإخلاص وخلع محمد باشا أبوم رق عامل الدولة على مصر وولى مكانه محمد خسروا باشا وهو كتخدا حسين باشا أمير السفن الذى كان حضر لقتال مراد بيك وإبراهيم بيك الكبير قبل قدوم الفرنسيس لمصر فكانت ولاية أبى مرق المذكور قصيرة جدا ولم يكن له فيها من الحكم سوى الاسم فقط وجعل يعمل الحيلة على الفتك بجميع الأمراء المصريين وقطع شأفتهم من مصر وعمل ديوانا وجمع إليه جميع أولئك الأمراء والصناجق والأعيان على اختلافهم وأوهم أنه إنما يريد المفاوضة معهم فى شئون البلاد ومصالح الرعية فلما تكاملوا أمر فقبضوا فى الحال على إبراهيم بيك الكبير وبقية الأمراء والصناجق وأصعدوهم إلى قلعة الجبل ووضعوهم بسجن هناك فانزعج من حضر بالديوان وتفرقوا وهم لا يصدقون بالنجاة وسير خلف محمد بيك الألفى بالصعيد طائفة من الجند ليقتلوه وكان قد عاث وعبث بالصعيد وأهلك الحرث والنسل وصادر الأغنياء والفقراء حتى المشايخ والعلماء وأخذ ما فى بيت المال والأوقاف وكل ما وصلت إليه يده وسير جماعة آخرين للقبض على سليم أبى دياب وكان مقيما بالمنيل فلما علم بالخبر طلب الفرار وترك متاعه وأثقاله ووصل إليه الجند فلم يجدوه فنهبوا القرية وأخذوا جميع ما كان له فيها وتبعوه فلحقوا به ناحية طرا فقاتلهم وقاتلوه ومات خلق كثير من الفريقين ثم هرب فى نفر قليل جدا إلى الصعيد من طريق الجبل وأقام طوائف الأرنؤد بالأخطاط وخارج المدينة يقبضون على من يصادفونه من المماليك والأجناد ونودى فى ذلك اليوم على الرعية بالأمان وملازمة السكون وأحاط العسكر بالأمراء المعتقلين واختفى من بقى منهم فنادوا بالتوعد لمن أخفاهم أو آواهم وكان لم يزل بالجيزة فريق من العساكر الإنجليزية مخيم بها فذهب إليهم سليم بيك أبو دياب واستغاث بمقدمهم هتشنسون فأغاثه وأمنه وكلم يوسف باشا فى أمره.

وبينما كان يوسف باشا يعمل على إبادة من بقى من المماليك والصناجق الذين بمصر والقاهرة وغيرهما من البلدان كان حسين باشا أمير السفن يدبر الحيلة أيضا للقبض على من كان عنده بأبى قير من أولئك القوم فأحسوا بذلك وأوجسوا منه خيفة فكانوا لا يذهبون إليه إذا دعاهم إلا وهم حاملون أسلحتهم ومعهم العدد

الكثـير من المماليك والأتبـاع تخفـرهم فكان يبش عند لقـائهم ويظهـر لهم الرفق والملاطفة ويستميلهم بزخرف القول إلى أن دعـاهم يوما إلى ظهر سفينته لمأدبة أعدها لهم فـذهبوا إليـه بسلاحـهم ومماليكهم على عـادتهم فقـابلهم بالترحـاب وبالغ فى تعظيمهم فلما تكامل عددهم جاء إليه أحد أتباعه وأخبره بورود ساع من مصر ومعه مكاتيب من الصدر الأعظم فـقام ليرى ذلك فما هو إلا أن حـضر إلى المجلس أحد مـقدمى عـسكر السفـينة وأعـلمهم بأنه قد ورد مـرسوم سـلطانى فى تلك الساعـة باستدعـائهم إلى دار السلطنة ثم أمرهم بنزع سلاحـهم عنهم فقام فى الحال مـحمد بيك المنفوخ وسل سيـفه وضربه فقتلـه فما وسع بقية الأمـراء إلا أنهم فعلوا كذلك فقام عليهم من بالسفـينة من العسكر واشتبك القتال بين الفريقين فـقتل أكثر الأمراء المصـريين وقـبضـوا على من بـقى منهم وأنزلوهم إلى بعض السـفن إلا من فـروا مجروحين وهم فى أسوإ حال وذهبوا إلى معـسكر الإنجليز ملتجئين وكانوا لما أحسوا بعزم حسين باشا على اغتيالهم شكوا ذلك إلى مـقدم الجيوش الإنجليزية ورغبوا إليه أن يذب عنهم ويقوم لنصرتهم فأمنهم ووعدهم وطيب خواطرهم فلما ذهب إليه من نجا منهم من القـتل وأخبروه بما فـعل حسين باشـا غضب جدا وانحـاز بعسكره إلى مدينة الإسكندرية وطردوا من كانوا بها من العثمانيين وأغلقوا أبواب الأبراج وأحاط منهم طائفـة كبـيرة بالبنادق والمدافـع بحسن باشـا براً وبحراً وطلب الإنجليـز بروزه بعسكره لحربهم فلم يرض وقال لم يكن قط بيننا ما يدعوا إلى ذلك فحضر إليه قائد الإنجليز وتكلم معه طويلاً وصمم على أخذ من بقى من الأمـراء المعتقلـين فأطلقهـم فأخـذهم قائد الإنجليز وأخـذ جثث الأموات منهم ونقل مـرضاهم إلى الإسكندرية وبات وأصبح فأخرج الأموات فى مشهـد حافل وسارت أمامهم طوائف الإنجليز فى أبهة عظيمـة وأرسل إلى قائد جيوش الجيـزة يعلمه بما وقع ويطلب منه إلزام يوسف باشا بتسلـيم من عنده من الأمراء المعتقلين فطالب القـائد يوسف باشا بمن عنده من الأمراء وألح فى الطلب فطاول وراوغ واسـتعمل الخـداع واستدعاه إليـه وخلع عليه خلعة سمور عظيمة وشلنج من الجوهر يوضع على مقدمة الرأس ثم حمل المعتقلين كافة على تحرير كتاب إلى القائد المذكور يقولون فيه أنهم أتباع السلطان وتحت طاعته إن شـاء أبقاهم فى إمـاراتهم وإن شـاء قلدهم المناصب العـالية فى ولايات مملكتـه السلطانية وإن شاء طلبهم يذهبون إليه ولا دخل للأنجليـز فيما جرى عليهم من خير أو شر فأرسل القائد إلى يوسف باشا يقول لاعبرة بهذا الخطاب فإن القوم مسجونون

محجور عليهم فى جميع تصرفاتهم لايعملون إلا ماشاء الوزير وأعوانه فأرسلوهم إلينا لنخاطبهم ونعلم ما فى خواطرهم فلما كانت ليلة الإثنين تاسع رجب أحضر الصدر إبراهيم بيك ولاطفه وسايره وكلمه مع بقية الأمراء المعتقلين وأعلمه بأن سيرسله مع من هم معه إلى قائد الجيوش الإنجليزية بالجيزة فيقضوا يومهم هناك ويخبروا القائد بأنهم فى راحة وأنهم طائعون لسلطانهم وخاضعون لكلمته وأن الخطاب الذى بعثوا به هو عن طيب خاطر منهم ولا إكراه لهم على تحريره فأظهر إبراهيم بيك عدم الرغبة فى الذهاب وبالغ فى التمنع وقال كيف نتوجه إليهم وهم أعداء لنا ولديننا وكيف نذهب إليهم على هذه الصورة فألح عليه الوزير وحالفه وحالف بقية الأمراء على سرعة العودة ومناهم بالأمانى الطويلة فلما كان صبح يوم الإثنين نزلوا جميعهم من قلعة الجبل وعبروا النيل إلى الجيزة فتبعهم مماليكهم وأتباعهم وأخصاؤهم وأقاموا بالجيزة ولم يعودوا إلى الوزيرفلبث الوزير ينتظرهم خمسة أيام وأرسل إليهم يدعوهم إلى الرجوع حسب عهدهم فامتنعوا وجاهر إبراهيم بيك بالعداوة ورمى الوزير بسوء النية وخبث الطوية فلما لم يرجعوا أمر الوزير فانعقد الديوان ببيت الشيخ السادات واجتمع فيه جميع المشايخ والوجهاء وأصحاب المناصب العالية وتكلموا فيما جرى من إبراهيم بيك ومخالفته للعهد وإصراره على عدم الرجوع وكتبوا له خطابا بذلك وضمنوه النصيحة ووجوب الطاعة فأجاب هو ومن معه بأنهم مطيعون وأنهم لم يجنحوا للبقاء عند الإنجليز إلا خوفا مما يحل بهم كما حل بإخوانهم بالإسكندرية وهم الآن فى حمى أحب الدول للخليفة الأعظم وأقربهم لمودته ثم لبثوا بالجيزة أياما وخرجوا بعد ذلك إلى جزيرة الذهب ونصبوا بها خيامهم أياما أيضا وأخذوا ما قدروا عليه من سلاح وكراع وركبوا ليلا وترفعوا إلى الصعيد من جانب النيل الغربى وتخلف عنهم بعضهم فلما علم الصدر بخبر مسيرهم إلى الصعيد اغتم غماً شديدا وأمر فنودى بالأمان على من بقى منهم أو تخلف عنهم إن هم أتوا إلى باب الوزير فلم يذهب إليه إلا بعض المماليك والأتباع الذين لا كسب لهم ولا عيش وانقطع خبرهم عن الناس فصرفهم.

ولما كان يوم السبت ثالث شوال سنة ست عشرة ومائتين وألف خرجت خيام الصدر الأعظم وأمتعته إلى قبة النصر وقد جاءه الأمر بالرجوع إلى دار السلطنة بمن معه من العساكر والأجناد ونادوا بخروج جميع العساكر وجلائهم عن مصر والقاهرة وبقية المدن والقرى والأرياف فى مدة ثلاثة أيام آخرها يوم الإثنين فأخذوا فى الجلاء

بأحمالهم وأثقالهم ودوابهم وفى يوم الإثنين خامس شوال المذكور خرج يوسف باشا إلى قبة النصر وتتابع خروج الأثقال والعساكر وطوائف الجند فجعلوا عند خروجهم يعربدون ويخطفون أشياء الباعة فى الأسواق وكتب الوزير فى يوم خروجه أوراقا تتضمن كف الناس عن الشر والخلود إلى السكينة ورفع قصصهم إلى باب محمد باشا عامل السلطان على البلاد وأن يحافظوا على زيهم وقوانينهم القديمة ويلازموا على الصلوات بالجماعة فى المساجد ويوقدون القناديل ليلا على البيوت والمساجد والوكائل والخانات التى بالشوارع ولايمر أحد من الجند والعسكر بعد الغروب وكذلك الأهالى إلا من كان معه فانوس أو سراج ويبيعون ويشترون بلا قيد ولا تقييد وأن لا يخفى أحد عنده عسكرا من العثمانيين وأن لا يبقى منهم بعد جلاء الوزير أحد بمصر والقاهرة ومن وجد منهم متخلفا بغير مرسوم فى يده عوقب بأشد العقاب وأن تبطل جميع القهاوى المحدثة ولا يبقى منها إلا ماكان قديم العهد ولا يبيت أحد من العساكر فى قهوة ولا يبيعون المسكرات وغير ذلك الأوامر والنواهى ثم ركب الصدر من قبة النصر فى يوم السبت عاشر شوال وقد سلم مقاليد الأمور إلى محمد باشا الوالى وسار إلى الخانكاه وسار معه جميع العساكر فوصلوا إلى بلبيس وأقاموا بها أياما قلائل ثم ساروا منها إلى طريق الشام.

واستقر بمحمد باشا منصب الولاية فجعل يتصرف فى الأمور وبالغ فى التدبير وضيق وشدد وأرهب وأخذ بالشبهات وأكثر من العيون والأرصاد فتزاحم على بابه أهل السعاية وتقرب إليه أهل الوشاية فأكثر من القتل والصلب والتحريق وزاد فى المغارم والمكوس وأحدث الإحداثات والبدع فخافه الناس جدا وانكمش من كان يظنه فى بادئ الأمر شيئا هينا وقد تتبع الأعيان وأصحاب المظاهر بالمدن والبلدان فأفنى منهم خلقا وطلب الأمراء والمماليك بمصر والقاهرة فاختفوا وتفرقوا فى الجهات وسير طائفة كبيرة من العسكر خلف إبراهيم بيك الكبير ومن معه للقبض عليهم وأكثر من التخفى والتجسس والتطواف بغير زيه لكشف العورات وأقام على الإسكندرية حاكما اسمه خورشيد بيك وقيده بأخذ قلاعها وحصونها من جماعة الإنجليز النازلين بها فسار إليهم وكلم مقدم الإنجليز فى ذلك فجعل يماطل ويكثر من التسويف والتعليل أياما كثيرة حتى جاءهم الأمر من كبير السياسة الإنجليزية بلندن عاصمة بلادهم بالجلاء عن مصر فعبر مقدمهم وبعض قوادهم من انبابه إلى مصر القديمة فتهيأ الباشا لملاقاتهم واصطف الجند عند بيته ووصل الإنجليز إلى الأزبكية فقابلهم الباشا

وأحبين لقاءهم وخلع عليهم وقدم لهم خيلا وهدايا نفيسة وأطلقوا عند ذلك مدافع كثيرة فلما كان يوم الإثنين ثامن المحرم افتتاح سنة سبع عشرة أخلى الإنجليز القلاع التى بالإسكندرية والحصون وعبر محمد باشا النيل إلى انبابه ومعه طاهر باشا مقدم الجند الأرنؤد ونحو الخمسين من أتباعه فقابله مقدم الجيوش الإنجليزية بأحسن استقبال وقدم له بعض التقادم والهدايا ثم أخذ الإنجليز فى الجلاء فعبر فريق منهم إلى القاهرة وخيم بجزيرة بدران أياماً ثم ساروا منها إلى مدينة السويس وسار فريق آخر إلى القصير على السفن العظيمة وخلت الجيزة منهم فى يوم الإثنين ثانى عشرى المحرم من السنة فتسلمها منهم نائب أمير السفن العثمانية ونزل بالقصر وأنزلوا بها بعض العساكر والأجناد المصرية وبقى بالإسكندرية طائفة من الإنجليز بغير أجل محدود.

وجاءت الأخبار بلقاء الجنود السلطانية الذين سيرهم محمد باشا إلى الصعيد الأعلى بعساكر إبراهيم بيك الكبير فوقع بين الفريقين قتال شديد للغاية أياما ثم انجلى عن هزيمة العساكر السلطانية وانخذالهم فقتل منهم جماعة كثيرة وتقوى المصريون بهذه النصرة العظيمة واشتدت ظهورهم وكان مقدم المصريين فى هذه الوقعة الألفى وقد لحق بهم جماعة من الفرنسيس ممن تخلفوا بمصر واجتمع إليهم أيضا عدة كبيرة من العساكر العثمانية طمعا فى بذلهم فاشتد الخطب على العثمانين وأرسلوا يطلبون المدد فاهتم بذلك محمد باشا ورسم بخروج طاهر باشا بعسكره فبرز إلى البساتين وعبر النيل وعسكر بالجانب الغربى من النيل وتبعته العساكر والأجناد بالذخيرة وآلات الحرب وكثرت عربدة الأمراء المصريين بالصعيد واجتمع إليهم العدد العديد من الهوارة وغوغاء الحرف والعربان وزحفوا حتى وصلوا إلى غربى أسيوط وخافهم العساكر العثمانية وداخلهم الرعب منهم وتحصن كل فريق فى مقره ولم تفعل خمرة النصر بإبراهيم بيك والألفى وأصحابهما ما تفعله بجهلاء المحاربين ولم تقعدهما عن استعمال الحيلة فى طلب الصلح فكتبوا إلى محمد باشا خطابا يشكون فيه مما أصابهم ويتوجعون مما لحقهم من الضيق وأنهم فى طاعة الله وطاعة السلطان ولم يكونوا ليتوقعوا هذا التبعيد والتشريد والقتل وماهم فيه من سوء المعاملة وقد خاطروا بأرواحهم فى خدمة الدولة وقاتلوا مع العثمانيين وأبلوا مع الفرنسيس بلاء حسنا وماهم إلا أنهم يرغبون فى إحدى خصال ثلاث إما أن يعطى لهم بلاد يقيمون بها بعيدين عن كل مظنة وريبة وإما أن ترسل إليهم نساؤهم ويبعث

إليهم بعض السفن ليـركبوها من القصير إلى جدة فـيقيمون بها أو يقيـمون بالحجاز وإما أن تعين لهم نقطة يتربصـون بها قدر خمسة أشهر حـتى يرفعوا أمرهم إلى دار السلطنة ويأتيـهم الجـواب فلما جـاء هذا الخطاب إلى مـحمـد باشـا جمع العلمـاء والمشايخ وبعض الوجهاء وتشاوروا فى الأمر فاتحـدت كلمتهم على أن يكتبوا بتأمين جميع الأمـراء والصناجق الذين بالصعيد ويأذنوا لهم بالرجـوع إلى القاهرة ولهم ما لإخوانهم وأقـرانهم وعليهم ما عليـهم ماعدا إبراهيم بيـك والألفى والبرديسى وأبى دياب فإنهم يبقون تحت الحجر حـتى يخابروا فى شأنهم الباب العالى ويأتى الجواب وأرسلوا بذلك إلى إبراهيم بيك والألفى فلم يقبلوا بانفصال أصحابهم عنهم وترفعوا إلى الصعـيد الأعلى وانتظروا مـا سيكون، ولبث طاهر باشـا مخـيماً بعـسكره فى الجانب الغربى من النيل لايبدى حراكاً وطال لبثه وثقل عليه مكثه وداخل جنده الملل وكاد يتولاهم الفشل ومحمـد باشا فى شاغل عنهم بمصادرة الناس وأخذ أموال أهل الميسرة وتتبـع أصحاب المظاهر بأضعف الشبهـات فكان الرجل منهم لا يمضى عليه بيـاض يومه إلا وهو فى حسـاب ما سـيكون فى سواد ليـله ولا فرق بين القـبطى والمسلم إذ كانوا عنده كلهم فريسة واحدة وأمر فـقبضوا على ثلاثة من عظماء القبط وهم المعلم انطون أبو طقـيـة والمعلم إبراهيم زيدان والمعلم عـبـد الله بركات مـعلم الديوان فقتلهم وأرسل الدفتردار فختم على دورهم وأملاكهم ونقلوا ما فيها إلى بيت الدفتردار ليباع فى المزاد فكان شيئاً عظيـماً الغاية من أوانى لذهب والفضة والأقمشة الهندية النفيسـة وغير ذلك مما يجل عن الوصف غيـر الجوارى والعبيد قيل واسـتمر سـوق المزاد فى ذلك عـدة أيام ولما طال الحـال على طـاهر باشـا وجنوده رجع إلى القاهرة وسـرح بعض الجند واختفى الخبـر القائل بتسـيير طاهر باشا وجنوده لقـتال إبراهيم بيك ومن معه.

وبينما كان محـمد باشا يسوم أهل مصر والقاهرة الخـسف ويذيقهم مر العذاب كان نائبـه على الإسكندرية يكثر من الإحداثات والمظالم والمكوس والمغـارم ويضرب على أهلهـا الضرائب الفـادحة وكـانت عسـاكره تفـسد فى الأرض وتهلـك الحرث والنسل وتتـعرض للناس على مـا قيل فى أعراضـهم فعظم الخلل واستفـحل أمره وشكى الناس حالهم لمقدم الإنجليز النازلين بالإسكندرية واستغاثوا به فكلم خورشيد بيك فى أمرهم وقبح ما يفـعله الجند بالرعية وحذره سوء العاقـبة وطاوله أياماً فاتفق أن جماعة من أولئك العـسكر هموا بالقبض على امرأة فاستـغاثت بنفر من الإنجليز

فى طريقها فـمنعوها منهم فتضاربوا وانتصـر كل فريق لصاحبه واشتـد القتال بينهم فقـتل اثنان من الإنجليز وهرب العثـمانيون فنزل فى الحـال مقدم الجيـوش الإنجليزية وجمع عـساكـره وزحف بهم إلى القلعة وأرسل إلى خـورشيد بيـك بأن أخرج من القلعة إلى خـارج البلد للقتـال فامتنع مـن ذلك فأمره بتـرك القلعة والتـخلى عنها فلاطفـه وماطله فأنزله قهـراً وأسكنه فى داره فى البلد ومنع العساكـر السلطانية من حمل السلاح وشدد فى مراقبتهم والحجر عليهم وتتبعهم أينما ساروا فسكنت خواطر الرعية واطمأنت قلوبهم بعد الخوف ومالوا إلى محبة الإنجليز وتمنوا لو أنهم يملكون البلاد وأظهروا للعثمانيين عين المقت والقلى وزالت هيبة خورشيد أو كادت.

وكان محمد باشا منذ ولى الولاية على مصر مولعاً بجمع عسكر وترتيبهم على نظام عسكر الفرنسيس فجمع خلقاً كـثيراً ممن جاء إلى مصر من الأكراد يريد الخروج مع الحج وألبسهم ألبـسة الجوخ الأحمر الضيـقة القصيرة وأزناطاً قصـيرة من الجوخ الأزرق وطراطير من صـوف أحمر على أشكال مـلابس الفرنسـيس وقيد بتنظيـمهم وتعليمهم نفراً من كبار الفرنسـيس الذين تخلفوا عن الجلاء وكذلك ألبس عدة وافرة من العبيد السـود الذين اغتصبهم من ساداتهم وجمع جـميع المماليك الذين للأمراء بمصر والقاهرة وبعض البلدان وألبسهم الملابس الفاخرة وأركبهم جياد الخيل وقيد بهم من الفرنسيس من يعلمهم الفروسية واستعمال السلاح وسماهم بالنظام الجديد واهتم بأمرهم اهتـماماً زائداً وشرع فى إنشـاء عمارة عظيـمة على مقربة من مـقره لسكنى أولئك العسكر سماها قشلاق النظام واهتم بهذا القشلاق اهتماماً عظيماً فكان يجلس بنفسه لملاحظة البنائين والنجـارين وأصحاب الصنائع وقد ضرب خيـمة لجلوسه فى كل يوم من الصباح إلى غروب الشمس.

قال صاحب عجـائب الآثار وضرب الباشا خيمة عند بيـته بقرب الهدم يجلس فيها حصة كل يوم لمباشرة العـمل وربما باشره بنفسه ونقل بعض الأنقاض فلما عاينه الأغاوات والجوخدارية بادروا إلى الشيل ونقل التراب بالغلقان فلما أشيع ذلك حضر طاهر باشا وأعـيان العساكـر فنقلوا أيضاً وطلبوا المساعـدة وحضر طائفة من نـاحية الرميلة وعرب اليسار ومعهم طبول وزمور فسأل عن ذلك فقال له المحتسب إن هؤلاء من طوائفى حـضروا للمسـاعدة فشكرهـم على ذلك وأمرهم بالذهاب فبـقى منهم طائفة وأخذوا فى شيل التراب بالأغلاق ساعة والطبول تضرب لهم فانسر الباشا من ذلك وحسن القـرناء للباشـا المساعدة وأن الناس تحب ذلـك فرتبوا ذلك وأحـضروا

قوائم أرباب الحرف التى كتبت أيام فرض الفرنسيس ونبهوا عليهم بالحضور قال فأول ما بدءوا بالنصارى الأقباط فحضروا ويقدمهم رؤساؤهم جرجس الجوهرى وواصف وفلتاؤس ومعهم طبول وزمور وأحضر لهم أيضاً مهتار باشا النوبة التركية وأنواع الآلات والمغنين حتى البرامكة بالرباب فاشتغلوا نحو ثلاث ساعات وفى ثانى يوم حضر منهم أيضاً كذلك طائفة قال ولما انقضت طوائف الأقباط حضر النصارى الشوام والأروام ثم طلبوا أرباب الحرف من المسلمين فكان يجتمع الطائفتان والثلاثة ويحضرون معهم عدة من الفعلة يستأجرونهم ويحضرون إلى العمل ويتقدمهم الطبول والزمور والمجرية وذلك خلاف ما رتبه مهتار باشا فيصير بذلك ضجة عظيمة مختلفة من نوبات تركية وطبول شامية ونقاقير كشوفية ودبادب حربية وآلات موسيقية وطبلات بلدية وربابات برمكية قال كل ذلك فى الشمس والغبار والعفار وزادوا فى الطنبور نغمة وهى أنهم بعد أن يفرغوا من الشغل ويأذنوا لهم فى الذهاب يلزمونهم بدراهم يقبضها مهتار باشا برسم البقشيش إلى أولئك الطبالين والزمارين فيعطيهم النزر اليسير ويأخذ لنفسه الباقى وذلك بحسب رسمه واختياره فيأتى على الطائفة المائة قرش والخمسون قرشاً ونحو ذلك فيركب فى ثانى يوم ويذهب إلى خطتهم ويلزمهم بإحضار الذى قرره عليهم فيجمعونه من بعضهم ويدفعونه قال وإذا حضرت طائفة ولم تقدم بين يديها هدية أو جعالة طولوا عليهم المدة وأتعبوهم ونهروهم واستحثوهم فى الشغل ولو كانوا من ذوى الحرف المعتبرة كما وقع لتجار الغورية والحريرية وإذا قدموا بين أيديهم شيئاً خففوا عليهم وأكرموهم ومنعوا أعيانهم وشيوخهم من الشغل وأجلسوهم بخيمة مهتار باشا وأحضر لهم الآلات والمغانى فضربت بين أيديهم كما وقع ذلك لليهود قال واستمر العمل بقية الشهر الماضى إلى وقتنا هذا فاجتمع على الناس عشرة أشياء من الرذالة وهى السخرة والعونة وأجرة الفعلة والذل ومهنة العمل وتقطيع الثياب ودفع الدراهم وشماتة الأعداء من النصارى وتعطيل معاشهم وعاشرها أجرة الحمام. انتهى

واستفحل أمر الأمراء المصريين بالصعيد الأعلى وكبرت عصابتهم وظهرت كلمتهم واجتمعت إليهم طوائف كثيرة من الهوارة وأهالى الحوف الشرقى والغربى وقبائل العربان وقد تحصنوا عند الهوّ بسفح الجبل ولبثوا على هذا الحال أياماً فبرز رجل من العثمانيين موصوف بالشجاعة والإقدام اسمه أجدر وأخذ معه ألفاً من العساكر الموصوفة وسار إليهم يريد اغتيالهم فسبق العين إلى الأمراء وأخبرهم بخبر

الأجدر فلما توسط الأجدر وأصحابه سطح الجبل نظروا وإذا بالمصريين قد أقبلوا فى ثلاث فرق وأحاطوا بهم فأطلق العثمانيون بنادقهم طلقة واحدة ونظروا وإذا بهم فى وسطهم وتحت سيوف المصريين ففتكوا فيهم ولم ينج منهم إلا القليل وأخذ الأجدر أسيراً فلما أحضروا الأجدر بين يدى الألفى قال له ولأى شىء سميت بالأجدر فقال هو اسم للأفعى العظيمة وقد صرت الآن تحت ظل حماك فافعل ما أنت أهله قال بلى ولكنى أرى اسمك قد زاد إلى حد يوجب خلع أسنانك ثم أمر به فخلعوا أسنانه جميعها ثم قتلوه وزحف المصريون من الهو إلى بنى على ونزلوا عليها فنهبوا غلالها ومواشيها وقبضوا أموالها وكذلك الحوارشة وما جاور ذلك من البلاد فاضطرب الباشا وخشى العاقبة وأخذ فى إعداد المدد من الرجال والذخيرة وآلات الحرب وسيرها إلى الصعيد مع أحد الأمراء (وهو محمد على سرجشمه) أحد مقدمى العساكر السلطانية وأرسل إلى إبراهيم بيك الكبير مكاتبة بالأمان والعود إلى القاهرة والمقام بها لهم ما لإخوانهم وعليهم ما عليهم فلما وصل رسول الباشا بالمكاتبة أحسنوا لقاءه وفض الألفى المكاتبة وقرأها ثم التفت إلى الرسول فقال أما قولكم نذهب إلى دار الخلافة ونقابل السلطان كى ينعم علينا فهذا لا وجه له ولا نرضاه أبداً فإنه على تقدير أن فى نيته الإحسان فلم لا يحسن ونحن هنا فى بلاده وإحسانه لا يتقيد بحضورنا لديه أما طلب إخواننا إلى مصر فهم وشأنهم إن شاءوا أقاموا معنا على الرحب والسعة وإن شاءوا رجعوا إلى القاهرة وهم فى حل منا وأما قولكم أنكم تعطوننا أقطاعاً نعيش منه باسنا فهذا الإقطاع لا يكفينا فإن شاء أعطانا من أسيوط إلى الصعيد الأعلى وعلينا أن نقوم بخراجها وإلا فالأرض لله ونحن خلق الله نذهب حيث شئنا ونأكل من رزق الله ما يكفينا ومن أتى إلينا حاربناه حتى يكون من أمرنا وأمركم ما يكون فلما رجع الرسول بالجواب اغتم الباشا غماً شديداً وركب من ساعته وأسرع فى تجهيز الجند وتسييرهم فعبروا النيل من الآثار إلى الجانب الغربى فى عدة عظيمة وذخيرة وافرة وكان بعد انحدار رسول الباشا من معسكر المصريين أمر الألفى فكسروا قنطرة اللاهون وخيموا على مقربة منها وشرعوا فى قبض الأموال من بلاد الفيوم ومنع الوارد منها إلى مصر فخاف أهل الفيوم ورحل الكثير منها إلى القاهرة فكانوا ينامون بالأزقة والحارات رجالاً ونساء وأطفالاً ولا يجدون ما يقتاتون به فانزعج الباشا من هذا الحال واستعظمه وكان كلما سأل أحداً من الأمراء المصريين القيام مع الجند المسافرين اعتذر وطلب العفو أو أظهر عدم

الطاغة وخرج بعضهم خفية ولحق بالمصريين فلما تحقق الباشا ذلك زاد به القلق ورسم لطوائف العسكر أن يقيم منهم فريق بالقلاع التى على التلال ففعلوا ورفعوا عليها الأعلام العثمانية وأوقفوا الحراس على أبواب المدينة يمنعون من يخرج منها من الغز والكشاف أو من له علاقة مع المحاربين فكان من خرج من بولاق أو غيرها لا يخرج إلا بمرسوم من كتخدا الباشا وأمر الباشا بنهب بيوت المحاربين التى بالقاهرة ومصر فنهبوا ما فيها من فرش ومتاع وغيره وحملوه إلى بيته وتمكن إبراهيم بيك والألفى ومن معهما من جميع بلاد الفيوم فكانوا إذا دخلوا بلدة منها ورأوا من أهلها مقاومة أو عصيانا ركبوا عليها وقتلوا من فيها بحد السيف وأحرقوا دورها وسبوا نساءها فخضعت لهم جميع البلدان والقرى وأدوا لهم المغارم والفرض وأباحوا لهم أخذ الغلال والماشية وهم صاغرون.

وكان بمدينة الفيوم طائفة من الجنود السلطانية فلما رأو من كثرة المصريين وفعالهم بأهل البلد تترسوا فى مواقعهم وأقاموا ينتظرون المدد وزحفت طلائع المصريين إلى الجيزة وأخذوا منها الأموال والمغارم ووصلوا إلى وردان وسار منهم جماعة إلى ناحية الشرقية والمنصورة ومروا بحاكم الشرقية فلم يمنعهم وقد كانوا عدة قليلة فعلم الباشا بذلك وحقد عليه واستقدمه فحضر فأمر به فقتلوه ونهبوا داره وسبوا نساءه وعبر كتخدا الباشا النيل إلى إنبابه وعبر معه طوائف كثيرة من الجند ونصبوا خيامهم وجاء الخبر بوصول إبراهيم بيك ومن معه إلى الجسر الأسود فأقاموا به أياماً ثم ترفعوا إلى المنصورية وبشتيل فخرج طاهر باشا وعبر النيل أيضاً وعسكر بجنوده على مقربة من الوراريق ثم ساروا وطائفة بعد طائفة وكان الأمراء المصريون قد نزلوا على مقربة من دمنهور فلاقتهم العساكر السلطانية وناوشتهم القتال وهم فى قلة والعثمانيون فى كثرة زائدة وكان مع جماعة المصريين بعض كبار جند الإنجليز جاءوا إليهم من الإسكندرية فلم يتأخر المصريون عن القتال وهجموا على فرسان العثمانيين هجمة الأسود وكان الإنجليز ينظرون إليهم نظرة المتعجب فهزموهم وولوا الأدبار وتركوا المشاة خلفهم فكر المصريون على المشاة أيضاً فألقوا أسلحتهم وطلبوا الأمان فساقوهم وأخذوا ما معهم من أسلحة ومدافع وذخيرة وغير ذلك وقد تمزق شمل من بقى من العساكر السلطانية وتفرقوا أشتاتاً وجاء الخبر بذلك إلى محمد باشا فانزعج وقد كانت وردت عليه أوامر دار السلطنة بسرعة إخراج إبراهيم بيك وأصحابه من الديار المصرية وإلا لحق به العطب فعمد إلى تجييش جيش آخر وبالغ

فى إتقانه وتنظيمه وعبر به النيل إلى إنبابه وانتقل طاهر باشا من انبابه بعساكره إلى الجيزة وتترس بها ووصلت المجاريح والمرضى من العثمانيين وأكثر الباشا من تحذير أعيان ومشايخ البلاد من مسالمة الأمراء المصريين أو التقرب إليهم وترفع فريق من الأمراء المذكورين راجعاً إلى الصعيد وذهب جماعة منهم أيضاً إلى دار السلطنة فى إحدى سفن الإنجليز لطلب عفو السلطان ونزل محمد بيك الألفى مع طوائف الإنجليز الذين كانوا بالإسكندرية يريد لندن عاصمة بلادهم إذ جاءهم الأمر بالجلاء تماماً عن الإسكندرية فرحلوا عنها فى يوم السبت حادى عشر ذى القعدة من السنة أى سنة سبع عشرة ومائتين وألف هجرية ورجعت جميع العساكر السلطانية الذين كانوا بالبحيرة إلى القاهرة ومصر وانتشروا فيها يطوفون فى الشوارع والحارات وطالبوا الباشا بجماكيهم المتأخرة وقد كان قطع عنهم رواتبهم وعلوفاتهم لفراغ الخزينة وبغضه لهم لجبنهم وهزيمتهم فى الحروب فصار كبارهم يطالبون الباشا والدفتردار وهما يماطلان ويطاولان فاجتمع العساكر حول بيت الدفتردار وصاحوا عليه وتهددوه وشاع قيامهم لنهب أمتعة الناس فنقل أهل الغورية وغيرهم بضائعهم من الحوانيت وقفلوها أياماً كثيرة وخافهم الناس وامتنعوا من الخروج إلى الأسواق بعد الغروب فكانوا إذا انفردوا بأحد عروه من ثيابه فإن مانعهم قتلوه وأكثروا من خطف النساء والغلمان.

قال صاحب عجائب الآثار ومر أربعة أشخاص من العساكر وأخذوا غلاماً لرجل حلاق بخط بين السورين عند القنطرة الجديدة فعارضهم الأوسطى الحلاق فى أخذ الغلام فضربوا الحلاق وقتلوه ثم ذهبوا بالغلام إلى دارهم بالخطة فقامت فى الناس ضجة وكرشة وحضر أغاة التبديل فطلبهم فكرنكوا بالدار وضربوا عليه البنادق من الطيقان فقتلوا من أتباعه ثمانية أنفار ولم يزالوا على ذلك إلى ثانى يوم فركب الباشا فى التبديل ومر من هناك وأمر بالقبض عليهم فنقبوا عليهم من خلف الدار وقبضوا عليهم بعد ما قتلوا وجرحوا آخرين فقتلوهم شنقاً ووجدوا بالدار مكاناً خراباً أخرجوا منه زيادة عن ستين امرأة مقتولة وبينهن من وجدوها وطفلها مذبوحاً معها فى حضنها اهـ.

واختل النظام من توالى هجمات الأمراء المصريين على البلاد وعبث الجنود السلطانية فيها وتجاوزهم الحدود فى القتل والنهب والتخريب والتعييب والفحش وغير ذلك فتطاولت أيدى العربان أيضاً إلى السلب ووقف كثير منهم فى طرق المارة

يسلبون ما معهم ويقتلون من يمانعهم حتى زال الأمن وعم الخوف وانقطعت الطرق حتى فى نواحى المدينة وطريق بولاق القاهرة وغيرها وعجز محمد باشا وظهر ضعفه ثم جهز طائفة من الوجاقلية وسيرهم لقتال العربان فاقتتل الفريقان قتلاً عنيفاً انجلى عن هزيمة الوجاقلية وتمزيق شملهم ثم ترفع العربان بعد هذه النصرة إلى البحيرة وعاد من بقى من الوجاقلية وخيموا بجهة العادلية وجاء من كانوا بالبحيرة من الأمراء المصريين إلى منية ابن خصيب وأرسلوا إلى حاكمها بأن يعبر النيل هو ومن معه من العساكر العثمانية إلى الجانب الشرقى لينزلوا بالمنية أياماً يقضون فيها أشغالهم ثم يرحلون عنها فأبى عليهم ذلك وأمر فحصنوا البلد وزادوا فى عمل المتاريس وأكثروا من المدافع وبينما هم على همتهم من التمنع والتحصين إذا أحاط بهم المصريون وقاتلوهم قتالاً عنيفاً أربعة أيام ليلاً ونهاراً حتى غلبوهم ودخلوا البلد عنوة وأعملوا فيها السيف وأحرقوا وخربوا وقتلوا خلقاً كثيراً جداً من أهلها وجميع من كان بها من العثمانيين وتركوا النار تعمل فيها حتى صارت رماداً وأخذوا ما فيها من الأموال والمتاع والماشية وغير ذلك وأتوا بحاكمها إلى إبراهيم بيك الكبير وقد كان من مماليك إبراهيم بيك وانفصل عنه ودخل فى خدمة الباشا فلما مثل بين يدى أستاذه وبخه وبناء على أمره ضربوه بالنبابيت ثم كبلوه فى الحديد وألقوه فى صومعة ورحل إبراهيم بيك وأصحابه عن منية ابن خصيب إلى الصعيد الأعلى وجاءت الأخبار إلى محمد باشا بما جرى فزاد به القلق وضاقت الدنيا فى وجهه وأرسل إلى محمد على سرجشمه يستحثه على قتال المصريين قبل أن يلحقوا بمدينة أسيوط فيفعلوا بها ما فعلوه بمنية ابن خصيب فاعتذر بخروج الجند عن طاعته بأسباب تأخير صرف جماكيهم وتهديدهم إياه بالقتل فألح عليه محمد باشا فبالغ فى الاعتذار وقد كان على عهد مع إبراهيم بيك وأصحابه.

فلما كان يوم الجمعة سابع المحرم افتتاح سنة ثمان عشرة ثار الجنود جميعاً وحضروا إلى بيت الدفتردار فاجتمع جماعة منهم بحوش الدار وقفلوا أبواب القيطون وأخرجوا من كان به من العسكر التابعين للدفتردار وصعد طائفة منهم فوقفوا بفسحة المكان الذى كان به الدفتردار ودخل عليه منهم أربعة فكلموه فى أمر صرف جماكيهم ورد جميع مرتباتهم فلاطفهم وقال إنه لم يجتمع عنده من المال سوى ستين ألف قرش فإما أن يأخذوها وإما أن يصبروا أياماً حتى يكمل لهم المطلوب فقالوا لابد من الصرف فكتب فى الحال إلى محمد باشا يطلب منه قرضة فأبى عليه ذلك وأرسل

يقول لا أريد هؤلاء الأوباش الهمج فى بلاد قد توليت حكمها فلا بد من خروجهم وارتحالهم عنهـا وإلا أعملت فيـهم السيف وأفنيتهـم عن آخرهم فأعاد إليـه الرسول يقول أغثنى فإن الدار ملئت بالعساكر أعلى وأسفل فلما أخبرة الرسول بذلك غضب وأمر بالمدافع فـأخذوا يطلقونهـا من قلعة الجبل على بيت الدفـتردار وراسلوا الرمى بالقنابل فـتساقطت على الدار تسـاقط المطر واشتـعلت الدار بما فيهـا وتهدم أكـثرها والعسـاكر لا ينفكون عنها واختـفى الدفتردار تلك الليلة تحت درج البيت إلى الصباح ونهب العساكـر ما فى الخزينة من الأموال وما فى الدار من فرش وبسـط ومتاع ومر الوالى بالأسـواق والشوارع ينادى فى الناس برفع مـتاعهـم والمحافظة على أنفـسهم والتـحذر فخـاف الناس وأغلقـوا الحوانيت والدروب وزاد تطيـرهم وتخيلوا هـجوم العساكر ونهب المدينة وجمـيع الدور ونادى المنادى معاشر الناس وأولاد البلد كل من عنده سلاح فليتقلده ويحمله واجتمـعوا على شيخ مشايخ الحارات ليذهب بكم إلى بيت البـاشا وجـاء الطلب بذلك أيضـاً إلى تجار الغـورية وتجار خـان الخليلى وأهل طولون وشددوا فى الطلب وحذروا من التخلف فسـار بعض الناس فقيدوهم بخفارة بيت الباشـا وبيت ابن المحروقى المجاور له فبـاتوا ليلتهم تلك وحضر الـوالى عشاء تلك الليلة وطاف على الناس يحـضهم على القيـام لنصرة الباشـا على الخوارج من الجند والعسكر فـاجتمع بعض الأوباش والغـوغاء بالعصى والمساوق وتحـزبوا أحزاباً وعملوا متاريس عند رأس الوراقين وجهة العقادين والمشهد الحسينى فلما دخل الليل بطل رمى القنابل من قلعـة الجبل وأصبـحوا وقد شـرعوا فى الرمى فأطـلق العسكر كذلك مدافعهم ووالوا الرمى على القلعة وتترسوا بجامع أزبك وبيت الدفتردار وبيت محمد على سرجشمة وكوم الشيخ سلامة وداخل الناس خوف عظيم من هذه الحادثة وبقىَ الحال على هذا الوصف ثـلاثة أيام فلما كان يوم السـبت رتب الباشا عسـاكره على طريقة الفرنسيس وخرجـوا مشاة وركبانا ومروا حوالى البركة وانقسـموا فرقتين فرقة أتت على رصيـف الخشاب وفرقة على جهة باب الهـواء ليأخدوا الأرنؤد بينهم فلما وصلت فرقة ناحـية رصيف الخشاب قاتلوا الأرنؤد قتـالاً شديداً فانهزم الأرنؤد من تلك الجهـة وانحصروا جهة جـامع أزبك فاشتبكوا فـى القتال مع الفرقة الـثانية وتحققوا الهزيمة والخذلان وكادوا يسقطون فى أيديهم فلما وصلت عساكر الباشا إلى بيت الدفتردار والمحـروقى وبيت نساء الباشا اشتغلوا بالنهب وإخـراج النساء وتركوا القتال وتقاسموا المنهـوبات ففترت همة الفرقة الثانية من عسـاكر الباشا وانضموا فى الحال إلى النهابين من إخوانهم فتقوت بذلك عزائم الأرنؤد وكروا على من تبقى من عسكر الباشا فهزموهم وأخذوا مراكزهم وأجلوهم عنها وظهر طاهر باشا وركب إلى

الرميلة وتقدم إلى باب العـزب فوجده مغلقاً فعالج الطاقـات الصغار التى فى حائط باب العزب القريبـة من الأرض المعدودة لرمى المدافع من أسفل ففتح بعـضها ودخل منها بعض عسكره فتـلاقوا مع الأرنؤد المحافظين داخل الباب فتحـالفوا واتفقوا على أن يكونوا على قلب رجل واحـد ثم صـعدوا إلى الـقلعة فـاتفـقوا مع من بهـا من الأرنؤد ودخلوا على الخزندار وطلبوا منه مفاتيح القلعة فمانعهم فشددوا عليه وهموا بقتله فـسلمهم المفـاتيح ففتـحوا الأبواب لطاهر باشـا واعتقلوا الخـزندار وأنزلوا من القلعة بعض المدافع والذخيرة إلى الأزبكية وتسلم القلعة طائفة منهم وتقيدت بخدمة المدافع فلم يشعـر محمد باشا الوالى إلا والقنـابل تتساقط على بيته مـن قلعة الجبل فهالـه الأمر وأزعجه جداً وعلـم بما جرى فسقط فى يده ونزل طاهر باشـا من قلعة الجـبل ومر من وسط المدينة وهو يقـول بنفـسه مع المنادى أمـان واطمئنان افـتحـوا دكاكـينكم وبيعـوا واشتروا ومـا عليكم بأس وطاف يزور الأضرحـة والمشايخ ورفع الناس المتـاريس من الطرق وانكفوا عن الـتعـرض للجند وأكثـر الوالى من التطواف والنداء بالأمان والبيع والشراء فاطمأن الناس واستمر الحرب بين الفريقين يوم السبت واشتد ليلة الأحد طول الليل فما أصبح النهار حتى زحف الأرنؤد على جامع عثمان كتـخدا وحارة النصـارى وصعدوا التـلال التى بناحية بولاق الـقاهرة وملكوا بولاق وهجموا على مناخ الجـمال فقتلوا من به من العسكر وسارت طائفـة منهم إلى قصر العينى وقـبضوا عـلى من به من عبيـد الباشا ونهـبوا بيت السـيد أحمـد المحروقى وأخرجوا منه النساء حاسرات وكذلك نهبوا بيت الباشا الملاصق له ونهبوا بيت المعلم جرجس الجوهرى وأخـذوا ما فيه من النفائس والأمـتعة الثمينة وأشـعلوا النار ببيت الباشـا فالتهمت الأخـشاب والأسقف وسرت إلى جـميع المساكن فركب البـاشا فى مماليكه وخدمه ومعهم النسـاء والذرارى وخـرج إلى جزيرة بدران وكان خروجه قبيل أذان العصر من يوم الأحد تاسع المحرم افتتاح سنة ثمـان عشرة فخرج خلفه جماعة من الأرنؤد يريدون القبض عليه فكر عليهم وهزمهم مرتين أو ثلاثا.

مطلب

طرد محمد باشا من الولاية وتولية طاهر باشا

وسكنت الفـتنة بخروج مـحمد باشـا وجلائه عن القـاهرة إلى العادلـية وطاف الوالى والمحتسب وأغـاة الانكشارية ينادون بالأمان وفتح الدكاكـين والعود إلى البيع والشراء فكانت مـدة ولاية محمد باشا المـذكور على مصر سنة وثلاثة أشـهر وأحد وعشرين يوماً.

وكان سيئ التدبير لا يحسن التصرف سفاكاً للدماء جافى الطبع قليل التروى يضع الأمور فى غير موضعها فيحسن على من لايستحق الإحسان ويبخل على من فى حاجة إلى القوت وكان فخوراً مختالاً سهل الانقياد لقرناء السوء كثير المظالم ولم يزل فى طريقه إلى أن نزل بقرب قليوب فى غروب يومه فاستراح وأسرى ليلاً إلى دجوة وأنزل الذرارى والمتاع فى بعض السفن إلى بنها العسل وقد تخلف عنه أكثر قومه واجتمع الأغا والوجاقلية ببيت القاضى وتشاوروا فى إقامة طاهر باشا نائباً عن الدولة حتى تأتيه الولاية أو يأتى وال آخر جديد فاتفقوا على ذلك وذهبوا إلى بيت طاهر باشا وألبسوه خلعة النيابة وحرروا محضراً بما وقع ورفعوه إلى دار السلطنة فلما استقر به المنصب وتصرف فى الأمور قبض على الكثير من الأمراء والأعيان وصادرهم ثم اعتقلهم وكاتب إبراهيم بيك الكبير وأصحابه وسألهم الاقتراب من مصر حتى يدبر لهم الأمر فى رجوعهم وسير طائفة من الجند لقتال محمد باشا الوالى المخلوع فساروا خلفه وهو يتنقل من ناحية إلى أخرى حتى نزل بالمنصورة فجبى خراجها وضرب على أهلها المغارم وقبض على من كان بها من أصحاب الجباية وأخذ الأموال منهم وكذلك فعل ببلاد الغربية ثم سار إلى دمياط وقد تخلف عنه جميع أعوانه فلم يبق معه إلا بعض الأتباع والنساء والذرارى وبسط طاهر باشا يده على جميع الأمور وضيق على أصحاب الميسرة من الوجاقلية والقبط وضرب على القبط غرامة قدرها خمسمائة كيس وخص بهذه الغرامة جماعة الكتاب ثم اعتقل جماعة منهم وكذلك فعل باليهود وقتل من أعاظم القبط والشوام خلقاً ونهب دوراً كثيرة وبالغ فى استرضاء الأرنؤد والتزلف إليهم فصرف لهم جماكيهم وأطلق علوفاتهم ورد عليهم الأرزاق اليومية وقرب إليه كبارهم وأصحاب الكلمة فيهم وكان بقلعة الظاهر بيبرس طائفة من الانكشارية جاءوا بأسلحتهم وآلات حربهم من دار السلطنة يريدون الأقطار الحجازية لقتال الوهابيين ومن معهم من الخوارج من أهل مكة والمدينة ونزلوا بالقلعة المذكورة على عهد محمد باشا المخلوع حتى تتم معداتهم فيرحلون عن طريق القلزم والقصير فحدثت الفتنة وظهر أمر طاهر باشا وأصحابه وانقطعت عنهم العلوفات وقلت المؤن وضاق عليهم الحال وكان معهم أحمد باشا والى المدينة فكلموه فى ذلك فطاولهم فذهب جماعة منهم إلى طاهر باشا وطالبوه بالجماكى والعلوفات فأبى عليهم ذلك فراجعوه فلم يلتفت إليهم فأضمروا له السوء.

مطلب

قتل طاهر باشا وتصرف أحمد باشا والى المدينة المنورة

فلما كان يوم الأربعاء رابع صفر من السنة ركب جماعة منهم بعددهم

وأسلحتهم وخلفهم بعض كبرائهم وذهبوا إلى طاهر باشا وسألوه صرف الجماكى فأعرض عنهم وقال ليس لكم عندى منها شيء إلا ما كان من يوم قبضي على زمام البلاد فقالوا حاشا أن يكون كذلك فقال اذهبوا إلى محمد باشا وطالبوه بما كان فى أيامه فألحوا عليه فنهرهم وصاح بقومه ليخرجوهم فابتدره أحد الانكشارية بضربة بسيفه أطاح رأسه فسقط من شباك المكان إلى صحن الدار وجردوا جميعهم سيوفهم وأقبلوا على أتباعه وخدمه ومن كانوا فى البيت من الأرنؤد فقتلوا منهم خلقاً كثيرين واشتعلت النار بالبارود الذى كان بمخادع أتباعه ومماليكه فوقع الحريق والنهب فى الدور المجاورة وخرج الانكشارية وبأيديهم السيوف مسلولة ومعهم ما نهبوه من المتاع وغيره فانزعج الناس وأغلقوا الدكاكين وأبواب الدور وهم لا يعلمون بالخبر ثم طاف الأغا والوالى بعد ساعة وناديا بالأمان واجتماع جميع الانكشارية عند أحمد باشا والى المدينة المنورة لقتال الأرنؤد وإخراجهم من البلاد فلما سمع الأرنؤد بالمناداة تحزبوا واجتمعت طوائفهم عند الأزبكية فكان الانكشارية إذا ظفروا بأحد من الأرنؤد أخذوا ما معه من سلاح وقماش وربما قتلوه وكذلك كانت تفعل الأرنؤد بالانكشارية وقد نهب الانكشارية جميع ما وجدوه فى بيت طاهر باشا من فرش وبسط وملبوس وغير ذلك وبقيت جثته ملقاة لا يجسر أحد من أتباعه على الاقتراب منها وحملها وزالت دولته فكانت أيامه ستة وعشرين يوماً.

قال صاحب عجائب الآثار وكان أسمر اللون نحيف البدن أسود اللحية قليل الكلام فيه هوس وانسلاب يميل للمسلوبين والمجاذيب وأصحاب الشعوذة وقد عمل له خلوة بالشيخونية يبيت فيها كثيراً ويصعد على سطحها مع شيخه ويذكر معه اهـ.

ثم جمع أحمد باشا المشايخ والعلماء والوجهاء فى داره وكلمهم فيما وقع من طاهر باشا وأصحابه وانتدب جماعة منهم فساروا إلى محمد على سرجشمة يسألونه الطاعة والخلود إلى السكينة كى لا يعرض نفسه ومن معه للبوار فقال لست أعرف لأحمد باشا سلطة على البلاد وما هو إلا ضيف ثم يرتحل ولم أكن لأولى طاهر باشا وأجلسه على منصة الملك إلا لأنه مبعوث من الدولة للمحافظة على الديار المصرية والجواب عندى إن أحمد باشا يرتحل عنا على الفور بعسكره وجنوده وله علينا المعاونة والمدد من مؤنة ودواب للحمل وسفن للسفر فأخبر المشايخ أحمد باشا بمقالة محمد على فأضمر له السوء وبدأ من هذا الحين يظهر محمد على وتعلو كلمته والانكشارية يقتلون وينهبون كل ما قدروا عليه من دور الناس والأمراء وتتبع الأرنؤد

وفتك بهم وعملوا بعض المتاريس ونادوا على الناس بالسهر والتحفظ وفتح الحوانيت ليلاً والإكثار من الأنوار وبات الناس على تخوفهم فلما أصبح يوم الخميس أرسل أحمد باشا يستدعى المشايخ والعلماء فذهبوا إليه فكلمهم فى جمع سائر الناس وخروجهم على طوائف الأرنؤد فأجابوه إلى ذلك وأرادوا الانصراف فمنعهم وقال حتى تأمروا العامة فقالوا هذا لا يكون إلا ونحن بالجامع الأزهر ومازالوا به حتى خرجوا ولم يفعلوا شيئاً مما أمر به فجمع إليه جميع الأمراء العثمانيين وتشاوروا فى أمر الظفر بمحمد على أيضاً ومن بقى معه من الأرنؤد، وكان محمد على قد استقر بمن معه بقلعة الجبل وأحكموا أمورهم وكاتب محمد على الأمراء المصريين وكانوا على مقربة من الجيزة وانبابة فحضر إلى القاهرة بعض أتباعهم وطائفة قليلة من عسكرهم وشاع خبر وصولهم إلى الجيزة فعبر إليهم مماليكهم وبعض الكشاف من أصحابهم ثم قدم منهم جماعة فنزلوا بباب النصر وآخرون بباب الفتوح وأرسل إبراهيم بيك الكبير خطاباً إلى أحمد باشا يقول فيه :

حيث قد علمنا بموت طاهر باشا وأنت اليوم بين ظهرانينا فضم إليك من بقى من طوائف الأرنؤد وإياك أن تقرب إليك أحداً من الانكشارية.

مطلب

طرد أحمد باشا والى المدينة وتصرف إبراهيم بك الكبير

فلما كان صباح ثانى يوم ذهب جماعة من الانكشارية إلى الرميلة يريدون قتال عسكر محمد على، فأطلق عليهم أصحاب محمد على المدافع وتابعوا الرمى فولى الانكشارية الإدبار ورجعوا مسرعين إلى بيت أحمد باشا فحاول أصحاب القلعة رمى القنابل على البيت رمياً متراسلاً فخاف الانكشارية وانحلت عزائمهم وتفرقوا عن أحمد باشا وجاء الخبر بما جرى إلى إبراهيم بيك فتقوّت عزيمته وأرسل إلى أحمد باشا يطلب منه قاتلى طاهر باشا ويلزمه الخروج من القاهرة فى برهة لا تتجاوز الساعة الحادية عشرة من النهار ولا يقيم بها إلى الليل، فلم يجد بداً من الامتثال وطلب دواب للحمل فلم يجد فركب فى عصر اليوم وسار وتفرق عنه من كان معه من أعيان العثمانيين وذهبوا إلى محمد علىّ والتجأوا إليه فأحسن لقاءهم وأنزلهم منزلاً رحباً وخرج أحمد باشا وأتباعه مشاة بين يديه ومعه نفر قليل من الانكشارية فوجد عند باب الفتوح من زحام عسكر الأمراء المصريين والعربان والهوارة ما أخافه فدخل بمن معه إلى قلعة الظاهر بيبرس وأغلقوا أبوابها فتبعه جماعة من الأرنؤد

ودخل داره جماعة فنهبوا ما فيها من متاع وأثاث وأحاط بقلعة الظاهر آخرون ليلتهم تلك وأصبحوا فضيقوا على أحمد باشا ومن معه وجعلوا يرمون على المحاصرين من السور وهم كذلك يرمــون عليهم من أسفل وجمعــوا شيئاً كثيــرا من التراب وعملوا منها أكمة وصعدوا عليها وصاروا يرمون عليهم من الخارج بالبنادق بقية النهار وطول الليل، فلما أصبحوا أنزلوا مدفعــاً من قلعة الجبل وجعلوا يطلقونه على قلعة الظاهر فــأخربت قنابله وهدمت بــعض جدران القلعــة فطلب الانكشــارية الأمان فــأمنوهم ففتحوا الأبواب وخرج أحمد باشــا ومعه اثنان من الانكشارية وهما قاتلا طاهر باشا فأخذوهم وعبروا بهم إلى الجيزة ولبث من بقى من الانكشارية داخل القلعة وحولهم الجند والعسكر ثم ســجنوا أحمد باشا بقصــر العينى وأبقوا قاتلى طاهر باشــا بقصر الجيزة فتم بســجن أحمد باشا زوال دولته فكانت ولايته بعد مــوت أحمد باشا طاهر يوماً وليلة لاغير.

واشتدت عزائم طوائف الأرنؤد بهذا الظفــر فكثر فسادهم فى الأرض وقتلوا من الترك وأصحاب خان الخليلى خلقاً كثيراً وتــتبعوا الناس وأخذوا بالشبهات وظهر نجم محمــد على والتجأ إليــه الأمراء والأعيان فــراراً من إيذاء طوائف الأرنؤد وأتوا يوماً بقاتلى طاهر باشــا من قصر العينى إلى الناصــرية وضربوا أعناقهمــا فى وسط النهار وحملوا الرأسين إلى زوجة طاهر باشا بالشيخونية ثم إلى أخيه بقلعة الجبل وأخرجوا طوائف الانكشارية الذين كانوا بقلعة الظاهر وأخذوا جــميع ما كان معهم من سلاح وكراع وبعثــوا بهم إلى الصالحية مع نفــر من الأرنؤد والعربان فمات أكثــرهم جوعاً وتمزق من بقى وتشردوا فى الجهات.

ولما كان يوم الأحد خامس عشر صــفر سنة ثمان عشر نزل ابن أخى طاهر باشا من قلعة الجبل ونزل من كان معه من كبار الأرنؤد وأعيانهم وعسكرهم ومتاعهم وما جمعــوه من المنهوبات وكان شيئاً كــثيراً جداً وسلموا القلعــة إلى ابراهيم بيك الكبير وأصحابه ولم يبق بها من الأرنــؤد إلا طائفة قليلة ومعها أحد كبــارهم المدعو حسين قبطان وأخرجوا أحــمد باشا والى المدينة من معقله بقصــر العينى وسيروه إلى الديار الرومــية فى نفــر من الانكشــارية فلما اســتــقر بإبراهيم بيــك المقام قــسم الوظائف والمناصب العــالية بين قــومه وذويه بإشــارة محمــد على ورتب الأمور عــلى ما أراد محمد على فــأحكم ترتيبها فمال الأمــراء المصريون إلى محمد على وأحبــه العساكر وعمل بمــشورته العــمال فى جمــيع البلاد وتــقرب إليه الأعــيان وتزلف إلــيه أرباب المناصب وتقرب منه المشايخ والعلماء.

وجاء الخبر إلى إبراهيم بيك الكبير بنزول محمد باشا الوالى المعزول على مدينة

دمياط وتغلبه على ما حولها من البلاد والقرى وإعطاء الوظائف إلى مماليكه وانضمام الكثير من الانكشارية الذين خرجوا من مصر والقاهرة إلى لومه مع الغوغاء وحرافيش البلاد والعربان فسير لقتاله البرديسي في طائفة عظيمة من العساكر فوجده ممتنعاً وقد عمل المتاريس والخنادق حول المدينة وضرب على الأهالي المغارم والفرض وبث المعينين لجمع الأموال من البلاد ونقل الغلال فهجم عليه البرديسي بخيله ورجله واقتتل الفريقان قتالاً عنيفاً فانهزم البرديسي وأصحابه عند القنطرة البيضاء من ضواحي دمياط وأجلوهم عن مواقفهم ثم عاد البرديسي وقد رتب عسكره وهجم على عساكر محمد باشا فانهزموا وانتصر البرديسي نصرة عظيمة وانخذلت عساكر محمد باشا وخامر بعضهم مع البرديسي وأشاروا عليه بالزحف على دمياط فزحف وراسل بعض كبار عسكر الباشا فأطمعوه في الاستيلاء على المدينة بغير عناء فدبر عسكره وهجم على المدينة وقاتلها حتى دخلها عنوة وفتك في عسكر الباشا بالقتل وتتبعوا خواصه وأتباعه فقتلوهم عن آخرهم وقتلوا من خرج معه من أصحاب الوظائف ونهبوا المدينة وأسروا النساء والأطفال وافتضوا الأبكار واستأسروا من شاءوا وفعلوا من القسوة ما تشيب لهوله الولدان ونهبوا الخانات والبيوت والوكائل وجميع أمتعة التجار التي كانت بها والتجأ محمد باشا إلى بلدة القرية فأحاطوا به من كل جانب فطلب الأمان فأمنوه فنزل من القرية وحضر إلى البرديسي فقام عليه بعض الجند وخطفوا عمامته وهو في الطريق وكادوا يفتكون به فلما رآه البرديسي ترجل عن جواده وتلقاه بالإعزاز والإكرام وألبسه عمامة وأنزله في خيمة بجانب خيمته وسير الأخبار بما حصل إلى إبراهيم بيك ففرح بذلك وفرح أصحابه فلما كان يوم الإثنين تاسع عشرى ربيع الأول أحضروا محمد باشا إلى القاهرة ومعه المحافظون من الأرنؤد والعساكر المصرية وليس معه من أتباعه سوى ستة مماليك فقط وقد تفرق باقيهم عنه فنزل بساحل بولاق وكان إبراهيم بيك قد حضر في ذلك اليوم إلى بولاق فلم يقابل محمد باشا وتشاغل عنه ثم حضر إلى الباشا أحد الكشاف وأركبه وسار به إلى بيت إبراهيم بيك بحارة عابدين فلم يقابله في ذلك اليوم أيضاً فأخذوه إلى بيت البرديسي فبات ليلته وأصبح فركب إبراهيم بيك إلى قصر العيني وطلب محمد باشا فسار إليه وقابله وقد حضر الألفي وبقية الأمراء المصريين ثم ركب ورجع إلى بيت البرديسي وبقي محجوراً عليه أياماً.

فلما كان يوم السبت خامس عشرى ربيع الأول طلب محمد باشا من سليم كاشف المحرمجي المتولي حراسته أن يأذن له بالخروج إلى الناصرية للرياضة فأرسل سليم كاشف إلى إبراهيم بيك يسأله في ذلك فأذن له فأركبه سليم كاشف بمماليكه

وعدة أخرى من مماليك المحرمجى فلما خرج إلى خارج الناصرية أطلق جواده وتبعه مماليكه من خلفه فظن مماليك المحرمجى أنهم يتسابقون فلما غابوا عن أبصارهم ساقوا خلفهم ومازالوا كذلك وقد استل محمد باشا سيفه إلى أن وصلوا إلى الأزبكية فقصد بيت أحمد بيك الأرنؤدى فلما اقترب منه أطلق أحد الجند غدارته على جواده فسقط الجواد وسقط محمد باشا أمام الباب ودخل مسرعاً على أحمد بيك ومن كان معه فلما رآه أحمد بيك على هذا الحال وبخه وقبض عليه وفتشوه فوجدوا معه من المال ما قدره ألف وخمسمائة دينار وكذلك أخذ ما كان مع مماليكه وقد كانوا أعدوا هذا المال ليكون لهم عوناً على الهرب وجاء الخبر إلى سليم كاشف المتولى حراسته فركب على مثل ذلك بباقى أتباعه واتصل الخبر بإبراهيم بيك فأمر جميع الكشاف بالرجوع وأصعد طائفة منهم قلعة الجبل وتحفظ على أطراف المدينة وجاء سليم كاشف بمحمد باشا إلى إبراهيم بيك بقصر العينى ومعهما أحمد بيك فخلع إبراهيم بيك على أحمد بيك فروة سمور وقدم له حصاناً مسرجاً ووكل بمحمد باشا من يخفره فى معقله.

مطلب

منع تصرف إبراهيم بك وولاية على باشا الطرابلسى

وجاءت الأخبار بولاية على باشا الطرابلسى ووصوله إلى مدينة الإسكندرية فاستقر بها ولم يقدم إلى القاهرة وأرسل إلى إبراهيم بيك ومن معه يقبح ما فعلوه من رجوعهم إلى القاهرة وتصرفهم فى الأمور بغير إذن السلطان لاسيما خروج الأرنؤد وقتل طاهر باشا بخروج الانكشارية وإخراج أحمد باشا وغير ذلك من الحوادث التى كانوا هم علة وقوعها فأرسلوا إليه يعتذرون ويظهرون الطاعة والولاء للسلطان وأن حضورهم لم يكن إلا عن رضا الأهالى واستدعاء المشايخ والعلماء وتخوف إبراهيم بيك وأصحابه من على باشا المذكور وتحذروا وأقاموا ينتظرون ما سيكون من حضوره إلى القاهرة.

وكان البرديسى فى غضون ذلك قد سار بعسكره من دمياط بعد أسر محمد باشا إلى رشيد لقتال الحاج على باشا قبطان ومن معه من العساكر العثمانية وكان الأرنؤد لما قاموا وخرجوا على محمد باشا جاء على باشا قبطان المذكور فى نفر من العثمانيين ونزلوا على رشيد من البحر وتحصنوا بها حتى صاروا فى منعة زائدة وجعل على باشا مقره ببرج مغيزل يراقب الفرص ليزحف على القاهرة ويفتك بمن بها من أصحاب إبراهيم بيك وطوائف الأرنؤد فوصل إليه البرديسى بعسكره وقاتله

قتالاً شديداً نيفاً وعشرين يوماً وما زال حتى انتصر عليه وفتح البرج عنوة وقبض على عليّ باشا وعدة كبيرة من عسكره وأخرجوهم إلى جهة الشرقية ليسيروا منها إلى الشام ووردت الأخبار بذلك إلى القاهرة فلما علم على باشا الطرابلسى وهو بالإسكندرية ما فعله البرديسي برشيد وكيف أخذ على باشا قبطان أسيراً خاف أن يعرج البرديسى وأصحابه إلى الإسكندرية فيفعلوا بها ما فعلوه برشيد فأمر بسد أبى قير فكسروه فجرى الماء المالح إلى الأراضى التى كانت جفت عنها منذ عهد قريب فى ذلك الحين وأغرقت القرى وأفسدت المسالك على الإسكندرية واشتد الحال على أهلها وضاق بهم الكسب فرحلوا عنها إلى جزائر المحيط كجريت وقبرس وردوس وغيرها ولم يبق فيها إلا الفقراء والعجائز.

قلت : وكان هذا السد من أهم العمائر وأحكمها وأكبرها شهرة ولذلك كانت تتفقده الدول على مر الأيام وتتعهده بالعمارة وإحكام الوضع وتخشى من تهدمه فلما اختلت الأحوال وكثر توالى القلاقل والإحن واستولت الفوضى على البلاد وأهملت أسباب العمارات كافة انهار من هذا السد بعض بنيانه فسال منه الماء المالح على المزارع والقرى الواقعة بين رشيد والإسكندرية فلم يتدارك أولو الحل والعقد أمره لاستفحال الخلل فاستمر على هذا الحال والخرق يتسع حتى كادت تنقطع الطرق بسبب الماء المنهمر منه واستمر على ذلك إلى دخول الجيوش الفرنساوية مصر فلما جاءت خلفهم سفن الإنجليز أراد أميرها تعويق الفرنسيس عن الوصول إلى القاهرة بعد نزولهم بأبى قير فأطلق قنابل مدافعه على السد المذكور فكسر بعض بنيانه واتسع خرقه فانهمر الماء على الأراضى حتى كاد يصل إلى دمنهور واختلط بخليج الأشرفية فغطى جميع وجه تلك الأراضى وأخرب القرى والبلاد وأتلف المزارع وانقطعت الطرق حول مدينة الإسكندرية وامتنع دخول ماء النيل إلى أهلها فلم يصل إليهم إلا ما يصلهم من جهة البحر فى السفن والنقائر أو ما خزنوه من مياه الأمطار بالصهاريج وبعض العيون المستعذبة ثم جاء رجل من مهندسى دار السلطنة اسمه صالح أفندى ومعه بعض السفن تحمل الأخشاب العظيمة والآلات الضخمة برسم بناء السد المذكور فاستمر العمل فى ذلك عاماً ونصف العام حتى قارب التمام ففرح الناس بذلك واستبشر أهل القرى والنواحى فما هو إلا وقد وقعت هذه الحوادث واحتل على باشا قبطان ثغر رشيد وسار البرديسى لقتاله وخاف على باشا الطرابلسى من حضور البرديسى وفعله بالإسكندرية ما فعله برشيد فأمر فكسروا السد فأنغمر

وجه تلك الأراضى بالماء المالح فنزح أهل الإسكندرية وتبدل عمارها خراباً.

ووصل الحاج على باشا إلى القاهرة أسيراً فأكرموا نزله ورتبوا له المرتبات من مأكول ومشروب وأرسل البرديسى يطلب المدد فأمدوه فسار من رشيد إلى دمنهور أياماً يدبر أمر الهجوم على الإسكندرية وكيفية الوصول إليها وطالت أيام مكثه فداخل جنوده الملل واعترى أمورهم الفتور والكسل فطالبوا البرديسى بجماكيهم وعلوفاتهم ولم يكن عنده منها شىء فخشى العاقبة ورجع إلى القاهرة وقد مات منهم خلق كثير بأسباب الجوع والحرب ودخل الجيزة فى السادس من جمادى الثانية فخرج الأمراء والأعيان لملاقاته فلما أصبح يوم السبت سابعه عبر (محمد على) سرجشمة النيل إلى الجيزة وعبر معه طوائف الأرنؤد إلى مصر وكذلك البرديسى فخرج عليهم الفقراء وبأيديهم المقاطف والغلقان وصاحوا بمحمد على والبرديسى واستغاثوا ويكوا من الجوع فلاطفهم البرديسى وأصبح وقد بعث بمحمد على وخازنداره إلى بولاق ومصر القديمة وأخرجوا جميع ما فيها من الغلال إلى السواحل فاجتمع العالم الكثير من الرجال والنساء فامتاروا بحسب الحاجة واطمأن الناس واشترى الخبازون وفتحوا المخابز وكثر الخير وشبع الفقراء فمالت قلوب الرعية إلى البرديسى وأحبوه.

وأخذ البرديسى فى بناء الحصون والقلاع بجهة الناصرية وعند داره المعروفة بدار حسن كاشف شركس وأنشأ البوابات الكبيرة بجهة قنطرة السباع والمزار المعروف بكعب الأحبار فداخل الناس من ذلك الشكوك وخالجتهم الظنون فعمدوا إلى تعمير الدور التى خربتها الحوادث المتراكمة والخطوب المتتابعة وضيقوا الشوارع عما كانت عليه من السعة والرحب وقد كانت إلى ذلك الحين غاية فى السعة والانتظام وتناسب البناء وحسن وضعه كما هى الآن بأكبر شوارع القاهرة ومصر وأحدثوا فيها الدروب الكثيرة والدعامات البارزة والسباطات وغير ذلك مما أذهب رونقها وجعل أغلبها ظلاماً حتى فى رابعة النهار وزاد الحال وقلد أهل الأخطاط فعال بعضهم واهتموا لذلك اهتماماً عظيماً ونقل البرديسى جميع المدافع التى كانت بالأزبكية ببيت الباشا إلى تلك الحصون والأبراج وعززها بالذخيرة الكثيرة والمهمات وآلات الحرب كل هذا وعلى باشا الطرابلسى العامل على مصر من قبل دار السلطنة لا يتحرك من الإسكندرية ولا يأتى إلى القاهرة وكانت كتبه لا تنقطع عن إبراهيم بيك والبرديسى مشحونة بالوعيد والتهديد إن لم يتركوا القاهرة ويرحلوا عنها إلى الصعيد الأعلى

حتى تأتى رسل دار السلطنة ويأمر السلطان بما يراه فلم يسمعا له كلمة ولا تبعا له إشارة وجعلوا يتصرفون فى البلاد تصرف المالك المطلق.

فلما كان يوم الأربعاء أول شعبان سنة ثمان عشرة قدم إلى مصر كاتب ديوان على باشا الطرابلسى ومعه مرسوم السلطان بالعفو عن جميع الأمراء المصريين إجابة لطلب صدر الدولة وعلى باشا الطرابلسى وأن يقيموا بمصر والقاهرة ولكل أمير منهم فايظ خمسة عشر كيسا وحلوان المحلول ثمان سنوات وأن الأوسية والمضاف والبرانى يضم إلى جانب الخزينة وأن لايكون التصرف فى جميع الأمور والأحكام إلا لعلى باشا والروزنامجى وأما الجمارك والمقاطعات فالكلمة فيها للدفتردار الذى يعين لذلك من قبل الدولة فلما قرئ هذا المرسوم بحضرة المشايخ والعلماء والوجهاء أظهروا البشر والسرور وأطلق لذلك عدة مدافع وكتبوا إلى على باشا يشكرونه ويطلبون منه الحضور إلى القاهرة ليتولى أمور البلاد ويدبر أمر خروج الحاج قبل فواته، فسار على باشا من الإسكندرية برا إلى القاهرة وعبر الألفى بعسكره وكذلك بعض الأمراء المصريين النيل إلى انبابه وساروا منها إلى مقربة من شلقان ونزلوا بها فلما كان الباشا على مقربة منها أيضاً نزل ببعض المزارع هو ومن معه من طوائف الانكشارية وكانوا عدة كثيرة ممن خرج هارباً من مصر والقاهرة وكان يتبعه بالبحر نحو ستين سفينة تحمل أثقاله ومتاعه وأتباعه وبعض العسكر فخرج إليه الألفى بعسكره ومحمد على سرجشمة وأحمد بيك وأتباعه ونصبوا خيامهم وأنزلوا أثقالهم على مقربة من معسكر الباشا فتكدر الباشا من ذلك وأرسل إلى الألفى يقول كيف تقدمون على أن تعسكروا بجندكم قبالة عسكرى وأنتم أتباع السلطان وأنا نائبه على هذه البلاد فأجابه الألفى هذه منزلتنا ومحط عسكرنا ولم نفعل إلا ما وجب فاشتد غيظ الباشا وتقهقر بعسكره إلى الوراء فانتقل محمد على وأحمد بيك بعسكرهما إلى ناحية النيل وعسكروا هناك وأظهر الألفى سوء النية والجفاء للباشا حتى قتلوا بعض أتباعه بمشهد منه مما كاد يقتله غماً.

قال بعض كتاب الأخبار: وكان الحامل على ذلك أنه لما طال مكث على باشا بمدينة الإسكندرية وقد أعيته الحيل فى رد جماح الأمراء المصريين وإكراههم على الجلاء عن مصر إلى الصعيد الأعلى ورأى أنه لابد من المسير إلى القاهرة والالتقاء بهم ووقوع ما لا تحمد عواقبه كاتب محمد على سر جشمة وكبار الأرنؤد وغيرهم من قبائل العرب ومشايخ البلاد يستميلهم ويعدهم ويمنيهم إن قاموا بذلك ويحذرهم

من الانضمام إلى أولئك الأمراء فنقل الأرنؤد ذلك إلى إبراهيم بيك والبرديسى وأطلعوهما على رسائل الباشا واتفقوا على أن يردوا عليه من كبار الأرنؤد بالطاعة والرضوخ لأمره والقيام لنصرته إذا حضر إلى القاهرة حتى إذا خرج الأمراء للسلام عليه يكبسون عليهم هم وعسكره فيستأصلونهم والموعد بشلقان وقد سهلوا له الأمر وهونوا عليه الصعب فراجت عليه حيلتهم وسار من الإسكندرية فى عدة وافرة من العسكر وحضر إلى الرحمانية وأعاد مخابرتهم واستوثق منهم فحضوه على سرعة الحضور إلى شلقان فسار إليها فرحاً فلما صار على مقربة منها أمر فرتبوا المراكب التى كانت تسير معه بالنيل ووضعوا عليها المدافع وعملوا المتاريس وحصنوا موقعهم فخرج إليه الألفى كما تقدم بمن معه ونزل بخيامه أمام خيام الباشا وأرسل إليه بأن يتقهقر بعسكره إلى الوراء حتى تستقر القاعدة بينهما على أمر من الأمور فلم يجد الباشا بداً من ذلك وطلب الأرنؤد والعربان الذى عاهدهم فلم يجد منهم أحد فأكبر هذا الأمر وتأخر إلى زفيتة ونزل بها وبينما هو على هذا الحال من الحركة والانتقال إذ انحدر حسين بيك الفرنجى أحد الأمراء المصريين بعسكره فى بعض السفن بالنيل حتى صاروا خلف سفن الباشا وأحاطوا بهم وأطلقوا عليهم القنابل والبنادق وساقوهم إلى القاهرة واستأسروهم ثم ذهبوا بهم إلى الجيزة وقد أعملوا السيف فيمن كان بها من الجند وقبضوا على مقدمهم المدعو مصطفى باشا وأخذوه أسيرا وأحاطوا بمعسكر على باشا بناحية زفيتة ومنعوا عنهم الواصل وكانوا إذا خرج أحد من عسكره يريد الذهاب إلى جهة قبضوا عليه وقتلوه فاشتد حزن الباشا واضطرابه وأرسل إلى الألفى من يكلمه فى ذلك فأرسل إليه الألفى يقول: لم نكن لنعلم بخبر هذه الجيوش المخيمة حولك وبسبب اجتماعها إلا من أحب الناس إليك وأطوعهم لكلمتك فلما رأينا من كثرة قومك وأسلحتك ومهماتك وآلات حربك قابلنا عملك بمثله وماعهدنا بالولاة إذا حضروا إلينا إلا أن يكون حضورهم فى قلة من الأتباع لا أن يأتوا فى جيش جرار وقد قيل لك ذلك لما صرت على نية المسير إلينا فإن شئت مسالمتنا فاصرف عنك هذه الأقوام وأتنا فى بطانتك لا غير على الرحب والسعة، فقال: لم يكن من أمر هذه الجيوش سوى الخروج إلى الأقطار الحجازية مدداً لشريف مكة وعوناً له على قتال الوهابيين فإذا وصلنا بهم إلى قلعة الجبل واستراحوا جهزناهم بما يلزم وسيرنا بهم إلى الشريف، فقيل له لم يبق فى القلعة من الأبنية بعد تخريب الفرنسيس لها ما هو أهل لسكانك ولذلك فقد أعددنا قصر العينى مقراً

لك ولأتباعك وحاشيتك واصرف عنك العسكر فيسيرون إلى بركة الحاج ويلبثون هناك حتى تتم احتياجاتهم ويسيرون إلى الأقطار الحجازية.

وترددت الرسل بينه وبين الألفى أياماً ثم حضر من قبل الباشا عابدى بيك مقدم الانكشارية واجتمع بالألفى وكلمه فاستماله الألفى لجانبهم ومناه بالأمانى الطويلة وعاهده على الخذلان بالباشا والانضمام إليه بمن معه من الجند وتحالفا على ذلك وتعاقدا فانصرف عابدى بيك ودبر أمره مع أصحابه فحلفوا له يمين الطاعة وترك الباشا وشأنه، فلما استوثق الألفى من عابدى بيك وأصحابه أرسل يقول للباشا قد طال القال والقيل بيننا ولم نهتد إلى أمر من الأمور فإما أن تأتى إلينا فى بطانتك وحاشيتك على الرحب والسعة، وإما أن تبرز لقتالنا وضربوا للجواب موعداً فلما لم يأت الجواب زحف الألفى بعسكره وزحف بقية الأمراء بعساكرهم على معسكر الباشا وأحدقوا به من كل جانب فطلب الباشا عسكره ونادى فيهم بالخروج فلم يتحركوا وتثاقلوا فلما تحقق خذلانهم له ركب فى خاصته وذهب إلى الألفى وترك خيامه وأثقاله فعند ذلك استقبله جميع الأمراء بالإعزاز وأنزلوه فى خيمة أعدوها له على مقربة من خيمة البرديسى وحضر إليه جميع أرباب الديوان ونقلوا جميع متاعه وأثقاله إلى قصر العينى وسيروا من كان معه من الجنود إلى شرقية بلبيس ليسيروا منها إلى الصالحية ثم انتقل جميع الأمراء المصريين مع الباشا إلى منية السيرج وباتوا ليلتهم فلما كان منتصف الليل والناس جميعاً نيام خرج من خيام الباشا فارس على فرس يعدو بسرعة فصهلت عند خروجه الخيل واضطرب من فى المعسكر فركب جماعة من العسكر وتراكضوا خلفه فلم يلحقوه فسألوا الباشا عنه فأنكر معرفته وقال لعله لص فتخوفوا منه وأخذتهم الطيرة فأجلسوا حول مضربه فى تلك الليلة عدة من المماليك بالأسلحة وأصبحواوقد قبضوا على رجل على ظهر هجين من ناحية البساتين زعموا أنهم وجدوا معه كتابا من الباشا خطابا إلى عثمان بيك حسن المقيم بجرجا يستقدمه إلى القاهرة ليكون له عونا على الأمراء المصريين ويمنيه بالأمانى الواسعة ويعده بتولية إدارة البلاد فلما كان يوم الأربعاء ثانى عشر شوال من السنة أى سنة ثمان عشرة بخيمة الباشا دخل على رضوان أغا كتخدا البرديسى ومعه آخرون وجلسوا عنده فسألهم عن سبب حضورهم فقالوا أتينا لنسألك فيما إذا كنا على صلح تام مع الأمير اليوم أم لا، قال: بلى، فقال كتخدا البرديسى: هلا كتبت إلى أحد قبل ذلك كتابة، قال لا، فقال: لعلك كتبت إلى الصعيد شيئا قبل الآن، قال:

لم يكن ذلك أبدا، فأخرج له عند ذلك مكتوبا وناوله إياه، فلما رآه قال: نعم هذا مما كتبناه بالإسكندرية قبل الصلح فقالوا إنا وجدناه بالأمس مع رسولك وتاريخه يدل على تحريره فتلجلج فقاموا وقالوا له قم فقال إلى أين قالوا إلى غزة حيث لا أمان لنا معك بعد ذلك ولم يمهلوه لكلام يقوله أو لعذر يبديه وقدموا له فرسا وأركبوه عليه فرأى حوله عدة من الأمراء على أهبة الذهاب معه فاضطرب جدا وقال: إن اصحبنى هؤلاء فيلكونوا على بعد منى فى الحل والترحال فأجابوه إلى ذلك وركب أتباعه على دواب الحمل وساروا وهم فى أسوإ حال وقد حجز البرديسى جميع أثقاله ومتاعه وذخيرته وأصبح يوم الخميس ثالث عشرة فدخل الأمراء والجند والعسكر من الأرنؤد ومحمد على سرجشمه وجميع كبارهم وخلفهم الطبول والزمور أما الألفى فإنه ركب على زفيته فضرب أهلها وأحرق البلد وعرج على أجهور فضربها كذلك وشرد من فيها وذهب إلى نزلة عرب بلى بالجيزة فطرقهم فجأة وقتل منهم أناسا ونهب مواشيهم وخرب منازلهم وفعل كذلك بعدة بلاد أخرى لتحالفهم مع عليّ باشا على قتال المصريين وتأهبهم لنصرته وسار المعينون مع عليّ باشا فلم يصلوا على مقربة من القرين حتى مات حتف أنفه على ما قيل وقيل بل خنقوه.

قال بعض الكتاب: وكان عليّ باشا المذكور سيئ الخلق طاغية عنيدا جبارا فخورا معجبا بنفسه كثير المظالم مستبدّا برأيه فعل بأهل الإسكندرية من الجور والظلم والمصادرة مالا يكاد يدخل تحت الحصر وكان يقول لعسكره إنى إن فتحت مصر ووطئت قدمى أرضها أبحتها لكم ثلاثا تفعلون بها ما تحبون.

وعاد الألفى الصغير من قتاله لعرب الجيزة ومعه كثير من الغنائم ونزل بقصره الذى أنشأه بالجيزة وتفرقت عنه عساكره ولم يبق معه إلا القليل مع أمير المدافع ثم جاء الخبر من حاكم مدينة رشيد بوصول الألفى الكبير الذى كان قد سافر إلى لندن عاصمة الإنجليز كما سبقت الإشارة إلى ذلك فلما علم إبراهيم بيك والبرديسى بخبر وصوله خافا منه وأيقنا بخيبة الأمل لما له من الشهرة ونفوذ الكلمة فأضمرا له السوء ودبرا أمورهما وكتماها وكتب البرديسى إلى مملوكه يحيى بيك حاكم رشيد يأمره بقتل الألفى بكل ما وصلت إليه حيلته وعبر هو النيل وعبر كذلك عدة من الأمراء إلى الجيزة وباتوا ليلتهم تلك بخيامهم وأظهروا أنهم يتأهبون للسفر فى آخر الليل مع الألفى الصغير للقاء الألفى الكبير وعبر أيضا حسين بيك الوشاش الألفى ونصب

خيامه على مقربة من النيل فلمــا كان خامس ساعة من تلك الليلة أرسلوا إلى حسن بيك يطلبونه فحضــر مع مماليكه وكانوا قد رتبوا جماعة منــهم تأتى بخيل ومصابيح ومشاعل من طريق القصر الذى يسكنه الألفى الصغـير فقالوا له أين خيلك فأنا على أهبة الإسراء ليلا فى هذا الوقت إلى لقاء أخينا الألفى وها هو أخوك الألفى الصغير قد ركب وهو مقبل إلينا فنظر فرأى المـشاعل والخيل فلم يشك فى صحة ذلك ولم يخطر بباله غـدرهم له فأمر ممـاليكه أن يذهبوا ويأتوا بالخيل وبقــى هو وحده ينتظر فرســه فخرج عليه نفـر من الخباء وقـتلوه بينهم وأرسلوا إلى البرديسى بالخبـر وكان محمد علىّ سرجشمه وأحمد بيك وبقـية كبار الأرنؤط قد عبروا إلى الشاطئ الثانى من النيل وترفعوا ليلا وكـمنوا ينتظرون الإشارة فلما علموا بالخبر زحـفوا على قصر الألفى الصغـير وأحاطوا به وقد ضــموا إليهم مقـدم أصحاب مدافع الألفى وأمـير عسكره فعطل المدافع وأخذ مـحمد على سرجشمه يدبر أمـر إحاطة القصر بطوائف الأرنؤد إلى آخر الليل فجاء إلى الألفى من أيقظه من نومه وأعلمــه بخبر قتل حسين بيك وإحاطتهم بالقصر فتأهب للقتال وطلب أمير مدافعه فلم يجده وأعلموه بما فعل بالمدافع فركب فرسه وخرج وخرجت معه أتباعه ببعض المتاع والأموال فركب محمد علىّ سرجــشمه وأحمــد بيك ونفر من الأرنؤط خلفه فلم يدركــوه وقد اشتغل بقـية العسكر بنهب القصــر وأخذ جميع ما فــيه من أثاث ومتاع وهجمــوا على بيت كاتبه المعلم غالى ونهبوه وكذلك نهبوا جميع دور أتباعه ومماليكه وأخذوا ما كان عند كاتبه المذكور من الأموال ثم نهبوا جميع دور الجيـزة وفعلوا بها ما فعلوه بدمياط من سبئ النســاء وفض الأبكار وأصبح الناس فى القـاهرة وهم لا يعرفـون شيئـا مما وقع إلا ماعلموه من صياح النساء وجوارى حسين بيك فى داره.

أما الألفى الكبير فـإنه لما وصل إلى رشيد قابله حاكمها بغـاية الأبهة والاحتفال ولم يكن معه إلا خاصة بمماليكه وجوخداره تتمة ستة عشر ولم يقم برشيد سوى ليلة ضيفا عند أحد التجار وأنزل أمتعــته فى سفن أربعة صغيرة وانتقل فى آخر الليل إلى دار قنصل الإنجليز وأصبح فأهدى إليه القنصل حراقة لطيفة فنزل بها وسار إلى مصر فعانده الريح وكان لما جاء الخبر بوصوله إلى مدينة رشيد سير الألفى الصغير لحضوره ذهابية فـانحدرت من بولاق إلى رشيــد فلاقوه عند بلدة نادر بعــد نصف الليل فلما أصبح نزل بالذهابية وسار إلى منوف العلا فأقام بها يوما ثم سار والريح تعاكسه إلى وقت الظهيرة فلاقاه عدة من الأرنؤط المرسلين لقتاله فى أربع من السفن الصغيرة فى

مضيق الترعة فسلم عليهم فردوا عليه السلام فسألهم بعض أتباعه إلى أين ذاهبون قالوا نريد الألفى وقد تناجى الملاحون فعرف ملاحوا مركب الألفى ماجرى بمصر فأخبروا الألفى بالخبر فكذبه وقال هذا شيء لا يكون أبدا وقد تغربت وركبت الأخطار وقضيت سنة بين ظهرانى الإنجليز أعمل على تعزيز جانبهم وإعلاء كلمتهم رغما من مكايد رجال السلطنة ويعاملوننى بهذا القبيح فلعلها حادثة وقعت بينهم وبين طوائف العسكر ولم تمض إلا ساعة أو نحوها حتى قيل له إن طائفة من الأرنؤط أدركوا الحراقة خلف ونهبوا ما بها من أثقال ومتاع فكاد يسقط فى يده وتحقق الغدر وأنه مأخوذ لا محالة فنزل بإحدى السفن الصغيرة ونزل معه مماليكه كافة وأخذوا بالمجاذيف وهو يستحثهم حتى خرجوا من تلك الترعة إلى ظهر النيل ولم يسر إلا قليلا حتى لاقته طائفة أخرى فى سفينتين ومعهم أحد أتباع البرديسى فلم ينظروا سفينة الألفى أو أنظروها ولم يعرفوه فجعل يجد فى السير حتى وصل إلى شبرا الشهابية فنظر وإذا بساع مقبل من مصر فطلبه وسأله فأعلمه أنه مرسل إلى بيت سليمان كاشف البواب ليخبر بما جرى فعند ذلك تحقق الخبر ونزل إلى البر وأمر بالسفينة فأغرقوها وسار فى مماليكه على أقدامهم ولم يزالوا يجدون السير حتى وصلوا إلى ناحية قرانفيل ودخل إلى نجع عرب الحويطات والتجأ إلى امرأة منهم فأجارته ولبت دعوته وأركبته فرسا وسيرت معه اثنين على الهجن إلى ناحية الجبل فساروا إلى الخانكاه ليلا ومماليكه خلفهم مشاة فلاقتهم طائفة من العربان فأحاطوا بهم فاشتغل المماليك بقتالهم فتركهم الألفى وسار مع أصحاب الهجن ومضى وقد سمع الجند القريبون منهم وفيهم البرديسى أصوات البنادق فأسرعوا إليهم وسألهم عن أستاذهم فقالوا قد كان معنا ثم تركنا وسار إلى الجبل فأمر البرديسى جميع من كان معه من الجنود بأن يتفرقوا ويضبطوا جميع المسالك والطرقات ومن أدركه منهم يقتله فى الحال فذهبوا خلفه وتفرقوا فى كل صوب وناحية فلم يعثر به أحد ولحق به جماعة العربان الذين قاتلوا مماليكه وأرادوا القبض عليه فنثر عليهم ما كان معه من الذهب والجواهر وألقى عنه فروته السمور فاشتغلوا عنه فتركهم وسار وغاب أمره فجعلوا يبحثون عليه وانتشرت طوائفهم فى الجهات شرقا وغربا وتتبعوا أقاربه وأتباعه ففر من فر وقبض على من قبض عليه وأدرك جماعة الأرنؤط سفينته التى كانت تحمل متاعه وأثقاله وكانت شيئا يجل عن الوصف من أموال وطرائف الإنجليز وجوخ وأسلحة وجواهر أهداها له ملك الإنجليز وأكابر دولته ومبلغا من المال لمشترى غلال لذمة ملك الإنجليز ثم أغرقوا تلك السفن فى النيل.

أما الألفى الصغير فإنه سار من فوره إلى الصعيد وفرّض على البلاد الفرد والكلف وطالبهم بها وشدد فى الطلب فكان كل من عصاه أو توانى فى الدفع نهبه وأحرق داره وشرد عياله فكتب إبراهيم بيك والبرديسى لكافة الأمراء والحكام بالأقاليم بالاهتمام فى القبض عليه وفى البحث والتفتيش على الألفى الكبير فأخذوا الناس بالشبهات وكثر الوشاة على أبوابهم فقتلوا بسبب الهاربين خلقا كثيرا وأخرجوا جماعة كثيرة على ظهور الخيل والهجن يتتبعون أثر الألفى الكبير وكلهم من أصحاب البرديسى وخواصه الذين عليهم معتمده وأصبح البرديسى ولم يبق حوله من أصحابه إلا النزر اليسير.

(مطلب)

(فتنة الأرنؤط وظهور كلمة محمد على سر جشمة)

ولم تكن هذه الحوادث المتراكمة والإحن المتوالية لتشغل جماعة الأرنؤط عن طلب جماكيهم المتأخرة وعلوفاتهم الموقوفة ولم يحل عندهم محلها ما نهبوه من متاع وأموال وغيره فى خلال تلك الحوادث فضلا عما كانوا يخطفونه فى كل يوم من المارة وأبناء السبيل فاجتمعوا يوما وذهبوا إلى كبارهم فى طلب الجماكى فوجهوا بهم إلى الأمراء المصريين وطالبوهم ففرضوا لهم مائتى ألف ريال على أقباط مصر منها خمسون ألفا على المعلم غالى كاتب الألفى وثلاثون ألفا على تركة المعلم بقطر المحاسب كاتب البرديسى والمائة والعشرون موزعة عليهم فلم يكتفوا بذلك وتحزبوا فرقا وطافوا فى الشوارع والطرقات يخطفون ما بأيدى الناس ويغتصبون النساء بلا تحاش ولاخوف وقصدوا الصعود إلى قلعة الجبل ليملكوها لكى يدمروا المدينة فلم يتمكنوا من ذلك واشتدت حركتهم وكثر تطوافهم فقتلوا ونهبوا وفعلوا ما لا خير فيه يوما وليلة وأصبحوا فركب محمد علىّ سر جشمه ونادى بالأمان وجمع إليه كبار العسكر وأعلمهم بأن الأمراء مهتمون بصرف الجماكى بواسطة تقرير فردة على الأهالى فأسكنوا هياج العسكر وقام المحروقى بجمع هذه الفردة وشرعوا فى الإحصاء وفرضوها على العقار والأملاك أجرة سنة يقوم بدفع نصفها المستأجر والنصف الثانى يدفعه صاحب الملك وطاف لذلك الكتاب والمهندسون ومع كل طائفة منهم نفر من الجند فنزل بالناس ما لا يوصف من الغم مع ماهم فيه من القحط والغلاء فضجوا واستغاثوا وذهب جماعة من أصحاب الجباية إلى باب الشعرية

ودخلوا درب مصطفى فخرج إليهم الفقراء وصاحوا فى وجوههم وسبوا ورجموا بالأحجار وخرج النساء جماعات يصرخن ويولولن بأيديهن دفوف وطبول يضربن عليها ويندبن ويتغنين ويقلن كلاما على الأمراء مرتبا ويجاهرن بقولهن «ايش تأخذ من تفليسى يابرديسى» وصبغن أيديهن بالنيلة فاقتدى بهن غيرهن وخرج الرجال ومعهم الطبول والبيارق وأغلقوا الأسواق والوكائل وحضر الجمع الكثير إلى الجامع الأزهر فركب المشايخ معهم إلى حيث الأمراء وكلموهم فى الأمر ثم رجعوا وأمامهم المناداة بإبطال تلك الفردة فسكن الحال وخمدت نار هذه الفتنة.

قال صاحب عجائب الآثار: وكانت هذه الفعلة من جملة الدسائس الشيطانية فإن محمد علىّ لما حرش العساكر على محمد باشا خسروا وأزال دولته وأوقع به ما أوقع بمعونة طاهر باشا والأرنؤط ثم بالاتراك عليه حتى أوقع به أيضا وظهر أمر أحمد باشا وعرف أنه إن تم له الأمر وقويت شوكة الأتراك لا يقون عليه فعاجله وأزاله بمعونة الأمراء المصريين واستقر معهم حتى أوقع باشتراكهم قتل الدفتردار والكتخدا ثم محاربة محمد باشا بدمياط حتى أخذوه أسيرا ثم التحيل على على باشا الطرابلسى حتى أوقعه فى فخهم وأنزلوه وقتلوه ونهبوا كل ذلك وهو يظهر المصافاة والمصادقة للمصريين وخصوصا للبرديسى فإنه تآخى معه وجرح كل منهما نفسه ولحس من دم الآخر قال: واغتر به البرديسى وراجت سوقه عليه وصدّقه وتعضد به واصطفاه دون خشداشينه وتحصن بعساكره وأقامهم حوله فى الأبراج وفعل بمعونتهم ما فعله بالألفى وأتباعه وشردهم وقص جناحه بيده وشرد البواقى وفرقهم فى النواحى فى طلبهم فعند ذلك استقلوهم فى أعينهم وزالت هيبتهم من قلوبهم وعلموا خيانتهم وسفهوا رأيهم واستضعفوا جانبهم وشمخوا عليهم وفتحوا باب الشر بطلب العلوفة مع الإحجام خوفا من قيام أهل البلد معهم ولعلمهم بميلهم الباطنى إليهم فاضطروهم إلى عمل هذه الفردة ونسب فعلها إلى البرديسى فثارت العامة وحصل ما حصل وعند ذلك تبرأ محمد على من ذلك وساعدوهم فى دفعهم عنهم فمالت قلوبهم إليهم ونسوا قبائحهم وابتهلوا إلى الله فى إزالة الأمراء وكرهوهم وجهروا بالدعاء عليهم وتحقق العساكر منهم ذلك، قال: وانحرف الأمراء على الرعية باطنا بل أظهر البرديسى الغيظ والانحراف من أهل مصر وخرج من بيته مغضبا إلى جهة مصر القديمة وهو يلعن أهل مصر ويقول لابد من تقريرها عليهم ثلاث سنوات وأفعل بهم وأفعل حيث لم يمتثلوا لأوامرنا اهـ.

ورأى البرديسى من خروج أهـل البلد والتهاب نار الفتنة مـا أذهله وأخافه ومن عبث الأرنؤوط وتطاول أيديهم إلى النهب والسلب وخطف النساء والصبيان والمطالبة بالجمـاكى المتأخرة وعـدم الوقوف عند حد مع الإسـتخفـاف بأمره ما أذهب صـبره وضاق معه صدره فاجتمع بالأمراء واشتوروا ثم أخذوا يدبرون على العسكر فأرسلوا إلى أصحابهم المتفرقين فى الجهات القـبلية والبحرية يطلبونهم للحضور فأرسلوا إلى حسين بيك الوالى ورستم بيك من الشرقية وإسماعيل بيك ومحمد بيك المنفوخ ليأتيا من شرق أطفـيح وقد كانوا جـميعـا يرصدون الألفى وينتظرونه واسـتقدمـوا حاكم الصعيد بمن حوله من الكشاف والأمراء وحاكم رشيد وحاكم دمياط وأصعدوا محمد باشا المسجون الذى سبق الكلام عنه إلى قلعة الجبل فأحس جماعة الأرنؤوط بما وراء ذلك فبادروا واجتمعوا بالأزبكية في يوم الأحد ثان عشرينه ثم ذهب جمع منهم إلى إبراهيم بيك واحتاطوا ببيته بالداودية وكذلك ببيت البرديسى بالناصرية وتفرقوا حول بيوت باقى الأمراء والكشـاف وغيرهم وكان ذلك وقت العصـر فلما علم البرديسى بإحاطة الأرنؤوط لداره رتب أموره وأخذ معه أمـواله وركب فى خاصته على الهجن وذهب إلى ناحية مصـر القديمة وكان الأرنؤوط قد نقبوا نقـبا من حائط الجنينة التى خلف داره ودخلوا منه إلى الدار فـوجدوا البرديسى قـد خرج بمن معـه من المماليك وبعض الجند والأتباع فقاتلوا من وجدوه ونهبوا ما فى الدار من فرش ومتاع وخرجوا فعاثوا وأفسـدوا وقتلوا وسبوا وتطاولت أيديهم أيضا إلى بيـوت الناس على اختلاف طبقاتهم واشتدت الفتنة وكثر صياح النساء وبكاء الأطفال فتحصن الناس فى البيوت ورموا بالأحجار من الشـبابيك إلى أن خيم ظلام الليل، فلما كانت السـاعة السابعة من الليل أرسل محمد على سرجشمه طائفة من الأرنؤوط إلى قاضى القضاة ومعهم مرسوم السلطان بولاية أحمد خورشيد باشا حاكم الإسكندرية على ديار مصر ورسم للقاضى أن يجمع المشايخ والعلماء فى الصباح ليتلى عليهم ذلك المرسوم فاستغرب القاضى ذلك وامتنع من جمع العلماء والمشايخ نظرا لاشـتداد الفتنة وتطواف جماعة الأرنؤوط بالشوارع والطرقات وقتلهم لكل من وقع فى أيديهم وأصبحوا وقد اشتدت الحركـة وكثر الرمى بالبنادق على بيـوت الأمراء فهـرب الكثير منهم وخـرجوا على وجوههم وعلم إبراهيم بيك الكبير بخروج البـرديسى فى مماليكه وأتباعه فخرج هو كذلك فيمن بقى من مماليكه وأتباعه ولم يزل سائرا حتى خرج إلى الرميلة وقد هدم فى طريقه أربعة متاريس وأصيب بعض مماليكه وخيله وأتباعه وأصيب كذلك كتخداه فمات عند باب العزب.

مطلب

إخراج محمد خسرو باشا من معقله وتوليته الإمارة على مصر بمعونة محمد على سرجشمه

وكان بعض الأمراء المصريين قد تعوقوا بقلعة الجبل فتحصنوا بها ووجهوا أفواه المدافع نحو مواقع وبيوت الأرنؤوط وتابعوا الرمى بالقنابل عليها وعلى ناحية الأزبكية وظلوا على هذا الحال إلى الضحوة الكبرى فجاءهم الخبر بفرار إبراهيم بيك والبرديسى ومن أمكنه الفرار من بقية الأمراء فركنوا هم كذلك إلى الفرار وهموا بأخذ محمد باشا وعلى قبطان باشا وإبراهيم باشا الذين كانوا فى حبوس القلعة السابق الكلام عليهم فلم تمكنهم العساكر المغاربة من ذلك فلما نزلوا من باب الجبل قام المغاربة ونهبوا ما فى دار الضرب وعاثوا فى القلعة فأخذوا ما فى المخازن السلطانية وغيرها ثم صعد محمد علىّ سرجشمه إليها فى نفر من الأرنؤوط وتسلمها من غير ممانع ولبث بها برهة ثم نزل منها وقد أنزل معه محمد خسرو باشا الذى كان معتقلاً وأمامهم المناداة بالأمان والاطمئنان وشاع خبر خروج محمد باشا خسرو من معقله ورجوعه إلى مسند الولاية على مصر فخرج الأعيان والمشايخ للقائه وذهبوا إلى بيت محمد علىّ سرجشمه ليهنؤه فقابلهم ولاطفهم فكانت مدة حبسه ثمانية أشهر كاملة حيث جاء إلى مصر بعد أسره فى دمياط فى آخر ربيع الأول وكان خروجه على يدى محمد علىّ سرجشمه فى آخر يوم من ذى القعدة وظن محمد خسرو باشا أن قد أقبلت عليه السعادة بعد إدبارها فجعل يتصرف فى الأمور ويعمل على تسكين خواطر الأرنؤوط ويشير على محمد على بعمل ما يشاء عمله وهو فرح مسرور، فلما كانت ليلة الأربعاء ثانى المحرم افتتاح سنة تسع عشرة لم يشعر محمد خسرو باشا إلا وقد دخل عليه جماعة من الأرنؤود وقبضوا عليه وقبض جماعة أخرى على إبراهيم باشا ونزلوا بهما إلى بولاق القاهرة وأنزلوهما فى إحدى السفن وأحاطوهما بالسيوف والبنادق فأنزعج خسرو باشا وقال إلى أين يا قوم وقد صرت فى ذمة محمد على وأمانه فقالو له حيث يشاء الله فسقط فى يده وكانت ولايته فى هذه المرة أشبه بولاية أحمد باشا الذى تولى بعد موت طاهر باشا يوما ونصف يوم.

مطلب

تبعيد محمد خسرو باشا وولاية أحمد خورشد باشا

قال بعض الكتاب: وكان السبب فى تبعيد خسرو باشا على هذه الصورة بغض أخوه طاهر باشا إليه وحقدهم عليه فخشى محمد على عاقبة بقائه وأسرع فى تبعيده

عن الديار المصرية فسكنت بتبعيده الفتنة وعادت الأمور إلى سابق مجراها، وصعد عابدى بيك أخو طاهر باشا إلى قلعة الجبل واستقر بها فى جمع كثير من الأرنؤوط ووردت الأخبار بمقدم أحمد خورشيد باشا وولايته على مصر فتأهب محمد على للقائه وبالغ فى ذلك حتى وصل إلى القاهرة ودخل فى الموكب المعتاد ونزل بالدار التى أعدت له بالداودية فلم يقم بها سوى يومين وانتقل منها إلى دار محمد على بالأزبكية ولم يكد يستقر به المنصب حتى شاع الخبر بظهور الألفى الكبير وقد كان متخفيا بشرقية بلبيس برأس الوادى عند شخص من العربان اسمه عشيبة فلم يزل عنده حتى زالت دولة البرديسى وتلاشت كلمته وتفرق أصحابه وانجلت الطرق من العيون والأرصاد التى كانت تتبع الألفى فركب فى عدة من الهجانة ومروا من خلف الجبل وسار إلى شرق أطفيح ونزل عند قبيلة المعازة فلما علم محمد على بخبره خافه وتطير منه وسير خلفه طائفة من الأرنؤوط وعلم جميع الأمراء الهاربين بظهور الألفى فجاءوا إليه واجتمعوا عليه عند الجيزة واجتمع إليهم العدد الكثير من عربان الهنادى والمماليك وقاتلوا من خرج إليهم من الأرنؤوط فهزموهم شر هزيمة وكاد يستفحل أمرهم فركب عليهم محمد على فى جماعة كثيرة وقاتلهم وأجلاهم عن الجيزة وقتل من العربان خلقا وشرّد من بقى منهم، وقد قتل وجرح كذلك من عسكر محمد على فترفع الأمراء إلى الصعيد وعاد محمد على ظافرا فلم تكن إلا أيام حتى عادوا إلى الجيزة وعاثوا فيها وأهلكوا الحرث والنسل وانتشروا بها انتشار الجراد ونزلوا على انبابة وضربوا أهلها ونهبوا ما عندهم فخرجوا هائمين على وجوههم وعبروا النيل إلى مصر والقاهرة فأخذ محمد علىّ فى جمع عساكره وعبروا النيل الى انبابة وعسكروا على مقربة منها وعملوا خندقا ومتاريس فزحف عليهم الأمراء والعربان وهجموا على المتاريس هجمات متتابعة ووقعت بين الفريقين مقتلة عظيمة أبلى فيها الفريقان نحو نصف النهار ثم انجلت الحرب بينهم وترفع الأمراء والعربان ولم يبلغوا من العساكر وقد قتل من الأمراء عدة كثيرة ولم تكن إلا أيام قليلة حتى عادوا ووصل فريق منهم إلى قبة باب النصر والعادلية من خلف الجبل وجعلوا يغدون ويروحون خلف باب النصر من خارج وباب الفتوح والشيخ قمر والدمرداش ونهبوا الوايلى وجميع ماجاوره ودخلوا الدور وأخذوا ما فيها فخرج أهل تلك الجهات على وجوههم ودخلوا إلى القاهرة فرسم الباشا إلى محمد علىّ بالخروج فى عسكره فخرجوا من باب النصر وعملوا المتاريس عند الباب المذكور فتفرق العربان والأمراء فى إقليم الشرقية والقليوبية وسار منهم طائفة إلى بلبيس فحاصروا بها كاشف الشرقية يومين ثم دخلوها عنوة وقتلوا ونهبوا وقبضوا على

الكاشف واثنين من كبار العسكر ثم حاصروا كاشف القليوبية وأخذوا أحماله ومتاعه وتركوه بعد قتال فهرب بمن بقى معه إلى القاهرة وطلبوا مشايخ البلاد وألزموهم بالكلف وفردوا على القرى الفرد الشاقة وقيدوا بطلبها جماعة العربان فكان كل من استعظم الأمر أو عصى حاربوا قريته ونهبوها وسبوا نساءها وقتلوا أهلها وأحرقوا أجرانها فاشتد الكرب وعظم الخطب وسار محمد علىّ بعسكره خلفهم فوقعت بينه وبينهم وقائع وحروب مات فيها خلق من الفريقين ونزل من بقلعة الجبل من الأرنؤوط للقتال فصعد إليها أحمد خورشيد باشا الوالى وسكن فيها بخدمه وأتباعه وأخذ يتصرف فى الأمور ويقرر الكلف والأموال على البلاد فضرب على أهل مصر والقاهرة خمسة آلاف كيس نقرة منها على أعيان القبط وعظمائهم ألف وخمسمائة وجملة أخرى على الملتزمين وثمانمائة كيس على بقية نساء الأمراء المصريين الأحياء منهم والأموات فضج الناس وطلبوا التخفيف فلم ينالوه وطاف المعينون على بيوت نساء الأمراء يجمعون المقرر فكان إذا تأخرت إحداهن أو طلبت المهلة أياما لازموا بابها وطالبوها بما يأكلون وبما يشربون وبما يفرشون لجلوسهم ونومهم فلا يسعها إلا السعى والخلاص على أى حال كان ومع ما جمعه أحمد باشا من هذه الأموال الطائلة والمغارم الفادحة فإنه لم يلتفت لشكوى طوائف الأرنؤوط من تأخير صرف جماكيهم ولم يعطهم منها شيئا فذهب فريق منهم إلى محمد علىّ وأحمد بيك وكبارهم وشكوا إليهم فكلم محمد علىّ باشا فى أمرهم فلم يصغ لقوله وطال الحال عليهم وهم لا ينكفون عن الشكوى فلما كان أحد الأيام جاء منهم جماعة إلى القاهرة يطالبون بما لهم وتربص آخرون بنواحى بهتيم وبلقس ومسطرد بعد أن أخرجوا أهلها منها ونهبوا ما فيها من ماشية وغلال وغيرها وتترسوا فيها ونصبوا خيامهم على أسطحة دورها وعملوا بعض المتاريس خارجها ونصبوا عليها ما كان معهم من المدافع وكان إذا مر أحد رموا عليه بالبنادق فلم يجسر أحد من العسكر على الدنو منهم وسعت بينهم وبين أحمد باشا رسل الصلح فوعدهم بصرف جميع ما تأخر لهم فقالوا لا ننفك عما نحن فيه حتى تأتونا بالمال هنا فأصبحوا وقد أرسل الباشا أوراقا إلى الحرف والصنائع سموّها تشابيه بطلب غرامة قدرها خمسمائة كيس وطاف المكلفون بجمعها فى الأخطاط فضج الناس وتحزبوا وصاحوا فى وجوه أصحاب الجباية واجتمع الجمع الكثير منهم وساروا إلى الجامع الأزهر فتبعتهم الغوغاء والصبيان وهم فى ضجة عظيمة وأمامهم الطبول وشكوا أمرهم للمشايخ وقالوا قد بلغت الروح التراقى فلاطفهم المشايخ فلم ينكفوا عما هم عليه وصعد جماعة على منارات المساجد وصاروا يصرخون ويسبون وينادون بالويل والثبور على الباشا وأعوانه.

قال صاحب عجائب الآثار: وتحلقوا بمقصورة الجامع يدعون ويضرعون ويضجون «بيالطيف» وأغلقوا جميع الأسواق والحوانيت ووصل الخبر إلى الباشا وسمع صياحهم وضجيجهم من قلعة الجبل فأرسل يقول إلى السيد عمر النقيب قد رفعنا الفردة عن الفقراء فبلغهم ذلك فأرسل يقول إن الجميع فقراء أو ما كفى ماهم فيه من القحط والغلاء والوباء وعدم الأمن على الأعراض والأرواح حتى تطالبوهم بجوامك عسكركم فأمر الباشا الأغا فنزل ومعه عدّة من العسكر وجلس بالغورية وهو يأمر الناس بفتح الحوانيت ويتوعد من يتخلف فلم يلتفتوا لقوله وكان كلما شدّد معهم فى القول صاحوا فى وجهه وضجوا وابتهلوا إلى الله ومازالوا على هذا الحال حتى جاء رسول من عند الباشا ومعه مرسوم بإبطال تلك الفردة وكف المعينين عن طلبها فسكنت عند ذلك الفتنة وتفرقت تلك الأحزاب وأصبحوا وقد فتحوا الحوانيت فعاد طوائفة الأرنؤوط إلى المطالبة بجماكيهم وأكثروا من العبث فى المدينة وقطع من كان منهم مخيما ببلقس الطرق على المارة ومنعوا السفن فسير الباشا جماعة من العساكر المصرية لقتالهم فلم يبلغوا منهم مأربا وانحاز المصريون إلى ناحية شلقان بمن معهم من الجرحى والموتى فكانوا كثيرين جدا وأخرج فى هذه الوقعة عابدى بيك أخى طاهر باشا.

وبينما كانت طوائف الأرنؤوط تطالب بالمتأخر من جماكيها وعلوفاتها كان الأمراء المصريون ومن معهم يحاولون الدنو من مصر والقاهرة ويقبضون على من يصادفونه من الجند والرعية ويسلبون المارة ووصلت بعض طلائعهم من عربان ومماليك إلى خارج باب النصر وظاهر الحسينية وناحية الزاوية الحمراء وجزيرة بدران جهة الحلى وعاثوا فى تلك النواحى وحالوا بين من خرج من عسكر الباشا لقتال الأرنؤوط وبين معسكرهم وظفروا بهم ونالوا منهم وأخذوا جميع ما كان معهم من مؤنة وسلاح وذخيرة وجاء الخبر بذلك إلى الباشا فنزل من قلعة الجبل ومعه الجمع الكثير من الجند وسار إلى بولاق ثم إلى الزاوية الحمراء وأمر بأبواب المدينة فأغلقت وقاتل من وجده منهم فلم يظفر فرجع على غير طائل وقد ترفع المصريون إلى مشتهر وبنها العسل ومعهم المنهوبات من متاع وماشية وغير ذلك وخرج خلفهم محمد على سرجشمه وحسن بيك حتى وصلوا إلى قليوب فلم يظفروا بهم ورجعوا على أعقابهم إلى القاهرة وأرسل فى هذا الحين الألفى الكبير إلى الباشا يطلب منه الإجازة بحضوره إلى مصر وأنه على ما يعهده فيه من الإخلاص والولاء فأبى عليه ذلك وأرسل إليه يقول إن كنت على ما عهدناه فيك من الولاء فالزم مقرك بجرجا

التى قد أقطعناها إليك ولا تقدم إلى القاهرة فى هذا الحين حتى نستقدمك عند الحاجة فلم يذعن الألفى لقوله وزحف هو وعثمان بيك حسن ومن معهما من المماليك والأتباع وبعض الجند والكشاف فوصل الألفى إلى بنى سويف ووصل عثمان بيك قبالته بالجانب الشرقى من النيل وأرسل الألفى عند وصوله خطابا إلى المشايخ يقول: قد حافظنا على ولائنا واستمسكنا بعروة الإخلاص الوثقى ولازمنا ما أقطعنا إياه الباشا من البلاد ولم نتعدّها إلى الآن أما وقد مس نساءنا الضر وأصبحت ذرارينا عرضة للتشريد بما ضرب عليهم من المغارم والكلف فلم نر بدّا من الانحدار إلى القاهرة رغما عن كل ممانع حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا فلما وصل الخطاب إلى المشايخ خافوا من كتمانه وأطلعوا الباشا عليه وسألوه الإجازة للألفى فأباها عليه وقال: قد كان نساؤهم بين ظهرانينا كما كانوا بين ظهرانى الفرنسيس وقد صادورهن وهم أعداء الدين واليوم هن معنا فى قرار مكين لا خوف عليهن ولا تضييق فإن عاد الألفى ومن معه إلى مقرهم سعينا فى إصلاح شأنهم وأرجعناهم إلى عيالهم وإلا شردناهم وعملنا على قطع شأفتهم فانصرف المشايخ وأمر الباشا محمد علىّ سرجشمه فخرج بعسكره إلى ناحية الإمام الليث وحفروا هناك خندقا وعملوا متاريس وبالغوا فى إحكامها وترتيبها وأكثروا من إخراج الأسلحة وآلات الحرب وكان العدو أمامهم وقد سدّ على مصر والقاهرة من الجانبين القبلى والبحرى؛ فكان أصحاب إبراهيم بيك والبرديسى وطوائف الأرنؤوط يعيثون فى البلاد من شلقان إلى جوف الشرقية والغربية والمنوفية وجماعة الألفى يعيثون فيها من الصعيد الأعلى إلى الجيزة وما جاورها فعمت الفوضى وارتفع الأمن وخيفت المسالك وكثر القتل والنهب فى الليل والنهار وانضم الجمع الكثير من طوائف الأرنؤوط إلى الأمراء المصريين فتقوت بهم عزائمهم وتطاولت أيديهم إلى كل فساد وشر ووصل أيضا الألفى الصغير بطوائفه إلى انبابة وأراد الزحف على المدينة فأطلق عساكر محمد على عليهم المدافع من بولاق القاهرة ومراكب البحر ومنعتهم من الدنو من المدينة واشتدت الأزمة واستحكمت على من بمصر والقاهرة حلقاتها وكثر تطير الباشا وأخذه للناس بالشبهات فأكثر من الحبس والقتل بأضعف الأسباب حتى كادت تزول هيبته وتضعف كلمته وانتقل محمد على بعسكره إلى بلدة طنط جهة براشيم التين وخلفه ببولاق حسن بيك وعسكره فوقع بين محمد علىّ والأمراء المصريين مقتلة عظيمة انجلت عن هزيمة المصريين فترفعوا بعد الهزيمة عن براشيم التين فتبعهم

بعساكره فترفعوا فعسكر تجاه البراشيم ولبث أياما ثم انحدر منها إلى القرافة بمصر ونزل على مقام عقبة بن عامر الجهنى وقاتل من كان بتلك الجهة من أصحاب الألفى الكبير والصغير وأجلاهم عنها فساروا إلى طرا وتحصنوا بها وكانوا قد أخذوا برجها وتمكنوا مما حوله فكاتبهم محمد علىّ وطلب صلحهم وخدعهم وأظهر لهم عجزه عن قتالهم فاغتروا وأبوا إلا القتال فأتى محمد على ليلا إلى الباشا وأخذ منه قدرا من المال ورجع إلى أصحابه فأنفق عليهم فتقوت عزيمتهم فلما كانت الساعة الخامسة من تلك الليلة ركب محمد علىّ فى نحو أربعة آلاف ما بين فارس وراجل وساروا حتى اقتربوا من حرس العدو فى آخر السادسة فترجلوا وقسموا أنفسهم إلى ثلاث طوائف طائفة سارت نحو الدير وطائفة سارت نحو المتاريس والثالثة نحو الخيل وقد كان صالح بيك الألفى الصغير ومن معه فى سنة من النوم فلم يشعروا إلا وقد صدموهم صدمة شديدة فاستيقظ القوم وبادروا إلى الهرب والنجاة فأخذ أصحاب محمد علىّ الدير وملكوا الأبراج وكان بها العساكر العثمانية وقد أشرفوا على الاستئمان والتسليم وغنموا ما وجدوه من أسلحة وخيل وهجن ومتاع وكان شيئا كثيرا وعاد محمد على عند بزوغ الفجر بعساكره ومعه خمس رؤس وصعد إلى قلعة الجبل بالرءوس فخلع عليه الباشا فروة سمور وعلقوا تلك الرءوس على سبيل الرميلة فلم تكن إلا أيام حتى عاد الألفى يشن الغارة على طرا وأبراجها وكذلك عاد إبراهيم بيك والبرديسى وعسكرهما يشنون الغارة على قليوب وبنها وضواحى القاهرة جميعها، فلما كان يوم الأحد عاشر ربيع الثانى خرج محمد علىّ بعسكره وكذلك خرج عابدى بيك وحسن بيك إلى شبرا وقاتلوا حسين بيك المعروف بالأفرنجى قتالا عنيفا وثابروا على رمى القنابل إلى ضحوة النهار ثم التحم الفريقان واشتد الجلاد بينهما إلى ما بعد نصف النهار، وصبر الفريقان وقتل بينهما خلق كثير من الأرنؤوط وطوائف المماليك وأكابر العسكر ثم إنحاز كل إلى معسكره، وبعد هجعة من الليل اجتمع العسكر من طوائف الانكشارية والأرنؤوط وغيرهم وزحفوا على متاريس حسين بيك الأفرنجي وكبسوها وكان بها حسين بيك وعلى بيك أيوب وعدد كثير من الجند والمماليك ولم يمهلوهم حتى زحفوا على بقية المتاريس فملكوا منها متاريس شلقان وبسوس وانهزم المصريون وارتحلوا إلى الخانكة وأبى زعبل ثم عادوا فجمعوا من تشرد منهم وساروا من خلف المقطم إلى الصعيد .

وبعد أيام من وقوع هذه الحوادث سافر أخو طاهر باشا إلى الديار الرومية

وشاع الخبر بارتحال محمد على سر جشمه كذلك فتطير الناس من ذلك وأعقب هذه الإشاعة عبث العسكر بالأهالى وتطوافهم فى الأسواق يخطفون ما يشاون من السوقة وأصحاب الحوانيت فضلا عن النساء وغيرهم، فلما كان ثانى يوم مر محمد على وخلفه عدة كبيرة من العسكر وهو ماش على أقدامه وأمامه المناداة بالأمان وعود الأمور إلى سابق مجراها فلم تطمئن قلوب الرعية بل زادوا فى التحذر، وكذلك تحذر طوائف الانكشارية لتعدى جماعة الأرنؤط عليهم وقتل بعضهم البعض فى الطرق والشوارع وفى وسط الأسواق جهارا ثم برز محمد على بعد أيام بعسكره إلى ناحية البساتين ولبث بها أياما والمناداة فى كل يوم فى جميع العسكر بالخروج والاستعداد لقتال الأمراء المصريين، فلما كان يوم السبت رابع عشر شعبان سار محمد علىّ بعسكره إلى الصعيد، وسار آخرون أيضا إلى الأقاليم البحرية فالتقى محمد علىّ بالألفى الكبير ولمومه عند منية ابن خصيب فوقع بينهما القتال وانتشبت الحرب وطالت أيامها فى البر والبحر وطلب محمد على المدد من الباشا فأمدّه وسير إليه كثيرًا من الأسلحة ومعدّات القتال والمؤنة وانتشرت عساكر الأمراء المصريين حتى وصلت إلى زاوية المصلوب وحاصروا من كانوا فى بوش والفشن وبنى سويف وكذلك من بالفيوم ووصلت مقدّماتهم إلى ناحية الجيزة وطلبوا من أهالى تلك البلاد الكلف وضربوا عليهم المغارم كعادتهم وجبوها وأخذوا ما وجدوه فيها من غلال وغيره، فعبر كتخدا الباشا النيل إلى الجيزة وحصن حدودها وعمل فيها المتاريس والخنادق ورتب بها الجند المرابطين، وبعد قتال عنيف بين الألفى ومحمد على أياما كثيرا ارتحل الألفى عن منية ابن خصيب وترفع فدخلها محمد على بعسكره فلم يجد فيها شيئا لا من الذخيرة ولا من المؤنة فاستقر بها حتى يأتيه أمر الباشا، وطال القتال وقوتلت مصر والقاهرة من جميع الجهات واشتد الكرب وعم الهول والخطب فشكا الباشا أمره إلى الباب العالى وطلب منه المدد فأمدّه بطائفة من الدلاة فدخلت إلى القاهرة من العادلية فى سابع عشرى ذى الحجة ختام سنة تسع عشرة ومائتين وألف وهم فى عدة وافرة ومعهم مقدم اسمه ابن كور عبد الله فأنزلوهم ناحية الفسطاط والآثار وناحية البساتين، واهتم الباشا بأمرهم فرتب لهم الجماكى الكثيرة والعلوفات الزائدة وبالغ فى تنظيم أمورهم وأكثر لهم من الأسلحة والكراع وجعل ينظر لكل طائفة من الأرنؤوط والانكشارية وغيرهم دونهم من الأهمية والاهتمام، فلما علم محمد على وحسن باشا وهما فى منية ابن خصيب بخبر حضور أولئك الدلاة إلى القاهرة واهتمام الباشا بأمرهم وركونه إليهم دون بقية الجند وتقرب كبيرهم منه

ووثوقه به تطيرا من ذلك وأدركا ما خفى من نوايا الباشا وخشيا العاقبة فانسحبا بعسكرهما من منية ابن خصيب ورجعا إلى القاهرة فأغضب الباشا رجوعهما وجمع إليه المشايخ والوجاقلية وأرباب الديوان وكلمهم فى أمر رجوع محمد علىّ وحسن باشا بغير إذن وتركهما القتال وقال: إنهما لم يرجعا إلا لامر ينويان فعله فما أن يرجعا لقتال الأعداء وإما أن يرحلا إلى بلادهما، قال: وقد أتانى كتاب بخط السلطان يفوض إلىّ فيه أن أولى من أشاء وأعزل من أشاء وأعطى وأمنع من أشاء فالمصلحة فى أن تبقوا عندى مع كبار الوجاقلية حتى نرى ما يكون من وراء ذلك ثم رسم بخروج العسكر الدلاة المذكورين فخرجوا إلى طرا والجيزة ومعهم بعض الانكشارية والأرنؤوط ومعهم المدافع وآلات الحرب والذخيرة والمؤنة فلم يكن بأسرع من أن نزل محمد علىّ وحسن باشا بعسكرهما إلى طرا فلم يجسر الدلاة على ردّهم ولبثوا بطرأ أياما ثم صاروا يدخلون المدينة خفية حتى تكامل دخولهم ودخل كذلك محمد علىّ وحسن باشا ونزلا فى بيوتهما فازعج دخولهما الباشا وأغضبه جدا ومنع المشايخ والوجاقية من الذهاب إلى محمد على، فقامت من هذا الحين الوحشة بين الباشا ومحمد على وظهرت على كل منهما دلائل الانقباض وتحذر كل من صاحبه فأخذ محمد على فى التدبير على أحمد باشا وخلعه من الولاية، وكذلك بدأت الوحشة بين جماعة الأرنؤوط والدلاة والانكشارية فكانوا على طرفى نقيض وكانت لا تمر ساعة من النهار إلا ويقع التشاحن بين أفرادهم فى الحوارى والطرقات، وزاد بهم الحال إلى حد القتل وتعدى فعلهم هذا إلى المارة وأبناء السبيل وازدحمت طرق مصر والقاهرة باخلاطهم، وعاث الدلاة بمصر القديمة فأخرجوا أهلها من دورهم وسكنوها بما فيها من أثاث ومتاع فخرج أهل مصر رجالا ونساء وجاؤا إلى الأزهر وصاحوا على المشايخ واستغاثوا، فكلم المشايخ الباشا فى ذلك فرسم بخروج الدلاة على الفور وكتب مرسوما بذلك فلم يسمعوا قوله ولا أعاروه جانب الاعتبار فخوطب الباشا ثانيا فلم يأت شيئا فاجتمع العدد العديد من الصبيان الصغار وطافوا يصيحون فى الأسواق ويأمرون الناس بغلق الحوانيت ويستصرخونهم، فقام الناس على ساق وقدم ووصل الخبر بقيامهم إلى الباشا فأرسل كتخداه إلى الجامع الأزهر فلم يجد به أحدا من المشايخ فسار إلى بيت الشيخ الشرقاوى فرأى من تزاحم العامة وتطوافهم بالشوارع والطرقات ما أزعجه فرجع فرجمه الصبيان بالأحجار وسبوه ولعنوه وبقيت الحال كذلك إلى يوم الجمعة عاشر صفر.

(مطلب)

(ولاية محمد علىّ على جدة وتوجيه رتبة الباشوية إليه وماجرى بسبب ذلك من الحوادث والمحن)

واتفق أن قدم فى هذا الحين قاصد من دار السلطنة ومعه تقليد لمحمد علىّ بولاية جدة فاستدعى إلى قلعة الجبل ليتسلم التقليد فأبى وتأخر فترددت الرسل بينه وبين الباشا، ومحمد على يشدّد فى الامتناع وكأنه كان يخشى صعوده إلى قلعة الجبل أو هو يكره الولاية على جدة ولايرضاها وبعد أخذ وردّ وقع الاتفاق على أن ينزل أحمد باشا من القلعة إلى بيت سعيد أغا ويخلع على محمد علىّ خلعة التقليد هناك فكان نزلوه فى ذلك اليوم الذى قام فيه العامة، فلما مر بين صفوف الغوغاء وزحام العامة صاحوا فى وجهه وقالوا «مايحل لك ياباشا» فهاله أمرهم وأسرع بالدخول إلى بيت سعيد أغا وحضر محمد علىّ وحسن باشا وعابدى بيك فقرئ عليهم فرمان التقليد وقد خوطب فيه« بمحمد علىّ باشا» ثم قام أحمد باشا وخلع عليه خلعة التقليد وهى فروة وقاووق فلبسهما وركب يريد الانصراف فثار عليه العساكر وطالبوه بالجماكى والعلوفة فأحالهما على أحمد باشا، وسار إلى داره بالأزبكية وخلفه بعض خواصه وجماعة من أتباعه فكان ينثر قطع الذهب ودراهم الفضة بطول الطريق ووقف العسكر لأحمد باشا ومنعوه من الركوب فلاطفهم حسن باشا ومناهم ولم يتمكن أحمد باشا من الصعود إلى قلعة الجبل إلا بعد منتصف الليل، وظلت الحوانيت والأسواق مقفلة والصبيان لا ينكفون عن الصياح فى الشوارع والطرقات والاستغاثة والنداء « بيالطيف».

مطلب

ما فعله العامة والشيخ الشرقاوى والسيد عمر النقيب مع محمد باشا

فلما كان يوم الأحد ثانى عشرة ركب المشايخ إلى بيت القاضى واجتمع به جماعة من المتعممين والعامة والصبيان وجعلوا يصرخون ويصيحون «شرع الله بيننا وبين هذا الباشا الظالم» قال بعض كتاب الأخبار: مع أنه لم يكن كاسلافه كثير الظلم والجور والعسف ولاسفاكا للدماء ومع ذلك فقد كثر الصياح وعلا الضجيج فكان منهم من يقول: يالطيف، ومنهم من يقول: يارب يامتجلى أهلك طائفة العثمانلى، ومنهم من يقول: حسبنا الله ونعم الوكيل وغير ذلك وطلبوا من القاضى

أن يرسم بإحضار أصحاب الحل والعقد من بطانة أحمد باشا لمجلس الشرع فاستحضروا وجلسوا بالمجلس الشرعى ووقع الجدال فاتفقوا على تحرير ورقة بجميع طلبات الرعية، ففعلوا ذلك وذكروا فيها تعدى طوائف العسكر والإيذاء منهم للناس وإخراجهم من مساكنهم والمظالم والفرد وقبض الخراج معجلا وحق طرق المباشرين ومصادرة الناس بالدعاوى الكاذبة وغير ذلك وأخذوا هذه الورقة معهم ووعدوا القاضى بالجواب فى غد، فأرسل الباشا فى تلك الليلة إلى القاضى والمشايخ يستقدمهم إليه بقلعة الجبل فاشتوروا فى أمر ذهابهم فعلم محمد عليّ باشا بذلك وخاف أن يكون بذهابهم إلى الباشا خمود نار الفتنة وتفريق تلك الجموع، قال أصحاب الأخبار: وهذا لا يوافق مصلحته، فأرسل إلى القاضى والمشايخ من يعلمهم بأن الباشا يريد الفتك بهم إن صعدوا إلى قلعة الجبل فخافوا ولم يصعدوا إليه فى تلك الليلة، فلما كان يوم الاثنين اجتمعوا ببيت القاضى وكذلك اجتمع العدد العديد من الغوغاء والعامة فمنعوهم من الدخول وأقفلوا الأبواب وحضر بعض الأمراء فركبوا جميعا وساروا إلى محمد عليّ باشا بمقرّه وخلفهم العامة والصبيان فى صياح وضجيج فدخلوا عليه وقد كان على علم بما هم فاعلوه وقالوا له: إنا لا نريد أن يكون أحمد باشا واليا علينا وقد اجتمعنا اليوم لخلعه فإن أطاع نجا وإن خالف عاملناه بما كسبت يداه، فقال: ومن تريدون؟ قالوا: قد اخترناك بدلا منه بشروط، قيل: فامتنع فألحوا عليه وأكثروا من الإلحاح فرضى فأحضروا فروة سمور وقفطانا وكان السيد عمر النقيب قد أعدّهما فألبسه إياهما هو والشيخ الشرقاوى وذلك عند عصر يوم الأربعاء سادس صفر سنة عشرين ومائتين وألف هجرية، ثم طاف المنادون بذلك تلك الليلة فى جميع أزقة وحارات وشوارع القاهرة ومصر وأصبحوا وقد سيروا إلى أحمد باشا يخبرونه بذلك ويطلبون منه أن ينزل من قلعة الجبل فلم يهمه الأمر ولم يكترث به وركب المشايخ فى الصباح ومعهم الجم الغفير من العامة وبأيديهم القرابين والعصى والمساوق وساروا إلى بركة الأزبكية حيث بيت محمد على باشا وضجوا وصاحوا ونادوا بالويل على أحمد باشا وزادوا فى سبه ولعنه والسيد عمر النقيب يحرّض الناس ويشجعهم على ماهم عليه من الجلبة فتحصن الباشا بقلعة الجبل وشحنها بالذخيرة والمؤنة والأسلحة الكثيرة وانضم إليه عمر بيك الأرنؤدى وصالح أغا قوش بعساكرهم وأقاموا معه بقلعة الجبل فأرسل محمد علي باشا إلى عمر بيك وصالح أغا جماعة يذكرون لهما ما اجتمع عليه رأى الجمهور من عزل أحمد باشا وخلع طاعته من أعناقهم ويحذرهما من فعل شيء ينجم عنه خروج الرعية وفعل مالا خير فيه فأرسلا يقولان أرونا سندا شرعيا نرتكن

عليه فى التخلى عنه، فاجتمع المشايخ وجميع العلماء فى يوم الخميس سادس عشر صفر ببيت القاضى ونظموا سؤالا وكتب عليه المفتون بالعزل وأرسلوه إليهما فلم يقبلاه واستمرا على الخلاف فلم يلبثا طويلا حتى انحل عن الباشا طوائف الانكشارية وزاد هياج الرعية وأكثروا من التطواف ليلا ونهارا وهم ينادون بتنزيل أحمد باشا من قلعة الجبل واستفحلت الفتنة وتطاير شررها إلى القرى والأرياف فجاء الجمع الكثير من أهلها ودخلوا إلى القاهرة واختلطوا بالعامة، وقيل: استقدموا الشيخ الشرقاوى والسيد عمر النقيب لتعميم الفتنة وتعظيم أمرها ولازموا التطواف مع العامة والصياح والجلبة .

وقدم فى هذه الأثناء محمد بيك الألفى ومن معه من الأمراء والعسكر والعربان وانتشروا جهة الجيزة واستقر الألفى بالمنصورية على مقربة من الأهرام وانتشرت أتباعه جهة الجسر الأسود وأرسل مكاتبة إلى السيد عمر النقيب والشيخ الشرقاوى ومحمد على باشا يطلب أن يقرروا له جهة يتخذها مقرا له هو وأتباعه فكتبوا له أن يختار من البلاد ما يشاء ويتأنى حتى تسكن الفتنة القائمة بمصر وشدّدوا على أحمد باشا الطلب فلم يلتفت إلى قولهم فجعل السيد عمر يحض العامة على الاجتماع والتطواف وركب هو والمشايخ إلى بيت محمد على باشا ومعهم أرباب الأشاير ومشايخ الطرق والعامة والملتزمون وبأيديهم الأسلحة والعصى والمساوق والنبابيت ولازموا التطواف ليلا فى الشوارع والحارات أحزابا وطوائف ومعهم المشاعل وهم فى ضجيج هائل ثم رسم محمد على باشا بمحاصرة قلعة الجبل وفرق عساكره فى جهات الرميلة والحطابة والطرق النافذة مثل باب القرافة والحصرية وطريق الصليبة وجلست طائفة منهم بالمحمودية والسلطان حسن وأنشؤا المتاريس فى تلك الجهات ومنعوا من يصعد أو ينزل من قلعة الجبل فأغلق عند ذلك أهل القلعة الأبواب ووقفوا على الأسوار يسب بعضهم بعضا ويترامون بالبنادق، وصعد جماعة من عسكر محمد علىّ باشا على منارة جامع السلطان حسن وصاروا يرمون منها إلى القلعة رميا متتابعا ومازالوا على هذا الحال إلى ثانى عشرى صفر فركب السيد عمر النقيب والمشايخ ومعهم الجمع الكثير وساروا إلى الأزبكية ودخل المشايخ بيت محمد على باشا ووقف الجمع أمام البيت فلحق بهم العامة والعصب وطوائف الجند والملتزمين وعصب خارج المدينة وأهل الحسينية والعطوف والقرافة والرميلة والحطابة والصليبة ومعهم الطبول والبيارق فوقفوا ساعة ثم رجعوا إلى الجامع الأزهر، ثم عادوا إلى الازبكية وهم فى صياح وضجيج والسيد عمر النقيب والشيخ الشرقاوى يحضانهم على الهياج والصياح ثم خرج المشايخ من بيت محمد على باشا وذهبوا

إلى بيت حسن باشا أخى طاهر باشا ثم رجعوا واستمر الحال على هذا الوصف إلى ليلة الجمعة، فلما كان بعد الغروب بقليل نزل جماعة من العسكر الذين بالقلعة من ناحية الرميلة وهجموا على المتاريس فصدّهم أصحابها وتابعوا عليهم الرمى بالقنابل والبنادق وهكذا إلى ما بعد العشاء الأخير، وخرج الأهالى بما معهم من الأسلحة والعصى فقاتلوا مع أصحاب المتاريس حتى أجلوا أصحاب القلعة عن المتاريس، فلما كان يوم الجمعة رابع عشرى صفر المذكور صعد عابدى بيك إلى قلعة الجبل وغاب ساعة ثم فتحت أبوابها ونزل منها عمر بيك وأمروا بالمتاريس فرفعت وتفرق من كان بها من المقاتلين وشاع خبر نزول أحمد باشا ولبثوا ثلاثا وهو لا ينزل وقد كانت خدعة منهم إذ كانوا قد أشرفوا على الاستثمان لفراغ ما عندهم من الذخيرة ونفاد ما كان معهم من الزاد ففعلوا ما فعلوه بوساطة عابدى بيك حتى تمكنوا من نقل المؤن والذخيرة وغيرها فى بحر هذه الهدنة وأنزلوا عابدى بيك أو هو نزل بنفسه وعادوا إلى الخلاف وامتنعوا من ترك القلعة وأغلقوا الأبواب فزاد بالناس القلق والغم وعادوا إلى التطواف، وقيل: بل أعادهم السيد عمر النقيب إلى ما كانوا عليه من الهرج والصياح والاستغاثة واستقدم السيد عمر الجمع الكثير من قبائل عربان الشرق والغرب وأخذ محمد على باشا فى حصار القلعة من بعد عشاء ليلة الثلاثاء وكثر الاهتمام فى صبحها بذلك وجمعوا الفعلة وأصعدوا جماعة من الجند والعربان وغيرهم إلى المقطم وأصعدوا بعض المدافع ورتبوا لهم عدة جمال لنقل الاحتياجات والخبز وروايا الماء وظنوا الظفر بأحمد باشا ومن معه وبينما هم على هذا الحال من الاهتمام فى أمر الحصار والتضيق على أصحاب القلعة إذ تحرك العسكر وطالبوا محمد على باشا بالعلوفة والجماكى المتأخرة فطاولهم حتى ينزل أحمد باشا من القلعة فأبوا إلا أخذ مالهم فمناهم فتركوا المتاريس التى كانوا بها حوالى القلعة وتفرقوا فذهب جماعة من العامة وأهل العطوف فتترسوا فى مواضعهم ورسم السيد عمر النقيب فانحاز أهالى كل خطة إلى خطتهم وعملوا المتاريس على رؤس الحارات والشوارع ولازموا التطواف نهارا والقيام باخطاطهم ليلا فتقوى أصحاب قلعة الجبل وتراسلوا الرمى بالقنابل على المتاريس ففعلت بالمدينة والخطة القريبة منها فعلا رديا جدا ونزح أهلها إلى الأطراف فرارا، وكما كان جوف مصر والقاهرة يلتهب بنار الفتنة ويزداد فى كل يوم ضراما كانت البلاد فى ضيق ما عليه من مزيد بسبب فعال الألفى الكبير ومن معه من العربان، فقد أفحشوا فى القتل والنهب والتخريب بما لم يسمع له مثيل ولا وقع له نظير فنزح الناس عن البلاد وهرعوا إلى مصر والقاهرة وهم فى أسوء حال، فامتلأت بهم الأزقة فكانوا لا يجدون ما يأكلون ولا ما يشربون

ومات منهم العدد العديد جوعا وعريا تحت أقدام الثائرين من العسكر والأهالى وكان المنظر فظيعا والخطب عميما، وخاف محمد على باشا من سوء العاقبة فأرسل إلى كبار عسكر الدلاة المعسكرين بقليوب يستقدمهم فحضروا إليه فكلمهم فى أمر الانضمام إليه فوافقوه فخلع عليهم الخلع السنية وأنفق عليهم وسيرهم لقتال الألفى فارتحلوا إلى قليوب خلف الألفى فصاروا كلما نزلوا ببلدة طلبوا من أهلها الكلف والمغارم وساموهم الخسف وعملوا معهم مالم تعمله لموم الألفى فكانوا أشدّ هولا وأقوى نكالا وتقاعسوا فلم يلحقوا بالألفى.

واشتدّ الخطب على من بمصر والقاهرة وطالت أيام الفتنة وتمنع الباشا وأصحابه بقلعة الجبل وأبو التسليم وأهل البلد فى هياج وصياح وجلبة وكان بجهة الفسطاط من مقدمى عسكر الأرنؤط مقدم اسمه على باشا السلحدار قد خرج بعسكره عن مخالفة محمد على باشا بأسباب الجماكى والعلوفة فعمل على باشا المذكور على الوصول بأحمد باشا الوالى بقلعة الجبل ومازال حتى تمكن من نقب سور القلعة من ناحية عرب اليسار وسعت بينه وبين أحمد باشا الرسل وصار يمدّ أحمد باشا وأصحابه بالذخيرة والمؤنة من الميرة والأغنام وقرب الماء وكل ما يحتاجونه إليه ولبث على هذا الحال أياما ثم دبر هو وأحمد باشا على الهجوم على المتاريس ليلا من ناحية الصليبة وأن أصحاب القلعة يوالون فى وقت الهجوم إطلاق القنابل على المتاريس من ناحية الأزبكية وجامع الأزهر وجوف المدينة وقد تم الأمر بينهما على ذلك فأصبحوا وقد أرسلوا إلى السيد عمر النقيب يخادعونه ويطلبون السعى فى إطفاء نار الفتنة وعمل ما فيه المصلحة للأهالى والجند، قيل: وأرادوا بذلك تثبيط همم أصحاب المتاريس وإشغالهم بأمر الصلح عن الدفاع فسبق من أعلمهم بسرهم وما عقدوا النية عليه فأرسل السيد عمر إلى أصحاب المتاريس من الأهالى والجند وكذلك أصحاب الأربطة وحثهم واستنهض هممهم وحذرهم فاستعدوا وراقبوا فرأوا الجمال التى تحمل الذخيرة الواصلة من على باشا إلى القلعة ومعها بعض الخدم والأتباع ونفر من الجند، فخرج عليهم حجاج الخضرى زعيم عصابة الرميلة بمن معه من سكان الرميلة فقاتلوهم وظفروا بهم وأخذوا منهم تلك الجمال وقتلوا اثنين وقبضوا على ثلاثة وحضروا بهم إلى بيت السيد عمر النقيب فبعث بهم إلى محمد علي باشا فأمر بهم فقطعوا رقابهم فلما علم من بقلعة الجبل ماحل بأصحابهم رموا فى الحال بالقنابل على المدينة وبيت محمد على باشا وبيت حسن باشا وناحية الأزهر ووالوا الرمى ولم يزالوا على هذا الحال من أول النهار إلى ما بعد الظهر، ثم عادوا

ورموا من العشاء إلى سادس ساعة من الليل فلم يجبهم أحد من أصحاب المتاريس ولا المرابطين بالمقطم وأصبحوا يوم الأحد وهم يتابعون الرمى طول النهار، وكذلك ليلة الاثنين ويوم الاثنين إلى يوم الخميس بطل الرمى ثم عادوا إليه يوم السبت وقد تهدم العدد العديد من الدور والرباع بخط الأزهر وعلى مقربة من الأزبكية فنزح أهل خطة الأزهر إلى بولاق القاهرة والحسينية فرارا من النيران المتراسلة على دورهم، واتفق أن حضر من الإسكندرية فى هذه الأثناء طائفة من عسكر الإنجليز ونزلوا ضيوفا عند قنصل دولتهم فكانوا يجتمعون كثيرا بمحمد على باشا ولبثوا على هذا الحال أياما ثم طافوا يوما مع عسكر محمد على باشا بالمدينة والفسطاط وحول الأسوار وقلعة الجبل، وكان بناحية قلعة الفرنسيس التى بقنطرة الليمون مدفع كبير فرسم محمد على باشا بنقله فنقلوه إلى باب الوزير حيث مجرى السيل وقيدوا به جماعة من أولئك الإنجليز فرموا به على برج القلعة وكذلك رمى المرابطون بالجبل وتتابع الرمى وتراسلت القنابل فخربت وأحرقت وأبادت وأهلكت وفعلت بالناس والمبانى مالا يمكن وصفه واشتد الكرب بالناس وعم الويل والبلاء الرفيع والوضيع فنزح الناس إلى القرى والكفور وأكثر المشايخ والعلماء والوجهاء من الاجتماع بمحمد على باشا والعامة وقوف بأبواب المشايخ يضجون من قفل الأسواق وامتناع باعة الخبز من فتح دكاكينهم والمشايخ يلاطفونهم والسيد عمر النقيب لا ينكف عن تحريضهم خوفا من سكون الفتنة وإخماد نارها قبل بلوغ محمد على باشا ما يتمناه من الولاية على الديار المصرية وكان لما اجتمع المشايخ والعلماء والوجهاء ونادوا بولاية محمد على باشا وألبسوه القاوون والقفطان كتبوا بذلك محضرا وأرسلوه إلى الباب العالى وتقدموا إلى السلطان فى تولية محمد على باشا على ولاية مصر وألحوا فى الطلب وبالغوا فى الشكوى من فساد الأمور وما تقاسيه الرعية بأسباب مظالم الولاة وتصرفهم بالعسف والفجور وقبحوا مسالك أحمد باشا الوالى وطلبوا خلعه.

مطلب

خلع أحمد باشا وولاية محمد على باشا

فلما كان يوم الاثنين رابع ربيع الآخر سنة عشرين ومائتين وألف هجرية قدم رسول من دار السلطنة بفرمان الولاية إلى محمد على باشا وشاع خبر وصوله إلى بولاق فهرع المشايخ والعلماء وأصحاب الوظائف للقائه وتسابق العامة وكثرت الغوغاء فى الشوارع والطرقات وبأيديهم السيوف والمساوق والعصى وهم فى ضجيج

هائل وصياح متتابع، فركب رسول السلطان وركب خلفه المشايخ وأرباب الوظائف وساروا فسار العـامة أمامهم وهم يضربون الطبول والزمور ويضـجون بكلماتهم التى تعودوا على الـضجيج بهـا وما زالوا حتى أتـو الأزبكية فنزل رسول السلـطان ببيت محمد على باشـا وأقام برهة لطيفة ثم أمر فانتظم المجلس وحـضر المشايخ والعلماء كافة والوجهاء وأربـاب المناصب العالية والوجاقلية وكثر الجمع فـقرئ الفرمان فكان يتضـمن الأمر بخلع أحمـد باشا من منصب الولاية وتوجيـه إلى محمـد على باشا اعتبـارا من اليوم العشرين من ربيع الأول سنـة عشرين ومائتين وألف هـجرية إجابة لطلب المشايخ والعلماء والأعيان، وأن أحمـد باشا الوالى ينجلى عاجلا عن القاهرة إلى مدينة الإسكندرية ويبقى بها حتى يأتيه أمـر السلطان فما أتم القارئ كلامه حتى ضج الناس بالدعاء للسلطان وعلت أصواتهم واشتـدت بينهم الجلبة ولبثوا على هذا الحال ساعة ثم انصرفوا وباتوا وأصبحـوا ورمى القنابل من قلعة الجبل متتابع وكذلك من الأبراج والمعاقل والمـتاريس ثم بطل الرمى بعد ظهـر اليوم وبقى المحـاصرون لا ينفكون عن حصارها ومـنع الواصل إليها وأرسلوا إلى أحمد باشـا صورة ماودر من السلطان من أمر خلعه وتوليـة محمد على باشا وطلبـوا منه أن ينزل من قلعة الجبل ويرحل إلى الإسكندرية فامتنع وطلب الاجتـماع برسول السلطان فلم يرض الرسول وأبى الاجتماع به، فاجتمع المشايخ والعلمـاء والوجهاء وذهبوا إلى محمد على باشا وقالوا له: ما بالك لا تدع عن الرعية حمل السلاح وقد توليت الأمر فأعمل بتدبيرك على إخراج أحمد باشا من القلعة واقـبض على زمام الأمور فنحن من اليوم رعيتك وقد تركنا لك الحل والعقد فتصرف، وأصبـحوا وقد فتحوا أبواب الأزهر بعد غلقها أياما وطاف الوالى ومعه جـماعة من المتعممين ينادون بالأمـان وإلقاء السلاح وعود العامـة إلى أشغالهم وملازمـة أصحاب الحوانيـت حوانيتهم فـخاف الناس من ذلك وتطيروا وظنوا فـتك العسكر بهم إن هم ألقوا عنهم السـلاح فامتنعوا وتـرسوا فى الأزقة والحـارات ورجموا بعض أصحـاب الوالى بالأحجار وصاحـوا فى وجوههم فشـدد الوالى فى المناداة ورجوع النـاس إلى أشغالهم نهـارا ومراقـبة الحـوادث ليلا وجاءت الأخبار فى هذه الأثناء بقدوم الأمراء المطرودين من الأقاليم القبلية إلى جهة طرا والبسـاتين وأنهم على أهبة القـتال فركب مـحمد على باشـا فى نفر من الجند ومعـه حسن باشا وأخـوه عابدى بيك وساروا إلـى جهة البـساتين والتقـوا بالأمراء المصريين وقاتلوهم فتقهقر الأمراء وترافعـوا ثانيا إلى الصعيد فوقف محمد على باشا بمن معـه من الجند أمامهم أيامـا ثم عاد إلى القـاهرة كل هذا وأحمد باشـا المعزول

متترس بقلعة الجبل لا ينزل منها ولا يعترف بولاية محمد على باشا، وكلما سألوه فى أن ينزل زاد فى التحذر وتقوّى فى التترس، فلما كان اليوم خامس عشرى ربيع الثانى من السنة أى سنة عشرين حضر رسول من دار السلطنة ومعه مرسوم إلى أحمد باشا بترك قلعة الجبل والجلاء إلى مدينة الإسكندرية حتى يرد عليه أمر السلطان فأرسلوا إلى أحمد باشا ذلك المرسوم فأبى النزول، وقال: حتى يأتى رسول أمير المؤمنين ويشافهنى فى الأمر فصعد إليه الرسول ومازال الحال هكذا أياما والناس فى خوف من انتشاب الحرب إلى يوم الثلاثاء ثالث جمادى الأول نزل أحمد باشا من باب الجبل إلى بيت مصطفى أغا الوكيل ونزل من كان معه من الجند، ثم خرج إلى جهة باب النصر ومر من خارجه إلى جهه الخروبى وذهب إلى بولاق وأقام بمنزل السيد عمر النقيب وتسلم أصحاب محمد على باشا قلعة الجبل وأقام أحمد باشا ببولاق أياما ثم رحل عنها إلى الإسكندرية باتباعه ومتاعه وعياله فكانت مدة تصرفه سنة ونحوا من ثلاثة أشهر.

إلى هنا تم الجزء الثالث من تاريخنا الكافى ويليه إن شاء الله تعالى

الجزء الرابع وأوّله ترجمة حال محمد على باشا ثم أخبار ولايته

وأخبار من تولاها بعده من ذريته إلى وفاة

ساكن الجنان المرحوم

محمد توفيق باشا

الأول



(استلفات)

قد وقع خطأ فى نقل ترجمة حال ومدّة ولاية بعض بطاركة المتأصلين فى هذا الجزء من أيام يوحنا سادس تسعيهم إلى أيام مرقس السادس بعد المائة لتكرار أسمائهم وتشابهها وخطأ ترتيب الأوراق التى نقلنا عنها فرأينا أن ننبه إلى ذلك ونعيد هنا ترتيب أسماء وأيام هذا العدد منهم على الوجه الأصح اعتبارا من سلطنة السلطان سليمان الثانى تاركين ما جاء منها على ترتيبه الأول أى من سلطنة السلطان سليمان المشار إليه إلى سلطنة السلطان سليم الثالث ابن السلطان مصطفى بدون مساس فإنه لم يؤثر بشيء على ترتيب أيام وحوادث وأخبار الملوك والولاة والحكام الذين تجمعهم صحائف هذا الجزء ولا على ترتيب حوادث وأيام ما سبقه من الأجزاء ولله المنة والحمد، وعلى كل حال فهو خطأ أرجو أولى الفضل والأدب أن يسبلوا عليه ذيل المغفرة ويتنازلوا بقبول ما أبديه من المعذرة فقد كانت عودتى إلى خدمة وطنى العزيز وتوالى أسفارى وعدم استقرارى خصوصا فى الوقت الذى تناولت فيه أيدى الطباعين ملازم هذا الجزء حائلا دون استعادة تلاوة بعض ملازمه التى قد اعتورها هذا السهو فكانت عثرة فى أسلوب ترتيب أسماء هؤلاء الناس الذى وفقناه على قاعدة مامر بيانه إلى أيام يوحنا هذا سادس تسعيهم والعصمة لله وحده.

سلطنة السلطان سليمان خان الثانى	ومات فى أيام السلطان سليم خان الثانى غبريال بطرك المتأصلين بعد أن قام ثلاثا وأربعين سنة وقد عمر فى أيامه دير انبا انطانيوس ودير انبابولا بالجبل الشرقى من النيل بإقليم بنى سويف والبهنسا واشتد عليه الولاة والعمال فانكمش حينا وكان راهبا من دير السريان واسمه روفائيل فأقيم بعده يوحنا وهو سادس تسعيهم ووقع فى أيامه من الحوادث ما سيذكر فى محله.

سلطنة السلطان مصطفى الثانى ابن محمد الرابع .

ومات فى أيام السلطان مصطفى الثانى ابن محمد الرابع يوحنا بطرك المتأصلين بعد أن أقام خمس عشرة سنة وكانت أيامه كلها شدائد ألزمه العمال وأصحاب جباية الأموال بجمع الجزية من الأقباط فجمعها كارها حزينا واشتدوا عليه بسببها فكانت محنة كبرى قاسى الناس فى أثنائها من الجور والعسف أشكالا وبموته قام بعده غبريال وهو سابع تسعيهم واسمه شنودة من بلدة بسين وكان راهبا بدير أنبا بشوي ووقع من الحوادث فى أيامه ما سيذكر فى محله .

سلطنة السلطان أحمد بن السلطان محمد .

ومات فى سلطنة السلطان أحمد ابن السلطان محمد غبريال بطرك المتأصلين بعد أن قام إحدى عشرة سنة وكانت أيامه كلها هدوءًا وسكينة ولم يقع فيها من الحوادث شىء يذكر فأقيم بعده مرقس ثامن تسعيهم وأصله من بلدة البياضية وكان عالما ورعا تقيا محبا للخير صبورا على المكاره اشتد العمال فى أيامه على القبط شدة عظيمة فكان يكثر من التطواف بين الناس ويحضهم على الصبر والسكون حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا ومات بعد أن قام إحدى عشرة سنة فأقيم بعده يوحنا تاسع تسعيهم وأصله من بلدة ملوى بصعيد مصر وكان من الحوادث فى أيامه ما سيذكر فى محله .

□□□

سلطنة السلطان محمود خان الأول .

ومات فى سلطنة السلطان محمود خان الأول يوحنا بطرك المتأصلين بعد أن أقام عشر سنوات لم يقع فيها من الحوادث شىء يذكر فأقيم بعده متاويس المتمم للمائة وأصله من بلدة طوخ قلبث خمس سنوات أو ستا لم يقع فيها شىء يذكر ومات فأقيم بعده مرقس الحادى

بعد المائة وأصله من بلدة بهجورة بالأقاليم الوسطى من صعيد مصر ووقع فى أيامه من الحوادث ما سيذكر فى محله .

□□□

سلطنة السلطان عثمان الثالث ابن السلطان أحمد خان .

ومات فى سلطنة السلطان عثمان الثالث ابن السلطان أحمد خان مرقس بطرك المتأصلين بعد أن أقام عشر سنوات وكان حازما شديد البأس صبورا على المكاره قوىّ الحجة لم يقع فى أيامه شىء يذكر فأقيم بعده متاوس وهو الثانى بعد المائة وأصله من بلدة مير واسمه جرجس وكان راهبا بدير البراموس وكان الحوادث فى أيامه ما سيذكر فى محله .

□□□

سلطنة السلطان مصطفى الثالث ابن السلطان أحمد.

ومات فى سلطنة السلطان مصطفى الثالث ابن السلطان أحمد متاوس بطرك المتأصلين بعد أن أقام أربع عشرة سنة وفى أيامه نقل دار البطريركية من حارة زويلة إلى حارة الروم بالقاهرة وسكن بها وكان تقيا ورعا عالما فأقيم بعده يوحنا الثالث بعد المائة واسمه إبراهيم من رهبان دير أنطونيوس وكان من الحوادث فى أيامه ما سيذكر فى محله

□□□

سلطنة السلطان عبد الحميد ابن السلطان أحمد .

ومات فى سلطنة السلطان عبد الحميد ابن السلطان أحمد يوحنا بطرك المتأصلين بعد أن أقام اثنتين وأربعين سنة وكان عالما فاضلا تقيا ورعا وأعاد فى أيامه عمارة دير انبابولا ورمم مبانى بعض الديارات الأخرى وكانت أكثر أيامه شدائد وخطوبا متراكمة بعضها فوق بعض كادت بسببها تتعطل شعائر الدين لولا لطف الله فأقيم بعد موته بطرس الرابع بعد المائة واسمه مرجان من

رهبان دير انبابولا فأقام سبع سنين ومات ولم يقع فى أيامه من الحوادث شيء يذكر فأقيم بعده يوحنا الخامس بعد المائة واسمه عبد السيد من رهبان دير انبابولا ووقع فى أيامه من الحوادث ما سيذكر فى محله .

سلطنة السلطان سليم الثالث ابن السلطان مصطفى .	ومات فى سلطنة السلطان سليم الثالث ابن السلطان مصطفى يوحنا بطرك المتأصلين بعد أن أقام ثمان عشرة سنة واشتد فى أيامه على بك بلاط على المسيحيين شدّة بالغة وضيق عليهم جدا وصادر الكثير منهم ثم ضرب عليهم غرامة قدرها مائة ألف ريال فانبثت أعوانه لجمعها وقد عاثوا وأفسدوا وفعلوا ما لا خير فيه وبيعت بسبب هذه الغرامة الجواهر والأحجار الكريمة بأبخس الأثمان وبموته أقيم بعده مرقس السادس بعد المائة واسمه سمعان من دير انبابولا وأصله من بلدة قلوصنة وكان من الحوادث فى أيامه ما سيذكر فى محله.

